الزجل في المغرب

القصيدة

الدكتور
عباس بن عبد الله الجراري
أستاذ بكلية الآداب
جامعة محمد الخامس

كلمة شكر

أتوجه بها للفاضل المحترم الحاج
عبد القادر المكناسي الذي أنفق على
طبع هذا البحث فأتاح له ان يعرف النور

إلى أبي

تصدير

بقلم الدكتور عبد العزيز الاهوانى

اختلف موقف القدماء من الادب العامى وما يتصل به اختلافا يسترعى النظر . فلو بدأنا بفرع من فروع هذا الادب - يعتبر أقرب ما يكون للادب المعرب وهو التوشيح - لوجدنا ان أحد المؤلفين الاندلسيين، وهو أبو الحسن بن بسام ، يرفض أن ينقل منه شيئا فى كتابه «الذخيرة» ، على الرغم من أن ابن بسام ألف هذا الكتاب غضبا لاهل الاندلس ودفاعا عنهم ، وعلى الرغم من أن رأى ابن بسام فى الموشحات الاندلسية أنها «أوزان تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب» وحجته فى رفض هذه الاوزان أن «أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب» لذلك اسقط الموشحات من ديوانه ، ورآها خارجة عن غرض تاليفه .

ومع ذلك فقد عاش فى القرن السادس نفسه شاعر مصرى كبير ، هو ابن سناء الملك ، وقف من هذا الفن الجديد موقفا مناقضا لزميله الاندلسى ، فقد أفرد ابن سناء الملك كتابا خاصا لفن التوشيح ، هو كتابه «دار الطراز» استقبل فيه هذا الفن الاندلسى استقبالا رائعا جعله يقول : «ان الموشحات مما ترك الاول للآخر ، وسبق بها المتأخر المتقدم ، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وغادر بها الشعراء من متردم» ويمضى ابن سناء الملك فى التعبير عن اعجابه الشديد بالموشحات فيقول عنها «صار المغرب بها مشرقا لشروقها بأفقه ، واشراقها فى جوه ، وصار أهله بها أغنى الناس لظفرهم بالكنز الذى ذخرته لهم الايام ، وبالمعدن الذى نام عنه الانام .»

واذا كان موقف ابن بسام هو هذا من التوشيح الذى يستخدم اللغة العربية أداة للتعبير ، فماذا يكون موقفه من فن الزجل الذى يستخدم اللغة العامية ، والذى ينفر أصحابه من الاعراب نفورا جعل ابن قزمان يرى أن الاعراب «أقبح ما يكون فى الزجل ، وأثقل من اقبال الاجل» ؟

ومع ذلك فان أبا محمد الحجارى الاندلسى — وهو من عصر ابن بسام أيضا — قد أودع كتابه «المسهب فى غرائب المغرب» عددا ضخما من الازجال ، فضلا عن الموشحات ، نقل منها وأضاف اليها ما أضاف على بن سعيد فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» ، وكذلك ألف ابن الدباغ المالقى «ملح الزجالين» ثم ألف لسان الدين بن الخطيب «جيش التوشيح» وذكر ابن خلدون الفنين فى مقدمته ، ونقل نصوصا منهما .

وكذلك كان موقف القدماء من الامثال العامية : يفرد لها أبو يحيى الزجالى القرطبى فصلا فى كتابه «رى الاوام» وابن عاصم الغرناطـــى فى «حدائق الازاهر» ويتحاشى ذلك غيرهما مـــن مؤلفى كتب المسامـــرات والمحاضرات .

وما يقال عن فنون الادب العامى فى المغرب يقال عن نظائرها فى المشرق ، وعن مواقف مؤرخى الادب المشارقة منها . وما يقال عن المؤرخين يقال أيضا عن الادباء من شعراء وناثرين ، فمنهم من شارك فى النوعين جميعا ، ومنهم من اقتصر على الادب التقليدى أو الرسمى وحده ، ومنهم من انقطع الى الادب العامى دون سواه .

ولا شك اننا واجدون أسبابا شخصية أو فردية وراء كلا الموقفين حين نريد معرفة الدوافع التى جعلت أحد الادباء يتجه وجهة غير التى يتجه اليها الآخر . ولكن هذه الاسباب الشخصية والمواقف المتناقضة بين أصحاب الاقلام من المؤرخين والادباء ، وممن يمتلكون القدرة على التدوين والتصنيف ، لا ينبغى أن تحجب عنا القضية الكبرى .

تلك القضية هى أن عبقرية الامة ، ممثلة فى جماهيرها الغفيرة ، لابد أن تجد لها متنفسا ومنفذا للتعبير عن مشاعرها ، ولابد أن تصطنع لها

من أساليب الفنون ما تصور به ذات نفسها . فاذا ما سد أمامها باب فتحت لنفسها بابا آخر ، واذا كثرت العقبات والعراقيل فى طريق سلكت طريقا آخر ، واذا لم تجد عند الاديب المتفصح الاستجابة الكاملة لذوقها وشعورها وفهمها بحثت عن الاديب العامي والفنان الشعبى ، غير مقتصرة على فن القول وحده ، بل متجاوزة ذلك الى فنون التعبير الاخرى من موسيقى وغناء وتصوير ونحت وعمارة وزخرفة وصنائع يدوية . وكل هذه الفنون ، جملة وتفصيلا ، ميراث لهذه الامة ، يحمل فيضا من مواهبها ، ويبرز جوانب من عبقريتها ، ويظهر سمات وخصائص من حياتها الطويلة العريضة .

وقد أتى على الامة العربية حين من الدهر صار فيه أدباء العربية – لاسباب كثيرة – فى عزلة أو شبه عزلة عن مجموع الشعب . لقد أخذ هؤلاء الادباء يدورون حول أنفسهم فى نطاق ضيق خانق من الموضوعات ومن المعانى والاخيلة ، ويعنون بالصنعة اللفظية ، ويتلاعبون بالصيغ أو الحيل البلاغية تلاعبا باعد بين أدبهم وبين الحياة العامة . وهنالك اتسع المجال أمام الآداب الشعبية ، فعوضت هذا النقص بما انتجه مواهب أصحابها فى ميادين القصص والحكايات والخرافات ، وفى ميدان الشعر بأنواعه المختلفة وأساليبه المتعددة ، وكان الازدهار الذى يعرفه مؤرخو هذه الفنون ابتداء من القرن السادس الهجرى وما تلاه ، فلما عاد أدباء العربية فى نهضتهم الحديثة الى ممارسة مهمتهم الاصيلة ، والى أداء رسالتهم الثقافية الكبرى نحو أمتهم ، أخذت حواجز العزلة ترتفع ، وأخذت الصلات الطبيعية بين صاحب الفن وشعبه تعود سيرتها الاولى شيئا فشيئا ، واقتربت المسافة بين الادب الرسمي والادب الشعبى ، وأصبح الاخير مصدر الهام وإيحاء للاول ، بل اقتربت المسافة بين لغة الثقافة ولغة الحديث اليومى ، اذ ارتفع مستوى الاخيرة بانتشار التعليم وذيوع الثقافة ، ومالت الاولى الى السلاسة والمرونة وابتعدت عن التكلف والتعقيد ، وفى هذا كله ما فيه من كسب ثقافى ومن تفاعل مثمر خصب ، ومن رد الامور الى مجاريها الاصلية .

وهذه الظروف الثقافية والاجتماعية التى ردت أدباء العربية الى

مشاركة الجماهير تعبيرا وأداء فى العصر الحاضر ، هى أيضا التى جعلت المحدثين من مؤرخى الادب العربى يعيدون النظر فى تاريخ أمتهم الثقافى ، فلا يقفون بهذا التاريخ عند حدود الادب الرسمى وحده ، وانما يمدون دراساتهم الى الآداب الشعبية ، ليشعروا أبناء الجيل الحديث بأن تراثهم الادبى أكثر غنى وثراء وخصوبة وتنوعا مما كانوا يظنون من قبل ، فتعود اليهم بذلك الثقة بأمتهم وبماضيها وتراثها . هذا فضلا عن أن دراسة هذه الآداب الشعبية واجب مفترض على كل مؤرخ متى كان عارفا حدود مهنته ، صادقا فى أداء مهمته التاريخية .

* * *

وهذه الدراسة المستفيضة التى بين أيدينا للدكتور عباس الجرارى حلقة فى سلسلة طويلة لدراسات جامعية شملت كثيرا من أقطار العروبة ، نهض بها وينهض أبناء من علماء تلك الاقطار . ولقد أخذ كثير من هـذه الدراسات طريقه الى المطابع شرقا وغربا .

ولا شك أن الجهد الذى بذله الباحث جدير بكل تقدير وثناء ، وأنه به يسدى يدا الى تاريخ الثقافة العربية ، لاسيما وميدان هذه الدراسة هو هذا المغرب العربى الذى قام بدور رائع فى الادب العامى ، حيث استحدث فنين ذاعا فى الوطن العربى كله ، هما التوشيح والزجل ، بل ان اثرهما تجاوز الوطن العربى الى الآداب الاوربية فى القرون الوسطى ، فكان لهما فضل ـ يعترف به اليوم ـ على تلك الآداب .

ومطالعة هذه الدراسة وقراءة النصوص التى اشتملت عليها يؤكد لدارسى الادب العربى حقيقتين :

أما أولاهما فهى أن هذا الادب العامى قد استوعب الى حد كبيـر الثقافة العربية فى أصولها الكبرى ومنابعها الاصيلة . لقد وجد الشاعـر العامى فى القرآن الكريم وفى الاحاديث النبوية وسيرة الرسول والخلفاء من بعده معينا لا ينضب ، كما وجد فى أخبار فرسان العرب وعشاقهـم فى الجاهلية والاسلام نماذج يشيد بها ، بل اننا لنجد هذا الشعر العامى وثيق الصلة بالشعر العربى فيما يتصل بالاغراض والموضوعات من غزل ووصف

وخمريات ومديح ورثاء ، وفيما يتصل بالمعانى والصور البيانية والاخيلة وأساليب المعالجة ، فضلا عن المثل العليا المشتركة ، وذلك الى ما يضيفه هذا الادب العامى من أصالة وصدق ، ومن وثبات للمواهب تنطلق بين حين وحين هنا وهنالك ، ومن تعبير رائع عن الجماعة التى عاش فيها بكل ما لها من أحلام وآمال .

أما الحقيقة الثانية ، وهى بغير شك مرتكزة على الاولى ، فهى هذه القربى بين الادب العامى فى المغرب والآداب العامية فى المشرق ، فالدراسة السريعة المقارنة بين هذه الاشعار المغربية ونظائرها فى الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر تكشف عن تشابه لا يمكن أن يكون عرضيـــا ، وأحسب أنها لا ترتد الى مجرد الشبه الحضارى القائم فعـــلا بين هـــذه المجتمعات كلها فى ماضيها وحاضرها ، بل أعتقد أن شعراء العامية هؤلاء كانوا يتدارسون تراثا عاميا مشتركا ، وكانوا على صلة مستمرة فيما بينهم وان بعدت الدار . ولعلنا نجد مصداقا لهذا فيما ذكره ابن سعيد من أنه رأى أزجال ابن قزمان القرطبى مروية ببغداد أكثر مما رآها بحواضر المغرب ، ويؤكد هذا أيضا العناية الفائقة التى خص بها صفى الدين الحلى زجالى المغرب فى كتابه عن الفنون العامية المسمى «العاطل الحالى» .

وكم كنت أتمنى أن يبذل الدكتور عباس الجرارى جهدا آخر فى الكشف عن صلة هذا الشعر المغربى بالشعر العربى ، وفى مقارنته بالشعر العامى المشرقى ، ولكن من الحق أن يقال اننا لا نزال اليوم فى مرحلة الجمع والدراسة فى نطاق البيئات الخاصة . حتى اذا قطعت أشواط فى هذه المرحلة جاءت المرحلة التالية : مرحلة المنابع والدراسات المقارنة . وحسبنا أن نجد هؤلاء الدراسين من أولى العزم فى كل قطر عربى لنطمئن الى أن ما نطمح اليه من دراسة شاملة مقارنة سيجيء حتما ، وفى وقت قريب ، وأملنا فى صاحب هذا البحث وزملائه كبير .

القاهرة فى مارس 1970

بسم الله الرحمن الرحيم



لكل امة تراث هو عنوان شخصيتها الوطنية يعبر عن قدرة عقليتها ، ويحدد مدى عبقريتها ، ويكشف عن قوة ارادتها ويبرز طابعها القومي الاصيل في مجالى الحضارة والثقافة . وقد مضى زمن غير يسير كان الناس - عامة وخاصة - يظنون ان هذا التراث لايتمثل فى غير ما الف العلماء من كتب تحويها بطون الخزائن والمكتبات ، وفيما اقامت الاجيال خلال حقب التاريخ من آثار لم يتلفها توالى العصور والازمان ، ويغفلون جانبا من التراث ، لعله لايقل عن هذين الجانبين فى توضيح معالم كيان الامة وملامح وحدتها وابراز مقوماتها وقيمها ، ان لم يكن اكثر منها عكسا لروحها القومى وذاتيتها الجماعية ، وهو الجانب الممثل فى الآداب والفنون التى صدرت عن الشعب فردا وجماعة ، متخذة وسيلتها فى التعبير الوانا من القول والكلام والنغم والايقاع والحركة والاشارة والرسم والتشكيل .

وانطلاقا من هذه الحقيقة بدأنا نهتم بالتراث الشعبى فى المغرب ، نحاول جمعه ودراسته ، فألفينا مادته متنوعة غزيرة ، وهى على تنوعها وغزارتها تنقرض وتضيع فى غمرة التيار الحضارى الجديد الذى بهر الناس بريقه فجعلهم يدوسون هذا التراث ، جاهلين او متجاهلين انهم يدوسون فيه مقومات ثقافتهم الوطنية ومظاهر حضارتهم الاصيلة .

وكانت رغبتنا ملحة واكيدة حين عزمنا على اختيار موضوع لرسالة الماجستير ، ان نتناول جانبا من الادب الشعبى ، وهو أدب يغرينا ويجذبنا اليه فنحس له ميلا غير قليل ، فقد رافقنا رفقة عمر منذ عرفناه ترنيما فى

المهد ، لاندركه ولا نعيه ، الى ان طربنا له واعين روعته ومدركين جماله ، فأحببناه وغدونا من حبه نشعر بمزاج متجاوب معه ومنسجم بالطبيعة والسليقة دون ماتكلف او تصنع · ولكننا لم نحس الجرأة على مواجهة الجمهور المثقف المغربى بمثل هذه الدراسة ، لاسيما بعد تجربة سابقة عانينا فيها الكثير وكنا قد نشرنا (1) بحثا مسلسلا عن «الفولكلور» ·

عدلنا فى الماجستير عن الادب الشعبى وسجلنا موضوعا فى الادب المغرب المغربى ، متصلا بعهد الموحدين ، ادرنا دراسته حول الشاعر الامير ابى الربيع سليمان الموحدى ، ولكنا وعدنا نفسنا بضرورة انجاز بحث الدكتوراة فى احد فروع التراث الشعبى ·

وهانحن نفى اليوم بهذا الوعد حيث نقدم اطروحة جعلنا موضوعها لونا من الادب الذى اتخذ اللهجة العامية اداته ·

وتعتبر هذه الاطروحة خلاصة جهود متواصلة فى الاعتناء بهذا الجانب من التراث الشعبى أكدت لنا الدوافع التى كانت حافزنا الى الاقبال عليه ، وهى :

1 ـ ان الادب الشعبى صورة للشخصية الوطنية ، مهما كانت باهتة فهى اوضح من الصورة التى يعكسها الادب المدرسى المثقف ·

2 ـ ان دراسته تعزيز لاقليمية الادب وتقرير لمذهبه الذى نؤيد الداعين له منهاجا للكشف عن ادب الاقاليم العربية المختلفة وسبيل الامة العربية الى لم شتات ادبها المبعثر المجهول ·

3 ـ ان الادب اشعبى مكمل للادب المدرسى وان من شأن دراسته ان تساعد على الربط بين الادبين واجتياز الهوة الكبيرة التى تفصل بينهما ·

❀ ❀ ❀

وقد صادفنا فى انجاز هذه الرسالة **متاعب ومصاعب**، بعضها يتصل بموقف المثقفين فى المغرب من الادب العامى ، واغلبها يتصل بمصادر الدراسة اما موقف المثقفين فواجهنا فيه انكارا مطلقا علينا ان نتخذ الزجل

---

(1) فى مجلة «دعوة الحق» وفى ثلاث حلقات ابتداء من عدد نوفمبر 1962 (السنة السادسة)

موضوعا لرسالة جامعية ، وحاول كثير من الباحثين الاصدقاء تحويل فكرنا عنه واغراءنا بموضوعات في الادب المعرب المغربي او بـمـا يرونه التراث الحقيقي الاصيل . وهم في هذا بين عدم معتبر للآداب والفنون الشعبية من التراث ، لايتمثل قيمتها ولايراها جديرة بالبحث ، وبين معترف بها ومقتنع بجدية الدراسة التي ندير عليها ، ولكن يراها تستهدف التسلية والترويح وتاتي بذلك في المرتبة الثانية بعد التراث المدرسي ، لايعدو الاهتمام بها أن يكون ترفا للعقل وترفيها عن النفس ، وآخر يرى ان العامية اثر مـن بقايا فترة التأخر والانحطاط ورواسب عهد الاستعمار ، وان الاعتناء بـهـا يعرقل سير التعريب الذي يسعى المغرب الى تحقيقه ، وانه لايمثل غـيـر حركة رجعية هدامة تتستر خلف المحافظة على الآداب الشعبية .

ولعلنا ان نؤكد لهؤلاء جميعا ان الادب الشعبي جزء ركين من التراث وأنه تعبير عن مقومات الشخصية الوطنية والذاتية الجماعية ، وان الاهتمام به اهتمام بهذه الذاتية وتلك المقومات ، وانـه لو لم يكن كذلـك ما حاول الاستعمار ان يعنى ببعض جوانبه ليتسنى لـه ان يتسرب مـن خلالها الينا ليفهم عقليتنا ويدرك اعماق ثقافتنا واصول حضارتنا لينسفها من الاساس

ونحن مع استاذنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس نخطىء مـن يتصور ان الآداب والفنون الشعبية «تستهدف التسلية والترويـح عـن النفوس المكدودة بعد عمل النهار الطويل تلتمس لها المواسم وتنتخب لها اماكن التجمع . ان التسلية والترويح وظيفة ثانوية ، اما الوظيفة المحورية فقومية على الدوام تطلب المحافظة على ذات الفرد العزيز في امته وتطلب المحافظة على الجماعة كلها في آن واحد (1)» .

ولعلنا ان نؤكد كذلـك ان العامية ليست مظهرا مـن مظاهر اللغـة الفصحى في صورة منحطة متأخرة ، وانها مزيج مـركب مـن العربية كما وفدت الى المغرب ومن اللغة المحلية يومئذ ونعني بها البربرية ، وانالعربية التي وفدت لم تكن الفصحى وحدها وانما كانت معها لهجات عربية قبلية ،

(1) من المقال الافتتاحي لمجلة (الفنون الشعبية) بعنوان «المأثورات الشعبية» العدد الاول السنة الاولى 1965

وان الصراع اللغوى الذى دار فى المغرب لم يكـن بين الفصحى والبربريـة وانما بين هذه ومختلف اللهجات التى كان يتكلم بها العرب الوافدون .

ومن هنا — واذا ما تهيأت دراسة اللهجات العربية فى كل الاقاليم — أمكن التعرف الى صفاتها وخصائصها والـى مابها مـن عناصر أصيلة ، واتضحت بالتالى كثير من ظواهر اللهجات العربية القديمة ، بل اذا ماتهيأت هذه الدراسة سهل تحديد مناطق التقريب بين العاميات وتوحيدها وسهل كذلك تطوير الفصحى وامدادها بكثير من الجديد .

ولعلنا ان نؤكد بعد هذا حقيقة أخطأ فى ادراكها من كان يتصور ان الاستعمار كان يحاول القضاء على الفصحى لحساب العامية ، فمن المؤكـد انه كان يقصد الى محوهما جميعا ليحل لغته وينشرها اداة للتخاطب والفكر على السواء . ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لم يعد يخشى على الفصحى ان يقضى عليها او تزول بعد ان عادت سيادة الوطن العربى الى ابنائه ، فاللغة العربية الفصحى هى الرباط الجامع لشمل العرب وعماد قـوميتهم وعنوان وحدتهم ، وهو واقع لاينكره الا الجاهلون والمعاندون ومـن بقيت فى نفوسهم وأفكارهم رواسب الاستعمار ، ولكنه انكار لايؤثـر على هـذا الواقع فى شىء .

وحقيقة اخرى فى نفسنا نرجو ان نصرح بها للذين يرفضون دراسة الزجل خشية على العروبة ولغتها ، وهى ان اتخاذ المغاربـة للهجة عـامية عربية اداة للتعبير الشعرى دليل واضح وقاطـع على عـروبتهم وحيويتهم وحبهم للغة العربية ، ولكن حذار الظن بأنا ندعو لها لغة للفكر ، فهى قاصرة وعاجزة عن ان تتعدى نطاق ذلك التعبير . ثم اننا فـى غنى عنها بلغتنا الفصحى التى يتوفر لها من الامكانيات مايجعلها قادرة على استيعاب كـل جديد .

واما المصادر فعلى اربعة انواع :

1 — الابحاث التى تتصل مباشرة بالدراسة ، وهى جد قليلة لاتتعدى بضع مقالات . وكان قد ذكر لنا الاستاذ محمد الفاسى انه مهتم منذ خمس وثلاثين سنة بوضع عروض للشعر الملحون المغربى فاعتبرناه بذلك

رائد البحث في الادب الشعبي ، وسألناه اكثر من مرة ـ بالاتصال الشخصي والوسائط والرسائل ـ ورجوناه والححنا في الرجاء عساه يمدنا بما قد يفيد ، ولكنه كان ابدا يردنا ويصدنا مهولا لنا امر هذا الادب ، بخيلا علينا بما قد يكون جمع من نصوصه او كتب عنه ، وشحيحا حتى بالكلمة الطيبة، تنير لنا الطريق أو تبعث التشجيع في نفسنا على الاقل ٠

2 ـ الاشياخ : سواء منهم الشعراء أو الرواة ٠ وقد اتصلنا في مختلف المدن المغربية بعدد منهم غير قليل ، وكان اعتمادنا عليهم كليا في التعرف الى الزجل والزجالين ، ولكنا وجدناهم يختلفون في العلم الى حد التناقض في بعض الاحيان ، ويروون اخبارا اقرب الى الخوارق والخرافات منها الى الحقائق ٠ وكان علينا ان ننظم مانأخذ عنهم من معلومات واخبار ، فوضعنا فهرسين بالجذاذات احدهما خاص بالزجل والثاني بالزجالين مرتب ترتيبا تاريخيا ٠ وكان علينا بعد هذا ان نصفي ما نأخذ عنهم من معلومات ونغربلها وننسق فيما بينها ٠ ومع اننا وجدنا في ذلك مشقة وصعوبة ، فقد تمكنا في النهاية ان نصل الى تحديد مقاييس الزجل وقواعده والتأريخ له ٠

3 ـ **النصوص الزجلية وتتمثل في :**

أ ـ النصوص المطبوعة : وهي جد قليلة لاتتعدى ديوانا صغيرا وبضع قصائد متفرقة ٠

ب ـ النصوص المخطوطة : تتضمنها مجموعة الكنانيش التي وقفنا عليها في المكتبات العامة والخاصة ٠ ونسجل هنا اننا لم نتمكن من الاطلاع على مجاميع الخزانة العامة المرقمة في حرف د : 474 ـ 1426 ـ 1504 1535 ، وقد تبين لنا بعد البحث الطويل عنها انها اخرجت من الخزانة وانها في حوزة الاستاذ الفاسي ٠ وخاطبناه في ان يسمح باطلاعنا عليها ولكنه لم يستجب ٠ كذلك سألناه اكثر من مرة ان يمدنا ببعض القصائد وخاصة قصيدة ـ المصرية ـ وهي قصيدة طويلة لايحفظها الاشياخ كان قد نظمها محمد بن علي العمراني في احتلال بونابارت لمصر ٠ وكنا سألناه عنها فأخبرنا انها مدونة لديه ٠ وطلبنا منه ـ شفاها وكتابة ـ ان يطلعنا

عليها او على جزء منها ولكنه للاسف لم يفعل ٠

ج — النصوص المروية وقد جمعنا منها عددا غير قليل بواسطة التسجيل الصوتى والتدوين الكتابى سواء من الاذاعة أو من أفواه الشعراء والمنشدين ٠ وقد لاحظنا ان الاذاعة لاتتوفر الا على عدد قليل من القصائد بسبب حداثة عهدها بنظام التسجيل الصوتى ، كما لاحظنا ان محفوظات الاشياخ تدور فى نطاق عدد معين من القصائد لاتخرج عما يرغب الجمهور فى الاستماع اليه ، بل ان تقرير جمعية — هواة الطرب الملحون — بمراكش لسنة 64—65 يثبت ان محفوظ اعضاء الجمعية — منشئين ومنشدين وهواة — لايتعدى سبعا وتسعين ومائة قصيدة ، وان اكثر الشعراء حظا وهو التهامى المدغرى لايحفظ له اكثر من اثنين وثلاثين قصيدة ٠ ويثبت تقريرها للسنة التالية ان عدد الاشياخ الذين انشدت اشعارهم لايتعدى الخمسين ٠

ولم يكن سهلا علينا ان نفهم هذه النصوص ، وخاصة منها المدونة ، بسبب تطور اللهجة وعدم معرفتنا بمعانى كثير من الكلمات وكيفية النطق بها وطريقة قراءة البيت بما يقيم الوزن ٠ وحتى بالنسبة للنصوص الملفوظة فقد كان الامر غير يسير ، اذ ان الحفاظ يختلفون فى نقل النص الواحد ، وغالبا مايروونه محرفا غير صحيح الا من كانوا منهم عارفين بالفن مدركين لمقاييسه ، ومثل هؤلاء يحاولون التصرف فى النص بالتبديل والاصلاح ٠

وكان احساسنا بهذه الصعوبة قويا حين حاولنا — مجتهدين فى الغالب — ان نضبط النماذج التى اوردنا ونشكلها لتسهل قراءتها ويقرب فهمها (1) ولنفس الغاية حاولنا كتابة النصوص حسب نطقها او بالاحرى حسب النطق الذى اهتدينا اليه ، بالاضافة الى اننا قدمنا شروحا لما رأيناه غامضا من الكلمات والتراكيب ، والى اننا لجأنا فى باب الموضوعات الى نثر ما استشهدنا به من نصوص ٠

4 — ماكتب بالعربية او غيرها فى الموشحات والازجال واللهجات والتاريخ والتراجم والآداب ٠ وقد حاولنا ان نقف فيها على تجارب الآخرين وخبراتهم العلمية والعملية عسانا نستخرج منها بعض ما قد يساعدنا فيما

(1) الاسف شديد اننا لن نتمكن من اثبات الشكل فى هذه الطبعة لان الحروف المستعملة فى الطباعة بالمغرب لاتتيح ذلك ٠

نحن بصدده من دراسة لموضوع بكر جديد . وقد اتيح لنا خلال الرحلة العلمية التي قمنا بها لتركيا واسبانيا ان نقف في خزائن اسطنبول ومدريد والاسكوريال على مصادر انارت لنا بعض مسالك السير . وكان املنا ان نجد في مصادر الآدب المغربي القديمة بعض النصوص الزجلية ، ولكننا وجدنا المؤلفين يعرضون عن ايرادها بل حتى عن ايراد الموشحات على حد مايقول عبد الواحد المراكشي متحدثا عن عبد الملك بن زهر : واما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها ، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجرى كل من بعده اليها ، هو آخر المجيدين في صناعتها ، ولولا ان العادة لم تجر بايراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لاوردت له بعض مابقي على خاطري من ذلك» (1)

* * *

وكان **المنهاج الذى سرنا عليه فى البحث** هو نفس المنهاج الذى ندعو له فى دراسة كل ادبنا وتراثنا عامة ، ويتلخص في اربع مراحل ، يحتاج انجازها ــ كلها او بعضها ــ الى جهود فردية وجماعية تعمل فى تكتل وتناسق وتكامل ، وهى :

1 ــ التعرف الى المصادر والتعريف بها بوضع فهارس لمخطوطات الخزائن العامة والخاصة .

2 ــ اخراج النصوص مجردة أو محققة ان امكن .

3 ــ دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية تقوم على الوصف والتقرير

4 ــ دراستها دراسة نقدية ومقارنة .

فقد بدأنا بحصر مصادر الزجل الموجودة فى كل المكتبات العامة وبعض الخزائن الخاصة ، بالاضافة الى ما سجلناه من الاذاعة وافواه الاشياخ ، وتجمع لنا من ذلك نحو الف نص ، منه مايقرب من ربعه مكرر ، ولكن تكراره اتاح لنا مقابلة بين النصوص التى وقفنا منها على اكثر من نسخة . وقد صنفنا هذه النصوص ووضعنا لها فهارس على هذا النحو :

---

(1) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 92 مطبعة الاستقامة ــ القاهرة سنة 1949

اولا : فهرس لكل مجموع او كناش ·

ثـانـيـا : فهرس بالجداذات للقصائد مرتب حسب الموضوعات ·

ثـالـثـا : فهرس للقصائد مرتب حسب الشعراء ·

رابـعـا : فهرس للقصائد المنشدة ·

خامسـا : فهرس للقصائد التى لم نهتد لاصحابها ·

سادسا : فهرس للقصائد التى يروى الحفاظ المغاربة لبعض زجالـى الجزائر ، وكانوا فى معظمهم كثيرى التردد على المغرب والاتصـال بأشياخه وجماهيره ·

وفى كل من هذه الفهارس اشرنا الى عنوان القصيدة ولازمتها واسم صاحبها ومرجعها وكذلك اسم المنشد ومدة الانشاد بالنسبة للقصائد المسجلة بالصوت ·

بهذا التحديد للمصادر وتسهيل الرجوع اليها فيما نظمنا من فهارس، **مهدنا السبيل امام الذين يرغبون فى اخراج النصوص ونشرها** ، وما كـان فى استطاعتنا أن نقوم بذلك ونحن بصدد انجاز الـرسالـة لاسيمـا وأن عددها كثير · لهذا حاولنا ان نمثل اثناء الدراسة بنماذج متعددة ومختلفة من النصوص وخاصة فى باب الموضوعات · وقد كان فى نيتنا ان نقتطف منها مختارات نلحقها بالرسالة ، ولكننا اعتبرنا الحاق ـ دليل للزجـل ـ أهم من الحاق مختارات · والامل عندنا ـ اذا ما أتيحت لنا فرص النشر ـ ان نخرج هذه النصوص سواء فى مختارات او فى دواوين بالنسبة للشعراء الذين تجمع لنا من قصائدهم عدد كثير ·

ورأينا ان تكون دراستنا للزجل وصفية تسجيلية نقصد منها فـى المقام الاول الى التعريف بالزجل تقريرا وتحليلا ، دون محاولة لمقارنتـه بالادب المعرب او ادب اللهجات العامية الاخرى ، وهى طريقة تتفق والمنهاج الذى فرض نفسه علينا بعد ان خططناه والذى اقتضى منا فى هذه المرحلة من الدراسة ان نركز على الوصف والتقرير والتحليل ، وهى مرحلة نراها ضرورية فى الكشف عن اى ادب مجهول · وعسى ان نوفق فى المستقبل الى القيام بدراسة مقارنة يكون اساسها ما أمكننا حصره من الوان الشبه بين

الزجل المغربى والزجل الاندلسى او بينه وبين الادب المعرب وما أشار بـه علينا استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانـى اثناء اشرافـه علـى الرسالة وتتبعه لمراحلها المختلفة .

وما نقوله عن الزجل نقوله كذلك عن لغته ، فقد حاولنا مـن خـلال البحث ان نتعرف اليها حيث سجلنا بعض ظواهرها وخصائصها فى محاولة أولية للوصف بعيدا عن مقارنتها بغيرها مـن اللهجات والحكم عليها بـأى لون من الوان الحكم أو محاولة استنباط قواعدها وقوانينها التى خضعـت لها . وقد احسسنا فى المحاولة البسيطة التى قمنا بها فـى هذا المجال أن أمر المرحلة الوصفية ليس باليسير ، يحتاج انجازه الى لجان من المتخصصين لا الى فرد او مجموعة أفراد ، وأنه متى تهيأ انجاز هذه المرحلة امكن تقديم مادة أولية لدارسى اللهجات وعلمها المقارن .

❀ ❀ ❀

واقتضى منا منهاج البحث ان نقسم الدراسة الى مدخل وثلاثة ابواب وان نشفعها بملحق :

المدخل : القصيدة الزجلية والغناء الشعبى .

استعرضنا فيه مختلف انواع الغناء فى المغرب وتناولنا القصيـدة الزجلية كلون من اهم الوان هذا الغناء ومايقوم عليه انشادها مـن نـوبات الموسيقى الاندلسية وميازينها ، وما يصاحب هذا الانشاد من آلات وكيفية ادائه . وناقشنا شعبية الزجل شعرا وغناء ، واثبتناها على الـرغم من ان جمهوره لم يكن محصورا فى العوام ، وعلى الرغم مـن انا نعرف اسماء منشئيه ، ومن ان بعض قصائده مدونة .

الباب الاول : الشكل

ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الاول : مفهوم الزجل وانواعه

وهو جزءان

1 ـ مفهوم الزجل .

اوضحنا فيه مدلول كلمة الزجل سواء فى اللغة او الاصطلاح الادبى ،

وعللنا لاطلاقنا هذه الكلمة على الادب الشعبى المغربى بدلا من تسميات أخرى كثيرة يعرف بها عرضناها كذلك .

2 ـ انواع الزجل

تناولنا فيه اهم انواع الزجل المغربى بعد ان بينا اننا سنقصر البحث على نوع واحد منها وهو القصيدة المنظمة التى يعرف منشئها .

الفصل الثانى : اللغة والفنية .

جعلناه خمسة اقسام :

1 ـ مواحل التعريب : تحدثنا فيه عن الظروف والعوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى المغرب منذ الفتح الاسلامى حتى عهد الموحدين الذى اعتبرناه آخر مرحلة شهدت تمام استعراب المغاربة .

2 ـ نشأة العامية : تناولنا فيه طبيعة اللهجات وأسباب نشأتها وأوضحنا ان العربية حين وفدت الى المغرب لم تكن معربة ونقية كما قد يظن وأنها كانت تتمثل فى الفصحى لغة القرءان وفى لهجات الفاتحين القبلية ، واوضحنا كذلك ان الصراع اللغوى فى المغرب لم يكن بين البربرية ولغة القرءان وانما كان بينها وبين لهجات الفاتحين .

3 ـ خصائصها : جعلناها على نوعين :

أ ـ خصائص عامة تشمل اللهجة الدارجة المنتشرة فى اهم المدن والمناطق المغربية .

ب ـ ظواهر خاصة بلغة الزجل كما طورها الزجالون وطوعوها لتعبيرهم الفنى .

4 ـ جوانب بلاغية : عرضناها بعد ان بينا أن البلاغة قد تكون فى الشعر المعرب والعامى على السواء ، وتتمثل عند الزجالين المغاربة فى :

أ ـ التجنيس أو الجناس .

ب ـ التصريف وهو ان يتصرف الشاعر فى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها

ج ـ التضمين أو التلزيم وهو أن يجعل القافية على اكثر من حرف

د ـ النشب وهو أن يستهل الشاعر الشطر بكلمة أو بكلمتين من

الشطر الذى قبله والبيت بشطر من البيت السابق عليه ٠

هـ ـ استخدام نوع معين من الكلام كأن ينظم الشاعر قصيدة كـل حروفها مهملة او كأن يلتزم بدء كل بيت من قصيدته او انـهـاءه بكلمات معينة ٠

ز ـ فنية الاسلوب ـ وتتمثل فى :

أ ـ التشبيه والمقارنة ٠

ب ـ الحركة والحيوية والتشخيص ٠

ج ـ الحوار ٠

د ـ القصـة ٠

هـ ـ الرمز ٠

كما اضفنا اليها بعض اللمحات النقدية التى لاحظناهــا على لسان الاشياخ سواء منها ما يتصل بالشعر أو الشاعر ٠

الفصل الثالث : العروض

ويتكون من ثلاثة اجزاء :

1 البـحـور

ناقشنا فى اول هذا الجزء مايقال من ان بحور القصيدة الزجلية غير محدودة ومايقال كذلك من انها محدودة فى نطاق عروض الخليل ، وانتهينا الى ان هذه القصيدة لاتسير على تفعيلات هـذا العروض فـى تناسقـهـا المعروف ولا تخضع لاوزانه ، وان كانت لاتبتعد عن ايقاعه ٠ ثم فصلنا القول فى البحور التى تعارف عليها الزجالون ، وهى :

أ ـ المبيت : وينقسم الى المثنى والثلاثى والرباعى والخماسى ٠

ب ـ مكسور الجناح ٠

ج ـ المشتب ٠

د ـ السوسى ٠

2 ـ بناء القصيدة :

ويتكون مـن :

أ ـ مقدمة يطلق عليها السرابة ٠

ب ـ اجزاء القصيدة ، وهي :

1 ـ الدخول ٠

2 ـ الحربة (اى اللازمة) ٠

3 ـ الاقسام (من حيث عددها وعدد الابيات داخل كل قسم)

ج ـ مقدمات الاقسام ، وتتمثل فى :

1 ـ العروبى ٠

2 ـ النواعر ٠

د ـ القسم الاخير : ويضمنه الشاعر اسمه ـ تصريحا او رمزا بالحروف والارقام ـ وتاريخ النظم واهداء السلام والصلاة والدعاء وهجاء الخصوم ٠

هـ ـ الدريدكة : وتتضمن ـ حين توجد ـ مايتضمنه القسم الاخير فى العادة ٠

وختمنا هذا الجزء بمنوذجين يوضحان البناء : احدهما من المبيت والثانى من مكسور الجناح ٠

3 ـ نظام القافية :

تناولنا فيه :

أ ـ براعة الشاعر فى التقفية ، وتتمثل فى نظم القصيدة كلها بقافية واحدة وفى استعمال قوافى داخلية فى الابيات ٠

ب ـ القافية فى الاقسام حيث تتبعنا نظامها فى مختلف البحور ٠

ج ـ القافية فى المقدمات ٠

د ـ القافية فى الدريدكة ٠

هـ ـ عيوب القافية ، وتتمثل فى :

1 ـ القوافى الصيادية وهى التى لاتستوحى حرفها من موضوع القصيدة

2 ـ اتخاذ الهمزة قافية ٠

3 ـ الخلط بين الحروف المتشابهة المخرج ٠

الباب الثانى : الموضوعات

ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الاول : المرأة

عرضنا فيه لاربعة جوانب :

1 ـ المحبوبة : يمثل هذا الجانب نظرة الزجال المغربي للمرأة وافتتانه بجمالها كما تهواه نفسه وليس كما هو في الواقع ، فجاءت بذلك الصورة التي رسم لها نموذجا لاتختلف ملامحه من شاعر لآخر ٠

2 ـ المحب : تتبعنا في هذا الجانب حال الشاعر في معاناته من حب المرأة ، ضعيفا ذليلا يقاسي مختلف ألوان العذاب ويسعى للوصول اليها بشتى الوسائل ٠

3 ـ الحب : ويبدو تمثل المحب له قويا طاغيا ومتجبرا لايقوى على مواجهته ٠

4 ـ ملاحظات ، تناولنا فيها :

أ ـ تغزل الشاعر في النص الواحد بأكثر من امرأة واحدة ٠

ب ـ التغزل بالمذكر ٠

ج ـ الرمز بالغزل في المرأة الى معنى سامي ٠

د ـ مدى صدق الشاعر في غزله ٠

الفصل الثاني : في الحياة

حددنا فيه نظرة الزجال المغربي للحياة في جانبيها الحسي والتجردي:

1 ـ الجانب الحسي : ويمثل ابتسامه للحياة واستمتاعه بملذاتها ، وتناولنا فيه :

أ ـ اقباله على الخمر ٠

ب ـ افتتانه بالكون والطبيعة ٠

وختمناه بملاحظة عن شعر الفكاهة ٠

2 ـ الجانب التجردي : وجعلناه عن «الزهد والحكمة» ٠ فقد عبر بهما الشاعر عما يعتمل في نفسه من برم وضيق بحال الدنيا وسلوك المجتمع ومايعلل به للوقائع والاحداث في استسلام لقضاء الله وقدره وعما يراه وعظا ناجعا للناس عساهم يحسنون سلوكهم ويقتنعون بأن الدنيا ليست غير دار عبور لايغتر بها الا مغفل مجنون ٠

3 ـ وذيلنا الفصل بملاحظات عن :

أ ـ مدى اتصال الزجال المغربي بالحياة في ابسط مظاهرها واصغر مشاكلها ·

ب ـ لجوئه في الوعظ الى أسلوب الخطاب يوجهه لنفسه او لغيره ·

ج ـ تخصيصه قصائد للتذكير بعظمة الله وقدرته بقصد تنبيه الغافلين المتهافتين على الدنيا ·

الفصل الثالث : مع الناس

تناولنا فيه :

1 ـ المدح : وهو فن لم يعن به الزجال المغربي لما احس فيه من فتور العاطفة وتكلف التعبير وزيف الدوافع وخلوه نتيجة ذلك من امتاع الذهن والشعور ·

2 ـ الرثاء : وهو كالمدح لم يقبل على النظم فيه ، بل انه كان اكثر منه عرضة للضياع لعدم مناسبة موضوعه للانشاد والترديد ·

3 ـ الهجاء : وكان من اكثر الموضوعات التى الهبت قريحة الشاعر وجذبت المنشد والجمهور لما يبدو فيه من صدق الدافع وانطباع شخصية صاحبه عليه ولما يترك في نفس السامع من احساس بالمتعة وهو يشاهد عروض المنافسة · ويلحق به الفخر و «السولان» وهي قصائد في السؤال والالغاز ، والخصام او «المحاورة» وهي قصائد في المفاخرة والمنافرة ·

والحقنا بهذا الفصل ملاحظة عن مدى ولوع الشاعر الشعبي بفن الخصام ، اذ لم يقصره على الاشخاص فقط ، وانما تخيله كذلك في النبات والحيوان والجماد وبعض مظاهر الكون ·

الفصل الرابع : في حمى الله والرسول

تتبعنا فيه مع الشاعر الشعبي حبه للرسول عليه السلام واستعراضه لاوصافه وشمائله وجوانب من سيرته كالمولد والوفاة والمعراج ، وماخصه به من صلاة · وهو في ذلك لايسعى الى غير زيارة قبره والفوز بشفاعته يوم القيامة ، وهي غاية جعلته يتحدث عن هول هذا اليوم وعن شوقه والحنين

الى البقاع المقدسة . ثم انه لايلبث ان يكشف عن حال ضعفه ورجائه الملح فى ان ينقذه الله ويعفو عنه متخذا وسيلة اليه او الى رسوله الكريم وساطات مختلفة من الاشراف والاولياء يتوسل بهم ويمدحهم كذلك .

وختمنا الفصل بملاحظة عن العشق الالهى الذى يكاد لايوجد الا نادرا وعند بعض الزجالين المتصوفين .

الباب الثالث : الاعلام

قصدنا منه الى التعريف بتطور القصيدة الزجية من خلال التعريف بأعلامها ، وجعلناه ثلاثة فصول تمثل ثلاث مراحل :

الفصل الاول : مرحلة النشأة

وجعلناه جزءين :

1 ـ اسماء ونصوص قديمة .

استعرضنا فيه بعض الاسماء والنصوص التى امكننا العثور عليها منذ عهد الموحدين فى اوائل القرن السادس حتى عهد المرينيين قبيل منتصف القرن التاسع الهجرى .

2 ـ الاصول الاولى للقصيدة الزجلية .

حاولنا فيه ـ استنادا الى ما اهتدينا له من اسماء ونصوص ـ أن نرى ان كانت القصيدة الزجلية المغربية امتدادا للزجل الاندلسى أم محاكاة مباشرة لفن التوشيح كما عرفه المغاربة ام تأثرا بشعر اهل الامصار العرب الوافدين الى المغرب أم استمرارا لعروض البلد الذى استحدثه أهل المدن بالمغرب أم تطورا للاغانى والمرددات الشعبية المحلية ؟ وانتهينا الى ان هذه الاغانى والمرددات هى الاصل الاول للقصيدة وانها قد تكون حاكت عروض البلد وتأثرت بأشعار العرب الوافدين وخاصة منهم الهلاليين وحلفائهم ، ثم بالزجل الاندلسى فيما بعد حين انتقلت من البيئات الشعبية الصرف الى بيئات راقية

الفصل الثانى : مرحلة التطور .

بدأت قبيل منتصف القرن التاسع على يد عبد الله بن احساين وامتدت زهاء ثلاثة قرون حيث وقفنا بها عند المصمودى فى اوائل القرن

الحادى عشر • وهى مرحلة كانت القصيدة الزجلية تكتسب خلالها كثيرا من الجديد وتحاول احراز كيانها الذى ستستقر عليه سواء من حيث الشكل أو المضمون •

ولاحظنا فى ختام الفصل ان هذه المرحلة توقفت ، وان توقفها دام زهاء قرن ونصف ، وملنا فى تعليل ذلك الى اهمال الحفاظ لرواية ازجال المغاربة واقبالهم على ازجال الشعراء الجزائريين الذين وفدوا الى المغرب فى هذه الفترة ، وكانت لهم مكانة فى الدولة • وخاصة منهم سعيد التلمسانى • كما لاحظنا ظاهرة انتشار الزجل فى بيئة المتصوفين المغاربة

الفصل الثالث : مرحلة الازدهار •

بدأت على عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى ، وتجدد ازدهارها فى الربع الاخير من القرن الثالث عشر على عهد سيدى محمد بن عبد الرحمان الذى كان بدوره من الزجالين • وكان آخر بريق لنهضة الزجل فى هذه المرحلة فى اوائل القرن الحالى ايام السلطان المولى عبد الحفيظ الذى كان من كبار علماء عصره وزجاليه •

وتعتبر هذه الفترة من اخصب فترات الزجل لكثرة مانبغ فيها من الشعراء ، وقد حاولنا ان نستعرض أعلامهم الذين أتيح لنا ان نهتدى الى بعض اخبارهم وأشعارهم ، فبدأنا بالجيلالى امتيرد ، وختمنا بالحاج محمد العوفير • وذيلنا الفصل باستعراض لاسماء كثير من الزجالين المعاصرين مرتبة حسب مدنهم ، ولاحظنا ان الزجل عند هؤلاء تجمد فى صور ونماذج تقليدية بعيدا عن أية محاولة للتعبير عن الاحساس الذاتى والتكيف مع روح العصر بله التطوير والتجديد •

ملحق :

وقد ارتأينا ان نذيل الرسالة بدليل ضمناه جميع الفهارس التى سبق أن أشرنا اليها (1) •

وبعد ، فلسنا نزعم اننا قلنا جميع مايمكن قوله فى الموضوع ولا اننا

---

(1) نأمل نشره على حدة ان شاء الله •

أتينا بالقول الفصل فيه . وحسبنا اننا فتحنا بابا جديدا للبحث الادبى فى المغرب ، واننا بذلنا فى سبيل ذلك جهدا يشهد الله أنه كان مخلصا ومتواصلا. وأملنا ان يجد الدارسون من زملائنا الشباب فى هذه الرسالة مايغريهم بمواصلة البحث من أجل احياء التراث بجميع أنواعه ، وأن يجد فيها المسؤولون عن جامعة محمد الخامس مايقنعهم بضرورة ادراج ادب المغرب الشعبى فى مقررات كلية الآداب الى جانب أدبه المعرب الذى نتحمل عبء تدريسه بها .

وواجب علينا ان نزجى الشكر جزيلا الى أستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى الذى كان لاشرافه ما انار لنا السبيل وشجعنا على المضى والاستمرار ، والى سيدنا الوالد حفظه الله لما قدم لنا من نصائح وتوجيهات وفوائد ومابذل من جهد ـ باتصالاته العديدة وخلال مختلف أسفاره ـ فى البحث لنا عن مزيد من النصوص ، والى زوجتنا الحبيبة التى ساعدتنا فى التسجيل والتدوين وتحملت فى صدق وصبر وتقدير ماكانت تفرضه ظروف انجاز الرسالة من استغراق كلى فى البحث وانشغال عما سواه ، والى كل من أمدنا بنص أو أشار علينا بفائدة أو دلنا على مصدر ، الى الاساتذة الاجلاء السادة : ادريس بن الماحى وعبد السلام بن سودة ومحمد الهسكورى ومحمد المنونى وعبد الله كنون وعبد الوهاب بن منصور وسعيد اعراب وعبدالله الرجراجى وابراهيم الكتانى والمهدى الدليرو ومحمد السفيانى والصمدى المزوار وحسن الوجراجى وجعفر الكتانى وعبد القادر زمامة ومحمد الشليح والاخ عبد الواحد الجرارى والدكتور عبد السلام الهراس ، والى اشياخ الزجل الافاضل السادة الحاج محمد بن عمر الملحونى وبنعيسى الدراز ومولاى احمد بن عبد السلام العلوى واحمد سهوم والحاج محمد العوفير وعبد القادر الجرارى ومحمد بن الهاشمى وادريس المرونى وهاشم السفيانى ومحمد حسن التطوانى .

والله نسأل ان يوفقنا للخير ويهدينا للصواب .

القاهرة 28 ذى القعدة 1388 ـ 15 فبراير 1969

عباس بن عبد الله الجرارى

مـدخـل

القصيدة الزجلية

والغنـاء الشعبي

يمكن تقسيم **الغناء فـي المغرب** الى انواع تختلف لغة ونغمـا واداء باختلاف مناطق هذا الغناء ٠ ومـن الالـوان التى تتخذ العربية اداتها فى التعبير نستطيع ان نذكر :

1 ــ القصيدة الزجلية التى اتخذناها موضوعا للرسالة ، وسنتناول انشادها فى هذا المدخل ٠

2 ــ المواويل والعروبيات والسلامات والعيطة والطقطوقة وأعيـوع والدقة وغيوان بن يازغة والمزوكى : وسنتحدث عنها كأنواع للزجل فى الجزء الثانى من اول فصل فى الرسالة ٠

3 ــ الموسيقى الاندلسية وتسمى «الآلة» تطرب لها مختلف الطبقات، وهى تمثل لونا من التراث الذى انتقل الى المغرب مـن الاندلس ، فحافظ عليه المغاربة واضافوا اليه ٠ وسنستعرض نوباتها وميازينها بعد سطور ٠

4 ــ الغناء العصرى وهو متأثر فى أغلبه بـالغناء المشرقى والمصرى خـاصة ٠

5 ــ اغانىالعمل وارقاص الاطفال وماالبها من المرددات البيئية اليومية

6 ــ الاغانى والانشادات الدينية ، وتنقسم قسمين :

أ ــ الامداح وأغلبها فى المدح النبوى ـ ومن هنا جاءت تسميتها ــ وقد اشتهر بأدائها منشـدون يطـلـق عليهم «المسمعين» وهـى ابيات ومقطوعات تنشد حسب نوبات وميازين الموسيقى الاندلسية ، ولكن دون أن تصحبها الآلات الموسيقية ٠

ب ــ أناشيد الطرقيين وفقراء الزوايا ، وهى اشعـار فى الـذكـر أغلبها لابن الفارض والششترى والحراق ، او اوراد وأقوال لاشياخ الطرق ، تعتمد فى تلحينها على بعض الطبـوع الاندلسية يصحبها رقص الذاكرين ، وهو رقص يختلف حـركـة وقوة وحدة باختلاف

الطوائف ، فاذا كان مثلا رقص درقاوة والقاسميين هادئا ليس فيه غير الهز العمودى للجسم والاكتاف فان رقص احمادشة وعيساوة يعتمد على تحريك قوى للجسم والاطراف مع الضرب العنيف بالاقدام على الارض ٠ وغالبا مايصاحب الانشاد والرقص عزف على الآلات الموسيقية ، وتختلف هذه الآلات باختلاف الفرق ، فآلات درقاوة مثلا هى آلات الموسيقى الاندلسية وان قل اعتمادهم عليها ، والقاسميون يعتمدون على الطبلة ، اما عيساوة واحمادشة فعلى النفير والغيطة والطبل والدعدوع ٠

وتعتبر القصيدة الزجلية من اهم الوان هذا الغناء يطرب لها العامة والخاصة من الناس ، يقوم انشادها على نوبات الموسيقى الاندلسية وميازينها٠ وعلى الرغم من أنه لم تتهيأ لنا دراسة موسيقية من شأنها ان تتيح لنا تناول هذا الجانب الفنى عن دراية وادراك ، فقد ارتأينا ــ تكميلا لمختلف أطراف الموضوع ــ أن نشير فى استعراض سريع الى هذه الميازين وتلك النوبات ، تسعفنا فى ذلك بعض المصادر (1) التى عنيت بتسجيلها وبعض

---

1) وهى : 1) مجموع يضم قصائد وموشحات فى المديح النبوى مرتب على نوبات فى الانشاد جمعه احمد بن محمد العربى احضرى المراكشى (مخطوطة خاصة بالكاتب)

2) كتاب «الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب» لابى عبد الله محمد بن الطيب العلمى ت سنة 1134 هـ لدى ترجمة ابى عبد الله سيدى محمد البوعصامى (ط حجرية غير مؤرخة) ٠

3) كتاب الحايك فى الموسيقى الاندلسية ، وهو مخطوط ، وكان اعتمادنا على مخطوطة الخزانة العباسية ٠ وقد نشره فرناندو مارتينز ولكنه اقتصر على ايراد كلام الحايك فى التعريف بالنوبات وترجمته دون ايراد النصوص :

El concionero de AL-HA'IK : Fernando Valderrama Martinez Instituto General Franco de estudios E investigation hispano-Arabe Tetuan 1954

4) منظومة قصيرة للنوبات مخطوطة بالمكتبة الملكية رقمها 4229 ، اولها :

وها أنا رتبتها منظمة ... نظم لآل فى سلوك محكمة

5) منظومة لعبد الواحد الونشريسى اولها : ==

المعلومات التى اخذناها من المتخصصين فى هذا اللون من الموسيقى بالمغرب.

اما **النوبات** فاحدى عشرة ، هى :

1) **رمل الماية** : ذكر الحايك عن احد طبوعه (1) وهو الحسين ، انه يستعمل «فى جميع الاوقات ونغمته الذ النغمات والحانه اطيب الالحان» (2)

2) **الاصبهان** : ويقال «ويقال ان ملائكة الرحمن يسبحون بهذه النغمة ، وغمته حادة رقيقة حلوة» (3) ويقال كذلك ان مرددات المتسولين قائمة عليها وأن باب الجنة يطرق بنغمتها لملاءمة رقتها للتذلل والرجاء والاستعطاف

3) **الماية** : قال عنها الحايك «انها تجلب النوم» (4) وتنذر بالفراق ، لذلك فهى غالبا ما تؤدى فى العشايا والامسيات . ويقال ان السلطان الحسن الاول كان يتشاءم منها ويدعو الى عزف نوبة العشاق بدلا منها ، واشتهر ذلك حتى قيل فى المثل : «اعكس لقضيا افلعشيا» .

4) **رصد الذيل** : وقد شاع عن رجال الفن انه «اذا طال الليل فعليك برصد الذيل» وهى قولة تدل على ان هذه النوبة تساعد على السهر وما يقتضى

طبائع مافى عالم الكون اربع ففى مثلها اضرب للطبوع مجملا
وهى واردة فى : أ ـ مخطوط بالمكتبة الوطنيه بمدريد رقمه 5307
ب ـ كتاب الحايك مخطوط الخزانة العباسية ص 12 ـ 13
ج ـ مجموعة احضرى ص 20 (بترتيب مختلف للابيات منسوبة للامام الوجدى ، ولعله خطأ فى انتساخ اسم عبد الواحد)

1) لكل نوبة مجموعة من الطبوع . يقول الحايك : «ان الطبوع فى هذا الزمان بهذا المغرب الاقصى اربعة وعشرون طبعا ويزداد طبع الصيكة وهى من اعذب مايكون ، ولكل تواشى وأغنية وطبوع كثيرة ... منها الجركة والرهاوى والراست والروكة ... وطبوع كثيرة يطول ذكرها وتنتهى الى ثلاثمائة وستين كما وقفنا عليه فى غير ما تأليف» (ص 52 من El Concionero de AL-H'AIK وفى رأى بعض المعتنين أن الطبوع تبلغ ستة وستين وثلاثمائة على عدد ايام السنة الشمسية بما فى ذلك السنة الكبيسة .

2) المصدر السابق ص 85
3) المصدر السابق ص 92
4) المصدر السابق ص 99

من صبر وتحمل لفراق الاحبة .

5) **الاستهلال** : ويعتبر مما أضافه المغاربة الى المـوسيقى الاندلسية على عهد دولة السعديين ، وهو عند الحايك «من الطبوع المجهولين ويقال ان الذي استخرجه هو رجل يسمى بالحاج علال البطلة فى اوائل ايام مولانا السلطان الاعظم أمير المومنين عبد الله محمد بن الشيخ الشريف الحسنى ... استخرجه لمدينة فاس» (1) ويقال فى سبب تسميته انه كان يستهل به

6) **الرصد** : يقال انه يوحى بالدلال والعناد ، وانه «رقيق النغمات حلو الالحان» (2)

7) **غريبة الحسين** : وهى نوبة حـزينة يقال ان مستخرجها سلطان اسمه الحسين كانت لـه جاريـة «تسمى بالغريبة لانفرادهـا عـن أهلها وأوطانها وكان السلطان مغرما بها فلذلـك سميت بغريبة الحسين ، ولها من الاوقات طلوع الفجر ، وهذا الطبع نغماته وألحانه تـؤثـر فـى قلوب السامعين الرأفة والحنان وسكبان عبر المقل» (3)

8) **الحجاز الكبير** : ويعرف بـ «الحجاز» يوحى بالعمق والسمو

9) **الحجاز المشرقى** : ويعرف بـ «المشرقى» قال عنه الحايك انـــه «يستعمل فى سائر الاوقات وانغامه حلوة رقيقة مفرحـة» (4) وقـــال عنه احضرى : «فيه تفريح لسامعه لانه يزيل الغم ويسلى عـــن المصيبة» (5)

10) **عراق العجم** : ذكر الحايك ان مستخرجه صيكة بن تميم العراقى وانه «رقيق النغمات حلو الالحان وله تأثيرات فى نفوس المستمعين ويدخل للقلوب الفرح والسرور ويجلى عنها الهموم ... ويكسب الفضل للنفوس والشرف ويقوى عزمها على الخير والعفاف ، وما مـن انسان كريـم الشيم سمعت نفسه نغماته الا طربت اعضاؤه ورشحت انامله» (6)

---

1) المصدر السابق ص 111
2) المصدر السابق 117
3) المصدر السابق ص 124 — 125
4) المصدر السابق ص 138
5) صفحة 24
6) صفحة 144

11) **العشاق** : قال عنه احضرى : «نغمته حلوة لذيذة وله من الاوقات من ابتداء الصبح الى الزوال» (1)

واما الميازين التى تؤدى عليها كل نوبة فخمسة ، هى:

1 ـ البسيط ·

2 ـ القائم ونصف ·

3 ـ البطايحى ·

4 ـ القدام ·

5 ـ الـدرج ·

وتكاد اغلب القصائد تؤدى فى الدرج ، وهو ميزان لايوجد فى غير الموسيقى المغربية ، اذ لا اثر له فى «المألوف» و «الغرناطى» وهما الاسمـان اللذان يطلقان على الموسيقى الاندلسية التى انتقلت الى تونس والجزائر · ويؤكد اكثر المختصين انه من اضافات المغاربة لهذه الموسيقى ، وقد ذكـر احضرى فى مجموعه انه تفرع من «البطائحى» (2)

وتصاحب انشاد قصائد الزجل آلات يطلق عليها «لماعن» او «لمواعن» (3) نجد ذكر بعضها عند الشعراء على حد مايقول المدغرى فى «الساحى» :

مـاهـزك تـوشـيـح * والبسـتـان الـقـيـح

والعـيـدان اتصيـح * والرباب اللى نايـح

ويقول فى «الصبوحى» :

شف العود والقانون والجناح اجنـك (4) آتمنجا واستتر احـداهـا

وارباب امع الآلى ايجاوبو بنغايم لوتار

شف الآلى موسيقتو شمهات اعلى حسن انغايمو فى ميزان احضاها

واكمل اصبوحنا اعلى الرضا ماغزلو حرار

ويقول فى «الكاس» :

---

1) صفحة 24

2) صفحة 12

3) أصلها المواعين ج ماعون ·

4) لم تعد هاتان الآلتان تستعملان (الجنك والجناح) ولم نوفق الى التعرف اليهما ، وقد بدالنا من سؤال بعض المختصين انهما

كب الخمر الكافح * اصاحي واتراوح * بالتعريجا واكباح

ويقول الرجراجي في «الساقي» مشيرا الى بعض الطبوع :

شف القانون امع الرباب شف الجنك الجناح

وانظر للكمنجا او شوف العود ارجيح

ينغم بالموال والرصد والسانو مصلوح

شف اصبهان امع الحسين والمايا في تنقاح

شف العشق الصافي الزم انعفا باش اتريح

والتوفيق من الكريم نعم الحي الصبوح

وقد تقل الآلات او تكثر حسب الاجواق ، لكنها لاتخرج عن نطاق الآلات المستعملة في معظم الوان الموسيقى المغربية وهي :

اولا : آلات النفخ :

1 ـ النيرة او الليرة : وهي نوع من الناي ، تصنع من القصب المجوف وتكون مفتوحة من الطرفين وبها ثقب يتراوح عددها بين خمسة وسبعة .

2 ـ الغيطة : وهي نوع من المزمار تتخذ من الخشب ، تبدأ ضيقة في طرفها الاعلى ثم تأخذ في الاتساع حتى طرفها الاسفل . تثبت في فمها قطعة مدورة من العاج او العظم بها فتحة منها يكون النفخ . ويكون بها في الغالب سبع ثقب ستة من فوق متساوية الابعاد وواحدة في الاسفل . وهي شبيهة بالمزامير المصرية التي تتخذ احجاما مختلفة وتسمى :

أ) المزمار البلدي وهو اطولها .

ب) المزمار الصعيدي : متوسط .

ج) السمبس : وهو اصغرها .

3 ـ النفير : وهو في شكله كالغيطة الا انه طويل ومصنوع من معدن

آلتان وتريتان شبيهتان بالهارب Harpe والليـر Lyre الغربيتين ، وبالسمسمية التي تستعمل في بور سعيد ، والطنبورة المعروفة في نوبة مصر ، وهما من معروضات متحف مركز الفنون الشعبية بالقاهرة ، وقد أفدنا من هذه المعروضات في المقارنة بين الآلات المغربية والمصرية .

النحاس فى الغالب ، وتؤدى به النغمات الغليظة العميقة ٠

ثانيا : الآلات الوترية ، وهى نوعان :

1 ـ مايستخرج نغمها بواسطة القوس ، وهى :

أ) الرباب الفاسى : وهو عبارة عن صندوق خشبى من كتلة واحدة تغطيه قطعة جلد ماعز ويكون فى طرفه الاعلى مشط معوج يشد اليه وتران غليظان يمران وسط الصندوق ، ويثبت فى طرفه الاعلى مفتاح لشد الوترين يتخذ شكل زاوية ٠

ب) الرباب السوسى : وهو عبارة عن دائرة خشبية تغطيها من الجهتين قطعة مثقوبة من جلد الماعز ، ويمر فى وسط الجلد الاعلى مشط ثبت فى طرفه مفتاح لشد الوتر وهو وتر واحد مصنوع من شعر الخيل ، اما القوس فقضيب من خشب معوج بعض الشىء يشد طرفيه وتر من نفس النوع ٠

ج) الكمان او الكمنجة : وهى آلة معروفة ٠

2 ـ مايستخرج نغمها بالنقر والنبر (1) وهى :

أ) العود : وهو معروف ٠

ب) القانون : وهو معروف كذلك ٠

ج) الماندولينة : وهى اصغر من العود وليس لها جوف كبير ، وتكاد تكون اشبه الآلات بالقيتارة الغربية فى رقة نغمها وحدته الا ان جوفها صغير ومستدير ٠

د) الكمبرى : وهو عبارة عن قيتارة بجوف خشبى صغير مغطى بقطعة جلد ماعز مثقوب تشد اليه ذراع طويلة بها مفتاح لشد الاوتار ، وهى لاتزيد عن اثنين او ثلاثة ٠ وذكر هذه الآلة وارد عند ابن بطوطة فى رحلته (2) وعند والدنا حفظه الله ان الكمبرى نوعان : «هجهوج يحتوى اوتارا ثلاثة ، وسويسد ويحتوى وترين ، واللفظة بربرية الاصل ، جوفها من خشب كغالب الآلات واحيانا تتخذ من ظهور السلحفاة ٠ والذى يظهر انها

---

1) قد يكون النقر والنبر بالمضراب او مايطلق عليه : الصدعة والوترة والريشة ، وقد يكون بالاصابع وهو مايسمى بالحس ٠

2) ج 2 ص 190 وج 4 ص 106 ط باريز حيث ذكر القنابر ٠

آلةمغربية ، وبواسطتها والدس على اوتارها يبتدىء المتعلمون دراسة الفن»(1)

ومن انواع الكمبرى كذلك «السنيتر» وقد وجدنا ذكره عند العلمى فى «الانيس المطرب» حيث قال : «وأما الآلات التى اتخذت للغناء فكثيرة منها العود وهو اشهرها والرباب والشبابة والجناح والسنطير وغير ذلك مما هو شهير» (2) ٠

ثالثا : **الآلات الايقاعية** ، وهى الآلات التى تعرف بالصدمية :

أ) البندير : وهو عبارة عن دائرة من الخشب شدت عليها قطعة من جلد الماعز غير مدبوغة يمر فى وسطها قطريا ومن الداخل بعض الاوتار عددها اثنان فى الغالب ، تزيد الصدى حدة حين الضرب ٠ وبالاطار الخشبى ثقبة يدخل منها الضارب ابهامه حتى يتمكن من مسك الآلة ٠ ويكون الضرب باليد اليمنى على وسط البندير او على اطرافه مما يعطى نغمتين احداهما رقيقة حادة والثانية غليظة عميقة ٠ ويطلق على البندير فى المدن اسم الطارة وغالبا مايكون اطارها أعرض ٠ وتجدر الاشارة الى ان هذه الآلة تعرف فى مصر بنفس الاسماء حيث يطلق عليها البندير والطارة ٠

ب) الدف : وهو عبارة عن مربع صغير مغلق بجلد من الجهتين ، ولعله قريب من الآلة الطبلية التى كانت معروفة عند العرب بالمربع ٠

ج) الطر : وهو بندير صغير توجد فى اطاره ثقب بها ازواج من الصنوج المعدنية الرقيقة تضيف الى النغم صدى وحدة وزخرفة ، وهو المعروف فى مصر بالمزهر والرق والدف ٠

د) الطبل : وهو معروف ويطلق عليه فى مصر الطبل البلدى ٠ وتجدر الاشارة الى انه يضرب عليه بقضيبين احدهما غليظ ومعوج الرأس يسمى «الساهلا» والثانى رقيق ويسمى «الربيب» ٠

ه) الطبلة او الطبيلة : وهى عبارة عن نقارتين او طبلين صغيرين ومن حجم مختلف ، يتخذان من الطين الناضج ، تغطيهما قطعة جلد يوقع عليها بقضيبين رقيقين ، وهى أشبه بالنقاقير فى مصر ، الا ان هذه تتخذ

1) من مادة «الآلة» (الموسيقى) التى كتب لموسوعة المغرب العربى التى يشرف عليها المكتب الدائم للتعريب فى الرباط ٠

2) ص : 138

من معدن النحاس فى الغالب وتكون منفصلة ٠

و) التعريجة : ويطلق عليها فى لهجة اهل الرباط «لكوال» وهى الآلة المعروفة فى مصر بالطبلة وغالبا ماتوضع فوق الركبة او فى راحة اليد ويضرب عليها بالوسطى والسبابة ، وتعتبر اهم آلة يضبط عليها منشد الزجل الايقاع ٠

ولعل اصل تسمية «لكوال» : «القوال» او «الجوال» وهما افتراضان يدلان على أهمية الدور الذى كانت تؤديه هذه الآلة فى مصاحبة المنشد ٠ ومن انواعها :

1 — الدربوكة : وهى معروفة ٠

2 — الهرازى : ويطلق عليه فى لهجة اهل الرباط «الدعدوع» وهو عبارة عن تعريجة كبيرة توضع فوق الكتف ويضرب عليها بكلتا اليدين ٠

ز) الهندقة : وتعرف فى مصر بالصاجات وهى عبارة عن زوجين من الصنوج تثبت فى الابهام والوسطى من كلتا اليدين ، وغالبا ماتتخذ من المعدن لانه يقوى النغم ويحليه ، وقد تتخذ كذلك من الخشب او العظم ٠

بهذه الآلات وعلى تلك الانغام **يؤدى المنشد القصيدة** ، والعادة الا يكون الناظم ، ويطلق عليه «شيخ النشاد» و «الحفاظ» (1) وقالوا فى امثالهم : «السجاى تيولد والحفاظ تيربى» يقصدون ان الزجال ينشىء ولا يستطيع ان ينشد ويحتاج فى ذلك الى الراوى الذى يروج له قصائده ٠

---

(1) من أشهر المنشدين المعاصرين المرحوم المعطى لحسوك من مراكش والمرحوم محمد بوزوبع والتهامى الهروشى وهما من فاس ٠ وقد ذكرنا اسماء غير قليل منهم فى فهرس القصائد المنشدة بآخر الدليل الملحق بالرسالة ٠ وتجدر الاشارة الى ان كثيرا من الشيخات اشتهرن بحفظ الزجل وانشاده نذكر منهن : فطومة الشرقاوية ومريم الشاوية وسلطانة الاسلامية (كانت يهودية وأسلمت) وهن من فاس ، والحجوية وملكة وزهور الضخامة والحاجة زينب والجامعية وفطومة الرباطية وهشومة بزغانو والسعدية الوزانية وبلارة وابريكة ومشطونة وطاطا الغالية التى يقال انها كانت مقربة للسلطان المولى عبد الحفيظ ، والحاجة بنت العنبر وهن من الرباط ٠ ويبدو انهن فى الاصل من فاس وهاجرن الى الرباط بعد ان اوقفهن الباشا البغدادى عن العمل فى فاس ٠

والمنشد لايحفظ القصيدة ونغمات الحانها الا سماعا ، او «بالدمغى» كما يقولون ، وحتى لايقترف فى الميزان كسرا او «تركيكا» على حد اصطلاحهم فانه يستمع الى اللحن ويردده ليستأنس به وتالفه اذنه حتى «ايطيب الميزان» اى يطبخه ان صح التعبير •

ومن براعة المنشد ان «ايركب» اى ان يتسلم الغناء من منشد سابق عليه بقصيدة اخرى يؤديها على نفس الميزان الذى ادى عليه هذا المنشد • ومن براعته كذلك ان «ايفجج» اى يستعرض نغمات وطبوعا مختلفة فى القصيدة الواحدة ، وهى عملية اطلقوا عليها «لبدال» ومنه مايقدم به بعض المنشدين قصيدة «المزيان» التى يقول العلمى فى حربتها (1) :

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيان * لاسماحا ميعاد الله يالهاجر

فانهم يبدأونها على طبع الاستهلال ثم ينتقلون الى رمل الماية فالحجاز فالصيكة •

وقالوا عن المنشد الذى لايستطيع ذلك انه يغنى «اعلى جنب واحد» وهو دليل على قصر باعه • ومع هذا ففى رأى المنشدين أن بعض القصائد لاتحتمل تغيير الميزان ، او على الاصح جرت العادة بعدم تغييره فيها ، ويذكرون منها :

1 — «خال وشاما» للمدغرى وحربتها :

اللايم لاش اتلوم رح سالم دعنى كف لملام ماحجت امن اغرامى
بين خال وشاما

فانها لاتؤدى الا على عراق العجم •

2 — ومثلها قصيدة «الكناوى» للمدغرى كذلك ، وأولها :

مطلم ذاك اليوم فاش صدوا ناسى وامشاوا

تركونى نواح فالرسام اضميرى كاوى

يحسن عون اللى امشاوا ناسو من بعد اكوا

ويقولون ان بعض المنشدين حاول اداء هذه القصيدة على ميزان رمل

---

1) الحربة اللازمة (انظر الجزء الخاص ببناء القصيدة من فصل «العروض») •

المايه ولكنه افسدها ·

3 ــ قصيدة «الهاجر» التى يقول العلمى فى حربتها :

آش اعملت اسلطان مهجتى حتى سلمت افخلطتى واضحيت من ساحتى اجفيل

راقب فيا وجه الله عف ياهاجر لوكر مسجونك سرحو اتفوز بحسانه

فانها لاتنشد الا على الحجاز المشرقى ·

4 ــ قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وحربتها :

يــاراسى لاتشــقــى * التاعب لابد من لفراق

لاتــامــن فــالـــدنيا * ابــنــاســهــا غــــرارا

فانها لاتنشد الا على عراق العجم ·

5 ــ قصيدة «خناثة» للحبابى ، وحربتها :

عــشــقــى فــخــنــاثـــــا * ياترا فالعاهــد والـقــول ثابتا

من تاهت بجمالها احياتى * راحت روحى الصايلا عل لبدر بنعوت

فانها لاتنشد الا على الصيكة والحجاز ·

ومن قصر باع المنشد ان يؤدى الميزان «امصور» اى غير متقن لاتنسجم نغماته مع طبقة صوتــه ومــع كلمات القصيدة ولايتجاوب معه الجمــهــور والعازفون . والتجاوب عندهم دليل الاتقان ، ويقولون عن الميزان الـــذى يؤدى فى انسجام انه «انفق» ·

والعادة ان يبدأ المنشد البارع باحدى هذه المقدمات :

1 ــ **السرابة** (1) وهى قطعة قصيرة تؤدى على غير ماتؤدى بـــــه القصيدة ، وهى اربعة انواع :

أ) **المزلوك** : وتنشد رقيقة حادة ·

ب) **الكباحى** : يصاحبها ضرب قوى متواصل بالكــف ، وتكاد اغلب السرارب اليوم تكون من هذا النوع ·

ج) **الحضارى** : تنشد فى استرسال سريع ·

د) **السماوى** : يستهل انشادها ببطء كالموال ثم يأخذ صوت المنشد فى العلو والارتفاع كأنه يصعد بها الى السماء · ويطلــق على هــذا النوع

1) سنتحدث عنها فى الجزء الثانى من فصل «العروض» لدى الحديث عن بناء القصيدة ·

«السرارب الحسناويين» . ويقال ان اشياخ فاس كانوا مشهورين بانشاده

2 ـ **الموال** : والغالب ان يكون فى لغة معربة ، ومن الامثلة عليه قول الشاعر (1)

ومـن عـجـب انـى احـن اليهـم * واسأل شوقـا عنـهـم وهـم معى

وتشتاقهم عينى وهم فى سوادها * ويطلبهم قلبى وهـم بين اضلعـى

وقد يكون فى لغة ملحونة كقولهم (2) :

تـانـحـبـك ونـهـواك * وفى امسبتك ايكرهونـى

مـاراحتى حـتـى نلقاك * وعلـيـك يتحلوا عيونـى

3 ـ **التموبلة** : ويقولون ان لكل قصيدة تمويله تكون على قالبـهـا وميزانها ، ويذكرون منها :

أ) تمويلة قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وقد تقدمت حربتها ، وتنشد على ميزان عراق العجم :

آمالى يامألى أسيدى ياسيدى

للا يامولاتى للا

أمالى مصبرنى

اغرايبى لامـونى

ب) تمويلة لقصيدة «المرسم» لابن على وتنشد على الصيكة :

أنا ياما لى للا ياموﻻتى للا ادوى

حيانا واجا ايلاكى قاولت ابلمجى اوجيتنا يالغزال

وهذه حربة القصيدة :

أنا والمرسم ياحمام ثالثنا فالزهو انت

---

1) ذكرهما العمرى فى «مسالك الابصار وممالك الامصار» منسوبين لابى الصفا خليل الصفدى . (الورقة 59 ظهر من مخطوط جامعة اسطنبول رقم 4355 A Y) حيث اورد الشطر الثانى على هذا النحو :

واسأل شوقا من آتى وهم معى

2) انظر الموال كنوع من أنواع الزجل فى الجزء الثانى مـن الفصل الاول من باب «الشكل» .

المرسم يبكي اعلى الشماعا وانت تبكي اعلى النثا ونا على **لغـزال**

وبنفس التمويلة يقدم كذلك لقصيدة «خناثة» للحبابى ، وقد سبق ذكر حربتها .

والاسف أن هذه المقدمات فى طريق الضياع بسبب جهل المنشدين لها نتيجة قلة تداولها .

وتجدر الاشارة الى ان قصائد مكسور الجناح والسوسى — **باستثناء** الحراز — يستهل انشادها بمثل هذه العبارات : «**قال يانا سيـــدى**» و «وهو ياسيدى» ويطلقون عليها «الدخول» . **ومن الامثلة على ذلك قصيدة** «ام الغيث» للحاج ادريس لحنش ، **وحربتها** :

قولـوا للاغيثا مـولاتـــى * رف بوصالك عل لعشيق يام الغيث

فإن انشادها يبدأ على هذا النحو :

قال ياناسيدى عمدا على لعشيق الكاوى كيفى ابنار لبنات

مهما اتقول نارو بردت واطفات

حين ينظر زين الخودات

كيراها زندت واكدات

ومنها كذلك قصيدة «القاضى» التى يقول المدغرى فى حربتها :

اقاضى قصا اجرات لى معناها * ماجـرات الحد افناس لغرام

ولـفـى لـك ادعـانـى

فان انشادها يبدأ هكذا :

وهو ياسيدى قصا اجرات لى نحكيها الهل لغرام

بينى وبين بوخال اكحل لرماق

قصتى فيها مـاينسـاق

للرخاخ اضماير لمساق

نـاس لشـواق

وقريب من هاتين العبارتين عبارات اخرى تسمى عندهم «**التشحيرة**» و «**الترتيحة**» يضبط بها ايقاع الميزان او «يشد» و «يقبض» كما يقولون . وغالبا ماتؤديها المجموعة او من يطلق عليهم «الشدادا» وكـــأن المنشـــد

يحس بنقص فى الميزان وعدم انسجام الكلمات معه فيعوض بهذه العبارات، علما بأنه يلجأ الى اطالة مقاطع بعض الكلمات ومدها حسب احتياجه للنغم، وهـى عملية لاشعورية تقترب مما يسمى بـ «الكم» فى العروض العربى ، على حد مايبدو من بحر الطويل حيث تحذف نون فعولن الثانية وتصبـح فعول ولكن المنشد يمد اللام تعويضا لسكون النون المحذوف · ومن الامثلة عليها :

1 ـ **ياسيدنا** : ونجد الشيخ عمر شد بها بين اشطار قصيدته فـى «مولاى بوبكر» على حد مايبدو من الحربة التى يقول فيها :

تاك اليقبال والسرور اسلوانــى * يـاسيدنـا * بخلافت عـالـى لقدر
نجل الملك طلعت البدر السانــى * يـاسيدنـا * سيدى مـولاى بـوبكر

2 ـ **اسيدنا سيدنا** : على حد ماعند التهامى المدغرى فى سرابته التى يقول فى أولها :

داك اللايمنى فعشق ولفى والحال الهالك	اسيدنا سيدنا
ماذا وعظت فيك ماكفيت امـن اعتابـك	أسيدنا سيدنا
انصحتك افلحديـث مأردتى لـى سالك	اسيدنا سيدنا
واليوم ابلاك ربنا شف اخدود اغزالـك	اسيدنا سيدنا

3 ـ **ياللا ياللا** : وقد جعلها المدغرى بـيـن اشطار أبيات قصيدتـه «عشية الجمعا» كما يبدو من حربتها التى تقول :

أنا اعشيت الجمعة شاب اشبابى	ياللا ياللا
هـلـكتـنـى عـزبـا وشـابـا	ياللا ياللا
مـن شاهـدهم يسخـا بشبابـو	ياللا ياللا

4 ـ **دادامى اللا اهياللا** : وهى تشحيرة «طامو» للمدغرى ، وتـردد بعد حربتها التى يقول فيها :

جيش لغرام ياطامو مانقدر اعلى الطامو
دادامى اللا اهياللا

ومن الشد ان يلتزم الشاعر كلمة أو أكثر فى البيت تبدو فى سياقها كأنها من صميم الموضوع وصلبه ، وهـى قد تتغير فـى كل الابيات وقـد

لاتتغير ، من ذلك :

1 ـ قصيدة بوعبيد الشرقى فانه التزم فيها كلمة «الفقى» فى أول البيت ووسطه ، يقول فى أول أبياتها :

الفقى جيت لـك تنظر شوقـــى الـفـقــى
مـــن خـاطـرى ابغيت انسالــك

ألفقى افتى لى نـعـرف ذوقـك الـفـقــى
الخـمـر واش عـنـدك سالـك

ألفقى الخمر فى اشرابو عشقـى الـفـقــى
نـبـغـى انحـلـلـو بمقـالـك

ألفـقـيـى لحضرت لـمدام اترقـى الـفـقــى
افـتـى امـن احسان اكمالــك

ويقول فى حربتها :

ألفقى لـوشفت اعـويشا تسقـى الـفـقــى
والـكـاس مـن يدهـا يحلالـك

2 ـ قصيدة «صارم الطعن» للشاوى وحربتها :

آش را من لاجرد صارم الطعن ❋ ويركب اسفون لحروب وايعيط دانى
هـا حنـا هـنـا ويكون ادراعـو ابـحـال السانـو

فان القصيدة من البحر الثلاثى ، ولكنه اضاف اليها بين الشطرين الثانى والثالث عبارة يتوهم منها أن القصيدة رباعية ، فـى حين أن هـذه العبارة لايقصد منها غير قبض الميزان حيث كان يمكن ان يقول بـدلا مـن «ها حنا هنا» : «أسيدنا» وبلغت براعة الشاوى حدا انه فعل ذلك فى كل الابيات وبعبارات مختلفة على حد مايبدو فى دخول القصيدة حيث يقول :

آش را من لابات امساهر الجفن ❋ والفكرا جايـلا افزاخر لـمـعـانـــى
بالمفاتـنـا باش ايسود اعلى لـوشا فازمانـو

آش را من لابحث افجهد مـأمكن ❋ واعمل مايرتضى القاصى والـدانـى
والفراعـنـا يـقـطـع زى ازعيـطـا بـوزانــو

آش را من لالهل الطايـــلا اركن ❋ واترك فزوايت لهمل هل لضغانـــى

والمراكـنـا　　　　واعـمـل هـل لعلوم مـن رفقانـو

آش را من لاصحب الثابت الدهن ❁ يسلك بـه الطريـق جهر اكتمانـى

وقتما بـنـا　　　　يـبـنـى بنيانوا عـلـى يتقانيــو

آش را من لاله اشياخ افلوطـن ❁ واروى منها اكـمـا اروينا بعلانـى

من اشياخنا　　　　اقلـيـل الطاعـا امـزدرى شانـو

والعادة ان ينشد آخر القصيدة ـ وخاصة اذا كان ادريدكة ـ (1) سريعا وقويا على طريقة الكباحى التى تكون عليها السرابة ٠

والجدير بالملاحظة ان **بعض القصائد لاتنشد وتغنى وانما تتلى وتسرد** ولايكون ذلك الا فى القصائد الطويلة من امثال «هول القيامة» لعبد العزيز المغراوى التى حربتها :

لسم الله المعين افلسطار　　　　يهدينى منهاج لقوام

وقصيدة «الذرة» لابن على وحربتها :

يالساهى من نومك فق سبح الرب　　　　لتا وانت تايه افلغرور لـــواب

الصلاة والسلام اعلى اخيار لنسب　　　　سيدنا محمد طـه اشفيع لعراب

وقصيدة «الجمهور» لعبد القادر العلمى وأولها :

يامن يشفى اضرار عبدو بعد السقم　　　　ويفرح من اقوات فالصدر احـــزانو

والغالب ان تتم «السرادة» فـى زاويـة او مسجد او «لمسـيـد» كما يقولون (2) وفى مناسبات دينية وخاصة ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

وللسرادة مثل الانشاد أسلوب معين وانغام خاصة تختلف من قصيدة لاخرى ، وتقتضى التركيز على بعض المقاطع والضغط على حـروف القافية واطالة اواخر الكلمات بعنا للتأثير فى نفس السامعين ٠

ونلفت النظر الى احدى قصائد «السرادة» فريدة من نوعها فى البناء جمعت أقسامها بين أبيات معربة وأخرى ملحونة ، وهى القصيدة «الفياشية»

1) انظرها فى الجزء الخاص ببناء القصيدة فى الفصل الثالث مـن باب «الشكل» ٠

2) المسيد هو الاسم الذى يطلق على الكتاب القرآنى ، ولعل اصله المسجد ٠

التى تنسب للشرقى والتى حربتها :

أنا مالى فياش	واش اعليا منـى

فقدق دم لكل قسم منها ببيتين معربين على حد مايبدو فى القسم الثانى منها حيث يقول :

يقول لما شاء كن فيكـون	**ويبـدىء سبحانـه ويعيـد**
ويحكـم فـى خلقه مـايشـا	**ويفعـل فـى ملكه مـايـريـد**
فـى ظـلـمـة الارحـام	صـورنـى مـن نطـفـا
وابـدانـى بـالانـعـام	نعما مـن كـل صـفـا
واخـلـق لـى مـا واطعام	وانـعـايـم مختـلـفـا

وكما انفردت هذه القصيدة فى بنائها فكذلك انفردت فى طريقة تلاوتها ، حيث يسرد البيتان على غير طريقة سرد بقية ابيات القسم ، وتكاد تكون تلاوتهما مجرد قراءة خالية من كل لحن على عكس بقية الابيات ·

ونظن فى غير قليل من الميل للترجيح أن هذا الاسلوب السردى اثر باق من الطريقة التى كان يؤدى بها الزجل فى مراحله الاولى ، وقبل ان يغنى به ، نقصد من ذلك الى القول بأن تلحين قصائد الزجل واستخدامها فى الغناء تم فى مرحلة متأخـرة لعلها بـدأت فى الربع الثانى من القرن العاشر ، حين حكم الاشياخ على قصائد بوعمرو الغزالية ان تنحى من ميدان السرد فى المجالس العامـة ، عقابا على نظمه فـى المـرأة · وسنـرى (1) أن هذه القصائد انتقلت الى مجالس خاصة كان جمهورها النساء والشباب ، وأن الشاعر اضطر الى مسايرة جمهوره الجديد فأخذ ينظم له قصائد غنائية خفيفة ، لعلها كانت السبب فى تحويل انظار الزجالين الى اتخاذ قصائدهم للغناء · وفى هذا العصر سنصادف عند الحاج اعمارة — وهو متأخر فـى الوفاة عن بوعمرو — بيتا يدعو فيه راوى شعره الى التغنى به دون خشية من خصومه ، يقول فى آخر قصيدة «فاطمة» :

ياراوى لبيات عنى	غنى اوصول لاتخشى من عديانـى

وللحاج اعمارة قصيدة فى رثاء بوعمرو يصفه فى احد ابياتها أنه خير

---

1) فى الفصل الثانى من باب (الاعلام) لدى الحديث عن بوعمرو ·

من غنى وشدا بالشعر وهو قوله :

النبيل الفد النشاد   سيد من غنى او اشدا

بل انا سنرى (1) ان الزجل المغربى حتى بداية الربع الثانى من القرن التاسع لم يكن يخضع لنظام معين فى الوزن والقافية ، وهما حجرا الاساس لتلحين اى كلام • وسنجد عند عبد الله بن احساين — وهو أول مــن سبق للاوزان فى الزجل (2) — رفضا لنوع من الشعر لم يكن يخضع للوزن يبدو من تسميته أنه كان يعتمد على القص والحكاية ، وهــو «كان حتى كـــان»

يقول ابن احساين فى أول بيت من أول قصيدة موزونة :

نبدا لسم الله انظامى ياللى ابغى لوزان

لوزان خير لى انا يامن قول كان حتى كـان

ويزيد فى تأكيد هذا الرأى أن القصائـد تغنى على انغام المـوسيقى الاندلسية كما بينا ، ونحن لانستطيع القول بأن انتقال هذه الانغام الـــى المغرب تم قبل انهيار الاندلس وهجرة مسلميها الى بلاد الشمال الافريقى ، بل انا لانجد قبل الحايك — وكان يعيش فى القرن الثانى عشر للهجرة — من عنى بهذه الموسيقى وجمع شتاتها من ميازين ونصوص • ولسنا نزعم ان الغناء بالزجل تأخر حتى هذا القرن ، فميازين تلك المـوسيقى كانــت معروفة لاشك قبل ان يجمعها الحايك ، ولكنا لانعرف ان كانــت تــلاحين قصائد بوعمرو ومعاصريه قائمة علىهذه الميازين ام انها كانــت لها نغمات خاصة •و الاسف اننا لانستطيع معرفة اللحن الذى بدأ بــه غناء الزجل ، كما أننا لانستطيع معرفــة الاسلوب الذى كانــت تؤدى به القصائد قبل اتخاذها للغناء ، وان كنا لانشك فى ان «السرادة» اثــر لهذا الاسلوب • والسبب ان الزجل الذى وصلنا ملفوظا لايسير على غير ميازين الموسيقى الاندلسية •

مهما يكن فان القصيدة الزجلية غدت غناء شعبيا يطرب له الجميع ، والسر فى ذلك انها جمعت امرين :

---

1) فى الفصل الاول من باب (الاعلام) •

2) حسب ما وصلنا اليه فى البحث •

1 — كلمات يفهمها العوام والخواص من الناس ٠

2 — ألحان قائمة على ميازين الموسيقى الاندلسية ، وهى أغنى وأعذب ألوان الموسيقى فى المغرب ٠

من هنا كان جمهور الزجال أوسع من جمهور الشاعر المثقف الذى ينظم لطبقة معينة هى طبقة المتعلمين المتقنين للغة المعربة ، ومن هنا كذلك كان الزجال يحاول ان يرضى هذه الطبقة الخاصة فيقتبس من لغتها غير قليل من المفردات والتراكيب ، ويضمن قصائده ألوانا من البلاغة وفنية الاسلوب (1) ٠ وليس هذا فحسب بل انه كان يحاول أن يقدم لها معلومات تاريخية او فقهية ، لاشك انه — وهو أمى فى الغالب — كان يتعب فى جمع مادتها بالسؤال والبحث ومجالسة العلماء وحضور دروسهم ٠

وسنرى حين نتعرض فى الموضوعات للقصائد التى تناولت السيرة النبوية (2) مثلا ان الزجال كان يبذل جهدا غير يسير فى عرض جوانب من هذه السيرة تجعل المثقفين لايرضون عن تلك الازجال فحسب ، وانما يقبلون عليها ويفتحون لها آذانهم وقلوبهم وبيوتهم كذلك ٠

ويزيد فى الدلالة على هذا الجهد مايلجأ اليه بعض الزجالين من استعرض أسماء بعض الكتب والمؤلفين ، ومن خير الامثلة على ذلك هذه الابيات من آخر قسم فى قصيدة «الجدول» للحاج الصديق المسفيوى ، وهى قصيدة شبيهة بـ «الحراز» أخبرته فيها حبيبته بواسطة وصيفتها انها محرزة بسبعة عفاريت ولن يستطيع الوصول اليها اذا لم يهزمهم ، فعزم على مواجهة هؤلاء العفاريت ودرس علم الجدول وما يتصل به من علوم يمكن ان تفيده فى الوصول الى مفاتيح النصر ٠ يقول :

حلا انشيتها ياراوى

للعاشقين واللى هاوى

فتراجم اللباقا واعقل والميز والرشادا

صنعت الدهرى اقفير

---

1) انظر الفصل الثانى من باب «الشكل»

2) انظر الفصل الرابع من باب «الموضوعات» ٠

قارى علم التوحيد اعلى لشياخ ارويتو

واقريت الالفيا والمواق (1) الشهير

وابن عاشر واقريت الرسالا (2)

والخزرجى اوكيد (3)

وابن عطاء الله والسمرقندى واعلوم لكتوب (4)

والدمياطى وامشاكل الزناتى

والسريانى اعلى اوفاه انحقو (5)

وابن سيرين والموطا وكذاك افلبلاغا ندرى سيدى خليل (6)

والبخارى وامعاه دعوت البسملا (7)

واكمل بالرضى مقصودى

واظفرت بالسعادا

على أنا لانريد ان ننفى عن الزجال غاية اخرى من هذا الجهد ، غير ارضاء المثقفين ، كان يقصد بها الى افادة العوام وتنوير فكرهم وفتح ذهنهم وعيونهم على جنبات من عالم الخواص ، وهم فى الغالب — وعلى الرغم من عاميتهم وأميتهم — على جانب غير يسير من الثقافة ، وخاصة منها

---

1) الفية محمد بن مالك الجيانى (ت سنة 672 هـ) فى النحو . اما المواق فهو احد شراح مختصر خليل فى الفقه .

2) عبد الواحد بن عاشر صاحب المنظومة المشهورة فى الفقه والتوحيد . والمقصود بالرسالة رسالة ابى زيد القيروانى فى الفقه كذلك .

3) ضياء الدين الخزرجى السبتى صاحب المنظومة «الخزرجية» فى العروض ، وتعرف فى المشرق بـ «الرامزة» .

4) يقصد ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم «والسمرقندى» المشهور فى علم البيان .

5) الدمياطى والزناتى والسريانى اسماء مشهورة فى علم الجدول وسر الحرف .

6) محمد بن سيرين المشهور فى الرؤيا وتعبيرها ، وصاحب «منتخب الكلام فى تفسير الاحلام» ، اما الموطا فهو كتاب الامام مالك ت سنة 178 هـ ، ولعله من الغريب ان يذكر علم البلاغة ويعتمد على مختصر خليل ، وهو كتاب فى الفقه ، ومانظنه الا يقصد الى مهارته فى فهم بلاغة هذا المختصر وحل رموزه ومعمياته .

7) الامام البخارى صاحب الصحيح المشهور .

ماتحتم معرفته ضروريات الدين ٠

ولعلنا ان نضيف غاية أخرى لامجال لاغفالها هى وليدة المنافسة التى كانت بين الزجالين ومحاولة اظهار تفوق بعضهم على بعض ، وهو جانب يؤكده لنا الصراع الذى كان ينشب فيما بينهم والذى سنعرض له لدى الحديث عن فن الهجاء (1) ٠

ولم يكن الزجال يحاول ارضاء المثقفين فحسب ، وانما كان يحاول كذلك ارضاء الحكام والامراء والملوك يسعى الى قصورهم يمتعهم ويؤنسهم بقصائده ، وهى ظاهرة اضطرته الى ان يبتعد عن واقع مستوى الشعب ، مصورا حياة القصور تارة ومحلقا بخياله تارة اخرى (2) ولاجئا الى الرمز والتلميح والاشارة تارة ثالثة ٠

ومن المتوقع عندنا ان مثل هذا الجمهور الواسع المتباين فى مستوى حياته وتفكيره قد يدفع البعض الى الطعن فى شعبية الزجل المغربى اوالشك فيها على اقل تقدير ٠

ومن المتوقع عندنا كذلك أن تكون ظاهرة تدوين بعض قصائد هذا الزجل ذريعة لكى يتخذ آخرون مثل هذا الموقف من شعبيته ، معتبرين وجوب التداول الشفوى فى كل ادب شعبى ٠

ومن المتوقع عندنا بعد هذا ان معرفة أسماء منشىء هذا الزجل قد تدعو غير هؤلاء وأولئك الى اتخاذ نفس الموقف من شعبيته ، لان تلك المعرفة — فى رأيهم — تنفى عنه الجماعية التى تعتبر السمة البارزة لكل أدب شعبى والتى تقتضى أن يكون مؤلف هذا الادب مجهولا ٠

ولسنا ننكر ان كل هذه ظواهر واضحة فى الزجل المغربى لامجال لتجاهلها أو اغفالها ، ولكنا لانرى فيها مايبعده عن الشعر والغناء الشعبيين فليس فرضا على أى عمل ليكون شعبيا أن يظل محصورا فى نطاق طبقة العوام الاميين ، ولعله من التحجير على الفنان الشعبى أن نحبسه فى هذا النطاق ولانبيح له أن يربط علاقات وصلات بطبقات اخرى راقية ،

---

1) الجزء الثالث من فصل «مع الناس» ٠

2) انظر فصل «المرأة» والجزء الاول من فصل «مع الحياة» ٠

وأن يتسرب اليها بفنه ويؤثر عليها ويتأثر بها فـي محاولة لاكتساب بعض الجديد مما لاعهد له به في بيئته · بـل انا نذهـب الى أبعد من ذلـك فى النظر الى هذه الظاهرة بما فيها من رغبة للاقتباس والتنويع ، وفـي خلط غير منظم ولامدروس ، فنعتبرها دليلا مؤكدا لشعبية هذا اللون من الشعر· ثم ان المؤلف الشعبي يعبر عن واقع مجتمعه ، ولكن لامناص له من النظر الى عمل غيره والاستفادة منه وتقليد اشكاله وموضوعاته ، وخـاصة تلك التى حظيت عند الجماعة بالقبول وغدت انماطا ينسج عليها ، وقد يسرف فى ذلك فيغدو عمله مجرد نقل وتقليد · وهو كفنان لامناص لـه كذلك من تحكيم تجربته والاستنتاج منها ، وهى كلها اشياء قد تبعده قليلا او كثيرا عن الواقع ·

ومانظن تدوين بعض نصوص هذا الشعر يؤثر على شعبيته طالما أن الجماهير توارثته عبر القرون والاجيال وتداولته عن طريق الرواية الشفوية، لم تلجأ فى ذلك الى ماهو مكتوب · ولايساورنا أدنى شك فى أن الذيـن قاموا بتسجيل نصوص من الزجل فى كنانيش هم من غير طبقات العوام·، وأنهم فعلوا ذلك اعجابا بهذا الزجل او تلبية لرغبة الكبراء والحكام ·

اما معرفة منشىء الزجل فلانـرى فيها مايتنافـى والجماعية ، فليست الجماعية ان يجهل الفرد وتهدر الجماعة حقوق انتاجه وتمتص فنه وابداعه فيه ، وانما الجماعية أن تتبنى الجماعة انتاج الفرد الذى يستطيع ببراعته وعبقريته ان يقنعها به ، فتتقبله وتعجب به ، وترتضيه وتتداوله وتـذيعه وتحافظ عليه ، طالما ان هذا الانتاج الفردى يلائم ذوقها ، وطالما انه لايصبح له كيان مالم توافق عليه (1) ·

---

1) لعلنا ان نشير الى ان انتشار الطباعة اليوم سيؤثر على وسائل تداول هذا الشعر ، وسيحافظ على اسم صاحبه وحقه فى الانتاج ، لاسيما ونطاق محو الامية آخذ فى الاتساع ·

الباب الاول

الشكـــل

الفصل الاول

مفهوم الزجل وانواعه

أولا : مفهوم الزجل

اذا رجعنا الى النصوص القديمة نحاول البحث فيها عن ورود كلمة «الزجل» فانا نجدها مستعملة منذ العهود الاولى للعربية . حقا اننا لانعثر لها على ذكر فى القرآن الكريم ، ولكننا نصادفها واردة فى الحديث النبوى الشريف . يقول ابن كثير فى تفسيره لدى اول حديثه عن سورة الانعام: «... قال شريك عن ليث عن شهر عن اسماء قالت نزلت سورة الانعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مسير فى زجل من الملائكة وقد طبقوا مابين السماء والارض ... وقال ابوبكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا ابراهيم بن درستويه الفارسى حدثنا ابوبكر بن احمد بن محمد ابن سالم حدثنا ابن أبى فديك حدثنا عمر بن طلحة الرقاشى عن نافع بن مالك بن أبى سهيل عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت سورة الانعام معها موكب من الملائكة سد مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والارض بهم ترتج» . ورسول الله يقول : «سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم» ثم روى ابن مردويه عن الطبرانى عن ابراهيم بن نائلة عن اسماعيل بن عمر عن يوسف بن عطية بن عوف عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت على سورة الانعام جملة واحدة وشيعها سبعون الفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد» (1) ويقول ابن الاثير : «زجل (ه به فيه) انه اخذ الحربة لابى بن خلف فزجله بها أى رماه بها فقتله ، ومنه حديث عبد الله ابن سلام : فأخذ بيدى فزجل بى اى رمانى ودفع بى (ن ، وفى حديث

---

1) تفسير القرآن العظيم لاسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت سنة 774 الجزء الثانى صفحة 122 الطبعة الثالثة مطبعة الاستقامة القاهرة 1956 - 1375

الملائكة) لهم زجل بالتسبيح اى صوت رفيع عال» (1)

كذلك نجد الكلمة واردة فى الشعر الجاهلى ، يقول الاعشى :

تسمع للحلى وسواسا اذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل

أى ريح مصوتة ·

ويستعرض الزبيدى فى «تاج العروس» معانى كلمة الزجل فيقول : «... (والزجل محركة اللعب والحلبة و) خص به (التطريب) وانشد سيبويه

له زجل كأنه صوت حاد   اذا طلب الوسيقة او زمير

(و) الزجل ايضا (رفع الصوت) وللملائكة زجل بالتسبيح والتهليل اى صوت رفيع عال وقد (زجل كفرح) زجلا (فهو زجل وزاجل) وربما اوقع الزاجل على الغناء · قال : وهو يغنيها غناء زاجلا (ونبت زجل صوت) كذا في النسخ والصواب صوتت (فيه الريح) ··· والزجل محركة نوع من الشعر معروف محدث ···» (2)

ومثل هذا نجده فى كتب الادب على حد ما نقرأ فى «العاطل الحالى والمرخص الغالى» حيث يقول صفى الدين الحلى : «والزجل فى اللغة الصوت، يقال سحاب زجل اذا كان فيه الرعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد ايضا والجماد زجل · قال الشاعر :

مررت على وادى شيات فراعنى ❀ به زجل الاحجار تحت المعاول

تسلمها عبل الذراع كأنما ❀ جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل

فقلت له شلت يمينك خلها ❀ لمدكر او مخبر او مسائل

منازل قوم اذكرتنا حديثهم ❀ ولم أر احلى من حديث المنازل» 3

ويحاول الحلى أن يجد تعليلا للربط بين الاستعمال اللغوى والاستعمال الاصطلاحى فيضيف : «وانما سمى هذا الفن زجلا لانه لايلتذ به ويفهم

---

1) النهاية فى غريب الحديث والاثر للمبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الاثير الجزء الثانى صفحة 122

2) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدى مادة زجل الجزء السابع ص 355

3) مخطوط مكتبة بايزيد باسطمبول رقم 5542 الورقة 17 ظهر

مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوت فيزول اللبس بذلك» (1)

وليس من شك في ان بداية استعمال كلمة الزجل فى معناها الاصطلاحى مرتبطة بظهور هذا الفن . واذا رجعنا الى مختلف المصادر التى عنيت بالاشارة الى نشأته فاننا نجدها تكاد تجمع على أن الذى اخترعه هو ابن قزمان . وليست تهمنا فى الواقع معرفة اسم السابق الى نظمه بقدر ما يهمنا أن نعرف كيفية انتقال اللفظ الى الاستعمال الاصطلاحى الادبى — هنا يعرض احمد الرباط فى كتاب «العقيدة الادبية فى السبعة فنون المعنوية» حكاية تقول « ان أول من تناشد به الشيخ أبوبكر بن قزمان المغربى ، وقيل لما انه كان فى الكتاب وكان مراهق السن ، فدخل على شيخه الفقيه غلام جميل الصورة حسن الوجه حلو الجانب فنده عليه ابن قزمان وأجلسه بجواره ثم صار يحييه بالسلام ويوادده بالحديث فبص الفقيه ففهم وعرف مافى ضمير ابى بكر من الحب للغلام فعبس الفقيه فى وجه أبى بكر وأمر الى العريف بضربه ، فضرب العريف ابن قزمان فلما فرغ العريف من ضربه اخذ أبوبكر لوحه ومسك القلم وقد كتب هذا الوزن ، وهو أول اوزان الزجل :

الملاح أولاد اماره ✻ والوحاش اولاد نصاره

وابن قزمان جا يغفر ✻ ماقيل له الشيخ غفارة

فأحس الفقيه على ابى بكر فأخذ اللوح من يده فرأى فيه ماتقدم ذكره، فقال الفقيه :

«هجيتنا يابن قزمان بكلام مزجول يعنى مقطع ، فسموه زجلا» (2) .

---

1) مخطوط مكتبة بايزيد باسطمبول رقم 5542 الورقة 17 ظهر و 18 وجه . ونفس الكلام نقرأه فى «بلوغ الامل فى فن الزجل» صفحة 68 مخطوطة الزيتونة رقم 4467 . ونقرأه كذلك فى «تاريخ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر» لمحمد المحبى لدى ترجمة ابى بكر بن منصور بن على العمرى الدمشقى المتوفى سنة ثمان واربعين والف حيث تعرض للفنون السبعة المستحدثة ومنها الزجل (الجزء الاول 108 — 109 — 110 المطبعة الوهبية بمصر سنة 1284) .

2) مخطوط اسعاد افندى (السليمانية — اسطنبول) رقم 2867 الورقة 6 ظهر 7 وجه

ولكنا نجد استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى يرى انه استعمل قبل ابن قزمان وفى نوع من الشعر الشعبى غير الزجل ، يقول : «ولعل لفظ الزجل كان فى الاصل يطلق على النوع الشعبى ثم أطلق على النوع الشبيه بالتوشيح لفظ (هزل) ثم اختلط اللفظان فيما بعد (1)» ويعتمد فى ذلك على نص ينقله من كتاب «جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس» منسوخ سنة 1046 اى قبل وفاة ابن قزمان بما يقرب من قرن كامل ، جاء فيه : «لايجوز للقلارقين ان يحضروا الملاهى والزجل فى العرائس والمشارب بل يجب عليهم الانقلاب قبل دخول تلك الاطراب والازقان والتنحى عنهم» (2) ويعلق على هذا النص بقوله : «وهذا نص فيما نعتقد عظيم الاهمية ، وقيمته ليست فى أن الزجل كان موجودا قبل ابن قزمان فحسب بل انه كان شعبيا له مكانة فى العرائس بين الموسيقى والرقص والاغانى» (3) ٠

ومن لطيف ما يستأنس به فى البحث عن أصل التسمية ماذكر لنا احد المعتنين من أن لها صلة بسيدى «زجل» صاحب الضريح المعروف فى شمال المغرب ٠ وقد وجدنا له ذكرا عند سليمان الحوات فى «ثمرة انسى فى التعريف بنفسى» حيث قال عنه : «... سيدى زجل دفين بومنار من القبيلة التى تنسب اليه (بنى زجل) وقد قدم على المغرب مع موسى بن نصير سنة تسعين من الهجرة فى خلافة الوليد بن عبد الملك واسمه محمد ولقبه زجل وكان خيرا عالما شاعرا ...» (4)

ومع هذا فان المغاربة لايطلقون الزجل فى الغالب على غير النوع الاندلسى المعروف ، أما شعرهم الشعبى فيطلقون عليه أسماء أخرى أهمها «الملحون» ٠ فهذا سيدى ابراهيم التادلى فى «فتح الانوار فى بيان مايعين على مدح النبى المختار» يقول : «واعلم ان المديح النبوى يكون بالاشعار

1) الزجل فى الاندلس صفحة 59
2) مخطوط المكتبة الاهلية فى مدريد رقم 4879 ورقة 333 وجه ٠ ويشرح القلارقين بأنهم Clérigos اى رجال الكنيسة
3) الزجل فى الاندلس صفحة : 59
4) من مخطوطة خاصة للاستاذ سعيد اعراب ــ اللوحة الرابعة ٠

الموزونة ذات البحور الخمسة عشر ··· ويزاد ما اخذ من هذه البحور كمخلع البسيط ومجزو الرمل ومشطور الرمل ومشطور الكامل · ويكون أيضا من الازجال والموشحات وكذا الملحون كالقصائد والبراول لكن الملحون منه ما يوافق الاوزان الخمسة عشر المتقدمة ومنه ما يخالفها ...» (1)

ونجد التفرقة بين النوعين الاندلسي والمغربي واضحة عند اصحاب الموسيقى الاندلسية الذين يفرقون في الاشعار التي تنشد في هذه الموسيقى بين الازجال ، يقصدون بها الشعر الاندلسي المعروف بهذا الاسم ، وبين البراول (2) ، وهي اشعار عامية مغربية تنشد في بعض ميازين هذه الموسيقى ·

لهذا قد يلاحظ علينا في اتخاذ اسم «الزجل في المغرب» عنوانا لرسالة تبحث في لون من الشعر الشعبي المغربي ، طالما أن المغاربة لايطلقون «الزجل» على شعرهم الشعبي ، وطالما انهم لايقصدون من هذه التسمية غير النوع الذي عرف في الاندلس · ولكنا نرد على مثل هذه الملاحظة بما يلي من نقاط :

اولا : على الرغم من أن لفظ الزجل شاع اسما للفن الشعري الذي سبق اليه الاندلسيون ، مجردا من الاعراب متعدد القوافي متجدد الاوزان ، فانا لانشك في أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل ماكانوا ينظمون باللغة العامية · وقد سبق أن ذكرنا ما ذهب اليه استاذنا الجليل الدكتور الاهواني من أن الزجل كان في الاصل يطلق على النوع الشعبي وان الهزل كان يطلق على النوع الشبيه بالتوشيح · ونجد الحلي ينسب التعميم لغير الاندلسيين حين يقول معقبا على ذكر الموشح والزجل والمزنم والمكفر : «وباقي البلاد لايعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ما اعرب موشحا وكل ماخلا من الاعراب زجلا وما اشترك فيه الاعراب واللحن مزنما في أي فن قصد الناظم» (3) · بل اننا نجد احمد الرباط يذهب الى «ان الشعر هو أصل كل فن معرب وأن الزجل هو أصل كل فن ملحون» (4) · كذلك نجد الحلي

1) مخطوط خزانة الرباط العامة رقم 3285 D صفحة 27 – 28 ·

2) سنعود اليها في الجزء الثاني من هذا الفصل كنوع من أنواع الزجل·

3) العاطل الحالي الورقة 19 وجه 4) العقيدة الادبية الورقة 18 ظهر ·

يعتبر من الزجل شعرا عاميا لايسير على نظام الزجل المعروف ، ويعتبر نظم هذا الشعر مرحلة سابقة على نظم الزجل ، فهو يقول : «وأول ما نظموا الازجال جعلوها قصائد مقصدة وأبياتا مجردة على عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لايغايره بغير اللحن واللفظ العامي وسموها القصائد الزجلية ...» (1) ثم ذكر ان لمدغليس في ديوانه ثلاث عشرة قصيدة من هذا النوع أشار الى مطالعها (2) ، ومنها قوله :

مضى عنى من نحبو وودع ※ ولهيب الشوق فى قلبى قد اودع

ثانيا : اطلق بعض المغاربة لفظ الزجل للدلالة على ماينظمون من شعر بالعامية ، فعند الشاعر الشعبى سعيد التلمسانى فى احدى قصائده متحدثا عن نفسه :

اذا كنت زجال فيها كيف تريد (3)

وعند زجال آخر اسمه على يهجو ويفخر (4) :

انكمل زجلى ولى فالزجول ※ انكمل زجلى

قولوا للعكلى يترك لفضول ※ قولوا للعكلى

والاديب على ايفوق فى لغزول ※ والاديب على

وفى «نشر المثانى» لابى عبد الله محمد بن الطيب بن عبد السلام القادرى لدى ترجمة الشيخ ابى عبد الله محمد بنمبارك الزعرى دفين تاوت: «وخاطبه سيدى محمد الشرقى :

ياساكن ارض البوادى ※ لاتتعداشى الموارد

اصحب هداة الطريقا ※ تحصل له كل الفوائد

فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

تالله ما كان هذا ※ الا من مجدوب سالك

---

1) العاطل الحالى الورقة 22 وجه .

2) المصدر السابق من الورقة 22 حتى 25 . ويبدو ان الحلى خلط بين الزجل والشعر الملحون الذى كان معروفا فى الاندلس والذى سنعرض له بعد سطور .

3) مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1644 صفحة 70 .

4) من مجموع مخطوط بالمكتبة الوطنية فى مدريد غير مرتب رقمه 5307 .

يسقى خمر الرجالا * مملوك من الحق مالك» (1)

ثم قال بعد ذلك : «وماجلبه من قوله : يالساكن الخ ... هو زجل فى وزن المجتث» (2) . وعند ابن عسكر فى «الدوحة» لدى ترجمة محمد بن يحيى البهلولى (3) ان «له زجليات» (4) . ويقول محمد الكانونى فى «جواهر الكمال فى تراجم الرجال» فى ترجمة احمد بن على الغنيمى : «له قصائد ملحونة (ازجال)» (5) .

ويقول ابن زيدان فى ترجمة عبد القادر العلمى (6) : «ومماينسب للمترجم من الازجال هو له حقيقة» (7) .

ثالثا : يبدو أن المغاربة على الرغم من ميلهم للتمييز بين الفنون ، وقعوا فى خلط بينها وتصور ان لم يكن خاطئا فهو على الاقل غير واضح . يقول التادلى فى «فتح الانوار» متحدثا عن أركان السماع واولها الشعر : «ان الكلام الذى يتكلم به الانسان من حيث هو اما معرب او ملحون ، وكل منهما اما منظوم او منثور ، لكن جرى فى الاصطلاح ان الموزون يطلق على النظم المعرب والملحون يطلق على النظم غير المعرب ... والملحون هو موشحات وبراول وقصدان» (8) . حيث جعل الموشح لونا من الوان الشعر الملحون (9) . كذلك نجد القادرى فى «نشر المثانى» فى تعليقه على الابيات

---

1) الجزء الاول صفحة 47 طبعة فاس . وانظر المساجلة كذلك فى «ممتع الاسماع» صفحة 128 — 129 لدى ترجمة محمد بن مبارك الزعرى .
2) المصدر السابق .
3) سنعود اليه فى الفصل الثانى من باب «الاعلام» . 4) ص 46 .
5) ص 26 وسنعود اليه فى الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة المدغرى .
6) سنترجم له فى الفصل الثالث من باب «الاعلام» .
7) اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج 5 ص 340 .
8) صفحة 4 — 5 — 7 .
9) مع اعتبارنا ان هذا خلط نشير الى ان الموشح الملحون عرف فى اليمن على حد مايذهب صاحب «سلافة العصر» من ان لاهل اليمن نظما يسمونه الموشح غير موشح اهل المغرب ، والفرق بينهما ان موشح اهل المغرب يراعى فيه الاعراب بخلاف موشح اهل اليمن فانه لايراعى فيه شيء من الاعراب بل اللحن فيه اعذب وحكمه فى ذلك حكم الزجل . صفحة (243) .

السابقة يذهب الى ان الزجل كلام معرب وملحون حيث يقول : «هو زجل في وزن المجتث على طريقة الازجال من كونها ملفقة من الكلام الملحون والمعرب» (1) ·

رابعا : لم يطلق المغاربة تسمية معينة على شعرهم الشعبي وانما اطلقوا عليه تسميات كثيرة سنستعرضها ونمثل لها بعد قليل ·

خامسا : قد تكون لتسمية الملحون الغالبة على الشعر الشعبي المغربي وما يوحي به الشبه بينها وبين تسمية الملحون التي تطلق على القصائد التي كانت تنظم في الاندلس خالية من الاعراب ، مايدعو الى الظن بأن الشعر الشعبي المغربي ربما كان امتدادا لهذا اللون من القصائد وبالتالي امتدادا للتسمية · ولكنا حين ننظر في الشعر الملحون الاندلسي والشعر الملحون المغربي ، نقيسهما بالزجل في الاندلس ، نجد الملحون المغربي في تعدد اوزانه وتنوع قوافيه وعدم خضوعه لبحور الخليل اقرب الى الزجل منه الى الملحون الاندلسي الذي التزم شكل القصيدة المعربة لم يختلف عنهاالا في ابتعاده عن الاعراب · فعند ابن سعيد متحدثا عن احد الشعراء بعد ان اورد له زجلا قال : «وله شعر ملحون على طريقة العامة منه :

صحبتي والعنق لمليح لمخلخل * حبي منك ثابت وديني مخلخل
وعلام بعت ديني ابحبك * لو عطيت مرغوبي فيك لس اتسال
فلقد عندك حلاوي لي منوع * وجمالا طوع الامر يخذل» (2)

سادسا : ليس من شك في أن اسم الزجل غدا في العصر الحديث وفي معظم البلاد العربية يطلق على كل ألوان الشعر التي تنظم باللهجات العامية المحلية ؛ على الرغم من بعد هذهالالوان شكلا ومضمونا عنالزجل الاندلسيالذي لميعد ينظم،وليس منشك كذلك في أنالناطقين بالعربية في البيئات المختلفة يحسون الفوارق اللغوية التي تحول دون توحيد السنتهم ، وان حماة هذه اللغة يسعون جاهدين الى هذا التوحيد وخاصة في مجال المصطلحات

---

1) الجزء الاول صفحة 47 ــ 48 ·
2) الجزء الثاني من المغرب صفحة 222 ومثل هذا الشعر هو الذي اطلق عليه الحلي «القصائد الزجلية» (انظر العاطل الحالي الورقة 22 وجه)

ونحن نرى فى هذا خطوة بعيدة نحو توحيد الرؤية والتفكير والتعليم فضلا عن محو فوارق التفاهم والتعبير ، ونرى كذلك ان دراسة الاشعار العامية بصفة خاصة واللهجات العربية المحلية بصفة عامة هى السبيل الموصل الى الوحدة اللغوية المنشودة ·

لذا ، واعتمادا على هذه التعليلات ، فانا نفضل اطلاق «الزجل» على كل أنواع الشعر الشعبى المغربى ، وندعو الى هذه التسمية بدلا من أية تسمية اخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار · ويشجعنا على ذلك اننا لازلنا فى المرحلة الاولى للبحث عن التراث واستخراجه وتنظيمه ووضع معاييره وتحديد مصطلحاته ثم دراسته والتعريف به ، وهى مرحلة اشبه ماتكون بمرحلة وضع الحجر الاساسى لاى بنيان · واذا كنا نقول هذا بالنسبة للتراث عامة ، فانا نلح عليه بالنسبة للتراث الشعبى خاصة ، لاسيما فى بلد كالمغرب لايعنى فيه بهذا اللون من التراث ، بل لانبالغ اذا قلنا انه لايعترف به مادة جديرة بالدرس والبحث او أى مظهر من مظاهر الرعاية والاهتمام ، وهو موقف يكاد يتساوى فيه العامة والخاصة من الناس

اما الإسماء التى يعرف بها هذا الشعر فى المغرب ، سواء عند الجمهور أو عند الاشياخ منشئين ومنشدين فهى :

اولا : الملحون :

يقول بوعمرو فى آخر القسم الثالث من قصيدة له فى الاخلاق والطباع :

ملحونا اقنادل تضوى فالداج ماخطا سرداق

والناس رايدا تطفى نور اقنادلو افكل اغسيق

ويقول حسون وتير من ابيات يعرض فيها ببوعمرو :

مليت امن السجيا ولى فيها العار والشنار

واغضب اعلى الشعر الملحون اللى ناظمو فاضها

ويقول المصمودى فى آخر قصيدة «الجار» :

انا حر افقلب كل اكريه ازنجار

لو ينظم بالذهب انا لو عيار

بالميزان الرجيح نـعـرف غايت ملحوني

ويقول المدغـري :

فالملـحـون اعليه لـنـظـار

واعلى اللفاظ والمعنى حق انظارو

نعنـي جـوهـر تـاج خنار

بها عـل لـعـوارم تفخر خنارو

ويقول عبد الرحمن بن لفقيه في آخر قصيدة «للاحسنا» :

خـذ الـحـافظ اتـــراجمنا

من اصميم لفكر عبد الرحمان بالميازن

خترعها في اتـراجم الملحون

ولعلنا ، قبل الانتقال الى الالفاظ الاخرى التى اطلقت على هذا الشعر أن نقف قليلا عند اصل التسمية بالملحون ٠ والحقيقة أنا في محاولة التعليل أمام افتراضين مصدرهما معنيان مـن معاني اللـحـن ، هما الغناء والخطأ النحوي وقد استبعد الاستاذ محمد الفاسي ان تكون التمسية مشتقة من اللحن بالمعنى الثاني حين قال : «والحقيقة ان لفظة الملحون هنا مشتقة من اللحـن بمعنى الغناء لان الفرق الاساسي بيـنـه وبين الشعر العربـي الفصيـح أن الملحون ينظم قبل كل شيء لكي يغنى به» (1) وقال كذلك : «اول مايتبادر للذهن انه شعر بلغة لااعراب فيها فكأنه كلام فيه لـحـن ، وهذا الاشتقاق باطل من وجوه لاننا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون ولـم يرد هـذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب ٠ والـــذي أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى التنغيم لان الاصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء ٠ ونجد مايؤيد هذا النظر من قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخمسين في أشعـار الـعـرب وأهـل الامصار لهذا العهد بعد ان تكلم على الشعر باللغة العامية فقال : وربـمـا يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية» (2) ٠ ونحن

1) مقال : «نظرة عن الادب الشعبي بالمـغـرب» ـ مجلة البينة ـ السنة الاولى العدد الرابع غشت 1962 ٠

2) مقال : «الادب الشعبي المغربي الملحون» ـ مجلة البحث العلمي ـ العدد الاول السنة الاولى (يناير ـ ابريل 1964) ٠

يرى على العكس من هذا ان التسمية اشتقت من اللحن بمعنى الخطأ النحوى ونعلل لذلك مناقشين رأى الاستاذ الفاسى من وجهات ثلاث :

الاولى : ان هذا الشعر لم يكن ينظم اول الامر ليغنى به وان اتخاذه للغناء تم فى مرحلة تالية ، وقد فصلنا فى ذلك القول فى المدخل ٠

الثانية : اننا حقا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون لان الفصاحة قد تكون فى الملحون ، وغير الملحون ، كما سنتعرض لذلك فى الفصل الثانى من هذا الباب ٠ وقد جانب الاستاذ الفاسى الصواب حين استعمل كلمة «فصيح» ليقابل بها كلمة «ملحون» ومانظنه يجهل ان الذى يقابل الشعر الملحون هو الشعر المعرب وليس الفصيح ٠

اما ثالث هذه الوجهات فهى ان استعمال هاتين التسميتين : المعرب والملحون متعارف عليه عند كل الذين تعرضوا للونين من الشعر ٠ فابن سعيد يقول متحدثا عن بعض الشعراء : «وله شعر ملحون على طريقة العامة» (1) ، والحلى يتحدث عن الفنون المستحدثة فيقول «وهى الفنون التى اعرابها لحن وفصاحتها لكن وقوة لفظها وهن ، حلال الاعراب بها حرام وصحة اللفظ بها سقام» (2) ويقول : «... وبعض البلاد لايعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ماعرب موشحا وكل ماخلا من الاعراب زجلا وما اشترك فيه الاعراب واللحن مزنما فى أى فن قصد الناظم» (3) ثم يقول : «ثم تداوله العامة ومن لاأنس له بالقواعد ومن عجز عن الاعراب حتى صاروا ينظمونه ملحونا» (4) ، بل اننا نجد الشعراء انفسهم يستعملون الاصطلاحين على حد مايقول ابن مقاتل فى نهاية احد ازجاله :

كم خصم فى المقاتل ✻ صابوا بن مقاتل ✻ وكم ذا فى المحافل
قد انشأ غصن حافل ✻ من حل بيت فى مربع ✻ ملحون بألف معرب (5)

---

1) الجزء الثانى من المغرب — ص 222 ٠
2) العاطل الحالى — الورقة 15 ظهر ٠
3) المصدر السابق — الورقة 18 ظهر ٠
4) المصدر السابق ٠ (5) روض الآداب لاحمد بن الحجازى مخطوط آيا صوفيا (السليمانية — اسطنبول) رقم 4017 الورقة 101 ظهر ٠

اكثر من هذا ان المغاربة استعملوا الملحون فى مقابل المعرب على حد ما نقرأ عند التادلى فى «فتح الانوار» حيث يقول : «والملحون يطلق على النظم غير المعرب» (1) ٠

اما استدلال الاستاذ الفاسى بكلام ابن خلدون فمطعون فيه من ثلاثة وجوه :

اولها : ان كلام ابن خلدون لايقصد به الشعر العامى المغربى ، فهو يقول : «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الاعاريض على ماكان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات ـ فأهل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات ـ وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة» (2) ٠

ثانيها إن ابن خلدون لم يذهب الى ان اللحن الموسيقى والغناء من خصائص هذا الشعر ومميزاته اللازمة له ، وانما ذهب الى أنه قد يتخذ للغناء فى بعض الاحيان ، وهذا مايفهم من استعماله «وربما» ٠

ثالثها : ان ابن خلدون حين تحدث عن «عروض البلد» الذى استحدثه أهل الامصار بالمغرب ونسجوا عليه فى أشعارهم الشعبية لفت النظر الى خلو هذه الاشعار من الاعراب ولم يشر الى أنها كانت تغنى ، ولو كانت كذلك لما أهمل مثل هذه الاشارة ، فقد قال : «فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا» (3) ٠

ثانيا : العلم الموهوب ، يقصدون انه هبة من الله مصدره الالهام :

يقول التلمسانى يرثى المغراوى :

بستان الزهر صاحب السر المكنون ※ علم الموهوب ماتنهيه اقراطس (4)

ويقول المدغرى فى احدى قصائد «الساقى» :

---

1) صفحة : 5 ٠

2) المقدمة صفحة 510 طبعة بولاق ٠

3) المصدر السابق صفحة 530 ٠

4) الكناش ك 1644 صفحة 31 مخطوط خزانة الرباط العامة ٠

واسلام الله اعلى الشراف واعلى الطلبا ناس لحديث واعلى شراحو
واعلى من يتلى قول ربنا واقرأ بالترتيل
واعلى ناس الموهوب كافا واعلى من قصد النبى اوزار افمر كاحــــو
واعلى ملت لسلام كلها يبقى جيل افجيل

ويقول شاعر لعله احمد ابجوات فى آخر قصيدة «الحب احرك لـــى بجيوش» :

واسلامر بنا للشرفا والقاريين ❊ واعلى اهــل العلم المــوهــوب

ثالثا : السجية :

يقول بوعمرو :

فامهامه انسجيا نغرس حرجات كلها روناق
بالنور والنواور والطيب والشــجـر لبسيق
والقلب فالسجيا قوتو وامعيشتو اعلى نسق
والفاهمين طــرز الغايا يدريو قولتى تحقيق

ويقول حسون وتير من ابيات يعرض فيها ببوعمرو :

مليت امن السجيا ولى فيها العار والشنار

ويقول الجيلالــى امتيرد فى آخر قسم من خلخاله :

ماضرت اعلى طلبا اولا مشى لى عمرو خلــخــال
غير ابديوان اشطارتى وعقلى واكمال اسجيتى وترتيب اشغالى
جــلــت فى هــذا الـحــلا ودرتها فــرجا للعقال

ويقول ابن على فى آخر قسم من محاورته :

بلطافا واسجيا جبت هذا القطعا بالفاظها ومعناهم
اذكى امن الزهر واحلا من سكر فقلوب اهل التسليم ولجحود اتجيهم زقوم

رابعا : لكلام ، يقصدون انه الكلام الحق الصادق ، وكأنهم باستعمال هــذه التسمية على صيغة التعريف المطلق لايعتبرون ماسواه من الكلام ٠

يقول المغراوى فى آخر قسم من قصيدة له فى الاشتياق لمكة المكرمة :

ماهوشى من والى اللى ايجيب لكلام
واعسى اللـــى قاصر فـــى اهــوى افنون الكذب

ويقول ابن على فى آخر الحجام :

وامـشـالـى عند الناس يـرحـامـو

يذكار فى ابساط الملوك اكلامنا ويروى القلب الملهوف

ويقول محمد بن على بن ريسون :

واللى يحفظ هاذ لكلام ※ ينجا من كل اعذاب

ويقول المدنى التركمانى فى دريدكة قصيدته فى «السولان» :

وانهيت لـكـلام افختم السولان

خامسا : النظم أو النظام :

يقول المغراوى فى «هول القيامة» :

نـرجـع لحديثنا المـنـظـوم ※ فـتـمـام امشاهـد لقصـيـد

ويقول كذلك فى قصيدة الشوق لمكة المكرمة :

يامن يهجرنى هكذا انصيغ النظام ※ نعت الدر المنظوم فى إسلوك الذهب

ويقول المدغرى فى آخر قسم من الزهو :

خذ طرز اختيم العنوان

للرواسخ فيه اعلوم لكتوب لانقصانى

لاازيـادا نظم اتـرجمان

ويقول ابن على المسفيوى فى آخر «الموسول» :

يالحافظ نظمى بين لمحافل اتصول ※ كررو بلسانك بكرا مـع لصلا

سادسا : الشعر :

يقول بوعمرو :

الشعر فيه اشفا لمريض ايلا افنا وزاد ارقـاق

ايصيب فيه لونيس الناطـق بالسكات والتحقيق

ويقول ابن على فى اول سولانه :

بسؤالى استفخر واتلق كل من ايعاتب

اللى ايعاتبك كنو عاتبنا ※ وغاتبك كنو غاتبنا ※ وهكذا فالشعر اكتبنا

ويقول فيه كذلك :

وانسال امـن ادعاو اعلى علم الشعر ولمواهب

ويقول في اول قسم من المحاورة :

افراجا مقصيا اكما اسمعت انعاود للسامعين ترضاهم

برجاحت لعقل وابلاغت لحبار جبت اخصام الخودات في انهايت شعرى منظوم

سابعا : القريض :

يقول الحاج اعمارة في آخر قسم من فاطمة :

يــاراوى لبيات عـــنـــى * غنى اوصول لاتخشى مـــن عـديـانـى

انظامـى وقــريض وزنـــى * شــلا ايطيق عــنـو مطمـوس اعدانـى

ويقول ابن عمر الكفيف في حربة «الداعى» :

انــا زنجار فــى اعيون امــن ادعبا * قــول لــلايـم الـوغـد الداعى

برضا ناس لقريض حزت اشجاعا وابراعا

ويقول احمد ابجيوات في «عرصة الرضا» :

افلــمــواهب لقريــض * ساسو طايــح لهلا اينوضـــو

ثامنا : لوزان : اى الاوزان

يقول العلمي في آخر «المزيان» :

لو امدحت من لعجام ارديل في لوزان * ايعود ساخي مهما فقصايـد ينظر

ويقول كذلك في ختام قصيدة «كان اخلاكى هانى» :

واتـــهـــلا فـــوزانـــى * واكتم ابياتها عــن هــل لعــقــول لخشان

ويقول ابن على المسفيوى في نهاية «الورشان» :

والحاضريـــن رحموا ناظم لوزان * فــى بابــكـم ديـمـا مســؤول

تاسعا : اللغا : يقصدون الكلام ، وهي في الاصل اللغة ٠

يقول امتيرد في «ضيف الله» :

قــال افصيــح اللــغــا الحبر الجيلالــى * لــفــقــت اجواهــر النظام

ويقول ابن على في اول قسم من الشمعة :

يستغرب من لاتحدثو بخطابــك * لغريم فاللغا يسطابــك

ويقول ابن سليمان في آخر قسم من «خدوج» :

ولعبير اسلامى * لاهل اللغا اعمامت هــامــى

والجاحدين تحت اقدامــى

ويقول ابن عمر الكفيف فى آخر «الداعى» :

يـاحـافظ اللغا اتــواضع ❊ لاهل المعنى اتـريـح

بل انا نجد عبد الله بن احساين فى أول قسم من قصيدة له فـــى مدح الرسول عليه السلام يستعرض ثلاث تسميات هـى : اللـوغ واللغا واللغوا ، فيقول :

مداح مادحو بلسانى والشوق ليه من لكنان

والمادحو ابذهب اكنانـــو يرضاه ما اعيا بلسان

اللوغ واللغا واللغوا بين اللها امع لسنان

والحب د الشفيع الشافع فالقلب او لدخال اتصان

وقد شرح لنا بعض الاشياخ هذه الاسماء فـذهـب الى ان المقصـود باللوغ العربية الفصحى وباللغا العربية الدارجة وباللغوا اللهجة البربرية.

عاشرا : العلم الرقيق :

يقول المدغرى فى آخر قصيدته فى الخصام بين الزهور :

نهيت حلـتـى لاربـاب العلم الـرقـيـق

الحادى عشر : لكريحة ، سموه كذلك لصدوره عن القريحة .

يقول محمد بن الوليد التنسيطى الدرعى فى حربة احدى قصائده :

ناديت بكريحتى اصوتـــى ❊ وارفعت اكفوفى الرب الملكوت وادعيت

اقـلـت فـى ادعـــوتـــى ❊ يـامـن نجيت يـونس افبطن الـحـوت

امنا قبل الموت ومابعد الموت ياربى كن لى افموتى

ثـانيا : أنواع الـزجـل

يقدم لنا عبد الرحمن الفاسى فى «الاقنوم فـى مبادىء العلوم» تحت عنوان «علم ميزان الملحون» (1) انواعا من هذا الفن يوصلها الى خمسة عشر ينظمها فى قوله :

علم بـأنـواع مـن الملحـون ✻ وردهـا لضابط المـوزون
لـه مـن الاوزان خمسة عشر ✻ على الذى كثر فيه واشتهر
اولها الشرقى الكبير والثانـى ✻ شرقى صغير باختلاف الاوزان
والثالث الشرقى الذى قد طرزا ✻ من وزن ذاك العروبى بـرزا
والرابع الشرقى الصغير صاحب ✻ الـتـاء فيه زائـد يناسـب
والخامس العواد والمـرشـوق ✻ ثم المـزوج الـذى يلـيـق
وبعد البهلون (2) والمسناوى ✻ وبعده القفر كـذا العذراوى
وبـعـده الحورشـة العشارى ✻ ثم العروبى والقصيد الجارى

ولكنا باستثناء العروبى الذى سنتحدث عنه بعد سطـور ، وباستثناء القصيدة التى هى مدار هذه الرسالة ، لانعرف من هذه الانواع الا العذراوى، وهو من القطع التى تنشد فى الموسيقى الاندلسية ، وقد يـكـون مـوشحا او زجلا ٠

فمن التوشيح العذراوى مانجده ينشد فى صنعتى الـدرج والبسيط من نوبة الاصفهان ، وهو (3) :

1) من أواخر الجزء الثانى من «الاقنوم» مخطوط الخزانة العامة بالرباط D 21 II والاقنوم عبارة عن دائرة معارف نظم فى حوالـى خمسة آلاف بيت مقسمة على مائتين وواحد وثمانين علما او بابا ٠ وقـد كتب عقب الابيات المذكورة «بياض قدره ورقة» مع ان الناسخ يقول انه نسخ من نسخة المؤلف ٠
فى نسخة اخرى من «الاقنوم» رقمها ك 15 : البهلول
3) انظره فى «نوبة الاصفهان» ص 20 و 29 تنظيم Arcadio de Larrea ٠
=

يـامـن ملك عقـلـى رهيـن * رأيـت على خـده اليمين

الزهـر والورد والسوسـان والياسمين

قلت له آش ذاك اعـلـى خدك * قـال لـى الـقـمـر

قلت له آش ذاك اعلى ثـغـرك * قـال لـى الـدرر

قلت له آش ذاك اعلى شفـرك * قـال لـى الـحـور

ومـا هـو تحت الجبيـن * حـاجـبـيـن امعـرقـيـن

قلت لـه انت المليح بالـحـق * قـال لـى مـلـيـح

قلت لـه انـت كحيل الحدق * قـال لـى وقـيـح

قـلـت هل بالـوصال تشفق * قـال لـى شحـيـح

قـلـت لـه امـا تليـن * وتنـيـل الـعـاشـقـيـن

الزهر والورد والسوسـان والياسمين

ومما ينشد زجلا من العذراوى هذه القطعة (1) :

لسم المالـك الديان * نـعـم المستـعـان * نبدا فى اطريز لوزان

نمدح سيد الثقلين * ذو النور والـبـيـان * والآيـات والـبـرهان

لسم الملك الاعلـى * جـل البسـمـلا * نبدا فـى النظام اولا

نمدح سيد الـرسلا * مصـبـاح الـعـلا * احمد سيـد الفضـلا

من به نرغب المولـى * يـوم الـزلـزلا * ينقدنـا مـن الـوحلا

بـدرة لـرسال * غـدا يـلـى صولا

نرجا مـن المتعال * قـوتـى على المـلا

وانقول غير محال * لارب غـيـر اللـه

يبدأ على هذا النحو ثم تستمر الاقسام على حروف مختلفة فـى

Palacin بمساعدة الفريد البستانى ـ نشر معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية تطوان سنة 1956 . وانظره كذلك فـى كتاب «الحايك» ص 47 (مخطوطة الخزانة العباسية) وانظره بعد هذا غير تام فى الكناش المخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم D 1518 ص : 41 .

1) الكناش رقم 2097 ص 1 ـ 2 (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) . انظر بنفس المصدر نموذجا آخر مما يستعمل من عـذراوى الحجازى الكبير (ص 57) .

القافية مع التزام قافية النون فى البيتين اللذين يبدأ بهما القسم ٠

كذلك يقدم لنا ادريس الادريسى فى كتابه «كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء» تقسيما لالوان لكريحة يقول فيه : «فن لكريحة هو الفن الشائع فى المغرب والمعمول به فى مدنه وحواضره وهو المعبر عنه ايضا بالملحون وذلك لان جميع الاشعار التى تستعمل فيه ملحونة يعنى الاشعار الجارية على ألسنة العامة والخارجة عن البحور الستة عشر وعن الاوزان الملحقة بها ، وهذه الاشعار لاتقل عن أربعة فنون هى الزجل والكان كان والمواليا والقوما» (1) ٠

وهو تقسيم غريب وبعيد عن واقع المغرب وحقيقة الفن فيه ، بدليل أن المؤلف حاول ان يخص كلا من هذه الفنون بفقرة فلم يجد غير نقل ماقاله المشارقة ، دون محاولة للبحث عن نماذج مغربية لهذه الفنون — ان كانت موجودة — باستثناء فن الزجل الذى مثل له ببيتين للشيخ محمد النجار(2) او محاولة للبحث عن شبيه لهذه الفنون فى المغرب ٠ ولسنا ننكر ان فن الزجل موجود فى المغرب ، وهو المعروف بالملحون ، بل انا نعتبره شاملا لكل الاشعار الشعبية ؛ ولسنا ننكر كذلك ان للفنون الاخرى ما يماثلها ، فعندنا الموال وكان حتى كان ، وعندنا اناشيد ونداءات ومرددات وألوان مختلفة من الاغانى والاشعار ، ولكن هذا لايكفى لحصر انواع الكريحة فى تلك الفنون كما لايكفى لجعلها فنونا مغربية خاصة وأنها غير معروفة بهذه الاسماء ٠

والحقيقة أنه يصعب استقصاء كل ألوان الشعر الشعبى فى المغرب ، والسبب ان له مواطن مختلفة وأدوات متباينة ، فهناك المدن والقرى والبوادى والجبال ، وهناك السهول والريف والاطلس وسوس ، وهناك لهجات متباعدة ، الريفية والشلحية والسوسية والعربية مع تباين بين البيئات التى تتحدثها سواء فى المدن او خارجها ٠ ولكل لهجة من هذه اللهجات شعر شعبى خاص ، ولكل موطن من تلك المواطن أدبه الذى يختلف

---

1) صفحة : 108 الطبعة الاولى (مطبعة الرباط) سنة : 1935 ٠
2) انظر صفحة : 109 — من المصدر السابق

شكلا ومحتوى عن أدب المواطن الاخرى • وعلى الرغم مـن أنا قصرنا هذا البحث على نوع واحد من الزجل هـو القصيدة المنظمة المقننة المعـروف منشئها ، فانا نرى _ خاصة ونحن بصدد فصل تعريفي _ ان نستعرض اهم ألوان الزجل الاخرى الصادرة بلهجة عربية ، لانقصد الى حصر او استقصاء ولا الى دراسة مفصلة وانما نقصد الى التنبيه اليها وتحديد أهم الملامـح المميزة لها •

ولعلنا نستطيع أن نقسم أنواع الزجل المغربى الى شقين : احـدهما يعرف منشئه وهو القصيدة التى جعلناها مـدار هـذا البحث ، والثانـى لايعرف منشئه وقد وقفنا منه على هذه الالوان :

اولا : البرولة :

ولعلها أقرب الانواع الى القصيدة مـن حيث الميزان ونظام القوافـى والابيات ؛ وهى من صنائع (1) الموسيقى الاندلسية يغلب وجودها فـى ميزان القدام والدرج (2) ، وتعتبر بالنسبة لهذه المـوسيقى كالدريدكـة بالنسبة للقصيدة (3) • واذا كانت مجهولة المؤلف فليس لانها مـن انشاء جماهير الشعب كما هو الشأن بالنسبة لـلالوان الاخرى المجهولة المؤلـف وانما لان اسم منشئها ضاع ولـم يعن بذكـره ، والسبب ان الـكـلام فى الموسيقى الاندلسية يأتى فى المرتبة الثانية بعد النغم ، بل لايقصد منه الا الى حفظ اللحن ، وهذا مايفسر ظاهرة انشاد القطع قبل عزفها بالآلات(4)• وقد اخترنا نموذجين من البرولة : الاول ينشد فى قدام الاستهلال والثانى فى الحجاز المشرقى :

---

1) الصنايع ج صنعة وهى القطعة فى الموسيقى الاندلسية •
2) ميازين الموسيقى الانـدلسية اربعة هى : أ) البسيط ب) القايم ونصف ج) البطايحى د) القدام • وزاد المغاربة عليها ميزانـا خـامسا سموه الدرج وهو غير معروف فى الموسيقى الاندلسية التى انتقلت لتونس والتى يطلق عليها (المـألـوف) وغير معروف كذلك فـى الموسيقى الاندلسية التى انتقلت للجزائر والتى تعرف بالغرناطى •
3) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من هذا الباب •
4) وهو مايطلق عليه «لجواب» فى الموسيقى الاندلسية •

1) بروله من قدام الاستهلاك

بالعنس طلعت بدر التمام * يادات المحيا الجميل
فاق اجمالك طلعت التريا * والشمس الواسما
حرمت اجمالك ياقد لعلام * ياموالات التهليل
زرني يازينت السميا * بجمالك حاكما
اغزالي كان غشاك لمنام * مازال الليل اطويل
خدي راحا سندي اعليا * مولاتي فاطما
ربي اعطاك صولي * بالحسن ياغزالي
سمعي اغنا اسجولي * والنوم مازهالي
لاتنهري ارسولي * يا عنس لغوالي
حضرا انقيم ياريم * يالحظ الرشا النايم
سالي اسليم ماني اهميم * بين السرور والنعايم
فرح لكريم لنا ايديم * ايعود فرحنا دايم (1)

2) بروله من الحجاز المشرقي :

غدر كاس الجريال * زار احبيبي واعطف وجاد هذا الوقت ازيان
احي الدبلا ياساقي واسقي جمع الغزلان * أرى لي كاس امكان
نشرب من كف اغزال * خمرا تضوى فالكاس لونها مثل الشمس اتبان
واتلوح اعلى خد لمليح تشعل كيف العقيان * وتطرد كل احزان
نعت البرني الخصال * مول الهما والسر ولبها والزين الفتان
اغزالي اللي خدو اشريف نحكيه البلعمان * او الورد افلغصان
في اعيوني سحر احلال * واقعيني النوم احرام ما نرمش عمري لجفان
طول الديجور انبات كانراعي للفجر ايبان * غير اموله حيران
يتبسم عن الآل * جوهر منظوم انفيس في الماه احكيت المرجان
والمبسم خاتم من اذهب صنع الله الرحمان * فيهم حارت لدهان (2)

---

1) كناش 8 صفحة 152 (مجموعة الجراري) .
2) مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 2097 صفحة 71 ، وانظر كذلك كناش رقم 17 صفحة 62 (مجموعة الجراري) .

ثانيا : العروبى :

ولعله تحوير لرباعى ، وكأنه كان فى الاصل ينظم على شكله ، وهو فى الواقع لايتقيد بعدد معين من الابيات ولايخضع لنظام ثابت للقافية ، كما هو الشأن فى العروبى الذى يتخلل القصائد (1) وانما ينطلق فى الالسنة قصيرا أو طويلا ، متعدد القوافى أو محدودها ، ولكنه مع هذا يمتاز بخصائص فى انشاده أهمها أنه يستهل بـ «آناناناناّ» ويختم بالولاويل والزغاريد . وهو بعد هذا غناء خاص بنساء المدن يرددنه فى حفلات التنزه حين يخرجن للحقول والبساتين ، وفى المواسم والاعياد والمناسبات وخاصة موسم «الطيش» الذى يقام فى البيوت والمنتزهات طوال ايام عيد الاضحى، حيث تعلق «المطيشة» (2) لتركبها البنات واحدة تلو الاخرى ، وتأخذ المغنية فى الانشاد ، وهى فى الغالب أم أو جدة أو خالة ، فتستهل بمثل هذا القول :

آنانانانا والمحبوب اللى اهويت

يبقى ديما قدامى

وبعد ان تستعرض بعض أوصاف الطائشة ومحاسنها تذكر اسمها على هذا النحو :

هاذيك هى «افلانة»

لضويا اعليا قلبى واعيانى

والمستعرض للعروبيات — بعد هذا — يجدها تعكس فى الغالب وبصدق عاطفة الحب عند المرأة ونظرتها للرجل وتعلقها به ، وكأنها فرصة أتاحتها لنفسها لتعبر عما يخالج قلبها ، بعيدا عن أى حرج ، طالما أنها لاتنشد فى غير الحفلات والمناسبات الخاصة بالنساء ؛ ومن نماذج هذه العروبيات :

---

1) سنعرض له فى الفصل الثالث من هذا الباب لدى الحديث عن بناء القصيدة .

2) وتسمى فى المشرق «المرجيحة» وينطقها أهل الرباط بفتح الميم وكسر الطاء . أما أهل فاس فينطقونها بضم الميم وفتح الطاء على صيغة التصغير .

1) اطـريـق سـيـدى مخلوف ❋ واطـريـق سيـدى داود
اتـنـزهـوا يـا لـبـنـات ❋ رالصـغـر مـايتـعـاود
2) اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❋ يـاوريـدا فـى كـمـى
كـان الـدى بـيـنـتـنـا ❋ واش جـابـو لامـى
اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❋ يـا وريـدا فـالـكـاس
كـان الـدى بـيـنـتـنـا ❋ واش جـابـو للـنـاس
اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❋ يـاللـه الـبـرا
انـعـلـقـو المطـيـشـة ❋ فـاللـيـمـون بـوصـرا

3) ارميت عينى الدراكم ولاصبت انجيكم
❋ وليت من وحشكم كيف المطعوما (1)
لو كان صبت طير ايحوم من جهتكم
❋ وايقول شخبار ولكم وكيفانتما
وامحبتكم فـى قلبى مـلـمـومـا
❋ وامحبت غيركم اعليا محرومـا

4) الطير الطير ابنيت لـوشباك احرير
❋ ولا انويتو ايطير بعد مـا والف
اخـوا قـفـزى وعمر اقفز الغـيـر
❋ وارمانى فى لبحور خلانى تالف (2)
لاصارى لاقلوع لاباش انقاذف

5) الطير الـحـر شفتك فـالـدلال
واش دوك العينين امكحلين ولا اخليقت مـولانا
كنت فالما انصيفط لك (3) سبع اطيور عواما
كنت فالسما انصفط لك زوج اطيور حـوامـا
مـتـى نبنى اعليك زليجا وارخـامـا
ابـقـيـت عـايش مـا نـاخـذك غـيـرانـا

1) المسحورة ·
2) ضائع هائم ·
3) أرسل لك ·

6) قدك يسوا اميا
وخدك يســوا ثلث اميا
وادراعك يازينت الوقفا
يسوا آلــف
ألف في غشوا
والف في عشهوم
والف من خادم تگدى فالنار
يامحبوبي ودني نوبا فالشهر
واعطيني كلما من لحديث متمورا (1)
دخلت اعليك ابعينك واحواجبك يالبدر
دخلت اعليك بالنبي زين الصورا
يما ياميمتي للا امنيين الزين
يغلب على لحمورا

وقد عني الاستاذ محمد الفاسي بـفـن العروبيات فترجم منها الـى الفرنسية نحو مائة وخمسين اخــرجها بعنوان «الاغنــيــات القديمة لنساء فاس» (2) ولكنا نأخذ عليه أنه لم يقدم النص العربي واكتفى بالترجمة ، فكان أن ضيع فرصة التعرف الى هذا الفن في قالبه ولفظه الاصليين ٠

ثالثا : المزوكي (3) :

يكثر انتشاره في مناطق السهول ، وهو كالعروبي في البناء لايختلف عنه الا في الاداء حيث لايستهل بـ «آنــانــانــا» ، وانما يغني البيت او الشطر فتجيب المجموعة بـ «يوى» وينتهي مثله بالزغاريد ٠ ويبلغ الشبه بين النوعين أن كلماتهما تختلط الى حد انه لايفرق بينهما ٠ أما التسمية فيبدو انها من ازگا اى صوت وصاح ٠

---

1) جدية من التمارا بمعنى الجد ٠

2) « Chants anciens des femmes de Fès » Editions Seghers Paris 1967.

3) سمعناه ينطق كذلك بتاء بدل الميم : اتزوكي ٠

رابعا : الموال :

وقد سبق أن رأينا (1) أن الموال عند المغاربة ــ سواء أكان مستقلا أو تقديما للقصيدة ــ غالبا مايكون بالعربية الفصحى وقلما يكون عاميا ٠ والموال المغربى شبيه بالموال المشرقى من حيث الشكل لايختلف عنه الا فى الاداء واللحن ٠ ومن خصائصه انه يستهل بـ «آنانانانا» كالعروبى ، وهذه بعض نماذجه :

1) تانحبك ونهواك ✻ وفى امسبتك (2) ايكرهونى
ماراحتى حتى نلقاك ✻ واعليك يتحلو اعيونى

2) مصابنى (3) طير طيار ✻ واجوانحى تونسية
وانطير من ابلاد لبلاد ✻ وانعود ماساربيا

خامسا : السلامات :

جمع اسلام ، وهى فى الغالب لاتتعدى بيتا يتضمن التحية والشوق ، تكون أول كلماته «صفطت لك اسلامى» اى أرسلت لك سلامى ، وهى قريبة فى أدائها من العروبى ٠ ومن السلامات :

1) صفطت لك اسلامى فالمشماش
واش (4) احبيبى فالقلب ولاما ابقاش

2) صفطت لك اسلامى فالتفاح
واش احبيبى اهنا ولا راح

3) صفطت لك اسلامى فالمشموم
واش احبيبى فارح ولا مهموم

سادسا : العيطة :

بمعنى النداء من عيط اذا نادى ٠ وقد تحدث عنها الادريسى فى «كشف الغطا» فقال : «والعيطة نوعان : ملالية ومرساوية ، اما الملالية فمكانها بنى ملال والجبال المجاورة لها وبعض النواحى من تادلا ، ونغماتها

---

1) انظر المدخل لدى الحديث عن انشاد الزجل ٠
2) سببك ٠
3) ليتنى ٠
4) هل ٠

دائما فى غاية العلو والارتفاع شبيهة بصـيـاح الندب والبكـاء ، والالفاظ المستعملة فيها فى الغالب ممزوجة بكلمات بربرية ، ويتولد منها السوسى ، وهو عبارة عن خفة الميزان وانصراف الدور ، وأما العيطة المرساويـة فانها بخلاف ذلك تماما ومكانها بسائر قبائل العرب المتمدنة وهى تفوق الاولـى فى كثير من المواد والتأثير كما انها اجملها فنا والطفها صناعــة · وكثير منها بقبائل الحوز كعبدة ودكالة والرحامنة والشاوية · والمركز الاصلـى لها والذى تنشأ فيه وتنظم هو عبدة · ثم من هناك تتفرق فى القبائل وتذاع، ويوجد مركز آخر بالشاوية قريب من سطات يسمى قبال وبالوادى الاخضر ··· وتتشكل العيطة المرساوية الى أنواع تتردد فيها وتنحصر وهى اكباح ويؤخذ منه الثلثى وهو عبارة عن الميزان الحضارى ثم السوسى ثم الحريزى وهو خاص بقبائل الشاوية» (1) ·

وقد حاول الادريسى أن يخضع فن العيطة الشعبى بكلماته وألحانـه للشعر المعرب على حد ماشرح فى حديث كان القاه بالمؤتمر الاول للموسيقى العربية المنعقد بفاس فى سادس مايو 1939 ، حيث قال : «من بضع سنوات وأنا أفكر فى فن العيطة وكيف يمكن لى اصلاحه ، والتقدم به سريعا الـى الامام حتى لايبقى محتقرا فى نظر المتمدنين ممقوتا لدى الفضلاء وأربـاب المروءة والوقار فوجدت الامر لايخرج عن مسألة واحدة وهى ابدال الالفاظ المستعملة فى أدوارها بالابيات الشعرية فى الادب والاخلاق ، اذ كل مـا نشاهده من التأخر والتقهقر الواقع بالعيطة وبالمشتغلين بها ليس الا مـن ناحية تلك الالفاظ الشنيعة والاقاويل المملوءة سفها وقبحا» (1) ·

ويبدو هذا الرأى مشروحا فى مقال كتبه الاديب العباس الشرفـى مشيدا بما قام به الادريسى اذ «اعتبر أن ماقام به اصلاح كبير على فـن الموسيقى المغربية التى هى الطرب الوحيد الشائع بكثير من جهات القبائـل المترامية الاطراف المعبر عنها فـى لسان العامـة بالعيطة ، وذلـك باجراء ادوارها فى الشعر العربى الفصيح بدلا من الكلام العامى المبتذل المشتمل

1) كشـف الغطا صفحة 117 – 118 ·

2) المصدر السابق – 119 ·

فى الغالب على ألفاظ يستحى من ذكرها ومن سماعها لما فيها من السفه والحث عليه . وقد يكون فى المجلس الرجل وولده والرجل وصهره والتلميذ وشيخه مثلا فيصير ذلك الطرب المقصود به التسلية والانشراح فى نظرهم وسيلة من وسائل الكدر والاتراح يجب نبذه والتنزه عن مجلس يحتوى عليه اذالمؤمن لايقف مواقف التهم . امالآن بعدأن ادخل عليها مولاى ادريس المذكور هذا الاصلاح الكبير الذى تلقاه أرباب الفن بجزيل السرور والابتهاج فقد اصبح فنا أدبيا لايستحى منه ولا ينهى عنه ...» (1)

ولكن المؤلف لم يورد لنا نماذج من هذه الاشعار التى أخضعها لادوار العيطة ، كما أنه لم يذكر ولو نموذجا واحدا من العيطة فى لهجتها المحلية . فكان أن ضاعت ، خصوصا وأن الاذاعة لم تحتفظ بشىء منها لانها لم تكن قد عرفت التسجيل الصوتى فى ذلك الوقت ، وخصوصا كذلك وان هذه العيطات لم تستمر طويلا على لسان المغنين البدويين الذين لاشك أنهم لم يستسيغوا الشعر المعرب فهما واداء . وكان ممكنا تطهير كلمات هذا الفن فى اطار العامية ، فلعل ذلك كان سيخدم العيطة ويطورها ويطهرها من الشوائب . واذا كنا نقول مثل هذا الكلام فليس لاننا ننكر ادخال الفصحى الى العيطة أو الى أى لون آخر من ألوان الغناء الشعبى ، بل لاننا نرى أن الاحتفاظ بفن من الفنون يقتضى الاحتفاظ بأداته ، وأداة العيطة اللغة الشعبية . ومن الممكن التطوير داخل هذه اللغة أو بالاحرى اختيار النقى منها والقريب الى الافهام فى البيئات المجاورة .

ثم ان عملا مثل هذا يحتاج الى دراسة موسيقية لهذا الفن يتعرف منها الى المقامات والنغمات التى يؤدى عليها ، ويحتاج بعد ذلك الى تأليف كلمات تناسب هذه المقامات والنغمات . ثم ان تأليف كلمات لغناء شعبى بدوى كالعيطة ينبغى ان يستوحى البيئة التى تطرب لهذا الغناء ، وتتذوقه حتى تنسجم الكلمات مع اللحن وحتى يتجاوب المطرب وجمهوره مع هذا اللحن وتلك الكلمات . أما أن يأتى أحد الى هذا الفن ويحاول اخضاعه للغة لايستسيغها أداء واستماعا فتلك جناية على الفن لاخدمة له .

(1) كشف الغطا — 116 — 117 .

والعيطة كما سجلنا من أفواه المغنين نوعان : قصيرة وطويلة :

اما القصيرة فتتكون من بيت واحد يكون فى الغالب قصيرا ومتضمنا أمثالا أو حكما وعظات ، مثال ذلك قولهم :

1 — مادا بينا ※ كون اتاوينا (1)

2 — ياك اخونا ※ ابغاو ايفرقونا

3 — أنا انتمتم ※ وانت تفهم

4 — ابقى فيا لكرين ※ اتوسدوه اخرين

5 — كلت لك الكليب ※ لا تخرج عيب

على ان سهولة نظمها جعلت كثيرا من الناس ينشؤونها الى حد خرج بها كثير من المتطفلين عن روحها الحكمى الوعظى بل خرج بها بعضهم الى الهزل والى ما فيه السفه وينكره الذوق السليم ، مثل قولهم :

1 — قلبك عامر ※ فيه لمسامر

2 — الروزى (2) لحنين ※ تيخلى دين

3 — الدرى مزوينو ※ شارب البينو (3)

وأما الطويلة فأقرب الى القصيدة من حيث نظام التقفية والتبييت واللازمة ، وان كانت بعيدة عنها فى اللحن والاداء · ومن نماذجها ماغناه المرحوم بوشعيب البيضاوى فى نفى المغفور له محمد الخامس وعودته الى الوطن :

أ) وامن لقنيطر المكناس ※ تم اتحفر الساس

لعمرين ولغراس ※ شبعوا عافيا (4) وقرطاس (اسيدى)

أياخوتنا لسلام ※ هزوا بنا لعلام ※ سيرو بنا الكدام

دابا مول الحق ايبان (5)

---

1) معنى البيت : ليتنا كنا نتفق ·
2) النبيذ الاحمر والكلمة من الدخيل ·
3) الدرى بمعنى الصبى أو الشاب ، مزوينو اى ما اجمله · أما البينو فالخمر ، والكلمة من الدخيل الاجنبى ·
4) العافية بمعنى النار ·
5) سوف يظهر صاحب الحق · وهذا البيت هو لازمة العيطة

وجدا والريف ※ كل شي اظريف ※ ابن يوسف يـرجع بالسيف

سيدى سيدى تم اتصاب هو والدرارى

أيا خوتنا لسلام ...

المـلـك امشى وارجـــع ※ العديان اقبضهم لـوجـع

لقلوب ابـــدات اتشـفـع ※ لكلاوى والمقرى لـقـرع

(ياسيدى)

أيا خوتنا لسلام ...

ارجـــع احبيبى للـربـاط ※ والناس اتحييه ابلغوات1

حـيـو الملـك الشجـيـع ※ هـو والامـرا اجمـيـع

أيا خوتنا لسلام ...

اللـه ينصـر السلـطـان ※ اولـدو مـولاى الحسـن

ويـزيـــن لـــوطـــان ※ دابـا مـول الحق ايبان

أيا خوتنا لسلام ...

2) انا زينى يازينى زينى فالهاما

سيدى مولاى السلطان

نرسل ليه احمامـا

أيا خوتنا لسلام ...

رحموا الشهدا اللى امشـــوا ※ عبد الله والزرقطونى اقضاوا

والفدائـيـيـن اللـى ابـقـوا ※ فيهم هماالرجالا اللى اسواوا

أيا خوتنا لسلام ...

أيـــا خـوتـنـا لمسلـمـيـن ※ عـيـنـوا الـفـدائـيـيـن

ولـو ابـلـكـلام الـــزيـــن ※ ينصرهـم رب العالـمـيـن

أيانا يانا اوين أوين أوين كـلا (2) يلغى بلغاه

أيا خوتنا لسلام ...

والله مانتحسر ولانرد القلبى

خلى لهموم اتصرف

1) ابلغوات اى بصوت مرتفع .

2) كل واحد .

دابا يفرج ربى

أياخوتنا لسلام

أياناياناأوين أوين أوين كلا يلغى بلغاه

ينشد المغنى البيتين ثم تردد المجموعة اللازمة ، ويستمر كذلك مرتين او ثلاث مرات أو اكثر تنشد المجموعة بعدها اللازمة مع عزف موسيقى قوى وحاد — او كباحى كما يقال — وينتهى بذلك جزء من العيطة ليبدأ جزء آخر على نفس الاسلوب والنظام • ويلاحظ انه يشد (1) البيتين فى البداية أو فى النهاية أو فيهما معا بكلمة يقبض (2) بها النغم (سيدى) أما فى نهاية العيطة اى فى الجزء الاخير فالغناء كله كباحى وسريع مع ترديد كلمات القبض (أنايانا •••) وأما العزف فيبدأ بجرات للكمان تعقبها موسيقى سريعة تعتمد التعريجة والطارة والهندقة ثم يبدأ الغناء •

سابعا : الطقطوقة (3) :

وهى نوع من الغناء الخاص بالجبل فى شمال المغرب ، ولكنها اخذت تنتشر حتى فى المدن وتجد عليها كثيرا من الاقبال • وهى عبارة عن مقطوعة تتكون من عدة مقاطع يتركب كل منها من بيتين بقافية واحدة ، والغالب ان تختلف المقاطع فيما بينها تقفية ومعنى • أما الانشاد فيبدأه المغنى ثم تتلوه المجموعة تردد المقطع بعده ، على انه تضاف عند الغناء فى نهاية الشطر الاول من كل بيت عبارة «يالولاد» او «ياسيدى» حتى يشد الميزان ، كما أنه يفصل بين المقاطع بعبارة كهذه «أيامولات الدلال» يقصد بها المغنى الى أن يسوى الميزان او «يخاويه» على حد تعبيرهم •

---

1 — 2) سبق فى المدخل ان تعرضنا للشد والقبض فى الانشاد

(3) تجدر الاشارة الى أن الطقطوقة نوع من الاغانى الشعبية المعروفة فى مصر • وقد قامت السيدة بهيجة صدقى رشيد بتدوين كلماتها وأنغامها فى مجموعة بعنوان : (الطقاطيق الشعبية) وقالت عنها فى المقدمة (أن أصلها قطقوطة وهو مايطلق على الشىء الصغير وانها نوع من الاغانى الخفيفة بسيطة فى تركيبها الموسيقى انتشرت فى الربع الاول من القرن العشرين) (ج 1 نشر اللجنة الموسيقية العليا — سلسلة تراثنا الموسيقى) •

وقد اخترنا من الطقطوقة هذا النموذج :

لسم الله ابـدينا (يالولاد)
وعلى النبى صلينا
سيدنــا محمد (يالولاد)
هو الشافــع فينا

(أيا مولات الدلال)

يالقايل قل الله (يالولاد)
به عمر اوقاتك
ماتوجد غير الله (ياسيدى)
عند موتك واحياتك

(أيا مولات الدلال)

أيا نجوم القبلا (يالولاد)
هاذى مورا هاذى
ارفعت عينى لله (ياسيدى)
يوفى لى مـرادى

(أيا مولات الدلال)

أيا جبيل زرهون (يالولاد)
فيه لحجر فيه الديس
الله إيقوى حرمو (ياسيدى)
سيدنا مولاى ادريس

(أيامولات الدلال)

جانى النوم وتكيت (يالولاد)
فالظل دا لمسكيا
دوك لعيون الكوحل (ياسيدى)
حرقوا التوب اعليا

(أيامولات الدلال)

أيابنات العدوا (يالولاد)

لعدو داير بكم

سيدى علال الحاج (ياسيدى)

هو احجاب اعليكم

(أيامولات الدلال)

ثامنا : أعيوع :

وأصله الجبل عند بنى عروس وبنى امسور وجبل حبيب ، ولكنه انتقل الى مدن الشمال • وهو أقرب الانواع الى الطقطوقة بل هو مثلها من حيث أنه مجموعة مقاطع تتكون من بيتين بقافية واحدة قد يكون بينها رابط وقد لايكون ، والغالب أنه لايكون وخاصة فى الموضوع ، بل انه قد يفتقد أحيانا حتى داخل المقطع الواحد حيث يكون الشطر الاول او البيت الاول كله بعيدا فى كلماته عن موضوع بقية المقطع ، ولكن الامر عندهم لايهم طالما أن الوزن يستقيم والقافية تتحد •

ولاعيوع مناسبات ينشد فيها ، هى :

1) الصيف ، ويقصد به فصل الحصاد حيث يخرج الرجال والنساء والاطفال للحقول يحصدون ويعيعون (1)

2) الزيار ، أى موسم زيارة الاولياء وخاصة مولاى عبد السلام •

3) مناسبات الافراح كالاعراس •

اما انشاده فقد يكون فرديا او ثنائيا او جماعيا ، ولكنه حتى حين لايكون جماعيا فان المجموعة تردد ؛ وفى كل الاحوال تلتزم اثر البيت او المقطع كلمة «آياه» ومن الامثلة على أعيوع :

1) اجديدا السبنيا (2) ✻ اجديدا وماشى انبيعا (3)
ماتسالوشى اعلى الزين ✻ سالوا على الطبيعا

2) زوج دا المسمرات اجيدود ✻ فالحيط مارا موشى
وخا (4) ايجيونى عشرا ✻ ابحالك (5) مايكونوشى

---

1) يغنون أعيوع • 2) المنديل •
3) أصلها نبيعها ولكنهم يحذفون الضمير •
4) ولو • 5) مثلك •

3) التفـفـحـات دا الحـمـر ✻ بين لحزام لايبانـو (1)
ذوك لـعـيـون الكـوحـل ✻ هـمـا اديالـو كانو (2)

4) رانـى افـراس الـنـخـلا ✻ ريـح لـهـوا يـديـنـى
عـيـطـت يـا مـحـمـد ✻ من دالعـبـاد نجيـنـى
رانـى افــراس الـنـخـلا ✻ ريـح لـهـوا يـديـنـى
عينى اعلى كـــل اطريـق ✻ آش مـن اخبر ايجينى

5) يـالـلـه امـعـايـا يـالـلـه ✻ يالله امعايا نلحـوز (3)
الـظـل والمـا يـجـرى ✻ والنزاها تحت الـجـوز

6) صـلـوا عـلـى مـحـمـد ✻ صـلـوا عـلـى نبيـنـا
سـيـدنـا مـحـمـد ✻ هـو احجاب اعليـنـا

7) يـايـلـى احبيبى العالـى ✻ عـالـى اوفيه انزاهـا
يـاد الـعـم يـاخـوتـى ✻ غالا (4) انساعف واهـا
سيدى مـولاى عبد السلام ✻ عـالـى اوفيه انزاهـا
الجلسا امـع لـحـبـاب ✻ عـمـرى مـانـنـسـاهـا

تاسعا : الدقـة :

وهى خاصة بمدينة مراكش وتعرف بالدقة المراكشية ، والواقع انها من حيث الشكل والكلمات لاتختلف عن الطقطوقة او أعيوع ، ولكنها تختلف عنهما فى طريقة الاداء حيث يسبق الانشاد ويعقبه «التكفاف» ٠ اى الضرب بالاكف ، ومن هنا جاءت تسميتها بالدقة ٠ ومن الـدقـة هذه الاغنية التى تؤديها احدى فرق مراكش :

آش اداك (5) تمشى للزين

---

1) نهود البنات الحمر اما اضافة لا «فى لايبانو» فتفيد عندهم الـحـال والاستمرار ٠
2) اديالو بمعنى له ٠
3) يستعملون النون بدل لا م الجر ٠
4) تضاف غالا للمضارع فيفيد الحال والاستمرار وهى عندهم ك : «لا» السالفة الذكر فى «لايبانو» ٠
5) حملك وأخذك ٠

وانتيا راجل مسكين
والزمان ايغلبك فالحين
ماسمعتشى آش ادانى

كان فالاول حب ازوين
يجمع مابين القلبين
واصبح العاشق مسكين
فالآخر اصبح نصرانى

درتها (1) بيديا واعلاش (2) مانخمم (3)
كون ماجابونى رجلى ما نجى ليه
اللى دارها بيديه ايفكها ابسنيه
درتها بيديا واعلاش مانخمم

عينى تبكى
دمعى يحكى
لما حبو ادمى قلبى
ادمى قلبى

تمضى ليام
وايمر العام
جسمى فنيان
ياناس دا حرام

ولما العين شافت فالعين
قلت لو يازين أنا مسكين
قــال لى صافى
صافــى صافــى

عاشرا : غيوان بن يازغة :

اى غناء بن يازغة ، وهو منتشر فــى مدينة صفرو ومنطقة البهاليــل

1) عملتها 2) اعلاش بمعنى لماذا وأصلها على اى شىء .
3) خمم بمعنى فكر .

ويازغة والمنزل • ومن اشهر مقطوعاته «فاطما وردا معروفا» وهـي تتكون من ثلاثة اشطار بقافية واحدة ثم شطر رابع بقافية مختلفة :

فاطما وردا معروفا

هى السلسلا دالشرفا

ماصلحت لى نخطفا (1)

وانعبى لبنات فحوص (2)

ومنها هذه المقطوعة مكونة من أربعة أشطار بقافية واحدة ثـم شطر خامس بقافية مغايرة :

خرجوا يالشبابيا

لبلاد شدت الحريا

وازهور قبضت الصينيا

اتكب غير لك اوليا

كل واحد ايشد كاسو

وقد تكون المقطوعة من ثلاثة اشطار فقط يتـفـق الاولان فى القافية ويختلف عنهما الثالث كقولهم :

كانخمم والقيت الراس ݣاع (3) خاوى

كانموت وسلطان الزين كايداوى

او ما الطبا (4) والو ماعرفوا اشبيا

ومثلها قولهم :

كانخمم والقيت الراس فيه لفوات (5)

اشحال من كيا فيها اديال حب لبنات

مايداويها حد ابلا اطبيب تدوا

هذه ألوان من الزجل لم نقصد من ذكرها الا الى اظهار مدى انتشاره

---

1) أصلها نخطفها ولكنهم يحذفون الضمير •
2) انعبى بمعنى ناخذ وفحوص من حوص اى خطف وسرق •
3) كـلـه •
4) الاطباء •
5) لفوات بمعنى الزائد أى أنه غير طبيعى •

وتكيفه مع مختلف البيئات لغة ونغما وأداء ، وهو انتشار لو شئنا تحديد مداه لاضطررنا الى تتبع كل المرددات والاغنيات • واذا كنا قد قسمنا الزجل الى نوع يعرف منشئه ، وهو القصيدة التى جعلناها مدار هذا البحث وآخر لايعرف منشئه ويمثل بقية الالوان ، فان هناك نوعا آخر من الزجل خاصا فى شكله وموضوعه يعرف منشئه ولكنه بعيد عن القصيدة وعن كل الانواع الاخرى ولايغنى به ، وهو «**الحكمة**» ويتكون من بيتين غالبا مايكونان مصرعين ومتضمنين لحكمة او اكثر • وقد اشتهر بنظمه الشيخ عبد الرحمن المجدوب (1) الى حد اصبح ينسب له كل مايردد من حكم بين الناس حتى ولو لم تكن له • ومن الامثلة على حكمه :

1) سافر تعرف الناس ✻ واكبير القوم طيعو
اكبير الكرش والراس ✻ ابنص فلس بيعو

2) ولد ابنادم لا تربيه ✻ بعد ماتربيه نادم

---

1) توفى سنة ست وسبعين وتسعمائة للهجرة ودفن بمكناس • انظر فى ترجمته وحكمه :

أ ــ مناقب محمد بن احمد الحضيكى ج 2 من صفحة 190 حتى 197 (الطبعة الاولى)

ب ــ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ ابى المحاسن لابى حامد محمد العربى بن أبى المحاسن الفاسى صفحة 11 ــ 13 ــ 18 ــ 19 ــ 20 ــ 43 ــ 189 ــ 190 (الطبعة الحجرية)

جـ ــ كتاب ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع ومالهما من الاتباع من صفحة 101 حتى 107 (ط حجرية) •

د ــ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ ابىالمحاسن وشيخه المجدوب لعبدالرحمن الفاسى حيث خصصلترجمته البابالاول (الباب الاول فىالتعريفبالشيخ المجدوب رضى الله عنه) ويستمر من صفحة 14 الى 65 (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 326 ك) وتوجد من الابتهاج نسخة اخرى بنفس الخزانة مسجلة تحت رقم ك 2302 ويبدو أنها متأخرة عن الاولى •

هـ ــ القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجدوب • تصنيف نور الدين عبد القادر المطبعة الثعالبية بالجزائر •

و ــ Les gnomes du Medjdoub - H. Decastries Paris 896

ز ــ Les quatrains de Medjdoub — : le sarcastique, Poète maghrébin du XVI=siècle par J. Scelles-millie et B. Khelifa G. P. Maisonneuve et Larose - Paris 1966.

ياسايلني اعلى الغول * الغول هو ابنادم

3) المال يا المال * اليه لبنات مالوا

اللي ما عندوشي المال * مايعمل حتى كلبي ابحالو

4) احفر السرك ودكو * فالارض سبعين قاما (1)

خلي لخلايق ايشكوا * الى يوم القياما

5) من لايطعمك عند جوعك * ولايحضر لك في امصايب

لاتحسبوا من افزوعك * قد (2) حاضر قد غايب

6) الغرب امريض * وابوذني اسمعت انذيرو

والله ما يتمنوا لمغاربا *

غير اللي كان شمرير اعلى شمريرو (3)

7) ياسيلني اعلى قرن الثالث عشر

* اكحل مافيه مارا

الكسوا اكسوت لمسلمين * ولقلوب اقلوب النصارا

8) ياذ الزمان يالغدار * ياكاسرني امن اذراعي

طيحت من كان سلطان * وركبت من كان راعي

9) اقبض الاجر اقبل الدوا * واترك اعليك احديث اللي هاوي

لمريض اذا ابرا * ينسى خير لمداوي

10) البس قدك والعب امع ندك * واشرب او كل ماتريدو

وماتخالط غير اللي يعرف * قيمة اباك وجدو

كذلك اشتهر بالنظم في هذه الحكم الشيخ محمد الشرقي (4) . ومن اقواله :

---

1) القامة من مقاييس الطول . 2) قد بمعنى سواء .

3) الشمرير القبعة وهي كناية عن النصارى والكفار .

4) توفي سنة عشر وألف ودفن بجعيدان من بلاد تادلة . انظر في ترجمته وحكمه :

أ — كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادى عشر لمحمد ابن الصغير الافراني صفحة 25 — 26 — 27 (ط حجرية) .

ب — مناقب الحضيكي — الجزء الثاني صفحة 91 — 92 — 93 (الطبعة الاولى) .

=

1) احفظ العلم واقراه ✻ الجهل ظلما اعظيما
من لايقرا مايلو جاه ✻ فى ادنيتو كالبهيما
2) حب الناس ريح افريح ✻ من ريحهم اسقيت لمراير
واللى ايكيل امن الريح ✻ ماتمتلالو اغراير
3) خلطت الناس تفسد الدين ✻ ياصاحبى رد بالك (1)
وايفرقوا بين لثنين ✻ وايضيعوا راس مالك
4) لابد من يوم معلوم ✻ ترتد فيه لمظالم
أفرحت من كان مظلوم ✻ أويل من كان ظالم
5) اطلع الفجر وعلا ✻ يالغابطين فالمنعاسى
انبات نسجد ونركع ✻ اياك (2) ننجا ابراسى

ج ـ مرآة المحاسن صفحة 266 (ط حجرية) .
د ـ نشر المثانى لمحمد بن الطيب القادرى الجزء الاول صفحة 47 ـ 48 (الطبعة الحجرية) .
هـ ـ ممتع الاسماع من صفحة : 110 الى 115 .
و ـ كناش مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 3027
1) خذ بالك وانتبه .
2) علنى أنجو .

الفصل الثـــاني

اللغة و الفنية

مراحل التعريب

لايخفى ان الفتح الاسلامى كان يستهدف أمرين : نشر الدين من جهة، ونشر العربية أداته ولغة القرآن من جهة ثانية · وكان طبعيا — واللغة تساير الفتح وتواكبه — أن تستقبل بسهولة ويسر حيث يستقبل بسهولة ويسر ، وأن ترفض بقوة وعنف حيث يرفض بقوة وعنف ·

لذلك تعرضت حركة التعريب فى المغرب لمختلف الهزات والانتكاسات التى تعرض لها نشر الدين (1) ، بل اكثر من ذلك نستطيع أن نقول انها سارت أبطأ منه ، خلافا لطبيعة الامور وماكان ينبغى أن يكون ، لسبب بسيط هو أن فاتحى المغرب لهذا العهد الاول كانوا فى أغلبهم جنودا «يدخلون اليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم فيفضون الوطر من فتح الاقطار والامصار ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب» (2) ·

لهذا كان ينص على عدد رجال العلم الذين يصاحبون جيوش الفتح حين يوجدون على حد مايروى من أن موسى بن نصير ترك فى البربر ،

---

1) لم يكن أمر الفتح الاسلامى يسيرا فى المغرب كما قد يظن ، ففى الوقت الذى استطاع المسلمون أن يقيموا خلال بضع سنوات دولة واسعة الرقعة فى المشرق ، فانهم ظلوا زهاء قرن من الزمان يحاولون تثبيت دعائم الدين فى بلاد الشمال الافريقى والمغرب خاصة · ويكفى للدلالة على ذلك أن نعرف أن البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة على حد قول ابى زيد القيروانى ، وأن اسلامهم لم يستقر الا بعد فتح الاندلس (انظر تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 110) ، وأن نعرف أن الحملتين اللتين وجهتا لفتح المغرب أو بالاحرى لمواجهة تفشى المذهب الخارجى فيه سنة 122 — 123 لقيتا فشلا ذريعا حيث هزمت الاولى فى معركة طنجة وقضى على الثانية عند وادى سبو وكانت بقيادة كلثوم ·

2) الاستقصا ج 1 ص 165 طبعة القاهرة ·

«سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن والاسلام» (1) ؛ وعلى حد مايروى كذلك من ان عمر بن عبد العزيز بعث مع اسماعيل بن أبى المهاجر «عشرة من التابعين أهل علم وفضل ومنهم عبد الرحمن بن نافع وسعيد بن موسى التجيبى» (2) ٠

ويذكر أبو عبد الله المالكى فى «رياض النفوس» أسماء تسعة من هؤلاء الفقهاء العشرة هم :

أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع (3) ٠

أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبى (4) ٠

أبو عبد الرحمن الحيلى (5) ٠

اسماعيل بن عبيد الانصارى المعروف بتاجر الله (6) ٠

موهب بن حى المعافرى (7) ٠

حيان بن أبى جبلة القرشى (8) ٠

أبوتمامة بكر بن سوادة الجذامى (9) ٠

أبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير (10) ٠

اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر (11) ٠

وأغلب الظن أن مايقال من أن حسان بن النعمان «دون الدواوين» (12) ونشر العربية وجعلها لغة البلاد الرسمية لايخلو من مبالغة ، وأغلب الظن أن مايقال كذلك من ان خطبة طارق بن زياد دليل على انتشار اللغة العربية بين البربر لايخلو بدوره من مبالغة ٠

وربما كان تسرب المذهب الخارجي الى المغرب فى هذه الفترة (13)

1) البيان المغرب ج 1 ص 37 طبعة لبنان ٠
2) المصدر السابق ص 45 — 46 ٠
3) ص : 72 ‏ 4) ص : 66 — 67 ‏ 5) ص : 64
6) ص : 69 — 72 ‏ 7) ص : 73 ‏ 8) ص : 73
9) ص : 74 ‏ 10) ص : 75 ‏ 11) ص : 75 ٠
12) البيان المغرب ص : 29 ٠
13) ماكادت حركة الفتح تبدأ فى المغرب حتى بدأت فئات الخوارج المنهزمة فى المشرق تفد عليه وخاصة منها الاباضية والصفرية تحاول الترويج لمذهبها الذى وافق طبيعة البربر الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم سواء كانت عنصرية أو دينية ٠

عاملا من أهم عوامل تأخر حركـة التعريب عن أن تسايـر نشر الاسلام ، والسبب أن أمر الدين والمذهب غلب الخوارج وسيطر عليهم ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة ، فقد أغفلوا امرها ولم يكونوا ينظرون اليها سـوى أنها لغة الكتاب المقدس ولغة العلم لاحاجة تدعو اليها فى الحياة العامة • ولعل هذا ما يفسر لنا سر بقاء كثير من المناطق التى انتشر فيها المذهب الخارجى على لهجتها البربرية لم تحاول ابدالها بلغة الدين الجديد •

وربما كان من الادلة على ان اللغة كانت لاتزال تتعثر أن العملة التى ضربت فى نهاية القرن الاول للهجرة والتى كان بعضها يحمل اسم موسى ابن نصير ، كانت مكتوبة باللاتينية ، على الرغم من أنها متأخرة عن حركة الاصلاح النقدى التى قام بها عبد الملك فى المشرق (1) ، بل انه توجد سبع رسائل بعثت من رومة الى رجال الـديـن المسيحى فـى الاقاليم الافريقية مؤرخة فى منتصف القرن العاشر الميلادى ومكتوبة باللاتينية ، مما يدل على أن الذين تلقوا تلك الرسائل كانوا يعرفون هذه اللغة (2) •

ومهما يكن ، فقد استطاع المغرب على عهد الادارسة ان يعيش فى ظل نوع من الاستقرار ساعد على توطيد الاسلام ونشر اللغة فى مناطـق غير قليلة ؛ ونستطيع أن نعزو توسع حركة التعريب فى هذا العهد الى خمسة عـوامـل :

1 ـ **حالة الإستقرار** التى سادت مناطق نفوذ الادارسة ، خاصة وأن مؤسس دولتهم لم يدخل المغرب غازيا وانما دخله لاجئا ، وخاصة كذلـك ان البربر سعوا اليه وولوه أمرهم وبايعوه عن رضى وطواعية •

2 ـ **عروبة الادارسة** •

3 ـ **انشاء جامع القرويين** الذى كان له دور كبير فى النهوض باللغة العربية والفكر الاسلامى فى المغرب • وربما كان ذلك الدور ضعيفا فى هذه

---

1) انظر مقالا حول تعريب الشمال الافريقى لوليام مارسى W. Marçais « Annales de l'institut d'études orientales ». Faculté des lettres de l'université d'Alger T 4 1938 P. 8

2) المصدر السابق ، ومن أهم ماتفيده هذه الرسائل انه كان يوجد سنة 1050 م خمسة قساوسة وأنه لم يبق منهم سنة 1076 الا ثلاثة •

الفترة ولم يقو الا فى الفترات التالية ، ومع ذلك لانريد ان ننكره حتى فى مراحله الاولى ، خاصة ونحن نعرف أن المساجد جميعها وفى كل البلاد الاسلامية كانت تعتبر مدارس علم الى جانب انها مراكز عبادة • لذلك لاينبغى — ونحن نشير الى هذا العامل — أن نغفل اثر الجوامع الاخرى ، وخاصة فى سبتة التى ظلت تحمل مشعل الثقافة فترة غير قصيرة •

4 — خروج المغاربة فى رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى بلادهم وقد صقلت السنتهم وزودوا بأفكار وعلوم جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل ، نذكر منهم :

أ — دراس بن اسماعيل الفاسى ، رحل الى المشرق والقيروان والاندلس ، دارسا ومدرسا ، وعاد الى فاس حيث توفى سنة 357 •

ب — أباجيدة بن احمد اليزنسنى الفاسى ، رحل الى المشرق وكان عالما بالفقه المالكى والشافعى ، وهو صاحب كتاب «الفتوى» الذى الف فى الوثائق على المذهب الشافعى توفى بفاس سنة 365 •

ج — عبد الرحيم بن احمد الكتامى السبتى المعروف بابن العجوز ، رحل الى الاندلس والقيروان ، وكان من فقهاء المالكية ، توفى سنة 413 •

5 — كثرة الوفود العربية التى قصدت فاسا فى هذا العهد ، قادمة اليها من الاندلس ، والقيروان • أما القيروانيون «وكانوا ثلاثمائة أهل بيت» (1) فقد وفدوا حوالى سنة 189 وأقاموا فى العدوة اليسرى ، وعمروها حتى عرفت بعدوة القرويين • وأما الاندلسيون «وكانواجما غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت» (2) فنزلوا بالعدوة اليمنى وعمروها حتى اصبحت تسمى عدوة الاندلس ، وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التى قامت على عهد الحكم بن هشام سنة 206 •

ويعرض ابن ابى زرع أسماء بعض القبائل والاشخاص الوافدين فيقول:

---

1) الاستقصا ج 1 ص 73 •
2) المصدر السابق •

«وفى سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضى الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس فى نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومدحج وبنى يحصب والصدف وغيرهم ، فسر ادريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر فاعتز بهم لانه كان فريدا بين البربر ليس معه عربى فاستوزر عمير بن مصعب الازدى وكان من فرسان العرب وساداتها ولابيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والاندلس ومشاهد فى غزو الروم كثيرة ، واستقضى منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسى من قيس عيلان وكان رجلا صالحا ورعا فقيها سمع من مالك وسفيان الثورى وروى عنهما كثيرا ثم خرج الى الاندلس برسم الجهاد ثم جاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب ؛ ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلى» (1) ٠

ولعلنا نستطيع أن نضيف الى هذه العوامل اربعة عوامل أخرى لاشك أنها ساعدت على التعريب :

1 — **قرب اللهجة البربرية** — وقد تأثرت بالفينيقية — من اللغة العربية ٠

2 — **عدم مقاومة اللهجة البربرية** للغة العربية الا فى المناطق الداخلية النائية ؛ اما فى المدن والسواحل والمراكز الهامة فقد كان السكان لايرون بأسا فى تعلم اللغة الجديدة طالما انها لغة الفاتحين ، فقد الفوا اتخاذ لغة الفاتح ومزجها بلغتهم ، اذ ليس من شأن هذه الطبقة من السكان — وهى طبقة لها مصالح — ان تقاوم ، بل انها تهادن وتداهن وتتملق لتبلغ اغراضها وتحقق مصالحها ٠ ومن هنا كانت هذه الطبقة اسرع من غيرها الى تعلم اللغة العربية ٠

ولعل مما يعطى اهمية لهذا العامل ان اللغة لاتوجد فى الواقع

---

(1) «الانيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» لابى عبد الله محمد بن عبد الحليم المعروف بابن ابى زرع : مطبوع على الحجر بفاس دون تاريخ ٠ صفحة (14) ٠

ولاتمارس ولاتنطلق الا فى المدن والمراكـز المتجمعة حيث يتحـرك الناس ويتحدثون ، على عكس البوادى حيث يغلب الصمت على الفلاحين الذيـن يقضون الساعات الطويلة فى الحقول متباعدين ساكتين .

3 ـ **تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم** واعجابهم بلغته واعجازه .

4 ـ **تهجير افواج من المغاربـة** فى شكـل سبى الـى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية فقد «**قال الليث بـن سعد** : لما قدم موسى بن نصير الى افريقية قبل فتحه الاندلس ومعه جماعة مـن الناس اخرج ابنا لـه يسمى عبد الله الـى بعض نواحيها فأتاه بمائة الـف رأس ثم وجه ابنا له آخر يسمى مروان الى ناحية اخرى فأتاه بمائة الـف رأس ، ثم توجه بنفسه الى ناحية اخرى فأتى بمائة ألف رأس ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس . قال الليث فلم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير فى الاسلام . قال أبوشيبة الصدفى : قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس الاقصى وهو يجر الدنيا جرا بالسبى ، فلما قدم رسوله على موسى خرج معه وجوه الناس تتلقاه فلما التقيا قال مروان بن موسى : مروا لكل من يلقانى مع أبى بوصيفة وصيفة ، فلما أمر بـذلـك سمع موسى للناس ضوضاة وصياحا ورأى لهم حركة فقال : ماهذا ؟ قالوا : مروان ابنك امـر للناس بوصيفة وصيفة ، قال موسى : مروا لهم من عندى بوصيف وصيف. فانصرف الناس كلهم ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة» (1) .

وليس من شك فى ان المغرب ـ لهذه العوامل مجتمعة وخاصة قـدوم الاندلسيين فى هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم ـ قـطـع مرحلة فى التعريب لايستهان بها ، كان من المنتظر أن تعقبها مراحل اخرى لولا انه تعرض فى أواخر أيام الادارسة وبعدها لاضطراب شديد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين .

---

1) ضميمة فى بحث الدكتور محمود مكى :
Egipto y la historiographia arabico - espanola
صفحة 224 (مجلة معـهـد الـدراسات الاسـلامية بمدريد ـ العدد الخامس سنة 1957 عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنـوات على انشاء الصحيفة) .

وكان محتما ان يتأثر سير التعريب بهذا الاضطراب ، خاصة وأنه كانت لاتزال للبربر قوة ومنعة ومراكز لم تخضع بعد للاسلام . ومن غريب الامر أن تكون العوامل التى ساعدت — وكان من الممكن أن تساعد أكثر — على نشر اللغة العربية هى نفسها العوامل التى خلقت هذا الاضطراب وأضرمت ناره . فقد بدأ العرب — بعد أن عزوا وكثر عددهم — يستبدون بالامور ، ويوزعون بينهم المناصب واخذتهم النخوة العربية والعصبية القبلية فكان أن شق المغاربة لهم عصا الطاعة ، وكان أن دخلت البلاد فى عهود مظلمة من الفوضى نتج عنها أن تأخر أمر اللغة وأمر الدين كذلك .

وبعد قرون من الاضطراب والخمول ، أتيح للمغرب أن يعرف على عهد المرابطين حياة مستقرة لم تلبث أن خلقت نهضة شاملة اثرت فى مختلف مجالات الحياة وخاصة فى مجالى اللغة العربية والثقافة الاسلامية . وأظننا نستطيع أن نعزو هذه النهضة التى شملت التعريب الى عوامل أهمها :

1 — **قوة الدولة** فى مجالات الدين والسياسة والاقتصاد ومانتج عن هذه القوة من استقرار بعث الطمأنينة فى نفوس المغاربة وثبت العقيدة فى قلوبهم وأتاح لهم فرص التعلم والدرس .

2 — **الوحدة مع الاندلس** وما حملت الى المغرب من روافد فى جميع ميادين العلم والحياة فتحت للمغرب آفاقا حضارية وثقافية ، فقد اقبلت وفود العلماء والفقهاء والادباء من الاندلس الى المغرب فى تدفق لم يكن له مثيل ، ووفد على ابن تاشفين «من كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ... من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار» (1) . وكذلك فعل ابنه على ، فلم «يزل ... من أول امارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك» (2) .

3 — **انشاء المدارس والرباطات** فى مختلف المراكز بقصد تثبيت الوعى

---

1) المعجب لعبد الواحد المراكشى تحقيق العلمى والعريان (ط القاهرة) صفحة 163 — 164 .

2) المصدر السابق صفحة : 173 .

الدينى والاصلاح الاجتماعى ، وبقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة ٠

وأهم هذه المعاهد كلها جامعة ابن يوسف التى أسسها على بن يوسف بـن تاشفين فى مدينة مراكش ٠

4 – **عناية المرابطين بالثقافة** ، فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجاله فى كثير من الصدق والتفانى والاخلاص ٠ ولاعجب فالدولة قامـت على اساس من العلم والاصلاح ٠ واذا كان يوسف بن تاشفين قليل المعرفة باللغة والثقافة العربيتين ، فانه كان – باجماع المؤرخين – محبا للعلم مقربا لاهله، ونقول قليل المعرفة ولانقول جاهلا – كما يحلو لبعض الباحثين ان يصفوه – لانه لاشك نال من هذه المعرفة قسطا ابان دعوة ابن ياسين ومرابطته معه

ومع ذلك فالباحث فى كتب الطبقات سواء منها الاندلسية او المغربية لايلبث ان يكشف النقاب عن أسماء كثير من أمراء الدولة وكبرائها الذين كانت لهم عناية خاصة بالعلم امثال :

زاوى بـن مناذ بنعطية اللـه بن منصور الصنهاجى المشهور بابـن تقسوط (1) ٠

خلوف بن خلف الله الصنهاجى (2) ٠

عمر بن امام بن المعتز الصنهاجى الملقب بالفقيه القائد (3) ٠

الامير المنصور محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى اللمتونى (4)٠

الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيشت (5) ٠

ابوبكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلويت (6) ٠

ولعل حركة التعريب سارت بعيدا على عهد الموحدين حيث نشط نظم

---

1) التكملة لكتاب الصلة لمحمد بن الابار القضاعى ج 1 صفحة 89 طبعة كـوديـرا ٠

2) الجذوة لابن القاضى صفحة 115 طبعة حجرية ٠

3) التشوف الى رجال التصوف ليوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات تحقيق ادولف فـور نشر معهد الابحاث العليا المغربية سنـة 1958 صفحة 198 ٠

4) التكملة ج 1 صفحة 193 ٠

5) المصدر السابق ج 2 صفحة 616 ووفيات الاعيان ج 2 صفحة 488 ٠

6) مقدمة ابن خلدون صفحة 519 – 520 ٠

مسائل اللغة العربية ، وحفظ متونها ، وازدهرت دراستها ودراسة العلوم اللسانية المتصلة بها ، وشاعت فى لغة التخاطب بين مختلف طبقات الشعب لدرجة أن من يتتبع المقابلات التى أوردها ابن هشام فى كتاب «لحن العامة» بين الكلمات العربية والكلمات المغربية العامية لايجد الفروق كـامنة الا فى المعنى الجديد الذى اكتسبه اللفظ العربى من جراء انتقاله من بيئة الى بيئة أخرى مغايرة ومختلفة ٠

ومع ذلك فقد لجأ الموحدون الى البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير والتأثير عليها ؛ فالمهدى يدرس بالبربرية ويؤلف بها كتبه فى المذهب ويأمر بالنداء للصلاة بها على حد اتهام المأمون له (1) ، وعبد المومن يكتب لولاته بأن «يؤمر الذين يفهمون اللسان الغربى ويتكلمون بـه ان يقرأوا التوحيد بذلك اللسان» (2) و «كانوا لايقدمـون للخطابـة والامامة الا مـن يحفظ التوحيد باللسان البربرى» (3) ٠ ولكنا نرى ان مجال البربرية كان محدودا لايتعدى الدعوة الدينية ، وان العربية لانتشارها كانت قد غدت أداة الدولة فى جميع المصالح والمرافق ٠

ونستطيع أن نعزو هذا الانتشار الى العوامل الآتية :

1 ـ **هجرات بنى هلال وبنى سليم للمغرب** ، وكان قد استقدمهم المنصور (4)

---

1) الاستقصا ج 2 ص 212 (2) رسائل موحدية صفحة 39 نشر بروفنسال
3) القرطاس لابن ابى زرع ، صفحة 46 ٠
4) انظر تفاصيل اخبار هاتين القبيلتين فـى الاستقصـا ج 2 من ص 145 الى 158 والقرطاس صفحة 154 وتاريخ ابن خلدون ج 6 صفحة 12 ٠ ويبدو أن استدعاء العرب واستقدامهم للمغرب بـدأ على عهد عبد المومن (انظر المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 172 ـ 173 تحقيق عبد الهادى التازى) وعلى عهد يوسف بعده (المصدر السابق ص 412 ـ 413 ـ 414 ـ 415) ٠ ويقول ابن صاحب الصـلاة ان يوسف امر فى مراكش «بدخول اشياخ العرب والوفود للمبايعة واخذ العهد عليهم فى ذلك فدخلوا ٠٠٠ وتمت بيعتهم» ٠ (ص 433) وكان قد امر «٠٠٠ بتمييز العرب المذكوريـن وان يحضروا بين يديه فى رحبة قصره العتيق بدار الحجر داخل حضرة مـراكش ٠٠٠ فابتدأوا بالدخول عليه ٠٠٠ على ترتيب توحيدهم اولا فى قبائلهم السابقة لهذا الامر العزيز وعشائرهم فكان الذى ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم فى التوحيد وأمروا ان يدخلوا فى كل يوم بعدد معلوم مـــن
=

بعد أن قدموا الطاعة اثـر انتصاره على حليفهم ابن غـانية · وكـان لهذه الهجرات اثر كبير جعل ابن خلدون يرى ان «العرب لم يكن المغرب لهم فـي الايام السابقة بوطن وانما انتقل اليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك فكانت أخبارهم من أخبارها ··· وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة» (1) ومـثـل هذا يـراه ابو القاسم الزياني حيث يقول انه « لم يكن بالمغرب كله أحد من قبائل العرب الى ان جرهم المنصور الموحدى بمكيدة الجهاد» (2) ·

2 ـ **وفود جماعة من غز مصر** (3) ، وهم طائفة من الموالـي اتـراك الاصل حالفوا بني هلال وبني سليم في انضمامهم لثورة ابن غانية ·

3 ـ **وفود جماعة من عرب بني معقل** كانوا بدورهم حلفاء لبني هلال (4) ·

4 ـ **زيادة توافد الاندلسيين** على المغرب بعد ان تمغربت الاندلس ·

كل هذه العوامل كان لها اكبر الاثر في انتشار اللغة العربية عـلـى نطاق واسـع شمل الحواضر والبوادى والجبال والسـهـول حيث عـاش الوافدون مع البربر حياة واحدة جعلتهم يتجانسون معهم ويتبادلون أساليب العيش والاعراف ، مما زاد في تغلغل العربية وتمكنها مـن الالسنة لدرجة اصبح البربر كلهم على حد قول الفريد بيل يتقنون اللغة العربية في جبال

القبيل المأمور له فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوما يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر ثم يرجعون بطائفة اخرى من بعد صلاة الظهر الى آخر النهار على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر» (ص 434 — 435) ·

1) ج 6 ص 4 من تاريخ ابن خلدون ·

2) الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا صفحة 69 نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي (وزارة انباء المغرب سنة 1967) وقد علق الناشر على هذا الكلام برأى غريب قال فيه : «يلاحظ ان المؤلف لم يصل علمه الى ان قبائل بني سليم وبني هلال ورباح وصباح وبني معقل وهي قبائل قدمت منذ الفتح العربي الاول من صعيد مصر الى عموم المغرب توجد خصوصاً بالجنوب» ·

3) انظر المعجب صفحة 288 ·

4) انظر الاستقصا ج 2 من صفحة 159 حتى 162 ·

الاطلس (1) وغدوا ــ كما يقول كــوتيى ــ يستنكرون الاصــل البربـــرى ويــرفضون الانتساب اليه ولايكتفون باستعمال اللغة العربية فحسب بــل يؤكدون انهم عرب وأنه لاتجرى فى روقهم نقطة من الدم ليسمت بعربية (2) وهو رأى ييؤكده ماجاء فى دائرة المعارف الاسلامية مــن أن البربر «تغيروا تغيرا عظيما لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم فى أغلب الاحيان (3)

(1 A. BEL
LA RELIGION MUSULMANE EN BERBERIE
(établissement et développement de l'Islam en Berbérie)
P 204

(2 F.F. Gantier
LES SIECLES OBSCURS DU MAGHREB
P 410

(3 الترجمة العربية مادة : بربر .

نشأة العامية

لسنا نريد أن نذهب أبعد من هذا فى تتبع مراحل التعريب ، فليس من شك فى أن عهد الموحدين شهد تمام استعراب المغاربة ، وليس من شك كذلك فى أن هذا الاستعراب سار فى اتجاهين :

الاول : انتشار العربية الفصحى لغة للكتابة والعلم : وتتمثل فى نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والعلوم والآداب ، وهى لغة مشتركة بين أبناء العربية والاسلام فى كل الازمنة والاقاليم · ولسنا بصدد التعرف الى هذا الاتجاه ·

الثاني : انتشار العربية لغة للتخاطب والحياة العادية اليومية ، وهى لغة لم تكن معربة بأى حال من الاحوال ، وانما كانت لهجة دارجة (1) تختلف فى المغرب عن غيره من الاقاليم ، وهى التى يهمنا ان نتعرف اليها ·

و «اللهجة فى الاصطلاح الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى الى بيئة خاصة ويشترك فى هذه الصفات جميع افراد هذه البيئة · وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال افراد هذه البيآت بعضهم ببعض وفهم ماقد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات · وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات هى التى اصطلح على تسميتها باللغة · فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص» (2)

---

(1) كان علماء العربية القدماء يطلقون على اللهجة : اللغة واللحن · أما ما نسميه نحن لغة فكان يطلق عليه «اللسان» وبه ورد معناها فى القرآن الكريم ·

(2) «فى اللهجات العربية» للدكتور ابراهيم انيس ص 13 الطبعة الثانية لجنة البيان العربى — القاهرة سنة 1952 ·

وتتميز اللهجات داخل اللغة الواحدة بثلاثة عناصر :

اولا : طبيعة الاصوات ·

ثانيا : مبنى بعض الكلمات ·

ثالثا : معنى بعض الكلمات ·

على أنه مهما اختلفت اللهجات فى الاصوات ، فانه ينبغى ان تظل مشتركة — ولو الى حد — فى مبانى الكلمات ومعانيها ، لانه متى اتسع نطاق الاختلاف فى بناء الكلمات ودلالتها واصبح كبيرا ومبعدا للفهم ، استقلت اللهجة لتصبح لغة ·

ونستطيع ان نعزو تكوين اللهجات الى عوامل أهمها :

اولا : توارث الكلام جيلا اثر جيل ·

ثانيا : طبيعة الاقاليم ·

ثالثا : الاحتكاك بالاعاجم والاتصال بهم ومدى هذا الاتصال وماينقل به من كلمات وتراكيب اجنبية ·

رابعا : اختلاف الالسنة والحناجر قوة وضعفا وصلابة ورخاوة ·

وقد تنبة ابن حزم الى بعض العوامل حين قال : «··· والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها فحدث فيها جرش (1) كالذى يحدث من الاندلسى اذا رام نغمة اهل القيروان ومن القيروانى اذا رام نغمة الاندلسى ومن الخراسانى اذا رام نغمتها · ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة · وهكذا فى كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لايخفى على من تأمله · ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ فى اللغة العربية تبديلا وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق فنجدهم يقولون : فى العنب العينب وفى السوط اسطوط وفى ثلاثة دنانير ثلثدا · واذا تعرب البربرى فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة واذا تعرب الجليقى ابدل من العين والحاء هاء فيقول مهمدا اذا اراد ان يقول محمدا · ومثل

1) الجرش الحك ويريد احتكاك اللغات بعضها ببعض ·

هذا كثير • فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن ان اختلافها انما هو من نحو ماذكرنا من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان واختلاف البلدان ومجاورة الامم وانها لغة واحدة فى الاصل» (1) •

ويذهب الدكتور ابراهيم انيس الى أن تكون اللهجات يعزى الى عاملين رئيسيين هما :

«1 ـ الانعزال بين بيئات الشعب الواحد •

2 ـ الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات» (2) •

حقا لقد اتسع نطاق العربية باتساع رقعتها فى بلاد مختلفة فصلت بينها حواجز طبيعية وسياسية جعلت اتصال أبناء هذه البلاد محدودا • فكان أن نشأت فى كل اقليم وبعد فترة ما ـ طويلة او قصيرة ـ لغة جديدة متطورة عن اللغة الاصلية تطورا يخضع لطبيعة البيئة والسكان وظروف الحياة فى مختلف نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

وحقا كذلك ان الصراع بين العربية ولغات البلاد المفتوحة يختلف قوة وضعفا من اقليم الى آخر • ولكن من الخطأ الظن بأن العربية حين وفدت الى هذه البلاد كانت معربة ونقية بل انها كانت تتخذ شكلين :

الاول : اللغة المعربة المتمثلة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وما حمل الفاتحون من علوم •

الثانى : لغة الفاتحين ، وتمثل لهجات مختلف القبائل والطبقات التى شاركت فى الفتح •

ولعله من الانصاف أن نقول ان الصراع بين العربية واللغات المحلية لم يكن صراعا بين لغة القرآن وتلك اللغات ، وانما كان بين هذه وبين اللغة التى كان يتكلم بها الفاتحون ويتخاطبون فى حياتهم اليومية العادية ، أى بين اللغات المحلية وبين مجموعة من اللهجات العربية ؛ اذ من الخطأ الظن

---

1) «الاحكام فى اصول الاحكام» لابى محمد على بن حزم الظاهرى ج 1 ص 31 ـ 32 الطبعة الاولى مطبعة السعادة • مصر •

2) «فى اللهجات العربية» ص 18 •

بأن هذه اللهجات لم تكن موجودة ، بل انها كانت تعايش العربية الفصحى فى موطنها الاصلى ومنذ أول عصورها حتى فى غير التخاطب . فليس من شك أن العرب فى جاهليتهم كانت لهم اشعار غير تلك التى وصلتنا والتى تمثل مرحلة نضج الشعر والتى يرجع تاريخها الى حوالى قرن ونصف قرن قبل البعثة ؛ وليس من شك كذلك أن هذه الاشعار التى لم تصلنا كانت بمختلف اللهجات العربية ولم تكن بلغة قريش وحدها لان قريشا لم تكن قد تمت لها السيادة . وحتى بعد ان أصبحت للغة قريش مكانتها فى بلاد العرب — وهى المكانة التى عززها الاسلام حيث اصبحت لغة الدولة والدين— لم يقض على اللهجات القبلية الدارجة .

ومع ذلك كان العرب فى صدر الاسلام يأنفون من الابتعاد عن النطق الفصيح . فقد كان اللحن على عهد الرسول صلوات الله عليه يعتبر ضلالا، ويروى عنه أنه قال ، وقد لحن احد المسلمين بحضرته : «ارشدوا اخاكم فانه قد ضل» و «يروى ان عمر رضى الله عنه كان يضرب على اللحن . فأما العرب فاذا لحن الواحد منهم لقربه من الحاضرة ونزوله على طريقة السابلة سقطت عند اهل اللغة منزلته ودفعت ورفضت لغته» (1) .

وكان بنو مروان يبعثون اولادهم للبادية حتى تنشأ السنتهم مستقيمة، فانه يروى أن عبد الملك الزم ابنيه هشام ومسلمة بالبادية فكانا فصيحين . أما ابناه الوليد ومحمد فلم يخرجا فكانا لحانين . وكان يقول : «اضر بالوليد حبنا فلم نوجهه للبادية» ويروى كذلك انه : «قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المومنين ، قال : وكيف لايعجل على وانا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ، يعنى خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من أمور» (2) .

---

1) «نقد النثر» لابى الفرج قدامة بن ابى جعفر الكاتب البغدادى . تحقيق د . طه حسين وعبد الحميد العبادى . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة 1938 .

2) «البيان والتبيين» للجاحظ ج 1 ص 135 طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — سنة 1948 — تحقيق عبد السلام هارون .

وماكاد امر الدولة الاموية ينتهى ـ وهى الدولـة العربية الخالصة ـ حتى تفشت العجمة وانتشر اللحن ، فقد غلب الطابع الاسلامى على دولـة بنى العباس ، وهى دولة فارسية ما فى ذلك شك ، اتيحت فيها فـــرص المناصب الكبيرة ومراكز السلطة لغير العرب ، فلم يكن غريبا ان تتعرض اللغة لهزات عنيفة وتواجه انماطا من اللغات ومن اللهجات ، ولم يكن غريبا بالتالى أن يصيب العربية تغيير كبير أبسط مظاهره شيوع الاخطاء وتفشى اللحن وانتشار الاساليب المولدة . يقول ابوبكر محمد الزبيدى فى «لحـن العوام» : «ولم تزل العرب فى جاهليتها وصدر من اسلامها تبرع فى نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن ومصرت الامصار ودونت الدواوين فاختلط العربى بالنبطى والتقى الحجازى بالفارسى ودخل الدين اخلاط الامم وسواقط البلدان فوقع الخلل فى الكلام وبدأ اللحن فى ألسنة العوام» (1) .

وبذلك دخلت الفصحى فى صراع مع العاميات كان من نتائجه أن بدأ الناس ـ وحتى المتعلمون منهم ـ يعتبرون العربية النقية التى لـم تتأثـر بالتيارات الجديدة لغة خشنة جافة ، واصبح اللحن يغتفر . يقول قدامة : «وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحن والخطأ للانسان فى كلامه لكثرة اللحـن فى الناس وانه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الاعاجـــم والاقباط وسائر الاجناس (2)» . بل اصبح يجب على المتكلم ان يلحن فى بعض المواقف وفى هذا يقول قدامه : «وأما المواضع التى يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له فى أمثالها ويكون ذلــك مما يوجبه الرأى فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لايعربون ، فمن الــرأى لذى العقـل والحنكة والحكمة والتجربة الا يعرب بين ايـديهم وأن يدخـل فــى اللحن مدخلهم ولايريهم أن له فضلا عليهم ، فان الرئيس والملك لايحب ان يرى احدا من تباعه فوقه ... ومن ذلك مايحكى عن بعض من تكلم فى مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فلحن فعوتب على ذلك فقال : لو كان الاعراب

1) صفحة 4 طبعة اولـى ـ القاهـرة سنـة 1964 تحقيق د . رمضـان عبد التواب .

2) نقد النثر ص : 143 .

فضلا لكان أمير المومنين اليه أسبق (1)» ·

لذا لم يكن عجيبا ان نرى الجاحظ يتحدث في «البيان والتبيين» عن لغة مختلف طبقات الناس ويجعل بابا للحن وآخر للحانين البلغاء ، ويذكر انه «قيل لابي حنيفة : «ماتقول لرجل اخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، اتقيده به ؟» قال : «لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس (2) وأن أبا شيبة قاضي واسط قال : «أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم (3)» ·

ولم يكن عجبا كذلك ان نرى مجموعة من العلماء في حدود المائة الثالثة تؤلف في لحن العامة امثال أبي عبيدة وأبي حنيفة الدينوري وابي عثمان المازني وأبي قاسم السجستاني والفراء والمفضل بن سلمة ، وان نرى مجموعة أخرى تؤلف فيما بعد عن لحن الخاصة امثال ابي هلال العسكري والحريري ، في وقت ظل آخرون يؤلفون في لحن العامة امثال ابي بكر الزبيدي (ت سنة 379) وأبي منصور الجواليقي (ت سنة 539) ·

يتضح لنا من هذا كله أن اللغة العربية التي انتشرت في المغرب كانت تتخذ شكلين :

الاول : معرب تمثله النصوص المدونة والمروية ، وقد تكيف — ولو الى حد — بالاقليم الذى القى بظلاله عليه وأكسبه طابعا محليا يميزه عن غيره ·

الثاني : عامي ، وتمثله خمس مجموعات من اللهجات :

1 — لهجات الفاتحين الاول ·

2 — لهجات الوافدين من الاندلس والقيروان ·

3 — لهجات بني هلال وبني سليم وحلفائهما ·

4 — لهجات المغاربة الذين كانوا يحاولون أن يتعلموا اللغة العربية في المغرب ·

5 — لهجات المغاربة الذين رحلوا الى المشرق أو الاندلس والقيروان وعادوا الى بلادهم ·

---

1) المصدر السابق ص 144 ·
2) البيان والتبيين ج 2 ص 212 ·
3) المصدر السابق ص : 222 ·

ولعلنا نستطيع ، مما نعرف من مواطن نزول مختلف الوافدين ، أن نذهب الى ان لهجات أهـل الاندلس والقيروان كانـت منتشرة فـي فاس والمناطق المتاخمة لها في الشمال ، وأن لهجات بني هلال وبني سليم كانت منتشرة في الجنوب • ومع ذلك فالواقع ان من كل هذه المجموعات ومـن اللغة العربية الفصحى كذلك ، وبالتأثر لاشك باللهجة او اللهجات البربرية المحلية ، «نشأت بالضرورة لغة للتفاهم لايمكن ان نصورها بسهولة كافية الا اذا ضـربنا مثلا Lingua franca أو Pidgin english او غيرهما من اللغات المصطنعة لتقريب التفاهم عند الضرورة • وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل التعبير اللـغـوى فبسطت المحصول الصوتـي وصوغ القوالـب اللغويـة ونظام تركيب الجملة ومحيط المفردات وتنازلت عن التصرف الاعرابي واستغنت بذلك عـن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها كما ضحت بالفرق بين الاجناس النحوية واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة في مواقع الكلام للتعبير عن علاقات التركيب (1)» •

---

1) «العربية دراسات في اللغة واللهجات والاساليب» تأليف يوهان فك : Johann Fuck ترجمة استاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة دار الكتاب العربي • القاهرة سنة 1951 •
وفي تعليق بنفس الصفحة ان Lingua Franca اصطلاح اوربي يقابله في بلاد الشرق تعبير اللغة الافرنجية ، وهي خليط من الكلمات الايطالية والفرنسية واليونانية وغيرهـا ، يستعمله المشارقـة فـي التفاهم مع الاوربيين • و Pidgin english اصطـلاح على لهجة انجليزية مبسطة محررة مـن القيود اللغوية يجرى التفاهـم بها بين الانجليز والاجانب على الاخص في بلاد الشرق الاقصى •
و Pidgin كلمة محررة عن business الانجليزية •

خصـائصها

الاسف شديد أننا لانعرف حال العامية حين نشأت فى المغرب ولاحين تطورت عبر القرون ــ وما أسرع ما تتطور ــ طالما أنها غير مقيدة بكتابة او قواعد . ولسنا نجد من وصفها الا اشارات عابرة خفيفة كالتى قدم المقدسى حين تحدث عن اقليم المغرب فقال : «ولغتهم عربية غير انها منغلقة مخالفة لما ذكرنا فى الاقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومــى ... والغالب على بوادى هذا الاقليم البربر وأكثرهم بكــورة السوس وهم قــوم على عمــل الخوارزمية لايفهم لسانهم ولاترضى طباعهم (1)» .

كذلك نجد ابن هشام اللخمى فى «لحن العامة (2)» يتعــرض للغات العامية فى مختلف الاقطار ومنها المغرب . وقد نشر استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى بحثا بعنوان «الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة (3)» اختار منه بعض الالفاظ الاعجمية التى تسربت للهجة المغربية الاندلسية من البيئة المحلية كما اختار بعض الالفاظ التى اكسبتها هذه البيئة معنى جديدا .

ولو شئنا أن نتعرف الى حال هذه اللهجة بعمق واستقصاء وتفصيل لاحتاج منا ذلك الى بحث مستفيض ومجال واسع لايتهيآن لنا فى هذا الفصل ولايتيحهما موضوع الرسالة نفسه . لذلــك فاننا نكتفى بالقاء الضوء على بعض الخصائص التى من شأنها أن تقرب هذه اللهجة الى القارىء البعيد عنها وتسهل فهمها عليه .

وقد قسمنا هذه الخصائص الى قسمين : احدهما عام يشمل اللهجة

---

1) «أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم» ص 343 طبعة ليدن 1909 .
2) مخطوط بالاسكوريال حيث توجد منه نسختان رقم الاولى 46 ورقم الثانية 99 .
3) مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة 1957 .

الدارجة المغربية ، ونقصد اللهجة العامة المنشرة فى أهم المدن والمناطق ، والثانى خاص بلهجة الزجل ، وهى تدخل فى نطاق اللهجة العامة لاتختلف عنها الا فى بعض الجوانب التى حاول الشعراء تطويرها او اضافتها تطويعا للغتهم حتى تسعفهم فى التعبير الفنى ٠

اولا : خصائص عامة (1) :

1 ـ فتح عين اسم الفاعل فيقال فى :

صالح = صالح (بفتح اللام)

عـالم = عالـم (بفتح اللام)

باستثناء لهجة الجبل فانها تحتفظ بالكسر٠

2 ـ تسكين عين فاعله فيقال فى :

جاريه = جارْيه (بتسكين الراء)

قابلة = قابلة (بتسكيـن الباء)

نادمة = نادمة (بتسكين الدال)

3 ـ حذف ياء مفاعيل مع تسكين الميم وفتح العين ، فيقال فى :

مفاتيح = مفاتح (بتسكين الميم وفتح التاء)

مزامير = مزامـر (بتسكين الميم الاول وفتح الميم الثانـــى)

4 قلب (ا ء) النهائية الى تاء تانيث مربوطة فيقال فى :

حمـراء = حمـرة

ثلاثـاء = ثـلاثة

صحراء = صحـرة

5 ـ حذف الياء فى وادى فيقال : واد بتسكين الدال

وكذلك فـى جـوارى فيقال : جوار بتسكين الجيم والراء

---

1) انظر فى ذلك : I — Louis Brunot ; a) Introduction à l'arabe marocain. G-P. Maisonneuve et Cie Paris 1950

b) Sur le thème verbal F'al en dialectal marocain Mélanges W. Marçais Paris 1950 P. 56.

2 — G. S. Colin : Notes de dialectologie arabe Hesperis - T. X 1930. Fas I.

6 استخدام صيغة المثنى للجمع فيقال :

ويدان (ج واد)

فيسان (ج فاس)

7 ــ استخدام الجمع للمثنى فيقال فى :

ضربتهما = ضربتهم ابزوج (تضاف ابزوج لتأكيد التثنية)

قــرأتهما = اقريتهم ابزوج

8 ــ استخدام الجمع بمعنى المفرد ، فيقال فى :

جـنـة = جـنـان

قــبــر = قــبــور

روض = ريــاض

خــلــق = اخــلاق

عضــو = اعضـــا

9 ــ نطق اسم الموصول : الذى = اللى ، وهو نطق تكاد تشترك فيه جميع اللهجات العربية ·

10 ــالتزام بعض الاسماء الخمسة لحالة واحدة ، مثل :

ابـــاك ــ خـــاك

احمــوك

11 ــخضوع الاضافة لاسلوبين :

1 ــ مركب باستخدام كلمة متاع او ديال ، فيقال فى :

كتابى = الكتاب اديالى

دارنا = الــدار امتاعنا

2 ــ بسيط باستخدام الضمائر والتزام الحركات على هذا النحو:

أ ــ النصب فى حالة الخطاب فيقال :

عمك ــ خالك ــ كتابك ــ دارك ·

ب ــ الرفع فى حالة الغائب المفرد ، فيقال :

راسو ــ جدو ــ بيتو ·

ج ــ السكون فى بقية حالات الغياب فيقال :

حبيبها ـ رجلها (للغائبة)

بلادهم ـ دارهم (للغائبين والغائبات)

12 ـ ورود اسم الاشارة على هذه الصيغ :

هـاذوك

هـاذول

ذوك

ذوكـا

13 ـ تسهيل الهمز ، فيقال في :

رأس = راس

بئـر = بيـر

14 ـ تشديد الضمير الغائب المفرد ، فيقال :

هـو ـ هـي

15 ـ نطق حـرف الجر (فـي) دون مـد الفاء مع ميل الى فتحها ، وكتابتها ـ ان كتبت ـ متصلة دائما بمجرورها : فـالـدار ـ فالبيت .

16 ـ نطق (له) و (به) على حالتين :

1 ـ له بكسر اللام وتسكين الهاء (ومثلها به)

2 ـ لـو بالضـم والمـد (ومثلها بو)

17 ـ ابدال هاء الغائب واوا فيقال في :

كتبه = كتبو (مع تسكين التاء)

ضربه = ضربو (مع تسكين الراء)

وقد تحذف هاء الغائبة كذلك فـي لهجة الشمال ومنطقة صفرو والبهاليل فيقال في :

كتبها : كتبا (مع تشديد الباء)

ضربها : ضربا (مع تشديد الباء)

18 ـ تسكين أواخر الكلمات وعـدم اتخاذ الحركـات وجواز التقاء الساكنين .

19 ـ ورود الفعل المضارع فى حالة المتكلم المفرد على صيغة الجمع ، فيقال :

نكتب ـ نلعب (بتسكين آخر الفعل)

20 ـ ورود الفعل المضارع فى حالة الجمع على نفس الصيغة مع مد آخر الفعل وضمه فيقال :

نكتبو ـ نلعبو

21 ـ حذف نون الجمع فى المضارع ، فيقال فى :

ياكلون : ياكلوا

يمرحون : يمرحوا

22 ـ زيادة حرف (الكاف) أو (التاء) فـى أول المضارع للدلالة على الحال والاستمرار ، فيقال :

كيخدم ـ تيقرا

ويلاحظ أن لهجة الشمال تزيد (اللام) وعبارة (غالا) فتقول :

لايلعب ـ غالا يقرأ

23 ـ اضافة حرف الشين للتعبير عن النفى فيقال :

ماتلعبش ـ ماتجريش ـ (بتسكين الشين أو كسرهـا)

24 ـ استخدام صيغة افعال للدلالة عـلـى الصيرورة ، حيث تبنى عليها :

1 ـ افعال مشتقة من الالوان ، فيقال :

احمار : صار احمر

اصفار : صار اصفر

2 ـ افعال مشتقة من بعض الصفات ، فيقال :

اعراج : صار اعرج

ارطاب : صار رطبا

أطوال : صار طويلا

احماض : صار حامضا

اصلاح : صار صالحا

25 ـ استعمال صيغة مفعال (بفتح الميم وكسرها) لمجرد الوصف ، فيقال :

محساد ـ مغيار ـ مبراص ـ مزيان

ثانيا : ظواهر خاصة :

نظرا لان اللغة العامية لاتستعمل الا للشؤون العادية فانه «من الصعب على من يريد التعبير بواسطتها عن احساساته الخاصة وأفكاره أن يكتفى بمفرداتها المحصورة فيضطر الى الاقتباس من اللغة الفصحى ، ولم يتأت هذا بالطبع فى أول الامر الا لشعراء كانوا من المثقفين الذين تعلموا العربية الفصحى وأجادوها مثل سيدى عبد العزيز المغراوى فى القرن العاشر» (1)

فقد ادخل اشياخ الملحون ـ والمثقفون منهم خاصة ـ كثيرا من المترادفات وكثيرا من الغريب ٠ وجاء الاميون منهم فقلدوهم فى استعمال هذه الالفاظ ٠ ثم ان هؤلاء الاميين كانوا يجلسون الى العلماء ويستفيدون من الدروس والمجالس مما قوى ثروتهم اللغوية ٠ ومع ذلك لم يكونوا يتقيدون وكانوا يتصرفون فى الصيغ والتراكيب ٠ ومن هنا نلاحظ جملة ظواهر ، منها انهم :

1) جمعوا قصيدة على قصدان وأنسلة على نسول وكأس على كيوس وحاجة على حيجان ٠

2) لجأوا الى الصفات وسموا بها كقولهم للقلب الخبير والساكن ، وللبحر الزخار والمالى ، ولشمس العشية الذهبية ، وللغزال الحذار أى الذى يحذر الصياد ، وسموه الجفال والشرود ٠ وكثر ذكر الغزال فى شعرهم لتشبيه المحبوبة به فأطلقوا عليه الدامى والدروج والربراب والريم والزهزام والزهزوم والمها والصياح والعراض والعمهوج والقرهوب والشادى وشارد العفا والشرشة والشريد والوسنان واليطلول واليعفور ٠

من هذا قولهم فى أسماء العيون : أبصار وأتماد وأحداق وأرماق

---

1) مقال «لغة الملحون» للاستاذ محمد الفاسى ـ مجلة البحث العلمى عدد 4 ـ 5 السنة الثانية يناير غشت 1965 ٠

وأرماش وألحاظ وأعيان واغلاس وأغناج وتمود ورموق وروامق ومقلات وانجال ونجلات ونواجل ونيام ٠

3) اشتقوا من الاسماء صفات فقالوا : رجيل للرجل الشجاع الصابر ، ورجول لكامل الرجولة ٠ وقالوا : مبشور ـ مشتقة مـن البشر ـ اى فرح مبتهج ، واشتقوا من الادب : مدوب ٠

4) استعملوا المفرد بمعنى الجمع وخاصة فى صيغة فعول ، فقالوا : حسود يقصدون الحساد وجحود بمعنى الجاحدين ٠

5) استعملوا صيغة تفعال فى المصادر فقالوا :

التحقاق بمعنى التحقيق

التجفال بمعنى التيه والصد

التغراد بمعنى التغريد

التفراد بمعنى الانفراد

6) استعملوا صيغة تفعيل فى غير المعنى الذى تؤديه هذه الصيغة فقالوا:

التزهيد بمعنى الزهد

7) استعملوا صيغة فعيل بمعانى :

1 ـ فـاعل فقالوا : جهيل بمعنى جاهل وحسيد بمعنى حاسد

2 ـ منفعل فقالوا : سكيب بمعنى منسكب ٠

3 ـ متفعل فقالوا : حبيك بمعنى متشدد ٠

8) استعملوا صيغة افعال بمعنى استفعل فقالوا :

اسقام بمعنى استقام ٠

9) استعملوا مركبات اضافية للدلالة على بعض الكلمات والمعانى ، فقالوا: للقلب أمير الاكنان وأمير الحشا وأمـيـر الاسيار (اى الدواخـل) ، وللخمر بنت الدوالـى ، ودم العنقود ، وللمحبوبـة ام النيوت (اى الشعور السوداء) وأبو دلال وأبو دواح (اى صاحبة الحلق) وللفراشة أم الوبرات ٠

10) استعملوا بعض الالفاظ فى معانى معروفة فى العربية فقالوا :

الاحبار بمعنى الشعراء الكبار ٠

البطارق بمعنى العلماء الراسخين ٠

الميـز بمعنى الذكاء مع لباقة وظرف ٠

11) استعملوا كلمات عربية فى غير معانيها المعروفة مثل :

الوسنان للغزال ٠

العانس للفتاة الجميلة

12) تصرفوا فى بعض الالفاظ اخضاعا لها للوزن والقافية ، فقالوا فى :

البنفسج : بلفجج وبلفجوج وبنفجيج ٠

اتـمـاد : تـمـود ٠

13) أضافوا ياء الى بعض الكلمات ، مثل :

اطوادى : فى اطواد بمعنى الجبال ٠

كتمانى : فـى كتمان

14) استعملوا التنوين فى بعض الظروف : قبلا وبعدا ٠

15) استعملوا التنوين فى بعض الافعال : ليس ٠ وتكون بمعنى ما النافية وبمعنى لم ٠ وجعلوها تدخل على الماضى ٠ ومع ذلك فكثير استعمالها بدون تنوين ٠

16) استعملوا ذى فى هذه ٠

17) استعملوا اللذى فى الذى

18) استعملوا لان او لان (بنون ساكنة مشددة او مخففة) فى لأن

19) استعملوا كـن فـى كـأن

20) ثـم انهم تـوسعوا فـى لغتهم «فاستوعـبـوا أسماء الازهار والالوان والاطعمة والطيور والحيوانات والاشجار والملابس والاسلحة وآلات الموسيقى وأوانى المنزل والاثاث وأدوات الصنائع فأدخلوا كل ذلك فى لغتهم حتى صارت من أوسع اللغات وأغناها بل حتى صار ذلـك من العوائق عن تفهمها وتذوقها لكثير ممن ليست لهم ممارسة ومعرفة خاصة بهذا الانتاج الادبى الضخم» (1) ٠

---

1) مقال «لغة الملحون» للاستاذ محمد الفاسى ــ مجلة البحث العلمى عدد 4 ــ 5 السنة الثانية ــ يناير غشت 1965 ٠

جـوانب بـلاغـيـة

تنطوى اللغة العامية بطبيعتها على شفافية وفعالية ومرونة وحيوية تجعلها قادرة وباستمرار على امتصاص المعانى والافكار الجديدة واكتساب الالفاظ والتراكيب الوافدة ، يساعدها فى ذلك عدم تقيدها بقواعد وقوانين متجمدة تحول دون تكيفها مع الواقع واستقبال كل الروافد واحتضان اى جديد ٠

ولكنها مع ذلك لاتكون صادقة وساحرة وجميلة الا اذا كانت متصلة بمنشئها محتفظة برهافتها وقدرتها على التعبير فى مستوى بلاغى رفيع ٠

أما الاتصال فليس من شك فى «أن اللغة اذا كانت منفصلة أو شبه اجنبية بالنسبة للشاعر فقد بطل سحرها فى نفسه وسقط التجاوب العاطفى بينه وبينها فأصبحت عاجزة أو أصبح هو عاجزا عن أداء هذا التعبير الوجدانى فى صورته التامة الكاملة الدقيقة التى تشعر بالراحة وتزيح عن صدره ما يجثم عليه ويمتلىء به من انفعال وجدانى ٠٠ ان الشاعر لابد أن يمتلك أداته اللغوية امتلاكا كاملا ليكون قادرا على تصريفها فى اغراضه واستخدامها فى نظمه» (1) ٠

وأما البلاغة فان الحديث عنها قد يثير غضب الذين لايعترفون باللغة العامية اداة للتعبير الجميل ، وهم كثيرون ٠ وقبل أن نكشف لهؤلاء عن جوانب البلاغة ومظاهرها فى شعر اداته اللهجة الدارجة ، فانا نرى أن نستعرض أقوالا لابن الاثير وابن خلدون لعلها أن تخفف من حدة غضب الرافضين للعامية وأدبها وأن تبعث فى نفوسهم بعض الاستعداد للنظر فى هذا الادب ٠

---

(1) «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر» لاستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى ص 16 – 17 – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة سنة 1962 ٠

يقول ابـن الاثير متحدثا عـن الطبع والآلات ، وهـى العلوم ، ومنها اللحن : «وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طـبـع فانه لاتغنى تلك الآلات شيئا ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فـى الزنـاد والحديدة التى يقدح بها ، ألا ترى أنه اذا لم يـكـن فى الـزنـاد نار لاتفيد تلك الحديدة شيئا (1)» • ويقول كذلك مبينا أن اللحن لايقدح فى الفصاحة والبلاغة : «•• أن الجهل بالنحو لايقدح فى فصاحة ولابلاغة ولكنه يقدح فى الجاهل بـه نفسه ، لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فـوجـب اتباعهم ، والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغـرضه منه رفـع الفاعل ونصب المفعول أو ماجرى مجراهما وانما غرضه ايراد المعنى الحسن فى اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة • ولهذا لم يكن اللحن قادحا فى حسن الكلام لانه اذا قيل : جاء زيد راكب ، ان لم يكن حسنا الا بأن يقال : جاء راكبا ــ بالنصب ــ لكان النحو شرطاً فى حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر اقامة اعـراب كلماته وانما الغرض أمر وراء ذلـك ، وهكذا يـجـرى الحكم فـى الخطب والرسائل من الكلام المنثور (2)» •

والى نفس الرأى يذهب ابن خلدون فى قوله : «ان العلم بقوانـيـن الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة المهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتـلـك القوانين اذا سئل فى كتابة سطرين الى اخيه أو ذوى مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى • وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الكلمة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهـو لايحسـن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولاشيئا من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية وانها مستغنية

---

1) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر «لابى الفتح ضياء الدين بـن الاثير ج 1 ص 8 طبعة الحلبى مصر سنة 1939 •

2) المصدر السابق ص 18 – 19 •

عنها بالجملة (1)» .

ويضيف مدافعا عن شعر أهل امصار المغرب من العرب ومحددا معنى البلاغة : «... ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول . والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا انشد ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها ، وهذا انما اتى من فقدان الملكة في لغتهم ، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سليما في الآفات في فطرته ونظره ، والا فالاعراب لامدخل له في البلاغة ، انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت البلاغة ، ولاعبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ماعدا حركات الاعراب في أواخر الكلم (2)» .

ومثل هذا يؤكده مختصرا في تاريخه حيث يقول : «... الا ان الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الاعراب ويحسبون أن الاعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك (3)»

اما مظاهر البلاغة (4) في القصيدة الزجلية فيحصرها الاشياخ النقاد

---

1) المقدمة (فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم) ، ص 492 طبعة بولاق .

2) المقدمة (فصل في اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد) ص : 511

3) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 18 طبعة بولاق .

4) يجدر بالذكر أن الشاعر الشعبي استعمل كلمة بلاغة . يقول ابن علي في أول قسم من «المحاورة» :

افراجا مقصيا اكما اسمعت انعاود للسامعين برضاهم

برجاحت لعقل وابلاغت لحبار جبت اخصام الخودات في انهايت شعري منظوم

ويقول كذلك في آخر قسم من «الحجام» :

غير ابلاغا فالشعر وانظامو

عمري ماوشمت ولانعرف واشمة ولانا داخل لكلوف

فى أربعة عناصر (1) :

اولا : التجنيس او الجناس ، ولايكون عندهم الا تاما ٠

ومن الامثلة عليه قول **الكندوز** فى «غاسق لنجال» ، وهو اكثر الشعراء براعة فيه :

بجفاك عمدا لى عدت انحيل

ماشفك تعذابى اولا محانى

سيف لجـفـا امحانـــى

لعباد لامحانـــــى

فامحانى الاولـــى جمع محنة ، والثانية فـعـــل محا فاعله السيــف ، والثالثة فعل لمح بمعنى رأى فاعله العباد ٠ ومن الامثلة عليه كذلك :

دمعاتك القلب الدامى ملو الحوف

واتمزق لكسا واكذاك الحافى

والردا وقماش الحافى

ازحفت من ذا القدم الحافى

فالحافى الاولى بمعنى الغطاء والثانية بمعنى الفراش والثالثة بمعنى حافى القدمين ٠

ومن الجناس الوارد فى هذه القصيدة :

كمن امليح به اصيارى باتو اهتوف

واغضبت عن النفس وقلت اكتافى

انت اسباب اكيود اكتافى

وبلمليح احماوا اكتافى

فاكتافى الاولى فعل أمر من اكتفى ، والثانية بمعنى التقييد من كتف أى كبل وقيد ، والثالثة بمعنى الاكتاف ج كتف ٠

ومنه كذلك قول ابن احساين فى قصيدة «فاطمة» :

كيـفــى يانا انهار نــامــوا ❋ عينـــى فعيون مــوحــرام

---

1) نلفت النظر الى أنا سنعود الى هـــذه المظاهـــر البلاغية فـــى «الباب الثالث» لنرى نشأتها وتطورها ٠

واعقيلى مـن الهام هـام ❊ بالحال اللى افقلب شاما

فـوق الـوردا الـنـاسـمـا

فالهام الاولى بمعنى الرأس والثانية فعل الهيام ·

ويقول الزلايجى فى «الدعى» :

نهزم الدعى دون انصال ❊ حتى يرضى بالقهرا عن افصالى

وانفصلوا افصالـى

فافصالى الاولى مـن الفصال والمفاصلة ، والثانية جمع فصلة ، اى قطعة ·

ثانيا : التصريف :

وهو فى الواقع نوع من الجناس حيث يتصـرف الشاعـر فـى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها ، وغالبا مايفعل ذلك باسم الحبيبة · يقول المدغرى فى «زهرة» :

مانظرت اغزالى زهرا

انجمت الزهـر

او لنظرت الخد فزهـر

ابطيب ازهـــاروا

ويقول فى «مسعودة» :

ڭولوا المسعودا ياطلوع اكواكـب لسعاد

انا مـن سعدى اسعادتـك وانت مسعـودا

انت بدر السعود وانت لهلال اسعود

ويقول ابن على فى «كنزة» :

ماكيف اوصالك كنز

وافضل من مال ايلا كنزوا

عالجنى ياشمس لمحاسن ياكنزا

ومن التصريف فى غير اسماء الحبيبات قول عباس بن بوستة فـى حربة قصيدة له تأملية :

لاتغرب فالغرب امع لمغاربا ❊ الغرب اغريب سايرا فيه اغريبا

مـن اغرايبوا عـن اهلو غـربـا

ثالثا : التضمين او التلزيم :

وهو أن يضمن الشاعر القافية اكثر من حرف ويلتزم ذلك فى كـل القصيدة او فى بعض اقسامها وهو مايسمى فى الادب المعرب بلزوم مالايلزم. وقد برع فيه الحاج احمد الغرابلى ، ومن خير الامثلة على تضمينه قصيدة «ملكة» يقول فى القسم الاول منها ملتزما حرفى اللام والكاف :

يامن اطلوع اهلالك
يفجى اظلام لحلاك
نحكى اشموس لفلاك
لله جد لى بوصالك
ننكى ابزورتك عدالك
لنى اغلام حسن اجمالك
قبل الصيام يامولاتى وناغلام مملوك
ومن لفراق مهلوك
ويلا تزورنى تتعافا ذاتى الهالكا
لو تجفى قلبى ايواصلك
ويلادزتنى ابقى العار اعليك

وفى القسم الثانى منها يلتزم حرفى الراء والكاف ، فيقول :

امحاسنك واسرارك
فتنا الكل مـن راك
وابهاك ليس يـدراك
لازلت نرتجى بشارك
ياتى المرسمى بخبارك
وايفيدنى ابصح امزارك
وانقول سعد سعدى واكمل قصدى ابيوم مبروك
واضحى الرقيب متروك
انجدد لفراح ونغنم ساعا امباركا
وانقول لك الله اينصرك

من ارقى متواك مامعاه اشريك

رابعا : النشب ، وهو ثلاثة انواع :

1 ـ **نشب كلمة** ، وهو ان يستهل الشطر بكلمة من الشطر الذى قبله والبيت بكلمة من البيت السابق عليه وغالبا ماتكون آخر كلمة فى الشطر او البيت ، وهكذا وكأن القصيدة سلسلة مـرتبطة الحلقات . ويطلق على الاجزاء المنشوبة : «لمطارش» (1) وقد برع فيه محمد بوزيان .

ومن خير الامثلة على نشبه قصيدة «المحبوب» التى يقول فى احـد أقسامها :

محبوب خاطرى من فكدو عمدا لى * عمدا لى والنوم ضج من لنجال
لنجال على الخد دمعها سلسالـى * سلسالى يهو اكما لمطر هطال
هطال امن افراك اللى زاد اهبالى * اهبالى من‌فكد امن اهويت‌اغزال
اغـزال افلبها غـيـرو مايحلالـى * يحلالى وصلو ايلا نعم بالوصال

ومن هذا النوع كذلك ماجاء فى قصيدة «الجار» للكبير بن عطية المراكشى:

أمن اهواك هيج وجدى وافنانـى * وافنانى خلا امدامـعـى طوفان
طوفان فوق خدى والنوم اجفانى * واجفانى محبوب خاطرى ببيان
ببيان ياهلى واش ايعطف جيرانى * جيرانى لغدر عيب للجـيـران
جـيـران مـاتـدوز الـجـار * والـجـار مـا بـقـى مهجـور
مهجـور بـيـن صـهـد الـنـار * والـنـار تـتـزيـد اشـرور
اشـــرور مـاطـفـا بـامـطـار * وامطـار امـن امـاج ابـحـور
ابـحـور فايضا زادت تمحانـى * تمـحـانـى زاد بـالـتـيـهـان

2 ـ **نشب كلمتين** : على حد مانجد عند الحاج احمد الغربلى فـى قصيدته «عين الرحمة» ومنها :

أعين الرحما الراحما ياقرت لنيام * ياقرت لنيام جد لى يابحر التعظيم
يابحر النعظيم والفضل يـاعين الـرحما

---

1) لعلها من الطرش بمعنى القذف وكأنه يقذف بها من شطر لآخر . وعند بعض الاشياخ أن «لمطارش» تطلق على كل الكلمات التى يقصد الـى تكرارهـا حتى ولـو على غير نظام النشب كقول الـدراز فى حربة «زهرة» : بمزارى بمزارى ـ جد لى بوصالك نبرا ـ يامولاتى زهرا

3 ـ **نشب شطر** ، وقد برع فيه التهامى المدغرى ، وخاصة فى قصيدته «فارحا» التى يقول فى أحد اقسامها :

سلتك ببهاك يالرايح ❋ مالك سكران دون راح
ونا عقلى امعاك راح ❋ بايت من ليعت لجرايح
ساهر والناس رايحا

بايت من ليعت لجرايح ❋ عقلى بهواك ما ارتاح
وانبرد ابغير أح أح ❋ بين التنهاد والجوايح
كاوى بجمار لافحا

بين التنهاد والجوايح ❋ بالشوق اتكمد لجراح
اللى من دكت اللماح ❋ والغالب مابقى ايسامح
ولايدرى امسامحا

الغالب ما بقى ايسامح ❋ سيفو مملوك اللكفاح
وخيولو تكلب لمراح ❋ بين المسمار والصفايح
كمن قومان طايحا

بين المسمار والصفايح ❋ واسنون الهند والرماح
تزلغ من شوفها الماح ❋ قولوا لصبيغت اللوامح
عطفى بخلاك فارحا

قولوا لصبيغت اللوامح ❋ ياغصن ايميس فالدواح
أمهر اشرود افلبطاح ❋ رفدى يالا الطايح
باللى سماك فارحا

ولم يكتف الشاعر الشعبى بهذه المظاهر يكشف بها عن قدرته على التعبير الفنى الجميل ، وانما حاول اظهار هذه القدرة فى استخدام نوع معين من الكلام ، وهى محاولة لاتخلو من تكلف ولاتعنى غير تطويعه للغة وبراعته فى ذلك ومهارته . وقد وقفنا من ذلك على نوعين :

أحدهما أن ينظم الشاعر قصيدة كل حروفها مهملة (1) ، ومن الامثلة

---

1) هذا قريب مما ذكره الرباط فى «العقيدة الادبية» لدى ذكره أنواع الصنعة فى الموال حيث قال : «صنعة المخزوم وتعريفها أن يجعل =

على ذلك قصيدة للنجار يقول فى حربتها :

ململا لعلا الصمد الاه

عل الماحي صلى واعطاه سر ملكو

ويذكرون أن الشيخ محمد بن الشليح السلوى عارضها بقصيدة كل نقط حروفها من فوق وأن الشريف البقالى المكناسى عارضها بقصيدة كل نقط حروفها من أسفل ، والاسف انا لم نتمكن من الوقوف ولو على بيت واحد من هاتين القصيدتين .

ومن الامثلة كذلك على الشعر الخالية حروف كلامه من النقط قصيدة للكبير بن عطية تسمى «الناشمة» يقول فى حربتها :

روم حرم الهادى واسع امكارم احماه

لمرام اموصل والود ولمكارم

مامسى محروم الساعى لوراد احماه

والثانى أن يستعمل الشاعر اسلوب «الخاتم» ، وهو ان يلتزم بدء أبيات القسم او انهائها بكلمات معينة ، على حد مانجد عند بوعمرو فى قصيدته «زهرة» حيث يقول بادئا كل بيت بـ «زهرة»

زهرا زهوا للذات * مصباح الخودات

الناظم جميع أحرف مواله مهملة عدا آخر حروف القوافى معجمات .
ومثاله أقول :
أمحمد محمد رسول مرسل ومدحه لز
واعمل اكما اعمل العالم واهل العز
كم له مدد كم هلك ساحر وسهمه حز
ورمحوكم دحا حاسد واعداه دز» . (الورقة 149) ظهر)
وتجدر الاشارة الى ان المغاربة عنوا باظهار مثل هذه البراعة حتى فى غير هذا المجال على حد مانجد عند المرحوم احمد بن العياشى اسكيرج فى رسالتين الفهما بالحروف المهملة هما :
أ) مطالع الاسرار لمدارك الاحرار فى شرح صلاة الفاتح لما اغلق (مطبوعة على الحجر) .
ب) مدد الوصول لادراك السول على حل كمال الصلاة على رسول الله على روحه السلام (مطبوعة على الحجر بفاس سنة 1332) .

زهــرا عــل لـبـنـات * حـازت لبها وثـبـاتـا

زهـــرا شمس انـبـات * بـالـحـسـن اتـجـلات

زهـــرا مـــن عـــدات * زيـن عـبـلا وخناتـا

وعلى حد مانجد كذلك عند الشريف محمد بن لحسن في قصيدة «هنية» فقد ختم كل بيت من أبيات القسم الاخير منها باسم «هنية» ، يقول :

خـذ اراوي روض لفـنـان * فمديح للا بوتيتين اهنـيـا

بـهـا زال الـهـول واهـوان * صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

وقد برع في ذلك التهامي المدغري الذي يقول مثلا في قصيدة «طامو» بادئا كل شطر بكلمة : «مال» =

مال جفني ساهـر طول البهيم * مال جفنك فسرور امقيـمـا

مال خدي ساقط ورقو اسقيم * مـال خـدك ففـراح انعيما

ويقول في قصيدته «مير لغرام» بادئـا الفراش بكلمة «أنـت» والغطا بكلمة «أنـا» :

أنـت اغلا وزيـن مـن الياقوتـا الضاويا

ونا بزيـن غالي مملوك اولا يلـى احميا

أنـت ابها مـن الشمس المـرفوعـا الغاليا

ونا بنار شمس خدودك كـاوى بنار حيا

ومن اروع ما نظم الشعراء على هذا الاسلوب قصيدة ينتهي كل بيت منها بـ «اقفل» في الشطر الاول و «قفلو» في الشطر الثاني . وقد ذكر لنا منها الشيخ بنعيسى الدراز هذا البيت :

ياحاضي (1) باب افلخلا من غير اقفل

مايحضي باب غير من كان ابقفلو

وأخبرنا أنـه عارضها بقصيدة على نفس الاسلوب لـم يـذكـر منها غير بيت واحد يقول فيه :

عندي مفتاح به نفتح كل اقفل

لو يجتمعوا جميع لقفال ايقفلو

---

1) حـارس .

فنيـة الاســلوب

لسنا نريد أن نختم هذا الفصل عن لغة القصيدة الزجلية وفنيتها دون أن نقف عند بعض خصائص الاسلوب فيه ، وهى :

1 ـ التشبيه والمقارنة ٠

2 ـ الحركة والحيوية والتشخيص ٠

3 ـ الـحـوار ٠

4 ـ القصــة ٠

5 ـ الـرمـز ٠

والحقيقة أننا سنبسط الحديث عن هذه الخصائص فى «باب الموضوعات» عرضا وتمثيلا ، ونتتبعها فى مختلف المواطن التى وردت فيها بما يعطى عنها صورة واضحة الملامح مكتملة الاجزاء ، ولكنا مع ذلك نرى لزاما علينا فى هذا الفصل أن نقف عند تلك الخصائص وقفات قصيرة تكون بمثابة اشارات تنبيه لما سيأتى مفصلا فى ذلك الباب ، وهى وقفات نراها ضرورية لاسيما وان تتبعنا فيه لهذه الخصائص ، رغم ما سنعمد اليه من تفصيل ، سيجىء خاضعا لتقسيم الموضوعات وتابعا لسيرها وما يقتضيه تسلسلها ٠

أولا : التشبيه والمقارنة :

لم يترك الزجال المغربى أى شىء لم يخضعه للتشبيه والمقارنة ، مستعينا بكل ماحوله فى الحقيقة والواقع او بما يجود عليه به خياله ، سواء فى ذلك باستعمال أدوات التشبيه أو عدم استعمالها ٠ فقد شبه المرأة بالغزال والطائر والياقوتة والقمر والزهرة والمصباح ، وتتبع جميع ملامحها فشبه الثغر بعقد الجوهر ، والقد بالراية وغصن الآس ، والخد بالوردة ، والخال بالغلام ، والغرة بالبرق ، والانف بزهر السوسان وعصفور صغير ، والصدر بقطعة رخام ، والبطن بقماش صاف مرقوم ، والنهدين بالتفاح ، والذراعين

بالسيوف ، والاصابع بالاقلام ، والسرة بالكاس سالت عنها الخمر ، والافخاد بأعمدة من ذهب ، والسيقان فى حمرتها بقطعة من البلور اشعلت فيها شمعة كبيرة ، واللون الابيض بالعاج ، والاسمر بالخمر او ماء الذهب ، ثم عكس فعمد الى هذه الاشياء المشبه بها فشبهها بمفاتن المرأة .

ونظر فى مظاهر الطبيعة والكون وتأملها فشبه الشمس حين تغرب بفرس شقراء ارخى عنانها ففدت تغير على الروابى والسهول ، وحين تتجلى فى كبد السماء كعذراء فى عنفوان النمو وعز الجمال . وشبه الفجر عند الطلوع ببدر مضىء وعروس برز من الحجاب وحوله الكواكب كالفاتنات وشبه الليل بسلطان من السودان يقود جيوشا من الفرسان تمتطى خيولا دهماء . وشبه الارض فى حلتها الربيعية الجميلة بعروس سلطانة ، واديمها المنور بزرابى مفروشة من نسيج الخالق . وشبه النخلة بعروس بكر وعناقيدها بالياقوت والجواهر والعقيان ، فى حين شبه عناقيد الدوالى بالثريات . وحين تأمل الدنيا وجدها كالحسناء الفاتنة يعشقها كل الناس.

ولم يكتف الشاعر الشعبى بالتشبيه المجرد فحسب ، وانما عمد كذلك الى المقارنة فاعتبر جمال محبوبته يفوق الشمس والقمر ، وأن البدر يغار من نور جمالها فيحتجب ، وأنها ياقوتة يتضاءل أمامها الجوهر والذهب والفضة . وحاول أن يقارن بين حاله وحال محبوبته فقابل بين قلبه المشتعل وقلبها المرتاح ، بين لونه الاصفر الذابل ولونها البهى الجميل ، بين سهره يرعى النجوم ونومها الهادىء ، بين سلوها وانشغاله ، بين قوتها اللذيذ وقوته المر ، بين صحتها ونشاطها ومرضه ووهن عظمه ومزاجه .

وقارن كذلك بين حاله المعذب وقد فارقته الحبيبة وبين بعض الاشياء الاليفة لديه كالشمعة المحترقة لفراق مملكتها ورعاياها ، والحمام الباكى لهجر انثاه ، والرسم الخالى من الاحبة .

وقابل بين الصبح والليل ، بين الصبح فى قدومه كسلطان ارخى ذيل ازاره لابسا حلة من الديباج وبين الليل فى توديعه كغراب أسود شابت عذاره ، بين الصبح كنسر يعلو فى تحليقه وبين الليل سال دمع غرابه .

وقابل كذلك بين نفسه ومظاهر الطبيعة فبعث فيها من ذاتيته ماجعلها

تعكس حال نفسيته وحيوية عاطفته فى تجاوب وامتزاج مع هذه المظاهر كتشبيهه الشمس فى غروبها وذبول لونها بالحبيب الذى هجرته محبوبته فاصفر لونه ٠

ثانيا : الحركة والحيوية والتشخيص :

يكاد هذا العنصر فى الواقع يطغى على القصيدة الزجلية ، فالمحبوبة ليست نائمة فى خدرها او محجبة ، وانما هى دائمة التحرك تصول بجمالها فى قوة واعتزاز ، وتتبختر فى ثيابها وتميل بقدها مع هبوب النسيم ٠ والمحب فى حاله المضنى كسفينة تتقاذفها الامواج ، وهو لايفتأ عن الحركة سعيا للوصول الى حبيبته ، يذهب الى المنجمين ويقصد الاضرحة ويزور محبوبته ليلا متنكرا فى هيئة «ضيف الله» فتنهض من منامها ، وتدخله وتكرمه ؛ وقد لايتهيأ له ذلك فيتنكر فى صفات أخرى يحاول بها ان يغرى محرزها ؛ ثم انه دائب الحركة فى البحث عن التذكار الذى اعطته محبوبته اياه يوم جادت عليه بالوصال فضيعه ٠

والحب سيف قاطع وسلطان طاغية يهجم فى جماعة من الابطال ، وأمير جائر مروع يقود الجنود للقتال وقد لمعت اسلحته وخفقت أعلامه ، وبحر هائج لانهاية لحدوده ما مخرت عبابه سفينة الا اغرقها وشتت الواحها

وشخص مايعانى المحب من التيه والضنا والشغف والهيام فجعلها ملوكا للعشق تطغى وتجور ٠ كذلك بعث الحياة فى الشمعة فجعلها تتكلم وتحاور ، وفى الدوالى فصورها تتمايل معربدة بل جعلها تتزوج وتنجب بعد أن شخصها وشبهها فى نموها بصبيات يكبرن فى حجر امهاتهن وصونهن ٠ والحركة فى مجلس الشرب لاتفتر ، فمن العربدة الى الوقوع على الارض الى النهوض الى الموسيقى والغناء والرقص ٠

أما الطبيعة والكون فحاول تشخيصها وابراز اوصافها فى صور حسية ملموسة نابضة بالحركة والحياة ، فالليل يهجم والشمس تروح وتشرق ، وضوء الصبح يطرد الظلام ويزيحه ، والربيع يقبل ويحيى الارض بعد موتها، والمطر يتزوج الارض فتحمل منه وتنجب ٠

وينعكس هذا العنصر حتى على الهجاء حيث يستوحى الشاعر معانيه

من المعارك الحربية فينظم قصائد «البوغاز» و «الرامى» و «المهراز» (اى المدفع) والقرصان (أى السفينة الحربية) والغطاس (أى الغواصة) ، وهى قصائد لاتشم منها الا رائحة القذف والضرب والتحطيم ٠

ثالثا : الحوار (1) :

وهو نوعان :

1) **حوار قصير** يمكن أن نقول انه يأتى عرضا غير مقصود لذاته ، كالذى يجريه الشاعر بينه وبين محبوبته يشكو اليها فيه مما يقاسى فى حبها عارضا لحاله المعذب ، فتجيبه كاشفة عن أوصافها من خلال مقارنة مع حاله هو : ومثله الحوار الذى يديره مع الشمعة والحمام ٠

2) **حوار طويل** يقصد الشاعر اليه كالذى نجده فى قصائد «الحراز» حيث يتنكر المحب فى هيآت مختلفة ، وفى كل مرة يدخل مع محرز حبيبته فى حوار ٠

ومثل «الحراز» المرافعات كقصائد «القاضى» التى تصور لجوء المحب الى ممثل القضاء عساه ينصفه من جور محبوبته ، وكقصائد «الخصام» او مايطلق عليه «المحاورة» ٠ والحوار فيها قد يدور :

أ — بين اناس كما بين الحضرية والبدوية ، والخادم والحرة ، والزمنية والعصرية ، والشابة والعجوز ، والسمراء والبيضاء ، والطويلة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة ٠

ب — بين نباتات كالورود والزهور ٠

ج — بين طيور ٠

د — بين جمادات كالقلة والغراف ٠

هـ — بين مظاهر كونية كالليل والنهار ٠

و — بين أشياء وهمية يشخصها الشاعر كالحوار الذى اجراه المدغرى للتيه والضنا والشغف والهيام مع محبوبته التى رفع اليها المحب دعوى ضد هذه الاطراف ، وقد جعلها ملوكا للعشق اغتنمت فرصة غياب محبوبته فاستقرت فى قلبه ؛ وتستمع المحبوبة الى شكوى حبيبها والى

---

1) انظر الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة الجيلالى امتيرد ٠

دفاع خصومه ثم تجيب أتبث في الامر وتحسمه ٠

وقد كانت تتخذ بعض هذه القصائد لادوار تمثيلية او ماكـان يطلق عليه «البساط» ٠ والحوار في كلا النوعين يتعدد مجالـه بتعدد الاطـراف المشتركة فيه ، وهو في الغالب حوار مباشر يقدم له بفعل القول ٠

رابعا : القصة (1) :

يبدو الشاعر الشعبي مغرما بالسرد والقص مستوحيا في ذلك الخيال أو الواقع أو التاريخ ٠

1) فمن القص الخيالـي مايحكيه فـي قصائـد «الحراز» و «الخصام» و «الخلخال» و «الدمليج» وقصائد «الحجام» و (الفصادة) و (الوصال)٠

2) ومن القص الواقعي مايحكيه عـن الخمر متتبعا مختلف مـراحلها منذ غرست الدالية الـى أن نمـت ونضج عنبها وعصر وعتق ثم عرض للشرب ٠

ومنها كذلك مايحكيه مثلا في قصيدة «المطر» (2) عن الفـقيـر ومعاناته من البرد والمطر في فصل الشتاء ٠

3) ومن القص التاريخي نظمه لصفحات من السيرة النبوية في قصائـد «المخلوق» و «الوفاة» و «المعراج» او نظمه لنكبة الحسيـن أو لبعض الحوادث والاحداث التاريخية على حد مافعل الكفيف الزرهوني فـي هزيمة ابي الحسن المريني في القيروان ٠

ويدخل في هذا النوع مايطلق عليه «القصائـد الايـوبية» أو «الغزوات» وهي التي تحكي قصص الانبياء والاولياء ومحاولة ابـراز مافيها من خوارق وكرامات ٠ ويقول الاشياخ ان المغراوي كان اكثر الشعراء نظما في هـذا الباب ، ويذكرون لـه أسماء قصائـد منها : «المـؤودة» و «الشدادية» و «جرير بـن جرير» ٠ ويـذكـرون كذلك «النباش» للجيلالي امتيرد و «العيواجية» للكبير بن عطية و «الكهفية»

---

1) انظر الفصل الثاني من باب الاعلام لدى ترجمة محمد بن عبد الله بن احساين وكذلك الفصل الثالث لدى ترجمة الجيلالي امتيرد ٠

2) انظر تحليلها في الفصل الثاني من باب «الموضوعات» (ملاحظة) ٠

لغانم القصري و «النمرودية» للغرابلي و «البغدادية» للمكي بن القرشي ؛ ولكنه لم يبق من هذه القصائد الا الاسم ، والسبب أمران:

أولهما : انها قصائد طويلة يمكن ان يطلق عليها : «ملاحم» ومن شأن القصائد الطويلة أن يقل حفظها والا يقبل على سماعها فتضيع ·

الثاني : ماذكره الاستاذ محمد الفاسي حين قال : « وقد كان رجال الاستعمار أيام الحماية يمنعون انشاد هذه القصائد في الاسواق ، وكان المراقبون اذا تقدم لهم أحد المداحين يطلب الاذن في السفر للتجول في المدن والقبائل قصد ترويج بضاعته اول مايسألونه عنه هل يحفظ «الغزوات» فان أجاب بالنفي اعطى الاذن والا منع لانهم كانوا يخشون بعث العاطفة الوطنية والدينية في النواحي التي كانت ماتزال بعيدة عن اثر الدعوة الاستقلالية»(1)

خامسا : الرمز (2) :

ويتمثل في ثلاثة جوانب :

1) رسوم الوشم ، وتصور حيوانات وأسلحة وابطالا وبساتين ، وهي وغيرها أشياء يقصد الشاعر أن يرمز بها الى مختلف حالات المحب ، فالغزال للهجر والنفور ، والخيل والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للوصال ·

2) الجفريات : وهي القصائد التي تأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس واستعرض المناكر والعيوب ، ولكن في رمز واشارة وتلميح · وغالبا مايلجأ في ذلك الى الحيوانات ، فيمثل بالضفادع والذئاب والبوم للسفلة الذين غدوا سادة وبالسباع والنسور لكبار القوم الشرفاء الذين أذلهم الدهر ·

3) بعض قصائد الخصام ك «النجمة» للفلوس (3) ، وهي تمثل خصاما بين الليل والنهار وصراعا من أجل الفوز بالنجمة ، وهي قصيدة

---

1) مقال «الادب الشعبي المغربي الملحون» مجلة البحث العلمي – عدد 1 سنة اولى · يناير – ابريل 1964 ·

2) انظر الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة العميري ·

3) انظر تحليلها في آخر فصل «مع الناس» من باب الموضوعات ·

وطنية رمز الشاعر فيها بالنجمة الى الحرية وبالليل للاستعمار وبالنهار للوطن ٠

والجدير بالاشارة أن الشاعر لايلبث فى قصيدته أن يفك الرمز ويخرج منه الى التوضيح والتصريح بالرأى والفكرة وهو مايطلق عليه الاشياخ النقاد «الدميس د المعنى» كأنه يدس المعنى للسامع حتى لايظل يبحث عنه ويحاول الوصول اليه او مايسمونه «تيحسس على المعنى» ومن الامثلة على ذلك ماورد فى قصيدة جفرية لعبد الله اعلى يقول فى أولها رامزا الى أن الاحوال تغيرت وأن الدنيا صفت للسفلة فغدوا سادة :

فرعنت البوم اعلى البيزان اتولت ٠

بينت انيابها ودركت الصولا ٠

والسبع اخشى امن الضبع بعد الزهرات ٠

لزم التحدير خاف من ولد الغولا ٠

ويستمر كذلك فى رمزه بالحيوانات ثم يكشف فى الآخر عما يقصد اليه من نقد لواقع الناس والزمان فيقول :

لساجد كتعود افلنعات ٠

ترجع لقوام عن القبلا مشغولا ٠

يقوا لبنى عند لتجار لطغات ٠

ويكثر المال ولثياب المشكولا ٠

الى جانب هذه الفنية وتلك البراعة والمظاهر البلاغية نلاحظ عند اشياخ القصيدة الزجلية لمحات نقدية مختلفة نستطيع أن نجمعها فى فرعين : أحدهما خاص بالشعر والثانى بالشاعر ٠

أما مايخص الشعر فيتمثل فى تقسيمهم له من حيث جودته ووضوح معانيه وأفكاره واستقامة وزنه الى الاقسام التالية :

1) كلام بالغ : بمعنى بليغ

2) كلام مرصع : بمعنى منمق جميل (مرصع)

3) كلام ابيض : بمعنى بسيط واضح المعانى لاغموض فيه

4) كلام اكحكل : بمعنى معقد وصعب

5) كلام امسلس : بمعنى مستقيم لاكسر فى ميزانه

ونظروا الى الشعر بعد هذا من حيث لغته فاعتبروا من عيوبها استعمال الاعراب والكلمات الفصيحة أو ما اطلقوا عليه «البرص» (1) ·

وأما ما يخص الشاعر فيتمثل فى تفريقهم بين السجاى والوهبى أى بين صاحب السجية والموهبة · وعندهم أن السجاى هو الذى ينظم شعرا فيه عواطف ومعانى وأفكار · وفرقوا فى السجية بين أنواع ثلاثة :

الاول : المنقول وهو ان يروى الشاعر ما فى الكتب وينظمه كما هو الشأن فى قصائد مولد الرسول عليه السلام ووفاته ، وهى قصائد تحكى ماورد فى السيرة النبوية ·

الثانى : الهيض وهو أن يصف الشاعر الواقع وينقل الحقيقة كما فى المحاورات ·

الثالث : الغيظ وهو أن ينقل الشاعر احاسيس نفسه وانفعالاتها كما فى القصائد التى تملاها العاطفة سواء كانت عاطفة حب أودين·

أما الوهبى فهو الذى له قدرة على النظم فى سهولة ويسر ، دون أن تكون له عواطف ومعانى وافكار · ومن هنا قالوا «لامعرب على وهبى» أى لاجدوى من مناقشته فى المعانى ·

ويذكرون أن من الشعراء الوهبيين أحمر المرياق وهو من كبار أشياخ مراكش المعاصرين (2) · وكان يملى على حفاظ شعره فى وقت واحدخمس قصائد أو أكثر ، وكأنه المدرر يملى آيات القرءان الكريم على التلاميذ فى الكتاب · وذكر لنا الشيخ محمد بن عمر المراكشى أن من الامثلة على شعره الوهبى قوله فى قصيده من باب (السماء فوقنا والارض تحتنا) :

شوف اولاد اليوم من كثرت لحرام اعماوا

ماقبطو فيمانهم غير الله ايداوى

---

1) وهو كالتزنيم بالنسبة للموشح والزجل (انظر العاطل الحالى الورقة 17 ظهر و 18 ظهر) ·

2) كان من جلساء السلطان المولى عبد الحفيظ · توفى سنة 1365 هـ ، ولقب بالمرياق لانه كان دائما فى حالة جذب يبلل الريق لحيته ·

وايلاغاب الصح لاطبيب ايداوى بدوا

واش المركب دون رايس وقومانو بر ساوا

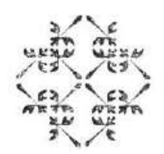
واش لغنم ابدون سارح ترعى لخطاوى

ويعتبر الشيخ محمد الجابرى فى فاس كالشيخ المرياق فى مراكش ، اذ يحكون عنه أنه كان درازا وكان يملى على صناعه اكثر من قصيدة فــى الوقت الواحد وهو امام منواله ينسج ·

وكما فرقوا بين السجاى والوهبى فكذلك فرقوا بينهما وبين نوعين آخرين من الشعراء ، هما : السلاخ والمساخ ·

أما السلاخ فهو الذى يسطو على شعر غيره فيحتفظ بالمعانى ويبدل فى الالفاظ ، ويطلقون عليه كذلك «الخياط» أى الذى يخيط ويربط بين مايأخذ من هنا وهناك ؛ وقالوا فى أمثالهم عن عمله «اخياطا مــزيانا احسن امن اسجيا امذبرا» يقصدون ان خياطة متقنة خير من سجية غير ناضجة ·

وأما المساخ فهو الذى يسرق شعر غيره ويمسخه بمحاولة القلب فى المعانى والالفاظ ·



الفصل الثـالث

العــــروض

البحـــور

يظن كثير من الناس انـه لاحد لبحور الـزجـل ولاحصر لها ، وأن «صاحب الف وزن ليس بزجال (1)» • ويظن آخـرون أن عروض الزجـل محدود لايخرج عن نطاق بحور الخليل ، وأن من الممكـن تطبيق تفعيلات هذه البحور وأوزانها عليه •

أما أن بحور الزجـل غير محدودة فقول لايخلو من مبالغة وتهويـل وتعجيز • حقا ان الزجالين ـ سواء فى المغرب أو غيره ـ نظموا اشعارهم على أوزان لانجد لها مثيلا فى العروض العربى الذى حدده الخليل ، وحقا كذلك انهم مزجوا فى الزجل الواحد بين اكثر من وزن ، وهى ظاهرة تبدو معها بحور الزجل كثيرة وجديدة وبعيدة عن العروض العربى ؛ ولكنا مـع هذا لانرى لا نهائية لتلك البحور ، بل على العكس من ذلك نحس ونحـن نستمع الى ما ينشد عليها ـ مهما كان جديدا ـ أنه لايختلف عما الفنا سماعه فى الشعر المعرب ، تكيفه نفس الروح ويضبطه نفس الايقاع ، بل نحس ـ فى ظن غالب ـ ان الذوق العربـى العام يستسيغ مـوسيقاه ويـطرب لها ويرتاح حتى عند الذين لايفهمون كلماته •

وأما أن أوزان الزجل محدودة فى نطاق العروض العربى لدرجة امكان تطبيق تفعيلات الخليل عليه ، فقول نراه بدوره جانب الصواب ، والسبب أن الذين يذهبون اليه يغفلون أمرا لعله أهم عنصر فى هذا الشعر ، الا وهو موسيقيته التى لاتتيح مثل ذلك التطبيق ، بل تتكسر وتضيع لمحاولاته• وليس يخفى أن فى تفعيلات الخليل وما نشأ عنها من أوزان جانبا صناعيا أساسه الاسباب والاوتاد وما تتعرض له من علل وزحافات • وقد بلغ هذا الجانب عند الفراهيدى ـ وهو جانب تأثـر فيه بعلم الصرف ومقاييسه ـ

1) هو قـول شائـع ، وقريب منه مـاورد فى «العقيدة الادبية» مـن ان «الحافظ لالف وزن فشلان» (الورقة 24 ظهر) •

درجة جعلته يعتبر «مستفع لـن» و «فـاع لاتـن» تفعيلتين مستقلتين عـن «مستفعلن» و «فاعلاتن» مـع ان الايقاع واحد · بـل اكثر مـن ذلك نجد العروضيين يفترضون لبعض البحور اصولا تطورت عنها كقولهم فى المديد أن اجزاءه ثمانية هى :

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن (مـرتين)

ولكنه لم يرد فى الشعر الا مجزوءا حيث سقطت التفعيلة الاخيرة ، وكقولهم فى الوافر ان أجزاءه ستة ، وهى :

مفاعلتن مفاعلتن (مرتين)

ولكنه لايرد صحيحا حيث تقطف عروضه فتصير مفاعل ، ثم تحول الى فعولن ·

ومثل هذا وذاك يقال فى الهزج والسريع والمضارع والمقتضب ، بل انه لاتكاد توجد قصائد على الوزنين الاخيرين ، ولـم تـرد فيهما الا ابيات متفرقة ، لعلها بقايا أوزان عربية قديمة ، مثلها فى ذلك مثل الشواهد الشاذة فى اللغة أو النحو أو غيرهما ؛ ومن يدرى فقد تكون من اختلاق بعض الرواة العابثين الذين كانوا يحاولون اثبات سعة روايتهم وارضاء الامراء والخلفاء واتحافهم بالطريف النادر ولو باختلاقه · ومع ذلك نجد الخليل يعتمد هذه الابيات المتفرقة القليلة ويعمل فيها صناعته ويضع لها وزنا وأصلا لـهـذا الوزن ·

لذا ، فانه ليس من السهل القول بأن الـزجـل يسير على التفعيلات العربية ، او بالاحرى انه يسير عليها فى تناسقها المعروف · ومع ذلك فمن المؤكد انه يخضع لايقاع العروض العربى وليس الـى أوزانه وتفعيلاتـه ، فأوزانه تختلف ، وتفعيلاته تتباين فى العدد والمقدار · وهذا ما يجعل من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نزعم أن هـذه القصيدة او تلك مـن بحر الكامل أو الوافر أو غيرهـمـا · ولو هيىء لـلاوزان المجزأة مـن يحصيها ويدرسها وينظمها لامكن ارجاع بعض قصائد الزجـل الى أنماط مـن هذه الاوزان ·

ويزيد فى خطأ الرأى الذى يذهب الى ان اوزان الزجل محدودة أن

اتخاذ مثل هذا الرأى يقتضى بادىء ذى بدء حصر كل النصوص الزجلية ، اذ عملية تحديد الاوزان لايمكن ان تتم الا بعد جمع هذه النصوص واستقراء ماتسير عليه من بحور • ومادامت هذه العملية غير ممكنة ، طالما ان مابين ايدينا من نصوص لايمثل الا نسبة ضئيلة مما انتجه الزجالون ، فمن العبث والخطأ أن نسطر احكاما مسبقة ونحاول اخضاع الازجال لها ، وانما العكس هو الصحيح والصواب ، أى أن نستقرى ما عندنا من ازجال ونحاول أن نستنبط منها أحكاما ونستخرج قواعد •

ثم انا لانـرى جدوى — ونحن نريد أن نتعرف الـى عروض القصيدة الزجلية فى أن نثبت مطابقته أو مخالفته للعروض العربى المعروف ، طالمـا أن لاشياخ الزجل النقاد ميازين تعارفوا عليها ، نرى من الانفع والاجدى أن نعرضها ، بعيدا عن أية مقارنة بالبحور العربية أو حتى مقاييسها وحركاتها الموسيقية ، لان ادراك نسب الايقاع وابعاده فى الزجـل يقتضى الاستماع اليه ودراسته ملفوظا ومغنى به ، وهو شرط لايتوفر لنا الا فى حالات نادرة معروفـة •

وللزجالين المغاربة تفعيلات خاصة يزنون بها أشعارهم ، أساسها النغم والايقاع (1) ، يطلقون عليها «الصروف (2)» وهى نوعان :

---

1) لعلها لاتخرج عما ذهب اليه اخوان الصفا فى الرسالة الخامسة من أن «قوانين الغناء والالحان ••• ثـلاثـة أصول وهـى السبب والوتـد والفاصلة • فأما السبب فنقرة متحركة يتلوها سكون ، مثل قولك : تن تن تن تن ، ويكرر دائما • والوتد نقرتـان متحركتان يتلـوهما سكون مثل قولك : تنن تنن تنن • يكرر دائما والفاصلة ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك تتنن تتنن تتنن فهذه الثلاثة هى الاصـل والقانون فى جميع مايركب منها من النغمات ومايركب من النغمات فى جميع اللغات مـن الالحان ومايتركـب منها من الغناء فـى جميع اللغات» (رسائل اخوان الصفا وخـلان الوفا ط صادر — بيروت — الرسالة الخامسة من القسم الرياضى فى الموسيقى ص 197 — 198) وقد استعرضت الرسالة بعد ذلك جميع أنواع الايقاع المركبة من هذه النقرات وانتهت الـى أن منها ثلاثة مفردة وتسعة ثـنـائية وعشرة ثـلاثية •

2) يطلق هذا الاسم اساسا على القطع المعدنية التى تتخذ مقاييس لوزن الكيل أمثال الكيلو ونصفه وما اليهما •

1 ـ **الدندنة** : وهى قائمة على «دان دانـى» وهـو مقياس موسيقى صرف · ومن الامثلة على تطبيقها قـولهم بالنسبة لهذا البيت مـن شمعة ابـن على :

الا بـاكيا بسقامـك شـوفـى اسقام حـالـى
مـــن قيس وارثو بعد افـنـاه اغرام حـب ليلى
أدان دان دانـــى دانـــى يـادان دان دانـــى
أدان دان دانـــى دانـــى يـــادان دانـــى

وقولهم بالنسبة لحربة «المزيان» للعلمى :

حـــن واشفـق واعطـف بـرضـاك يالمزيـان
لا اسمـاحـا مـيـعـاد اللـه يـالـهـاجـر
دان دانـــى يـــادانـــى دان دان يـــادان
دان دانـــى يـــاداني دان دان دانـــى

2 ـ مالى مالى :

ويبدو أنهم وجدوها لاتكـفـى وحدها لضبط الايـقـاع الموسيقى ، فـأضافـوا اليها بعض الكلمات مـثـل : «الـرادا ـ الـعـادا ـ سيدنا ـ للا مولاتى للا ···» أو ما اليها مما يشد به الميزان ، كما سبق أن رأينا فى الانشاد (1) · والغالب فى قياس الميزان أن يبدأوا بهذه الكلمات ثم يختموا بـ : «مالى مالى» · ومن الامثلة على ذلك قولهم فى هذا البيت من «وردة ابن سليمان» :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى
يـاعـدولى فـالموت اسبابـى خـد الـــوردا
لـلا ياموﻻتـى لـلا ويـامـالـى مـالـى
لـلا ياموﻻتـى لـلا ويـامـالـى مـالـى

ومع ذلك فالشعراء حين ينظمون لايقيسون بهذه «الصروف» ،وانما يقيسون ببعض القصائد المشهورة التى غدت نماذج أو شبه نماذج لـهـذا الوزن أو ذاك · ومثل هذا نلاحظه حتى عند المنشدين ، فانهم لقلة معرفتهم

(1) انظر المدخـل

الموسيقية لايدركون ميازين الانشاد الا بهذه الطريقة ، كقولهم ان «فضيلة» للحاج ادريس لحنش مـن قياس «الباكى» للتهامى المدغـرى ، وكقولهم ان «وقت الزهو» لمحمد بن على على قياس «الـزهـو فبنات وشبان» للمدغرى كـذلـك •

والعروض عند الزجالين المغاربة يقوم على بحور وعلى أنواع مـن الميازين داخل كل بحر • وأطلقوا على البحور «لمرمات» جمع مـرمة ومعناها المنوال وهو الآلة الخشبية التى يستعمل النساج والـدراز ، وأطلقوا على أنواع الميازين داخل البحر الواحد «قياصات» جمع قياص (1) •

ويمكننا تقسيم بحور هذا العروض الى اربعة أنواع هى :

1 ـ المـبـيـت •

2 ـ مكسور الجناح •

3 ـ المشـتـب •

4 ـ السـوسـى •

أولا : المبيت (2) : أى القائم على عدد معين مـن الاشطار فى البيت وعلى عدد من الابيات يلتزم فى كل قسم من أقسام القصيدة ، وهـو الغالب فـى استعمال الشعراء • وربما كان أقرب من غيره الـى شكل بحور الشـعـر المعرب ، ويتفرع هذا النوع الى أربعة أشكال مـن حيث عدد الاشطار التى تكون البيت :

1 ـ **المثنى** : أى الذى يتركب البيت فيه من شطرين ، يطلقون علـى الاول «الفراش» وعلى الثانى «الغطاء» (3) • وله «قياصات» متعددة لاسبيل

---

1) أى القياس •

2) واضح أن التسمية مأخوذة من البيت • ونجدها عند ابن على فـى آخر «الموسم» حيث يقول : «من حبر معلم» ✻ ياحمام ارويت المعنى لمبيتا»
ونجد عند الحاج عمارة فى آخر قسم من فاطمة :
«ياراوى لبيات عنى ✻ غنى اوصول لاتخشى من عديانى»

3) من عجيب أنا نجد مثل هذه التسمية معروفة فى فن الموال المصرى على حد ما نقرأ عند ميلاد واصف فى «قصة الموال» حيث يقول : «أمـا مواويل الفرش والغطا» وينشدها اكثر من مغن فهى تنظم على طريقة «الموال النعمانى» فى أسلوب التقفية الا ان كل قطعة تتكون من ثلاثة =

الى حصرها ، أساسها النسب الايقاعية فى موسيقى البيت · ومن نماذجها:

أ ـ قصيدة «الحجة» لابن احساين ، وحربتها :

يالحضرا قولوا بالسر والجهار ✻ الصلا والسلام اعلى النبـي المختار

وهو أسهل «قياصات المثنى» ، سواء فى النظم أو الاداء ، ويطلقـون عليه «قياص لمشركى» (1) ويصفونـه بأنه «لـحـويط لقصير» أى الحائط الصغير القصير ، وهى عبارة تقترب فى مدلولها من قول العروضيين فـي بحر الرجزانه «حمار الشعراء» ·

ومنه كذلك قصيدة «الهاوى» لابن على ، وحربتها :

يالهاوى تهوا من لا ايليه سطوا ✻ تب ياراسى وارجع للغنى القوى

ومثلها قصيدة «فروح» للمدغرى ، وحربتها :

مانروح اللفراح ولانروح بالراح ✻ دون راحت روحى حور اللوامح افروح

ب ـ قصيدة «زهرة» لبوعمرو وحربتها :

زورينـي قـبـل الا نقبار ✻ ياهلال الدارا زهرا

ج ـ قصيدة «الوردة» لابن سليمان ، وحربتها :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى

يـاعـدولـي فـالـمـوت اسبابـي خـد الـوردا

د ـ قصيدة ابن على «صلوا على الصديق الصادق» ، وفـى حـربتها يـقـول :

صلوا على الصديق الصادق جد الشراف نور العين

امام لنبيا بلقاسم محبوب ربنا الرحمان

هـ ـ قصيدة «الساقى» لامتيرد ، وحربتها :

مواويل كل مـوال على حـدة يتحد الشطر الاول والثانـي والثالـث والسابع فى قافية وينشد كل موال من القطعة احد المغنين · يـبـدأ المغنى الاول بالموال الاول وهو «الفرش» عارضا مشكلته فـي الحياة فيرد عليه المغنى الثانى بـ «الغطا» شارحا رأيـه الخاص فـي قضية زميله · أما المغنى الثالث فيعقب عليهما بـ «القفلة» او المغزى العام»· (انظر صفحة 57 ـ 58) ·

1) انظر الفصل الثانى من باب الاعلام لدى الحديث عن الحاج اعمارة ·

الساقى وكض لريام رد بالك للنوبا لاتغيب عن مولاها

كــب يـاســاقــى راح اللــيــل

ويلاحظ أن «الفراش» أطول من «الغطا» ·

و ــ قصيدة «الديجور» للمدغرى ، وحربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو شى بالتيهان شى ابعشقو واغرامو

شى بالفركا شى جايـب لهديا يـرحـل ويكيـم

وفيها يلاحظ كذلك أن «الفراش» أطول من «الغطا» ، بل اكثر طـولا من «فراش» القياس السابق ·

ز ــ ومن المثنى مايبدو رباعى الاشطار ، وهو فى الواقع ليس اكثرمن من «فراش» و «غطا» ، وأن قسم كل منهما قسمين ، على حد مانجد عـنـد امتيرد فى «انعيد اصيامى» حيث يقول :

انعيد اصيامـى ، وانكلع كـفـارت لـوزر

عنقت اغـزالـى ، فـالـدجـا حتى بـان الـحـال

وعلى حد مانجد كـذلـك عند اتشاوى فـــى قصيدة «صـارم الطعن» وحربتها :

آش را من لاجرد صارم الطعن ، ويركب سفن لحروب وايعيط دانـى

هاحنا هنا ، ويكون ادراعو ابحال السانو

فالفراش هو قوله «آش را ··· دانى» ، وهو مقسم قسمين :

والغطاء هو «ويكون ادراعو ابحال السانو»

أما «هاحنا هنا» فمجرد «تفريشة» شد بها الميزان كان يمكن الا يضيفها الناظم ويترك «الشدادا (1)» يقولونها او يقولون غيرها مـن العبارات التى يشد بها الميزان ·

2 ــ **الثلاثى** : اى الذى يتكون البيت فيه من ثلاثة اشطار ، ومــن «قياصاته» :

أ ــ قصيدة «عبلة» لبوعمرو ، وحربتها :

---

1) انظر المدخل حيث الحديث عن الانشاد ·

ايلا تعذبت اعذابى من انــواجلى * ويلايانا اهنيت واسعدنى فالــــى

اسبابى افلهنا اغــزالــى عــبــلا

ب ـ قصيدة «دابل لعيان» للعلمى ، يقول فى حربتها :

روف ادابـــل لـــعـــيـــان * يابو حجبين امــعــرقا اوزينا

زور لعشيق يزاك امن التيهان ياغــزيــل

ج ـ قصيدة الحمرى فى «التصلية» ، وحربتها :

صلى الله اعليك يالهادى خاتم لرسال * عد ادواب البر والاسماك اللىفالمالى

العايش واللى امضى ومن هو مازال اكبيل

د ـ قصيدة «زينب» لابن على ، يقول فى حربتها :

يابدر ماغطاك احجاب * فى ادجا ياشمس النهار السعيد يازنوبا

فايــن العهد يــازيــنــب

ويلاحظ أن الشطر الثانى أطول من الاول والثالث .

هـ ـ قصيدة «راحا» للمدغرى ، وحربتها :

ياعيون المهرا ياسالف الظليم اجيد الصياح

أطاوس بين ادواح ، ياقمر ساحـــى

اقطيب الياس أخد الشقيق ياراحا

ويلاحظ أن الشطر الاول طويل وان الثانــى قسمان ، وهــو تقسيــم التزمه الشاعر فى القافية ، أما فى الانشاد فالشطر واحد :

و ـ قصيدة «الباكى» للمدغرى ، وحربتها :

شهدوا بين ايلا فنيت وامضيت مــن الوجنا وخــالها واخدود الجلار

والشامــا والــخــال والشــفــر * لهوا خدوج ولغزال السعديا

ويلاحظ أن الشطر الاول جــد طويل .

3 ـ **المربوع أو الرباعى** : أى الذى يتكون البيت فيه من أربعة أشطار. ومن «قياصاته» :

أ ـ قصيدة «باها» لحسون وتير ، يقول فى حربتها :

غــاوى الــبــاهـــى * مــن ابها مــن لالها اشبيــه

مـــولاتـــى بــاهــا * الحاير اصغر وزيــن وجــاه

ب ــ قصيدة «آمنة» للحاج محمد بن عمر المراكشي ، يقول فيها :

أمينا حبك نيران ✻ اعلى نيران ✻ كاديا فاصميم الوجدان

فاصميم اكناني

ج ــ قصيدة «طامو» للعلمي ، حربتها :

طامو يابهيج الخدادا ✻ الحر المسرارا ياغايت لمجيد

ديرى اللعاشق امرادو ✻ ينكى بك كل احسود

د ــ قصيدة في «التصلية» لابن احساين ، يقول في حربتها :

صلى الله امع املايكو عل لحبيب السارى ✻ وامر هل ليمان افلبشر

بصلات الهادى امع اسلامو بايات اسوارو ✻ صلى الله اعليه وافرا

ويلاحظ أن الشطرين الاول والثالث أطول من الثاني والرابع .

ومثلها قصيدة في «التصلية» للغرابلي ، يقول فيها :

لسم الله الواحد لعظيم الحى الجوادى ✻ ننشد حلا طيبها اشدا

لسم الله اسما امعظما بها يبدا البادى ✻ وينال امرادو افما ابدا

هـ ــ قصيدة «فارحا» للمدغرى ، يقول في حربتها :

دسنى تحت لخلال بين ادروعك لملاح ✻ واللبا والدواح

انهيداتك تفاحا ✻ انا خايف امن اعيونك ايجرحونى يافارحا

ويلاحظ أن الشطرين الاول والرابع أطول من الثاني والثالث .

و ــ قصيدة «حجوبة» لابن علي ، حربتها :

ياللى زينك فتى الشمس والقمر افلحجاب ✻ صلتى بحروف اعجاب

صغ لوجابى ✻ عالجنى بوصالك يالريم حجوبا

ويلاحظ كذلك أن الشطرين الاول والرابع أطول من الثاني والثالث .

4 ــ **خامس أشطار أو الخماسي** : اى الذى يتكون البيت فيه من خمسة أشطار . ومن «قياصاته» :

أ ــ قصيدة «فاطمة» لابن احساين ، وحربتها :

قالت يما اتقول طامو ✻ قلت وأبيك يالطام

ياقد اعلام فاللطام ✻ قالت ترا يقول طاما

ترات ايقول فاطما

ومنها قصيدة «فارحا» للمدغرى ، وفى حربتها يقول :

سلـتـك ببهاك يالـرايح * مالـك سكران دون راح

أنـا عقـلـى امـعـاك راح * بايت من ليعت لجرايـح

ساهر والناس رايـحـا

ب ـ قصيدة «أساداتى اولاد طه» للحاج ادريس بـن على ، وفـى حربتها يقول :

أسـاداتـى اولاد طـه * برضاكم عالجوا الـحـال

يـانـاس الـجـود ولفضـال

أنـا فـى عـار لـلا فاطما * الـزهـرا الـطـاهـرا

وقد يختلط مع الثلاثى اذا ما ضم الشطران الاول للثانـى والـرابع للخامس ، ولكنه ليس ثلاثيا ٠

ومنها قصيدة الطيب الواسترى المعروفة بـ «تاج لملاح» ، وفيها يقول:

رغـبـوا تـاج لمـلاح فيا * ايجيـنى غـيـر بالسلام

ويـراعـى صلت لـكـرام

لاخير فـاللـى اجفا احبيبو * واغـدر بـعـد لـموالفا

ومن هذا القياس ماقد يختلط مـع الرباعـى اذا مـا جمع الشطران الاولان كقصيدة «زهرة» للغرابلى ، وحربتها :

أنا فى عارك أهلال الـدارا * يـاكـوكـب السـحـار

يازهـرت دوحـت لزهـار * أما قاسيت امـن امراير

وانـت لليـوم هـاجـرا

ثانيا : مكسور الجناح :

وفيه يتكون قسم القصيدة من أربعة اجزاء :

1 ـ **الدخول** : وهو عبارة عن شطر فى استهلال القسم لاغطاء لـه ، يبدو كالطائر الذى كسر احد جناحيه ٠ ويؤكد هذا التعليل فـى التسمية أن الاشطار التى تأتى بعد الدخول غير مبيتة ولاغطاء لها فكأنها هى الاخرى مكسورة الجناح ٠

2 ـ **مجموعة من الاشطار** القصيرة تسمى «لمطيلعات» او «لكراسا(1)»

3 ـ **بيت على وزن الحربة** وقافيتها كأنه تمهيد لها ·

4 ـ **الحربة** اى اللازمة ·

ومن الامثلة على مكسور الجناح قصيدة «المزيان» لابن على ، وهذا أول أقسامها :

1 ـ **الدخول** : ته بجمالك عل لقمار ·

2 ـ **لمطيلعات** : الشمس اتغير ايلا اتشوف زينك ·

لبدر امن اجبينك والبان غار منك

اسبغ من الظليم الوفرا

واضوا من لكواكب غرا

والحاجبين فوق الطرا

نحسابهم نونين

وامعرقين باثنين

واشفار فوق وجناتك ناموا

3 ـ **البيت :**

اصوارمو استلو من لجفان * واجفانك غلبو يافهيم شوف اجفانى

ولخدود اسبغهم الجلار * عل لبياض احمرار

4 ـ **الحربة :**

ليا قال المزيان * وصف هذا الحسن ياللى تهوانى

قلت يا دابل لشفار * توصافك لايحصار

ومثلها قصيدة «غيثا» للحاج ادريس ابن على ، وقد بلغ من براعته فيها أنه التزم قافية التاء فى كل القسم بل فى كل القصيدة ، والعادة أن تنوع القافية داخل القسم وان تختلف من قسم لآخر كما سنرى بعد ·

يقول فى القسم الاول منها :

1 ـ **الدخول** : عمدا اعلى لعشيق الكاوى كيفى ابنار لبنات

---

(1) ولكنها غير لكراسا التى يقدم بها للاقسام كما سنرى فى الجزء الثانى من هذا الفصل ·

2 — **لطيلعات** : مهما تقول نارو بردت واطفات

حين ينظر زين الخودات

كيراها زندت واكدات

حتى عاشق مسكين ماسطاب امنام اولا قوت

غير ايشاهد لبنات كيشاهد ببان الموت

والزين اعلى المملوك ليس يرثى

سلطان كيجور ويعدل واايامو اعطاتو

3 — **البيت** : ونافساير اوقـاتـي ✻ نسعى ارضاه واقف ولانقول مليت

4 — **التحربة** : قولوا للاغيثا مولاتى ✻ رف بوصالك عل لعشيق يام الغيث

ثالثا : المشتـب :

ويتكـون القسم فيه مـن بيت يفصل فيه بين أول أشـطـاره وبقيتها بمجموعة من الاشطار القصيرة تسمى كذلك «لطيلعات» فكان داخل البيت محشو بهذه الاشطار الزائدة ، وهذا هـو الاصل فـي التسمية اذ الشتـب ما تملا به «اللحوف» و «المضربات (1)» •

ومن الامثلة عليه قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وفـي أول أقسامها يـقـول :

1 — **اول البيت** : مافيها مايبقى

2 — **لطيلـعـات** : غير نعم الباقى

يـاغفيل مـالـك شاقـى

لاين تاتزيد احماقـــى

وين من غرتهم بالمال والنصر

مافازوا غير ابلقبر

مانفعهم فيها تدبير

آسعادت من دار الخير

نـــال سلوان

واعليه ماصعاب هـان •

---

1) جمع «مضربة» وهى المرتبة فى اللهجة المصرية •

3 ـ **بقية البيت** : وانت ارمتنى لهلاكى فى ذا الاسواق

نلحقها مخليا

اولا وجدت اعمارا

ويتضح لنا البيت بشبهه وقربه من الحربة التى تقول :

يــاراسى لاتشقى

التاعب لابد من لفراق

لاتــامــن فالدنــيــا

ابناسهــا غــرارا

ومنها قصيدة «قمر الدارا» لعبد السلام الجربى ، وحربتها :

واجب لى نعدار ✻ لاتلوموني فى حال لغرام ✻أناسى مــابيا

غير قمر الــــدارا

وفى القسم الاول منها يقول :

1 ـ **اول البيت** : صابك ابعسكر جرار

2 ـ **لمطيلــعــات** : للطام اتانــى

مايحن من تمحانــى

ونانحيل وفانـــى

غير نرتى وادموع العين حايفا

من فوق الوجنات ساجفا

نعنى لسواقــى

وهيجت نيران اشواقى

اولا وجدت الدايا راقى

اعــجــز طــبــى

والجسم صار امهبى

اكسانى الظما ياناسى

3 ـ **بقية البيت** : جسمى اسقام

واخــلاكى كطعيا

اولا وجــدت ايمارا

رابعا : السوسى (1) :

ويتكون القسم فى قصيدته من ثلاثة اجزاء :

1 – **بيت من شطرين** يستهل به القسم ٠

2 – **مجموعة من الاشطار المرسلة** دون تقييد فى العدد والوزن والقافية لايخضع لغير تسلسل الانشاد ٠

3 – **بيتان أو ثلاثة أبيات** على نفس الوزن والقافية ، تكون كالتمهيد للحربة التى تتحد واياها فى الوزن والقافية ٠

ومن الامثلة عليه قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبـــى ، يقول فى أول أقسامها :

1 – **بيت من شطرين** : يالحضرا سمعوا ماصار
بين زوج ابنات افلكحار

2 **الاشطـار المـرسلة** : شابا عصريا بكرا
والاخرى زمنيا عذرا
فرجونى بين الحضرا
وكنت حـاضـــر
نصغى لخصامـهـم
نسمع العصريـا
اتـقـول للزمنيا
يا جارتى **اهنيا**
سمعى مــنــى اخبار
من يوم اسكنت **احداى جارا**
وانــتـيا فــاشــفـار
ياحسبى لله سالبا بخصامك جمع لفكار
عمرك ماشفت اتقول **شئ مدرسا**
ولا احضرت مجالسا
ولا اهواتك الدراسا

1) بعض الاشياخ يطلق عليه «المزلوك» ومعناه فى الاصل الخيط الرقيق ٠

ايـــلا اهـواتـك

بك اعـوار الناس

جارحا بلسانك فات لقياس

مشـغـولا بـيـا

ولا العنت شيطانك الشرير

خوذيني نصغاك تتشتمى فيا

جهرا بـــلا خفيا

فالستا ساعـت لعشيا

عند اغروب **النهار**

قالوا للشتاما النار

بلسانك قلت اعلى الشكارا

3 ـ **بيتان** : أ ـ مصحوبا ديما امعايا مملو ابلكتوب عل لفتخار

سابقا بالمـعـيـار

كابرا أميا فالسب الغتب والزورا

ب ـ لالك المدرسيا فايقا عل لبكار

يـاتسـمـعـى لخبار

بالزمنيا غشميا اموخرا للورا

4 ـ **الـحـربــة** : آش را من لارا لبنات يوم قاموا لگحار

زوج هيفات اصغار

شابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

ويكثر السوسي في قصائد «المحاورات» مثل «الحراز» و «الخصام» بل يكاد يكون خاصا بها ، ولكن مع ذلك نبدى ثلاث ملاحظات :

الاولى : أن بعض قصائد «الحراز» نظمت في غير **السوسي** مثل حراز الشاوى ، وحربته :

شف حراز الريم حجوبا ❊

بارت احيالو واظفرت ابدات لجمال بعد العز ولحجـاب

وحراز مولاى الحسن ، وحربته :

شف حراز الدامى كيف صار لو * حتى بارت حيلتو وحزت ام ادلال

وحراز خديجة للفلوس ، وحربته :

حراز اخديجا سابغ الشفر حرزها يامن اتسال عن شوف انجالى

واغلبتو بحيالـى او حـزت ولفى سابــغ لنجال

الثانية : ان بعض قصائد «الخصام» نظمت فى غير السوسى مـثـل «العربية والمدينية» لمحمد بن على ، وفى حربتها يقول :

مابين العربيا امع لمدينيا حاضر افلخصام وامعاهــم

حتى اتعايرو ودار المعيار من بعد اخصام الباهيات فالصلح اجريت لهم

الثالثة : ان قصائد نظمت على هذا الوزن ، وهى ليست من المحاورة كقصيدة «الربيعية» لمبارك السوسى ، وحربتها :

يوم الجمعا خرجو اريام من بهجت فاس البالى

سربات ايحيروا لعقل نحكيهم غزلان

يـوم الجمعا خـرجـو اريــآم

ومثلها قصيدة «الجدول» للحاج الصديق المسفيوى ، وحربتها :

لله يارسول سال الدامى واش ماعند الخاطر باس

أما بعد هذا فيقال فى أصل **تسمية هذا الوزن بالسوسى** قـولان :

1) انه نسبة لمبارك السوسى لسبقه الى النظم فيه ، مع ان الراجح لدينا أن الشيخ امتيرد هو الذى سبق اليه (1) ·

2) انه شبيه بالفرد السوسى المنسوب لمنطقة سوس ، ومعروف أن سكان هذه المنطقة مشهورون بالتجارة والاقتصاد ؛ ووجـه الشبه ان الجزء المرسل فى هذا الوزن ـ على الـرغـم من عدم وجـود تبييت وتقفية لضبطه ـ يحتوى على مراكز يقف عندها المنشد فى ايقاع معين كأنه يعد الفلوس على طريقة السوسيين ·

---

1) حسب ما انتهينا اليه فى البحث ·

بنـــاء القيـصدة

اســم الـقـصـيـدة :

يسمى الزجال المغربى قصيدته «لقصيدا» أو «لقصيد» ويجمعها على «قصدان» . يقول الجيلالى امتيرد فى آخر قسم من «خلخال اعويشا» :

والى سالك عن ناظم لقصيـــــدا ✻ قل افصيح اللغا الحبر الجيـــلالى

ويقول ابن سليمان فى آخر قسم من « الرعد » :

أحافـظ لقصيـدا زد التقـلا اعـلى لبهايـم

احضى اعقول لهل الدعوات الذاكرين لحسان

ويقول المغراوى فى آخر « التوسل » :

وامدحتك فـى باب روضتك ابهاذ لقصيـد

ويقول المدغرى فى آخر بيت من « أم كلثوم » :

أنت ليا مملوك واغلامى ✻ ونا كذاك لك احبيبا خدى الخدها وقصيدى متموم

ويقول ابن على فى آخر بيت من « القرصان » :

وعـلى الجاحدين حجـا افقصدانى

ويذايجـول فاسلوع يلقاهـا اموضحا بشهـود وتبيان

ويقول العلمى فى أول القسم الاخير من « كان الخلاكى هانى » :

أحافظ قصدانى ✻ سلى اجوارحك قبل ايغموك لكفان

ويسميها كذلك « القطعة » على حد قول ابن على فى آخر قسم من «المحاورة» :

بلطفا واسجيا جبت هذا القطعا بالفاظها ومعناهم

إذكى من الزهر واحلا من سكر فقلوب هل التسليم ولجحود اتجيهم زقوم

مقدمة القصيدة : السرابـــة :

يقـدم الزجال المغربى لقصيدتـه بقطعة قصيرة تكون فى نفس البحر يمهـد بها لضبط ايقاع الوزن الذى سينظم عليـه ، تسمى « السرابة » (1)

والغالب أن تتكون من هذه الاجزاء :

1 — أبيات تمهيدية يطلق عليها « الدخول » (2)

(1) لعل أصلهـا من انسرب وتسرب بمعنى دخل .

(2) انظر « الدخول » بعد سطور لدى استعراض أجزاء القصيدة .

2 — « ناعورة » (1) وهى أبيات قصيرة نادرا ما تكون أكثر من ثلاثة .

3 — بقية الابيات

4 — « الردمة » (2) وهى الشطر الذى يختم به ، ويكون كالفاصل بين السرابة والقصيدة .

وعند الاشياخ أن الذى لاينظم السرابة لقصيدته لايستطيع ضبط ميزانه بل لايعتبر شيخا ، وقالوا فى ذلك «من لايوزن بسرارب ميزانو يبقى عايب» . ومع أنها تتفق مع القصيدة فى الوزن والموضوع فانها تختلف عنها فى الانشاد ، وقد سبق أن رأينا (3) مختلف أنواعها فى الانشاد ، وهى :

1 — السمـــاوى .

2 — الحضارى .

3 — الكباحى .

4 — المزلوك .

ويلاحظ اليوم — نتيجة ضعف مستوى النظم والرواية — ان الشعراء لم يعودا يقدمون لقصائدهم بالسرارب وان المنشدين لا يمهدون بها كذلك ، وان فعلوا فانهم يخلطون ، حيث ينشدون سرابة هذه القصيدة لتلك ، حتى ولو لم تكن منسجمة معها فى الموضوع ، فكان أن تعطلت هذه المقطوعات وضاع أكثرها ، وما بقى منها ينسب فى الغالب لغير أصحابه أو لا يعرف قائله . ويطلق على السرارب التى يجهل اسم منشئها اسم «اسرارب أحرأميين» ، وكان بعد هذا أن بدأت السرابة تنفصل عن القصيدة وغدت تعتبر عند البعض نوعا مستقلا من الزجل .

وكنموذج لهذه المقدمـة نمثل بسرابة لحمد بـن عـلى جعلها تمهيـدا لقصيدته «دامى لجدار» يقول :

1 — الـدخـــول

أقلبى كن عـن امصابك صبار * الصبر مفتـاح اللكنـوز والدخـــيرا
محبوبك لا تعاتبو ولــو جــار * وارتجا وصلو بعد السوايع لعســـيرا

(1) انظر « النواعر » فى الحديث عن مقدمات الاقسام
(2) انظر « الردمة » بعد سطور عند ذكر العروبى (3) فى المدخل

لو طال الهجر لا غنى من لمزار ☆ يا للى ما جبت لهل لغرام ســــيرا
انشوف إجمالى واقفا انحيرا

2 ـ الـنـاعـورة

يـا عمهـوج لجـــدار ☆ مـا هـو عمهوج الراتـع لقفـارا
يـا شنيـار الصغــار ☆ يـا بـدر اتجـلى فكمـال دارا
يـا كـوكـب السحــار ☆ يـا مـن حبو فـى ساكنـى اتـوارا

3 ـ بقيـة الابيـات

يا سالب مهجتى ولاجاب اخبار ☆ لا تشوق بصرى فـى ذاتـك لنـيرا
لا مان اطلبت امن الخال والشفار ☆ جرحوا ذاتى جرح الايلوا جبـيرا
ازديت الكي عن اجراحى بالنار ☆ آش يطفى نارى واغصايصى اكثـيرا
واهـوايـا مـا ستــار ☆ لهـوى طـالب يفـدى الثـار
هذا عشقى ولا وجدت ما نختار ☆ عشقـى فـاسميتـى تفتـار
اللا وقت اتجور على القليب نارو ☆ يشتـد القلـب امـن إكـدارو

4 ـ الردمـة :

(توجدنى كانقول يا ستار)

أجـزاء القصـيـدة :

يقسم الزجال المغربى قصيدته الى عدة اقسام ، ويطلق على عمليـة التقسيم اسم «لفصالا» (I) والغالب أن تبدأ القصيدة بمطلع يسمى «الدخول» ولا يعتبره من الاقسام ، تتلوه «الحربة» ثم تتوالى الاقسام بعد ذلك تفصل بينها الحربة فى الانشاد . والعادة أن يضمن القسم الاخير اسمه والصلاة على الرسول والدعاء للاشياخ والعلماء والمنشدين والهجو للخصوم ، وقد يشير فيه الى تاريخ النظم .

وبعض الشعراء لا ينهون قصائدهم بآخر قسم منها وانما يضيفون له جزءا يختمون به قد يطول وقد يقصر ، ويطلقون عليه «الدريدكة» . وفيما يلى نتتبع كل هذه الاجزاء التى تتكون منها القصيدة :

(I) اشتق منها فعل «فصل»

أولا : الدخول (1) : ويطلق على أول جزء من القصيدة (2) ، وسيتضح لنا من خلال النموذجين اللذين سنمثل بهما لبناء القصيدة فى آخر هذا الجزء من الفصل ، وهما قصيدة «هنية» من البيت لمحمد بن الحسن و «الذهبية» لانجار من مكسور الجناح .

والجدير بالاشارة ان الشاعر الشعبى كثيرا ما يستهل الدخول بالبسملة أو الخطاب يوجهه لنفسه أو غيره ، والغالب أن يستهل بالبسملة فى قصائد المدح النبوى والتوسل والتصلية والمعراج وما اليها مما يعبر عن عاطفة دينية . من ذلك قول محمد بن احساين فى أول «تصليته» :

بسم الله ابديت حلتى يامن صاغ اشعارى * محلاها مفتاح للشعر

ومنه قول المغراوي فى اول قصيدة له فى مدح الرسول عليه السلام :

بسم الله الجواد * به ابديت السلام * عليك فى دالمقام

ومنه كذلك قول العلمى فى توسل له :

بسم الفتاح المعبود رب الوجود الودود الدايم المرشاد

ومثله عند الفلوس فى أول قصيدته فى «سيدنا الحسين» حيث يقول :

ابديت باسمك يا من هو اعليم لسرار * فى امديح الماحى نور لعضا وليقين

وعند عبد القادر الجرارى فى «المعراج» اذ يقول :

ابديت بسم المولى لمقسم لرزاق * رب لكوان الحق الدايم لحقيق

اما الخطاب (3) فقد يوجهه لنفسه أو غيره .

ومن الخطاب الذى يوجهه لنفسه قول المغراوى فى قصيدته «فى الشوق لمكة المكرمة» يحدث عينه وقلبه :

ابدل نومك ياعين بالسهر ولنواح * احمل يا قلب اكدارى

---

(1) نشير الى ان اصطلاح الدخول معروف فى الموسيقى الاندلسية وهو البيت الاول من الصنعة الخماسية والسباعية اى التى تتكون من خمسة أبيات وسبعة .

(2) ويطلق كذلك على اول بيت فى القسم .

(3) سنرى فى الفصل الثانى من باب الموضوعات ان الشاعر الشعبى لجأ فى الوعظ الى الخطاب (انظر الملاحظة الثانية فى آخر هذا الفصل) .

من هم الغربا والجفا وبعد لـملاح ❊ أيــن عرفـا يـا نـــارى

هطلــوا بالدمــع ابصــارى

ومنه قول المدغرى يخاطب «اللايم» :

الايــم لاش اتلــوم ❊ روح ســالــم

دعنــى كـف لـملام ❊ مـا حجت امـن اغـرام

بيــن خــال وشامــا

ومنه قول امتيرد يخاطب السائل فى «مصباح الزين» :

اسايل لا تسال ترك اجوابى واسؤالى ❊ وانظر حالت حالــى

وجهى يوريك مـا فقلبى من غـير اغشاشا

ومنه كذلك قول الفلوس فى «حراز خديجة» يخاطب المولع بالزهو :

يا من هو مولوع بالزهو اتراجم لغرام صغ لبيات اسجالى

واتأمل كيف اجرى القصت الحراز الختال

ومثله قول ابن على يخاطب «الشمعة» :

سلتك لله عدلى شجرالك ❊ واعلاش باكيا مادالك

واش كـان قصتك واش انهوداك

ثـانيـا : الحـربـة : وهى اللازمة ، وبها تعرف القصيدة وتميز عن غيرها من القصائد التى قيلت فى نفس الموضوع ، ومكانها من القصيدة بعد جزء «الدخول» ثم تكرر فى نهاية كل قسم وبها ترد المجموعة على المنشد .

ويزعم بعض الاشياخ ان اسم الحربة تحريف لـ «خروبة» ولكنـه افتراض لا يفهم منه ما يوحى باللازمة أو التكرار او حتى الانشاد والغناء. وربما كان أقرب الى القبول الافتراض الذى أبداه أستاذنا الجليل الدكتـور عبد العزيز الاهوانى من انها قد تكون تحريفا للخرجة المعروفة فى الموشحات والازجال الاندلسية .

والمفروض ان تكون الحربة على «قياص» ابيات القصيدة اى مـن نفس الوزن ، مثال ذلك حربة قصيدة زهرة لبوعمرو وهى من المثنى :

زورنى قبل الانقبار ❊ ياهلال الدارا زهرا

فان ابياتها تسير عـلى نفس «لقياص» حيث يقول فـى أول بيت مـن القسم الاول :

مال قلبي يرمي بشرار * شاعلا في قلبو جمرا

وهذه حربة قصيدة «فاطمة» لابن احساين من البحر الخماسي :

قالت يما تقول طامو * قلت وابيك يالطـام

يا قد اعلام فاللطـام * قالت ترا يقول طامـا

ترات ايقول فاطما

وفي أول بيت من قسمها الاول يقول على نفس «القياص» :

قولوا لي اقوا ملامو * لو كان انظرت بالنيـام

مولاتي باشت الريـام * ما تلقى افلهوا املامـا

ولا تصغى املاوما

وقد سبق ان رأينا في الجزء الاول من هذا الفصل انه في «مكسور الجناح» يختم القسم ببيت يكون على وزن الحربة ويمهد لها ، وكذلك رأينا بالنسبة «للسوسي» حيث يختم القسم ببيتين أو ثلاثة على وزن الحربة وتمهيدا لها . ومثل هذا يقال عن «المشتب» الذي يكون فيه البيت على وزن الحربة .

ومع هذا فانا نصادف «حربات» لا تتفق مع أبيات القصيدة في عدد الاشطار ، ويطلق عليها : «الحربات المثنية» حيث يضيف لها الشاعر شطرا أو اكثر . ومن النماذج على هذا النوع ما نجده عندالمغراوي في «هول القيامة» وهي قصيدة مبيتة من فراش وغطا ، يقول في أول اقسامها :

نعم القيوم خالق اكوان الكونين * وسير امسيرها على وفق امرادو

ولكنه أضاف في الحربة شطرا ثالثا فقال :

صلوا وسلموا على شارق لنوار * محمد شافع لسلام

انهار البعث والقياما

ونجده كذلك عند الكندوز في قصيدة مبيتة من فراش وغطا يقول فيهـا :

ياحباب انشالو صدوا مع الطريق * كيف يزها لي عاد العيش

فقد عمد الى حربتها واضاف لها شطرا ثالثا فقال :

يااللي قبلتو الصادق الصديق * خبروه ابحالي بكمال جودكم

سيدنا محمد سيدي وسيدكم

ومثل هذا نصادفه عند الجرارى فى «المعراج» حيث يقول فى أول بيت من القسم الاول :

بعد تمجد المجد انوضح لخبر * اعلى المعراج اصاح افليلت السرا

ويقول فى الحربة وقد جعلها ثلاثية الاشطار :

الصلاة اعلى الهادى راكب لبراق * سيدنا محمد لشرف الصديق

من اسرى من حرم الحرم افلغسيق

وقد يضيف الشاعر أكثر من شطر الى الحربة على حد ما فعل ابن على فى قصيدة «الذرة» وهى مبينة من قياص لشركى ، يقول فى اول «الدخول» :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلب * وقدس المولى تقديس النجاب لقراب

ومع ذلك فقد جعل الحربة من بيتين فقال :

يا ساهي من نومك فق سبح الرب * لتــا وانت تايــه افلغرور لــواب

الصلاة والســلام على اخيار لنسب * سيدنا محمد طــه اشفيــع لعراب

ثالثــا : الاقســام : وسننظر فيها من جانبين أولهما عددها وعدد ابياتها والثانى مقدماتها :

1 ـ عدد الاقسام والابيات :

قد يكثر فى القصيدة عدد الاقسام أو يقل ، كما ان عدد الابيات داخل القسم الواحد قد يكثر أو يقل حسب نفس الشاعر وحسب ما يقتضى الموضوع ومــا عند الشاعر أن يقــول فيه ودوافعه اليه ، وهــو تعليل يطلقون عليــه «السبب والمعنى» .

والغالب ان يتراوح عدد الاقسام من اربعة الى عشرة ، وكذلك يكون عدد الابيات داخل القسم الواحد . ومع ذلك فان عدد الاقسام قد يرتفع فى بعض القصائد التى تكون مادة موضوعها غزيرة متوفرة ؛ وقد وقفنا من هــــذه القصائد على اربعة هى :

أ ـ قصيدة «هول القيامة» لعبد العزيز المغراوى فانها تتضمن ستــة وعشرين قسما ، وهى التى يقول فى حربتها :

صلوا وسلموا على شارق لتوار * محمد شافع لسلام

انهــار البعــث ولقيامــا

ب ـ القصيدة «الفياشية» لحمد الشرقي ، وتشمل تسعة وعشرين قسما، وهذه حربتها :

انـا مالى فياش ٭ آش اعليا منـى

ج ـ قصيدة في التوسل لعبد القادر العلمي تعرف بـ «الجمهور» بلغ عدد أقسامها اثنين واربعين ، وهي التي يقول في اولها :

يا من يشفي اضرار عبدو بعد السقم ٭ ويفرج من اقوات فالصدر احزانو

د ـ قصيدة «سيدنا الحسين» لحمد العيساوي الفلوس، فان عدد أقسامها خمسة واربعون ، وفي حربتها يقول :

يا لحضرا سمعوا وفات نور لنوار ٭ ولد فاطما الزهرا سيدنا الحسين

أما بالنسبة لعدد الابيات في القسم الواحد فانه قلما يزيد على عشرة . وقد بلغ في قصيدة «الشمعة» للشريف مولاي التايك ستة عشر بيتا فـــي القسم الاول واحد عشر في الثاني وثلاثة عشر في الثالث واربعة عشر فـــي الرابع والاخير . ومثل هذا الاختلاف بين الاقسام شاذ ولكن الاشياخ يعللونه بـ «السبب والمعنى» كذلك . وسنكتفي بعرض القسم الاول وهو يحكـــي قصة النحلة على لسانها حيث تقول :

بلسان حالها قالت لي نحكي لـك ٭ اشيخي عما حملت من لـــدراك

ويلا اتصيفشلا توصف فوصافك ٭ عن حالي وماكـان لي اقبل لحـراك

وانت اغرايبي عاودها بلسانـك ٭ وضـح ليفـادا واشرحها بلغـاك

واخبر بكرحتي فالناس اللي سالك ٭ لا تكتم سولان حدت امن اصغاك

ازمان كنت فقصر محبوك امشابك ٭ واكذاك انايا فصـورت التشبـاك

بكمال صورتي صورني صـوارك ٭ شهدا معلوما افملك من لمـــلاك

بعمالتي انصول إسلطاني ما لك ٭ واجناد ابطالي اتروح التيـــاك

وظفرت بالسعادا فزمان إمبـارك ٭ ما ضاها للاكتي املك لتـــراك

وامنين راد ربي بالوعد السالـك ٭ كسروا جندي ماتلا انفع لعـــراك

وابهز في ابساطي بهاز ابحالـك ٭ كانوا يعتادوه ناسنـا فتـــاك

بعد لهلاك عصروني عصرا محابك ٭ واهديت اعسولي آولاوجـدت افكاك

ولاوا دوبوني بالصهد الهالـــك ٭ طرحوني حتى اصفيت للتـــدلاك

واصفات لوضايح وارجعت اسبابك ⁂ ولى داى يا شيخى اكثر من ذاك
كالوا انت اعروسا لفتيلا تاجك ⁂ بها يشرق نور مهجتك واضيـــاك
بها افكل حضرا يعلا مرتابـــك ⁂ واعلى الزاهى ماتلا ايفيد اغــلاك

2 ـ مقـدمـات الاقســـام :

من براعة الشاعر ان يقدم لاقسام قصيدته بأبيات قليلة يمكننا تقسيمها الى نوعين : احدهما «العروبى» والثانى «النواعر» :

أ ـ العـروبـــى :

وهو غير «العروبى» الذى تغنيه النساء والذى اعتبرناه نوعا مستقلا من الزجل (1) . ويقولون انه كان فى الاصل يقدم به لاقسام المبيت المثنـــى ولكنه لم يعد كذلك ، حيث نصادفه حتى فى غير المبيت . ويتركب من عدد من الابيات تنتهى بشطر يتيم يطلق عليه : «الردمة» و «التديبرة» و «التذييلة» وهى كلها كلمات توحى بمعنى الختم والانهاء .

وعند الاستاذ محمد الفاسى ان العروبى الذى يقدم به للقسم يتكون من بيتين كل واحد منهما بشطرين يضاف اليهما شطر خامس(2) . وهذا تقييد لا أساس له. حقا ان العروبى قد يكون محصورا فى القالب الذى ذكر الاستاذ الفاسى ، على حد ما نجد عند الشيخ إمتيرد فى «فاطمة» اذ يقول مقدمـــــا للقسم الاول :

أنا يا فاطما احسانك ما ننساه ⁂ وانت لحسان من تليتو مـن ناسو
إكشفتى سرنا ولو حتى بغطـــاه ⁂ عيار الحب طابعك كشف إنحاسو
حتى بنيان ماعلا دون الساسو

ولكنا وقفنا على «عروبيات» يتعدى ابياتها هذا التحديد، واثبات الدليل يقتضى منا ان نعرض نماذج من هذه العروبيات ، وهى مكونة من :

1 ـ ثلاثة ابيات والردمة كما فى «التطوانية» للحاج ادريس لحنش على حد قوله فى عروبى آخر قسم من القصيدة :

ايا حماة دينا لعنو الشيطـــــان ⁂ هذا الغفلا اعلى اعداكم حتى ليــــن

---

(1) انظر الجزء الثانى من الفصل الاول من باب «الشكل»
(2) انظر مقدمة «الاغانى القديمة لنساء فاس» .

ماتتفكروا انهار دخلوا التطـــوان * وخرج فيها الكافر المسلميـــــن
وابقات الناس حايرا بين الطرقان * وهل ليمان كاتقول ابصوت احنين
الله ايجود بالنصر لعلام الدين

2 — اربعة ابيات والردمة ، ونجدها عند العلمي في «التوسل» حيث يقول في عروبي أول اقسام القصيدة :

يامن رسى اجبال وارصدها بصخور * وابحور الطاميا ابقهرو محصـــورا
ما يرشفها حفير ما يمنعها ســـور * وافراتن موجها افماها مكســـورا
واحجب ضو النهار بظلام الديجور * واهزم لغسيق ابلفجر باهي الصورا
يا عالم ما بدا وما تخفى لصـــدور * سلتك بملايك لحجوب المشهـــورا
احفظ ذات لهمام من كل اضرورا

3 — خمسة ابيات والردمة كما هو عروبي احد اقسام «الجمهور» للعلمي، وفيه يقول :

عبد القادر وصاحبو مول الخلوات * بو وحشيا ومن افقربو من لسيـــاد
وعلى والحاج والاسعد باهي الخصلات * سيدي عبد العزيز لمـــام الاستــاذ
يصرخ ويغيث ويحمى عند الحزات * ويحل ابقدرت لمهيمن كل اعقـــاد
والشيخ اللي ابراهنو كالشمس اضوات

مول البركا الظاهرا سيدي عياد

وارجال اخرين في امنازلها اختفات * اسألت ابحق جاهم خالق لعبـــاد
يوفى قصدي ولا يخيب لي مراد

4 — ستة ابيات والردمة على حد ما نجد في نفس قصيدة العلمي السالفـــة الذكر حيث يقول :

يابن عزو يا لكوكب الـــــدري * الحاج الطيبي اتوافي مظنونـــــي
العدويا وجارهـا سيـــدي بصري * والخزيو الصالحا والقرموــــي
سيدي النجار والاشقرثم البدوي * والشبلي طيب الشذا زهر افنوني
سيدي الجزار طلعت البدر الزهري * بوطيب منو شمس قلبي واعيوني
والوالي ابن عبود والشيخ الخضري * والشيخ الجنان لا تجهل ملحوـــي
عطفوا عطفا مختترا تشرح صدري * وادعوا بدعوتي الله وعينونــــي
عبد ارضاكـم مـا نظن اتهينوني

5 ـ احد عشر بيتا والردمة كما فى قصيدة «سيدنا الحسين» حيث يقـول الفلوس فى عروبى آخر قسم من القصيدة :

مهما دخلوا اضريح لحبيب المهتـاد * قالوا يا جدنا الهادى محمـــــد

لوريت شين صار بنا دون افنـاد * فى كربلا امع اجيوش الا تنحــد

قتلوا الانصار والاصحاب مع الاولاد * وابن هاشم كلها يـا محمـــــد

قتلونا دون حق فامهامه لوهـاد * واحنا فالشوم ولعطش يا محمــد

وقطعوا روس آل بيتك هل لعناد * تركوا لشياخ افلوطا يا محمــــد

سفكوا دم لشراف واعصوا الاحد * سبوا على المرتضى يا محمــــد

لوريت شين كان دار ابن زيـاد * هو واهلو وشيعتو يا محمـــــد

طعن الحسين كل من كان افلجناد * ولا رحمـوا اطفالنا يـا محمـــــد

قطعوا راسو ولا اخشاو من الجواد * داسوا بالخيل مهجتو يـا محمــد

كشفوا لحريم دون لعدا والحسـاد * وبعدها اسبونا يـا محمـــــــد

داروا لنا احبال واغلال ولكيــاد * ما شفقوا من احوالنا يا محمـــــد

وجهناهم للقوى يا محمد

6 ـ ثلاثة عشر بيتا والردمة (I) على ما نجد عند العلمى فى «الجمهور» حيث يقول فى عروبى أحد اواخر اقسام القصيدة :

اللهم ارضى اعلى خلايف عز الدين * قد انجوم السما قد احماس الديجان

قد اعداد لشجار واعشوب البرين * وما فالبحر امن اعجايب عل للوان

قد اعداد لرمال فاقفار الارضيين * وما من هايما اتسبيح اعلى لوطان

اللهم ارضى اعلى ملوك الحرميـن * إعداد ما فكل تربا من بستـــان

واعداد انسيم زهرها بعد الفجرين * وانغام اطيارها اتزيرج اعلى لفنان

قداما سبحو السمارس وامقنيـن * والحرمل والسرند والطير الحســان

ما غنى اليتروك وارقص بالجنحين * مهما شاف لهزار لحسن بالترنان

ومابات لحمام اعلى البرج اينيـن * باصوات امرخما اتبكـى بالتحنان

واعداد النحل والنمل وادوا باخرين * وانوار اعلى لصناف بارزامن لغصان

(I) لا توجد فى النص الذى بين ايدينا ردمة لهذا العروبى ولكنا عرضناه على بعض كبار الاشياخ فدلنا عليها .

اللهم ارضى اعلى اهلي السر المبين * رضوان الا ينتهى عـن طول ازمان

ما حملت امن الخلايق اجواف الثقلين * بملايك طايعا اوحش وانس وجان

اللهم ارضى على كوكب هل ليقين * ابا بكر الزكى وعمر وعثمـــان

وابن ابى طالب الافضل قوم الشجعان

ابن عم المجتبى الشافع فالعصيان

وانصر ياذ الجلال لـام السلطان

ويلاحظ أن بعض الشعراء التزموا نفس «الردمة» فى كـل عروبيات القصيدة على حد ما فعل الحاج ادريس لحنش ، فانه إلتزم قوله «الله ايجـود بالنصر لعلام الدين» فى كل عروبيات قصيدته «التطوانية»

ب ــ **النواعر** (1) : ويسمى كذلك السويرحات ولكراسا (2) :

1 ــ الغالب ان تكون مكونة من ثلاثة ابيات قصيرة مكونة من شطرين أو ثلاثة أو اربعة فمن الامثلة على ذات الشطرين ما قدم به الشاوى فـــى أول قسم من قصيدة له فى «التصلية» حيث قال :

وجدو من هو حى واجـــــد * قبل لوجود وظهر للخلق اوجـادو

جعلو محبوب احبيب ماجـــد * كرمو وفضلو واهـدى بـه اعبادو

ويح من اعصاه وكان جاحـد * جهنم اجـزاه فيها مقعـــادو

ومن السويرحة ذات الثلاثة أشطار قول المدغرى مقدما لاول قسم من «الساحـــى»

---

(1) من لطيف المصادفة ان نجد عند الرباط فى «العقيدة الادبية» ذكـرا للناعورة تكون فى الموال يقول عنها : «صنعة الناعـورة وتعريفها ان يجعل الناظم اربعة أغصان مواله رتبتهم كل غصن خمس كلمات مطلع كل كلمة ميم ويجعل الميمم حلقا فى الوسط ويطالع من الحلق مجـرى كل كلمة فيصير الموال مثل الناعورة (الورقة 149 ظهر 150 وجه) .

(2) ج كرسى. ولكراسا فى مقدمات الاقسام هى غير الكراسا التى تكون فى مكسور الجناح والمشتب كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى الجزء الاول من هذا الفصل .

وتجدر الإشارة الى ان الكرسى فى الموسيقى الاندلسية هو الشطر الاول من البيت الثانى من الصنعة الثنائية اى المكونة من بيتين ويكون مميـــزا فى تلحينـــه .

شف البدر الواضـــــح * بين انجومو رايـــــح

لغروبو رخف الجناح

وانجومها لوضايـــــح * بالفرحـا تدالـــــح

حست بنسيم الصباح

والديجور الجانـــــح * تلقى اسريع اجـوانـــح

وهرب بخيالو وراح

ومن السويرحة ذات الاربعة اشطار ما نجد عند امتيرد في «الكاس»

حيث يقول في تقديم أول قسم من القصيدة :

طاب اشراب كاســـــي * بـوجـــود لعناســـــي

واحبابي وناســـــي * اجميع بالوجد ايميســـوا

مصباح الغلاســـــي * داحت عن اسياســـــي

واتفاجا اكباســـــي * اكل عاشق بونيســـو

رتخـــا كـــل كاســـي * واذهب شر باســـــي

انصبـــح اناســـــي * الكل سلـوان اعريســـو

2 ـ وقد تكون مركبة من اربعة أبيات ، كل بيت :

أ ـ من شطرين كما عند عبد السلام الزفري في «خلخـال يـامنا»

حيث يقول في تقديم أول اقسام القصيدة :

ابقـــات جـــــوالا * لفكار ويـن تعمل هذا الخلخـــال

اهميـــم لا حـــــالا * خوفي عليه من لعدو والعـــدال

قلت بمقـــــــلا * عندي اخزايني فالصونا بقفـــال

د و ن لســـــدالا * بالزرد ولقنا وسيوف العســـال

ب ـ أو من ثلاثة اشطار على حد ما نجد عند العلمي في «الساقـــي»

حيث يقول في سويرحة ثاني قسم :

راح الليل اولا ابقـــي * الا وقـت لمعانقـــــا

كب ورا وارخى الرواق

والاطيار الناطقـــــا * على لشجار الباسقـا

عمرت بلغاها اسواق

كب الخمر الخارقـــا * فى كيسان ابنادقـــا

من زاج ابلاد العراق

تظهر خمـرا بارقـــا * فـالاوانـى شـارقـــا

كلون اسحيق الرماق

3 ــ وقد تكون مركبة من خمسة ابيات كما عند المصمودى فى مقدمة أول قسم من قصيدة «الجار» وفيها يقول :

ما يشبهنى عاشق الجـــــار * بالحب سرت ديوانى واخلاكى اصفر

نـار الحب اقـوى امـن النـــار * منها اعذاب قلبى ياصاح ينزبـر

من قوتها سارت اجمــــــار * بين لحشا اوسط المهجا وامع الصدر

نـــار اتمـــادى فيـــه بشرار * واعييت مانلاهى وانكابد فالصبر

جيت انزور احمامت الـــــدار * لا حى لا مونس لا غاشى لا خبـر

الـقســـم الاخـــير :

قد يطول أكثر من بقية الاقسام ويتضمن فى الغالب اسم الشاعـــر وتاريخ نظم القصيدة واهداء السلام والصلاة والدعاء وهجاء الخصوم :

أولا : ذكر اسم الشاعر : وقد يكون بالتصريح أو الرمز :

1 ــ **فمن الذكر الصريح للاسم** قول المغراوىفى آخر مرثيته **المنصور** السعدى المعروفة بـ «لعزو» واصفا نفسه بالفصيح :

وارحم المغراوى الناظم افصيح لعراب * بالبلاغا غير الجحاد أيلفحو

ومنه قول الحاج ادريس بن علي فى «فضيلة» واصفا نفسه بالاديـــب وقصيدته بعذراء متوجة :

وختمت القطعا ايقول لاديب الحاج ادريس بن علي بهاجر الذيل

حلايا حفاظ صايلا * كعدار تاجها امكلل تكليلا

ومنه قول الحاج اعمارة فى «فاطمة» مشيرا إلى أنه مقيم فى مدينة فاس:

والاسم على اسألنى * الحاج بن الحاج اعمارة ومكانى

ارض الياقوتا الساطعا سلسالت لكرام

مولانا يدريس بن ادريس البدر الضاوى

الرضوان عليه عد مازاروه امن اقوام

ومنه قول عبد الرحمان القرى فى «زهرة» داعيا الله ان يحفـــظ مدينته مراكش :

واسمى ما يخفى القـــــرى ✻ عبد رحمـــان طالب لغنى فاشعاره
يحفـظ بهجتنـــا الحمـــــرا ✻ ابجاه النبى وازواجو واصهاره

ومنه قول الحاج عبد الفضيل المرنيسى فى«جمهـور الخودات» واصفا نفسه بالذكى وبان خبره مشهور ومصرحا بتلمذته للنجار :

واسمى معروف الحاج عبد الفضيل المرنيسى الا اخفات اخبارو
الذكى تلميذ النجار

2 ـ **اما الرمز للاسم** فقد يكون بالحروف أو بالارقام أو بهما معـا :

أ ـ فمن الرمز بالحروف قول الجيلالى امتيرد فى «طرشون» رامزا الى الجيلالى بالجيم واللامين وواصفا نفسه بأنه أفصح الاشياخ ورئيس الشعراء :

قال افصيح لشياخ جيم الامين رايس لحبار

ومنه قول امبارك السوسى فى «زهرة» مستعرضا حروف مبــــارك ومصرحا بالسوسى :

واسمى لّي يقرا انبينو ميم وباللعارفين تفسارو
والــرا امورخـا والكـــاف افتشهــــــار
والكنــوا سوســـى

ب ـ ومن الرمز بالارقام (1) قول محمد بن على ولد ارزين فى«الطاهرة»

واسمى اثنين وتسعين فالحروف ظاهرا ✻ واصحــــــاب ابجـــد حاضرا
والحرف الاول رفعو مشهور

---

(1) بناء على قيمة حروف أبجد ... وترتيبها عند المغاربة كالآتى :

80	70	60	50	40	30	20	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1
ف	ع	ص	ن	م	ل	ك	ى	ط	ح	ز	و	ه	د	ج	ب	ا

1000	900	800	700	600	500	400	300	200	100	90
ش	غ	ظ	ذ	خ	ث	ت	س	ر	ق	ض

وقد ورد فى القاموس المحيط للفيروزبادى أن «المشارقة» يكتبونها على الترتيب المعروف فى اللغة الآرامية والعبرية وهو :

أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ .

فاثنان وتسعون هى مجموع قيمة حروف م ح م د بالاضافة الى أنه ذكر رفع الحرف الاول .

ومنه قول مولاى على البغدادى فى «خدوج» :

وإسمى ظاهر فاميا اشرح منهاجى تسبى البدهاج

فالعين بسبعين واللام بثلاثين ومجموعها مائة .

ومنه قول محمد بن على المسفيوى فى «المحبوب» :

واسمى فبجد محسوب بالمحبوب أربعا والخمسا والزوج فى احسابى

فكتابة الاربعة والخمسة والاثنين متتابعة (4 — 5 — 2) تعطى رقم أربعة وخمسين ومائتين وهو مجموع قيمة حروف م ح م د ا ب ن ع ل.

ج — ومن الرمز بالارقام والحروف قول المدنى التركمانى فى «الزهو» :

واسمى ما يخفى اشهير فبجد المن اقراه

(صين جب) والجليل من لا يسها وينام

فقد رمز بـ «صين جب» فالصاد بستين والياء بعشرة والنون بخمسين والجيم بثلاثة والباء باثنين فيكون مجموعها خمسة وعشرين ومائة ، وهى قيمة حروف ا ل م د ن ومنه قول احمد بن رقية فى «الشمعة» .

فى رمز النون اسمى يا سالك ⁂ زد جيم لى سالك

فقيمة النون خمسون تضاف اليها ثلاثة فيصبح المجموع ثلاثة وخمسين وهى مجموع قيمة حروف ا ح م د .

ومنه ما نجد عند محمد العيساوى الفلوس الذى كان يخفى اسمه فى قصائده الوطنية بمثل هذه الرموز :

1 — اسمى للل والبا امضمنا

أى بثلاثة لامات وباء ومجموع قيمتها اثنان وتسعون وهى قيمة حروف م ح م د

2 — اسمى كعب

فالكاف بعشرين والعين بسبعين والباء باثنين فيكون مجموعها اثنين وتسعين . ومن هذا ما نجده كذلك عند الشيخ محمد بن عمر المراكشى الذى يرمز لاسمه فى الغالب بـ : «بمن» فالباء باثنين والميم بأربعين والنون

بخمسين ومجموعها اثنان وتسعون وهى قيمة حروف محمد .

يلاحظ أن بعض الشعراء سكتوا عن اسمهم ولم يذكروه لا رمزا ولا تصريحا ، وهؤلاء هم المدغرى والعلمى والسلطان سيدى محمد بن عبد عبد الرحمان والسلطان المولى عبد الحفيظ العلويان .

ويقولون عن السبب فى ذلك بالنسبة للمدغرى وسيدى محمد بن عبد الرحمن ان المدغرى كان صديقا لهذا الامير الذى كان بدوره ينظم، ولكنه لم يكن يريد ان يعرف عنه ذلك . وحتى تنسب قصائده للمدغرى طلب منه ان يعدل عن ذكر اسمه فى قصائده . ومثل هذه الظاهرة – لو ثبتت – ستجعلنا نشك فى القصائد التى تنسب للمدغرى، فان بعضها – على الاقل – من نظم سيدى محمد بن عبد الرحمان . ويذكرون من هذه القصائد «عزبا وشابا» التى يزعمون ان الامير نظمها حين شاهد «بزقاق لحجر» فتاتين تطلان من الشباك ، وكان فى طريقه لزيارة الاضرحة بفاس على عادة الامراء والملوك العلويين ، وهى عادة لم تنقطع الا بنفى محمد الخامس سنة 1953 .

اما العلمى فانا وقفنا على قصيدتين يصرح فيهما باسمه ، هما :

أ – قصيدة «الشافى» وفى آخرها يقول :

والباحث عن اسميتى بعد السولان * عبد القادر اعلام رب الفوقانى

ب – قصيدة «بسم الفتاح المعبود» ، وفى آخر شطر منها يقول :

وارحم نساج لقصيدة العلمى

واما المولى عبد الحفيظ فيعلن فى قصيدة «الزين» ان من عادته اخفاء اسمه :

والناظم طبعو يخفى اسميتو فسجالا * خذ صافى در وعقيان

ومثل هذا يقول سيدى محمد بن عبد الرحمان فى «الزهو» :

الحافظ ويلا سالك تالف العنوانى * اسمى صونو بالكتمان

كذلك يلاحظ ان بعض الشعراء أشاروا الى اسمهم فى اول القصيدة أو وسطها وليس فى الآخر . فابن سعيد فى «التوسل» يذكر اسمه فى البيت الرابع من «الدخول» فيقول :

ابن سعيد السرى جد يالسلطان * غمر عنى يانجل ابن الدبيح طاها

واميترد فى «لفصادا» يذكر اسمه فى وسط القصيدة على لسان الفاتنات:

قالت اريام الحضرا وين عز لشياخ * لفصيح الجيلالى شندك لغزارا

على أن ذكر اسم الشاعر فى الزجل تقليد معروف (1) حتى عند المشارقة على حد ما نجد عند ابن مكانس فى وسط زجل له حيث يقول (2) :

يوم وهو جانى بضجـــــة * وجبـيـن معقـود وعـابس

قال لى والله مانت حجـــة * فـى الهوى يابـن مكانس

تبقى تشكى لاى من جـــا * وآخـرو مـا قلـت امـس

وعلى حد ما نجد كذلك عند ابن مقاتل فى آخر زجل له اذ يقول (3) :

كـم خصـم فـى المقاتـل * صابـوا بـن مقاتـــل

وكم ذا فـى المحافـــل * قد أنشا غصـن حافـل

من حل بيت فى مربـع * ملحـون بألـف معـرب

وهو تقليد معروف كذلك عند شعراء أهل امصار المغرب من العرب اذ يذكرون اسمهم فى اول القصيدة كقولهم :

قـال الشريف بـن هاشم علـــى * ترى كبدى حرا اشكت من ازفيرها (4)

. . . .

تقول فتاة الحى ام سلامـــة * بعين اراع الله من لا رثى لهـا (5)

. . . .

يقول بلا جهل فتى الحى خالـد * مقالـة قـوال وقـال صـواب (6)

ثـانيا : تاريخ نظم القصيـدة :

---

(1) فى «بلوغ الامل فى فن الزجل» ص 9 لدى الحديث عن ابتداعـــات الزجالين : «ذكر اسم الانسان نفسه فى آخر زجله ويسمونــــه الاستشهاد ويثني فيه على نفسه الثناء البالغ» .

(2) روض الآداب للحجازى مخطوط آياصوفيا رقم (4017) الورقة 103 وجه.

(3) المصدر السابق الورقة 101 ظهر .

(4) مقدمة ابن خلدون ص 511

(5) المصدر السابق ، ص : 518

(6) المصدر السابق ، ص : 517

وقد يكون بالتصريح أو الرمز :

1 ـ **فمن التصريح بالتاريخ** مـا سجل به المغراوي قصيدتـه فـي «المدح والتوسل» حيث قال :

الشريف ورخ هذا القصيد السعيد * ليلـة عشر والحـاد
سنة خمسة عشر والف عـام * سلمـك للـه جـود

2 ـ **ومن الرمز اليه** قول النجار في «خلوق» :

تاريخ انظامي مـا اخفى اثلاثين المن يقراه

القاف ونصف الرا * زد الف تكمل حسباتو للهادي نهديه

فاذا أضفنا الى ثلاثين قيمة القاف وهي مائة ونصف الراء وهي مائة كذلك اذ الراء بمائتين ، وزدنا كل ذلك على الف يكون تاريخ نظم القصيدة ثلاثين ومائتين والف .

ومنه قول الفلوس في قصيدة «سيدنا الحسين» :

خذ تاريخ النظم افعام «شرق» بجهار * ورمز «حا» و «الالف» وبعدهم ستين

فقد رمز بـ «شرق» و «حا» و «الالف» فالشين بألف والراء بمائتيـن والقاف بمائة والحاء بثمانية والالف بواحد ، ثم زاد عليها ستين ، وبذلك يكـون المجموع تسعة وستين وثلاثمائة والف .

ثالثـا : اهداء السلام والصلاة والدعاء :

يقول ابن علي في «التصلية» مهديا سلامه للعلماء الفاهمين للقـرآن الكريم والاشراف والطلبة وأهل الوفاء والاحسان :

واسلامنا اعلى ناس العلم الماهرين فالمبين

واعلى لشراف واعلى الطلبا وهل لوفا وهل لحسان

ويقول العلمي في «طامو بهيج الخدادا» يطلب من حـافظ القصيدة ان يهدي سلامه للمنشدين واهل المعاني والطلبة .

أهدي سلامنا للنشادا أهل لمعاني والطلبا يامن احفظ لقصيد

ويقول محمد بن الوليد في قصيدة له في «مدح المصطفى» عليه السلام مهديا سلامه للخلفاء الراشدين ولاصحاب الرسول العشرة وازواجـه وللمهاجرين والانصار ولابناء فاطمة ، ومصليا على الرسول الاكرم ، ثـم

مسلماً على الشعراء .

واسلام ربنا يتهيا فى كل حال دايم

اعداد ما فعلمو سبحانو ربنا العالم

وارضـــا على لخلافـــا

ابوبكر الصديـــق اعثمان اعلى اعمر

الى ايجهد فالسبيل امعـــاك	*	والرضى للعشرا المهاجر الانصار
واعلى اسيادنـــا لعراب التياك	*	والازواج ابجملا والطاهرين لقمار
اولادلا بهم الاستمســــــاك	*	الصلاة والسلام افكل ليل وانهار
اعليـــك يالهادى طيب لســـاك	*	قد لرياح قد ارعدها المطـــار
واعداد القلم واللوح الفـــلاك	*	والعرش والكرسى وكذامياه لبحار
واعداد ماخلق فالدنيا من ياك	*	دايما مادام الملك لغنـــى القهار
بالطيب ولعبير وعنبر وامساك	*	والسلام انهيبو للمهدين لجبـــار

رابعـــا : هجـاء الخصـــوم :

ويطلقون على القسم الاخير اذا اشتمل على الهجاء «الزرب» تشبيها له بالسياج الذى يحيط بالحدائق والبساتين ويحميها ، فكأن هـذا الـزرب يحمى القصيدة ويرد عن صاحبها الخصوم .

يقول ابن على فى «صلوا على الصديق الصادق» واصفا قصيدته بأنهـا ديباج ودرة تضىء لم يملك مثلها سلطـان ، وطالبا مـن حافظها الا يخشى المدعين العاجزين :

خذ ادباج ياحفاظ لدرار فى اسلوك الجين

درا على التراكى تضوى ماضم زيها سلطان

يا حافظ اللغا لا تخشى داعى اعليه هاذى دين

لعديم عرفـــو مديانـــى والى اعديـــم مـــا يـــودان

فعسى الى انعرفو ما فجيابو الجين ولاعين

فخلاص ابن على ماد الويبقى ايجول كل اوطان

ويقول امتيرد فى «خلخال اعويشا» يطلب من الراوى أن يصـــــول بقصيدته التى شبهها بالابريز وان يهمل الجهلة الجاحدين الفارغين الذيـن

لا يفقهون رمزا ولا يدركون معنى ، ومتألما لحال الفوضى الذى أصبح عليه الشعر بعد ان كثر مثل هؤلاء المدعين الذين لا موهبة لهم ولا فهم :

خذ اراوى يبريز منظـــوم * غنىاوصول بين ارباب اليضمار
والغى من لا لو قول مفهــوم * عقلو اكفيخ دمر ماجاب اخبار
قولو ما بين الناس مدمــوم * ولا يشبهــو متمـد نكـــار
الجاحد أعماه ولادا يفادا مابين اقماصر اللغا جبحو خـالى
ما يفقـه رمـز ولايحـق معناه عكـلى هرتـال
اولا هى سباب لكلام وامضاو اهلو واتفرقوا وليس اجبر والى
واقـوات البدعـا ولجحـود كثرو والفن اقـــلال
قل للداعى عادم لمواهب لو فيد كرفت لوغا ما يقــوالى
وقت امـا شلا فى اغطاه يصـدف دكت لنبـال

الـدريـدكـة (1) :

وهى حين توجد تتضمن ما يتضمنه القسم الاخير فى الغالب ، وقـد تكون طويلة او قصيرة .

فمن الامثلة على الدريدكة القصيرة ما يقول ابن على فى آخر «المزيان»:

مـا تخفانى طرقـان * سالك فيهـا ببيـان * شفتها بعيانـى
بالبكا والصوم اتكدار * والفركا والتفكـار
والوهم امع الجولان * والفرغ مع الصومان * والسقام اكسانـى
رقت النفس امثيل اشعـار * ابسر الـذات اشهـــار
والسانى كترجمان * ولا مثلـى نـدمـان * والطبع سيمانـى
مايشح العاشق بمـــزار * ايوصلـو لـو يهجـــار
ولا ينكر سـولان * ولا يرحـم رقبـان * فالقصا والدانـى
عفت لصحاب ألنـــوار * مازالـوا فـى لقطـار
والاسـم فالتبيـان * ابـن على فالعنـوان * شاهر عنوانـــى
والسـلام الـلامت لحبـار * مافـاح انسيم ازهـــار

---

(1) من دردك اذا ضرب برجله سريعا على الارض ، وربما سميت كذلك لانها تنشد بسرعة .

ومن الامثلة على الدريدكة الطويلة قول الشاوى فى نهاية «التصلية» مشبها قصيدته بعذراء يستعرض اوصافها :

صلى الله اعلى المهـــدى ✲	امام من ادنى وسيد امن اتنادا
واعلى الخلفا هل المجـــدى ✲	واعلى الصحاب واعلى الالاف ليعادا
اصلاة نهديها افنشـــدى ✲	للصادق لصـــدق كهف التؤادا
من عشقى واشواقى اوجـدى ✲	وامحبتى وغيوانى وامعن هـذا
نتهات العـدريـا افرصـدى ✲	فبساط هل المعنى دايرا وقادا
تسقى هل لمحبا اصرخــدى ✲	واعلى اعشيقها تفجى كل انكادا
بتيوت اتهيج نار فكـــدى ✲	واكمال قدها يشبـه للطرادا
واجبين ايلوح ونار تكـــدى ✲	غرامع لحواجب واعيـون اسرادا
والانف احكيتو طـير فـردى ✲	والمرشفين قرمز واخدود اورادا
والثغر اجواهر امـن افرندى ✲	والجيد جيد مهرا تـاكت شرادا
وامعاصـم كبرقيـن تـزدى ✲	واضعود كانعوت اصوارم لهنادا
واصدر عشق المغروم يبـدى ✲	حقين فيه تتمايـح خرق العادا
والسرا مـن راهـا ايـودى ✲	فمحاسن البطن تسلب هل لعبادا
والخصر من خسران يفـــدى ✲	واردافها اتردف والورك ازيـادا
وارفاغ افلون ارخام هنـدى ✲	سيقان والقدام امن اوطاوه سادا
بها رفرف فالجو بنـــدى ✲	فمنازل السعادا تاكت سعـــادا
لرباب الفن السلام نهـــدى ✲	بالصدق ولوفا وامعانى وايفادا
والجـاحد مـا يقـوى الجهـدى ✲	ايلا اطغى ابجهدو باقـى يتـادا
ويح الداعى من نار وقـــدى ✲	خلات فـى اعضاه املاهب لهادا
ويلا شال يمســى افكيـــدى ✲	شداه للمضايق عمرت لـوغادا
امقلـــد بحسامـــى وزردى ✲	يوم لوغى انهد امن ابغى يتمادا
يعرفنى وامعايا وعنـــــدى ✲	ليس نمشى انعيرو كيف المرمادا
لفظ ارباعى انظامو امســدى ✲	فمنازل الصفا برضات النشادا
افحصن احماهم فاح نـــدى ✲	واكملت بالرضى واثباتا وانجادا
واصفا شربى من هـل الـودى ✲	حبر الـزمان حاشا مثلى يتعادا

اراحم ترحم ضعف جســـدى * يوم النشور من زفرات الكهادا

كمل لى ياكريم قصـــــــــدى * «هزمم» (I) دوزو فزمام السعادا

نـمـوذجـان للايضـاح :

وهذان نموذجان لبناء القصيدة احدهما من المبيت والثانى من مكسور الجنـــــــاح :

أولا : قصيدة «هـنـيـة» : للشريف محمد بن الحسن ، وهـى مـــن المبيت المثلث ومن أربعة أقسام :

1 ـ دخـول الـقـصـيـدة :

يحسن عون العاشق لبها من حر الغيوان * يحسن عونو كل حين نيرانو مگديا

بين الثلج امع الصهود واجمار الولفيا

يحسن عونو بالمصادفا واصدود الهجـــــران

كيف ايبات يصبح مايلوراحا قطعيـــــــــا

يتشكى مـــن ملقـاه وادموعو مجريـا

يحسن عون العاشق لبها والزيـن الفتـــان

يحسن عونو مايلواوقات يوجد اسليــــــــا

ياك الزين السيوف له بالهجرا مسقيا

يحســن عونـو لوايتيـــه تيه اشرود الغـزلان

يلقى تيه الزين بالهجر للقاه اتهيـــــــــــا

هـذا حالـو مايليــه فاحكامـو شرعيا

كيف املكنى من اصباى واترك لونى يرقان

قبل انشوف ابهاك الريم امامن كيـــــــا

لسعتنى قبل لوصال ألغزال اهنيا

2 ـ الـحـربـــة :

نصر الله اجمال صورتك أدابل لعيان * أمبروم التيت لال لغزال اهنيا

بك اغنمنا يالباهيا بشرا واهنيا

(I) رمز بذلك لاسمه فالهاء بخمسة والزاى بسبعة والميمان كل منهمـــا بأربعين فيكون المجموع اثنين وتسعين وهى قيمة حروف م ح م د .

3 ـ لكراسا :

اما من كيا ابنيـــــران ⁂ بشواظها اضحيت انصارع نيرانى
نصبح كيف انبات سكـــران ⁂ من غير خمر هايم والوجد افنانى
واخبيرى من هول ولهـــان ⁂ انراقب لوصال اهنيا يوفانى

4 ـ القسم الاول :

وماعـن كهلـى احملت واحمـول الحب ارزان
يدريهم من به كان بالفرگا مابيـــا
ايسلـم عشقى اولا يزيـد امـلام اعليـا
ومـا بحت ابما اخفى ودمـع اعيونـى طوفـان
وما ندهل ساكنـى اوروح الذات افهـيـا
فمسايف لغـرام صـاك لى بجنود اقويـا
وما حرمت لمنام باشواقى من لجفان
ومـا حرب بالجيوش مـير العشـق اعليـا
وما من ليعـات فالحشا منـو مكميـا
وماغرد فالبهيم طرفى ونـا يقظـان
وما راقبت لهلال فغروب الذهبيـــا
يطلع كـوكب هلتى امعاه ابغير اخفيـا
وما بحديث لوصال بعد انحدث ادهان
نتزهى وانقول ياهلال الزين انتيـا
مالكاونا غـلام يابوتيت اهنيـا

ثم تتوالى الحربة والاقسام الباقية كل قسم بكرسيه ، ونذكر منهـا القسم الاخير وهو خال من الاسم والدعاء والهجاء نظرا لان بالقصيدة دريدكة.

الصدر مرمر به يوصـــان ⁂ وانوابغو اتفافح زهوا ترضانـى
والضعديـن ابروق لمـــزان ⁂ اكفوف من الكمخا وارطب من فانى
وامقايس زندين البـــان ⁂ بخويتم الذهب تكليل اعقيانـى
والبطـن الطاوى اعـلى اقماش الهنـــداروان
والسرا طاسا اوصافها فتناه امزيـا
مـن لوريق انعوم فى اعتيق من الحميـا

والردف المالي امـع لخصر وافخاد السيقان

كن اسوراى فى اوصافها نفها كليـــا

والساق المدعوج عن اقدام الوصف اهديا

لجمالك نهدى اعشور لوصاف ابعز وشـــان

وماوصف ابهاك ما اتحد اثناه اسجيا

لازلت امسلى ابصورتك صبحا واعشيا

نصر الله ابهاك ياوداد القلب اللهفـــان

ياقد اعـلام المبارزا يـوم المشليـــا

يامن لازلت اعلى اوصاف الحسن اصبيا

كب واملا الرايقا بالخمـر الكيسـان

هات لى حتى انقول فتمام الخمريـــا

بشرا واهنيا اعـلى اقدوم الريـم اهنيـا

5 ــ الــدريــدكـــة :

خذ اراوى روض لفنـــان * فمديح لال بوتيتين اهنيـــا

بها زال الهول واهـــوان * صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

بها سعد الفال وازيـــان * سعدى وراحتى بعد البين اهنيا

ولفى من نهوا افتيهـــان * وناكبالها فى تحصيـــن اهنيا

واتماضت اهموم لحـــزان * بوجود مالكى بدر الزين اهنيا

بودواح اسبيغ لجفـــان * ذات لبها وحمر الرشفين اهنيا

بهنيا لازال فرحـــان * قلبى اولايلى اعليها فين اهنيا

اهنيا للذات سلـــوان * هنو الريم كحل الشفرين اهنيا

اهنيـا بهـا العنـــوان * مختوم فى انهايت تضمين اهنيا

واسلامى من غير بهتـــان * لهلالها ولها فالحين اهنيـــا

اعبق اشداه افكل بستـــان * يهدىانسيم طيبو منطيب اهنيا

قال ابن الحسن يعـــلان * مملوكها افزوج اتسعين(1) اهنيا

اشريف النسبـا المضمـــان * لازال في امحبتو تمكين اهنيا

واهل الجـود احباب واخـوان * يتـوادو ابطيب التفنين اهنيـا

(1) يشير باثنين وتسعين الى مجموع قيمة حروف اسم محمد .

رادف اساقى املا الكيســان * بوجود مالكى بدر الزين اهنيا

يار بى وانت الرحمـــان * اجعل لختام حســن ليقين اهنيا

ثـانيـا : قصيدة **«الذهبية»** لانجار وهى من مكسور الجناح :

1 ـ دخـول الـقـصيــدة :

غـدر كاسى يامديـم قبل اتـروح الذهبيـا

بوجود لامتى والقوم اللى لامــــوا

ماجابوا لنا اخبــــار

قرب لى نسطاب فرجتى بعقيق الحميا

بشرا اعلى الرضى كاس كب امدامــو

واحنا مابين الاشجــــار

فـى بستان ارفيع امحتفـل وادوات الحسنيـا

فوق الروض امع الورد راها ترقص قدامـــو

واتكلـــم فركت لطيار

2 ـ الحــربــة :

غدر كاسى يامديم قبل اتروح الذهبيا * شف لبهيم حين اتمكن بظلامو

واهلب عن ضى النهار

3 ـ عـروبــى :

اساقى ساعت الزهو تحيى لقلوب * واتسلى بالفراح بالشوق الجالـــى

أساقى صاحب لهوا عقلو مسلوب * مولوع بالريام والكاس المالــــى

شف الخودات حين تاكت من لحجوب * هاذيك الذى اتصول بالذكر السالى

ولا فاتـو ابحال ساعت اليـوم اليالى

4 ـ القســم الاول :

أ ـ دخول القسم (مكسور الجناح) :

لله فين توجد هذا الفرجا اليوم

ب ـ لـمطـيـلـعـات :

لاما امحضر برباب وعيدان

بين لتشين امع الرمان

جالسين ارياما اشبان

تحت لغصان

هذا الذاك سكران

ج ـ بيت ينتقل به للحربة :

واريامنا ايرقصو من غير اخفيا * هاجوا وهيجو قلبي صاب امرامــو

وارشفنا كــاس لعقار

وتستمر الاقسام الثمانية على هذا النحو ، ونقف عند الاخير :

خذ من الدر ولزمرد عقد انفيس * يحيي روض لعشيق ويشرح الجلاس

به انهد لجحود والي كان اعكيس * لني حبر النظـام معنــوى قياس

واسلامي للشياخ دهات التجنيس * بالندا امع لعبير عن ساير لجناس

من لاطاع لشياخ لابد يمساس

خذ لقماش يامن لاتدرك له سوم

محال اتوجدو فخزاين اتجار

هدبه القوم الفجار

قل لهم قال انجار

هيت انجــــار

نغما الكل فجار

الي ادعا ابجهلو مافيه امزيا * شبيخ لكلاب حدو ينبح فخيامو

ما حملوه اهل لجدار



نظـام القـافـية

ويطلقون عليها «القافية» و «الحرف» .

يقول الجيلالى امتيرد فى سرابة له :

قالت ناس الشعر والقوافى * الزين ابلاتيه صورتو تعـداف

ويقول ادريس المرينى فى ثورته(I) على قيود الوزن والقافية :

أنا بغيت ننظم والحرف ابدا يغور

اعلاه مايكون الشعر ابلا حرف

وقد كانت القافية فرصة للشاعر الشعبى ان يظهر براعته . واجماع الاشياخ أن هذه البراعة تظهر فى امرين :

أولهما : استعمال القافية على حرف واحد ، ووصفوا القافية التـــى تكون كذلك بأنها على «مخها» اى لم يدخلها حرفا آخر . وسنرى ان غـير قليل من القصائد سارت على هذا النوع مـن القافيـة الصافيـة اذا شئنا أن نترجم المصطلح الشعبى .

ثانيهما : استعمال قوافى داخلية فى البيت ، ويذكرون لذلـك نماذج فريدة ؛ منها مانجد عند المدغرى فى «الحاجة» حيث جعله مكونا من سبعة حروف حيث يقـــول :

من بك قالى قلت الحاجا

حـاجـــا

بحواجب نقشات خرقت لمهـــاج

واخدود طاهجا

واغوانـــــج

واجعابها افروج

(I) سنتحدث عن هذه الثورة فى الفصل الثانى من الباب الثالث لـــدى ترجمة المرينى .

اعلـــوج

ومنها ما نجد عند هاشم السعدانى فى «الساقى» حيث جعل البيـــت مكونا من أحد عشر حرفا ، يقول :

غـــدر ياساقـــى
من امدامك نسقى
يا طيب لخلـــوق
اسقينى بالريق
والرحيـــق
واشفـــق
من ذاتى الشايقا
وارحم من شـــاق
للمـــــلاق
ياك المعشوق
حق يوفى لعشيقـــو

ويقول الاشياخ ان عبد الهادى بنانى زاد فنظم البيت فى «الساحى» مكونا من ثلاثة عشر حرفا. والاسف انا لم نوفق فى العثور على هذه القصيدة أو حتى على جزء منها .

القــافيـــة فى الاقســـام :

أولا : المبيـــــت :

1 ــ **المثنى** : يسير فيه نظام القافية على هذا النحو

أ ــ التزام قافية واحدة فى الفراش والغطاء (ا ــ ا)، وقد تكون :

1 ــ بنفس الحركات كما عند الحاج ادريس لحنش فى «المرحـــــول» وحربتـــه :

الغادى للرباط هاك اسلامى لسيادى * اولاد الولى بن لمهيـدى

2 ــ بحركات مختلفة كقول الشاوى فى حربة «الوصية» :

يا لنايم فق امن النوم راقب الفجر الطالع
قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم والطاعـــا

ب ــ التزام قافية فى الفراش وأخرى فى الغطاء (ا ــ ب) كما عند

الجيلالى امتيرد فى قصيدة «ضيف الله» وحربتها :

اضيف الله رد لجواب اصغى لى * لا تحشـــم رد الســـلام

وكما عند ابن علي فى «الهجران» :

ايــلا تهجرنى اخليلتــى مصبرنــى لجفاهــا

ويـــلا تاهت عــن اوصالها مانقطــع لياس

ج ــ قد تسير أبيات القصيدة كلها على قافية واحدة ، وقد تخضـع لبعض التغيير ، وخاصة فى «قياص لشركى» حيث تسير أبيات القسم عـلى قافيتين ، وتكون قافية الحربة على حرف الابيات الاخيرة فى القسم ، ومثلها قافية الدخول ، وتتخذ هذا الشكل :

1 ــ الدخول :	ب ب	(فى عدد معين من الابيات)
2 ــ الحربة :	ب ــ ب	
3 ــ القسم الاول :	ا ــ ا	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)
4 ــ القســم الثانى	ج ــ ج	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)
5 ــ القسم الثالث :	د ــ د	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)

وهكذا يبدأ القسم بعدد من الابيات على قافية جديدة ويعود للقافيــة الاصلية التى تسير عليها الحربة ، ويسمى هذا التغيير أو بالاحرى هـــذا الانتقال من قافية الى أخرى ثم العودة الى القافية الاصلية «السراح والرواح» واشتقوا منه «اسرح وراح» (1) .

ومن الامثلة على ذلك «العرصة» للتهامى المدغرى .

يقول فى دخول القصيدة :

حل عينك واتنزهزد شوف واسطاب * فى ادواح العرصا وازهارها اعجيبا

اغصانهابالفرجات اتعانقوابترحاب * كيف عنق لحبيب احبيب بعد غيبا

اتمايلو وعربطو فرياضهم بشراب * من اكيوس انداهم امرونقا اسكيبا

الزهر يضحكوالطل يبكى افتنحاب * كن عاشق تضحك لبكاه شى احبيبا

ولوتار اتجاوب بانغام عود ورباب * فيه عدرات أصوات اوتارها اطريبا

(1) كذلك أطلق الاشياخ «الرواح» على نهاية القصيدة او نهاية القسم .

ويقول فى الحربة

يالعرصا صولى فرحى ابطيب لطياب

طيبك سيدى ولد الساكنين طيبا

ويقول فى القسم الاول

شف لبلنزا صانت فى احضان سلطان

قدها واقدرها بالثنين زين فى زين

عاليا فسماها لها من لبها شان

فى احجاب احجبان مارات كيفها عين

غرسها ما حاط ابوصفو البيب فوزان

لو يزول افمعنى انعوتوا سنين فسنين

فى ارياض الملك امربى ابصور واصحاب

ولمياه السلسا فجداولو اعذيبا

امخنت انسيم الصبح بنسيمها الهياب

كابرا افتربت طيبا طيبا اخصيبا

ويقول فى القسم الثانى :

شف رنج اللتشمين اليم كن خودات

من ابنات العربان الصايلات بالتيت

بالعقيق اعقيان امخمسا اكلادات

ابطالها من بهم ستغاث دايم اتغيت

دى اتيه اعلى هاذى كابرات فخنات

زايدات اعقول اللى شافهم تشتيت

فالرحيل ايعجبوك الراشكات لهداب

فالهوادج وماهارو رايدا انجيبا

حايطابهم اسود السروت لنجاب

ويح من شاط ايعاود قصتو اغريبا

وهكذا يستمر فى بقية الاقسام يبدأها بثلاثة أبيات على قافية جديدة ويعود فى البيتين التاليين لقافية الباء :

وليست كل القصائد تقتصر على ثلاثة أبيات ثم اثنين ، بل انا نجـــد بعضها يسير على ستة بدل ثلاثة كما عند الجرارى فى قصيـدة «المعـــراج» مع ملاحظة أنه فى قافية الابيات الستة لم يلتزم حركة واحدة، ونمثل لها بالقسم الثانى حيث يقول :

حين وصل للقدس وعاد فى احماه

ادنا الحلقت لنبيا بعد شافهـــــا

ثـم ربـط البـراق اخلفـــو اوراه

زاد للمسجد احضرتو اينالهـــــــا

ثم صلى ركعتين وئـال مبتغـــــاه

بعد صلى ترك البقعا وفاتهـــــا

بعدها جبريل اباناء باش جـــــاه

من خمر والانا لخرا اختارهـــــا

مـن الحليـب اروى الساكنـو اظمـــاه

قال جبريل الفطرا حزت فالهـــــا

ليه نصب المعراج وقال فى الغـــاه

عول الجولا لا مخلوق جالهــــــا

الى حضرت من اختارك دون من اسبق

امن الرسال اللى نورك عنها اشريق

ازداد شوق المحبوب أشاق للمـــلاق

حين صعد وجبريل امونسو ارفيق

أما الحربة فعلى حرف القاف كالبيتين الختاميين .

وكما لاحظنا أن القافية فى الابيات الاولى مختلفة الحركات فـــــى الفراش والغطاء فانا قد نلاحظ مثل هذا «القياص» ولكن بقافية مختلفة عـلى هذا الشكل :

أ — ب

أ — ب

أ — ب

ج — ج

ج — ج

مثال ذلك قصيدة «الذرة» لابن علي ، وهي على حرف الباء في الحربة والـدخـول :

ما ينقصو في ملك الله مـا يزيـدو

أولا يليهم في ملك رب لشيات تصـــراف

كيف شا يفعل ماشا ولحكام بيـــدو

اولا حدث افسايبر لشيا غير باش يعـرف

كـان فالملك اعلى درا بجـــل جـودو

اولا تحملو درا ولا بحمل يوصـــــف

غير احمل القدرا والقدرا مـن الرب

افلشيات اقدرتو واعلى لشيات غالـــب

كون الكونين وما من لكوان يوجب

افرض امن الدرا ما شا رب لرباب

على أنه ليس كل قصائد «قياص لشركي» على هذا النمط في القافيـــة حيث نجد بعضها التزم قافية واحدة في كل القصيدة ، مثال ذلك قصيـــدة للعلمي في «الحكم» يقول في حربتها :

زال تقليدو من صلى افخلف لمام ✻ ايلا ايكون افسر اضميرو ايقين جازم

فقد التزم الميم السـاكن في كل الابيات والاقسام .

2 ـ **الثـلاثـي** : ويسير نظام القافية فيه على هذا النحو :

أ ـ التزام قافية واحدة في كل الاشطار وان اختلفت الحركات على حد ما نجد عند الفقيه العميري في «زهرة» حيث تتخذ القافية هذا الشكل :

أ ـ أ ـ أ

وهكذا في كل ابيات القصيدة ، وهي التي يقول في حربتها :

انت مكمولت لحاسن زهرا ✻ يارياض امزخرف بثمار

وانت زهرت الزهور وانت لغزال ازهـيرو

ب ـ عدم التـزام القافية في كل الاشطار ، وتتخذ ثلاثة أشكال :

1 ـ أ ـ ب ـ ب

وهكذا بأن تكون الاشطار الاوائل من حرف والشطرين التاليين من حرف آخر . مثال ذلك قصيدة «الزهو» للمدني التركماني ، فانه التزم حرف الهاء في الاشطار الاولى وحرف الميم في الشطرين التاليين ، على ما يبدو من الحربة التي يقول فيها :

الزهو افلكتوب ألورقات أماقال الله * واصلات المختار والفجر في وقتو والصوم

والحج الجهاد فالنصارى يوم المعلوم

وعلى هذا النمط يستمر في كل أبيات القصيدة .

2 أ ـ أ ـ ب

ومثاله «الساقي» لنفس الشاعر ، وفي حربته يقول :

أساقي رادف الرحيق أعلينا ليام راضيا * بوجود الريم راضيـــا

سلطان ارضي اعلى الرعيا والزين الله ينصرو

3 ـ أ ـ ب ـ ج

وهكذا يكون كل شطر بحرف في كل أبيات القصيدة على حد مانجد عند امتيرد في «هشوما» ،فقد التزم اللام في الشطر الاول والراء في الثاني والميم في الثالث ، يقول في حربة القصيدة :

غدر كاسي هات نوبتي يا ساقي واسقى الباهيا زينت نقط الخـال

لا تغفل عن رايت النصر * مصباح الـوالعات ولفي هشومـا

ومثلها قصيدة «أم الغيث» للحاج ادريس لحنش ، فقد التزم فيها الثاء فـي الشطر الاول والميم في الثاني والسين فـي الثالث ،يقـول فـي حربتها :

كيف اجري لي ياهل لهوا في حضرت سلطانت النسا لغزال ام الغيث

آشريف العذرات فاطما * ملوك الزين بينهم ضعت افكاسي

3 ـ **الرباعي** : ويسير نظام القافية فيه على هذا النمط :

أ ـ التزام قافية واحدة في كل الاشطار على هذا الشكل :

ا ـ ا ـ ا ـ ا

كما عند مولاي عبد الواحد في «البتول» فانه التزم اللام في كـــل الاشطار مع اختلاف في الحركات كما يبدو من الحربة التي يقول فيها :

أجى بوصالك ما سخيت واتعالى * يعدار صاحب الحال

داوى اجوارح اعليلا * أشوم ليعتى من افراق البتول

ومثلها قصيدة «فارحا» للمدغري حيث التزم الحاء مع اختلاف كذلك فى الحركات :

دسنى تحت لخلال بين ادرعك لملاح

واللبا والدواح

وانهداتك تفاحا

خفت ايشرفني اعيونك ايجرحونى يافارحا

ب ـ اختلاف فى قافية الاشطار كالتزام الاشطار الثلاثة الاولى لحرف والرابع لحرف آخر على هذا الشكل .

ا ـ ا ـ ا ـ ب

ومثال ذلك قصيدة «طامو» لامتيرد ، فقد سار فى الاشطار الثلاثة الاولى على حرف الجيم بحركة واحدة وفى الشطر الرابع على الميم ، يقول فى حربة القصيدة .

طامو يا طامو الحاج * بك اقوى عشقى وهاج

واسكن وسط اسيار لهاج * وارضيت احكامو

مع ملاحظة أنه يسرح ويروح ولكن ملتزما حرف الحاء فى أول ابيات الاقسام على هذا النحو من قوله فى القسم الثانى :

فالبهجا بين لملاح * بها كل اعشيق داح

طاب ارياض اشداها وفاح * وعبقت ادواحو

ويستمر كذلك بضعة ابيات ثم يعود للقافية الاصلية فيقول :

بحرى لام ادلال ماج * عذبى مارات اغناج

نردع بها قوم اللجاج * من لا يولامو

4 ـ **الخماسي :** ويسير نظام القافية فيه على هذا النمط :

أ ـ التزام قافية واحدة فى الاشطار الخمسة مع اختلاف فى الحركات على هذا الشكل :

ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ا .

مثال ذلك قصيدة «فاطمة» لابن احساين ، فانه التزم فيها الميم ، يقول في حربتها :

قالت يما اتقول طامـــو * قلت وابيك يالطـــام
ياقد اعلام فاللطـــام * قالت ترا ايقول طامـا
ترات ايقول فاطما

ومثلها قصيدة «لغزال» للجيلالي امتيرد فانه التزم فيها الگاف ، يقول في حربتهـا :

هل لي بالفارگا ايلاگـى * ويبـوح حيهـا لخليـگ
لاين بوصيدها اغليـگ * لغـزال الشاطنا اخلاگـى
مـا هو فنجوع خالگا

ب ــ اختلاف القافية في أشطار البيت ، وتتخذ مثل هذا الشكل :

أ ــ ب ــ ب ــ ج ــ د

مثال ذلك قصيدة «أسادتي اولاد طه» للحاج ادريس بن علي، فانه جعل الشطر الاول على حرف الهاء والثاني والثالث على اللام والرابع على الميـم والخامس على الراء ، يقول في حربتها :

أسادتي اولاد طاهـا * برضاكم عالـوا الحـال
يا ناس الجود ولفضال
أنا في عار للا فاطمـا * الزهرا الطاهـرا

ومثاله كذلك قصيدة الطيب الواسترى «تاج لريام» فانه جعل الشطر الاول على حرف الياء والثاني والثالث على الميم والرابع على الباء والخامس على الفـاء ،

يقول في حربتها :

رغبوا تاج لملاح فيـا * ايجينـى غـير بالسـلام
ويراعي صلت لكرام
لاخير فاللي اجفا احبيبـو * واغـدر بعـد لمـوالفـا

ثانيا : مكسور الجناح :

تخضع القافية فى هذا الوزن لنفس تقسيم القصيدة ، كما سبق أن رأينا ، وتسير على هذا النحو :

1 ـ دخول القصيدة ـ ان وجد ـ يكون على حرف قافية الحربة (أ)

2 ـ الحربة : على نفس القافية (أ)

3 ـ دخول القسم : (مكسور الجناح) على قافية مختلفة يلتزمها فى دخول كل الاقسام (ب)

4 ـ لطيلعات : وهى لا تسير على نمط معين داخل القسم الواحد ، وتختلف حروف قافيتها من قسم لآخر .

5 ـ البيت الممهد للحربة ، يكون على نفس قافيتها (أ) .

ويمكن الرجوع الى النماذج التى مثلنا بها لهذا الوزن فى الجزء الاول والثانى من هذا الفصل ؛ ونضيف اليها هذا النموذج ، وهو قصيدة «الجلار» للمدغرى ، وقد بدأها مباشرة بدخول القسم ، فانه التزم حرف القاف فى كل الاشطار التى دخل بها للاقسام وجعل للمطيلعات قوافى دون تقييد داخل كل قسم وجعلها تختلف من قسم لآخر ، وسار فى قافية البيت الختامى على نفس قافية الحربة وهى الراء ، والتزم ذلك فى البيت والحربة فى كل القصيدة . يقول فى القسم الاول :

أ ـ الدخول : مهما اتخاصم العنبر والمسك العبيق

ب ـ المطيلعات : واهلال عيدو البرنى والغرار

ولمدام أكاس البلار

والموبرا شغل الحرار

واكداك فوق زخار

صارى اقويم

ج ـ البيت :

والطماج اعليها اتكابحوا بجهارا * ايشمروا الحرب اسقار؛

بينهم اعلى تاج الزين افلمضامر * شلا نحكى اليوم صار

د ـ الحربة :

بين الورد والزهر والجـــلارا * والظليـــسم والحـــدارا

والرخام اتفاح اقوس والشنابر * خرجوا على عانسى اكحان

ويقول فى القسم الثانى

أ ـ الدخول : واسباب ما حكيت اخرجت افداج لغسيق

ب ـ المطيلعات : نسدر فى ارياض امفتح لكمام

صبتهم ايشيروا بكلام

فى احروف امعانى واخصام

دون تدمام

عن عانسى ام احرام

جالـو او جـولـو

ج ـ البيت

دخلوا لميدان كاخيول الغـــارا * دالـــذا يـعـيـــط ورا

بالمعانى واخصام اكثير ولمعاير * ما حشمو مـاتقاوا عـــار

على أن من الشعراء من التزم فى هذا «القياص» حرفا واحدا فى قافية كل القصيدة سواء فى الدخول أو المطيلعات أو البيت والحربة ، مثل الحاج أدريس بن على لحنش فى قصيدة «أم الغيث»، فانه التزم التاء فى كل الاشطار والابيات ، وقد سبق أن ذكرنا جزءا من قصيدته .

ثـالـثـا : المشتب :

يلتزم فيه الشاعر نفس القافية فى البيت والحربة، أما المطيلعات التى يحشو بها البيت فلا تتقيد بقافية سواء داخل القسم الواحد أو من قسم لآخر. وقد سبق أن مثلنا بقصيدة «التوبة» لابن سليمان و «قمر الدارا» لعبد السلام الجربى فـى الجزء الاول من هذا الفصل وهما من خير الامثلة على ذلك ، ويمكن أن نشير لنظام القافية فيهما بهذا الشكل :

القسم : أ (ـ ـ ـ ـ)

أ ـ ب ـ ج

الحربة : أ ـ أ ـ ب ـ ج

رابـعـا : السوسى :

تسير فيه القافية على هذا النظام :

1 ـ تلتزم فى كل الاقسام قافية البيت الذى يبدأ به القسم .

2 ـ لا تخضع الاشطار المرسلة لاى تقييد سواء فى القسم الواحد أو بين الاقسام .

3 ـ تلتزم قافية الابيات التى يختم بها القسم فى كل الاقسام .

4 ـ تلتزم قافية هذه الابيات فى الحربة أو بالاحرى تكون هى على حرف الحربة ، فهى تمهيد لها وزنا وقافية . ويمكن تحديد شكل هذا النظام كالآتى :

البيت : أ ـ أ

المطيلعات : دون تقييد

الابيات الممهدة للحربة : ب ـ ب ـ ب ـ ب

الحربة : ب ـ ب ـ ب ـ ب

ويتضح ذلك من خلال القسم الذى مثلنا به فى الجزء الاول من هذا الفصل من قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبى .

القافية فى المقدمات :

أولا : السرابة :

سبق أن قلنا فى الجزء الثانى من هذا الفصل أن الكثير من «السرارب» ضاع ، ولم يبق منها الا القليل . ثم ان السرارب الموجودة لا تعرف قصائدها فى الغالب ، ومن هنا كانت صعوبة النظر فى قوافيها وتحديد النظام الذى تسير عليه سواء فى أبياتها أو بالنسبة للقصيدة التى تتقدم لها . وزاد فى هذه الصعوبة أن الشعراء اليوم قلما ينظمونها ، وان فعلوا فانهم يجعلونها مستقلة .

ومن فحص السرارب التى وفقنا الى جمعها ـ وهى جد قليلة ـ نستطيع أن نذهب الى انها تسير فى القافية (1) على شكلين :

---

(1) نلفت النظر الى أن ارتباط قافية أبيات السرابة بقافية النواعر التى تتخللها شبيه بالارتباط القائم بين قافية أقسام القصيدة وما فيها من سويرحات (انظره بعد سطور لدى الحديث عن القافية فى السويرحات)

I — أن تكون على حرف واحد فى القافية ، ومن الامثلة على هذا الشكـل سرابة ابن علي التى يقول فى أولها ، وهى على حرف الراء :

أقلبى كـن عن امصابك صبار * الصبر مفتاح اللكنـوز والذخيرا

ومنها كذلك سرابة المدغرى التى يقول فى أولها ، وهى على حرف الحاء :

أنا الي ابلغرام قلبى مجروح * ولهوى منوفانى ماجبرت راحا

— أن تختلف قوافى أبياتها ،ويبدو لنا أنها لا تخضع فى ذلك لنظام معين، وتسير مع طبيعة النغم والايقاع ، وان كنا نلاحظ أنها تكاد تكون فى التقفية قريبة من العروبى ، ويظهر ذلك من أول جزء فى سرابة لامتيرد ، يقول فيه :

اعلاش أمحبوب خاطرى تجفينـــى * الجافينى واعلاش دالجفـــا
حبيتك من خاطرى ولارديتنــى * كاتمنينى يا شارد لعفـــا
خالفت فالقول باش وعدتينـــى * ولا وصلت رسمى قاسيت ماكفى
قالت ناس الشعر ولقوافـــى * الزين ابلاتيه صورتو تعداف
والخير صاحبو يعراف

ثـانيـا : العـروبـى :

ويسير نظام القافية فيه على هذه الاشكال :

I — أ — ب
أ — ب
ب

حيث تكون «للفراشات» قافية و «للغطاوات» قافية مختلفة ، وعلى حرف «لغطاوات» تكون قافية «الردمة» . ومن الامثلة على ذلك ـعروبيات ـ قصيدة فاطمة لامتيرد ، ومنها عروبى القسم الثانى من القصيدة :

كان اسهيتى اتيقظى من حال اسهوك * ويلاتهتى التيه اتعريك ايامـو
نظرى بملامح لبصار الى سبقـــوك * كما فرغوا يفرغ سوقك وازحامو
سيرى حتى يشرب عودك بالجامو

ويلتزم ذلك مهما كثرت أبيات العروبى على حد ما سبق أن مثلنا فـــى الجزء الثانى من هذا الفصل .

2 — أ — أ
أ — أ
أ — أ
أ

حيث تكون كل الاشطار على نفس القافية ، ولكن مع ملاحظة أن حركة حرفها فى «لفراشات» تختلف عن حركاته فى «لغطاوات» وان حركة قافيـة «الردمة» تتفق مع حركة حروف «لغطاوات» ونمثل لذلك بعروبى القسم الاول من القصيدة «التطوانية» للحاج ادريس لحنش حيث يقول :

نسعاوا الله فالنصر نعـــم الرحمان ❊ والفتح الايزول والظفر وتمكين
واجب نتوجهو ونحتالو ببيــان ❊ لقتال الكافرين ونسألو المعين
افلوفق امع ليمان وينصر السلطـان ❊ نعم المنصور سيدنا سبط الحسنين
الله ايجـود بالنصر لعـلام الديـن

وهنا كذلك لافرق بين أن تكون الابيات قليلة أو كثيرة . والملاحظ أن العروبيات فى القصيدة الواحدة لا تلتزم قافية معينة حيث يستقل كل عروبى بنظام معين للقافية .

ثـالثا : السويرحات :

يكون نظام القافية فيها كالآتى :

1 — ان تلتزم ابياتها نفس القافية وان اختلفت الحركات، وفى هذه الحالة اماأن تتفق هذه القافية مع قافية القصيدة أو لا تتفق ، لا فرق فـى ذلك بيـن أن تكون السويرحة كثيرة الابيات أو قليلتها .

أ — من نماذج الاتفاق سويرحات «تصلية» محمد الشاوى ، وهـذا مثال منها يمثل سويرحة القسم الرابع :

يعجز فوصافو كل ناشـــد ❊ وافضايلو لكثيرا شلا ينعــــادو
لو كان البحر امداد نافـــذ ❊ والارض كالواح افتمثال انشادو
والخلق ايوصف فالشواهـد ❊ لا وصفو اعشـور افضايل امدادو

فهى على حرف الدال الذى قفيت به كل القصيدة على ما يبدو مـن

حربتها التى تقول :

صلى الله اعلى الشفيع نور الحق المرشاد

عين الجود الطاهر الزكى ربحى واسنادى

طه مـول التاج واللوا والحوض المـورود

ب ـ ومن نماذج الاختلا فى سويرحات قصيدة ادريسية للغرابلى نذكر منها «سويرحة» القسم الثانى ، وهى :

نور اجبينك نور وهـــاج ٭ يوهج فى ادخال امهاجى فادباجـو

يعلا ويفوق نور لتـــواج ٭ يصرع كل غاوى يفصم باعجاجـو

به الحق اشهير لبـــلاج ٭ واللى ايكون كاره هو بعاجو

فقافية السويرحة على حرف الجيم فى حين أن القصيدة دالية كمـا يتضح من الحربة ، وهى :

غثنى واحمنى من اعدايا بدر الوقاد

واتشافع فعبيد عاصيا تاهت موكـودا

أمولاى ادريس يا هلال العز ألسعود

2 ـ ألاتلتزم أبياتها نفس القافية فتتخذ شكلين :

أ ـ قافية موحدة فى «لفراشات» واخرى «للغطاوات» لا علاقة لهـا مع قافية القصيدة ان كانت ثنائية الاشطار : أ ـ ب

مثال ذلك سويرحات قصيدة «خديجة» لامتيرد ، وحربتها :

لوصول اتصـــول ٭ صولى يامولاتى اخديجا

صولت عبلا وجازيا صولى ياسلطانت الريام

وفى سويرحة القسم الثانى يقول :

عتنون أغبت الصـــلاح ٭ جيـد أركبا ركبـة شـــاد

واضعود اصوارم لكفـــاح ٭ والصدر امحصـــل النهـاد

ابطن واعكون للفـــراح ٭ سرا وارداف للعنـــــاد

ب ـ على الشكل الآتى ان كانت رباعية الاشطار :

أ ـ أ ـ أ ـ ب

ومنه سويرحات «الدمليج» لمحمد الدمناتى الناصرى على حد قولـــه

في سويرحة القسم الاول من القصيدة :

يا مسرار الـــــذات ✻ بـك احيـات اجـــدات

فخلــوقك لـــــذات ✻ فايقــا راح اصوابـــح

ما مثلك فخنـــــات ✻ كابــرا فامحنـــات

نظرا فيك اغنـــات ✻ سالبا لاهل اتسابـح

صول أبو نجـــلات ✻ فوصافـك نجـــلات

لمحاسن واجــــلات ✻ صورتك كـل امصابـــح

ونلاحظ بعد هذا أمرين :

احدهما أنه قد تتفق جميع سويرحات القصيدة الواحدة في نفـــس القافية كما في قصيدة «التصلية» للشاوي وقد سبق أن أشرنا اليها .

الثاني أن يكون لكل سويرحة ــ داخل القصيدة الوحدة ــ نظام معين للقافية يختلف من واحدة لاخرى على حد ما تكشف عنه قصيدة «خديجـــة» لامتيرد ، وقد سبق أن أشرنا اليها كذلك .

القافية في الدريدكـــة :

ننظر فيها مـن وجهيـن :

1 ــ **قافيـة أبياتها :** والغالب أن تكون موحدة في «لفراش و لغطا» ، وان اختلفت الحركات ، وتكون على هذا الشكل أ ــ أ

وعلى هذا النحو سارت أغلب الدريدكات التي مثلنا بها .

وقد تختلف قافية «لفراش» عن قافية «لغطا» فتتخذ هـذا الشكـل :

أ ــ ب

ومن الامثلة عليها دريدكة قصيدة «هنية» لمحمد بن الحسن ، فهي تسير على هذا النحـــو :

خــذ أراوي روض لفنان ✻ فمديح لال بوتيتين اهنيا

وقد سبق أن اوردناها .

2 ــ **من حيث علاقة قافية أبياتها بقافية القصيدة** وما فيها من سويرحات ، ويكون على ثلاثة أشكال :

أ ــ أن تتفق قافيتها مع قافية القصيدة بما فيها السويرحات ، مثال

ذلك دريدكة «تصلية» الشاوى فانها على حرف الدال كبقية أبيات القصيدة.

ب ــ أن تتفق قافيتها مع قافية السويرحات وتختلف مع قافية بقية أجزاء القصيدة . مثال ذلك دريدكة «مسعودة» للمدغرى ، فانها على حرف اللام ، وكذلك السويرحات ، أما بقية أجزاء القصيدة فعلى حرف الـدال . يقول فى البيت الاول من الدريدكة :

مسعودا تشفـى المعـــلال ❊ عشقى افحبها عمرو مايتبالا

ويقول فى البيت الاول من آخر سويرحة :

الزين احكامو اعلى حال ❊ حب الله فاز ابهيبا واجلالا

ويقول فى الحربة ، وعلى قافيتها سارت كل حروف القصيدة :

كولو المسعود يآطلوع اكواكب لسعاد

أنا من سعدى اسعادتك وانت مسعودا

وانتيا بدر السعود وانت لهلال اسعود

ج ــ أن تختلف القافية فى الدريدكة عن قافية السويرحات وسائر أبيات القصيدة ، مثال ذلك دريدكة «الذهبية» للتهامى المدغرى ، فانهــــا جاءت على حرف الحاء فى حين جاءت قافية السويرحات ميمية وقافيـــــة الاقسام رائية ، يقول فى أول بيت من الدريدكة :

خذ العشق بين لفصاح ❊ درتو امقابل الصبوحى بفصاحو

ويقول فى أول بيت من سويرحة أول قسم :

شف الشمس ارخات لكمام ❊ عولت للرواح افتيها واقياما

ويقول فى حربة القصيدة ، وهى على قافية الاقسام :

شوف الذهبيا اخدود هامـن ذهب التشحـار

وارخات اصروع اللجام فوق الوطيان اتغـير

نعنيها شكرا امختنا مـن خيـل المنصور

عيـوب القافيـــة :

وقفنا منها على ثلاثة :

أولا : الـقـوافـى «الصيادية» :

جرت عادة شعراء الزجل المغربى أن يستمدوا قافيتهم مـن موضـوع

القصيدة ، وهى ظاهرة تتضح فى معظم قصائد المحبوبات حيث يكون حرف القافية متفقا مع آخر حرف فى اسم المحبوبة ، ومن الامثلة على ذلك قصيدة «كنزة» لابن علي ، فانها على قافية الزاى ، يقول فى حربتها :

ماكيف اوصالك كنـز ☆ وافضل من مال ايلا كنزوا

عالجني ياشمس لحاسن كنزا

ومنها كذلك قصيدة «للاحسنا» لعبد الرحمن بن الفقيه ، يقول فـى حربتها :

ألا حسنا * ماصابلا الحسنك حسنا * أيا روامگ الوسنانا

درت لمحاسن ☆ حسنك به لبدور سنا

صولـى بكمـال زينك المحسـون

وتتضح هذه الظاهرة كذلك فـى بعض الخمريات مثل «الكـاس» للمدغرى ، يقول فى حربته :

الساقـى وگـض لعنـاس ☆ رادف الكـاس

واسطاب امع الريام طيب اوناسا ☆ لاتـرتـى للبـرنيس

ومثله «الساقى» للعلمى حيث يقول فى حربته :

راح الليل أعلم لفجر تاگ الصبح الراقى ☆ ياسـاقى

دور اعلى الحضر بفناجلك تزيان الموسيقى ☆ وازرع للساهى ايفيق

واعتبروا القصائد التى لا تسير على هذه الظاهرة معيبة وأطلقوا عليها «قصائد صيادية» ، ومن الامثلة عليهـا قصيدة «طامو» للمدغرى ، يقول فى حربتها :

نصرو رايت لكفـاح ☆ بو وجنات الوضاحا

والشاما والخال والشفر والغنج الدبـاح

طامو ياقوت الروح

ومنها كذلك قصيدة «مينا» للحسن بن شقرون ، فانها على حرف الحاء، يقول فى حربتها :

مينـا باشت لمـلاح ☆ مينا روح ادخالى وراحت واصـلاح

من اجفاها جمرى لحـلاح ☆ طعنتنـى دون اسـلاح

ثـانيـا : اتخاذ الهمزة قافية :

على الرغم من أن شعراء الزجل نظموا قصائدهم على قوافى من مختلف الحروف ، فاننا لم نعثر لهم على قصائد فى حرف الهمـزة . وتبين لنا بعد بحث هذه الظاهرة أن العامية تحذف الهمزة وأن استعمال الهمزة فيها يعتبر من «البرص» الذى سبق أن تحدثنا عنه (I) ، وأن اتخاذها قافية يعتبـــر بالتالى برصا كذلك

ثم حدث سنة 1965 أن ولدت لجلالة الملك الحسن الثانى بنية سماهـــا «أسماء» فأخذ الشعراء ينظمون قصائد فى التهنئة على قافية الهمزة :

من ذلك قصيدة للشيخ الجيلالى من سلا ، يقول فى حربتها :

بنت اهمام الشعب سيدنا حسن الاسماء

الاميرا أسمـــاء

مناى امع ارجائى

قرت عين احبيبنا وراحت لقلوب املاما

ومنها قصيدة لعبد الحميد العلوى ، يقول فى حربتها :

نفحت لعبير العاطر الذكى نور النور الا ايطيق يشفاه الرائى

راحت سلطان اوطانا وفرحت شعبو أسماء

ومن الامثلة كذلك قصيدة لحسن اليعقوبى يقول فيها :

آش را من لا را لوطان يوم لنبـــاء

بالخلوق المبروك ابقرت لمرائـــى

أرض من بعد مـاكانت كنها البيـداء

من ارمال الصحرا صبحت روض مائـــى

كلها حرجات وعرصات امن الريـاء

امياها دفاقا واشجارها افيائـــى

ولطيار اعليها من زينها ابغنـــاء

هيجت الصاحى بانغامها اغنائـــى

(I) أنظر الفصل الثانى من الباب الاول .

وصار شعري ينساب امـن الصميـم كالمــاء

في اجداول لحراج أصاح امن احشائي

كيف مانشدي شدو الطير وسط بطحاء

بين ناسي واهلي وايخططو املائـــي

وكيف ما يرقـى شعري اعلى اللغا الخنسـاء

ولبشاير بالسعد أتتنـا اصـدائـي

وكيف مانطهج كيف طيجو ارجال ونساء

ونطفح كيف طفحو لبساتن لظمائـي

وكيف ما نستوحي ونانـري الايحـاء

لهم الكاتب والرسام والروائـــي

من اخلوق المصباح الي اجلا الظلماء

طيب لعبير العابق ساير لجوائـــي

ثالثا : الخلط بين الحروف المتشابهة المخرج :

والسبب راجع الى أن العامة لا يفرقون بين هذه الحروف في النطـق ، من ذلك خلطهم بين الدال المهملة والذال المعجمة ، يقول محمد بن الوليـد في قصيدة في «المدح النبوي»

لولاك لا ايغاتا لاجفا لانار لاجسر صراط امعدي

لانهار لا ليل خلف ذا افهاذا

ومنه خلطهم بين التاء المثناة والثاء المثلثة ، يقول محمد ولد افريحـة في أول قصيدة «خناثة» :

ياذات الزيـن الوارث ※ امدين امجيك أمولاتي الخنثا

سبحان امن انشاك أقد الرمح الصقيل ارايا في تشجيع بن شجعان ازناتا

ومنه خلطهم بين التاء والطاء ، يقول محمد بن عمر المراكشي في حربة «الـــزردة» :

والضيغ افراسا ملا ايليه ضرسات ※ كيملوج فمضيغو عاد تيسرطو

ومنه خلطهم بين الضاد والظاء ، يقول احمد ابجيوات في حربـــة «شرصة الرضا» :

سولتك بالفاظ * مدرا زعما ياعرصت الرضا * مازلت فالعز وحظا

واحجـــابـك لغليـــظ * والا ماك الغير خوضو

ونجد عند الحسن اليوسي في «المحاضرات» نموذجا من الخلط بيـن الضاد والظاء في زجل لاحد شعراء هوارة لم يذكر اسمه ، لعله عروبي ، وهو قـــولـــه :

إيلا ابرك لى الزمان واركبت اعليه * واللي راد بي المولى الملقاه اعراضـــا

برك لى مركوب مانى ضاربــــه

* ما نحساب ايامي اعليا مغتاضــــا

نصبر لحكام المولى حتى تتقاضى

وقد علق عليه اليوسي بقوله «قوله مغتاضا من الغيظ وابدل من الظاء عنا ضادا» (I) .

(I) كتاب المحاضرات ص 49 طبعة حجرية .

وعند الحلي في «العاطل الحالي» ان الخلط بين هذه الحروف مـــــن الممنوعات في الزجل . وقد أشار في الورقة (53) ظهر ، الى شعر لابن قزمان فيه استعمال الظاء مع الضاد والدال مع الذال ، كما أشار في (54) وجه ، الى استعمال الدال مع الذال في زجل لابن حسون المغربي .

الباب الثاني

الموضوعات

الفصـل الاول

المـرأة

يعتبر الغزل بالمرأة اكثر الفنون ايحاء لشعــــراء القصيدة الـــزجلية بالتعبير ، فتح قلوبهم وعيونهم وأطلق مواهبهم وقرائحهم وأخصب ذهنهم وخيالهم ، فنظروا الى المرأة بحسهم مفتونين بجمالها ، ورسموا لها لوحة واضحة الملامح زاهية الالوان ، ونحتوا تمثالا متحرك الاطراف مكشــــوف الملامح دقيق القسمات ، كل ما فيه رائع فتان ، يحـــرك القلوب ويهيــج الخواطر ، اودعوه تصورهم للجمال كما تهواه نفوسهم وليس كما هو فى الواقع ، فجاء بذلك مثالا لا يعنى امرأة بعينها ، وانما نموذجا نسجوا جميعا عليه ، ولكنه مع ذلك تصور ان لم يكن منبعثا من البيئة فهو متأثر بها الى أقصى حد . فقد وضعوا المراة فى مقام رفيع ، ونظروا اليها مخلـــوقا متفوقا ممتازا هو جوهر الحياة ومحور الكون . وهى نظرة مقدسة للجنس الآخر ما نظنها وليدة البيئة الحضرية التى ازدهر فيها هذا الشعر ، وانما هى وليدة البيئة البدوية الصحراوية التى نشأ فيها كما سنرى بعد . (1) وليس من شك فيما افادت دراسات البيئات من ان سكان المدن أقـــل تقديرا للمرأة من سكان الصحارى والارياف حيث تتمتـع المراة بمركــز اجتماعى لا يقل عن مركز الرجل ، وحيث ترتفع الى مستوى المشاركــة فى العمل وتحمل أعباء الحياة .

ووصفوا حالهم محبين ضعفاء ، يعانون من عشق هذا الجمال أنواعا من الجوى والشجن والشوق ، وألوانا من اللوم والهجر والنفور ، ويسعون الى الوصال بالرجاء والاستعطاف تارة ، وبالعتاب والوعظ أخرى ، ولكنهم حين يفشلون يلجأون الى القضاء عساه ينصفهم مما يقاسون او الى الحيلة لعلها تقربهم من الهدف الذى اليه يسعون ، وكأننا بهم فى اصطناعهــم تلك المظاهر واجتيازهم هذه المراحل لا يقصدون الى غير تعميق الجـــرح وتهويل الموقف والبلوغ بالمأساة الى ذروة تتعدى التـــرغيب والتشويق الى استدرار العطف والاشفاق . وحتى هذا الجانب النفسى من الحب بـــدا

---

1) فى الباب الثالث .

عندهم متشابها ، فجاءت حكاياتهم وقصصهم واحدة ، وكذلك جاءت آلامهم وأحزانهم وما يتخذون لشفائها من علاج . ومن يدرى فلعل هذا الشعر كان فرصتهم للتعبير عما يعتمل فى نفوسهم من أدواء ليس مصدرها الحب وإنما مصدرها ظروف خارجية أخرى لا نعرف عنها شيئا .

ومن خلال كل ذلك يبدو تمثلهم للحب قويا طاغيا متجبرا لا سبيل الى فل سلاحه او هزيمته .

وفرقوا بين الشعر الذى يغلب عليه وصف الجمال وبين الشعر الذى تملأه العواطف ، فاصطلحوا على الاول العشق ، ومعظم قصائده تحمل أسماء الحبيبات ، ولم يتركوا اسم امرأة لم ينظموا فى صاحبته ، وتعتبر زينب وزهرة وفاطمة وخديجة أكثر الاسماء لهم الهاما . واصطلحوا على الثانى التغزل ، وتعرف قصائده بالمحبوب واللائم والجافى والعاشق والمرسول والشمعة والحمام والمرسم ، وهى كلها اسماء توحى بحال من أحوال الحب والهيام .

ولم يعتبروا من الغزل قصائد اطلقوا عليها « تراجم » ، اعتبرناها نحن من صميمه ، وهى كما يبدو من تسميتها قصائد ترجمها الخيال اى حبكها ونسجها دون ان يكون لها حدوث فى الواقع ، مثل الحجام والفصادة والحراز والقاضى والضيف والخلخال والدمليج ، كما سيتضح من خلال الفصل ، وكانهم غلبوا فى التسمية الشكل على الموضوع ، وكثيرا ما يفعلون .

اولا : المحبوبة

نظر الشاعر الشعبى الى المحبوبة **فوسمها بألقاب وأوصاف** تنم عن بعض ملامح جمالها أو تكشف عن عاطفة من العواطف المتأججة فى قلبه .

فزهرة بوعمرو «هلال الدارة» :

زورينى قبل الا نقبر ❊ ياهلال الدارا (1) زهرا

---

1) الدارة الشىء المستدير او الجماعة من الناس تتخذ مجلسا دائريا وتتحلق ، وبهذا يحتمل وصف «هلال الدارة» مفهومين : اولهما هلال مدور مكتمل وثانيهما هلال مضىء فى جماعة الفاتنات .

وهى عنده « سلطانة الابكار » :

لـلا سلطـــانت لبكـــار ❀ ما يلى ســـواك امـــرا

وخديجة امتيرد «سلطانة الريـــام» يطلب منها ان تصول صـــولة عبلة وجازية :

لـــوصـــــول اتصـــول ❀ صولى يا مولاتى اخديجـا
صولت عبلا او جازيا ❀ يا سلطـانت الريـــــام

وجمال حجوبة ابن على يفوق الشمس والقمر والبرق :

يالى زينك فاقالشمس والقمر والبرق افلحجاب ❀ صلت بحروف اعجاب
عالجنى بوصالك يالريـــم حجوبا

وجمال طاهرته يفوق جمال حور الجنان :

صولى اعلى الريام ابديك الغرا الزاهرا ❀ ما تشبه ليك الطاهرا
حريا تسبى امن اجنان الحور

أما زينبه فبدر غير محجوب وشمس النهار السعيد :

يا بدر ما غطاك احجاب ❀ فالدجى يا شمس النهار السعيد يا زنوبا
شايـــق انشوفك يا زينب

وحبيبة ابن سليمان تاج كل جمال ومؤدبة :

لوقات احـــلات * جـــادت لى حبيبـا
حبيبا تاج كل زين * اصبغـت لهـــداب
حبيبا فوصافها امأدبا

ولابن سليمان خديجة هى قمرية البروج وياقوتة فى تاج وريم :

يا قمريت لبـــــروج * أيـاقـــوتا فى تـــاج
يا لريـــم خديجـــا * زورينى يالحظ الدروج(1)
امولاتى خـــدوج

وخديجة المدغرى — زعيم شعراء الغزل بلا مدافع — لها بهاء وهاج، وهى كنز ربحه وشمس ضحى مشرقة :

اسباب كيتى واهجرتى واكرايحى او تهياجى * ذات لبها الوهاج

---

1) الدروج : الغزال .

سلطانت الريام اغزالى بوسالفين خدوج

شمسـك واضحا * شارقا فى وسط الضحى

والقلب اضحى

ايدوب يا كنز ارباحى * طيبـك نفحـا

وفاطمته راية الكفاح وياقوت الروح :

نصرو رايت لكفـاح * بووجنـات الوضاحـا

والشاما والخال والشفر والغنج الدباح * طامو ياقوت الروح

وزهرته قد الخيزرانة جميلة الاسم وراية النصر وتاج العوارم :

دام الله ابها امحاسن ازهيرو * قد الخزران زينت لاسم زهـرا

وهشومته سلطان كل حسن :

نصرو اسباب غيوانى (I) * سلطـان كـل حسـن

شاما اهشيمتى هشوم من عزها اعليا

وحليمته ذات دلال :

الناس كلها باش اكواونا سباب اعدامى

كى اكويتها مـن عند بودلال احليـم

وزينبه ذهب التذهيب وسلطان المولعات :

انا زكت فيك اذهب التذهيب * اسلطانت الوالعـات زنـوبا

وفروحه همام الخودات :

ياسباب الصد ولكلاح (2) * ياكمال الزهو ولفـراح

يا همام الخودات (3) افروح

وفارحته غصن مائس ومهر شرود :

قولوا لصبغت اللوامـح * ياغصن ايميس فالدواح

يامهـر اشرود افلبطـاح

رفدى ياللا الطايح (4) * بالى سمـاك فارحا

I) الغيوان غير محدد المفهوم ، ويحتمل الغواية والغنى .

2) الكلاح : الضنا .

3) الخودات : الجميلات

4) الطايح : الواقع ، من طاح اذا وقع على الارض ، ورفده انهضه وأقامه.

أما كلثومه فترياق لسقامه وياقوتة في سلسلة مـــن ذهب معروف العيار وشمس تضيء اماكنه لم يستطع عنترة بلوغها بشجاعته وسلاحه :

في كلثوم ترياق لسقامي *

كلثوم كنها ياقوت في سلسلا امن اذهب تشجارو معلوم

كلثوم شمس اضوات فرسامي *

كلثوم ما ادركها عبسي فضخامتو اشجيع اسناحو (I) مقيوم

وللرجراجي « حبيبة » هي مزاح الخاطر وباشت الابكار والبـــدر الساطع وتهليل العز والنصر وتاج الجمال والمحاسن :

نصر الله بهاك يامراح الخاطر * يا توكت لبدر * ياباشت لبكار

اتهليل العز والنصر * تاج الزين ولمحاسن حبيبا

وللشيخ الشاوي راضية هي مصباح دجاه وضياء عينيه ، وهي مالكة له ببهائها المكتمل :

نصرو المالكني مصباح ادجايا * مولاتي لغـــزال راضيـــا

مكمولت لبها اضيـــا عينيا

ولمولاي علي البغدادي خدوج هي روح راحة مهجته :

زوريني ياروح راحت امهاجي * بهـواك ســاكني هـــاج

ام اسوالف ازباجـــا (2) * تستاهل النصر مولاتي خدوج

وللشيخ علال الكحيلي زهرة هي باشت الصوارم والريام :

اباشت لعـوارم خنـــــاري * امعاكشرع الله اعلى كل حال يازهرا

مغـروم بـــك لا أتجفينـــي * ابـــاشت الريـــام ازهـــور

وللفقيه العميري زهور هي تاج بنات الهوى :

هل تعطف بالرضى اسبغت ننجال * مـــولاتي سلطانت الريام

تـــاج ابنات لهوا ازهيرو

ولعبد السلام الجربي محبوبة هي قمر الدارة :

واجـب لي نعـــدار * لا تلوموني في حال لغرام

انـــاسي مـــا بيـــا * غـــير قمـــر الـــدارا

I) يغلب على المغاربة قلب لام السلاح نونا .

2) سوالف ازباجة اى سوداء .

اما مبارك السوسى فله زهرة تفوقت عن عبلة وجازية وكل الابكار :

سلبت عقلي زهرا * ابلبها والحسن المكمول حازت اسرارو

بشمايل لبها فاقت عل لبكار * فاقت عن عبلا او جازيا وامحاسن تبكور

وملكة الغرابلي راية المملكة ومالكة وفي حماية الملك :

أرايت لملكا ياءولاتي المالكا * لك العبد او كــل ما املك

نصرو ملكا احمايت الملــك

وفطومة المكي الصويرى تاج الريام ومصباح المولعات وراحة الروح وزهو الانظار :

نصرو تاج الريام لغزال الطام * عانس (1) الفرج زهو انيامي (2)

مصباح الوالعات راحت روحي فطــوما

وفاطمة عبد الهادى العامرى راية الهمام وزينة الريام و «بودواح» (3)

انا في عار قامتك يا رايت لهمام فاللطام * لوجيب (4) زينت لرسام

رفقي بي اوحن واعطف يابودواح فاطما

وتكاد تشبهها طامو ابن عمر الكفيف :

مدرا (5) اتزور رسمي بوسالف طامو * مــولاتــي لغــزال فاطمــا

بودواح اروامك الزهزاما (6)

وفضيلة مولاى احمد بن عبد السلام العلوى هلال الجمال المكتمل :

روفي ياضي الجالي * ياهلال الزين المكمول

ذات لجمال افضيلا

---

1) العانس البكر الجميلة ، وهي من الكلمات التي استعملت في معاني غير معروفة بها في الفصحى حيث تطلق العانس على المراة التي طال بها المكث في بيت اهلها دون ان تتزوج فخرجت من عداد الابكار .

2) النيام : العيون . 3) الدواح : الخرصة أو الحلق .

4) لعلها الشمس من وجبت الشمس وجوبا اذا غابت او لعلها من وجب القلب وجيبا اذا اضطرب وما نظنها تصغير وجبة بمعنى الصدفة الحسنة .

5) مدرا كلمة للتمني لعل اصلها : من درى او من يدرى او مــن يدريــك .

6) الزهزاما : الغزال ، والروامك : العيون ، وأصلها مــن رمــق اذا نظــر .

ومارية الفلوس مشموم الورد والزهر وسلطان الباهيات :

نصر الله ابهاك يا هلال الدارا ❀ يارايت النصر يا سابغ لشفار

يا مشموم الورد والزهـــــر ❀ سلطـــان الباهيات ولفى مريا

ولعبد الهادى بنانى «زهور» هى تاج العوانس :

كولوا لدواحـــت لزهـــار ❀ تـــاج لعوانس ازهـــور

رفقى ابعاشقك ونعمى بالزورا عل لوكار

وله «فاطمة» هى الغزال ومشموم البنات وجميلة الاسم ومصباح الجمال:

أيا مشموم لبنات لغزال زينت لاسم ❀ جـــد اعـــلى المغـــروم

يا مصباح الزين فاطمـا

وبشىء من التفصيل ، ولكن فى أوصاف عامة ، تناول شعراء الزجـل جمال محبوباتهم على حد ما يعرض لنا الجيلالى امتيرد فى «خدوج» ، فهـــى بديعة الجمال رقيقة الملامح ، وهى فاضلة وعاطفة ، ذات حسن جميل ساطع ، ليست لها مثيلة فى بنات جيلها ، يوافقها خليلها وتوافقه فى طاعة متبادلة :

خدوج ابديعت لجمـال ❀ خدوج ارقيقت لحـــروف

خدوج امنـــارت لفضال ❀ خـــدوج انهايت لعطوف

خـــدوج مالها امثيـــل ❀ فبنـات اليـــوم ابلجميع

اخليلا رايما اخليـــل ❀ طاعا وخليلها امطيـــع

ومثل هذا يقوله ابن سليمان عن خدوجته التى لا يعرف لجمالها شبيها فى أى زمان ومكان :

زينـــك ما هو فعلـوج (1) ❀ ولا هو فمدون او لفلاجى (2)

فاللى امضى او ماجـى ❀ مـا شاهدوا اغنـــاجى (3)

لو صبت ملتقاها بعد التهجيج

---

1) العلوج : الاعجام ، والكلمة واردة فى الفصحى بصيغة علـوج واعلاج جمعا لعلج بكسر العين وتسكين اللام .

2) الفلاجى : البوادى

3) الاغناج : العيون ، والكلمة واردة فى الفصحى غنجا بتسكـين النون وضمها .

وعند المدغرى أن جمال زينبه معروف فى الشرق والغرب ، يشهد لها به البدر والكواكب بل ان ضوء البدر تعجب له فاحتجب :

زينب زينها فالشرق أفالغرب ❊ شاهد لها بدر الدجى واكواكبو
زينك فيه ضى لبدر اتعجب ❊ حتى ادخل امن اغشاه فاحجابو

وتفنن المدغرى فى وصف زهرة فاعتبرها زهوا لذاته ومصباح الفاتنات، حازت البهاء والثبات ، وظهرت شمسا تتجلى بحسنها وتفوق بجمالها عبلة وخناثة ، وفية يزهى بها مزاج حبيبها ، تصول وقد اجتمعت فيها ثلاث خصال هى الحياء والطيبة والظرف . ثم انها تنتسب لاحرار أهل الجود ، فلا غرو أن يراها تاج فاتنات الحضر ومصباح البساتين وقرة عينه وزهرة الورود والرياحين، وسلواه وغاية ما يتنزه فيه أولو النظر الفاهمون :

زهرا زهـــوا للذات ❊ مصبـــاح الخـودات
زهـــرا على لبنـــات ❊ حازت لبهـا واثباتـا
زهرا شمس انبات (I) ❊ بالحســـن اتجـــلات
زهـــرا من عـــدات ❊ زين عبـلا واخناثـــا
زهـــرا من وفـــات ❊ واخلاكـــى زهـــات
زهـــرا بالصـــولات ❊ حازت اوصاف اثلاثـا
لحيا والطيب امع الظرافا من نسب احرار هل الجود الكبرا
زهرا تاج اعوانس لحضـــــر ❊ مصباح لغراسات قرت عينيا
زهرا زهر الـــورد والزهر ❊ والسلوان أغايت لمنازه لهل النظرا

وقريب من هذا ما وصف به الحاج ادريس بن على لحنش ياسمينته ، فهى ياقوتة فريدة يتضاءل أمامها الجوهر والذهب والفضة ، علا شأنها على جميع بنات جنسها وغدت شمس الضحى تستحى من خيالها وتغيب :

انت اجواهرك مكنونا وامعلقا اثنيـــــن
وانت ياقوتا والياقوت اقليل فى امثالـــك
والجوهر الصافـى والـذهب واللجـــين
قدام صورتك تتلاشى واينا ظرو اقبالـــك

I) انبات : ظهرت ، من نبا الشيء نبوة ونباوة اذا برز وارتفع عن الارض .

انت اللى اعلا شانك عل لبنات كامليـــــن

الشمس فالضحى تستحيا واتغيب امن اخيالك

وعنده كذلك حبيبة هى هيفاء ناعمة ، فازت بالهمة والسر والطيبـة والذكاء والظرف والجمال الحقيقى والوقار والهيبة ، يشيب ارؤيتها شبـاب أهل الغرام ، وقصته معها أغرب من كل الغرائب ، لو حكاها للجبال لاندكت:

هيفا اوناعما حازت هما اوسر اوطيبا

والميز والظرافا والزيـن اللى اعلى ترتيبـو

سبحان امن انشاها واكرمها ابلوقروالهيبا

لوشاهدوا بهاها شبان هل لغرام ايشيبـــو

اغربتى امعها عدات اجميـع كل اغريبـــا

لوجيت يا عدولى نحكيها اللجـبال ايريبـو

ويخاطب عائشة بأن بهاءها غير موجود عند سلطان لافى المغرب ولا فى الصين ، وبأن جمالها عربى وأخلاقها حضرية ، وان أى جمال او خلق غير ذلك ليس بشىء :

ابهاك الا هو عند سلطان ولا افغربنا ولا هو فالصين (1)

يزها قلبى بجمال صورتك سبحان امن انشا

والزين الى ما كان زين عربى واخلاك امدينت لحضر ماهوشى

أما بنعيسى الدراز ففاطمته ليست ياقوتة محصنة لا تدرك بقيمة فقط، ولكن مقامها عال رفعه رب السماء ، وهى ليست متفوقة بجمالها على جميع الفاتنات ليس غير ، وانما هى تفرض عليهن الحكم والطاعة فيخدمنها ويقبلن أقدامها . ولكنها رغم الصولة تمتاز باللطف والذكاء والفهم ، يكفى حبيبها أن ينظر اليها ليحس الفوز والنخوة والاكرام ، ثم انها تسبى العقـــــول بكياستها وحسن منطقها . واذا كانت تشغل الاذهان وتحير الالباب ، فانهـا تسلى عند المنادمة وتفرج الكروب :

آياقوتا امحصنا ما تدراك ابقيما ❀ مرفوعـــا فمقــــام

علاه ربى رافع السمـــا

---

1) الصين كناية عن اقصى مكان ، أما الغرب فالمقصود به المغرب .

لك جميع الريام طاعوا بالقهر اخديما * واتقبـــــل لقـدام
واعلى ساير نغياد حاكما

والصول ولملاطفا واعيا قا(I) وافهاما * مــــن شفت المنيــــام
فزت بالنخوا ولمكارما

تسبى لعقول ابلكياس والفاظ احكيما * كتدهـــى لفهـــام
واتسلى فوقات لمنــادما

وينظر الدراز الى زهرة انها ذخيرته وراحة خاطره ومصباح بصره وينبوع كل خير ، تجبر الكسر بجودها الذى يشهد لها بــه الكهـــول والصغار ، وهى عنصر صاف اذا سقت روضا انبت واثمر :

ياراحت لخواطر * يا مصباح لبصار

انت اذخيرتى أينبع الخير * يا جبرت من كان اكسيـــر

ياذا الجود عالج اضرارى * جودك كتحقو كهل واصغار

يا عنصر الصفا من تسقى روضو اسخار (2)

ونا ابغيت روضى يطفح بزهار * بعد زهرو ينعم بثمـــار

وغالبا ما تكون مثل هذه الاوصاف العامة تمهيدا **لرسم صورة المحبوبة مفصلة الاجزاء مكتملة الابعاد** ، لم يترك الشاعر جزءا واحدا مـن جسدها لم يطل النظر اليه ، مبتدئا بشعرها الفـاحم وعينيها الفاترتين ، ومنتهيا الى ساقها الذهبى الممتلىء وخلخاله ، متتبعا ما بين ذلك لم يترك ملمحـا الا توقف عنده ليمعن فى وصفه وتشبيهه .

وقد برز المدغرى فى تقديم لوحات رائعة كهذه التى رسم لطامـو وهنية حيث يبدو المبسم عقدا من الجوهر تصونه الشفاه الحمر ، والقدود مائلة يمنة ويسرة تساير النسيم فى هبوبه ، والشعر مظفرا ومسدلا نفوح نسماته الذكية وقد لمع فيه الياقوت الرفيع ، والغرة لامعة كالبرق أو الهلال او الثريا والنجم ، والحاجبان مقوسين كحرفى نون فى سطـر

I) العياقة : قوة الادراك .

2) اسخر انتج ، ومنه قولهم : «الله ايسخر» فى الدعاء بالتوفيق والنجاح فى عمل من الاعمال .

وقد مالا على عيون ساحرة ذباحة كالسيوف تغطيها اهداب عالية الريش ، والخد في حمرة طبيعية غير مصطنعة بالمساحيق كالوردة يحرسها خـال في لون الغلام ، والانف كزهر السوسان ، والذراعان كسيوف يجمدهـا عنترة يوم الوطيس ، والرقبة تذكر بظبي الفيافي النافر الحذر ، والصدر قطعة من الرخام الصافي برزت فيه تفاحتان ، والبطن يأخذ قلب العاشق في طياته ، والسرة ككاس سالت عنه الخمر ، والافخاذ أعمدة من ذهب في قصور العمالقة واللخميين ومن يفخر بهم من الاقوام ، تعلوها قبة تفوق قباب السعديين ، والسيقان حمراء كلون الجمر شبيهة بقطعة من البلـــور أشعلت فيها شمعة كبيرة ، يسقي من لونها كمـــا سقى ابن الملـــوح دون خمر :

والمبســم جـــوهر فالثغـــر * عقدو مصيون فالشفوف العكريا «1»

واسبابي يوم انظرت لقدود اتميل اتساعف النسيم ايمين وايسار

واسموالـــف واظفـــاير الشعـــر * والياقوت الرفيـــع بنسوم ادكيا

والغرا واجبين لاح فوق الوفر ابرق اهلال والتريا والغرار (2)

والحجبين نونـــين فاسطـــر * عطفو عطفا اعلى السيوف المسقيا

والشفر الدباح بالصوارم واهداب امريشين فوق الغنـــج السحار

والخد العكري ابـــلا اعكـــر * والخال اغلام فوق وردا محضيا (3)

والمعطس سوسان نيل اركوبوا للسلطان عكدو من ذهب التشحار

والضعدين (4) امسيوف تنشكر * عند ابن عبس في انهار المشليـا

والركبا عراض في افيافي مايا من حي مـــا يروم الغاشي حـدار (5)

وانـــوابغ تفـــاح فالصـــدر * والصدر ارخامتو اصفاه امر مريا

---

1) العكرية الحمراء ، ويطلق العكار على مسحوق الوجه وقلم الشفاه.

2) الغرار نجم لامع .

3) محضية اى محروسة وفعلها : احضا ولعل اصلها في الفصحى حظي حظوة عند فلان اذا اصبحت له مكانة عنده .

4) الضعد : العضد (مقلوبة) .

5) الحدار : الغزال ، ومثله العراض ، اما الغاشي فهو الغريب ولعل أصله في الفصحى غشيه غشيانا بكسر الغين اذا جاءه .

والبطن الطاوى اعلى لطاوى يطــوى قلب لعشيق طى الالو تحكــار

والســــرا بالكــاس تنعمــر * والكاس اجرات فى اطرافو حميــا

وافخاد اسوارى امن الذهب فمنازهلعمالق او لخــم اقوم التفخار

صانوها فى قبت النصــــر * ولا توجد فى اقبوب السعديـــا

والساق اسقانى اكم اسقى قيس ابــن املوح مــن دون اعقـار

ساق احمر من واضـــح الجمر * نحكى بلار فيه شمعـا رطليا (I)

ومثل هذه اللوحة يرسمها الحاج ادريس بن على لحنش لحبيبتــه لا يضيف اليها الا بعض اللمسات كتشبيهه القـد بغصن الآس وتصويره ضفائر الشعر ملقاة على الاكتاف تفوح نسمات طيبها كانها تفوح مــن روض السوسان ، ووصفه العيون بفتــور لا يفتر معه تعــذيب العشاق ، وتنوينــه الخد بلــون الفضــة المصقولة بالــذهب ، وتشبيهه الانف بعصفور صغير ، والرقبة بالكافور وعنق الغزال ، واضافته الشنب الى الثغر والخضاب المنقوش الى الكفوف ، واعتباره وجــود التفاح على الصدر فى كل المواسم حكمة عجيبة بالغة .

قدك خزران فى روض ناعم اخصيب *

ولا اغصين من الياس هز النسيم اقطيبــو

واضفاير الشعر عل لكتاف اهوات فى تطييب *

نحكيه فى ارياض السوسان ايلوح فى ترحيبو

وانظرت حاجبين اوشهدت اشفـــاه فى تهذيب *

واعيون فاترا ما يفتــر لعشيقها تعذيبـــو

واخدود لون قلب الفض لشلل ابتذهيب *

وجنا تحت سيف اللحظ الى هدنى تهديبـو

غنجور كطوير يرنى مشروح فى تركيب (2) *

والثغر فيه جوهر منظـــوم امزين تشنيبـو

I) يقال شمعة رطلية او شمع الرطل للشموع الكبيرة ، ولعـــل الصفة مأخوذة من الرطل الذى يعنى فى الفصحى السنا الـــذى يوزن به وكأنهم كنوا به عن ثقلها .

2) التركيب : الترقب ، ويلاحظ ان القاف فى غير المدن =

ركبا اشقيقت الكافور فالتجـراد واستلهيب *

اتقول عراض امشوش خايف امن اطليبـــــو

درعين صافيا وامعاصم واكفوف فى تخضيب *

مكتوب فيه جدول له اجميع لعقـــول اينيبـــو

وارخامت الصدر فيها حكم بالـــغ واعجيب *

طول لفصول تنظر عينك تفاحهـــا واتصيبو

وهكذا تكاد تكون الصورة واحدة عند كل الشعراء لا يختلفون قليـلا الا فى تتبع اجزائها وتلوينها على حد ما نجد عند محمد بن عمر الكفيـف الذى لم ينس ان يرسم الاصابع كالاقلام ، ويشبه النهود بتفاح على قدر قبضة اليد ، والبطن بقماش صاف مرقوم ، والسيقان بسمك الشابل (I) الا انها لم تمس الماء :

اصباع كنهم قلوم
وانهود كتفافح للكمشا راموا
. . .
ابطن امن اقماش صافى مركوم
. . .
وافخاذ كاشوابل فالما لا عاموا

ومن لطيف تقديم اوصاف الحبيبة ما لجأ اليه التهامى المدغرى مـن عكس التشبيه وجعل الاشياء التى اعتاد الشعراء ان يشبهوا بها لتحديـد ملامح المراة ، تسعى فى خصام ومنافسة الى التمثل بهذه الملامح والتشبه بها واعتبارها رباطا جميلا يصلها بالمراة . ولم نجد شاعرا غير المدغرى لجأ الى هذه الطريقة المعكوسة فى وصف المراة ، بل لم نجد له فيها غـير قصيدة واحدة هى التى يقول فى حربتها :

بين الورد والزهر والجلار والظليم والحدارا
والرخام اتفاح اقوس ولمناير خرجوا اعلى عانسى اكحار

بالمغرب ينطق جيما مقلقة كنطق المصريين فى المدن للجيم ، وجـــرت العادة بكتابته كافا بثلاث نقط . اما يرنى فلعلها من رنا فى الفصحى بمعنى أطال النظـر .

I) الشابل نوع من من سمك الانهار كبير الحجم ، لا يظهر فى غير فصل الشتاء . ويعتبر من احسن الانواع واغلاها .

قصدت هذه الاشياء الشاعر لتثبت الشبه الذى يربطها بحبيبتـــه فادعى الورد انه شبيه بخدها ، وادعى الزهر ان شذاه قريب من نسيـــم ثغرها الباسم ، وادعى الجلنار ان لونه كلون شفاهها ووجنتها ، وادعـــى الظليم ان لونه من لون شعرها وضفائرها التى تعدت القار :

وادعى الورد قال الخد اشقيقى اشقيق

وادعا الزهر قال الثغر المبسوم

امن اشداء انسيمو منسوم

جاوب الجلار المفهـــوم

قال بقيـــوم

شفا بريق مختوم

لونى ولونها واحد

والوجنا اشقيقتو بتمارا

شامتو اعليه ايمارا

والظليم ادعا قال الشعر والضفاير

من لونى فاق اعلى القار

وتدخل كوكب الزهرة والبدر المشرق والقوس والمنـــائر فادعـــوا قرابتهم مع غرة حبيبته وجبينها والحـــواجب والعيـــون ، وكذلك المسك ادعى أخوته لخالها العنبرى الطيب :

واكذاك نجمت الزهرا والبدر الشريق

القـــوس ولمناير قالوا غـــرا

ولجبـــين أحاجب بترا

ولعيون اجعاب النحرا

عل العذرا

فقلوب هل الهجـــرا

والمسك فى اجياب الملوك ادعا انجالها بجهارا

طيبت شامت المسرارا

قالت ذاك العنبر هى اختو او ساقو

عن خيتو غايت لكحار

وادعت الغزالة شبه جيدها وزعم التفاح الشبه بنهدها وزعم الموبر(1) شبه اديمه ولونه بصدرها وساقها ، وكـذلك ادعى صارى السفينة شبهه بقـدها :

وادوات قالت الحدارا دون النطيق

الجيد والصدر وكذاك التفـــاح

والموبر شغل الرجـــاح

قـــل يفصاح

قالوا جميع ياصاح

انهود فالصدر اساق لمغيون جهارا

حقـــين على لختيارا

ريت حتى صارى قرصان بانظواهر

فى قدو وقدها احتار

ولم يعجب الحبيبة ان تتسابق هذه الاشياء الى جمالها متخاصمـــــة ومتنافسة فشكتها الى الشاعر متهمة اياها بالزور والبهتان السافرين :

وادوات قالت اصغا ياذا الحبر اللبيق

هاذوا اتخاصموا عن حسنى بجميـع

كلها طمع ابلا تطميع

من ابها خدى حسن ارفيع

دايـــم سطيع

فحماى اطمع ايريـــع

ادعاوا ابلفجـــور

او قالوا من صورتى اداوا ايمارا

شوف لامت القرقـــارا

---

1) القماش الذى يطلق عليه فى مصر القطيفة .

واش شبهوا فى زينى زورهم ظاهر

لامت لبهوت ابلجهار

وأخذ يبحث القضية ويقارن فوجد قدها ناعما والصارى عـــودا يابسا ، ووجد ريش الظليم قصيرا وضوء القمر والنجم يتـــوارى ولا يدوم ، وكذلك ضوء المنائر ، اما جبينها والغرة فنورهما يسطـــع فى كـل وقت وحـــين .

زكيت فى ابهاها وابهاهم للطريق

واجبرت قدها ناعم والصارى

يابس اعلى عود بـــارى

شفت ريش اظليم اصحارى

ابعيـــد شـارى

فاسواق لمشـارى

ريش اقصـــير

ونظـــرت الكمـــرا

اموضحا امـع الغرار

نور زينهم اتـــوارى

ولجبين اغرتها فاقت لمناير

يسطع بالليـل والنهـــار

ونظر الى الحواجب والعيون فوجد رميها أقوى واشد مما ترمى به الاقواس والرماح والسيوف حين تكون فى يد الابطال الشجعان ، وكذلك نظر الى لون خدها فوجده فاق لون الورد :

وانظرت حاجب العذرا واللحظ الرشيق

اجبرتهم يخجل منهم حمرى

امن الرما فالوكدا عذرى

بالرماح اسيف اسقطرى

ابســم يســرى

شدو شجيع دهــرى

ماكيف دكت العين اجوايحها على لعشيق ابارا

بالنشاشب البتــــارا

سلم للوجنا والورد ظل حاير

فى خد اهمامت لبكــــار

ونظر الى المسك والخمر ـ مهما تكن صافية فى البلور ـ فوجدهما من سلع التجار ، اما خالها وشفاهها وريقها ففاقت كل تجارة :

زكيت بالنظر فالمسك أخمر الرحيق

مهما يكون صافى وسط البـــلار

صبتهـــم سلعـا للتجـــار

. . .

الخال والشفايف أريق عانسى المسرارا

فايتـــين كل اتجـــارا

آش جاب البلار أمسك والعواطر

لوصاف اسبيغت الشفـــار

ونظر الى الصدر والنهد والساق فوجدها أصفى من الذهب والفضة ، ووجد الرخام صخرا أصم والتفاح فى الشجر عرضـــة للعب الاطفـــال ، والموبر سلعة عند باعة الحرائر ، أما البطن فمنير فاق كل حرير مشهور :

مكنت فالصدر والنهد ابشوف لحديق

اوساق صبتهـــم زهـوا للنظـــراً

اصفا من العسجـــد والنقـــرا

والرخـــام اجبرتو صخـــرا

اصميـــم حجـــرا

تفـــاح فوق شجـــرا

به الطفال تلعب وموبر فى احوانت الحرارا

بين لامت السمسارا

والبطن فى حسن طيو رفيع ناير

يغلب لحرير مشتهار

ولم يلبث الشاعر بعد هذا البحث المقارن فى المزاعم المقدمة له (1) أن دعا كل اصحابها واتهمهم بالزور والتهجم على حبيبته ، واخبرهم انهم ليسوا غير جوار لها يحق عليهم ان يخجلوا ويكفروا عمـــا صدر عنهم ، ونهاهم عن التخاصم اذ يكفيه أنه يسمع مثل تلك المزاعم عند الشعراء :

وانطقت قلت لهم سمعوا قولى احقيق

نتهـاوا كلكـــم اجميع احشمو

يا صحاب الزور اندموا

لاش عن بوتيت اتهجمـــوا

أكتتشتـــموا

ولوا لا تخـــاصموا

يكفا اللى نسمع من امثلكم كيفها بشطارا

بـــين لامت الشعــرا

ياك لها حسن التقـــويم سر ظاهر

وانتما تحتها اجـــوار

وقد يتحرج شاعر كعبد القادر العلمى من تتبع كل اطراف الجسم ويكتفى بالتشبيب العف الكريم ، يصف فيـــه بعض الملامح الظاهرة لا يتعداها ، وفى نطاق المعروف من الاوصاف والتشبيهات ، يقول مثلا فى البتول وقد شبه قدها براية او شجر كبير :

امثيل قامت شمى رايا قدهـا العالى *

او ابلنـــزا احكيت فالروض المكدول (2)

زلعتنى (3) بشفار امضى من لعوالى *

والحجبين لعطاف والشفر المصقـول

طال عشقى واهواى فى ابها اغزالى *

ذات الحسن لبهيج والزين المكمول

---

1) يلاحظ ان المدغرى لم يتتبع الادعاءات بدقة وغلبت عليه سجيته فاندفع فى الوصف والمقارنة غير ملتزم بها .

2) المكدول من اكدال فى البربرية بمعنى البستان الكبير .

3) زلع : لسـع .

ومن اللطيف ان نجد المحبوبة تطلب من حبيبها ان يصفها على حد ما طلب «المزيان» من العلمي الذى رد بأنه لا حصر لاوصافه :

ليـــا قـــال المـــزيــان * وصف هذا الحسن يالي تهواني

قلت يا ذابـــل لشفـــار * توصـــافـك لا يحصـــار

واكتفى فى الوصف ببعض الملامح الظاهرة على عادته فبدأ بقوله :

ته بجمالك عـــل لقمـار * الشمـــس اتـــغيـــر

الى اتشـــوف زينـــك * لبـــدر من جبينـــك

والبان غار منك

وختم مؤكدا على ضرورة ستر ما عدا ذلك :

والغير ما اتجيبو هدرا (I) ولا عليه تبيين

ويواجه العلمي نفس الطلب من مزيان آخر :

قال المزيان اتصيف لى زيني *

امدح امحاسني كيف ايمدحو ناس لغرام ابدور لحسان

. . .

ولكنه يجيب بنفس الرد ويضيف أن الهلال ونجوم الليل شاهدة بأنه جميـــل :

شيحد (2) اوصافك يالدهيني *

لهلال قلت وانجوم الديجور شهدوا بين انت مزيان

ومثل هذا نجده حتى عند بعض الشعراء الذين لا يتحرجون مـــن الكشف عن المراة ، امثال الحاج ادريس لحنش الذى تطلب منه عائشة أن يصف جمالها فيعبر لها عن عجزه :

قالت لى بوسالفين وصف زيني يا عاشق لمحاسن وانمـا شي (3)

قلت لها مانقو انصيف ذاك الزين اعيشا

اعيشا ما نقدر افلوزان * انصف ذاك لبها وابديع الزين

I) الهدرا : الكلام

2) شيحد اصلها أى شيء يحد .

3) الانماش النقط تكون فى الوجه ، وهى فى الفصحى النمش بفتح النون والميم .

أما شاعر كالفلوس فتطلب منه مارية ان يصفها فيفعل :

لكن يا عاشق لبها وصفني فمناهج اللغا وامواهب لشعار

قلت لها يا طلعت لبدر أمر تعـــمال فيك روحي مسبيـــا

وكذلك تطلب رشيدة فيلبي طلبها :

قالت يا عـــاشق لبها وصـــف زيني افطرز لنشـــاد

ومن براعة بعض الشعراء انهم لا يعرضون **اوصـاف حبيباتهـم فـي** أسلوب مباشر فقط ، وانما يقدمونها لنا كذلك **من خلال مقارنة بين حالهم وحالهن** ، وقد تكون هذه المقابلة بسيطة على حد ما نرى عند بوعمرو فـي « زهرة » حين يقارن بين قلبه المشتعل وقلبها المرتاح ، بين لونه الاصفر الذابل ولونها الباهي الجميل ، بين نومه الطائر من عينيه وبـين نومها المغمض لعينين شبيهتين بعيني مهرة :

مال قلبي يـــرمي بشرار * شاعلا في قلبـــو جمـــرا

مال قلبك ما جاب اخبـــار * واش ما وصلتـك هـــدرا

مال لوني باهت مصفـــار * امن اضوار اعذاب الهجـــرا

مال لونك باهي مســـرار * يالي ما مثلـــك كمرا (1)

مال نومي من عيني طـــار * امن التنهيـــدا والـــزفرا

مال نومك نيـــم لشفـــار * بشفار اعيون المهـــرا

وقد تبلغ المقابلة غاية الحبك والاتقان كما عند المدغري الذى يقدم لنا في حوار رائع يتبادل فيه الشكوى مع حبيبته ، ومن خلال مقارنة بين حال كل منهما ، وصفا لـ «راحة» على لسانها حيث جعلها تصف نفسهـا في ردها على شكواه . فاذا شكا جمر نار قلبه ذكرت له جمر خدودها ، واذا شكا سواد الليل وطوله ذكرت له شعرها الاسود الطـــويل ، واذا شكا سيوف الهوى ذكرت له سيوف عينيها ، واذا شكا قلائد دموعه الهطالة، ذكرت له قلائد جيدها ، واذا شكا هموم صدره الظاهرة ذكرت له التفاح الناتىء في صدرها ، واذا شكا نحوله ذكرت نحول خصرها ، واذا شكا ثقل

---

1) الكمرة : القمر .

حمله ذكرت له ثقل وركها ، واذا شكا غرقه في بحـــر حبها ذكــرت له سيقانها السابحة كسمك الشابل ، واذا شكا قيود هواه ، ذكرت لـــه خلخال رجلها الصياح :

امنين اشكيت اجمارى قالت لبدر حتى جمرى لاح
فـــوق اخدودى لحلاح (1) * زاد تلحـــاحـــى
نار قلبك واخدودى ما تزول لحـــلاحـــا
الى شكيت اكحال الليل الطويل قالت زين الدواح
حتى نادون امـزاح * ليلـت اشبـــاحـــى
من اشعور السالف اكحـــل اطويل فجبـــاحا
الى شكيت اسيوف اهوايا اتقول حتى نا عل لكفاح
عندى سيفين اوقاح * غـــايت اســلاحـــى
فـــوق خدى تدمى بهـــدابها الجـــراحـــا
الى شكيت اقلايد وادموع هاطل بالدمع الكفـاح (2)
قالت راحت لرواح * صيـــغ تـــوضاحـــى
شوف حتى نا فاللـب اقـــلايدو امـــراحا
الى اشكيت اغدايد صدرى الناتك ووقوفى لحـلاح
قالت نهدى تفاح * لاح وضـــــاحـــــى
واقف امبنـــد (3) شف اغدايــدو الطفـــاحـــا
. . .
الى شكيت انحولى تشكى انحول ذاك الخصر افلوشاح
واتقبـل يارجـاح * تيـــه ومـــزاحـــى
دابداك اولا صايب امـــن اقيومها راحـــا
الى شكيت اتقال احمولى اتقول وركى فاق ابترجاح
عمر لقميص او داح * افهمـــت اطـــراحـــى
اخلاكك اوركى من تقل الحمول نضاحـــا
. . .

1) لحلاح : ملتهب .
2) الكفاح : السائل المنهمر ، ومنه كفح الماء اذا اهرقه .
3) امبند : بارز ، ولعل أصله في الفصحى من البند بمعنى العلم .

الى اشكيت اغروقى فبحور حبها قالت لى يا صاح

عندى شابل سباح * فالبحـر ضـاحـى

دايم احشاك أساكى فاللجـوج سبـاحا

الى شكيت اقيود اهوايا اتقول اسمع الخلخالى صاح

كيف اكيودك صياح * قـال يـالاحـى

اسوا لكيودك واسوايا فالنغـام صيـاحا

ومثل هذا نجده عند عبد الرحمن بن الفقيه المراكشى الذى يبـدأ شكواه لخديجة بقوله :

اشكيت لها من طول اشكايتى اللبدور افداجى

قالت انظر شعرى كحل اطويل وابدور اسريجا

واذا كان جسم المرأة فى القصائد التى تصف الجمال يبدو مجردا عن اى تزيين مضاف ، فان الشاعر الشعبى فى القصائد التى اطلق عليها اسم «الحجام» والتى وصف فيها حفـلات **الوشم ، زيـن جسم المحبوبة بألوان من الصور والرسوم** تمثل حيوانات واسلحة وابطالا وبساتـين وخياما وهوادج وغيرها مما يوحى بالتعبير عما يكن من عواطف الحـب وما يحس من آلام الفراق وما يتمنى من سعادة اللقاء ، وكأنه يرمز بوشم هذه الاشياء الى مختلف حالات المحب والمحبوب ، فالغزلان للهجر والنفور، والخيول والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للحظـات الوصال ، وهكذا تبدو مخيلة الشاعر ذهبت بعيدا فى تامل أحوال المحب المختلفـة .

فهذا ابن على العمرانى يخاطب الحجام ويطلب منه أن يختار للبياض الوشم المناسب ، وان يرسم بين حواجبها خمسة الكـف لترد نظـرات الحاسدين ، وعلى خدها خالا كالنون المتصل بنقطه ، وفى صدرها وحوشا عظيمة وخيولا ملجمة واغراسا لاشجار الفواكه وطيورا متـرنمة وبسطا وقصورا من الخزف تكون أبوابها من الرخام تفرش بأرائـك الحريـر والزرابى واسرة النوم ، تضىء ذلك كله شموع يخسف الهلال لضوئها :

شوف اللبياض اوناسب اوشامو *

بين لحواجب اعمل خمسا تلقى الا ايبارك فيها وايشوف

شوف الورد الوجنات فكمامو *

وفخدها اعمل خال اوشاما نون متصل بالنقط معروف

. . .

فصدرها دير (I) اوحوش يعظامو *

لرخام ولفيال وعنقات وما ايعمر المخلوات ولطروف

. . .

فصدرها دير اخيول قيامو

لولا اللجامات ايطيروا لكن كلها بلجامو ملقوف

. . .

فصدرها دير اغراس تنعامو

لوزات بين شي جوزات وخوخات والنكاص ابنسمات ايروف

دير التفاح ايفوح بنسامو

ولمزح وصفرجل متضلل بينهم ضل الا هو مسقوف

فصدرها دير اطيار ترنامو

دير العصفور افصيح لكلام

دير البوح اللى باح بكتامو

فصدرها دير ابساط لمرامو *

من لبديع ابنى اقصور امن الرخام رامت له ادفوف (2)

دير افراشات احرير فرسامو

الحوف والزرابى دير اخوامى امعروجا واتسارح واقطوف (3)

دير النمسيات (4) لمنامو

ديما اقليل نوم العاشق من حرما القاه امنامو مخطوف

دير اشماع للداج واظلامو

اشمعت ايلا قابلها لهلال امن اضياها يضحى مخسوف

I) دير امر دار اى عمل .

2) الدفوف والدفيف ج : دفة وهى الباب .

3) اللحوف ج لحاف وهى متكــآت محشوة بالصوف تعتبر أساس أثاث البيت المغربى ، اما الخوامى فجمع خامية وهى الستارة ، واما التسارح فما يسرح فوق اللحوف ويطلق عليها .

4) الناموسيات : الاسرة .

ومثل هذا نجده عند الشيخ محمد بن موسى فى حجامه الـــذى يقول فيه :

أحجام لغزال ولفى لوجيب للا الطام ⁕ فصدرها نيل لوشام

واعمل بين النهود عرص واركمها غـــايت التركيم

ويوصى ابن على حجام محبوبته بان يعنى بآلاته وأدواته من منديل مرقوم وطاس مذهب ومشارط أحد من السيوف مصونة فى اغشية رومية ومناشف للتجفيف :

معونك يا حجام فقوامو ⁕

للناس انوصفو فالميات البالغين من لبلاغ موصوف

منديلك من القماش تركامو *

الزردخان ما يشبه ليه او بنهم من كل امثال اصنوف

طاسك حتى سوام ما سامو *

من خالص الذهب يا حجام اولا ايخلصوه (I) اعداك ابمصروف

وامشارط بالخزنات ينقامو *

وامنبتين بتقات الاكيفو انقات وافرغ من كل اسيوف

واغشاهم رومى صان فروامو *

واجفانف لبحر منزولا تحساب من البحر اللى مكفوف

دادى يوصى الحجام ان يكون منتبها حتى لا يؤلم الحبيبة :

يا حجام اوشم للزين * كن عايق فايق فالحين

رطب يدك لا تقصح اغزالى (2) بودواح

أما المدغرى فيغضب لعدم حضور العملية وعدم استشارة الحجام له فيما رسم ويدعوه للقاضى ولكن تتدخل المحبوبـــة وتطلب منــه ان يسامحــه :

وجابك يا حجام لغزاله *

لله باش من موجب اجرحت الباهيا طاهو بوخلخال

I) ايخلص مضارع خلص الشىء اذا دفع ثمنه .

2) قصح : ألـــم .

لو كان كنت حاضر ما تمنع لى *

كيف تجرح زهوت نجلى * يالحجام وتفلت لى

. . .

هذى اكزايت اللى مثلك يدعى افلمسايل من غير اشوار *

اجى بلا اخفا للقاضى مداعيين

قالت المختار اسمح لو ...

وارضيت الحجام بريال من بعد ما اسمحت افحقى مهما اسمعت رغبت دابل لشفار

ومثل قصائد الحجام قصائد الفصادة ، وهى التى تصور الحفلات التى كانت تقام لاخراج الدم حيث تحضر الحسان متزينات على حد ما يقول امتيرد :

آش را (I) من لا احضر امع اوجوه لريام *

يوم حنطـو فثياب العـز اللفصادا

ريت ذاك الدم الوردى ابشوف لنيام *

زنجفور افبـلار اصفا من لعقـادا

ويحاول ان يقارن بين جراح الحبيبة وقد فصدت ، والجراح التى أحسها الحجام فى قلبه وهو يفصد :

اجرح الحجام وانجرح من غير اجراح *

عدات جراحهـم فالقلب اجراحـو

هما تجراحهم اهطـل ادمـاه ساح *

اهو فالضمير دكـات ارماحـو

اما المدغرى فيجعل الحجام ترتعد يده لرؤية ذراع الحبيبة ويفقد وعيه لجمالها :

امنين شاف الدرعين اترعد ايدو غاب من زينت الخدادا

لمعلم عاد فشدا * ما قدر عنهم يتعدا

بـه فاقـوا لعوانس وتنهـدوا

I) آش را أصلها اى شيء رأى ويقصد بها الاستفهام الانكارى .

له قالت وحدا وحدا * مهل اعلى ديك الخودا

لا اتشـوف العينـين اللى ايحكـدو

ومثل هذه المناسبات تكون فى أيام الربيع ، وتقام فى البساتين ، وتستعد لها الحسان يبرزن فى اجمل الحلى وافخر الثياب ، يقول فضول المرنيسى :

اواه يامنـين اتجمعـوا لريـام * فى ازمان النوار (1) وانواو الفصادا

. . .

لبسوا من الديام(2)انواع الحجان * فى ارياض امحتفـل مزيان

كيف راحوا ما بين اغصان

حازوا الريام اشمايل الظوافا وحروف الزين *

كل اغزال تقطف فالنوار ايسار ويمين

ثانيـا : المحب

يعانى الشاعر من حب هذا الجمال **الوانا من الآلام والاضرار لا تنقطع منها شكواه .** وقد سبق ان رأينا عند بوعمرو والمدغرى وعبد الرحمن بـن الفقيه مقارنات بين حال المحب والمحبوب كشفت عن أسقـام الاول وأوصاف الثانى ، ونريد ان نضيف اليها مقابلات أخـرى محصورة فى نطاق معـاناة المحب وعدم مبالاة المحبوبة على حد ما نجد عند المدغـرى فى مقارنة بـين سلوها وهنائها فى مراكش واغترابه وانشغال باله ، بين انطلاقها فى سرور دائم والتهابه على الجمر حزينا باكيا سجينا مريضـا لا يجد طبيبا يعـالجه ، بين نومها الطيب الهادىء وسهره الدائم فى رعى النجوم ، بين قـوتها اللذيذ وقوته المر ، بين زهوها فى صحة ونشاط ، ووهن عظمه ومزاجه :

انت امسليا فالبهجا ونا غريب لوطانى * مفـروق عمـن ابغانى

انت مهنى ونا بك اجوارحى تشطنو (3)

انت اعلى اسرورك ونا فوق اللهيب مكوانى * نصلى ابدمعت اعيـانى

انت معافى وناقلبى فى اكياد (4) سجنو

1) ازمان النوار كناية عن فصل الربيع .
2) الديام الثياب واصلها فى الفصحى الاديم .
3) اتشطنو اجوارحو فهى مشطونة اى مشغولة ومهمومة .
4) اكياد : قيود .

انت اعلى الزهو والفرجا ونا مريض لكنانى * ولا اطبيب دوانـــى

انت ازيان حالك ونا حـــالى ازداد حزنو

انت افطيب نومك ونا نرعى انجوم ديجانى * مارام نوم لجفانى

انت امسكنا ونابك ادواخلى اتسكنو

انت الذاذ قوتك وناقوتى امرار بمحانى * حتى اشفاو عديانى

انت امخنترا ونا عظمى ولخلاك وهنـو

ومثل هذا يخاطب به طامو :

ما لجفنى ساهر طول البهيم * مال جفنـــك فسوور امقيما

مال خدى ساقط ورقو اسقيم * مال خدك فغـــراح انعيما

مال حالى ناحل فانى اهميم * مال حالـــك فنزايه ديما

مال كبدى منهجراك حالجحيم * مال كبدك كاسى ياريمـــا

واذا تركنا مثل هذه المقارنات ــ وسنعود الى نوع آخر منها بعد قليل ــ فانا نجد الشعراء عبروا مباشرة عما يقاسون من اهوال الحب ، فابن سليمان يشكو السهر والقلق ونار خدوج وسلطانها الذى سل عليـــه الحسام فأحس بالفالج يشله :

نارك فالقلب اتروج

واخيالى ما يخفاك عن امهاجى

سهران طول داجى

واعييت (1) مانراجى

اهواك صاك لى سلطان احريج

زادنى فالخاطر تهجيج

سال احسامو للتوديج

سرت مفلوج من زينها المفلوج (2)

والشاوى يشكو بدوره من خدوج ان طرفها رماه بسهم سام ، ويطلب الناس ان يكلموها لتعالجه :

---

1) اعييت اى اعيانى .

2) مفلوج الاولى من الفالج والثانية من فلج الأسنان .

جمرى من لهوا مسروج (1) * والحب ياعدو لى ارمى لى وسط لمهاج

حربا مسموما حر سنها وداج

. . .

قولوا اللا خــدوج * روفى اعلى العشيق المجروح من لغناج

ابقى مسكين اينوح ما ظفر بعلاج

والمكى الصويرى هجم عليه سلطان حب فطومة بطغيان وأبطال زعماء فتركه نحيلا يبكى ذاته السقيمة وحاله المذموم :

سلطان الحب صاك ببطال ازعام * ما قصد دونى راد اللطام

وناحالى انحيل ذاتى معدومـــا

والحب اطغى واتركنى يافوهام * كانفرد عن طول ايام

لا حالا اتشابه الحالى حالا مدموما

والمحب كما عند امتيرد فى «بحر الهوى» اصم وابكم واعمى ، نحيل سقيم لا دواء لدائه ، يختلط عليه الليل والنهار ويضيق به الفضاء الواسع :

مولاه اخريس اللسان واعمى من بصر الماحو *

زيزون اطرش ما يلو اسمع (2)

تراه افلوقات افقه ادجاه امن اصبحو *

ترابه ايضيق لوسع

ناحل ساقم ساخف (3) لعضا من تمكين اجراحو *

ما رامو فالدوايا اربع (4)

وهو كما يصوره عبد السلام الجربى فى «قمر الدارة» فى محنة دائمة

---

1) مسروج : مشتعل .

2) هذا تكرار من الشاعر لان الزيزون هو الاخرس وقد ذكره . اما الاطرش وهو الضعيف السمع ، فهو كذلـــك فى الفصحى اذ الطـرش بفتحتين الصمم القليل .

3) ساخف اى مرتخى ومغشى عليه .

4) اربع تحوير لربيع اقتضتـــــه القافية ، والمقصود به العشب (للدواء) .

نحيل فان نواح ، دموعه منهمرة كالسواقي ونيران قلبـــه هائجة ملتهبة ، عليل لا يجد علاجا لجسمه المنهك ، وقد بدا غير قادر على تحمل الحب او على مواساة نفسه بغير البكاء ، بل انه لم يجد طبيبا لدائه العضال :

. . .

ونانحيل فانـــي

غير نرتي وادموع العين حايفا (1)

من فوق الوجنات ساجفا

نعنى لســـواقي

وهيجت نيران اشواقي

اولا اوجدت الداياراقي

اعجز طبي والجسم صار امهبي

. . .

ونامالي مكدار على لهوا ياناسي

ولا اعرفت انواسي

بالبكا اجرحت احساسي

لا اطبيب ايبرى كيتي امخالفا

. . .

ويشبه العلمي حاله المتقلب في « المزيان » بسفينة تتقاذفها الامواج وكأنها طائر مكسور الجناح :

مثلي امع لغرام اسفين ما بين موج

موجا تلوحها موجا ترفدها

ولا اقدر رايسها يرصدها

غاديا فالبحر وحـــدها

اعلى جهـــدهـــا

مثل الطير اللي اجناحو واتي

ولا اشفق من تمراتي (2)

---

1) حـــايفة : نازلة . 2) التمرات : المحنة والعذاب .

اما المدغري فيشبه نفسه في «البتول» بقمري سكران فارق طير جنسه ، واسير قيده نصراني لا يمل من الجفاء ، وطفل فطم قبل الاوان يفوق نواحه نواح جميع الاطفال :

نحكي قمري اعلى اسطاحو سكران ايظل حالت الى مشمول
فارق طير اعليه ما نـــزل
ولا شي ميسور في اكبالو واحل والي اميسرو ليس ايطول
نصراني فجفـــاه ما ايمـــل
ولا صبي اصغير قبل احليبو مفطوم عـــن انهود معـــزول
تنـــواحي ما نوحو اطفـــال

لهذا فان هواه عنيف لو حكاه للحجر لتكلم ودعا له بالشفاء وعذر حاله وقدر قصته التي فاقت كل قصة ، او للغراب لشاب واصفر لونـــه وجرت مدامعه وبكت عليه أمة الطير ، او لجبل رضـــوى لاغمي عليه وذاب وغدا بحرا هائج الامواج :

لو عدت اهوايا اعلى الحجر يتكلم وايقول لي الله ايشافـــي لضرار
حالك من حال الي اينعدر * عدات اقصيتك اعلى كـــل اقصيا
لو عدت اهوايا اعلى الغراب ايشيب اتبكي اعلى امشيبو لامت لطيار
ويولي في حالتو صفـــر * يرقان المدامعو مـــن الوجد اسخيا
لو عدت اهوايا على جبل رضوى يسخف ويضحى ايدوب ابصحت لخبار
ويولي بشكايتي ابحر * موجو طوفان ما تسلكـــو بحريا

ويعتبر بهذا حاله كقيس ويدعو الناس الى رؤية صورة ابن الملوح مجسمة فيه :

هذا هو قيس يالي ما شافو أجي اتشوف قيس ابعينك ما صار
قيس اغبر في ساير الدهر * ونا بعـــد افناتني لهواويا

ومن لطيف الشكوى ما قدم عبد الرحمن القري المراكشي متألما من النيه والضنا والشغف والهيام حيث اعتبرها ملوكا للعشق استغلت غيـــاب حبيبته « زهرة » لتستقر سهاما في قلبـــه بعد أن قسمته بالقرعة ديـــارا

ومنازل ، حيث نصبت الخيام ودقت الطبول وصوتت الرعـــود فسالت جفونه مدرارا :

ملوك العشق اتمكنوا فقلبى جعلوه اقرار

عاد انزل التيه والضنا والشغف الهيام كلها الزم اقرارو

عن لسهام ابقرعت الصبابا قسموه اديـــار

نصبو لخيام ازامت الطبول ازكلمت ارعود هل جفنى مدرارو

وعظم الامر عليه وسعى الى الطبيب فأشار عليه بعلاج وحيد هـــو وصال المحبوبة ، وارسل لها فرقت لحاله وحضرت ، فرفع اليها دعـوى ضد هذه السهام انها جارت عليه وتكتلت ضده :

لك ادعيت التيهان والضنا والشغف الهيام لبلهوا عنى جارو

اتحموا على افغبتك يا زهرت لزهـــار

ولكن السهام حاولت الدفاع عن نفسها فردت لتكشف عن حالها ، وهى فى الواقع تتحدث بلسان حال المحب اذ جعلها تنطق بمـــا يحس وتعبر عما يكن . تقدم السهم الاول فشكا شر سلطان التيه يعظم حـــين تغيب ، ورجاهاان تسكن لواعجه وتفك اسره وتعالجه بعطفها من الاسقام:

وابغيتك يازهرا اتشاهدى سلطان التيهان حين يعظم بشرارو

وقت ما غبت كيـــزيد بعد اللعات اشحـــار

. . .

وابغيتك يازهرا اتسكنى رعدى واتفكى اجوارحى من تيسارو (I)

واتدونى ابمدت لعطـــف تنج مـــن لضـــرار

فأجابته زهرة بان التائه فى حسنها ينبغى أن يساعد ويـــلاين ، والا يعتبر نفسه متعب الفكر ، وبان طالب العطف والوصال ناج ، وان من شكا لنغالب ظهر حقه ، وان العاشق الذى لا يبحث عن دوائـــه ليس جديـرا بالعشـــق :

وادوات ازهور قالت الذى تاه ابحسنى لا يظن فالتعب افكارو

يسعـــف غرض التيهـــان كـــان لاموا حالو يعـدار

I) التيسار : الاسر ، وفعله يسر

من طلب العطف انجا اومن اشكا للغالب حقو ايبان واضح تشهارو

من لا يبحث فدواه ما يلـــو فالعشـــــق افتخار

وتقدم السهم الثاني يشكو في كدر وحسرة ما اصابه من الضنا بعـــد أن انقضت لحظات البروز والسرور ، ويأمل ان تعجل له بعلاج ناجـــع ينقطع به السهر ومراقبة الطيف وتكف به الدموع المتهاطلة كالامطار تسقى اقحوان الخدود :

زاد السهم الثـاني افحسرا * شاكي امن الضنا متكدر تكدير
قال أزهـــرا بعد لمبـــارا * واسوايع الزهو وليت افتحسير
راشف من خمر اضناك غمرا * نبغي اتبادري لي بعلاج اجدير

وابغيتك يازهرا اتمهلي عن صور الدمع لغزير هامع بمطار

غرس الكحوان اعلى الخـــدود واسقـــاه امن المدرار

وابغيتك يازهرا اتنولى عطفك لي فالدجا امواقب غرارو

هاجر لهجـــوع الطيـــف صورتـــك متشخص لبصـــار

فأجابته زهرة بأن من واجه ضنا القد والشعر الاسود وسهام العيون وغرة الجبين الساطع فان تقبيل الخد يوافقه علاجا يريح أعضاءه ويزيـــل كـــدره :

قالت زهرا من صادف الضنا بين القد اتيت ليل غاسق تعكارو

واسهـــام العين اغرت الجبين الساطـــع بنـــوار

تقبيل الخد اوافقو ايلا عظم اضناه طردوا من اصميم اسيارو

اصيب الـــراح فـــي اعضاه يرتاح مـــن التكدار

وتقدم السهم الثالث شاكيا نار الشغاف التي تذيب جسمه شر اذابة، ثم لا يلبث بعد احتراقه ان يجد الثلج يحيط به والزمهرير ، ويطلب منها أن تعالجه باطفاء جمره وتبريد جسمه :

والسهـــم الثـــالث دون فتـــرا * زاد اشكا امن الشغف ابقول اجهير
قال ازهـــرا نارو الزافـــرا * بها ايذوب جسمي تدواب اشرير
بعد ايولي فالنار قاتـــرا * يلقى الثلج حايط به وزمهريـــر

وابغيتك يا زهرا اتعالجي من ولى مثل لحديد مهلي فجمارو

والثلج احذاه (I) ايلا القى من الشغـــف تبـــرد اجمارو

I) احداه بجانبه ولعل اصلها فى الفصحى حذا حذوه .

فاجابته زهرة بان من طغى عليه الشغف واسره وجعله يشكـــو الاضرار لا بد واجد علاجه فى خمر الثغر :

قالت لوجيبا امن اطغا عليه الشغف اجعلوا يسير واشكا بضرارو

لا بد اعلاجو مـــا يكون فمصـــالى من لثغـــار

وتقدم السهم الرابع فى النهاية فرجاها ان تؤمنه حتى لا يفتك به الهيام عقابا له بعد ان شكاه ، وهو غير قادر على مواجهته :

وابغيتك يازهرا اتأمنى خوفى من فتكو امناين افشيت اسرارو

لا ايعقبنـــى بعـــد السكون ونـــا مالى مكـدار

وكان جوابها أن أمرت بنصرة الشاكين :

وادوات المحبوبا او آمرت اسهام الشكيا ابود لعطف ينصارو

كل سهم انظرتو ابعين لعطف سرا واجهار

وكانت النتيجة ان اسر امير العطف ملوك العشق وانتصر على ارباب أهل الجور ، فلم يعد للتيه والضنا والسقم والهيام اى وجود وزال عن القلب همه وكدره :

جاوا ارباب هل الجور عند زهرا طلبوها افلمكار يبقى تكدارو

فى قلبى حاربهم مير لعطـــف بوفـــق لمـــزار

ملوك العشق اضحاوا يسرا * فسنسل لعطف يسرهم امزارو

ما باقى للتيه جـــرا * وكذلك الضنا متضمحل اثارو

والشغف اجنودو افكســرا * جند لهيام كاشف لعطف عيارو

. . .

زالت عن قلبى الكشرا (1) * فبساط سلطنى اضخام فى تسوارو

ولم يكتف الشاعر الشعبى فى التعبير عن حاله بمقارنته بحـال محبوبته او عرضه فى نوع من الشكوى وانما لجأ الى لون طريـف مـن المقابلة جعله يدخل فى حوار رائع مع بعض الاشياء الاليفـة لديه على حد ما تجد عند امتيرد فى « الشمعة » التى يقول فى حربتها ، مستفسرا عـن سبب نواحها :

---

1) الكشرا : الغمة .

لله يالشمعا كرى واعلاش د النواح والناس افلفراح

وانت اجواهر ادموع ابكـــاك الـلا اهطيـــلا

وعلى حد ما نجد كذلك عند محمد بن الوليد فى شمعته مستفسرا عن نفس السبب :

واعلاش يالشمعا تبكى مالك * عدلى واشنو اسباب ابكاك

ونقف قليلا عند شمعة ابن على العمرانى التى يقول فى حربتها :

لله بالشمعا سلتك،رديلى اسؤالى * واشبك (I) فالليالى تبكى مادالك اشعيلا

فهو يطلب منها أن تخبره بحقيقة أمرها مؤكدا لها أن أمره أعظم واخطر :

ليا دون اخفا اشكى ابما فدخالك واحكى قصتك نصغى لك

وناقصتى بها نتعداك

وقبل أن يتركها ترد على سؤاله يفترض أنها تبكى من نار أو سقم أو فراق ، ويقارن بينه وبينها مبينا أن نار قلبه فاقت كل نار فى جسمه العليل، وأنه ورث سقمه من قيس بعد أن أفناه سقم حب ليلى ، وأنه مفروق عن حبيبته صابر على الفراق . ويتساءل عن سر حالها ما دامت لم تفارق خليلا أو خليلة:

اذا باكيا من نارك نيران فى ادخـــالى

عدات كل نار افذاتى واجوارحى اعليـــلا

ويذا باكيا بسقامك شوفى اسقام حالى

من قيس وارثو بعد افناء اسقام حب ليلى

ويذا باكيا بفراقك مفروق عن اوصالى

واعلى لفراق صابر شيصبرنى اعلى لعقيلا

ونت امنين جاك احكى لى اللولى والتالـــى

ما فارقا اخليل ابحالى ما فارقا اخليـــلا

وتجيبه بأنها كانت فى الاصل نحلة تصول فى مملكتها محجبة لا تخرج الا فى أيام الربيع لقطف الزهور ، ولكنها هوجمت فى عقر دارها ، وأخذت للمعصرة حيث صفيت ليتخذ شهدها قوتا ودواء ، وليلف شمعها على فتيل ويوضع على حسكة (2) ويشعل ليلقىعليها قطراته ودموعه . ولكن الشاعر

I) واشبك : أصلها اى شىء بك . 2) الحسكة : الشمعدان

يصبرها بانها ان فارقت مملكتها وبنات جنسها فهى فى صحبة قوم آخرين أفاضل ، حيث تسهر مع أهل المال والعشاق وفى مجالس العلم وبيوت الله . وتضطر الشمعة فى الاخير الى الاعتراف بأن ما تقاسيه من نار ليس غير عشر ما يحسه ، وأن قصتها ليست سوى احدى قصص عشقه وهواه :

صبرنى يا حبر اللغا بشعارك　　　ليا ايخبروا بخبارك

يدريه امن ايكون اسوايا واسواك

نارى نحكيها كم لعشور افنارك　　　واسرارى اتجى لسرارك

قصا امن اقصيص عشقك واهواك

وكما توجه المحب الى الشمعة فكذلك توجه الى الحمام ليبثه شكـــواه مما قاسى من الجفاء ومن هجر المحبوبة لرسمه بعد أن نصبت لها الشباك ، كما نصبت لانثى الحمام . ويسأل الرسم فلا يجيب فينسكب دمعه لان كل حبيب يزوره محبوبه الا هو والحمام فانهما لا ينعمان بهذه الزيارة . يقول ابن سليمان مخاطبا حمامه بهذا الكلام :

قرب نحكى لك يا حمام اعلى ما قاسيت بالجفا

كيف اجرى لك هكذا أجرى لى نعتاد الطير ما يروم الغيرو خواف

نصبو ليه الشبكات عديانى كانت فيه حالفا

ونابهم كنت ما نبالى مايحصل عندهم لولا صادفوه اصداف

طيرى ما هو طماع غير الوعد الغلاب ما اعفا

خلى رسمى ياحمام كيف اخلات النتا ارسامك بعـد التـولاف

سولت المرسم لا اخبار اعطانى والدمع ساكفا

بالتغواد ايقسم الليالى غير انا يا حمام ونت فى ذا التشغاف

راكل احبيب ايجيه محبوبو ويزورو عل لوفا

وايبات افراحا اسليم سالى فاش ايجيه الرقيب لودار الفشواف

وقريب من هذا ما نجده عند ابن على الذى وجد المرسم خاليا مـــــن المحبوبة فقال :

جيتك يا رسم الباهيات صبتك خالى مهجور

سكانك جابونى انزورهم لله وايـــن ساروا

واعطنى لخبار

ومثله الكندوز الذى يقول فى مرسمه :

جيتك يا رسم الباهيات صبتك حاجب لبدور

حجبهم عني او شوقهم زاد القلبـــى نارو

مكوانـى صبـار

واذا كان ابن سليمان قد قابل بين حاله وحال الحمام فان ابن على أدخل المرسم فى المقارنة فجعل يبكى على الشمعة يقول :

أنا والمرسم يا حمام ثالثنا فالزهـو انـت

المرسم يبكى اعلى الشمعاوانت تبكى اعلى النتاونا عل لغـزال

فقد ألف المرسم الشمعة وظنها لا تغيب ينظر الى ضوئها كلما حضر المحبوب ، وألف الحمام أنثاه كما ألف المحب حبيبته فى رسم لا يطأه أحـــد غير هذه المجموعة الاليفة وغير القدر المحتوم ، والفراق الذى شتت شملها وتركها فى حال يبكى له الجماد كما بكى لسرورها الاعداء والعذال :

والفت المرسم يا حمام الشمع تحساب نابتـــا

وقت ما تاك لغـزال اضياهـا شعــــال

ونت تتنعم كيف تتنعم لعقـــول المحدثا

والفت انتاتك كيف والفت انا لجمـــال

فى رسم امعظم ما اوطاوا اوطانو خيل لعت اعتا (1)

غيرانـــا وانت والنتا والشمع ولغزال

والوعد امحكم ولفراق اللى غيرنا امثالثـــا

كيفى كيفك ياحمام كيف المرسم فالحـــال

لنايبكى الصم ونقصا وانبكيو اللى صامتا

كيف ابكاوا اعلى اسرورنا لعدا والعذال

ومع كل ما يعاني المحب من آلام ، فهو لا يتردد فى **تقديم الطاعة عبـدا مملوكا لمحبوبته** عساها أن تكون راضية عنه . فامتيرد يرى الطاعة أمرا واجبا فى الغرام فيخاطب فاطمة بمثل هذا القول :

---

1) خيل لعتا اعتا : لعل المقصود بها العاتية

طاعتك لازم عنى واجبا افلغرام

وابن علي يتساءل عما اذا كانت ستقبله زينب مملوكا لها يلازم الباب :

يا ترى تقبلنى مملوك لازم الباب

والمدغرى يتعلق بحرم فاطمة ويرجو ألا ترفضه خادما وعبدا على الطاعة:

زاوك افحرمك قبلينى اخديم الال طيما اعبيد اعلى الطاعا يا طيما

وهو يشهد الناس أنه غلام أم كلثوم دون ما بيع أو شراء ، لا يرى فى ذلك أى لوم :

شهدوا باين وديت فختامى أنا اغلام كلثوم دون البيع والشرا مافيهاشى لوم

وهو فى «لعشيق ديما ينغلب» مملوك يخدم ركاب سيده يشير أمامه ان ركب عارفا بشروط الركب وآدابه :

مملوك سرت نخدم من تحت اركابو سابق كدامو ايلا اركـب

حافظ فضميرى اشروط الركبا

والعلمي يتمنى لو أن المزيان يبادله نفس الحب حتى تتساوى العواطف ويرتاح من الجفاء مقابل مضاعفة الطاعة والخدمة دون ما تقصير :

لو كان اكما نبغيك تبغينى تنقاد (1) لحبا تسخر للجانبين سر الصدق الامان

انتيا من لجفا اتهنينى * ونا انزيد فالخدما والطاعا اولا اتشاهد منى نقصان

والمزيان بدوره يوصى محبه أن يصبر على جفاء كاسبه وسلطانه وأن يخضع ويركع بين يديه ويتأدب لجمال صورته فى همة وشان ، وهو بعد هذا لا يريد مالا أو غنى وانما الطاعة ، وهى فى امكانه :

تصبر لجفاى ايلا اعشقتينى *

عشاق لبها مكسوب للمليح ابلقهر ولبها سلطان

واخضع بين ايدى واهدينى* بندق(2) اكبالتى واتأدب لجمال صورتى بالهما والشان

وامتاع الدنيا ليس يغوينى * لكن طاعتى تملكها يا عاشق لبها بالخير ولحسان

والعلمى فى «توكت لهلال» مملوك لا يخرج عن طاعة سيده ويستبشر لاوامره ونواهيه ، ويرى ان الغلام لابد أن يطيع مولاه كما يشاء ويرضى :

مملوك مايلى عن باب الطاعا اخروج

---

1) تنقاد : يصبح لها قد واحد أى تتساوى

2) بندق : طأطأ وركع للسلطان

نرضى المن يكسبني ابهاه

نستبشر عن أمرو ونهاه

ولغلام ايطيع المولاه كيف يرضاه

ومثل هذا يقوله الحاج ادريس لحنش لام الغيث :

مانا الا عبد قلت لها وانت يا مولاتي ابشاين (I) ترضاى ارضيت

بل هو حين يستغيث بها ويطلب منها أن ترحمه بقبلة قبل فوات الاوان يؤكد لها أنه عبد موروث:

قولوا الال غيث رنابك كانستغاث

روفي اعلى افريد اهواك وغشيه

يا للى ببهاك اسبتيه

لاش عل الجمار ارميته

احميه ابقبل يالغالبا قبل ايفوت الفوت

ياك اتعرفيه ألا اعبيد عندك موروث

ويرى الحاج احمد امر يفق نفسه مكسوبا لزينب بحكم القدر المحتوم ولكنه راض بما كتب له :

بالحكـــم الـــواجب * عبـــدها متملـك مكسوب

راضي مكتابـي ❀ شفت العين اجنات كما اكتاب

أما الفقيه العميري فخديم لزهيرو صابر على هجرها :

صابر صابر الحبها اشحال ونـي مملوكها اغلام

وعاد صابر اعلى اهجيرو

ورغم كل هذا التفاني يظل المحب يعاني من **الفراق والهجر والنفور والغيبة الطويلة** ويخبر العلمي عن فراق محبوبه الذى جفاه وتركه فريدا بلا عقل ، يراوده طيفه وخياله ، فيقول :

كيف ايواسي اللي افرق محبوبو وابقى ابلا اعقل في لوسام افريد

كيف اجفاني احبيب قلبي

ظل غير صورتو وانعوتو واخيالو

I) بأى شيء

من لاعمرى انظرت زين افلبدور ابحالو

ويصور لحظة الوداع وقد ذهل وثقل لسانه وارتخى جسمه وانهمرت دموعه ولم يقل شيئا لمحبوبه :

ماصبت حين ودعني ولفي ما نقول

دهلوا اجوارحي واثقل السانى

وارتخاوا اعروق ابدنى

وهطلوا بالدمع اعيانى

ولكن محبوبه حياه وجلس اليه وجعله يستمتع بقربه قبل أن يودعه ويمنحه قبلة الرضى ليتركه مسلوب العقل :

أولا اسبانى حتى جانى افلون قانى

واحيانى بالسلام واجلس واسطبت (I) اكعادو

امنين شافنى امسلى نيم شفرو وقال لى ودعتك يا سيدى

قبل بعد لوداع راضى باش املكنى

اوحاز عقلى وامشى فى حالو

ويستعظم المدغرى فى «الكناوى» يوم الفراق ، وقد تركه أحباؤه مكويا ينوح فى حالة تدعو الى الرحمة والاشفاق .

معظم ذاك اليوم فاش صدوا ناسى وامشاوا

تركونى نواح فى ارسيم اضميرى كاوى

يحسن عون اللى امشاوا ناسو من بعد اكوا

وهو كالعلمى لا تتركه المحبوبة فى «الفراق» دون أن تسلم عليه ، ولكن ليس بقبلة وانما بعناق كاعتناق حرف اللام ألف :

لا ايعيد افراق المعشوق يالعشاق   بعد ما عنقنى تعناق لام مرشوق

وتطول الغيبة بالعلمى ، فيشتد غرامه ويقوى عزمه ويطول كتمانه حتى كأنه مسحور سحره راهب رومى يستحيل أن يحن قلبه فهو أقسى من الحديد، ويتساءل عن هذا السحر أهو طلسم او تعزيم فى الجدول بخط عجمى :

اشتد غرمى واقوى عزمى

I) اسطاب : استمتع ، وأصله استطاب

اعييت نكمي

كيف اللي داخلوا سحور اعلى قلب اجواه

واللي سحرو ارهيب رومي امحال يحن ليه قلبو اقسى من لحديد

ما نعرف داسحور طلسم او اعزيم ابخط عجمي .

وهو قد اشتاق الى جمال محبوبته ولم يعد قادرا على تحمل الفراق رغم صبره الشبيه بصبر قيس على غرام ليلى وصبر عنترة على غرام عبلة ، خاصة وانها لم تبعث له رسولا أو مكتوبا ، مما حيره وجعله يسأل عنها كل من لقيه :

طالت أسيدى هذا الغيبا

واتوحشت ابهاه

اولا قدرت اللفراق امعاه

. . .

نصبر اكما اصبر قلب لعشيق النكيب

قيس لغريم فهوى ليلى

واشواق عنتر من عبلا

. . .

لاكتب لارسول اقدم من عند لحبيب

اجميع من القيت انسالوا

واتقول احبيبى مالو

ما بان ما ظهر بخيالو

وهكذا يبدو الفراق على حد قول المدغرى مزهقا للنفوس مجففا للريق مشيبا للشباب مروعا لسرور العاشقين بخيول جيشه وأعلامه ونباله الممزقة الفتاكة ورماحه المريقة للدماء :

ريت لفراق اوعدى بالنفوس زهاق ✻ افلحلاقم ريق اهل الشوق به مسروق

ريت لفراق ايشيب بالصبا ولشواق ✻ كن عاشق فصباه امن الفراق مخروق

ريت لفراق بسرور العاشقين مالاق ✻ ابلخيول افجيشو واعلام ليه موثوق

ريت لفراق انبل سهمو اسريع مزاق ✻ من اسنون ارماحو دم لعشيق مهروق

فلا عجب والبين بهذا الاثر أن يتخيله ابن سليمان حجابا بينه وبين حبيبته في شكل سور رواقي من الحديد عرضه خمسون ميلا ، له باب يسمى

باب الرضى ، لكنه فى الطرف الآخر قد أغلقته الجبيبة :

سور البين ارواكى امن الحديد عرضو خمسين ميل فوتاكو (1)

هذا انظن به اغزالى تضريك (2)

بابو اسميتو باب الرضى من عندو مغلوك

وعلى عادة الشاعر الشعبى الشغوف بالتشبيه والمقارنة والرمز فقد تخيل المحبوب الهاجر طائرا نافرا خصه بقصائد أطلق عليها «الطرشون» ، وهو اسم لنوع من الطيور . يقول ابن على العمرانى متحدثا عن طرشونه الذى غاب وهو يخاف أن يصطاده أعداؤه فيتشفوا فيه وينتقموا منه :

طرشونى مز لى فالصيادا ماريت ابحالو — لله واش ما شفت لى طـير غاب لى

خوفي ايصيدوه اعدايا ويقطعو احبالو — يفدوا فيه ثار المغلوب الا ايقدلى

ويقول ابن على المسفيوى عن طرشونه الذى غدر بهوجفاه فانهكه فراقه، وهو يطلب من الله أن يجمع به الشمل ويحقق الامنية :

طرشونى غاب ياهلى واغدرنى واجفانى — وافراكو رشانى

نسعى لكريم به يجمع شملى وامنايا

والمحب لا يعانى من الهجر والنفور فقط ، وانما يعانى كذلك من اللائم. ونجد المدغرى يعذر لائمه لانه لم يذق من كؤوس شراب الحب ولم يجرب الهوى وأهواله وكياته وآلام الفراق والهجران :

لو ذقت يا لايم كيسان اشرابى — تعذر من روحى الشاربا

واتجرب لهوا وجمر اشرابو

واتشوف كيتى وهجرتى واشغابى — واجنود الهجرا الشاغبا

وامحـــاور لهوا او حر اشغابو

ونجد العلمى مثله يلتمس العذر للائمه الذى سلم من الجراح والطعن واللسع ، فيقول له :

سر أمن لام

ذاتك من لجراح سالما

---

1) اى في وثاقه ، والمقصود الاساس

2) تضريك : تستر .

ما طعنوك اشفار نايما

ما بهضوك انيام

مالسعك امن الصدغ شي ارقيم

ويقول للائم آخر ينهاه عن اللوم حتى لا يبتلى ، ويؤكد له انه لو ضمن سلامته من الهوى لما مل من سماع لومه أبدا :

كف لملام

دعني يالايم

حالى بملام يكفاك مشتغل

سلم يامن لام لا اتبلا

لو اعرفت لهوى بملامك يتراك

ما نقنط بملام

ما نمل من قولك هيهات ما نتخلى

ومن عجيب أن احمد ابجوات استطاع ان يؤثر على اللائم ويجعل قلبه يرق ويذهب رسولا الى فاطمة . فهو بعد أن نهاه عن اللوم وحذره من الوقوع في الحب ، طلب منه أن يسأل ويجول ويستفسر عن الباب الذى يمكنه أن يدخل منه دون خوف . فاذا كان يريد أن ينظر فلينظر الى حال جسمه العليل ينبئه بالخبر اليقين ، واذا كان شجاعا من الابطال فليقف الى جانبه ليحميه، واذا كان حكيما منجما فليسلب له عقل محبوبته مقابل ان يهـــديه نفسه ، واذا كان يواليها فليذهب اليها ليلومها وينهاها كما جاء يلومه وينهاه حتى تجود له بالوصال ، وسيقيم له اذ ذاك ليلة زهو وسرور مقابل ما قدم له من مساعدة . فلم يلبث اللائم أن أخذ في البكاء وذهب الى فاطمة يحمل لها رسالة الحبيب :

ألايم لا تلوم سلم

واعذر ناس لغرام

ليديك الله أتزطم

بالنعل افلمقام

من لا يوزن ولا يخمم

محسوب من لغشام

والناس احوال

والحال امن اهلو ماتحول

نبغيك اتسال

واتسقسى (I) بعد ما تسول

وتجـول اشحــال

وتعرف الباب امناش تدخل

ياك العقل نور من صنعت العالى

سر به الحكما حاكما

القلب ايشوف والنظرا للعين السرديا

ويلا كنت اتشوف شوف اخيالى

شوف من حال الدات الساقما

لعلا ايخبروك بالكتم فالسريا

. . .

ويلا كنت اشجيع من لبطالى

. . .

أجى فكتافى اوكون لى فالتحزار احميا

ويلا كنت احكيم

نزل اشكال اسرار العاظما

واسلب ليا عقيلها ونالك اهديا

ويلا كنت اعلى لمليح اموالى

سير بعدا لوم اعلى فاطما

وانهيها كيف جيت اتنهينى وارغب فيا

مضر اتجود لى بوصالى

الى اتجنى بالزورا عازما

نفرح بمجيك وانقيم ليلا زهويا

شفيت لايمى وابكى من حالى

. . .

وارجع حتى ادى امعاه ابرا (2) بخط ايديا

I) تستغسر ، واصلها فى الفصحى تستقصى . 2) البرا : الرسالة .

والشاعر الشعبي لا يكتفي بالشكوى مما يعانيه وانما يحاول أن ينفذ الى قلب حبيبته والوصول اليها بشتى الوسائل ، يحاول بالرجاء والاستعطاف على حد ما نجد عند العلمي الذي يلتمس من محبوبه أن يحن ويشفق ويعفو عنه وينبهه وينهاه ويطلق سراحه ويفديه ويزوره ، وهو مستعد لقبول كل الشروط :

قابل اشروطك حن واشفق واعطف لي اهواك زورو ويزورك

نبهو وانهيه اينهيك سرح مسجونك بالجافي وانعم لي ابلفكاك

وافدي ميسورك لن حالو محسوب اعليك واعلى مغلوبك جد واصفح

وعلى حد ما يسمعنا الطيب الواسترى الذي ضيع اوقاته (I) وافنى ذاته طمعا في رضى المحبوب وتفانيا في حبه :

ضيعت فيك اوقاتــــي ❀ وافنيت فيك وارشيـــت

واعييت ما نطمع ذاتـــي ❀ برضاك يا من اهويـــت

. . .

رفا ياضيـا مقلتــــي ❀ رنا ابحبـــك افنيـــت

وهو لا يطمع الا في أن يتذكره ويزوره :

أنا افعارك أسلطاني توفي ازيارتي واتفكدني يا عنايتي

يامن طاعوا ليك بالقهرا لبنات

وابن علي المسفيوي كذلك لا يطمع من محبوبه في غير الزيارة :

ياهلال الزين المهيوب بالمحبوب جدلي بقدامك ياضيا اهدابي

والمدغري يطلب من الله أن يجمع بينه وبين حبيبته في اعتناق على النهد جميل :

المولى لاقـــي لاقــــي ❀ اقــريـــب لاقــــي

لاقـــي لاقـــي ❀ انعـــاود عناقـــي

اعلى النهد مازين التعناق

والكندوز لا يرجو من جميل الخال الا أن يزوره ويصله بعد ان عذبه بتيهه :

أيا سابـــغ لنجــال ❀ عذبتني بالتيـــه يا شملالي

زر رسمي يازين الخال ❀ كم لي نرجـو لوصـــال

I) لعله يقصد اوقات الصلاة كناية عن الدين

أما سيدى العربى مول الغربية فهو يرجو من أمير الهوى بعد ان ملك عقله وشوى كبده ان يجود على أغصانه بغيث يروى غرسه ونباته :

يالمالك عقلى بك لكبادتشواوا جد بامطارك لغصانى انبات راوى

وقد ترق المحبوبة وترد ولو باعتذار كما فعلت مريا التى زادها الفلوس نارا بشكواه ، فخافت عليه أن يذوب من كثرة السهر ، ولكنها أكدت له مايعرف من أنها تحت حكم أهلها ، وأنهم لا يرضون العار ، وأن المحكوم لابـــد وان يخضع لقدره :

وادوات اغزالى اهلال عيدى قالـــت لى يا عشيق حسنى زدتنى نـار

خوفى غير اتذوب بالسهر ذات العشاق دايبـا بالـو لفيـا

. . .

قالت لى يا عاشق لبها تدرينى تحـــت لحكام واهلى ما ترضى عار

والمحكوم ايصرف لقـــدر هذا عذرى احكتلك دون اخفيا

وسألها عن الحل فى هذا الوضع فدعته الى الصبر لما فيه من حكمة خفية ، فما كان منه الا أن قبل الارض ورجاها ألا تحرمه من رؤيتها ، وأخبرها انه سيلازم الابواب صباحا وعشية :

قلت لها يا رايت لملك كيف المعمول فدنى يدامى (I) لوكار

قالت لى مصقولت الصـــدر الصبر امليح فيه حكما سويا

طحت وبست الارض قلت لها ما عندى ما انقول يا من حزت توقار

لا تحرم جفنى امن النظر هانا عند لبواب صبحا واعشيا

وقد لا تلتفت المحبوبة **فيلجأ الى بعض العتاب** كما فعل امتيرد وهو يصارح طامو بأن الافاضل يستحون من العيب وانها لم تستح ولم تكافىء ولم تكرم ولم تجاز ولم توف أو توافـ ، ويحذرها فتنة الجور ونهاية الظلم ويذكرها بفناء الدنيا وأهلها وبرحمة الله التى تشمل الجميع ويدعوها الى أن تغتنم شبابها وتزوره قبل فوات الاوان :

والعيب يا بدع الصورا به لفضال تحشم

وانت ما احشمت

مـا كـافيتى

ماكرمتى

I) الدامى : الغزال

ماجازتی

ماوافتی

ما اوفتی

الجورفتنا

والظلم انهایتو الضمنا

نهجو نهج اظلیم

والدنیا کیف اترایها ابهلها راحل وامقیم

غنمی صغرك ربی ارحیم رحمان

فضلو اکثیر

وارحمتو منشورا لعلی اعبادو

بها اجمیع یرحامو

زوری احبیب قلبك والمولی یالریم غفار

ومثل هذا یقوله العلمی لمحبوبه یطلب منه أن یرحمه بعد ان اهلكه ، ویلبی طلبه لكی یجزیه الله ما دامت نجومه مضیئة وهلاله ساطعا بین الافلاك قبل أن تحجبه غیوم الزمان وتطفیء نوره :

وارحم بعد لهلاك

واطلق مطاوبك

تاجر لكریم ایكفیك

ما حد انجومك ضاویا واهلالك بین نفلاك

من قبل اغیومك

اینطف ضو ویخلیك

وبأعنف من هذه اللهجة یؤنب امتیرد فاطمة(I) فیعتاب ممزوج بوعظ فیأخذ علیها أنها تنكرت له بعد عشرة طویلة حسنة ویكشف لها عن عیبها وقد تجلی أثره فی سقام جسمه، ویلفت نظرها الی أن أهل الحیاء لا یصدر منهم عیب مهما طال بهم الحال ، وأن الجمیل یساعد لتساعده الایام وأن القبیح یصادف نتائج أفعاله :

I) یطلق الاشیاخ علی قصیدة فاطمة هذه : «اتـرابی فاطمة» ای تربیتها .

بعد حسن العشرا واكمال طيب لمرام   زام رعدك واهطل بفراتنو اسكيبو
بان عيبك واغشانى فالجوارح اسقام   وناس لحيا لوطال الحال ما ايعيبو
لمليح اسماعـد وامساعداه ليـــام   ولقبيح افعالـو وامصايبو اتصيبو

ولا يكتفي بهذا بل يزيد في وعظها عساها ترق وتلين ، ويحاول ان يفهمها ان لكل شيء نهاية مهما علا وعظم ، وانها لو كانت قصرا ضخما عالى الحيطان لانهدمت اسواره ، ويدعوها الى أن تستيقظ من سهوها وتيهها وتنظر في حال من سبقوها لتعرف انها منتهية مثلهم :

كان كنت اقصر اتعلى او حاز تضخام   لو اعلات الحيطان اسوارها ايريبو(I)
كان اسهيتى اتيقظى من حال اسهوك   ويلا تهتى التيه اتعريـك ايامـــو
نظرى بملامح لبصار اللى سبقـــوك   اكما فرغوا يفرغ سوقك وازحامـو

ويختم تأنيبه بمصارحتها بانها ان رفعت قدرها صغر ، وان الادب يدل على النسب الطيب ، وبان شمسها مهما اشرقت فان الليل لا محالة حاجبها ، وبان عمرها مهما طال لا بد وان شيب الكبر يصيبها ، وبانها مهما حكمت واستبدت في الحكم فان ساعة الظلم لا تدوم وصاحب الظلم فان:

ايلا اترفعى قـدرك يصغـــار   لاداب ايدل اعلى اكمال طيب النسما
. . .
لواشرقت ولاحت فالجوشمسك اعلام   لاغنى الليل ايناذى خلفها احجيبو
لو اتعيشى ما عاشو فالزمان لهرام   لا غنى من لكبر ياتيك جند شيبو
ولو احكمت واتحكمت يفرغ لحكام   ساعت الظلم اتفوت وناسها ايغيبو

وهو لا يحاول ان يعتذر عن هذا العتاب وانما يلح عليه تانيبا لها لو عقلته ، ويطلب منها أن تتخلى عن الصد والجفاء وتنظر اليه وان تصون عرضها وتكتم عيبها وان تفي بالقول الصادق . ولا يترك خطابها الا ليؤكد لها عتابه وانه سيعود اليه :

حدثتك لحـديث للعاقل تنبيـــه   تركـى صد الجفـــا اوصولى فوصالى
عرضك صونيه وعيبك الناقص كتميه   ما احلى من فا بالصدق والقول الوافى
حافيتك ابلحفا او ما زال انحافى (2)

I) ايريب مضارع راب اى انهدم   2) الحفا : العتاب وفعله حافى .

وقد يلجأ المحب في محاولاته الى ارسال مبعوث يخبر المحبوبة بحالـه وباتيه بها ، وقد اطلق الشعراء اسم «المرسول» على القصائد التى تحكى ذلك.
ومن اروعها مرسول الحاج احمد الغرابلى الذى بعثه من مراكش الى فاس بعد ان أخذ منه العهد انه سيحضر له محبوبته ، ولكنه عاد بمفرده ولم يحقـق الغاية من سفره ، فاسقط فى يد المحب وتاه عـــن عقله وانهمرت دموعه ، وسأل المرسول اول ما سأله عن المحبوبة التى وعـــد باحضارها ضدا فـى العواذل ومقابل مكافأة سخية ، تلك المحبوبة التى اشتاق الى خيالها وفارق من أجلها احبابه ووطنه ومنزله وعشيرته :

ليه ارسلت ارسول اعلى اوعس يبلغ قصدى امناه وايتوك اهلالو

وايسلنى بعد لفـــراك كيـــف اتسليت ازمـــان

قاولنى مرسولى ايحضرو وامسكت العهد لوثيق واحصرت امقالو

من البهجا لمدنت لحضـــر صفتو (I) عجـــلان

امشى وارجع بعد حين وانويت جابو كيف قال وفا فقوالو

وانصيب ولى افريد واعـــلاش امشى عـــا بان

مهما سلمت اعليه طاش عقلى واخرجت عل لحوال وادموعى سالوا

اول فكـــلامى قلت له واين دابل لعيـــان

. . .

ياك امرسولى قلت ما تولى حتى ياتى امعاك ضد افعدالو

ونـــا نسخى ببشـــارتى (2) انهار اتجى بالمـــزيان

امرسولى واين لحبيب وين (3) الذى اشتكت اخيالو

وافرقت احبـــابى ولـــوطان ورسمى والعشران

وما زال يلح على المرسول ان يخبره بحال المحبوبة وسيرتها وهل هـى سالية او مثله مهمومة شاكية ، باكية منكدة ، حتى أنبأه ــ بعد ان مهد له بان

I) صافت وصيفت : ارسل .

2) البشارة فى الفصحى التبشير ، وهى هنا المكافأة التى تمنـح للمبشـــر .

3) واين بمعنى اين ومثلها وين .

لا غنى عن الصبر لكى يهون الصعب — ان اعداءه حاموا حول محبوبته وانهم لا شك حرزوها ومنعوها عنه ، ولكنها تشكو افتقاده ناحبة حزينة بالليل والنهار ، فقد استطاع المرسول أن يصل الى دارها ويبلغها كتاب حبيبها الذى عظم فى عينها ، فقبلته وقراته بكثير من التحقيق ودمعها يسيل. فكان جوابها أنه من المستحيل أن تنساه ما دام لم ينسها وانها تشفق عليه من المحن التى لا قبل له بها وان القدر هو الذى فرق بينهما وان لكل قدر كتابا واجلا وان ايام الهجر لا محالة منقلبة الى سلو وسرور ، وهى تريد منه ان يمهلها حتى تصادف غفلة الحسود او تضلله فتلحق به ليغنما ساعة زهو يرتشفان فيها الكؤوس ، وتؤكد له ان ذاتهـــا وبهـاء حسنها وصورتهــا وجمالها وروحها وكل جوارحها ملك له وانها ان تخلت عنه تكن خائنة :

امرسولى لله فدنى واخبرنى عن سيرتو اوحالو واحوالو
سالى ولا كيفى اهميم شاكـــى باكـــى نكدان
قال المرسول اعاشـــق الـــزين اصبر لا غنى والصعب يهـــوان
محبوبك دارت بـــه اليديـــن لا ريب حرزوه اعليك العديـــان
لكن من فقـدك ناحب احزين نواح فالضيا وعكـــاب (I) الديجان
محبوبك اوصلت المنزلو بكتابك وارفع ملتقاه ابتقبالو
واقراء اوحق اشواهدو اودمـــع انجالو هتـــان
قال احبيبى محال ينترك من بالى ونا ما اتركنى من بالو
حاشا حتى نرضى انمحنو مـــا يستهل لمحـــان
غير الوعد افرقنا وهكذا قدر مولانا او كل وعد بمجالو
وايام الهجر لا غـــنى اتعود اسرور وسلـــوان
قلو ايمهل عنى حتى انصيب نغفل لحسود او منى ينضالو
وانجيو انغنم ساعت الزهـــو برشيف الكيسان
ذاتي وابها حسنى اوصورتى واجمالى والروح ولعضا مكسوب لو
الى دزت مـا دمت افلحيـــا يحسبنى خوان

ولكن المحب يرد على المرسول بانه يخاف ان تطول مدة الهجر التى

I) عكاب : اى عقب .

تعد ساعتها في حسابه يوما واليوم زمانا :

جاوبت ارسولى قلت له خفت ايام الهجر اعلى اخبيرى يطوالو

عنى ساع فى عوض يوم واليـــوم فى عوض ازمان

كذلك قد يلجأ المحب الى القضاء عساه ينصفـــه من جور المحبوبة ، وقد اطلق الشعراء على هذا اللون من القصائد اسم «القاضى» :

وقد ذهب امتيرد الى القاضى ليفصل بينه وبين حبيبته بعد أن غابت عنه وهجرته وتنكرت له ، وهو من حبها مروع مسحور ، ويرجوه ان ينظر فى حاله ويطرد عنه الاكدار :

وهو ياودى جيتك يالقاضى تفرقنا ابلفصال

الى الحق فيا قبضو منى ❀ مـــال ولفى تـــاهت عنى
القاضى يحســن عـــونى ❀ ما افظنى ولفى اتغيب عنـــى
من حبهـــا ادهـــانـى ❀ سحـــر ادهـــانـــى

. . .

اهجرتنى ميلافى اخليلتى صالت عل لبدور نكرتنى ياحسرا
شوف من حالى يالفيقه طرد اغيارى

ويتوجه القاضى الى المحبوبة يطلب منها أن تجيب فترد بان المدعى لا يسعى لغير العار ، وانها لم تكترث لامره لانه قابلها عند باب دارها يوم كانت خارجة للزيارة ، ونظر اليها وطلب منها أن تصاحبه فى فسحـــة فرفضت ، وهو اليوم بدون حياء يقاضيها بعد أن زور فى الشهادة ، وهى تؤكد أنه مجنون وأنه لم ينظر بعينه الى جمالها ولم يظفر منزله بها ولا اشتعل شمعه من اجلها ، وما تظنه الا يقصد المزاح :

قالت اسيدى هذا جا ايحارب العارى * ونا يالقاضى ما جبت اخبـــار
عير اجبرنى في باب دارنا يوم اخرجت انزور (I) * وارمقنى بالنظـــرا
قال ياديك الهيفا ارواح نتسارى * ونـــا ما ابغيت انتبعـــو نلـــدار
وادعانى يالفقى ابلا احيا دار اشهود الزور .* اشنهـــو دا الحكـــرا (2)

. . .

I) المقصود بالزيارة زيارة المقابر واضرحة الاولياء والصالحين .
2) الحكرة : الاحتقار .

وهو ياسيدى قالت يالقاضى هذا به لهبال * عمرو ما نظر زينى بالماحو

اولا ظفر بى مركاحو (2) * اولا شعل عنى مصباحو

الحب لاحو مهما اضوا امراحو *

عنوا ابغى امزاحى * ما هـــو ساحى

وغضب القاضى لهذا الرد ، ورمى المدعى بالغدر كأنه يريد ايذاءه ، وطلب منه أن يفارقها وان يترك الفجور والا يفوه باى كلام :

دار لفقيه ابغيظ رايد اشرارى

وانطق قال لى ياذاك الغدار

فارق عنك مكمولت لبها لا تدعى بفجور

ما نقبـــل لك هدرا

وحاول أن يعرب عن حقيقة حبه فطلب منه القاضى أن يحضر الشهود، ولكنه رد بألا شهود له غير الخليلة وطائر الحسانى وكؤوس المسطار وبعض انواع الخمر ، ولكن له ما يثبت به دعواه وهو الوشم الذى رسمته بـــين نهديها ، ويمثل طيورا احرارا وليثا ولبؤة ، وقصورا ومنازه ، وطلب من القاضى ان ينظر بعينه حتى يتأكد :

كلت لو ما حضرو حتى اشهود فوكارى

الا اخليلتى وكيوس المسطار (2)

والحسانى والكاس كيظل عكب الديجور

وانواع من الخمر

وهو ياودى واسمع يالقاضى وانظر زين لنزال زكى املامحـــك

فبديع اصدرها

فيه دارت ما يعجبها

اكما ابغت اعلى خاطرها

تاج لبهـــا

سبحان امن اخلقها

---

1) المركاح : المنزل .

2) المسطار كما فى الفصحى نوع من الشراب حامض ولعله لم يقصد به غير الخمر رغم انه ذكرها .

فحروفها انزاها ما ننساها ها ايمرتها

نورها صيغ ياقـــارى

بين النهود نزلت اطيور احرار

واعملت الليث امع البيتو وامنازه واقصور

وانظر زين العفرا

واراد القاضى أن يتاكد من هذه الامارات فرفضت المدعى عليها لافتة نظره الى أن كشف العورة حرام فى المذهب وان ما يقوله لم يرد فـــى الكتب :

قالت اغزالى للقاضى انبين اعوارى

هذا حرام فالمذهب ما يذكار

شين قلت محذوف يافقيه ما جابوه اسطور

واغتاظ القاضى ، ولكن المدعى طلب منه أن يحكم بالمشهور ، ونظر القاضى الى وشمها فتاه عن عقله وغدا خصما للعاشق واعتبره ظالما . ولكن المدعى حاول ان ينبه ضمير القاضى وان يخوفه الله :

قلت لو خاف امن المولى واشف لضرار

انا اعشيق كيف اجرى لى نهجـــار

فعاد للقاضى وعيه وحكم له بان طلب من المحبوبة ان تسامحـــه وتترك هجره .

واذا كان كذلك حكم قاضى امتيرد فان قاضى المدغرى حكم له حيث طلب من المدعى عليها ان تعفو وتصفح ، وخوفها الشعور بنفس الاحساس اذا ما حضرت مجلس الحسان ، وكانه اراد ان يحرك غيرتها ، وكذلـــك فعل اذ امر خدامه ان يقودوهما للدار :

قال لفقيه سامح يادلبها الواضح

خوفي اتذوق ما ذاق الى شفت اريام تتمايح فمكانى

قال لفقيه فالحين الخدامو اقوام

زيدو ابدوك قدامى للمركاح

ليه سرنا من غير اشحاح

والدمع عن خدى سياح

بالـــرجاح

ونا انجى ابلفصوح

سرنا اجميع دون اوقيح

لبساط شارق افتوضيح

شل انصيف بالتصحيح

سخنا اعلى ابطاحو

واريام فيه صاحوا

بنغام رايقا تشرح من قلبو اظلام وافجا هول احزانى

شاف الشرود (I) عند القاضى حر الخيام

وادهاه فى ادهانو كيف ادهانى

اتوازن اهوانو واهوانى

اوفاق هجرو هجرانى

اوقال هـــانى

نكويت ليس هانى

واللى اكواوا بالنيران

واعذاب ليعت التيهان

ما ضرهم شين كان

امنـــين شفتو رانى

اعطفت عل العانى

عاد لخصام صلح ابطلعت بدر التمام واختمت العنوانى

أما قاضى مولاى على البغدادى فبكى من شدة التأثر لحال المحب حتى أغمى عليه :

لفقى ابكى بدموع لنيام

من حر لهو الهيام

حتى اغشى اعليه الحال وغاب لعشيق عن قصد امرامو

I) الشرود : الغزال .

ولاحد اشياخ مراكش ــ لم نهتد الى اسمه ــ قصيدة فى خصــام بين شابة وزوجها العجوز رفع أمرهما الى القاضى فمالت نفسه للزوجة وحكم بطلاقها ، ولكن الزوج استنجد بالامير فرد له زوجته ، وهى القصيدة التى يقول فى حربتها :

اشهدت اليوم اعجوبا

شايب ظل امع شابا فمعاير واخصام

كان اتسالو ياحاضرين

واذا ما فشلت هذه المحاولات فان **المحب يلجأ الى الحيل** يسعــى بهــا للـــوصول .

ومن الحيل ان يقصد الفقهاء والمنجمين ويتخـــذ الحـــروز والتمائم والتعاويذ على حد ما فعل الشيخ الجيلالى حين عجز عن الوصول الى طامو ، فانه لجأ الى طالب من اولئك الذين يسطرون الجداول حاذق للفلسفة والحكمة وعلم التنجيم ، فاخبره بعد أن تعمق فى سر بحور علمه ان حظه من حظ محبوبته ، وان نجمه ظهر فى برج من ابراج النصر تلوح اضواؤه :

ناديت قلت فاجى كربى يامن ايرى او يعلم

بلى اهويت ساعدنى بانوارو

شوف مالو واش اغيارو

كان يعطى حد اخبارو

القيت طالب خطاط افلافسى انعرفو مدوب احكيم

شرح معنى فى كل فن قارى علم التنجيم

غرق سرو فبحور سر وعلان

وانطق قال لى محبوبك سعدك امن اسعادو

نجمك تاك فقوامو

فى برج امن ابراج النصر يرمى اضياه سيار

وكشف له الفقيه عن سر هجر محبوبته وانها تخشى مــن الرقيب لكنها قادمة بعد الصدود ، واعطاه حرزا طلب منه أن يعلقـــه ويحجبه ويصونه ، وسوف لا يلبث اثره ان يظهر بمجيء الحبيبة ، مؤكدا ان للاسماء

سرا عظيما :

لفقيه قال لى محبوبك بعد الصدود يقدم
هو احبيب وانت له احبيبو
لكن ايخاف امن ارقيبو
ها حرز التجليبو
علقو تنظر لو برهان
الاسما لها سر اعظيم
حجبو واحضيه اعلى الدوام
تنج من كل ارجيم

وسرعان ما ظهرت نتيجة الحرز فجاءت الحبيبة تطرق الباب وتـــم الـــوصال .

كذلك لجأ ابن على المسفيوى الى مثل هذا الفقيه حـــين غاب عنـــه الطرشون وظل يبحث عنه دون جدوى فى كـــل احياء مراكش ، ولكنـــه لم يلبث ان سمع هاتفا يناديه ان اذهب الى باب دكالة عند الفسقية فستقضى حاجتك . واسرع الى المكان فى غاية الشوق والظمأ وشرب من ماء الفسقية وزار ضريح الولى سيدى لحسن ونام فى مقامه ، لكنه لم يحس الا ورجـــل يوقظه يبدو عليه من الاعيان ، فقيه لجيب شيخ منجم ماهر داهيـــة ، فاخذه المحب الى بيته حيث استحضر النجوم واستفسره عن حاله . ولم يلبث أن ظهر سره عجيبا اذ سطر جدولا بالهندية وعزم عليه بالسريانية ، وما أن انتهى منه حتى حضر الخديم (1) فاوصاه ، وغاب ليعود فى الحـــين وخلفه الطرشون ، فما كان من المحب الا ان دفع المقابل بان اقام حفلـــة فى غسق الليل دارت فيها الكؤوس وعزفت الموسيقى :

اسمعت السان حالى جاوبني يا ينسانى * بعد ما ندانى
الحاجاشور باب دكال فالسقايا
سرت ابشوقى الشورها او قلبى ظمآنى * القـوس الفوقانى
اشربت والقيت حاجتى مقضيا فالغايـــا
زرت الولى الشاهر السر افكل اوانى * اشفـــا ضر احزانى
سيدى لحسن هبتى والى من لـــولايا

1) المقصود به الخديم الجنى .

فمقامو نمت ما فقهت اصاح من جانيَ * يقظني نـــوم اجفانى

اجلست واقريت ما كتب امن الحب اقرايا

سلم اعليا ارجول مارات تط اعيانى * ظاهر مـــن العيانى

شير (I) عنى أو قال زيد اللهنيا

افقيه انجيب شيخ ناجم ماهر دهقانى * ضـــايفت فمكـــانى

حضر لنجوم تم والقلب امعاه ادوايا

اشكيت اعليه قصتى بعد ماسقسانى * ورانـــى كتمـــانى

واظهر سرو اعجيب وانعم لى بفدايا

اكتب جدول عمرو بالهند ملآنى * عـــزم بالســـــريـــانى

حتى جاه لخديم وصاه ابكل اوصايا

غاب ولى اسريع فالحين ابلا جنحانى * فخـــلافو سلطانى

طرشونى عز مرسمى تربيت لـــودايا

واعلى وجب لبشارا حضرت اوانى * فاغسيـــق الديجانى

فبساط ارفيع امحتفل والسطعا والمايا

ونجد العلمى حين طالت غيبة محبوبه يقصـــد الى ضرب الفـــال وقراءة (2) الخط ليبشر بانه سيلقاه بعد سبعة ايام :

بعد ان طرحت اشكالو

واضربت سورت الفال

الخط قال لبشارا ليك اقريب

محبوبك تلقاه بعد سبع ايام اترجاه

ومن الحيل ان يتنكر المحب فى صفة شخص يطلب الضيافة على حد ما فعل امتيرد فى « ضيف الله » حيث طرق باب دار المحبوبة فى الليل فنهضت من نومها وفتحت له ورحبت به واكرمته على أنـــه ضيف الله ، ولكنها لم تلبث ان كشفت امره فعاتبته ـ مداعبة ـ انه كذب وانه ايقظها من نومها دون اشفاق ، وطلبت منه أن يسألها لتبادله السؤال مستغربة من امكانه التخفى عن عيون الاعداء والعواذل الذين وقفوا له بالمرصاد ، ودعته

I) شير : اشار .   2) يبدو انه فعل ذلك بنفسه .

الى الصفراء وخمر الثغر بعد ن اكد لها انه لا وقت للنوم فى هذه الليلة الهادئة الصافية التى تعادل ليالى بما فيها من متعة ونعيم :

انت هو الضيف ما شفك حالى لكذوب افـــديفـــا احـــرام
قالت لى سالنى انفيدك بسؤالى من بعـــد ستـــويت لمنـــام
واخفيت اهلى اعيون العدا وانكـالى نحضـــرتك شـــدو احـــزام
هات الصفرا وزيد غدر فمصالى قلت لها ما بقى امنـــام
ليلا فى ليلها المنعوم اليـالى لا ريـــح ايهب لا اغيـــام

اما احمد بن الحاج فبعد ان قضى ضيفا على محبوبته عشية مكتملـة المتعة ليس لها مثيل نادته للوداع ولتجهيز ركابه حتى لا يشعر اهلهـــا بشيء ، فقد آن وقت الرواح ، والمسافر عابر لا امـــل له فـــى المقام . وافترقا فى عبرات منسكبة وجذوات مضرومة بعد ان اكدت له انها لـــن تنساه مهما طالت الايام :

واغنمنا فرجت لعشيـــا ❊ مكدول ما لها امثيـــل
نادت الباهيا اعليـــا ❊ قالت لوداع يا خليـــل
خفت اهلى لا اتفيق بيا ❊ هات الموكوب للرحيـــل
هذا وقت الرواح * لمسافر رايح * ما ارجى امكام
حافوا عبراتنا اسجام
قلت تبقى ابخير جذوت ضرمت افقلبنا اضريم
قالت حاشا اندوزك اقطع واجزم لو طالت ليام

ومن الحيل ان يتنكر المحب فى صفات مختلفة يحاول فى كل منها ان يكسب ثقة الحراز ، وهو الشخص الذى يحرز محبوبته اى يحصنها ويحول بينها وبين الآخرين ، ويكون فى الغالب زوجها ، ولكنه يرده ويطرده فى كل مرة الى أن يتمكن من خدعه فيدخل بيته ويتصل بمحبوبته فى غفلة منه .

فالشاوى جاءه متنكرا فى هيئة عالم فقيه مؤدب من أحبـــار الطلبة ، عارف بعلم النحو لا ينطق بغير لغة معربة فصيحة ، فى يـــده صحيـــح البخارى ، وخطب عليه متفننا فى خطبته بعد أن سلم عليـــه ، واخبـــره أنه قصد حماه ليكرمه ويحسن ضيافته ، وان لاهل العلم اسرارا مرهبة ، وكل من اكرم عالما فكأنما اكرم النبى . وظل يحدثه بهذا الاسلوب حتى

ظن انه سلب لبه ، ولكنه فوجئ به ينظر اليه بعيون مقلوبة وينبهه الى ان مكان الفقيه هو بيت الله حيث يجدر به ان يقيم محرابا ويفيد النـــاس وينفعهم بعلمه لتكون له مرتبة ومكانة . اما بيته فليس له فى دخوله اية مصلحة ، وطلب منه أن يبتعد دون ما حاجة الى اللجاج والعتاب :

جيتو طالب بفعال مدوبا

حبر امن احبار الطلبا دعرى افقيه قارى علم اليعراب

نافظ بالعلم بالفاظ محــروبا

فيدى اكتاب لمام البخارى ارحالتى تعجب من لداب

اخطبت بفنـونى المنسـبـوبا

بعد السلام قلت اسيدى لحماك جيت قاصد زايك رغاب

ليك الروح امع الذات مكسوبا

فمقامك السعيد اكرمنى واحسن اضيافتى بلطافا وصواب

لصحــاب العلم اسرار مرهـــوبا

واجميع امن اكرم عالم اكرم النبى اكم فحديث المجتاب

ودويت معاه شحـــال من نوبا

حتى اطمعت فيه وقلت اسلبتو ابقايت اللطافا والتلباب

وانظر فيـــا بعيون مقلـــوبا

لفقيه قال لى ايحق يمشى البيت ربى يعمــل محراب

وايفيد الناس ابكـــل موجوبا (I)

ينفع الناس ابعلمـــو وابنفعو وايدر لو مرتـــاب

فتشت فالمحـــال واصعـــوبا

دارى ادخولها ما لك فيه اصلاح سر بعد وانف لعتـــاب

وجاءه فى صفة تاجر يحمل معه صناديق الذهب والفضة والاقمشة يريد ان يصاحبه ويودع عنده سلعته ولكنه رفض صحبته واشار عليه بدور السلعة حيث يمكنه ان يحفظ بضاعته . وجاءه فى صفة عبد سودانى يعرض نفسه للخدمة ولكنه طرده لكرهه السواد ولان اهله اوصوه بعدم اتخـاذ

I) ابكل موجوبا : اى بكل الواجبات الدينية التـى يجب على الناس معرفتها .

الوصفاء . وجاءه فى صفة فارس معه شباك للصيد وخلفه عبدان ، واهداه غزالا وطلب ضيافته ثلاثة ايام ، فهدده وطرده ورفض قبول هديته لان عنده فى اغراسه غزلانا احسن منه . وجاءه فى صفة باشا ترافقه الفرسان ونصب قبته واعلامه وأوهمه أنه يحمل كتابا من السلطان ، ولكنه رده بحجة انه ليس بوزير او قائد أو أحد المسؤولين حتى ينزل عنده الباشا ، واخيرا جاءه فى صفة هيفاء بعيون واهداب جميلة سوداء وخدود وردية وجمال يصد التائب عن توبته ، وصافحته بايد مخضبة بالحناء منقوشة فذهــل لهذا الخضاب والنقش وغربت شمسه ، وسالها اهو رقم على اليد ام كتاب ، فاجابته بانها تستطيع ان تخطط روضا عجيبا ابهى واجمل ، وله ان يسأل العجائــز والشابات حتى يتأكد ، فمسك بها والح عليها فى أن تنقش يدى حجوبة ، وأدخلها الى الدار فى غاية الفرح وهو لا يدرى من ادخل ، وخــرج مسرعا لاحضار لوازم الحناء . وعرفت حجوبة سر حبيبها الذى جاء فى صفة هيفاء نقاشة ، فخلع زى التنكر بعد ان خدع الحراز ، وهدم كل بنائه ، ونعم بقرب حبيبته واخذها عنده وباتا فى غاية الزهو والسرور يتساقيان الكؤوس على ضوء الشموع ونغمات الاوتار :

جيت هيفا بشفار مهدوبــا

واعيون غاسقا واخدود اورد اوزين يكسر توبت من تاب

صافحت بيديــا المخضوبــا

بشمايل ابها وانقش الحنا امنين راه نبهض وارطاب

شمس العكلى ولات مغـــروبا

وادوا اوقاللى ياهيفا هادو اتراكـم ايديك او الكتاب

قلت انديــر اريضات معجـــوبا

ابها اوسر ما شافت عينك سر اسال اعكايز واشواب

شبر فيــا بيدو المغصوبــا

انت بغيتك اتورنى فيدين لال شى صنعات اعجــاب

واتشوفى بــدر الزين حجــوبا

للدار ابلحزم دخلنى فرحان ما عرف ياويحو ما جــاب

واخرج يجرى باخلاك مـرهوبا

وايجيب لى اشروط الحنا وما ايخص وايوالم باستحباب

عرفتنى لــوجيبا المحبــوبا

فالحين طارت التنكيبا (1) افرغ لمقام والكل جالو لكتاب

واسلات اعضــاى المرغــوبا

واديت عارمى وارشحت (2) ابحرزها او كل ما شيدراب

بتنا فالزهو واسرور اطيــوبا

نتودو اكيوس الخمر فبساط حارساه اصوارم واجعاب

لا واشى لا حسـاد مـركـوبا

غير لغزال والصفرا والكيسان والوتر والشمع اللهاب

ومثل هذا نجده عند ابن على الذى تنكر للحراز فى صفة عذراء وعـالم وبدوية وعبد وبطل وتاجر ، ولم يوفق الا فى هيئة حكيم .

وربما كان حراز البغدادي اشهر ما ينشد فى هذا الباب حيث قصده المحب فى صفة باشا ومجذوب وعبد ولم يوفق الا فى صفة الفقيه ، وهــو الحراز الذى يقول فى حربته :

مال حراز الدامى ما ايشق بيا هيبات * حارس فى كل اوقات

اعلى الدوام ايجنب ولا ايرومنى قطعيا

وهكذا وبمختلف الوسائل والمحاولات ، **يتم الوصال** بعد طول عنـاء ومرارة صبر ، فالطيب الواسترى جاد عليه الدهر وارخى له الزمان عنانه فكمل سلوه وزهت ايامه يوم زاره محبوبه جوداً وانعاما دون سابق اعلام ، قاطعا اوصال التيه والجفاء ومنكلا بالرقباء :

الزمت الصبر ما كفى واخفيت ما فكنانى

حتى جاد الدهر بالزهو وكمال السلوان

والوقت ارخى لى اعنانو

وايــامى ولات ناشطا

بوجود اللى اهويت يوما وصلت لمكانى

من غير انويا قصر فالجفـا والتيهان

---

1) التنكيبة : النقاب والحجاب . 2) رشح به : خدعه .

جاد اعلى بحسانـــو

وانعم لى مـــن بعد ما اوطا

محبوب القلب يامس زارنى ياعشرانى

وانعم لى ابلوصال وانكا جمع الرقبان

صايل عن جمع اكرانو

ابديع الوجنا لمنقطا

وكذلك تزور حبيبة محمد الشاهد السلاوى فينعم بالوصال ، ولكنـه لا يقنع بمجرد اللقاء ومشاهدة الحبيبة ويريد ان يستمتع بحبه كاملا ، اذ عنده ان النظرة وحدها لا تطفىء لهيب القلب ، وان من العبث اطالتها ، وان كل من شاهد الجمال يضطرب لا محالة :

معلوم الشوف ما اطفى نار الجوف * غير باطل قوى تشوافو

والى شاف لمليح عمرو ما يتفافا

والعلمى يتم له الوصال فيحمد الله ويشكره ان عافـاه من سقمه ، فقد زال غمه وظهر نجمه بين الابراج كالهلال ، ونال المقصود ودان لـــه وقت السرور فزهت ايامه وازهرت اغصانه بعد يبس وذبول ، وظهـر بدره ساطعا مضيئا ، فلم يبق له الا ان يستمتع بالاعتناق والارتشاف :

لله الحمد والشكـــر زال اغتامى *

واطلع بين ابروج ناير نجمى كن اهلال

عافانى ربى أبريت امن اضرار اسقامى *

والمقصود الى اطلبتو وفانى به الحـال

واعطف لى وقت السرور وازهات ايامى *

والقح غصنى بعدما الوى وايبس واذبال

واتيقظ بدرى اوتاق مسراج اهمامى *

ما باقى غير لمعانقا وارشيف الكيسان

وعند ابن على المسفيوى أن الوصال متى تم فانه سيلهج دون انقطاع ، وتحلو كاسه ، ويلذ شرابه ، ويطرب قلبه ، وتتحسن علاقاته مع أهلــه وأحبابه ، ويخصب روضه ويزهر ، وتنمو أغصانه وتزهر ، ويغنى طائره ،

وينشد أنغاما حلوة شبيهة فى التعبير بخطاب المحب ، ويظهر بدره مخترقا حجبه ليضيء السهول والروابى ، ويحلو الزمان ، ويستريح البال ، ويهنأ المحب فى مكانه :

بـــك نلهـــج ضمى اغيهوب المحبوب بك يحلا كاسى وايلذ لى شرابى
بـــك قلبى زاهى مطـــروب يالمحبوب بك زهرت ناسى واهلى امع احبابى
بك روضى لاقـــح مخصوب المحبوب بك طهج اغصانو بالفيض ولخصابى
بك غنى طيـــرى فشمهـــوب المحبوب بك ينشد ميات ايشابهو اخطابى
بك بدرى تالك امن احجوب يالمحبوب بك ضوى فوق الوطيان والروابى
بك ازيان الزمان ياراحت لكنان المحبوب اللى يهـــواك بك يهنا فمكانـــو

ويقدم مبارك السوسى عرضا للحفلة التى سيقيم انزارته زهرة والتى ستستمر يوما كاملا فى روض مزدهر معطر بشتى ألوان الورود والاشجار ، تعزف فيه الموسيقى وتدور كؤوس الخمر على الحسان :

يوم اتزور العذرا
بالزهو يتباشر قلبى ايلوح تكدارو
وانقيم فى ابساطى ليلا وانهار
بالآل (I) وافناجل نخمر عل لريام اتدور
وانواور مشتهرا
فى ارياض امعطر
والورد فاح بازهارو
والياسمين طهجت ما بين اشجار
. . .

ويستمر فى وصف الروض ، ثم ينتقل الى وصف جمهور المدعوين بل المدعوات بقوله :

جبت اوصاف النوار   باقى وصف الجمهور

ثم يأخذ فى استعراض أسمائهن على هذا النحو :

نبدا ابراضيا اوهشوم الختار   وامهنى وافضيل اوفارحا او محلا واطهور
. . .

I) الآلة تطلق فى المغرب على الموسيقى المعروفة بالاندلسية .

ومن لطيف الوصال ما تم لامتيرد مناما فى شهر رمضان حيث أفاق بعد الفجر ليجد نفسه مضطرا الى القضاء والكفارة :

انعيد اصيامى ونكلع كفارت لوزر

عنقت اغزالى فالدجا حتى بان الحال

وقريب من هذا يحدث لابن سليمان اذ زاره محبوبه فى رمضان فذاق من شهده وجنى من ورده ، فاتهم بالافطار ، ولكنه يستفهم محاولا أن يلتمس لنفسه عذر المريض وأنه لا شيء عليه :

أصاح زارنى محبوبى يامس كنت صايم

شهد اقطعت واجنيت الورد قالوا كلت رمضان

مهجور قلت ماذالى

أحبيب الخاطر واش لمريض يفطر

واذا ما تم الوصال فان المحبوبة تخلده بتذكار تقدمه لحبيبها يكون فى الغالب حليا ، سوارا او خلخالا ، ولكنه لا يلبث أن يضيع له فيبحث عنه في عناء الى أن يلقاه .

من هذا ما يخبر به امتيرد فى «خلخال اعويشة» ، وقد اودعته اياه على اثر الزيارة أمانة أوصته بأن يصونها ويحفظها ليحضرها يوم الوصال. وخبأ الخلخال فى جيبه ولكنه ضاع منه ، فاحتار فيما عسى يجيب بـه صاحبته ان سألت عنه :

مهما ودعت الريم شاق شوقى من تشواقى واهواوا بالدمع انجالى

يوم اتودعت امع لغزال مدت ليا خلخال

هذا أمانا ياعشيق قالت صونو واحضيه وجدو يوم اوصالى

فى مكتوبى درتو اعلى الرضا واتوضر وانشال

خلخال اعويشا درت لبها فى مكتوبى يا فهيم درتو وامشى لى

كيف المعمول ايلا اتسالنى مولات الخلخال

ثم أخذ فى تقييم الخلخال وانه ثمين لا يقدر بمال ، وبدأ فى البحث عنه فى كل مكان فلم يعثر له على أثر ، واضطر اخيرا الى فقيه منجـم

استطاع بكتابة الجدول وعن طريق الخديم الجنى أن يحضر الخلخال . اذ ذاك أرسل للمحبوبة فحضرت على التو وأقام لها حفلا مضيئا مطربا بألوان الغناء والاناشيد ، يتساقى فيه مع محبوبته الخمر والرحيق . وفى هذا الجو المنعم الممتع حكى لها قصة الخلخال فأشفقت عليه وضمته اليها وقالت له : ان النظرة فى الحبيب خير من ألف خلخال ، فركع أمامها ليبادلها القول بأن وصلها لا تفديه الاموال ، وانها كنزه وكمال فرحته وربحه وذخيرته وهناءه وغناه وغاية رأسماله :

وارسلت المولاتى اوجات تتهد تهليل لبكار عراض الفالى
بمحاسنها وابها اجمالها تضرب لمثال
واعملت افراجا عزاوصولها ما بين الصفرا والرحيق والضو ايلالى (1)
والغاني ينشد باشعار وارقايق كل اسجال
واحنا نزها برا وخذ (2) واغزالى تدرج فالبساط واتكب المالى
سقطت ولفى دوك النجال مدت ليا قمصال
ارويت او طحت اعلى انهودها واحكيت لها اقصيتى اللولى والتالى
يوم امشى لى خلخالها اوشفقت منى لغزال
حازتنى مولاتى اعلى اصدرها قالت لى ياعشيق حسنى واجمالى
النظرا فالمحبوب خير لى من الف خلخال
بندقت اوقلت اجد يالعذرا ياتاج القاصرات حرت لغوالى
وصلك عندى يادرت لبها ما تفديه اموال
انت كنزى واكمال فرحتى وانت ربح اذخيرتى وغايت رسمالى
أنت لهنا والفرح ولغنا واكمال الرسمال

ويحدثنا الفلوس عن دمليج (3) ازهيرو الذى ضاع منه ولم يعثر عليه ، وبعد أن بحث كثيرا عنه فى أحياء فاس قابل فتاتين أخبرته احداهما أن الدمليج موجود عند هيفاء سمراء عثرت عليه يوم كان يزور السلطان ،

---

1) ايلالى : يتلألا
2) براوخذ أى بهات وخذ .
3) الدمليج بالميم والباء سوار يكون غليظا فى الغالب

فقبل الارض بين يديها ورجاها أن توافيه به ، فودعته بعد أن ضربت له موعدا عشية يوم الجمعة بحديقة «جنان السبيل» عند الصهريج الكبير :

قالت وحدا يا عاشق لبها دمليجك موجود عند هيفا بركيا

قالت لى صبتو انهار كان ايزور السلطان

اوطحت اوبسست الارض قلت لها لاقنى به يالريم العذريا

قالت دبا ياتيك ابلوفا واطمئنان

قلت لها ياتاج لبدر وين ايكون الميعاد ابشارا دون اخفيا

قالت يوم الجمعا الجايا تلقانا وكدان (1)

آجنا لجنان السبيل قدام الصهريج لكبير وقت الذهبيا

تم ارجنا (2) ولا اتصبنا نرجاوك يعــــلان (3)

والتقى معهما فى الميعاد المحدد ولكن سوداء العينين شرطت عليه اذا اراد الدمليج أن يذهب معهما لرشف الكؤوس ، فأخذ يلتمس منها العذر لانه لا يقدر على خيانة محبوبته بعد عشرة طويلة ، ويرجوها أن تراقب فيه وجه الله . فلم تلبث أن أخرجت الدمليج ، فدعا لها ان يجزيها الله بكل خير ، وردت على شكره بأنه لا جميل وأن مثله لا يهان . فودعهما فرحا ناسيا كل ما فات :

قالت لى سود النجال دمليجك عندى دون ريب ولا شكيا

لكــــن ايلا تمشى العندنـــا تسطاب الكيســـان

قلت لها ياعز لبنات مالى قدرا حتى انخون بعد الولفيـا

راقبى فيا وجه لكريـــــم نعم الحى المنان

جبدت لى دمليجى اوقلت لها ايجازيك ابكل خير خالق لبريا

قالت فالحين ابلا اجميل ماشى مثلك يهـــان

تم ودعت الباهيات وافرح قلبى وانسيت كل ما فات اعليا

والقانى بالدمليج رب لورا خالـــق لكـوان

---

1) وكدان اى بكل تأكيد

2) ارجنا اى انتظرنا .

3) يعلان اى علنا .

وللحاج محمد العوفير « خاتم » يقول في حربته :

خاتم ولفي تاج لبها اتوضر وامشى لي
كيف المحمول ايلا اتسال عنو درت لجمال
زينت لاســـم ليلي

وفي القسم الذى يعثر فيه على الخاتم تكشف له المحبوبة ان بالخاتم نفسه أسرارا تجعله مرصودا عليها مهما ضيعه المحب فهو يرجع اليهـــا تلقـــائيا :

قلت لها يا سلطانت لعوالم شملالى
صيغى بعدا لقصيتى اتحير جمع العقال
اغريبا وطويلا
وابديت انعيد البودلال عن شين اجرى لى
يـــوم خاتمها ضاع لى
وصرت افقـــدو معــلال
واعضــــاى افتنخيـــلا
ثم ضحكت الباهيا اضيا نور اهلالى
وادوات وقالت ريع امن اهوالك واغنم لوصال
وازهـــا دون ادبـــيلا
الخاتم عندى يا عشيق فخزاين مالى
واسبابو يا محبوب خاطرى يا عاشق لجمال
فيه اسرار اجزيـــــلا
مرصود اعلى اسمى ابأسم الحى العالى
وين ما خليتو ايجى العندى من غير ابدال
بالحكمـــا لوصيـــلا
وامنين اعرفتك يا علاج قلبى وادخــــالى
من حبى ومن افراق خاتمى تبقى فى تدهال
لـــك ابعثت ارسيـــلا

ثالثـا : الحـب

لعلنا من خلال هذا الاستعراض لوصف جمال الفاتنات وحال المحبين نستطيع أن نستخرج **الصورة التي رسمت للحب** في ذهن الشاعر الشعبي:

فامتيرد يراه سيفا يقطع قبل الطعن ، ويرى فساده أكثر من صلاحه لا ينفع ولا يحمل غير الشقاء والتعب :

هذا حال الحب ولهوا ياطامع بنجاحو *

سيفـــو قبل الطعـــن ينقطـــع

وافسادو بنهايت لفعل اكثر من تصلاحو *

اشقـــاه اتعبـــو ابلا انفـــع

وهو يتخيل الحب أميرا طاغيا جائرا حاقدا مروعا يقود جنوده لقتاله ، وقد لمعت أسلحته وخفقت أعلامه ، وعامت خيله على خيول المحب وقهرته بوم المقاتلة بالسيوف والرماح والسكاكين والاشواك :

مير الحب اطغا اوجار عنى جاب اجنود اعلى اقتالى حاكد لكلاك

لطرارد واعلـــوم شاكـــا

عامت خيلو اعلى اخيولى لكلاكا

بالضركـــا (1)

والسيف ولقنا والرمح أسكين كل ممتل جانى دكاك

قهـــروني يوم لمدكا

ويتخيله كذلك بحرا لا نهاية لحدوده ، ما مخرت عبابه سفينة الا شتت ألواحها ، لا تنفعها في مواجهته الاعمدة والقلاع :

لهوا بحرو مايلو انهايا توصاف اكلاحو * حتى عاشق بـــه ماطمـــع

أمامن قرصان سار فوقو تشتات الواحو * مانفعو صارى اولا اقلـــع

وللحب عند ابن سليمان سلطان على رأس عسكر كبير يضم جيوش كل القبائل جاءت مستعدة لخوض معارك من أجـــل الموت أو الحيـــاة متعطشة للقتل :

---

1) الضركة نوع من النبات الصلب له اشواك حادة .

من كل اكبيل جاتنى اليوم محلا (1) *

جابهـــا سلطـــان الغيـــوان

ينويو الموت امع لحيا افكل امقاتلا *

كيـــف شور المـــا للعطشـــان

وهو كذلك عند مولاى على البغدادى فى « خدوج » سلطان طاغيــة يروع مزاج المحب ، وقد استقر فى قلبه بخيوله المتحفزة المدربة :

سلطان الحب اطغى اوروع امزاجى *

رســـى افميـــر لمهـــاج

خيلـــو تظـــل حدراجـا *

ديمـــا امحربا عنى غير اتروج

ومثل هذا نجده عند عبد السلام الجربى فى «قمـــر الدارة» حيث هجم عليه الحب بجيش جرار قاصـــد لصراعـــه دون ما عطف أو اشـــفـــاق عليه من محنه ونحوله وفناء جسمه :

صاك بعسكـــر جـرار * للطـــام اتـــانـى

ما يحس بمحـــانى * ونا انحيـــل وافانى

وهو يرى الحب راكبا فرسا ملاليا جاء يقصد قتاله وقد استعدت خيوله وفرسانه ، كل متقلد سيفه ، وخلف هذه الخيول فرق أخـــرى لا يستطيع أحد أن يواجهها . ومع هذه وتلك جيوش الهوى الذى بدا شجاعا كميا شبيها بعنترة او ابى زيد ومعه خيول شقراء قوية :

والحب اعلى جار راكب الملالى (2)

عنوا ابغـــا لقتـــالى

وامر لخيـــول اتشالى

كلها متقلد سيفو عل لوفا

وامحال اخـــرى امرادفا

صاكـت مـــراهم

---

1) المحلة الجيش

2) لعله نسبة الى بنى ملال .

ما يطيق قادر يلقــاهم

ولهوى بجيوشو امعهـــم

اكمـــى عذبـى

بركاب له ذهبـــى

يشبه عنترا ولا بوزيد لهمام

له اخيـول اقويا

اوكلهم اشقـــارا

وحاولوا من معاناة تجربة الحب أن يستخرجوا حكمة او ما يشبه الحكمة . وكان العلمي ـ شاعر الحكمة دون منازع ـ أكثر الشعراء طرقـــا لهذا الباب ، اذ حاول فى هدوء الحكيم المتامل أن يستنتج بعض الافكـــار ويقدم بعض النصائح . وعنده أن عشق الجمال طبع غريزى فى كل شخص لبيب لا يفتر عن أوصاف حبيبه يعتبرهـــا المسك الذكـــى فى جيبه يتعهـــد النفس بطيبه . أما الالفة فريحها غلابة لا داعى فيهـــا للعتاب ، والشارب يعذر فى حال غيبوبته ، يسرح به الهوى فاقدا لوعيه لا يميز داءه من دوائه :

عشق لجمال طبع اغريز افمن هو البيب

ديما امعــاه نعت احبيبـــو

كالمســـك الذكـى فى جيبو

متعـاهد النفس ابطيبـو

والولف زيـح غلاب

متـــروك فيه لعتاب

مول الشراب يعذار افحال الغيبا

دايـــح به اهـــواه

ما يميز داه امن ادواه

وهو يرى ان التمسك بالصبر ضرورى والتمهل لازم لبلوغ المقصود ونكاية الحسود ، وان من ألح فى طلب الرضى لابد أن يدركه ، وان محبا لم ينل مراده دون تعب ، ويرى الا خوف من هيجان الحب ، فالرعد يكون له صوت يرهب القلوب ولكنه فى هديره مبشر بغيث يعقبه :

من لازم الرضا او طلبو لا بد ايصيبو

واللى ابغا ايغيظ احسودو يتبع ابلمهل مقصودو

حتى ينكمل معدود

ما نال صب امرادو الا ابتعب وجهاد

صوت الرعد يترك لقلوب ارهيبـــا

بعد هدير الغاه اينبشر بالغيث امن اوراه

وهو لا يستغرب من تغير أحوال المزيان يقبل فتتحسن حاله ويدبر فيخسر حظه ، يزور فيشرق المكان من ضيائه ويهجر فلا يبقى لبهائه اثر. ويستشهد بثلاثة امثال شعبية ، يقول الاول ان الجمال لا صديق له ولا معاشر ، ويقول الثانى ان الذى لا يصبر للمحن لا يبلغ السلو ، ويقـول الثالث ان الذى لا يعطى دنانير كثيرة لا يستطيع أن ينعم بالجمال (I) :

تروف حتى يبدا حالى امعـاك يزيان *

اتفر منى يبدا سعدى امعاك خاسـر

اتزور حتى يشرق امن اضياك لمكان *

اتفر حتى ما يبقى امـن ابهاك اثـــر

كلما قالوا اصدق افلمثال اهل الزمان *

مايل الزين اصديق ولا ايلو امعاشـر

ما ابلغ سلوان اللى مـا صبر لمحان *

ولا املك مزيان اللى ما ارخى ادنانـــر

I) يبدو غريبا أن يستشهد العلمي بهذا المثل ويذهب لهذا الرأى لانه لا أثر لعنصر المال فى العلاقة بين الرجل والمراة كما راينا ، بـل العكس هو الصحيح . وقد صادفنا مثلا فى خلخال امتيرد أن اعويشه تؤكد له أن النظر الى المحبوب خير من الف خلخال ويبادلها الراى فيذهب الى آن وصلها لا يقدر بمال . بل ان العلمى نفسه يقول له المزيان :

«وامتاع الدنيا ليس يغوينى » ، ولعل العلمى عبر عن واقع المراة فى الحياة وميلها الطبيعى للغنى والثراء ، ولعله كذلك يقصد ما تكلفـه حفلات زيارة المحبوبة من نفقات . ومهما يكن فان مثل هـــذا الراى يظل غـير واضح .

وفي روح يبدو عليه بعض التشاؤم يذهب العلمي الى أن ورق المحب ساقط ، فهو دائما نحيل عليل ، يصفر لونه يوما عن يوم ، لا يجد راحة لاعضائه ، يهيم فى النهار ويقطع الليل بالسهر والزفرات :

ورقت مول الحب ساقطا ديما ناحل كل يوم تنظر لونو يصفـــار

كنو اعليل ما يوجد راح فى اعضاه

وايظل ايهوم بالنهار وايبات ايقطع لبهيم ابزفرات

وايـــراعى لوقـــات

والسوايع حتى يفجى النهار ضو وايمد اجوانح الليل ويزهـــر

بنجوم فى اسماه

وينامو كاع (I) لبصار

وابصارو ساهرين مسكين ايبات

ولكنه يتراجع قليلا عن هذا التشاؤم ليرى فى « طامو » أنه لا دوام لاى حال ، فكما أن الرخاء لا يدوم ، فكذلك لا تدوم الشدة ، فيوم حلو كالتمر ويوم مر كالحنظل :

معلوم كيف ما دامت رخفا ما اتدوم شدا

هذا امواجب احكام اصروف الدهر

يوم احلا من طعم التمر

ويوم كمثل الحنظل مـر

ويرى ان طريق العشق والزمان والايام واحد ، فمن سعدت أيامه تهيأ له كل شيء ووجد كل ما يريد ، واذا حسن حظ العاشق وصل سريعا ، واذا ساء نفر بنفس السرعة .

العشق والزمان وليام اطريقهم وحدا

واللى اسكـامت ايامو ياسعـدو

كل شى يسخر بين أيدو

كلما يبغيه ايوجدو

ولا يبعـــاد

I) كـاع : كل .

اذا اسكام سعدو دغيا (1) اتراه يوصل

والى اعوج لو ميمونو (2) دغيا اتراه يجفل

وعنده في «اللائم» ان بحر الغرام عميق وملآن ، يفيض كل يوم ، وأن بحارة كثيرين ضاعوا فى قعره ، وان ريح الهوى يذهل العقل ويبث داء السهر والغفلة :

بحر لغـرام غـارق واعميق اومـالى

كل انهار ايفيض ويحمل كم من رايس فى تخمونجلا

نوريك طبــع لهوى يامــن يصغى لى

ريح اهواه ايشوش لعقل وايفيق ضر السهر والغفلا

وكذلك نجد عند المدغرى بعض النظرات التأملية كهاته التى يرى فيها أن أحدا لا يستطيع أن يهزم العشق والهوى وان كــل المحبين مغلوبون ، وليس لهم الا أن يرضوا بالهزيمة :

لعشق الهوى مارينا غلابو * والعاشق ديما ينغلب

كيف ايدير اللى ما ارضى بالغلبا

وعند المدغرى فى « للا اصفية » ان قتيل الحب لا دية له :

من مات امن اعيون المولوع ما يليه ديا

ويرى ابن سليمان فى «حجوبة» ان صفات الحب عجيبة وان أحدا لا يقدر على اخفائه :

صفات الحب اعجــوبــا * يكذب من قال اغرامو يخفيه

ويرى فى « عطوش » ان عاشق الفاتنات مجنون ، يفقد العقـــل والتدبير ان واجهته جيوش رامية ، وهو لا يستطيع ان يعمر الاوطان :

عاشـــق لريام اهبيـــل ريت رسمـــو ما يــاوى

عقلو مثل الكدرى (3) ايلا ايجيه الرامى بجيوش ما تعمر به اوطـان

وعنده فى نفس القصيدة أن أساس سور الجمال مغشوش :

اركبت اعلى سور لبها اوصبت الساسو مغشوش

---

1) دغيا : بسرعة .

2) الميمون الحظ .

3) الكدرى : الحمار .

كذلك يرى الحاج ادريس لحنش في « فضيلة » وهو يحاول ان ينسي قلبه همومه ، انه لا يثق بالبنات ولا يامنهن الا مجنون ، مواثيقهن باطلة ، لا تفي بالعهود منهن الاقليلات ، يعرفن ميل قلب العاشق اليهن دون تغيير او تبديل فيجازينه بالهجر والتيه والجفاء والصدود ، ويكسرن القلوب من الجور ، ويبخلن بخلا لا مثيل له ، واذا ما اختار أحد من يراها منهن عاقلة فانها تسقيه المرارة فورا دون امهال :

وانقول أقلبي انس همومك مايامن افلبنات غير اللي كان اهبيل

امواثقهم حق باطـلا * من توفي منهم فالعهد اقليلا

وايعرفوا قلب لعشيق يبغيهم ويعرفوا محبتو ما فيها تبدين

وايجزوه ابلمقبـــلا * بالهجر والتيه ولجفا والتنخيلا

ويكسرو لقلوب جور منهم ويبخلوا بالدوام بخل الاليه امثيل

من تختار وتقول عاقلا * تسقيك امرار خرقا لا تمهيلا

رابعـــا : ملاحظـات

لا نريد أن نختم هذا الفصل دون أن نبدى بعض الملاحظات المتصلة بالغزل عند شعراء الزجل :

أولى هذه الملاحظات ان بعض الشعراء يتغزلون فـي نفس النص في أكثر من واحدة ، وخاصة امتيرد والمدغرى والرجراجى ولحنش ، فانهم يبدون متعلقين بمحبوبتين في آن واحد وفي أكثر من قصيدة .

يقول امتيرد في هنية وهشومة :

سر احمـــان

كل للريم اهنيا ولغزال هشوما لوصول اتصول

كل اصل يجبـــد لصلـــو

ويقول في تاجة واختها زهرة :

دام الله الحسن ولمحاسن فغزالى تاجا * تاجا هي اوختها زهرا بودواح

ويقول المدغرى عن طامو وهنية :

شهدوا بين ايلا افنيت واضنيت من الوجنا او خالها واخدود الجلار

والشاما والخال والشفر * واسبابى فالريام طامو وهنيا

ويقول في مينا والبتول :

الله اينصرك يامينا وايدوم عـــزك يالغزال البتـــول

ويقول الرجراجي في طامو واختها ازهيرو :

عازم بوصالك يامرحت الطام * ام النـــواجـل الطـــام

انت اوخيتـــك ازهيـــرو

ويقول الحاج ادريس لحنش في أم الغيث وفاطمة :

كيف اجرى لي ياهل لبهوى في حضرت سلطانت النسا لغزال ام الغيث

اشريف العذرات فاطما * ملوك الزين بينهم ضمت افكاسي

وليست هذه الظاهرة غريبة ما دام الشاعر حتى وهـو يتغزل في امرأة واحدة لا يقصدها بالذات وانما يقصد المثال والنموذج . فاذا كان هذا هو القصد ، فليس يهم أن تكون الوسيلة اليه واحدة او أكثر .

الثانية : ان غزل الشاعر الشعبي لم يكن دائما بالمراة وانما كـان يتجه في بعض الاحيان الى المذكر على حد ما نجد عند محمد بن موسى فـــي «لغزال» الذي قابله أول مرة بباب الكتاب ، وهو غزل لا يختلف عن الغزل بالمرأة في شيء من الحديث عن اللوم والحساد والهجر والوصل بل حتى أوصاف الجمال لا نجدها تتغير وان كانت لا تتعدى ملامح الوجه والاوصاف العامة ، بل ان الشاعر يرى ضرورة اخفاء بقية الاوصاف :

من يوم فاش صدفتو في باب لمسيد (I)

وانظـــرت حـــاجبو واتمـــاد

تمثيل شي اجعاب اهناد

وجبين فايـــق الفرقاد

واخدود كن ورد افتح من لغماد

والخال العنبري والشاما من فوق اخدود

والقد امجرد غنجور باز قرنس وثغر جوهرو انضيد

واشفوف كمثل عسجد

والريق كمصل لشهـــاد

I) لمسيد هو الكتاب القرآني ، ولعلها تحريف للمسجد .

والجيد كن جيد الشاد

حد لوصاف هذا عن قصد امرادى

والباقى واجب نخفيه اعلى جمع لحسود وانزيد انمجد

بل انه يصرح باسمه فيقول :

ياهلي رغبوضي اتمادى * ينعملي ابلوصال يسعد رسمي بوجود لغزالمحمد

ومثل هذا نجده عند المدغرى الذى يقول فى حربة « غزيل » :

دام الله اجمال صورتك ياشادى * انت اعنـــايتـــى وامـــرادى

اغزيل يسلب من جا ايصيدو * زنجار فى عين سيدى محمـــــد

وكذلك عند الحاج ادريس لحنش فى «المهجـــور» حيث يصف محبوبه شابا عالما شاعرا ظريفا فصيحا وفيا صادق القول :

محبوبى ولد الرضا انظيف * واكذاك اخـــلاقو امنظفـــا

عالم قارى شاعر اظريـف * بفصاحـا والصدق ولوفـا

شلا افلحسان ما نصيـف * ما فيه الكل غـــر لجفـــا

. . .

شاب رضى واعذارو ايلا اهجرنى محبوبى انعود بالكشر

ويــــلا جاد برضـــاه نستبشـــر

وقبل هؤلاء جميعا تغزل امتيرد (طرشون) فى طالب حافظ للسور اسمه محمد وكان قد غاب فخرج يبحث عنه فى كل مكان الى أن قابل بعض أصدقائه فأخبره انه موجود بالمدرسة :

ها هو قاللى فالمدرسا طالب حافظ لسوار

يتبــــاها توكت لقمار

ميمين اوحا او دال وضح لهل المعنى اسميتو

زدت انصيبو اكما احكى لى * سلمت اعليــه يا كـــرام

قلت التاج لبها اغزالى * ما لك ياناكر الطعـــام

انت بزهــوك بــه سالى * ونا للتعب والسقـــام

وقد يتبادر الى الذهن أن مثل هذا الغزل يدل على انحراف عند هؤلاء الشعراء وشذوذ فى الجنس ، او ثنائية وازدواج فيه على أقل تقدير ، ربما

كان ذلك صحيحا ولكن الى حد ، ذلك ان مثل هذه الظاهرة قد يكـــون لها تعليل آخر يجعلها مجرد تنفيس عن ضغط المجتمع على الشاعر وكبته لجماح عواطفه .

ثالثة هذه الملاحظات تتصل بما يقال من أن بعض هذا الغزل رمزى لا يقصد منه الى وصـــف جمال المراة او حبهـــا وانما يقصد منـــه الى تعبير اسمى .

من هذا ما قالوا عن «فاطمة» الحاج عمارة من أنها لا تعنى غيـــر فاطمة الزهراء ، ولكن لنستمع اليه يقول فى حربتها :

أنا فطمونى اعلى اهواك اباشت لريام

ونت مفطوما اعلى اعـــذابى يافاطما

والى فرقنا ايلمنا مـــا طالت ليـــام

وفيها يقول :

فاطمـــا يا بـاقة البـــان * ياسالف الظليم اشعورو وفيانا

يا لهلال ادعيــد رمضان * بقواس حاجبك اهدابـك طعـانا

أفاطما ســـود لعيـــان * ادخيل بك لـــك خد السوسانا

افاطما خاتم الشفوف ايتيـــه من لام

أفاطما طاستو ابخمر الريـــق اختيما

واتغارو عقدين امن الدر افغايت لنظام

لعله لا يعقل أن تخاطب فاطمة الزهراء بهذه الاوصاف .

ومن هذا كذلك ما قالوا عن «طامو ابهيج الخدادا» للعلمى من انها لا تعنى هى الاخرى غير فاطمة الزهراء ، ولكنا حين نتمعن فى القصيدة نحس ان الرجل كان يقصد الى التغزل فى محبوبته ، اذ ليس من المقبول أن يقول فى بنت الرسول مثل هذه الابيات :

بتنا اوبات الخمر يتـــزادا

لا اعدو لا واشى لا حراز احسيد

فبساط امحتفـــل مركـــادو

الكاس والشمـــع موقـــود

لي ادراعهــا بات اوسادا

اوريقها بات اشرابى انرشفو ابطعم الذيذا

ايشربو امن احـــلا تـــورادو

غفـــران ربنا مـوجود

ولكن ليس معنى هذا أن الشاعر الشعبى لم يرمز باسم المراة الى معنى اسمى ، بل انا نجد الشيخ ابن ابراهيم (I) ينظـــم قصيدة فـــى « مباركة » يرمز بها الى مكة ، يقول فى حربتها :

حرمت نعم لغنى المالك

ديرى ياللا امعـــاك

شرع المولى ايلا اهداك

نستحسن فى ابها اجمالك

أمولاتى امبـــاركا

ولهذا علق المدغرى عليها فقال بأن مباركته (2) لا تصلح خادمـــة لمباركة ابن ابراهيم .

ومثلها مباركة الكندوز التى حربتها :

جودى يا طلعت لبدر برضاك

حرم ادخيل من سماك

لبها اعطاك كيف ابلانى بك ربنا يهديك

أمبـــاركـــا

وفى آخر بيت يحل الرمز فيقول :

واسمك ميم اوكاف لغنى سماك

واحذف باور اللى ادراك

يعرفنى جبت لاسم للذى هويك

أمبـــاركـــا

I) وهو معاصر للتهامى المدغرى .

2) وهـــذه حربتها :

نادى نادى اليوم فالك ❋ واخصب بعد الجفـــاف لاك

واهلالك تـاك افلفـــلاك ❋ والوعد اعلى الضيا اصفالك

باللى ترضى امبـــاركا

أما آخر الملاحظات فحول مدى صدق الشاعر فى هذا الغزل وبالتالى فى حبه ، ولعلنا لن نتردد فى الشك فى صدقه وهو يتغزل فى عشرات الفاتنات وبنفس الاوصاف والاسلوب . ونخشى ان يكون الحب الـــذى عبر عنه مصطنعا لا حقيقة له فى الواقع وان يكون نظمه فيه مجرد صنعة ومهارة وتقليد . بل انا فى بعض قصائد « التراجم » نجد الشاعر يصرح بذلك ، فابن على يعترف فى الحجام بانه لا يعرف من أمـر الوشم شيئا وأن المسألة بلاغة ومهارة :

غير ابلاغ فالشعر وانظامو *

عمرى ما اوشمت ولا نعرف واشم ولا داخل لكلوف

والفلوس يقول مثل هذا فى دمليج ازهيرو :

ليس عندى دمليج يالسايل ولا شفتو اولا اقبضتو فيـــديا

الا ترجما امن اتراجم الوهب اولوزان

ولكنا لا نريد أن ننفى عن الشاعر صدق الحب وبالتالى صدق التعبير، أو بالاحرى لا نريد ان نقطع بهذا النفى . فمما لا شك فيه أن اغلب هذا الغزل من النوع الاباحي المادى الذى لا يكاد يكون لصدق العاطفة فيـــه وجود ، وقد كانت حياة معظم الاشياخ تساعد على هذه الاباحيةمن سهـــر وشرب وما يتبعهما ، وهو جو موبوء لازال بعضهم يتنفس فيه حتى اليوم ، ولعلهم اتخذوا الحب وشعره ذريعة لستر شهواتهم ونزواتهم واحاطتهـا باطار عاطفى عذب جميل وربما كان بعض الشعراء يقلدون ناسجين على منوال غيرهم دون معاناة للحب او تجريب للاباحية ، ولعلنا بالنسبة لمثل هؤلاء نستطيع ان نذهب الى تعليل نفسى مصدره الكبت الذى كان يسيطر على بعض الاوساط والذى كان ينفس عنه الشاعر بالقصيدة أو القصائد ينظمها دون ما تحرج من مجتمعه . وقد ينطبق هذا التعليل ليس على الشعراء فقط ، وانما على الحفاظ والمنشدين كذلك . ونكاد نميل الى تفسير آخر أساسه اتخاذ أوصاف الحب وحكاياته وسيلة جميلة للتسلية وملء جزء من الفراغ الكبير الذى يحسه الشاعر فى ذهنه وقلبه .

ولعلنا لن نغفل فى نطاق هذا التفسير انتقـال الشاعر الشعبـى الى بيئة القصور ومحاولته امتاع الكبراء والامراء والملوك .

ومع ذلك فلا نستبعد أن يكون بعض الشعراء غير هؤلاء وأولئك تغزلوا عن حب صادق في زوجاتهم . وقد صادفنا فكرة الزواج عند أكثر من شاعر ، فبوعمرو في «زهرة» يذهب الى انه لا داعي لحيرة العاشق ، فبالصداق — وهو كناية عن الزواج — تتم العشرة ويلم الشمل :

والذي عاشق ما يحتار * بالصداق اتم العشرا

وكذلك يذهب المدغري في « طامو وهنية » الى أن كسب الجمال رهن بصحة الملكية ، اى بعقد الزواج يوثقه القاضي :

ما يثبت قاضي اهل النظر * للزين اكسبتو ابصح الملكيا

وقد أكد لنا أكثر من شيخ ان قصيدة امتيرد المسماة « اتوابى فاطمة» والتي سبق ان مثلنا بها لعنصر التأنيب والوعظ في مواجهة صدود الحبيبة ، لا يعني فيها غير زوجه ، بل ذكروا لنا أن فاطمة هذه نشأت معه في البيت تحت رعاية أهله الى أن بلغت سن الزواج فزوجوها له ، ولم تكد تمر سنوات معدودة حتى تغيرت عليه وأذاقته الوانا من العذاب فاضطر الى طلاقها ، ولكنه لم يقدر على الفراق فنظم فيها أزيد من عشرين قصيدة ، ومع ذلك لم ترق لحاله فما كان منه الا ان أنشأ هذه القصيدة المليئة بالعتاب والتأنيب والوعظ .

ومثل هذه الاخبار والحكايات نثيرة على لسان الرواة والحفاظ ، حتى انهم يكادون يجدون تعليلا ونسبة لكل قصيدة وخاصة قصائد المدغري ، فانهم يجعلونها قيلت في سيدات القصر ووصيفاته ، وينسجون لذلك قصصا وحكايات أقرب الى الخيال الشعبي منها الى الحقيقة والعقل . والواقع انه قد ينطبق ذلك على بعض قصائده لا سيما وأنه كان مقربا للسلطان المولى عبد الرحمان وولده سيدي محمد ، ولكن ليس بالدرجة التي تروى عن الحفاظ . واذا انطبق هذا الراى على المدغري فانه لا ينطبق على غيره حيث نستبعد مثلا ما يقال عن «فضيلة» الحاج ادريس لحنش بأنها زوجته هجرته ولجأت الى قصر السلطان فنظم فيها القصيدة ، وعلم السلطان بالامر من القصيدة نفسها فطلب منها ان تكف عن الهجر وتعود الى زوجها ، فمثل هذه القصة يبدو عليها لا شك أثر خيال الرواة .

الفصـل الثاني

في الحيـاة

الحياة ظواهر وأوضاع وتيارات ، تكيف المجتمعات وتطبعها بسمات مميزة خاصة ، وتلزم الناس بالسير في ركابها راضين عنها أو كارهين . والشاعر الشعبي ، كانسان يعيش في مجتمع ، مجبر على التزام نمط الحياة الذي تفرض معطياتها عليه ، ولكنه كفنان مرهف الحس عميق الادراك ، ربما رفض هذا النمط وثار عليه ، وان فعل فان مظاهر الثورة تبدو في الصراع الذي يعتمل في نفسه يكشف من خلاله عن ردود فعل تمردية تختلف باختلاف نظرة الشاعر الى الحياة .

ونستطيع أن نلمس نظرة الزجال المغربي الى الحياة ، مع ما قد يكون فيها من وجوه التمرد ، واضحة في جانبيها التجردي والحسي ، فيبدو في هذا راغبا في الاستمتاع بالحياة وملذاتها ، مقبلا على الشرب في ولع واسراف دون اعتبار للتحريم الديني وتقاليد المجتمع ، ويبدو في ذاك ساخطا على الدنيا رافضا لمتعها ، في استسلام لقضاء الله وقدره ، وفي غير قليل من من الشؤم والقسوة على الناس ، يستنكر سلوكهم السيىء يعزو اليه كل المصائب والنكبات ، ويحاول وعظهم وارشادهم واقناعهم بأن الدنيا تافهة فانية ، وبأنها ليست غير دار عبور لا داعي للتعلق بها ولاجدوى .

ومن عجيب أنا قد نصادف التيارين يختلجان في نفس الشاعر الواحد ، وكأنه بتجرده وميله الى الزهد يحاول التكفير عن افراطه في الحس والمجون . وليست هذه الظاهرة غريبة كما يبدو لاول وهلة ، فقديما عرف الشعر المعرب نماذج حية لها تجلت في اثنين من أكبر شعرائها هما أبو العتاهية وأبو نواس .

ولعلنا في غير حاجة الى البحث عن مدى صدق الشاعر الشعبي في سلوكه لهذا الاتجاه أو ذاك ، اذا ما اعتبرناهما ظاهرتي تمرد على المجتمع والحياة ، وهو تمرد لاريب يطغى فيه الجانب التعبيري اللساني على جانب الممارسة والسلوك ، فليس ضروريا اذن أن نعرف ان كان الشاعر يعبر عن واقع حق حين يرفض الحياة أو حين يتشبث بها ، وان كنا لانخفي شكنا في واقعيته كما لم نخف من قبل شكنا في صدق حبه للمرأة والجمال . ومن يدري فلعله في مجونه انما يكمل اطار هذا الحب . وحتى بهذا الافتراض

فاننا نظل فى نطاق التمرد والتنفيس عن كبت المجتمع ، دون اغفال لعامل التسلية وملء الفراغ من جهة وعامل امتاع الملوك والكبراء ووصف ترف حياة القصور من جهة ثانية ، وعامل التقليد والصنعة من جهة ثالثة ، وخاصة عند الشعراء الاوساط الذين لا يعبرون الا من خلال تجارب الآخرين ، وان كنا لا نستبعد عن بعضهم صدق الممارسة والمعاناة ، سواء لهذا التيار أو ذاك.

الخمر والطبيعة

وجد الشاعر الشعبي لذته ومتعته في الخمر ونفسه كذلك ، فأمعن فيها النظر والفكر ، متفننا في تسميتها ووصفها وحكاية قصتها ، ومتحدثا عن الساقي وأواني الشرب ونظامه وأدبه وجوه ورفاقه، محاولا اغراء من لم يشرب بعد في حث على الاستمتاع بملذات الحياة واغتنام متعها ، مادام الله يغفر الذنوب ويعفو عن الزلات . وكان الحديث عن وقت الشرب ومجلسه سبيله الى النظر في الطبيعة والكون اطارا جميلا لهذا المجلس .

أولا : الخمر :

وتعرف قصائدها بأسماء «الدالية» أي الكرم و «الكاس» و «الساقي» و «الساحي» و «الخمرية» و« الخمارة» .

لم يترك الشاعر الشعبي إسما من **أسماء الخمر** المعروفة لم يستعمله ، فهي مدام عند امتيرد :

آش من فرحا دون امدام

وهي الراح والصفراء عند ابن علي :

كب ياساقي كاس الراح لعتيق

. . .

كب ياساقي هات لنا * طيب لمدام واسقنا بالكيسان

. . .

داروا بالصفرا يا نديم ايجاوبو اللغا في لبهيم بالكاس اولاحوا

وهي الرحيق عند ابن سليمان :

كاس الرحيق داير * عقلي حاير

امعاه طاير * ندري رشفاتو

وعى دم العنب عند المدغرى فى «الكاس» :

دم العنب الصالح * فيه اعلاج أجوارح * ناس المعنى والصلاح

وعنده كذلك فى احدى قصائد «الساقى» أنها بنت الدوالى ودم العنقود :

هاك دم العنقود افطبت لسأقى (I) * بنت ادوالى امخنت فحدايق

اعلى السقا واسراير توثيق

بل انا نجد المدغرى — وهو شاعر الخمر الاول — يستعرض معظم أسمائها فى «الساقى» الذى يقول فى حربته :

قلت أصاحى هات لى الكاس اغفل وارجع لى اجحا ونخلنى يا حضار

طاح على القمصال ابلبتر * سلك راسو وسار هربان اجهار

فيذكر منها المدام والسلافة والخل والقهوة والمسطار والمخلتم والنزيف والقرقف والجرحون والرحيق والخندريس والنشوة والبرنيس والشتايا والشموس والشمول والمشمولة والراح والمعتقة والحميا والصارعة وبنت الدنان والرموز والقيارة والصهباء والصافية ودم العنقود وفاجية الهول ومفشية الاسرار والجريال والعجوز والحمراء والمقدمة والهرمزية والمذهبة والقسيسية والشربة وحليب الدالية ولبن العصارة وقتالة الاحزان وبنت الطرب والخمر وراحة الافكار والمشعشعة والعراقى والصرخدى والجوهرى والصندلى والمزايجى والاصفر والعذراء والماحيا(2) والغضنفر والطاوسى والفتاك وعصار الخدود وبوغليا والخمار واللماح ومراح البصر وبنت الكروم :

واصغ نشرح لك لمدام أوصفو وسميتو نحسبها لك اسطار

كن الطيف اظريف امشتمر * سلفك عرضى انزيد لك دون احزارا

نحسب لمدام والخل والقهوا والمسطار ولمخلتم(3) وانزيف اتجار

قرقاف اجرحون مشتهر * ارحيق اخندريس نشوا بتارا

برنيس أشتيا والشمول امتمولا اوراح ومعتق للتخمار

حميا والصارعا اذكر * بنت الدنان والرموز اقيارا

الصهبا والصافيا اودم العنقود امفاجى الهول افاشى لسرار

(I) لمساق الطعم .

(2) أى ماء الحياة والمعروف فى المغرب أنه مشروب خاص باليهود .

(3) فى م 2 ص 4I بالخاء وفى ج I08 ص 4I بالحاء .

والجريال العگوز ابلكبــــــر * غارت من جاريا اعروسا فمنـــارا

الحمرا ومفدما وهرموزيا وامذهبا وقسيسيا تـذكار

الشربا لدا المن اسكـــــر * احليب الداليا ولبـــن العصارا

قتالت لحزان دارت اقلايد فى لبا اعلى ابساط احمر مــن عكــار

بنت الطرب الكل من ازهـــــر * والخمرا افلبريق راحت لفكـــارا

شعشعا وامشعشعا واعراقى وصرخدى اجوهرى ما كيفو دكــار

الصندلى وامزايجى الصفـــر * والعدرا ماحيا اسريعا فالغــــارا

وإغضنفر والطاوسى وفتاك اعصار لخــدود بوغليا ياخمــار

واللمـــاح امراحـــت لبـــصر * هادو اسميات بنت لكرم اجهــــارا

والخمر فى أوصافها على حد مــا نجد عند محمد بــن الوليــد فـــــى «الصفرا» بديعة الحسن المكمول، ودرة أسرار كأنها قمر اشرق بضيائة أو نجم، فرحت بها الخلاعة وبلغت مناها ، يطلب منها ، أن تصول ببهائها وقـــد ايدها الله بالقبول ، وبجلها وأثنى عليها ورفع شأنها ، بها صال الكرام، وفيها وبالهامها نظم الشعراء وكل من لم يزه بها يهجر ويضيع عمره ، ثـم انها حازت رضى الملوك وتزينت لها الفاتنات وذاع صيتها فى كل بلاد الله :

صولى صولى ببهاك يابديــع الحســن المكمــول

فرحت لخلاعا بك يالصفرا وابلغت امناهـــا

يـــادرت لســـــرار

قـــال يانا سيـــدى وانت كـــن قمـــرا

شرقت بضيـــاهـــا وايــــلا غـــــرار

صولى يالصفرا صولى ربى اعطاك

اعطاك ربنا لجليل

حسن لقبول والتبجيل

واسنا مراتب التفضيل

بك لكرام صالوا حتى نالوا

اعليك قالوا لكلام أوضحوه لشياخ هل المعقول

ضاع ازمانو من لازهى امعاك

ايا موعياها مبگاه اينهجار

وانت أرضاوك للوك ارفعو اثناك

غنمو افصورتك ووانك

وبنات الزهو قدامك

برزوا زينو لوصالك

ونت الله شكرك وارفع قدرك شاع خبرك

غرب اصحرا أفايجا وامداين واتلـول

بك اسجيت لكلام ساقت المايا وانشدناهـــا

بـوجـود المـــسرار

ويصفها ابن علي في «الصبوحي» بأنها في لونها ذهبية كالسماء، وحبابها كالشهب ترمى بها الرقيب :

والســراح كالسما ذهبيـــا * يرمى اعلى الرقيب اشهابو

وقريب من هذا نجده عند المدغرى في «الديجور» حيث يشبههـــا بالهـــلال :

والصفرا تسطع كهلال واكواعبها مثل النجوم فالخمرا عاموا

وهل الخمرا فبساط كل عذراوى حايز ريـــم

وهي عنده في «الزهو» معتقة من عهد الهرمزان :

صف لي تدراج الكيسان * من امدام اصرخدى ذوقى امعتقو دهقانى

افعاهد اقديم الهرمزان

ويحكي المدغرى **قصة الخمر** في «الساقي» فيبدأبالترحم على البستانى الذي غرس الدوالي في روض مـزهر، وغمرها بالمياه الى أن برزت اوراقها واغصانها، وبدت في ابتهاج متطلعة للعلو، واعتنى بتربيتها وكأنها صبيات تربيهن أمهاتهن يحملنهن في الحجر ويرضعهن من لبان ثديهن المدار، ثملا يلبث النمو أن يسرع بهن فيصبحن شابات بالغات تطل نهودهن وتنسرب شعورهـن على الصدر ويلبسن ثياب الحرير . وما أن اكتمل نمو هذه الدوالي حتى خطبتها ريح الصبا للريح الغربية (1) وتزوجتها في حفل بهيج، انطلقت فيه مياه

(1) الريح في اللهجة المغربية مذكر

الصهاريـج والفسقيات وعـزفت موسيقى اصـداف المطر الغـزير ، وحضر الهزار ، وقدم الفجر هديته نسيما طيبا طربت له الاطيار ورقصت أغصان الشجر . ثم حملت بعد ذلك وتوحمت على ثريا ضريح سيدى بلعباس ،كان أهداها له السلطان اثناء زيارته ، فأنجبت عناقيد شبيهـة بهـذه الثريا ، فاقت الذهب فى صفاء اللون ، ما كادت تنضـج حتى جناها ولـد الغرام ، وعصرها فى ثوب الهوى وصفاها وعتقها فى صون الى أن عبقت نسماتهـا تبعث على النشوة وتنفى الهجر والصد والاسقام والاكدار ، ثم خرجـت لحضور مجلس الشرب صفراء منيرة تحيط بها الكؤوس، وكأنها البدر يوم اكتماله قد التفت حوله النجوم :

أرحم اعـلى الغراس يوم غرس ادوالى فى ارياض امنعنـع بنوار

واسقاها بمياه تنهمـــر * ولقحـت ادواحهـا وتاكت مسرارا

ربهـا تربيت الصبيـات فحجـور امنها اعلى نهديـن المـدرار

بتشرغين افغايت الصغـــر * طلقات اضفرتها اعلى غيظ الجـارا

وبعدها بالرضا رجعت اعزيبات احكيتها ابنات المجد الجـدار

عن لبلوغ اطفحت للنكـــر * ديك الهادى الوات بالتيه اكـرارا

بلغات أطلـو انهودها واسوالفها جات حايفا عن ليمـن وايسار

لعبو فوق ارخامت الصـــر * ولبست اقماش سندسى عند ازكارا

اخطبها ريح الصبا الريح الغربى عقدو ازواجها بحضور الهيزار

فبساط الفرجات والزهـــر * واخصوص اتفور والصهارج همـارا

بشهود الآلى وصيغت الآلا صدف الجواهر أمن المزن الغزار

راحت فـى عبروقها اخضر * من فوق اسريرها زهوا للنظـارا

جـاب الفجر اهديتو ابطيب انسيمو غنات لو انزايـه لامت لطيار

ورقصت القطبان فالشجـــر * وارخات اكمامها أعلى الفرج ابشارا

تكلات أصاحى افروضها واتوحمت اعلى اتريت الطرشون الصرصار

سيدى بلعباس ينذكـــر * أهداها لو اهمام لشراف ازيارا(I)

ولدت شى اعناقد كفها تسطع بضياها اولا مثلها ذهب افتشحار

(I) تطلق الزيارة على الذهاب الى الضريح وتطلق كذلك على مايقدم له من هدية أو نذر ، وهى فى البيت بالمعنى الاخير .

صنـــــع الله المالـك لكبــــــر * احكمتو ابلسرار لعقول احيارا
اجناها ولد لغرام اعصرها فى توب لهوا وصفاها للتقطار
عتقها فى غايت لخفــــــر * وعبقت انسومها ابنشوا بتـــــارا
انفات الهجر اصد والبين اضيـق الهم والجفـا واغصايص لـمرار
والسقما فالقلب ولكــــدر * زالت بشعاع نورها عن لحضـارا
حضرت الصفرا اكم البدرليلت واحأكواكبو اكيوس اضياها ستنار
كيسان الفجر امع التبـــــر * منسم لبساط عل الخضرا سميــارا
وهو فى «الساقى» الآخر يرسم صورة لدالية منعمة فى الحدائق دائمة السقى ، وقد التوت أغصانها فى حلقات على سرير موثق ثابت ، مائلة معربدة فى كسل وعنفوان ، وقد تدلت منها عناقيـد كثريات فـى السمـاء علقـت بأسلاك من الذهب :
هاك دم العنقود افطبت لمساقـــى * بنت ادوالى امخنت فحدايـــــق
اعلى السقا واسراير توثيق
اغصانها عربطتوالتوات افلحلاقى * فكساويها امكسلا واعبـــــارق
امشرغنا بخراس التحليق
ولعناقد مثل اثريات فالافاقــى * واقمصلها امعلقا بتعالــــــق
امن اسلوك الذهب افتوريق
أما الساقى فيراه امتيرد مولها حيران ، ويسأله فيرد بأن السبب كامن فى الخمر وفى الجمال الفاتن الذى ينظر اليه :
ياالساقى مالك ولهان * عدلـى لا تكتم سـولان * مال حالك مالـــو
قال لى مكوانى حيران * خاطرى والساكن دهشان * والى به قتالـــو
لدام أحسن الحسـن * والنظر والعشق الفتان * والهوا واهوالـــو
ويطلب منه ابن على أن يكون مطيعا للفاتنات ، وأن يلبى طلبـات الحاضرين وأن يكون منتبها
أعمل فالحضرا ما بغينا * طع لبها اوكن فـى حالك يقظان
ويريده المدغرى أن يكون لبيبا واعيا منتبها ، وأن ينشد مواويــــل وأشعارا حلوة رقيقة ، وأن يوقظ السكارى عساهم يفيقون ، وأن ينحنــــى امام سوداء العيون ويقبل الارض بعينه بين يديها،وان يزهى القلوب ويحركها

بالوتر والطبوع الشيقة :

كاس دم العنقود من لبريق ساقى ٭ وابغى ساقى البيب دهرى فايـق
فـى اغزيـل الموال ارقيـق

شم أساقى واسقى غسق ارماقى ٭ وانغم بشعار كن حربى عايـــق
وكمّض الطايح ياك ايفيق

. . .

بسندق أكبل الارض بشفر لحداقـى ٭ وازها صحى لقلوب من لعلايـــق
ابلوتـر واطباع التشويـق

وقريب من هذا يقوله العلمى لساقيه يوصيه بأن ينحني أمام المليح :

طار اغراب الداج ولخمر فالاوانى باقـــى ٭ يـــا ســـاقـــــى
آهدى كاسك اللمليح واخضع لوبتبنديقـا ٭ وافهم معناتى اوعيـــق

ويريد المدغرى من ساقيه كذلك أن يشمر عن ساعده وأن يسقيــه ورفاقه بفراسة حتى يفرج عنهم الضيق والهموم :

قـرب الصفـــرا هـــات الكـــــاس
امن ايديك اسقنا ياصاحب الخمر بكياســـا
مزق اضنانا والتكبيس

شمـــر اكمـامـك للتـــوناس
طوف واسقى واهدلنا افناجلك بفراسا
ما بحالك فالزهـو اونيس

ويطلب محمد بن الوليد من الساقى أن يكون خفيفا سريعا فـى الصب غير بطـــىء :

ألساقـى ضيف اللـه ضيف ٭ غدر الكاس أكـون اخفيف
باش تطفى هذا اللهفا

وعند محمد الشليح فى «الكاس» أن حبيبته هى التى تسقيه وتسقى جـــلاســـه :

كبى ياباشا رادفى كاسى من خمر لمراش
فـاجـى تتشـــواشـــى ٭ يا هلال الخـودات اعبـوش
كبـــى الـكـــاس ٭ واسـقـــى جـــلاســـى

طالت الفرجا يا سلطانت النسا * بوجـودك واكـدرنـا اتنسـا

مـا كـان بـاس * فغسـق حنـداسـى

بعد تكت ليلت لوصال غالسـا * غابـو اهـل لفجور ولحـراسـا

ومن نظام الشراب وأدبه ما يلفت اليه امتيرد نظر الساقي،حيث يريده أن يوقظ الحسان ، وأن ينتبه لدور كل شارب والا يكف عن الصب طالمـا الليل مسدل ستاره :

ألسـاقـي وكـض لريـام * رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاه

كـب واسقي مازال الليـل

ويطلب منه ابن علي أن يسقي ويشفع ، ففي ذلك علاج العاشق :

كب ياساقي الراح لعتيق واردف للعشيق هاداك اصلاحو

بوجود ابنات الحي كب ياساقي كاس الراح

أما ابن سليمان فيريد منه اذا عربد ووقع أن يوقظه بانشاد الاشعار، وأن يعيده للسكر من الرشف بمجرد صحوه :

اذا نطيح وقظني بشعار النظام

ما نصحا حتى اتردني بالمرشف سكران

ومن أواني الشرب يذكر ابن علي الكاس والابريق :

كب يا ساقي هات لنـا * صب لمدام واسقنا بالكيسان

حتى طار اغراب لغسيق واركع فوق كاس لبريق فرجا بصباحو

ويذكر كذلك في «الصبوحي» أواني البلور :

كب لمدام ياساقي من بلار * اصغ اوطف بالخمـارا

ويذكر ابن سليمان الكؤوس والفناجين الملونة :

كب اكيوس افناجل لخمر نشهد عل للوان

ونجد ذكر الفناجين عند المدغري كذلك :

فق أصاح هات افناجلك واغنم نشوت راحي

ويزيد عليها الطاسة :

كنت امهني اسليم ما نعرف ياخناري * كاس اولا طاسا اولاخمـر

اولاندري اشروطها فحضرت الخمارا

وعند محمد بن الوليد فى «الصفرا» أن أوانى الشرب أكواب مختلفة، منها قرفية فخارية ومنها صدفية وخزفية ومنها زجاجية وبلورية ، ومنها ذات ألوان صفراء وزرقاء :

واكوابو المشتمرا

اعلى الصناف داروا

اكداك اوجاروا

احبيب حـــار

لضى ارفيع الشراب بهم وانزاح الهول

قرفى واصداف زاجى والودع والخابورى انزاها

والعلـــج أبــــلار

وعند العلمى فى »الساقى« أنها كؤوس من زجاج عراقى (1) شفاف :

كب الخمر الخارقـا * فى كيسان ابنادقا(2) * من زاج ابلاد العراق

تظهر خمـرا بارقـا * فالاوانـــى شارقـا * كلون اسحيق الرماق

بل انا نجد ابن سليمان لا يريد من ساقية أن يقدم له الخمر فـــى الكؤوس ، وانما يريده أن يملأ فمه ويسقيه ، ويكفيه الريق بلا خمر :

أنا ابلا اكيوس اسقينى * عمر امراشفك واعطينى * الريق ابلا اخمريكفينى

والوقت المفضل للشرب عند امتيرد فى «الساقى» هو الليل :

زد غـدر كـاســك وامــلاه * ليلنا بالعز اغنمناه

. . .

بعد قالو ليلتنا يالشيخ لا تنساها

وعند ابن على أنه يمتد حتى الفجر اذ يبدأ ستار الظلام يرتفع كأنـه غراب طار وركع فوق الكؤوس والابريق ، ايذانا بالصبح حيث بدت خيوط الشمس الاولى مشعـة تضىء غرة الفجر الـذى بـدا كسلطان جميل تبايعـه الاشجار وتنحني له ، وقد هب نسيم البستان طيبا وألقى جبين الفجـــر ضوءه على الكواكب وأخذت الطيور تغرد فوق أغصان الشجر المائل ، وفاحت

---

(1) يطلق فى المغرب هذا الوصف على زجاج الملون .

(2) لعل المقصود بها كؤوسا مستوردة من مدينة البندقية الايطالية .

الازهار المختلفة من ورد أحمر وسوسان منير كالمباهي بسلاحه، والخابوري(1) يخبر بحكم العاشق ، والياسمين البهي الكاوي والخيلي(2) مشمرا للكفاح بخيله ، والنرجس ترعى عيونه زهر «الزين والبها» في الغدو والرواح ، والخيزران تتمايل قضبانه تميس مع الرياح :

حتى طار اغراب لغسيق واركع فوق كاس البريق فرحا بصباحو
والبستان اعلى انسيم الخضرا طيبو فـــــاح

واجبين الفجر ضري اعلى لكواكب واطيار ادواحنااعلى ضيو صاحوا
فوق امناير لغصان كل طير ايغرد بفراح

واهمـــام القبلا كشريف حاكـم دار العجلا غـرت مصباحـو
أمر لشجار ايبايعوه لحسن بجمال الصبـــاح

مالت لشجار وفاحت لزهار وغنات اطيار اعلى لفجروتلقاحو
ضحكت بالفرح اتغاير الزهر في ظل اللقـاح

شف الورد العكري ايفوح شف السوسان في امصابحواتبها ابسلاحو
شف الخابوري ايخبر الحكم لعشيق الفضـاح

شف ابها حسن الياسمين كيوخلاني في حالتي امكثر تجياحـو
شف الخيلي خيلو امشهرا مشمور اللكفـاح

شف اعيون النرجس كتراعى لبها والزين في اغداه وفرواحـو
واقوام اقضيب الخزران يتمايل بين اريـــاح

وعند ابن علي في موضع آخر أن الليل قـد أقبل سلطانـه يسـدل الظلام بأجنحته ، ويملأ الفضاء بعساكره وينصب خيامه كأنه فارس سوداني شجاع يمتطي فرسا أدهم ويسل سلاحه ؛ وتجاوبت معه النجوم فـلاح ضياؤها في الجو ، وتحت علمه أخذت بدور الجمال طريقها للمكان وكأنهـن عرائس لم تنظر العين مثلهن ، وفي المكان مدت فرش ملونة بين الاشجار والروض البهيج وجداوله المنسربة :

حضر بالك ياعاشق لبها شف اهمام الداج مد بالظلام اجناحو
عمر لفضا بعساكرو ودق اخباه افلبطـــاح

(1) هو النوع المعروف في الفصحى بالخابور .
(2) لعل أصله الخيري وهو الزهر المعروف بهذا الاسم في الفصحى

نحكى سوادنى اشجيع يتبختر بغفارتو اعلى ادعـم سل اسلاحـو

وانجوم القبلا لاجلو فالجو اضياهم لاح

وابدور الزين القاصرات تحت اعلامو يامن اتسال للمرسـم راحـوا

همان اعرايس كل ريم شلا شافت للمـــاح

لبساط ايحير لعقل بفرشات عل للـوان مـا بين ادواحـو

والرياض امبهج بغرايسو اجداول بيـن ادواح

أما ابن سليمان فيستمر مجلس أنسه يوما وليلة ولا ينتهى الا فـى العشي وقد اصفرت الشمس ، وهو وان لم يشف لوعته فان الوقت الحلو الذى أمضاه على قصره خير من مائة عام :

هذا انهارنا جوزناه(1) اعلى التمام

شمس لعشى راحت صفرا * فالزين ما اسخت ابنظرا * باقى ماشفت الخضرا

لبلا اويوم عندى فعواض اميات عام

وأما العلمى فى «الساقى» فيفضل الفجر :

راح الليل اعلم لفجرتاك الصبح الراقـى * يـَـا سـَـاقـــى

دوز اعلى الخضرا بفناجلك تزيان الموسيقى * وازرع(2) للساهى ايفيق

وكذلك يفضل المدغرى فى «الصبوحى» :

اغنم الصبوحى ياانديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار افغناها

لاترتى للبرنيس كب ورا (3) ربى غفار

---

(1) جوز بمعنى قضى وامضى ، وهى من جاز بمعنى فات ، لاتستعمل الا فى المنطقة الشمالية من المغرب اما في الجنوب فيستعملون دوز وداز. ويبدوغريبا أن ترد عند ابن سليمان الفاسى

(2) ازرع هنا بمعنى صب له أو قدم له الخمر ، وهى توحى ـ سواء فـى هذا الاستعمال أو غيره ـ بالحركة الخفية السريعة .

(3) أرا بمعنى هات لاتستعمل الا بهذه الصيغة كاسم فعل الامر ، ولعـل أصلها ارى مضارع راى فى المتكلم كأن الطالب يريد أن يعطى الشيء حتى يراه بعينيه .

والوقت عند الحاج ادريس لحنش فى «الساقى» هو العشية عنـــد الغـــروب :

روفى اعليا واهدى لنا عن فرجت لعشيا امدام المباح

أساقى عقب النهار هذا فوز ابوقت السرور واسقنا بين ادواح

شف الــذهبيا الرايحـــا * لبست ثوب لغروب والليل اغشاها

ومثله يريد انجار فى «الذهبية» أن يغتنم لحظات الغروب ليشرب :

غدر كاسى يا مديـم قبل اتروح الذهبيـا

شف لبهيم حين اتمكن فظلامو اغلب ضى النهار

ويرسم امتيرد فى «الساقى» اطارا طبيعيا **لمجلس الشرب** فى غايـــة الروعة والجمال ، فالطيور تغرد وتسبح والحسان ينشدن القصائد والعروبيات والاغنيات ، والاغصان تتمايل والنسيم يهب :

شـــاع لخمر فبنات الحى باح وافشا مكنون اسرارها وطار احياها

لاح طـــير الحســـن الكسيـــل

ذك فقصايـــــد تنشـــد ذك بعروبها تلفظ والخرا بغناهـــا

كنعت المـايـا والــــذيـــــل

تـــاك الفجر والليــل انشال ولطيــار اتسبح المـن انشاهـــا

ولغصان اكساها تبجيـــــل

هب مـــن جو لفلاك انسيم بعــد طولت لمقام البين للوداع ادعاها

كينـــادى بالعـــزم ارحيـــل

ويقول امتيرد كذلك فى «فرجة لعشية» :

بالصفرا والكيسان خمرا نشوا معصورا

ما بين العرسان ولعرايس وكيوس اتروج وعلى حضرت لملاح

هاذى تسقى واتزيد

والنوبا ماتنسها

ديك اتجاوب بنشيد

يامحلا صوت الغاها

لخرا ترقص واتميد

بكرايح شف اهواها

هادى تسحر لدهان

لخرا تفتن مبشورا

ديك اثريا ديك كمنارا فغساق اديوج

شرق اضياها وضاح فى حرجا عل للوان

بخلاعتهم مشمورا

يتمكن ويروح امن انظرهم تايه مفلوج

يتشكى دون اجراح

مايفدهم ثمان

هل لخدود المعصورا

ملا لتقهم مائتج ماشلا فنتوج

يوم اوقرها يشحاح

ويستعرض المدغرى فى «الساقى» أنواع الطير التى اعتلت أغصان الاشجار مغردة مسبحة لله فرحة طربة ، ويشير الى المغنى ينشد الاشعار وعازف العود ينقر برفق فتزهى لنقره الريام ويقمن للرقص :

شف يا ساقنا لغراس * خاطبين اعليهم لطيار قاطبا عساسا

ايسبحو امن له التقديس

شف لمام ابشوقو ماس * ولبشيقايغنى بفصحتو الغاءاتواسا

جاوب الحريل والسمريس

شف كمرى يرثى فهواس

امجاوراه امقنين ابصوتها الهول اتناسا

شف كلال امثيل اعريس

شف لطيار افطيب اغراس

اكما ازهنا لاريب ازهاوا افرحوا دون اعكاسا

كل طير افمعلاه اوجيس

شف غانى ينشد عساس

شف مول العود ايزهى اريامنا بسياسا

لــه قـامــوا فـرحــا وارقــيس

ونجده كذلك فى «الساحى» يصور جو المجلس الساحر فيذكر المغنى ينشد بأنغام وتواشيح يصاحبها العود والرباب ورقص الفاتنات :

ماشفت أساحى ارحيق ينظم فالكاس اعقـود ويضحك فالشمع النواح

والغانى بنغام فاصحــا * لوتاه احجاك من الخمر الكفاحا

ماهــزك تــوشيــح * والبستان القيـــح

والـعـيـدان اتصيــح * والربـاب الـلى نايــح

لو شفت ابتلميــح * فنجــات افتلميــح

بنغـايــم واشطيــح * ولمــقــايـس وادواوح

ويضيف المدغرى فى «الصبوحى» الى هذه الآلات الجناح والجنــك والكمان والسنترى :

شف العود والقانون والجنح والجنـك اكمنجا واسنتر احداهـا

وارباب امع الآلى ايجاوبو بنغايـم لـوتــار

شف الالى موسيقتو شهات اعلى حسن انغايمو فى ميزان احضاها

واكمل اصبوحنا على الرضا مانزلو حرار(I)

ولكنه لا ينسى التعريجة

كب الخمر الكافـح * أصاحى واتراوح * بالتعريجا واكباح

ومثل هذا التصوير البديع لاطار مجلس الشرب نجده عند الرجراجى فى «الساقى» حيث يقول :

شف البستان الرفيع مبهـــاج

موجود فيــه كل مـاكنحتاجـــو

شف اغصان الروض كعرايس داحت بدواح

بخلاخل وادبالج اعقود الجوهر لوضيـــــح

وادواوح واكمامهـا ابلعطر تهجـى واتفـوح

شف البان ايبان كهفيف الزين المياح

يتهنا بنسايم لعطوف امرح تمريـح

متمنع فطفاحت الشباب امورد واجموح

(I) يعنى قصيدة «الصبوحى»

شف السفرجل شامخ النهود ارخى لدواح

بالفرحات اتعانقوا بعشـــق الالوتبريـــح

والتشمين امقابلو امع الفرصاد الممدوح

شف الليمون الشمط والرنج من عطر وفياح

والورد القانى ابطبتو يجلى كل اطريــــح

والورد النسرى امـع الورد العكرى منصوح

شف الجلار افدوحتو امعكر قدونصاح

وامعمم بعبارق السبانى للفرح اجنيح

والياس انوار املون بوشامو مسروح

شف اليزيدى شف طمـــــاح * وامـدلـك اكف لقصور فطهاجـــو

شف السوسان ابطيب نفاج * والخزران وامضل الملك ابتاجـــو

وانظر للخابورى افتبهــــاج * والزين ولبها مترونق فدباجـو

شف المعشـوق اشف عاشقو بغرامـو نـواح

والنمنام ارقبهم فى قلبو جمر الفيح

والديـدى والديدحـان والخطما واليربـــوح

شف الشكوكى انقول عشقى شاكى لحـلاح

والخيلى خيلو امسرجا فالميدان اطفيـــــح

والباغ ابخالو وشامتو للعكرى مجنوح

شف الجمرا طاهجا البهر شاخص بلمــــاح

يتزها فالغالب ايجول ابنظر واطميـــــح

والحكم افحكمو ايجور ما يشفق مـن مكروح

شف اليرقان اهوا ازرقا حتى انحـل اوجاج

والبهجا و الفن افلمحابق زاهر وانصيـــح

السوسان امـع لقرنفـل واشكرنط ملقوح

شف اجداول فهدرهـا سر امـن الفتاح

فخلاخل لدواح جاريا تلهج بالتسبيـــــح

واترضع فنواور خواص ابماها عذبى مسيوح

شف اترابع افكل منهــاج * وارياضنا امزخرف زاهي تفواجــو
شف امشاوات السلح والعاج * والياسمين واسرايرها فنهاجـــو
شف افرشات حرير وادبــاج * وامخاد واخدادي بالذهب انساجو
شف اطيار ابلنغام كتعربط مـــا شربت راح

صبحت نشوانا ابلهوا تفجى هول التذليـــح

بالسر المكتوم كل طــير ابما فيه اينــوح

شف الحداد ابمايتو ايحير عقل الرجاح

والسمريس اتقول شي اصبى يقرا بالتوضيح

والنحاف ايجــاوب الزطوض ايشكــى للبوح

شف الزرزور ايتيه ويرقص وخفك ابلجناح

يتهد ويبدل النغام اسجول اتوشيـــح

مـا مثلو نشاد رايق المعنى بالموضوح

شف الهيزار ابلغتو ايحيـــر فمسا واصبــاح

ويغرد فالليل والنهار ابصوتو لفصيـــح

والكلال ايروح افلقفز بنشيدو ممــدوح

شف ازرويال ايتروك يفصـــح فــوق الفصاح

ومقنين اخادم الجنان اتوضح توضيـــح

والحضرا فــي غايت الزهــو والعز المنصوح

وانظر للصبح امطرد الــــداج * ضوا ابرايتو بيضا من تبلاجـــو
والشمس امطالمها افلبـــراج * لقحت كل روض ازهرت احراجـو
وازهنا ما بين لتنــــــاج * لا وعد لارقيب ايروع بهراجـــو
شف القانون امع الرباب شف الجنـك الجناح

وانظر للكمنجا اوشوف العود ارجيـــح

ينغم بالموال والرصد والسانو مصلوح

شف اصبهان امع الحسين والمايا في تنــقــاح

شف العشق الصافي الزم العفا باش اتريــح

والتوفيق من لكريم نعــم الحــي الصبوح

وفى المرفقة يرى ابن على أن يكون كل واحد مصحوبا بخليلتـــــــه يزهى بها ويتسلى فى صفاء ، بعيدا عن العواذل والحساد :

كل اخليل اقبالتو اخليـــلا ٭ بالعز والرضا فى ساعت لوصـــال
يتسلوا فـــى حضرا اجديـدا ٭ بقلوب صافيا رغم اعلى العـــدال

كل خليلة قد لبست افخر الثياب وعلا جبينها تاج كالبدر الوضـــاح مرصع بأغلى الدر والجوهر ، وقد شربن حتى عربدن ووقعن ، ولكن لم يلبثن أن أفقن مترنمات بأحسن الاشعار :

لبست لبسا واعلى اجبينها تاج ايحير الضمير من متـع الما حـــو
بالجوهر والدر النفيس تعنى بدرا وضـــاح
رشفوا كيسان الخمر وعربطـوا واطغاو الوالعات فالحين اوطاحوا
ثم قاموا واتنغموا اوصاحوا بشعار افصـــاح

وكذلك يرى المدغرى فى «الديجور» :

والصفرا تسطع كهلال واكواعبها مثـل النجـوم فالخمرا عامـوا
وهل الخمر فبساط كل عذراوى حايز ر يـــــــم

ولكنه لا يلبث فى «السافى» أن يهوى الشرب مع جماعة الفاتنات :

شف حضرا تسحر لغـــلاس ٭ شف خودات اهواويات افلهوا وناسا
راخفات شعر دأج اغليس

ويود ابن سليمان أن يشرب مع حبيبته فى جمع أحبابه وأهله :

يحـلا امـع القاك اشرابـــى ٭ ما بين لا متى واحبابى
تنسى امحاينى واعذابى

أما أنجار فيريد فى «الذهبية» أن يفوز بالشرب مع أبكار المدينة :

أساقى فوز بالنزايه والفرجـات ٭ وازها بعوانس لحضر وافخربهـــم
نبهم للسرور وازريع الطاســـات ٭ ساعف غرض الريام لنك ساقيهم
أش من فرجا اتلذمن غير الخودات ٭ زهوا للعاشقين فرحا بمجيهـــم

وقد يعرض الشاعر الشعبى عن الخمر الى غيرها ، على حد ما نصادف عند المرجراجى الذى لا يرغب فى غير الاتاى والسكر من عيون حبيبتـــه وخـدهـــا :

ألساقى بين لملاح كب اتاى الفراح * ترك الخمر او لاتقربو بالتصحيح

واسكــر بعيــون لمليـــح * ومــن الخــد المرضــوح

وعلى حد ما نصادف كذلك عند الحاج ادريس لحنش الــذى يريــد أن يشرب من الخمر المباحة .

رف اعلينا يامديم واهدى لنا عــن فرجت لعشيا امــدام المباح

ولكن مثل هــؤلاء الشعراء **سرعان ما يجدون مــن يغريهــم بالشرب ؛** فهذا امتيرد فى «فرجة لعشية» قدمت له الفاتنات كاسا مليئة بسائل أبيض مصفر شك فيه أن يكون ماء ، وادرك أنه غير مباح واعتذر عن شربه ، فعجبن لامره وضحكن ، وألححن عليه فى أن يشربه حتى تظهر له آثاره ،فهو زهو بنى عذرة المشهورين وسلواهم ، شاربه أكثر بطشا من السيف وأحد مــن أسنة الرماح واسرع من ريح البحار ، ينطلق لسانه وتنتشى جوارحه وتحمر وجناته وينزاح عنه ستار الحياء ، وكل من لم يذقه لايرتاح :

رفعــوا لــى كــاس امــلان * ابيــض وامعــاه اصفــورا

هذا لماشكيت قلت لهم للعقل اخروج * مــا هــو ليــا مبــاح

قالــوا لــى خــذ اشرب * تنظر واتشوف اعمالــو

قلــت لهــم مــا نقــرب * منا فــى حــالت حالــو

واضحت لـهــم اعجب * ضحكــو الريــام وقــالــوا

هــذا زهــو السلــوان * لبنــى عــذرا المــذكــورا

مولاه ابطش من اسهام واسرع من ريح الجوج

واقطع من سن ارمــــاح

فوق اجوارح نشـــوان * واعــلــى الوجنــات احمــورا

ايسرح للسون واكشف لحيا للمهروج

مــن لاذاقــو مــا ارتــاح

وهذا المدغرى فى «الكاس» يغرى صاحبه بالشرب منكرا عليه ــ فــى استفسارات ــ جفافه ، فهو لم يطرب للغناء ، ولم يشرب كؤوس الفــرح ، ولم تصبه سهام العيون فى شغاف قلبه ، ولم يعض تفاح الصدر ، ولم يذق

رحيق الشفاه ، ولم تهزه ريح الهوى ، ولم يهزمه جيشه القوى بخيوله المتوثبة وسيوفه القاطعة ، ولم يسهر الليالى متأوها متوجعا جريحا ، فليكف عن الجولان والهيام فى صباحه ومسائه ، وليشرب كأسا مترعة تمحو الهموم:

غدر كاس الراح لتا ونت عقلك ساحى * يا صاحى
اسمع ما قالوا الناس فالكاس ابغير امزاحا * واقبل منى ذا النصيح
وانت عقلك رايح * ماهزوك اكرايح (I) * مادقت اكيوس لفراح
ما عكروك الوامح * وسط القلب الجارح * مانكويت امن الماح
ماعضميت اتفافح * فوق الصدر اطوافح * ماذقت اشفوف لجباح
ما هزك ريح لهوا وغيوانو بين ارياحى * يا صاحى
ماهزمك جيشو امع انصالو بخيول اطفاحا * تبرى بسيوف الذبيح
ما هزك فالنوممن اسنون انشاشب وارماحى * يا صاحى
ما خلاك اعلى لفراش اوجاعك تداحا * ولا قاصك شى اجريح
...
يكفاك أصاحى اتجول هايم فمسا واصباحي * يا صاحى
غدر كاس الراح ابلقداح اهمومك تنماحا * اغلغل فى مراطيح

بل يذهب الى أبعد من ذلك فيعد الذى لا يشرب من الدواب :

من لاعربط سارح * فمراتع واتسارح * عدو من كسب لمراح

وماكاد يقدم على الشرب تحت تأثير الاغراء حتى رأى فى الرشف صلاحه وعلاجه ، وأقبل عليه بلهفة عساه يعوض ماضاع من عمره :

اسقيه اسقسيه قال لى فالقمصال اصلاحى * يا صاحى
أرا لى نفدى اللى امضى من عمرى واتماحا * واملالى حتى انطيح

بل انا نجده فى «ساح» آخر يغرى صاحبهحتى يلين ويستجيب ويرغب، ولكنه يتعامى عنه ولا يلبى رغبته ، ويتركه يتحرق الى أن يضيق به الحال فيعرى رأسه ويكشف عن رغبته الجامحة ويطلب مباشرة من الساقى أن

(I) ج كريحة وهى الغناء عامة وتطلق خاصة على النوع الذى يقوم على قصائد الزجل .

يصب له في القدح الكبيرحتى يغنم ويعوض مافات ،وأن يرمى القدح الصغيرى الفناء ؛ وما كاد يشرب حتى غاب وغابت معه همومه ، ثم أفاق وأتى عـــلى كل الخمر، بل ان مغريه خاف على نفسه أن يشربه لكثرة ما أبدى من لهفة :

فاق السماحى امن اسهوه جدد فيا الشوفا وهزنى واغمزنى بالماح

نخلتو (1) وارجعت لو اجحـــــا ٭ جايتعاما اعليه درتو برجاحـا

وبعدهـا ضاق بـه حالو عرا راســو زاد للصغرا دون امــزاح

وانطق للساقى فى امكابحـا ٭ قال اسقنى امن الرحيق الفراحـا

كب اوالى ابلكبيرياك انغنمو مافات والصغير ارميـه اللمراح

صاح أساح أغاب ما اسحـــــا ٭ واصبح همو ابكاس لمدام اتماحـــا

فاق ارقص ابلاخفاو اضرب الرش (2) ادوا قال لى اسقيه أو سقسيه أصاح

واضغم فالصغرا إلشارحـــا ٭ وادوالى قال لى مرتك (3) لاراحـا

شفت السماحى اشرب كل شى سلكت انهارى وخفت لايشربنى ياصاح

وعنده أن الذى لا يشرب مصاب ، حياته فارغة ، وهو وغد شحيـــــح بخيـــــل :

من لا اشرب ارزيـح ٭ عـــايش ريـــح افـــريـح

كابـــر وغـــد اشحيـــح ٭ عـــاش فزمانـــو كالـــح

ونجد المدغرى نفسه يتحدث عن مغريه بالشرب فيعترف ــ فـــــى مزج بين خمر العنب ومدام الحبيب ــ بأنه كان يجهل كل شىء عن الخمر وأنه كان سليم الجســم مرتاح البال الى أن رآها فى عيــون سكــرى ، وشاهــد عصيرها على خدين جذابين . وكان قبل شرب المدام ــ ويقصد مــدام العيون والخدود التى كانت مطيته للمدام الاخرى ــ حرا مرتاحا مزهرا روضـــه، بعيدا عن طريق الهوى ومشاكله ، لايشرب كؤوس الهجر ، ولا يشتعل الجمر فى قلبه ، ولا يعرف اللوعة والسهر ومرارة الغرام :

---

(1) لم أجبه من نخل نخالا

(2) لعله الزق ، وضربه أى شربه عن آخره

(3) مرته والمراتة التعب والمحنة .

كنت امهنى اسليم مانعرف ياخنارى * كاس اولا طاسا اولا خمـــر

ولاندرى اشروطهـــا * فحضرت الـخـمـارا

أنا سيدى حتى انظرتها * مـن اشفـار اسكـارا

أنا سيدى واعصيرهـــا * اعلى الخديـن المسرارا

أنا سيدى قبل لمدام ما داخل تحت احكام غير مرتاح

ما عرفت اللهوا جرا * اولا شربت اكيوس الهجر * اولا شعلت افقلبى جمرا

مطلـوق معذرفى اعذير * زهـو امكدل بازهـارى * مـا نعرف ليعا ولاسهر

فى طيب النوم ما عرفت اللغرام امرارا

وكان الاغراء بالشرب سبيل الشاعر الشعبى للتعبير عن رأيه فـــى **الاستمتاع بملذات الحياة** فامتيرد ينصح ساقيـه الحيران المولـه أن يستمتـع بالحياة حين تتاح الفرصة ويفرح والفرح لا يتم بغير الشرب ووجود الحسان، وينصحه أن يمتع بصره ويتنزه فى هذه الوجوه على ضوء الشمع ونقرات النغم، فقد فات أمس بسروره وشقائه ، وقديما نصح بالايستبدل الانسان ساعـة الهناء والسعادة بالتعب والشقاء ، ويطلب منه ألا يكون بخيلا :

قلت للساقى شد احـزام * لاتعـاتب نفسـك بمـلام
خـذلـك ايفـادا

افعل ما فعلوهل لغـــرام * حيـن تعطـف عنـا ليـام
فـرحهـا يتـــزادا

آش من فرحا دون امدام * واش مـن حضرا دون اريـام
للقلـــوب الـــذاذا

متـع ابصارك واتزهى افوجه لحبـاب اومايداوى لقلوب واشتهاها
بالنغايم واشمع اشعيـــل

آش باقـى لك مـن تنكاد ليلت البارح معلومـا ابفرحها واشقاها
ما يحضر امعاها تهويـــل

. . .

قول فات اصحيـح اسمعناه لا اتبدل ساعت لهنـا ابتعبها واشقاها
اولا تكون عل لجواد ابخيـل

كيف يذهل عقلك ويغيب ولعوازم قدامـك كلهـا ابما عتناها

هب نفسك للطوع اتميــــــــل

وابن على يريد أن يفوز بالزهو والسلوان مادام الله سيعفو ويغفر :

دبا ربـى يعفـــو اعلينا * ازها إوفوز هذا حد السلوان

وهو فى «الصبوحى» يدعو ساقيه الى أن يغتنم شرب الفجر مادام الزمان فى غفلة ، وأن يشعل مصباحه بالهناء ، فمن لم يفز ويغنم لن يتسلى:

اغنم امع لمليح اصبوحـــــك * أما ترى الزمان غغفـــلا

واشعل ابلهنا مصباحــك * مـن لا يفـوز مـا يتسلى

أما المدغرى فيدعو الى تنزيه النظر وترك الهموم بالاخذ والعطاء واغتنام وقت المنادمة بالشرب فى الطاسة فليس فى لحظات السرور والصفاء ما يقلق ويزعج ويبعث فى القلب الوساوس ، وليس مثل الخمر نشوة ولا فـــى شربها باس :

نـــزه ابصـارك لـــوح البـــــاس

هاك ورا اغنم ازمان لمنادما بالطاسا

مـــا فساعت لهنا تهـويس

لا يـــروم اخبيـــرك وســـواس

كب وانشط واتزهى ما عليك فالوسوســـا

ليـــس يهوانـا غـيرك ليـــس

رادف اعليـنـــا بـالـونـــاس

مايحال الصهبا نشوا اولا فخمرك باســـا

كـب وكض مـن كـان انعيس

وهو يرى فى «الزهو» أن متعة الحياة فى البنات وسكنى القصـــور والفروسية والموسيقى والغناء واللباس والتنزه فى الطبيعة وشرب الخمر:

الـزهـــو فبنـات اشبـــان * ولمنازه والخيل اميت لوتر والغانى

ولقماش روض اكيسان

وأما محمد بن الوليد فى «الساقى» فيشرب ليطفىء لهفته :

الساقــى ضيف اللـــه ضيــف * غدر الكاس اكن اخفيف

باش نطفى هذا اللهفا

وعنده في «الصفرا» ان الخمر تذهب الوساوس والاهوال ، وانـــه لا معنى لحياة الذي لا يروى منها ظمأه ولايحيى نفسه بأنغام الاوتار ، بـــل ان النفس تحاسب صاحبها ان لم يجعلها تزهى وتستمع ، وعنده ان متـــع الدنيا كامنة في الكتب والخيل والبنات ، ثم ان الله غفار :

طاب الزهو ولـد الشراب واذهب وسواس الهـول

فرجا بيام العز ولهنا فرحا لمن ابغاهـا

بشـــر يـابشـــار

آش را مـن لاكب ارو اوهـاج افـــدولت لفحـول

آش را من لاجاد وسخاوزها نفسو حياها

بنغـايـــم لوتـــار

من لازهى نفسو اتحاسبو قالوا هل لعقول

زهو الدنيا لكتوب والسروت البنات انزاها

والمـولـــى غـفـــار

وقريب من هذا نجده عند العلمي فـي «الساقـي» حيث يرى سرور الدنيا وزهوها في الجمال والخمر ، ويرى الصولة والعـزة فـي الغنـــى والفروسيـــة :

اسرور الدنيا وزهوها فالزين العراقـــي * يـــا ســاقـــــي

والصولا والعز في اركوب الفرسان احقيقا * وامـع الفضا ولوريـق

وعند أنجار في «الذهبية» ان لحظة الزهو تحيي القلوب وتسلي بالافراح:

أساقي ساعت الزهو تحيي لقلـوب * واتسلي ابلفراح بالشـوق الجالي

والشاعر الشعبي في اقباله على الشرب واغتنامه للذات **لا ينسى ربـه ويأمل في عفوه وغفرانه** ، يقول ابن علي :

دابا ربي يعفو اعلينـــا * ازها اوفوز هذا حد السلـوان

ويقول المدغري .

قل للساحي ايفيق امنالنوم يسمع انصاحي * يـــا صـــاحـــي

بمعالم واریاح لهوا تهدى طيب الراحـــا * مولانا غاني اسميـــح

ويقول كذلك في «الساحي» :

فق اساحي هاك فنجالك والقاه ارشيف ياك المولى سماح

قالت هل لوفـا السامحـا * من لا اشرب لمدام ما فيه اسماحا

كما يقول في «الصبوحي» :

اغنم الصبوحي ياانديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار افمغناهـا

لا ترتي للبرنيس كب ورا ربي غفار

ويرى العلمي في «الساقي» أن الله كتب السعادة للسعيد والشقاء للشقي ، وانه لاداعي لاستنكار الذنوب أو محاولة تجنبها ، ثم ان الله غني مشفق رحيم :

غدر لي نسطاب فرجتي يتحقق روناقـي ٭ يـا سـاقـي

خل الخل وهات لي الصهبا فالكاس احديفا ٭ واملى لي ذاك لبريـق

كاتب مولانا السعيد ساعد والشاقي شاقي ٭ يـا سـاقـي

لاتستنكر امن اذنوب اولاتتكل عن تيقـا ٭ مولانا غاني اشفيـق

والامل عند إنجار في «الذهبية» أن يمحو الله ذنوبه ويقبل توبته بجاه الرسول صاحب الشفاعة :

وانهايت لحديث انطلبو من لاينام يمحى اذنوبنا وايتوب اعلينا

بجاه محمد نبينا

اشفيع فينا

حشا ايهون بنا

ربي اكريم من لاتخفاه اخفيا

معلوم ابلوقا وعبيدو يرحامو

بعد النكد امع لوزار

على أن بعض الشعراء لا يقصدون من الخمر حين يتحدثون عنها غير الخمر الصوفية ، وأبرزهم ابن رموية والحراق وشقور ، يقول ابن رموية في داليته يخاطب المريد السالك :

اشرب لازم الكيسان ووصال لـلاتـوان

لقـد ضاق الزمان عـن الجاهـل لعتـود

قد شربنا كؤوس زالت بها البوس

غيرنا مات اس (I) ولاعرف مقصـود

(I) كلمة غير واضحة ولعله يقصد مات أسى .

خــذ العسل الصافيا امـن احباح الصــوفيا

واسقــه للروحيا ولا تكن احقـــود

ويقول الحـــراق :

اغنم كاس الراح * هــاحبيبــك زار

اســــق اودور * انـــف الــشرور * طول الدهــــور

صــــل الشراب * فـالـنكـد غـــاب * والخبر صـــاب

رشـف لـكـــواب * امـــــع لـحـبـاب * عيـن الصـــواب

فازها فيامك * لو اتعيش انهار

نظرا فلحبيب تمحى كل اجرايم * والرحمان اكريم يالـلى نرجـاه

اذا مارضى ماتنفع اعزايـــــم * لــو بعمال الخير كلها تلقــــاه

ويقول شقـــرر .

من عند الغنى تغنينـــــي * واتنزهنى امع لحبيب ابلا فخــرا

اسق يا ساقى الخمـــرا * هـــذه ساعت الرضـــا

اظنــت فيـك ايـلا تفـدنــي * واتنزلنى فى امراتب لعـــلا

أيا الساقى كب واسقنـــــي * وشربنى امن اكيوس الخمـــرا

هز لقلوب هزهم هــــزا * ياللـى بيـدك كــل عــزا

داوى لقلـــوب بـاش تبـــرا * ياللـى بيـدك كــل قـــدرا

يــاسادتى يـــا مــوليـــا * نظروا نظرا خالصا فيـــا

أنظرت فيكم نظروا فيـــا * نشرب شربـــا حقيقيـــــا

سعدى بك وارضى اعليـــا * يـــا محمــد سرك فيـــا

كذلك نجد ذكر الخمر الصوفية عند الفلوس الـذى يبدو مغرما بحب المختار شاربا من خمره ، وأية خمر هى ؟ ما أحلاها دون ساق أو كـاس ، وجدت قبل ان يخلق الكرم ، تسرى فى روحه ومهجته وعروقه ، وهـــى سابقة عليه فى الازل :

محلا خمر الحب دون ساقى من غير اعراقى * خمر قبل الكرم خالقـــا

واسرات افروحيومهجتى واعروقيواسفاقى * ليا بالازال ســـابقـــا

بمدام الرسول الاكرم سقيت اوراقه وتفتحت أزهاره وفاح شذاها ،

وبهواه أينعت أشجاره وبالحب ترنمت الاطيار مغردة بأصوات سماوية تنشد تواشيح الفنون والاشواق ، وتسبح بألسنة ناطقة لايفهم تسبيحها غيـــر الخالق الكريـــم :

بماءامك ياسيد الرفاقي نسقات اوراقـي * وازهاري بشداك وارقـا
واشجاري بهواك طافحا فالبستان الناقي * واغصاني فالجو خافقـا
وانهاري بثناك فسواقي ماها دفاقــي * وادواحي بالعشق باسقـا
واطياري بالحب كتلاغى ما بين احداقـي * بصوات الكريم طالقـا
بتواشح لفنون ولشواقي تنشد كزواقـي * واتسبح بلسون ناطقـا
مايفقه تسبيحهم الا نعم الخلاقـي * من ودك بسرار خارقـا

وقبل هؤلاء جميعا كان المدغرى فى «الكاس» قد وصف الخمر بأنها معتقة لم تعصر ، وبانها سبقت فى وجودها الكرم وبأنها ألطف مــن الهوى وارق من النسيم ، يكفى شم عطرها الفياح لكى تسكر وتتلف العقل وتسيل الدموع :

خمر اقديم ابلا عصير منقبل الكرم افلاحي * يا صـاحـي
الطف من لهوا اورق من لرياح للياحـا * يتلف عقلي الى ارجيح
من شمو تكفيه طبتو ابلعطر الفياحـي * يا صـاحـي
يضحى ما بين لقطار سايح دمعو سياحـا * ما بين الحضر اسبيح

ولكنا لا نخفى شكنا فى أن يكون قصد الخمر الصوفية رغم النغمـة الفارضية التى تطغى على هذه الابيات والتى يبدو أنها مجرد صنعة ومحاكاة، وترجح هذا الشك بقية القصيدة التى يغرى فيها صاحبه بالشرب كمـا تقدم . ومانقوله عن المدغرى نقوله كذلك عن العلمى الذى سبق أن مثلنا ببعض شعره .

ثـانـيـا : الكـون والطبيعـة :

اذا كان الشاعر الشعبى قد اغرم بجمال مظاهر الكون والطبيعـة فاتخذها اطارا لمجلس الشرب ، فانه ظل يتعشق هذه المظاهر حتى بعيدا عن جو الخمر ، فوصفها وصفا رائع التصوير بارع التعبير يكشف عن سلامـة ذوق ، وصحـة . وجـدان ، ورقـة إحسـاس وشعـور بالجمـال ،

واستجلاء لحقيقته حيث وجدت . وهو في وصفه يقارن ويشخص ويبرز المعاني في صور حسية ملموسة نابضة ، يبث فيها الحركة والحياة ، ويبعث فيها من ذاتيته ما يجعلها تعكس حال نفسيته وحيوية عاطفته في امتزاج وتجاوب مع تلك المظاهر . وأطلق على قصائده في ذلك أسماء «الذهبية» اى غروب الشمس و«الصبوحي» و «الديجور» اى الليل ،وهو عندهم الداج والبهيم ؛ وأطلق عليها كذلك أسماء «الربيعية» و «العرصة» و «البستان» و «المشموم» و «النحلة» وما الى ذلك مما يوحي بمظهر من مظاهر الطبيعة والكون .

1 ـ الكـــون :

وصف المدغري الشمس الغاربة صفراء ذهبية ، وشبهها بفرس شقراء أرخى عنانها فغدت تغير على الروابي والسهول :

شفـ الـذهبيا اخدودها في ذهب التشحـار

وارخات اصروع اللجوم فوق الوطيان اتغيـر

نعتها شكرا امختنا من خيل المنصور

ويرى الحاج ادريس لحنش أن الشمس في لونها الذهبي لبست ثوب الغروب وقد هجم عليها الليل :

الساقي عكب النهار فوز ابوقت السرور واسقنا بين ادواح

شف الذهبيا الرايحا » لبست ثوب لغروب والليل اغشاها

ويسبح لله الذي جعل الشمس تشرق في كل أرض ، تزهي وتروق في أول الضحى ، وتعلو لتلقي أشعتها على الجدران ، ثم تتجلى في كبد السماء يخطف سناها الابصار وكأنها عذراء في عز نموها وشبابها ، لايستطيع أحد ان ينظر الى جمالها ؛ واذا ما حان الغروب بعد ذلك يصفر جبينها في لحظات لتروح له لابسة أردية حمراء :

أساقي سبحان ربنا هـذا الشمس افكل ارض تتجلى على لبطاح

واتزهى في أول الضحـــــى » تنشر فوق لجدار ببروز اثناهـــا

تبدا بها بعد ذاك تتجلى في كبد السما اسناها يخطف للماح

كعـــذرا فاصغـر طافحـــا » لامن يقوا يشوف فجمال ابهاهـــا

ايلاحان اغروبها افساعا يصفار اجبينها اللغروب اتروح ارواح

فكساوي ياصـاح ناصحـــا * عكري مغلوق فيه تغرب في ماها

وهي فـي حالة الغروب ـ وقد احمرت خدودهـا وغدت معصـورة ـ شبيهة بالبكر التي شربت حتى ثملت وغابت عن وعيها ، فاختطفها عاشـق كان متربصا لها وغطاها بأجنحته ، وترك أهل الغرام يتوادعون وينوحون تبكي لفراقهم الطيور والاشجار ، ضارعيـن الى اللـه أن يعيد لهـم اللقاء . وكذلك فعل حبيبه الذي أغمض جفنيه استحياء وهو يودعه، معتذرا ومصافحا ومقسما أن يزوره ثانية ليتنزه واياه :

والشمس احمارو اخدودها ونعصرو نحكي اعويتقا زرعت كاس الراح
وامنين اتغاغات طايحــــا * جار اعليها اوصيف عاشق وداهـا
عس اعليها ابلعيان حتـى غـابت عـن حالها اوغطاها تحت اجنـاح
واترك هـل لغـرام نـايحـا * تتوادع ابلفراق والوقت ادعاهـا
واطيور البستان ناحت اعلى الفرقا بصـوات حالها واكـذلك لدواح
رفدت العشاق فاتحـــا (I) * بكفوف ارزاقها ايولى ملقاها
...
شف اللي نهواه نيم اشفارو واستحيا وقال لي ودعتك ياصاح
واستعـذر لـي ابلمصافحا * واحلف حتى ايجي وننشو انزاهـا

وعند المغري في «الذهبية» أن الشمس في غـروبها تذبـل وتصفر كالحبيب الذي هجره حبيبه بعد أن وعده بالوصال ، فظهرت على خـده آثـار الفراق ، ولبس ثوب الضنا الاصفر ، وسكب الدموع ، وذبل لونه وفقـد الصبر ، وحارت العقول في أمره ، كلما انحـدرت شمس العشيـة للغروب زاد لونه تغيرا خشية من الليل وطوله وما يكثر فيه من فزع وتنهد وانسكاب الدموع ، يبوح اصفرار خده بصادق خبره ، وتزيده شمس العشية تذهيبا وكأنها عذراء تدور على أفلاك المحبين :

ريت اغروب الشمس ابلهـوا تذبال وتصفـار
كن احبيب امقاولوا احبيبو وارجع للغيـــر
خـلاه افوكر ابلا رفيق امفرد مهجـور

(I) رفد الفاتحة اى رفع كفيه ليقرأ الفاتحة ويدعو الله .

وظهرت افخـدو اعلامت الفركا مـن لضرار

والبس خابورى امن الضنا واسكب دمع اغزير

بسموا سيوف لفراك جرحوديما معكور

وادبال اخيالو اوحالتـو طاحت مـن لغيار

فغرامو واشكايتو وعشقو لعقول اتحيـر

يحسن عونو عادمالصبر بالفركا مقهور

مـا حد لعشيا تغرب ألونـو فالتكـدار

من خوف الليل الطويل والفزعا والتغييـر

والتنهاد أكيت الصبر وامدامع لبحور

فـوق الخد اصفورتو اتبـوح ابصحت لخبـار

والذهبيا كاتزيد فوق اخدودو تشحيـــر

نعنها عذرا اعلى افـلاك الغوان اتـدور

ومثل هذا الربط بين الغروب والوداع نجده كذلك عند علال الصدراتى فى ذهبيته حيث يقول :

الشمس اغروبها اعبارا

راحـت مشمـــورا

وانبات اكوكب السيارا

كانت محصورا

والبدر انبا ودار دارا

ليلت عـاشـــورا

والبين جـار

تفرقنا من بعد لمزار

واتودعنا من لوكـار

واقد واجمـار

قلبى واش جايصبرو .

ويبلغ هذا الربط عند الحاج محمد النجار حدا يجعل شمسه لا تغيب فقط يوم ودع أهله فى الصحراء للسفر الى فاس ، ولكن تصاب بالكسوف

فتظهر النجوم فى وضح النهار وتنتشر الظلمات :

لله ياهلى سمحوا فى شى فات

وادعيوا لى انصيب امنآيا

فى بلد فاس كنز اغنايا

عند الشراف هل لعنايا

يسقونى السقوا بعد السقوا انال تقوا

ئبسط لكفوف ضى وادجا للخالقساير لخلايق يغفر الواتى

فجميع السيات

الين آوين الشمس فالسما ريناها كسفات

حتى ظهرو النجوم فالنهار الكهار العاتى

والظلما سدات .

. . .

ويصف المدغرى **الليل** فى «الديجور» فيدعو لرؤيته، مال ظلامه وأطلق كواكبه فى هالة وهمة كأنه سلطان من السودان أقبل فى حلة فخمة راكبافرسا ضخما أدهم ، بيده أمان الملك وضمانه ، وخلفه جيوش من الفرسان ملأت الافاق تحيط به من كل جهة ، يمتطى جنودها خيولا دهماء ملجمة مائجة كأنها البحر الزاخر لابسة حللا من ريش الغراب والظليم :

شف الديجور ارخى اكواكبو من شور القبلا ايهيل ويميل إظلامو

سلطان امن السودان ينتقل فى هما وازكيـــم

لابس برناطا فوق امن ادهم منكلضم كورى افشان صولت تضخامو

قابط لمـان امـن الشريف واكبل فى زى افخيـم

شف اجيوشو تاكو اوعمروا لافاق ايمين اشمال خلفـو ومامـو

فاق اهياكل دهما اتموج نحكى زخار اطميـــم

شف اخيامو فالكور كوروا بعساكر فرسان كلها قابط إلجامـو

بكساوى من ريش لغراب وارياش اجناح الظليـم

والليل بسكونه وهيبته وغموضه ملجأ يأوى اليه المحبون ، يبثونـه هموم وأحزانهم . وانطلاقا من هذه الحقيقة اتخذه المدغرى وسيلة لحوار يقصد منه الى تحقيق غاية وتبليغ رسالة، فهو بعد أن شبهه فى «الديجور» بالسلطان،

تخيل المحبين حضروا يقدمون له شكاواهم مصطفين فى ساحة قصره ، منهم من يشكو الهجر ومنهم من يشكو التيه ، ومنهم من يشكو العشق ومنهم من يشكو الغرام ، وآخرون جاءوا يقدمون له الهدايا يرجونه ان يظل مسدلا ستاره عليهم لينعموا بملذاتهم ويستمتعوا :

شف المشور فالحين عمروه ارباب الغـوان وامر اعلى خدامـو
دارت بالشكايا اصفوفها فى حرب اتحزيـم
شف الشكايا شى اشكا بهجرو شى بالتيهان شى ابعشقو واغرامـو
شى بالفركا شى جايب لهديا لليل ايكيـم

تقدم المهجور يشكو هجر الحبيب بعد طيب الوصال اسيرا باكيا راثيا ، وقد طال صبر قلبه وأقسم الحبيب الا يفك أسره ، وهو يرجو الليل أن ينظر لحاله ويتدخل بلطف لديه ليكشف له عن حقيقة حال البين ، لعله يلين ويقبل استعطاف محبه فيرد عليه السلام ؛ ويود منه أن يجمعهما فى مجلس أنس يستمتع فيه بالنظر الى جمال حبيبه والاستلذاذ بكلامه ، عساه يرفو خرق قلبه الكليم . ويجيبه الليل بأن عليه — رغم الهجر — الا ييأس ، وأن يظل بأبواب حبيبه وفى خدمته ، وأن يلاين ويسعف هواه فى غير شؤم ، وانه مهما طال به الهجر لابد وان يلتقى مع حبيبه فى مجلس شرب وأنس ؛ فكل من لازم باب الجود لابد داخله :

زاد المهجـور اشكـا ابهجـرو ✻ من بعد طيب لوصال ارجع مهجور
قال اداجـى قلبـى ابصبرو (I) ✻ هذا اشحال ونا نرتى مهجـور
والهـاجـر خلانـى افيسرو ✻ بشمايلو احلف لاطلـق الميسـور
ابغيتك ياليلى اتشوف من حالى واترغبو الى انجى نسعى ادمامـو
يقبل تدمامى لايردنى بالقهرات اهمـيـم
ابغيتك ياليلى اتقول بلطفا لـه عاشقك رد اسلامـو
واتبين لوحال الصدود من بعد الوصل ادميـم
ابغيتك ياليلى اتلمنا فبساطى نشفا ابهاه ونسمع اكلامو
يرفي ماقطع يادجورنا من قلبى لكليم

(I) ما أكثر صبره .

قال الديجور اللي اطوال هجرو يخدم لحبيب لايزول عـن امقامـو

ويساعف غرض اهواه لا يكون افلغرام اشئيـــم

من لازم باب الجود لاغنالـو من مدخـل لو اتطـول بالهجر ايامـــو

يتلاقى بالمحبوب بين كاس أساقى ومديـم

وتقدم التائه يشكو حائرا مرارة الهوى وجور مالكه وتيهه بشبابـه، ويرجو الليل ان يكلمه لعل أن يطفىء نار قلبـه ويعالـج سقمـه ، ويطرد محرزيه ، ويعيد الماء الى مجراه ، ويقفل الباب بقلب سليم ، ويود منه أن يلم شملهما حتى يرتاح قلبه من اللوعة ؛ وعساه بعد ذلك أن يقبله خادمـا وعبدا له . ويجيب الليل بأن من صبر وتحمل الهجر والجرح لابد ـ مالم يمل ـ أن يفوز بصيده مهما طار ، وينصحه بالامهال والمسايسة والطاعـة حتى يفوز بالنظر الى جمال حبيبه ويشرب معه :

شف التيهـان اشكـا ابضرو * من تيه مالكو حارت لولـــور

قال اداجى لهوا امرو (I) * من تيه امن اهويت ارويت امنالجور

هو تايه فشباب صغـــرو * ونا امتبعو واين دار انـــدور

ابغيتك ياليلى اتكلمو ياك ايعالج نار ضر قلبى وسقامو

تغنم أجر الملهوف ابلهوا ياليلى لبهيـــم

ابغيتك ياليـلى اتقـول للمحبـوب ايرد لحروز الگـدامـو

والما اللمجرا والرتاج اللباب افقلب اسليم

ابغيتك ياليلى اتلـم شملى يفرغ قلبى ابلعتو مـن تخمامـو

لعل من بعد الصدود يرضانى عبد اخديـم

ادوا لبهيم أقال من اصبر وتحمل حمل الصدود وعكر اجسامو

يقبط صيدو ولو طار لاتمل اصدود لغريـم

ارخى عنو حتى ايوالف اتبعو بسياسا اولا تخالف لكلامـو

حتى تشفا فجمال صورتو والكاس افتعويم

وتقدم العاشق يشكو السهر ، تكشف صفرة لونه ما فى قلبه مـن داء وتكفى الفاهم للقضاء والحكم ، ويرجوه أن ينظر الى حالـه مكـويـا

(I) ما أكثر مرارته .

بمفاتن حبيبه ونظرات عينيه ،ما نظرت اليه الا زادت جراحه آلاما، متلهفا الى الماء وهو يجرى متوفرا فى مكانه ، ويستفسره عن وسيلة لاطفاء عطشه ومعالجة رشق سهام حبيبه . ويرد الليل ليؤكد له أن العاشق فى حيرة مستمرة يقضى ليله بين الخوف والرجاء ، ويخشى الفراق حين يتم له الوصال ويظل مشغول البال عند الهجر دائم البكاء والانين :

زاد المعشوق اشكا ابسهـــرو * واصفورتو كتبت اعلى الخد اسطور

واظهر فـــوق الوجنات سرو * كيف يخفى اخبار القلب المضرور

والى عايـق يقضـى ابنظرو * ايجود ويصفح عن حال المعـــدور

ابغيتك ياليلى اتشوف حـال المكوى بمحساسنو وخزرات انيامـو

وقت ماريتـو كيزيدلـى تجـراح اتعديـــم

ابغيتك ياليلى اتشوف حال الملهوف أماه ما اخطا وسط ارسامو

صبرو راحل بغرامامن اهواه امع العشق افهيم

ابغيتك ياليلى اتقول باش اتبرد لله رشكات اسهامو

لنى عطشان الحب ولهوا شربى شرب الهيــم

ادوا لبهيم اقال ذاك حال العاشق مشغول طول عمرو فعظامو

مابين ارجاه أخوفو كايكسم داجو تكسيـــم

ايلا كان احبيبو امعاه يخشى من لفراق الصعيب من بعد امكامو

ويلا فرقو يبقى امعلق الخاطر غير ايزيم

وتقدم المغرم يشكو القهر وأهواله الكثيرة ، ويشكو أوصاف حبيبته التى لاحد لها ولاحصر ، ويريد من الليل ان ينظر الى من اسود حالـــــه وادلهم وطال ، شبيها بحاله وبشعر الحبيبة الطويل المرخى على الاوراك فى سوالف ملتوية كالثعابين تاركة باله فى كدر وسواد ، وقد الهبته نـــار الخدود ولسعته الحواجب والعيون لسع الارقم ، وكأنها فى نظرتها سيف ابن عبس يغرس فى قلبه ، وهو بعد هذا يشكو زندى حبيبته يلهبان نـــار حشاه وقد انهمرت دموعه غزيرة كالمزن شبيهة بلآلىء ثغر الحبيبة وجوهر جيدها . ويجيبه الليل بأن من اكتوى بنظرة العيون مصادف اعدامه ، ولكن الله يجود بالصحو بعد الغيم :

زاد المغروم اشكا ابقهـــــرو * وامدامعو امزون اعلى الخد اتفور
قال أداجي لهوال كثـــرو * شلا انعيد من رمكات اليعفـــور
توصافـو عنـدى مـــا نحصرو * بهم جيت شاكى من غير افجور
ابغيتك ياليلى اتشوف من هو حالو اكحل اطويل او حالك تدهامـو
مثل اشعور الباهى اطويل وعلى الوركين افخيـم
واسوالفها مثل التعابن الملويا فى خاطرى اكحالو واهامو
والقوس السعنى من الحاجب القايس لسح ارقيـــم
سيف عنترا فدواخلى امن الخزرا فى يوم اكباح جرد صمصامو
والهيبو من لخدود باهلى والوجنات اجحيـــــم
وادموعو مثل اجواهر الثغر ولاجوهر جيدها اعلى حســن اقوامـو
والزند زند نارى افلحشا من برقو لوسيــــــم
وادوا لبيهم أقال امن اكوا من خزرت لعيـون ذاك صادف تهدامـو
لكن الله ايجود بالصحو مـن بعـد التغييـــم

وتقدم الذى هجره أحبته يشكو حر نار الفراق فى قلبه وغدرهم به بعد أن وعدوه بالوصال تاركين قلبه ملتهبا لايعرف الطبيب له علاجـــا ، ويسأله عما قد يفرج هوله وهيامه ، ويريد منه ان ينظر اليه بفراسة وعقل ويعالجه ويخبره بمكان احبته ان كانوا تحت جناحه ام فى خصب ينعمون . ويرد الليل بأنه ينبغى له ان يسأل ويجول ويقتفى أثر رحلتهم ، وان لـم يقدر على ذلك فليصبر على الضيم ، فكل من يعمل يصل ، وليس أمام العاجز الا أن يصبر وألايشكو اذ عجزه هو سبب ما يقاسى ، والذى يتمسك بالامل بفوز لابد بغوث من الله :

زاد المفروگ أشكا ابغـــدرو * قلبو ابحر نار الفرگا مدعـــــور
قال الليلى لحباب غـــدروا * بعد التفاق عن لودا و اشهـــــور
تركـوا قلبى كـاوى ابجمـــرو * عكز الطبيب ما عرف الدايا شور
ابغيتك ياليلى اتفـدنـى بفاد تفجى اهوال قلبى واهيامـو
وانظر فيا بفراست لعقل لنك حبر احكيـــم
ابغيتك ياليلى اتعالـج الصب اللى رحلوا احباب قلبـو فيامـو
واداوا امعاهم خاطرى اولا باقى له احليم
ابغيتك ياليلى اتگول لى وايـن صدوا لمتى وايـن حامــــو
لاينهم تحت اجناحك السعيد اوفى خصب انعيم

ادوا لبهيم قال سول الوجول اتبع ارحيلهم فى أثرو هامــو

كان انت ما قديت بالداعى اصبر اعلى الضيـــم

من الخدم اوصل والعاكز يصبر لايشكى عكزو اسباب هجرو واعدامو

والى ما قطع اياس لاغناه ايغيثو لكريــــــم

وهكذا قضى الليل وحكم بفكره لارباب الهوى ، وفصل بالحق حتـــى شاع خبره فى كل مكان وجد فى العمل ساهرا يشهد له الشمع والخمر :

أمرواحكم واقضى ابفكـــــرو ۞ لرباب لهوا بالحكم المشهـــور

وافصل بالحق أشاع خبـــرو ۞ الكل فج بين امداين وادشـــور

واجتهـد فالخدمـا ابسهـــرو ۞ بشهادت الشمع والخمر المعصور

أما الذين قدموا الهدايا ـ وهم أهل الانس ـ فجاؤا يطلبون منـــه ان يطول وقد حلا النغم وشعشعت الخمر وأضاء الشمع :

جاوه ناس الفرجات ولخلاعا واهــداوه أراودوه عن طـول امكامـو

قالو لوياسلطان هل الحب ابغيناك اتقيـــــم

احلات الصيغا ولمدام شعشع والشمع ازهى اولاح فخدود اريامـــو

والكيسان افميدان حربها تجرى فى تعويـــم

ويدعو المدغرى فى «الصبوحى» للتمعن فى **طلوع الفجر** ورؤية البدر مضيئا كعروس برز من الحجاب وحوله الكواكب فاتنات يرعاهن تحطن به يمنة ويسرة، ويدعو كذلك ـ مستغلا أسماء الكواكب فى تلاعب لفظى رائع ـ لشاهدة المشترى ولوعا بشراء العاشقين ، له سوق عامرة بهم ، وزحـل باعثا حمرة على الخدود كعصير الخمر ، والزهرة زاهرة خدودها يزهـى المحبون بجمال ضوئها ، والكيوان يكوى القلوب بلانار ، والمريخ مرخـــى لثامه ، والثريا متملية من سناها بعقد والنجم يزهى العاشق بغرته ، ويبشر بضياء مناره ، والنسرين يسرى فى الرياض بعسكره والنسيم يفوح عطره منبئا بطلوع الفجر :

شف البدر الضاوى اعريس تاك افحجبا واكواكبـو اعـوانس يرعاها

دارت دور المقياس به عليمين وايســـــار

شف المشترى لـه سـوق عامر برقاب العاشقيـن والـع بشراهـا

شف الزحل ارقى اعلى لخدود اعصير المسطار

شف الزهرا زهر اخدودها وتزهى اصحاب لهوا عن حسن اضياهـا
شف الكيوان اكوا ابكيتو لقلوب ابلا نـــار

شف المريخ ارخى اللتام شف الثريا لابسا اعقود امن اسناهـا
شف النسري يسري اعلى الرياض بعساكر جرار

شف الغراو ابمرتو ايهز العاشق وامنارتو اتبشر بضياها
شف النسايم ابطاعت لفجر يعطوك لخبـــار

أما الفجر فكسلطان راكب فرسا أشهب ، وقد مسك فى يساره مسحاة حادة يركض خلف وصفائه فى كل مكان مشمرا عن ساعده بحزم :

شف لفجر احكيتو اشريف راكب اشهب وبلا اعلى ايسارو مضاها (I)
يجري اعلى وصفانو افكل جيه ابحزم اتشمار

وهو قد أشرف على الاطلال متوثبا كأنه المولى اسماعيل ، ناشرا علمه المنصور وضاربا بسيفه المصقول فى جيش الظلام ، يسير خلفه عسكر من الخيول الشهباء النجيبة الصاهلة :

شف الفجر اركب فوق لطـــلال ☆ قايم نعنيه مولاى اسماعيل (2)
شف اعلامو منصور قتـــــال ☆ سيفو اعلى اجيوش الديجان اصقيل
شف كم من اشهب ارفيع مازال ☆ شيهان خاطف الكصا له اصهيـل

ويقارن ابن على **بين الصبح والليل** ، بين الصبح كسلطان أرخى ذيـل أزراه لابسا حلة من الديباج ، وبين الليل فى توديعه كغراب أسودشابت عذاره وأضاءت مناره ، بين الصبح كنسر يعلو فى تحليقه ، وبين الليل سال دمع غرابه وقد بدا الضوء من خلال ذلك متجليا يطرد الظلام ويزيحه ، وظهـر حمام القبلة كالامام فى المحراب ، ودار الفلك بمشيئة ربه فاختفت الكواكب وهب النسيم من بين الظلمة والنور يحرك الاشجار :

الصبح كشريف ارخى ذيل ايزارو ☆ والبس امـن الديباج اغمــار
والليل كغراب اسود شاب اعذارو ☆ واشعل امـن اضياه امنــــارا
الصبــح كالنسر يتعلـــى ☆ والليل سال دمع اغرابـــو

(I) ما أحدها .

(2) فى رأى استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى أن ذكر اســـم السلطان فى مثل هذه القصائد ربما يدل على أن بعضها كان مداخل للمديح ولكن الرواة لم يحفظوا هذا المديح .

والضو فى السماء اتجلـــى * رسل اعلى الظلام اعقابـــو
انظر اترى احمام القبـــلا * مثل ليمام فى محرابـــو
الفلـك كيف دار ابصنعت دوارو * واخفى اكواكبو سيـــارا
هب النسيم بين الداج وانهـارو * شـوش ادواحنـــا المسرارا

وعند المدغرى فى «الذهبية» ان الشمس أرخت أكمامها معولة على الرواح ، وقد أحست بالليل فارسا حازما مشمرا يجمع جيشه يريـــد الهجوم ، فركضت هاربة من بين الاشجار تبدو أشعتها كأسماك الشابـل تلمع وتضىء :

شف الشمس ارخات لكمـــام * عولت للرواح افتيها واقيامـــا
حست بالـديجـــور لغـــلام * جمع لجيوش راد الحركا بزعاما
وهـربت وعرت لوهـــام * خلات لـو الرك اشقرا بسلامـــا

. . .

والشقرا تجرى اعلى اجهدها ما بين اشجار
والفارس تبريمتو اعجب محزوم افتشميـــر
وامزارك شمس لعشى اشوابل تلمع واتنور

واذا كان كذلك موقف الشمس أمام جيش الليل الجرار ، لم تطـق مقابلته ــ وما كان لشىء أن يوفق بينها وبين عبد أسير ــ فان النهار قـد اختطفها وحملها بحزم على أكتافه وغاص بها فى الغروب لتزف اليه فى عرس يشيع خبره فى الصباح ، ولم يترك لجيش الليل غير الضباب . وحاول هذا الجيش أن يعثر عليها ولكن دون جدوى ، وظل الليل يعض الندم يرمـى بحره بالموج والظلام ، وشكت اطياره فى اوكارها باستثناء أم الحسن التى باتت متنغمة ، وحز فى نفسه أن يختطف النهار المشرق نجمة الانارة ويتزوجها ، وان يتكرر ذلك كل يوم :

شف الشكرا شافت الظلام ابعسكر جرار
واعرفها مثل الظليم ماطاقت لو بعكيـــر
واش ايلاقـى بينها اوبيـن الميســور

حوصها جيش النهار عن كهلو فالتشهار

واغطس بها فى اغروبها محزوم افتشمير

خلى غير الركّ والضباب الجيش الديجور

طلق الليل اعساكرو اعليه ايميـن وايسار

شرق اغرب اعيا ومايوكد ومن دير الديـر

ماوجد وجرا اولا الكّاو المنزلها شـور

. . .

حوص خيتو ولد لهمـــام * وابقى الليل بات افغصا واندامـا

يرمى بحرو موج واظـلام * بسواد فوق برناطا دار اعلامـا

واشكات اطيارو افلرسـام * من عير أم لحسن باتت نغاما

وابقات الغصا افخاطر الـديجـور الغـوار

حين اخطف لو شارق النهار انجمت التنوير

واعمل بها عرس كان فالصبوحى مذكور

وابقى جيش الليل فالنهار ايعوم ابكّدار

يخطف شمس اعشيتو ايفادى تارو بهديـر

واتروح اعروسا امثيل جيش الفجر المجهور

ويصور المدغرى الصراع على النجمة بين الفجر والليل ، وكأن كلا منهما سلطان بعسكره وجيشه ، أحدهما — وهـو الليل — راكب فرسا أدهـم ، والآخر — وهو الفجر — راكب فرسا أشهب . وبينهما ظهرت النجمـة بهية مضيئة بارزة كأنها عذراء منعمة . وتقابل الجيشان ،جيش الليل بسلاحه وخيوله ، وجيش الفجر بالقمر المضيء . وادعى الليل أن النجمة ملكه طوال الاجيال ، وزعم الفجر أنها زوجه بالعشق الحلال وانها دائما فى رعايتـه تلازمه لاتحيد عنـه . وماكاد الجيشان يلتحمان فى قتال مرير حتـى انتصر القمر وحاز عروسه ولبس رداء غدا يرفل فيه :

يقظ جفنك شف حرب الفجر مـع الليل

كـن اهمام امـع اهمـام بين اعساكـر وامحال

واحد عن ادهم لخر اعلى اشهب مشمول

فالميدان اتحاربوا اعلى نجما حرب اطويل

والنجما بناتهم حسن ابهاها شعال

نعنها عذرا امختترا تاكت بين افحول

الدجا اغبط فجمالها بالعدا والخيل

والفجر ادغم فيه بالكمرا حربو قتال

واتلاقت الخيل ابلبتر والسيف المسلول

الدجا ادعا وقال دك ملكي من جيل الجيل

والفجر ادعا قال دك زوجي فالعشق احلال

في حوزي ديما املازما جنبي ليس اتحول

اتلطمت الخيل افلكفاح ابعيط واصهيل

عامت الكمرا اعلى اجيوش الدهم لبطال

حاز الفجر امروستو ولبس ايزار مرفول

2 ـ الطبيعة :

وبنفس الاسلوب الذي وصف به الشاعر الشعبي مظاهر الكون ، ذاتياً نابضاً بالحيوية والحركة والمقارنة ، صور مظاهر الطبيعة ، فهذا حماد الحمري في « ربيعيته » يصور انهزام جيش الشتاء أمام الربيع الذي أقبل كسلطان منصور حاز كل فخار ، فصفت السماء من الغيوم ورمت ثوب الحزن وبدا في الافق قوس قزح بألوانه المختلفة كأنه على خصرها حزام (I) :

سارت لشاتي كالجيش ايلا انهازم افلكحار

من بعد زام طبلو واتنصر سار افلقفار اكسير

اوجا اهمامنا لسمى الربيع حايز التفخار

وصاب ما يصيب المنصور ايلا امشى اعداه احقير

ارمات السما ثوب حزنها ولبست الافتخار

واتحزمت بالسبع الوان اللي اهداها لخبير

(I) يطلق في المغرب على قوس قزح : حزام للا فاطمة الزهراء .

وهــذا امتيرد يرى فى « ربيعيتــه » أن الربيع أقبل بأنواره ، وعمت البركة والهناء والخير ، وغدت الارض فى حلتها السندسية المنقوشة كعروس سلطانة منورة أحياها بعــد الموت بغزير الامطــار ، وبدا المطر فى تباه زوجا للارض تسود بمحاسنه ؛ ويــوم ضمها وسقاها حملت منه ووضعت للسرور ذكورا واناثا : فأزهرت الانــوار من كل صنف بقــدرة الله ، وخرج الناس للتنزه من كل مكان :

فصــل الربيــع كبل بنوارو

* عامنا عــام البركــا ولهنا والخــير

من بركت النبى صلى الله اعــلى باهى الصورا

انــقــش الارض ابحكمت اسرارو

* صبحتاعروسا سلطانا امنوراتنوير

واثيابهــا اسندسى وانــراورها افراش منضورا

من بعد موتها احياها * بعــوارض لمطــار اسقاها

سبحان ذا الثنا والعظما والجود

لمطر كابعا يتباهى * والارض زوجتو فحضاها

بمحاسنو ابدمت لجمال اتسود

فنهار ضمها واسقاها * منو احملت فوق افضاها

وضعت للسرور اذ كورا واغبود

لنــوار كــل صنــف اتصــــــوارو

كيف صور واصنع من هــو الكل ذنب اغفير

مــن طبت الجنان الساعد للساعديــن بالزورا

هــاج الربيــع وافتح نــــــــوارو

فيــه لخلايــق تهــدى كافــا اكهــل واصغير

لنزايهــو اتكبل مــن كل ارسام لــه واقطورا

ثم آخذ فى وصف الاشجار والطيور على حد ما سبق ان رأينا فى اطار مجلس الشرب .

وعند الطيب الواسترى فى سرابته الربيعية أن فى قبال الربيــــع

سعادة الايام وانتشار مظاهر الخير ، فقد جاد الزمان وضحك وانفرجت الاكدار وزالت الاحزان ، وظهرت الزهور المختلفة اليها ، وبدت الارض كأنها من حور الجنان ، طاب عليها السر وهى بهذا عروس زفت البه فجاد عليهما الزهو وغدت بارزة وأجمل الحلل :

فصل الربيع كبل والوقت ازيان ﴿ واعلامات الخير للو
جاد الزمان واضحك ثغر السلوان ﴿ والنكد اتفاجا اوزال
وابطايح الزهر اعلى كل الوان تسبى من راها ابث
والارض زى حوريا من رضوان ﴿ واعليها طاب للس
نحكى اعروس واعروسا فى أوان ﴿ اعليهم جاد الزه
صبحات بارزا فكساوى حسان ﴿ دام الله اجمالها وا

ومثل هذا نجده عند غانم الفاسى فى «ربيعية» :

الربيع اقبل فيامو الريح غلاب ﴿ وانكسات البيدا بكد
كعروسامن كل اقماش زايداديباج ﴿ حانطا بثياب الكبر
هايجا عدراويا امن احراج لغناج ﴿ ابملحاسن تسبى فا

جات ايام الزينا بالزهو ولفراح
اقبل فصل الربيع وايام السلوان
الزهو أتى وانشرح ا

وعنده أن الربيع من فضل الله ونفحة من نفحات الجنة

حال ايام الربيع من جنت رضوان ﴿ بانت لوراق والزه
سبحان الوحيد عظيم الشان ﴿ بدع اجميع لشيات
جاد اعلينا برحمتو والسلوان

أما ابن علي فيبرى فى «الزهو» أن وقت الزهو يدعو للنظ فى ايام الربيع والاستمتاع بجماله كسب :

وأشجارها . تتعانق أغصانها في ترحاب كما يتعانق الاحبة بعد طول غياب ، تتمايل معربدة من شراب كؤوس الندى الرائق السكيب ، وقد ضحك الزهر وبكى الطل ناحبا كأنه عاشق تضحك الحبيبة لبكائه ، تتجاوب معـــه نغمات اوتار العود والرباب المطربة تنقر عليها أيدى العذارى :

حل عينيك واتنزه زد شوف واسطاب

فـي ادواح العرصـا وازهـارهـا اعجيبـــا

اغصانهـا بالفرجات اتعانقـو ابترحـــاب

كيف عنق لحبيب احبيب بعد غيبـــــــا

اتمايلـو وعربطوا فريهاضهـم بشجـار

امن اكيوس انداهم امرونقا اسكيبـــــــا

الزهر يضحك والطل ابكى افتنحاب

كن عاشق تضحك لبكاه شى احبيبـــــا

ولوتــار اتجاوب بنغام عــود وارباب

فيد عدرات اصوات اوتارها اطريبــــا

وهو يشبه أشجار البرتقال والليمون محملة بفاتنات من بنات العرب الذين يسرع أبطالهم لانجاد كل من استنجد بهم ، وهن يصلن بسمرتهــن ، تزين أجيادهن وصدورهن قلائد العقيان :

شف رنج اللتشين اليم كن خـودات

من ابنات العربان الصايلات بالتيــــــت

ابلعقيق أعقيان امخمسا اكــــلادات

ابطالها مــن بهــم استغاث دايــم اتغيــث

ويشبه اشجار الرمان المصطفة بعرائس لابسات حللا حمراء متوجة الرؤوس :

شف صف الرمان ابهيـج كالعرايس

لابسات العكرى فعراشها اعلى الراس

ويشبه أشجار التفاح بأبكار أطلت نهودهن الصغيرة ، وماكادت تطل حتى اخذتهن الحيرة والدهشة من اكف العشاق وتملكهن الحذر والرهبة :

شف صف التفاح اربا افأرض لاميـر

كاعزبات اضحت انهودها اصغيرا

كيف طلـوا وانبهضوا حازهـم تحيير

من اكفوف العشاق راهبا احديـرا

ويشبه الورد بخدود أبكار المدينة عائدات من الحمام ، شعورهن مبتلـة تقطر على ماء ورد الخدود العنبري الطيب ، يعتدلن ويملن في ريح غلابـة كأنهن سفن تمخر العباب :

شف صف الورد ايحاكى اخدود لبكار * ساكنات البهجا(I) البيضا ابنات لحضر

جـايات مـن حمـام اشعورهـم كطـار

فوق ماورد الخدين طيب عنبـر

. . .

كايعدلو وايميلو ريحهم غـلاب * كاقراصن فالبحر امنازهو اسجيبا

ويشبه النخلة بعروس بكر تتقلد الياقوت والعقيان والجواهـر ، تتمايل مع هبوب الريح من العربدة والسكر ، وقد أرخت شعورها مسدلة ومضفرة ، وهي من بنات الحضر زاهية كريمة يفوق جودها الوافر جود حاتم

شف ديـك النخـلا تحـكى اعـروس بكرا

امقلدا ياقوت وعقيان والجواهـر

كتعربد في اريـوح احـوالها ابسكرا

اشعورها مسروحا وامضفرا اضفاير

مـن لبنات المزيانا زاهيـا وحضرا

غالبا حاتم طى ابجودها الوافـر

ويشبه أحواض الزهور تكشف عن ابتسامتها من النقاب كوجنـات السكارى :

ولحواض بنوار امبسما امن انقاب

كن وجنات السكرنات بالصهيبـا

(I) البهجا من أوصاف مدينة مراكش .

ويشبه أديم العرصة بزرابى مفروشة للتنزه متناسقة ، زانه رقـــم حريرى يفرج الكروب ، ليس من نسج الانسان ولا كتابته ، ولكنه من نسج البارى جلت قدرته ؛ أما جداول الماء وسواقيه فكالثعابين تجرى ملتهبـــة الاجــــــواف :

شف ارض العرصا ماكيفهاازرابى ※ امفرشا لنزايه هذى الـذى ابنسبا

ابلحرير امرقم يفجى ادجاكرابى ※ ماتنسجو بصباع اولادخل الكتبـا

بيد مول القدرا منسوج ياحبابـى ※ اتفكروا واعتبروا تلقاو كل رغبـا

شف ذاك الما فسواقى انسيجصباب ※ اكما التعابن تجرى واحضانها الهيبا

ونجد عند المدغرى كذلك وصفا غير مباشر للازهار والانوار فى «النحلة» حيث يستعرض مختلف الانواع التى تمتصها ، يقول مخاطبا اياها فى حربة القصيـــدة :

صولى ياشاما الظريفا وازهاى أغنى ودندنى وقطفى مـن لزهار

أترياق اعلاج كـل ضر ※ أبنت الملك ملك هما واتمار

وفيها يرحب بالنحلة ويهنيها على الصولة التى تتمتع بها فى أمـــة الطير ، ويطلب منها أن تغنى بين الورود والزهور وخدود الجميلات وعيونهن الذباحة ؛ أوحى الله لها فى كتابه وألهمها للتجول فى السهل والوعــــــر وبطاح الندى لقطف الانوار ، وجعل فى شهدها دواء وحكمة وكسبا :

سهلا واهلا بك يالنحلا واهنيا يالصايلا صلتى عن لطيار

غنى بين الورد والزهـر ※ واخدود الزين ولعيون النحارا

اوحى لك الله فى اكتابو لهمك لبطايح الندا ولقيط النوار

والجولا فالسهل ولوعـــر ※ واجعل فيك الـدوا وحكما واتجارا

أما ابن على المسفيوى فى «المشموم» فيدعو العاشق الى قطف الزهـور وضمها فى باقات لتقديمها الى الحسان :

يالعاشق قطف النوار بين لريام ※ كل وحدا ركم لها افنوع مشموم

ويستعرض أنواع الزهور التي تضم الباقة وكأنها عرائس النيـــل فيقـــول :

من افنون النوار اجنى اعرايس النيـــل

والزهقان انسرى والشقيق والياس

بابنـوج اطماج أقرمـزى افتخبيـــل

ولبهر والسوسان امجاور واسكلمـــاس

يـاسميـن أغنبار امـع لبها افتحفيل

ولعشيق أعاشق والرنج والنرجـاس

اقرنفل والخلـى والـورد فـاح بنسـام

ولحكم دون اشريع ابلغرام محتـــوم

خد الجـوار أشككى اشكا ابلغـرام

باح سرو من عشق الباهيات بقيوم

امشرقيـا اوشامها يسحـر لعقـول

وفزيـــن ازويول الراحـا اللمقـــال

والباغ وابنفجيـج والديدى متمـول

نشوان افغايتو وعنها مـا يسـلا

والعقيون الدحـان اصبـح معلـول

شاف الزين لبهيج من فايق عبـــلا

ولم يكن الربيع وحده الذى يتيح فرصة الخروج للتنزه والاستمتاع ، وانما كانت غير قليل من **المناسبات** تتيح مثل هذه الفرصةلاستعراض جمال الطبيعة والفاتنات كشعبانة وعاشوراء ويوم الزيارة ، يقول امتيرد فـــى شـعـبـانـــة :

يوم لتنين افشعبان السعيـد يامـن يبغانـا

لنزايـه كبلت اعـوانس لمديـن الحمـرا (I)

آش را مـن لارا لريام يـوم داروا شعبانـا

كعرايس نحكيها بارزا افحضرت كسرا

(I) الحمرا من أوصاف مدينة مراكش .

ويقول الحاج محمد النجار فى عاشوراء :

أجى اتشوف يامن لاشاف الهايجات يصداروا

كيف شافت عينى حسن يوم عاشـــــــور

ويقول الشيخ العربى الفاسى فى خروج الفاتنات للزيارة يوم الجمعة :

خرجوا لبكار

يوم الجمعا لسواحل لبحر

بالآل وانغايم لوتر

حاموا الزخار

شف امدينت سلوان (I) زاهرا

خرجـوا لبنات للزيـــارا ٭ واجى يامن ابغا ايـزور

تهنا واتشوف دالعبـارا ٭ خرجوا فى افراتن لبحـور

قالـوا يزهاوا بالتمـارا ٭ خرجـوا بــــرا لقصـــور

مـلاحـظـــة : شعر الفكاهـــة :

قبل أن نترك هذا الجانب الباسم المقبل على الحياة الى الجانب العابس الجاد ، نود أن نقف وقفة قصيرة عند فن من الشعر الشعبى لاشك انه تعبيرعن روح الاستمتاع والابتهاج ، وهو شعر الفكاهة ، وتعرف قصائده باسمـــاء كـ : «الزردة» أى الوليمة ، و « الطجين» و « الفار » و « لكلب »ولكن الاسف أنا نبحث عن هذه القصائد فلا نعثر منها الا على بقايا قليلة . وقـــد أكدلنا الاشياخ انها ضاعت فى اغلبها بسبب ما كانت تثيره بينهم من شغب وشنآن جعل المنشدين يتحاشونها وكذلك الجمهور .

من ذلك ما يحكى من أن الناس كانوا يطلبون من المنشد قصيــــــدة «الفار» فيقولون له :

«آنه تيجى احلو من فمك» فيرد : «اعلى اوجوهكم» ؛ ويقولون انـه كان للغالى الدمناتى قصائد فى « الكلب » وكان الناس يطلبون الاستماع اليهـــا بمحضره بمثل قولهم «قولوا لنا الكلب دا الغالى» وكأنهم يشتمونه ، فتضايق من ذلك وأحرق كل انتاجه فى الموضوع ، وحرم على حفاظ شعره أن ينشدوه.

(I) مدينة السلوان يقصد بها مدينة سلا .

ومن القصائد الباقية قصيدة «الزهو فى طبلا حسن» ، وهى تنسب للسلطان سيدى محمد بن عبد الرحمان ، وفيها يرى أن الزهو فى مائدة أكل جميلة وصينية شاى عليها براداں ، وكؤوس ملونة :

الزهو فى طبلا حسن

لبرارد زوج وكيسان

لونهم يهوانى

احكيتهم حرجت بلعمان

مهتل فوصاف الكيسان

عين علجا والخابورى (I) امع لخضر يهوانى

شمس لعشى يسحر لدهان

وفيها يقول مستعرضا اوانى الشاى وملحقاتها من صينية وبراريد وكؤوس وزنابيل (2) وبقاريج (3) وبابور (4) وقوالب سكر ومرشات «5» ومبخرة «6» :

ولبرارد نحكى شابات يافهيم اوزانى

امحزمين بهمام السلطان

ولبقارج مثل الفرسان

راكبين اسروتا وامحزمين لمدانى

. . .

در بابور اصفر فلوان

شعل نار فى كلب ابلمحبا فانى

(I) العلجا هو الازرق السماوى والخابورى هو الاصفر .

(2) هى فى الغالب أوانى ثلاثة احداها لحبوب الشاى والثانية لقطع لسكر والثالثة للنعناع .

(3) بالباء أو الميم ج بقرج بفتح حرف الراء ـ ومد نطقه فى البوادى ـ وهى آنية غلى الماء ، وتعرف فى المشرق كذلك بهذا الاسم .

(4) جهاز غلى الماء ويطلق عليه فى المشرق السامور .

(5) مرشات تملأ بماء الورد والزهر للتطيب وهى فى الغالب من الفضة.

(6) مبخرة احراق العود .

عشق الطبل والكيسان

ولقوالب مثل الشبان

. . .

والزنبل مثل البيزان

ولمراش نحكي غزلان

بارزين افطبلا والعود افلمبخرا فاني

عبق النسم بالدخان

ويقول عن الحلويات والمأكولات ذاكرا البسطيلة (1) وكعب الغزال (2) والغريبة والمحمرات والمحشوات والمقليات والشرملات(3) ، من ضلعة (4) ومروزية (5) وشواء وطواجين وكسكوس بالفراخ والحمص والبصل :

در بسطيلا فالغطران (6)

واطباصل (7) من كعب اغزال من شغل مخزاني (8)

واغريبا من شغل اليمان (9)

(1) ورقات رقيقة من العجين محشوة باللوز المطحون أوقطع الفراخ والبيض، تطلق وتجمع على شكل دائرى .

(2) قطع من الحلوى محشوة باللوز على شكل الهلال .

(3) نوع من طبخ اللحوم يشترط فيه قبل طبخها أن تشرب بالتوابل وخاصة الفلفل الاحمر .

(4) لحم محمر فى السمن والغالب أن يكون قطعة واحدة ومن لحم الصدر، ومن هنا كانت التسمية .

(5) ويطلق عليها «لمعسل» وهى نوع من اللحم المعسل يوضع عليه اللوز والزبيب .

(6) ، (7) هى الصحون .

(8) نسبة الى المخزن أى الحكومة والسلطان ، وهو وصف يقصد به الشىء المتقن الرفيع سواء فى مأكل أو مبلس اوغيره .

(9) تبدو هذه النسبة غريبة ولعله قصد أن أشكال هذا اللون من الحلوى فى اختلائها ودقتها شبيهة بأشكال الوشى أو الرقم اليمانى المعروف

امحمرات اثلاثا فبيان

امعمرات اثلاثا ومقليات اثلاثا ثانى

امشرملات ادجاجات اسمان

حمر الضلعا فالفران

لمرزيا لمقليا ياكل الشبعانى

واشو امن لحم الخرفان

والطواجن مثل الوصفان

ولفرارج مثل الصبيان

فوگ لكسكسو بالحمص والبصل رويا نى

والسمن مدوب تزمان

ومنها كذلك قصيدة «الزردة» للحاج محمد بن عمر المراكشى ، ويرى فـــى حربتها أن المضغ فن وفراسة وأن الذى لا أضراس له يظل يلوك الاكل فى فمه قبل أن يبتلعه :

ولمضيغ افراسا من لا ايليه ضرسات * كيملوج فمضيغو عاد تيسرطو

وعنده فى دخولها أن الصديق الذى لا ينفعه بخبزتين لا يعول عــلى طجينه ومرقه ، ويكتفى بشد حزامه ، مقنعا بطنه بالشبع من طعام لـــم يطبخه بنفسه ، ناسيا اياه ليعود الى قوته الذى اعتاد ، ولكنه وجده غيــر ذى طعم ولم يسغه فلفظه .

ولحبيب الا ينفعنى ابزوج خبزات * مانعول عن طجينو اولا مرقتـــو

انشدكرشى وانقنعها انقولشبعات * امن الطعام ملاطيبتو اولا نصبتو

انظن كرشى عمرات اولا عتيق حدجات

وانسى من بالى قوتـو اولا قبلتـــو

كان لى قوتى وابداني به نسقات * ما نسيتو به امبالى اولا تركتـــو

امنين دقتوصبتو مافيهشىالنسمات * ملفاه ارميتو من بعد ما مضغتـــو

وفى عروبى من القصيدة يتحدث عن الولائم التى يذهب اليها فـــى غاية الزينة حيث يجد كل ما يشتهيه من موائد رصت فوقها الطواجيـــن وأصناف الاكل المتشبع الشافى للامراض :

كـم مـن زردا امشيت فيها ليس اجلست

والقيت اللى ابغيت فيها عل لنعـــات

وادخلت الـدارهـــا امقبب وزينت

قـربت لصحـونهـا اللـى قبلـت

واطواجنهـا امعمـرا جـات وحضرت

فوق اميادى امبرجا زهوا للـــدات

وما وجدت امن اطعام اصناف اعملت

يشفـى ضر لبـدان من هـى زردات

واليوم ابطون منها شبعت واروات

وهى قصيدة تبدو مستوحاة ومقتبسة من قصيـدة فـى «الوصايـة» للعلمى يقول فى حربتها :

اللعب من غير اشطارا فوق روس حربات

هكذا مثلث ابنادم فى اعشرتـــو

وفى اولها يقول :

لحبيب الا ينفعنى افيوم حـــزات * ما نحمل عن قلبى غل امن اكلفتـو

ننساه ونترك حسو انحسبو مات * وانعود ياراسى زليت امن اعشرتو

ولعله واضح أن «زردة» ابن عمر ليست غير قلب لموضوع «وصايـة» العلمى . على أن قلب القصائد ومسخها يشكل نوعا خاصا من الشعر الفكاهى برع فيه أشياخ مراكش ولاسيما الشيخ أحمر الراس ، وهو أن يأخـــذ قصائد جدية فيمسخها ويقلبها الى موضوع هزلى ، ومن الامثلة على ذلك قوله فى الابيات التى أصلها (1) :

ألالازهـور ازهر وازهـارو * بك الزهر اللا ازهر

صولى صولى يا غزالى زهرا

فهو قلبها الى مايأتى :

سكران ريت يامس يلفظ بشعارو * اسكر وطاح فى دولت لبكـار

مافـاق حتـى اتكـون العشرا

---

(1) من قصيدة : «زهرا» للتهامى المدغرى .

ومن ذلك أنه أخذ «حراز البغدادي» :

مال حراز الدامي ما يتق بياهيهات * غيـر حاضـي لوقـــات

بالدوام امجنبني اولا يرومني قطعيا

فقلبه الى الخراز :

مال خراز البالي مايتم الكلبــات * شـابـات وعـــزبـــات

كل من جات يبطش بهـــــا * ويقضي لها اربح وخطيـــنا

وفيه يقول مستنكرا حال الزمان وما تفشى فيه من انحلال خلقي :

اوصل الزمان فاش ابغاوا اميا ملعرج قتالا

ويـلا اعياوا ايولوا ايقرجطو (I) ابـلا جنوى

ولكن هذا النوع ضاع كذلك بسبب ماكان يشيع فيه من فحش وعبارات نابية ، بعد أن ظل تداوله محصورا في نطاق خاص .

(I) ايقرجط أي يخنق . وهو هنا يشير الى واقعة كانت حدثت بمدينـــة مراكش، مجملها أن خرازا يسمى الحاج الاعرج كان ورعا متدينا ولكنه كان يتصيدالنساء الباغيات ويحتال عليهن حتى يأخذهن الى دكانه ، وكانت لـــه فيه مطمورة ، فيذبحهن ويلقي فيها بجثثهن . ولم يكن أحد يعرف كيـــف يختفي هؤلاء النساء الى أن وقع ذات مرة أن طمر احداهن وأخذ قفطانهـــا وباعه في السوق ، ولم يكن هذا القفطان ملك القتيلة وانما كانت قد استعارته من احدى صواحبها ، وحين اختفت المرأة وانتظرت صاحبتها القفطان فلـــم يصل ، أخذت تبحث وتسأل ، وصدفة وجدته في السوق فتمسكت بـــه ، وانتهى البحث والتحقيق الى أن الذي باعه هو الحاج الاعرج فحكم عليه بعـد أن اعترف بجرائمه ، وطوف في المدينة قبل أن ينفذ فيه الاعدام ، وكـــان يصيح أثناء تطويفة بأن الفساد كثر ، وانه لم يكن يسعى لغير الاصـــلاح ، وكان يقول بأنه لو أطلق سراحه لبضعة أيام لما بقيت باغيه واحدة في مراكش

الزهد والحكمة

يتمثل جانب التجرد عند الزجال المغربي في شعري الزهد والحكمة ، يقصد منهما الى الكشف عما ينفعل في نفسه من برم وضيق بحال الدنيا وسلوك الناس ، والى وعظهم وارشادهم عساهم يحسنون هذا السلوك . وقصائده في ذلك تعرف بـ «الوصاية» و «التوبة» و «القلب» و «الطبايع» و «الموعظة» و «النفسية» وما اليها مما يوحي بروح التأمل والتنبيه . ولانكاد نجد قصيدة لايملأها الوعظ المباشر المقصود بعيدا عن حديث الشاعر عن نفسه وتأمله لحياته في حسرة على مافات منها ومحاولة استخلاص العبرة له وللآخرين ، وكأنه نظر الى المجتمع فوجد الاوبئة تنتشر من مجون وانحلال، والى الناس فألفاهم منشغلين بمفاتن الدنيا عن الدين ، فتحركت عاطفته الاسلامية واحساسه بمسؤوليته الاجتماعية ، فتصدى يعبر عما ينفعل في نفسه وما يراه السبيل الى الاصلاح . وعلى الرغم من أن الوعظ غدا غرضا مستقلا قائم الذات ، فانه لم يتح الفرصة للشاعر أن يطيل النظر ويتعمق ويحلل في جدل فلسفي او اقناع منطقي، وظل مجرد حكم وعظات تتسم بالبساطة والسذاجة ، وان لم تخل من بعض التعليل وخاصة في ذم الدنيا والتزهيد في الحياة والنظر الى الموت ، ولكنه تعليل مصدره العقيدة في صورها البسيطة. وكان يمكن أن ينطلق الشاعر الشعبي في ذم الدنيا من تجربة صوفية تجعله يحلق بروحه في أجواء العشق النبوي – ولانقول العشق الالاهي فهو لايكاد يوجد كما سنرى (I) – لايرجو غير الاتصال بحضرته عليه السلام ومشاهدة نوره لينعم بمتعة حبه الروحي بعيدا عن متع الدنيا وملذاتها ونزوات الجسم وأهوائه طالما أنهما فانيان ، ولكنه لم يفعل حتى في أضيق حدود هذا النطاق ليتأمل الكون ويدرك كنه أسراره وما وراء حجبه أو لينظر اليه ولو مشدودا الى اطار الطبيعة لا يتعداه ، واكتفى في ذم الدنيا بنبذها والتزهيد في

(I) في آخر الفصل الرابع من باب «الموضوعات»

متاعها مادامت دار فناء زائلة ، ومادام الانسان مجرد عابر لها الى الـــدار الآخرة . وانطلاقا من هذه الفكرة المتأثرة بالدين ، رسم الشاعر الشعبى للحياة الدنيا صورة بشعة منفرة خسيسة لا يغتر بها الا مغفل مجنون لايعتبر من الماضين ، وهى صورة نجدها فى القصائد «الجفريات» (1) التى يستوحى فيها الشاعر واقع الحياة والناس ليتنبأ بما سيقع من أحداث ؛ ونجدها كذلك فى القصائد التى صورت الو قائع ، وهى قصائد يغلب عليها الاستســــلام لقضاء الله وقدره .

أما الموت فنظر اليه الشاعر الشعبى نتيجة حتمية للانسان والحياة،لاقدرة على تجنبه والفرار منه ، وسبيلا للخلاص من متاعب الدنيا ، ووسيلة الانتقال الى العالم الآخر حيث نعيم الجنة الدائم والسعادة الحق،واعتبره مقياس التسوية بين البشر . جديرا بالتأمل وان لم يكن بالشىء الغريب ، فقد طالت ألفــة الانسان له وهو ينظر فى التاريخ فيرى فناء الدول وموت الانبياء والعظماء، بل يرى الناس حوله يموتون وكذلك الطبيعة ، حقا انه يأتى بغتة ، ولكنه على ذلك سهل كالنوم .

وقد ظلت فكرة الموت وذم الدنيا سطحية عند الشاعر الشعبى لـــم يتعمقها ولم يفلسفها ولم يتأمل جزئياتها ودقائقها ليكشف عما يعتمل فــى نفسه وكـل انسان ، وعما يتطلع اليــه دون أن يعرف كيف يصــل إليه أو يدركه او يعبر عنه .

يقول المغراوى فى تنبيه الانسان الى **أن الدنيا فانية وان الدوام للـــه وحده** ، ودعوته الى أخذ العبرة من الفناء مادامت الصحــة لاتـــدوم والشباب يخـــون :

مادام الملك غير للدايم لمعيـــــن	*	وماسواه افلورا كلو فانــــــى
خالق لشيات كلها رب الكونين	*	نفنا واكداك بامرو نعم الغانــــى
الصحا ماتدوم والصغر تخويـــن	*	اسمع منى الصح وافقه تبيانـــى
عبر مـن ذاتك فالزمـــان	*	واش لـــبـــــــدان

(1) نسبة إلى الجفر وهو جلد ماعز كان يستعمل فى الكتابة ويزعم الروافض أن جعفرا الصادق كتب لهم فيه ما سيكون من حوادث الى يوم القيامة .

مازالت فالديـــدان * كيف كـانت اكبيـــل

واعلم بان الرحمان * رب جمـــع لكـــوان

غانى مغنى منـــان * ليـس ليلـــو لمثيـــل

واعلم بان البقا المن يحيى لعظام * من لـه الملك حـق دايـم بـدوام

ويحاول أن يبثه العبرة من الغابرين على هذا النحو :

وين نوح فسلام

وين لفضيل سام

وين يدفت أحام

. . .

وين أيوب افلمرصام

. . .

وين صالح وحام

. . .

وين داود لهمام

. . .

وين ابراهيم وين اسماعيل لمجد * ويـن يسحاق ويـن يعقوب اولادو

وينو الياس وين دانيال اهل الجد * وين ذا النون اسرور قلبو واعيادو

وين ادريس زال به اغيار النكـد * أذ القرنين مـن ابلغ فـى تجهادو

وين موسى المعهود

. . .

وين شعيب أهود

. . .

وين النمرود أصولتو

. . .

وين جالوت ادنيتو

. . .

وين فرعون ألامتو

. . .

وهو يرى ان الدنيا ليست غير دار مزاح وشقاء وبكاء، من تبعها ذهل عقله وغدا فى تعب دائم :

الدنيا ماتصلح غير دار لمزاح

. . .

دار التعب ألكلاح

. . .

ولبكا والنواح

واتبعها عقلو جاح

عمرو ما يريح

مثل الدنيا عنده كمثل نزل يحط بـه المسافر أو قنطرة تعبر نهرا أو سوق تعمر بأموال التجار ، فواحد يربح وآخر يخسر ، من ضحكت له بثغرها لا يلبث أن يبكي شاكيا من الفقر والغدر :

الدنيا كيف شي انزلا بين امصار * والاقنطرا اتدوز عن شي نهر

والاسوق عامر ابمال التجـــار * واحد فيإسلعتو اربح والثاني اخسر

لاتمن ضحكها ايـلا ضحكت بثغار * من ضحكت لوابكاامن اشكاها بلفقر

غدارا ما تدوم مني خذ لخبر

وهي عنده حسناء فاتنة ، يحبها كل من يراها وتحلو في قلبه ، ولكن الذي يفوز بها ويذوق عسلها لا يلبث أن يسقى منها المر :

هذا الدنيا احكيتها الا طفـــلا * حاطت بيها اشمايل الزين المكمول

من راها دون ريب في قلبو تحـلا * مهما يطمع في ازمان كل اوصول

من واتاتو اودار منها شي خصـــلا * بعدن يسطب اعسلها تسقيه ادفول

وعنده أن الدنيا لا يامنها الا مجنون أغوته بالكذب ، وان شرابها الحلو يعود مرارة وغصة ، وأنها سرعان ما تسترد ماتمنح :

الدنيا ما تدوم ياصاحي هيهـــات * من يامنها اهبيل اسلبتو بعد اعطاتو

لوتسقيه لمصال ترجع بالغصات * أما من امر سلبتو بعد اعطاتـــو

والدنيا عند النجار دار شقاء ونكد وغرور :

دار الشقا ودار النكد ودار لغرور

أويح امن اغواتو امـــــال * عقلو امع الطمع والمـــــال

ولا اتفيد فيه اعمــــــال * الزاهدين دركوا فيها نهج لفـلاح

بلسان الذكر والصـــوم * واصـــلات النبـي المعصـــوم

وعند ابن علي في «الوصاية» ان الفجار يرونها جنة وأن الصوفية يرونها جحيم المومنين ، فما أسعد من تركها وتخلى عنها :

جنا الكل فاجر واجحيم المومنين شافتها الصوفيا

ياسعدت مـن سلـم فـي اهواها وخـلاه

وعند ابن سليمان في «التوبة» أن البقاء فيها لله :

ما فيها من يبقـــى * غير نعم البـاقـى

يا غفيل مالك شاقـى * لين تاتزيـد احماقـى

وعند العباس الحرار في «وصايته» انها دار الغرور مليئة بالآفات، سلوانها أحزان وسرورها غصات وضحكها بكاء وصدقها كذب :

امن اكثر دار لغرور بالآفـات * تركـوا الفانيا منهـا لغدر موروت

سلوانها احزان واسرورها غصات * اضحكها ابكاواصدقها افشروابهوت

سبحان امن اخلقنا واقهرنا بالموت

ومثل هذا يقول علال العلوي في «الراس» :

. . .

عمرها ما عطات العاهد الحد اولا خشات عار

دنيت لغرور ولقرار

. . .

ياماضحكت عن ابنادم

. . .

وبعدها اتغبرو

. . .

ايلا تضحك غير مرا تنكد مرات ابلكدار

. . .

وتقول أواه كيف صار

. . .

ما ظني في ازمان يغدر من شاقو عاد ناكرو

ومادامت الدنيا كذلك ومادام الفناء محتوما فلا داعي **للتفكير في المـوت** فهو سهل كالنوم ، ذلك ما يراه ابن حماد ويدعو نفسه اليه :

أراسي يامشـوم كيف ايجيك النوم ✲ من هم الموت ما تخمم يالعمـــا
ماتعرف كان ترحل الليلا واليوم ✲ تحمل واتشوف للطريق اتنعامـا

أما ابن سليمان فلا يريد فى «الطبيب» أن يموت ، ونحس عنده رهبة من الموت لانكاد تجدها عند غيره لعل مردها الى شبابه (I) :

الطبيب يعرف دايا والـدوا سومـو غالـى
عالجونى ياناسى لا نموت موت الغفلا

وكما أحس الشاعر الشعبى الضيق بالدنيا فكـذلك أحسـه بالناس ، وهكذا يرى العلمى فى روح من التشاؤم ، أن كل أبناء جيله مطبوعـــون بطابع واحد ، فشاغليهم النفاق والتحايل والمصانعة والخداع ، وهى كلهـــا علامات الخراب :

هاذوا شروط اعلامات التخراب
عاد النفاق امودا بين الناس الكبرا
بالحيلا ولمصانعا ولخدع عادت اخلاق اطبايعهم مقلوبا
مذهبهم ندريه خممت اولاد جيلنا گاع بعصا وحدا مضروبا

شاع الرياء ولـم يعد وجـود للاحسان والصـدق والحياء والعرض والحســب :

شاع الريا ولحسان اغبر والصدق غاب
وارتفــع لحيـا والعـــرض ولحسب

وغدت الصحبة وسيلـة للاغراض ، فالذى يخالط أحـدا يريـــد أن يشمت فيه ، يغدر به بمجرد أن تتاح له الفرصة :

ولات عند ناس اليوم الصحبا اسباب
اللى اتخالطو يبغى يشمت فيك
غير تركن لو يغدر فيك
مايخليك داير كابوس لغدر فيك يتسناك

ومن أجل هذا فهو يدعو الى معاملة الناس بالمثل :

من لايخدع ويلاطف ويصانع ويدارى لعدا ويرشى لخوان
ما يوجد حتى رايف فالرخفا والشدا ابخاوتو يستعـــان

(I) أصيب ابن سليمان بداء القلب ومات وهو دون الثلاثين .

والغنى عندهم عزيز فى كل مكان ، لوظلم وقف الناس يحمونـــه ويخوضون فى سبيله الحروب ، يتزاحمون لتقبيل يده ، ولكن ليس حبا فيه وانما فى أمواله ، واذا ما افتقر انفض عنه الناس حتى الاقرباء منهم اليه :

مول الدنيا اعزيز افلقرا ولدون ❊ وامثل ذاكايرفعوا ابجانبو آهل البيد
لو يظلم يوجدامن ايكون فحماءعون ❊ وعليه القوم ايصارعوالحرب الشديد
ما بهم فيه امحبتو ابحسن الظنون ❊ واين كان يتزاحموا اعلى بوس اليد
ويلا افتقر واحماق به فقر ايهون ❊ واقريب فالنسبا ايعود منو ابعيد

فالغنى تخضع له الهامات وتعتبر سيآته حسنات ، أما الفقير فيبغضه الناس بلا سيآت ، سواء عندهم موته وحياته ، اذا سكت قالـــوا عنـــه انه ختال واذا نطق استعاذوا من صوته :

مول الدنيا يخضعوا له الهامات
سياتو عند هل الخدع حسنات
وقليل المال ايبغضوه ابـلا سيات ❊ اسـوا عيشـو اسـوا موتـو
ايلايسكت ايصير ختال وبهـــات ❊ ويلا يدوى القوم تسعاض من صو و

وفى نفس الروح وميل الى القوة يرى العلمى فى قصيدته فى «المـــولى عبد الرحمان» أن الاعمى لا يبصر جمال الضوء ، وان الاصم لا يصغى لروائع الافكار ، وأن الحق ليس له صديق يذكر فى هذا الزمان ، غير السيف يصلت فى وجه الطغاة والبغاة الجائرين :

ما يميز حسن الضو انواجل العـــور
ولا ايهز الصمك طيب الغا افكــــارو
الحق ماله اصديق افذا الزمان يذكـار
دون صدر السيف ايلاشتت اضماير
من اطغى وابغى واتقوى وخالف اوجار
ابراهن الهند ابخسران لعدا اتبـــادر

وهو يرى ان قلب الجاهل البليد لاينبهه غير الحسام ، أما غير ذلـــك فمستحيل كما يستحيل أن يسك الذهب من القصدير ، أو يزول طعم المرارة

من الحنظل او يغزل خيط الحرير من الدوم ، أويحارب بشوكة السمـــار ،
أو أن يعصر الزيت من الرمل ، أو يتخذ العسل من اعشاش الزنابير :

مـا يليـن اقلـوب الطـامس تـذكيـر
لحسام ايودب ويعلم التمـــارا

ما ينفرغ سك لبريز مـن القزديـر
اولا تزول من الحنطل طيبت لمـرارا

اولا ينغزل من عرق الدوم خيط لحرير
اولا تكـون الحرب مـن شـوكت السمار

كان محال امن الرملا الزيت يعصار
اولا تكون لعسل امن اعشايش ازنابر

وعنده أنه يستحق المكروه كل من لم يؤد زكاته وبغى بالفساد ، وان
الصبيان يذهبون ضحية الكبار والنساء ضحية الرجال :

يستهل مـن لايسخا بـزكـا ولعشـار
واستهـل مـــن يبـغ لفساد واضرورا

راح ذنب الصبيان اعلى ارقاب لكبار
وراح ذنب النسوان افدمت الذكـــورا

والسبب أن الدنيا بهرت الناس وأعمتهم عن الحق والصواب ، وأنهـا
بدأت تغري حتى ذوى البصيرة :

بهجت الـدنيا تركت كـل واحـد مسحور
عاد حسن ابهاها يسبى هل لبصيرا

ويرى أنه لا لذة في حلاوة تخالطها المرارة ، ولافضل في مدح يعقبه
الـــذم :

لاصلـح فاللذا بعـدن احـلات تحرار
ولا افضل فالمدح المعكوب ابلمعايـــر

وعنده في «الدار» ــ وقد بدا عليه الاعتدال في الرأى ــ أن الحياة لاتخلو

من الحلاوة والمرارة :

يوم اشلوق اويوماحلو اويوم زقوم * اويوم مستعدل بين الطيب والزهامة

وبمثل هذا المنطق يعبر فى «طامو» :

معلوم كيف مادامت رخفا مــاتــدوم شـــدا

هذا مواجب احكام اصروف الدهـــــر

يــوم احــلا مــن طعـم التمر

اويـــوم كمثـــل الحنظـــل مـر

ويصل هذا الاعتدال عند غير العلمى الى حد الدعوة لعدم التأفف مـــن الزمان فالخير والشر دائما موجودان ، وليس من داع للبكاء طالمـا ان كتاب الله محفوظ فى الصدور ، وطالما أن رحمــة الله تمحــو أوزار المذنبيـــن ؛ يقول الشاد :

لاتقولو شى ياحمرا اعلى ازمـــان * الخير والشر افكل ازمان كاينيـن

ما حد اكتاب الله فالصـــــدور * لاه نبكيــــوا اعـــلاه

ماقاطعين باس من رحمت اللـــه * واحبيبنا الشافع رسول الله

فاش جا ذنب المخلوقيــــن * عنـد واســـع الغفـــار

وبهذه النزعة يدعو الى ضرورة المعايشة والمعاشرة ، مادام الناس اخوة يعيش بعضهم لبعض ، ويخدم بعضهم بعضا حتى يكونوا كالبنيان المرصوص :

خوك عبدك وانت ديما لخوك مملوك * لاتأديه الله يهديك ما يؤديـــك

لـــك عايش وانتيا لــه كتعيش * لاتكونوشى طوبافشى ابنى اهشيش

عيشوا بالله والنبى ولقرآن امع لحديث

وقيم السعى الى غير ذلك وقد جعل الله الناس طباعا مختلفة كما يقول محمد بن الصغير :

سبحان الله فالطبايع دالناس * مابقى مـن لاهاج اغرامـو

والناس احوال كل واحد فى حالت حالو

وشبيه بتشاؤم العلمى تشاؤم النجار الذى مل الحياة ومحنها ولم يعـــد يرجو غير الموت فهو طوال حياته يعانى من الحزن :

مل قلبى من دنيا كلها امحـــان * اولا بقى يترجى الايموت عانـــى

امن اصبايا لشبابى واسق لحزان * ومن اشبابى لازلت أليعتى انعانى

وهو قد خبر الناس فلم يجد فيهم غير الذئاب والثعالب الخسيسة متنكرة فى صورة خرفان وأحمال ، كل منهم يكيد للاخر ، يبعدهم عن الادمية بعد ما بين السماء والارض :

غير الذيب الخاه وتعالب الخسدان * فى ابطاين لغنم هذا الذاك جانى
بين الادمى واقوام هذا الزمان * قد ما بين الارض امع اسما الفانى

ويحس الغربة فى مثل هذا الجو ويتساءل هل هو من هؤلاء الاقوام أم أن وقته فات أو لم يحن بعد :

واش انا من هذا القوم بالعرفان * اوباقى وقتى ولا امضى الزمانى

وقريب من هذا الروح التشاؤمى نجد عند علال العلوى فى قصيدة «المجد» حيث يرى أن «المجد» — ولعله يقصد به الخير — لا وجود له ولا أثر، سأل عنه فى السهول والجبال فقيل له غاب اسمه وخياله ، وسأل عنه العلماء والعارفين فى كل الملل فأكدوا له غيبته وأنهم يبحثون كذلك عنه ، وسأل عنه الذين فتشوا عنه فى كل مكان وقصدوا من أجله الاولياء فقالوا انه غاب حين صادف العراقل ، وسأل عنه رجال الفن والذوق ، فأجابوه بأنه غاب حين كثر الكذب والبهتان ، وسأل عنه التجار وأصحاب الاموال فقالوا له لقد ذهب بعد أن فشا البخل ، وسأل عنه أرباب الصناعات فى مدينة فاس القديمة فأكدوا له أنه لن يعثر له على أثر :

اسألت اعلى اشريف لاسم مابين اوطا مع لجبالى
قالوا لى غاب له الاسم وكذاك اخيالو
واسألت اعليه ناس لهوا واهل التنبيه افلملالى
قالوا لى غاب حقا وكذلك اعليه انسالو
وسألت اعليه امن اتجول واقصد اعليه كل والى
قالوا لى غاب بعد وصلو صادف عرقالو
واسألت اعليه امن اتفننوا والى بدعو الفن دالى
قالوا لى غاب حين كثر البهوت بسجالو

واسألت اعليه افلمتاجر والنهابا وهل المالـى

قالوا لى غاب لاتسول لرذال ابخالـــى

واسألت اعليه فالصنايع وابحثت افاسنا البالى

قالوا لى غاب ليس توجد منهم قلالـــى

ومن خلال هذه النظرة للحياة والناس **يحاول الشاعر الشعبي أن يكون ايجابيا فيقدم بعض النصائح** التي يمكن أن تجنب الوقوع في مخالب الدنيا ومهاوى الزلات . من هذه النصائح عدم مطاوعة النفس والهـــوى والشيطان لهم أعداء ، يقول ابن على في «الوصاية» :

والنفس والهوا والشيطان اعدا لاتطاوعهم قطعيا

واش من عاقل يامن يافهيم فعـــدا

ويقول الشـــاوى :

لعـن الشيطان * بالغافل كما لعنو الله مولانا * مهما ايدور بك اخزه ولعنو

ويقول عبد الوارث في «الفياشية» :

خالف نفسك واقطـــع * كـل علاقـا عنـك

واشتهوا (I) لاتتبــــع * واسقطها مـن ذهنـك

واعروق اهواك اقلـــع * وانت نفسك منـك

ومنها التقشف في اللباس وعدم الزهو به ، يقول ابن احساين ينهى عن لبس الحرير وما يبهر الابصار اسوة بالرسول الذى نزع «الفروج»

لاتملك افروج امن احرير وتبهر لعيان * واعلم بين ايمام الانبيا نعم العدنانى

نزعو نزع البغض بعد جاه اهديا فالحين

ويقـول كـذلك :

لاتتبختر فكساك واتفايش واتآنى

ولكنه لا يريده أن يتمسكن ويكون ذليلا ، فالمسكنة والذلة لليهود في كل وقت وحين :

لاتتمسكن فالحيات ما فالدين اتمسكين * والمسكنا لليهود افسايرلزمانى

ومنها الدعوة الى عبادة الله واقامة الصلوات ، فعبد الله بن احسايـــن

(I) أصلها اى شيء تهواه .

ينبه الى وجوب أدائها مع المحافظة على الصلاة الوسطى ، وهى العصر عـلى المشهـور :

قم الصلا حين وقتها لاتنعس مديان ٭ والعصر عندك ايفوتك وقتوساني

حافظ عن جمع الصلا وهاد الوسطى تمكين

ويحث المغراوى على عبادة الله :

اعبد مولاك رب وحداني ذا العرش ٭ اعبد مولاك لاغنى ذنيك يمحيـه

ويرشد الشاوى الى صلاة الفجر وضرورة اغتنامها ، فهى ربح وفـوز بالغنائم والطاعة :

يالنايم فق امن النوم راقب لفجر الطالع

قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم وإلطاعـا

ويلح كذلك على الصلوات الاخرى :

ابغيتك اصلات الظهر تلتقاك سابـق للجامـع

لا اتفرط فيها واجعل اغناك تقوى واقناعـا

ابغيتك اصلات العصر لا تفوتك اوبها دافـع

اهوايل الفاقا والمغرب صونها دون اضياعـا

ولعشا ودها فى اوقتها بتضـــارع

والشفع الوتر زد لعضاك راحا وارياعـا

ومثل هذا يقوله الحاج ادريس لحنش :

اتلها فالدين كن رجل ثبت اقدامك ٭ صلى بالخشوع امع الناس اوقاتك

ونجد فى بعض نصائح السلوك الصوفية ، كما عند مولاى محمد الزبادى المنالى ، حثا على المحافظة على الصلوات وملازمة الزاوية وتلاوة الاحـزاب والاوراد :

لوقات احفظها والزاويا اتـلازم ٭ ابلحزاب ولوراد امرتبين ببيـان

يافقير اصنعتك هى الذكر دايم ٭ والصلا والسلام اعلى النبى العدنان

أو كما عند محمد بن رموية فى داليته اذ يقول :

خـذ اطريقنا معهـودا واشيوخها مـوجـودا

ولسرار منها تبدا للعجب السعـود

. . .

اتجرد عـن الحس وعـن الحـب للجنس

واقصد حضرت القدس لبى باسم المقصــود

يا طالب الالهام امن اصدور لعـلام

افنا طول الدوام فى اشرايع اهل الجــود

بالسهر والصيام والعــزلا والقيام

والتصديق ابدا القوم انت بهم اتسـود

وعند المدنى التركمانى أن الزهو فى قراءة الكتب وأداء الصلــوات والمحافظة على وقت الفجر وفى الصوم والحج والجهاد :

الزهـو إفلكتـوب ألوقـات * واصلات المختار فى وقتو والصوم

والحج ألجهاد فالنصارى يوم المعلوم

ومن النصائح الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقول ابن احسايـن فى «اللقمانية» يدعو الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شدة لاتليــن وفى أى مكان وزمان :

وامر بالمعروف فين ما كنت لاتليان

وانهى عل المناكر لقباح افكل ازمـانــى

ومنها الحث على التوكل ؛ يقول المغراوى :

إعمل تكلك فالله * لاترتجـى ســواه

ويقول بوخريص فى «المدونة» :

دير تكلك ياقانط افلغنى السلطان * اتوجدو وقت ما تدعيه سامع احنين

ويقول ابن على فى «الوصاية» :

اياك لفلاحا والرزق الضامنو ايجيبو لك اوليا تولو كيفيدير فدنيتو ورسام

ويقول عـلال العلـوى :

أنا تكلى فالله يوقينـى * لقديم الدايم من لاينام ولاتراه اعيــان

جيد لجواد الا ايحافينى * المالك لكريم الغانى من لاتنطرد من بابوسعيان

وتتضح الدعوة الى التوكل وترك التدبير عند عبد الوارث فى «الفياشية» حيث يقول :

نقنط مـن رزقـي لاش ⁂ والخالق يرزقنـي
أنـا مالـي فياش ⁂ واش اعليـا منـي
...
منى آش اعليـا ⁂ ونا عبد مملـوك
والاشيا مقضيـا ⁂ ما في التحقيق اشكوك
ربى ينظر ليـا ⁂ ونـاظرى متـروك
....
والارزاق اعلى اللـه ⁂ ناكل من رزق اللـه
يا قلبى لاتهتـم ⁂ واصرف هم الباطن
المقدور لو محتـم ⁂ كيف اترى واتعايـن
سلم تسلم واعلـم ⁂ أن المقضى كايـن
...
خذ الرفق ادليلـك ⁂ واترك عنك التدبير
واستقنع بقلبـك ⁂ ياتك الله بكثـير
ذا التعب الكل اعلاش ⁂ وقـل الشى يغنـى
....
قالوا لى وقتك ضـاق ⁂ والنفقـا مـا تكسب
قلت ارزاق الـرزاق ⁂ من دا يقوى يحسب
قالوا امشى للاسواق ⁂ واتمـول واتسبـب
قلت افراخ لعشاش ⁂ خالقهـم يرزقنـي

ومنها طاعة الله والرسول والوالدين ، يقول لحنش :

بادر ابطاعت الله اوقوى زادك
...
طع الله اوطع النبى واخدم والديك ⁂ تظفر بالنجاح ويتنور حالك

ومنها اختيار الرفيق الذى يطيع الله ، يقول ابن على :

واختر من اترافق شف اللى طاع خالقو جعلو ولفيا

اعسى ايجلبك واتولى للوحيد وحـداه

ويقول غانم الفاسي في «التوبة» يدعو الى العزلة وعدم اتخاذ الرفقاء اذ لم يعودوا صالحين :

أفبي ما بقى امع من اتصـــــادق ❊ ويكون البيب امحتفل وعشير صادق

عش هاني وحدك وكل فاجر انفيه ❊ وكل من حب اولاد اليوم زايد اشقاه

عش وحدك خلي لهل البلا ابلاهـم ❊ كان ملتى مل الطه ارفيع لقـــــام

كل من دازك دوزو هون به وانكيه ❊ بعد ما يعمر سوقو لاغنا امن اخلاه

ومنها صون اللسان والفرج ، يقول ابن علي :

واحضى السانك وفرجك واعرف مـن انشاك ناظر فيـك اوفيا

ويقول لحنش :

لا تشتم مخلوق أدب السانك لايديك

ثعبان اللسان ايلومك في امهالـك

ومنها غض الابصار عن المحرمات كما عند ابن علي في «الوصاية» :

غض لبصر اعلى المحرم وافشوفت المحرم كل اخطيا

اقليل من شاف وضربو الشيطان ولا اخطـاه

واتسع نطاق التوصية عنـد الشاعر الشعبي حتى غـدا ارشاداً الى ما قد يعود على الانسان بالخير في دنياه أو الى ما يمكن أن يعتبر **أدب سلـوك ومعاملة** . ونصيحة العلمي أن يتحلى المرء بخمس خصال ويتجنب خمســـا أخرى اذا أراد ان يكون سعيدا ، ان يتحلى بالصمت والعزلة والمسالمة وترك الملام والقناعة وأن يتجنب الحسد والكبر والجفاء وضيق الخلق والطمع :

من حفظ خمسا دالحسنات حفظ محكـام

اوفيه رسخوا كرسخ الوشم افلمعاصـــم

الصمت والعزلا والهدنـا وترك لمـــــلام

ولقناعا من كسبهم امن ابنادم

يعتدل ميمونو والسعد له يستقـام

يرتفع بعد الخفض الهمت الضراغـــــم

ومن اترك خمسا دالسيات تـرك عـــزام

من اجملت المحروم اللي اعليه حارم

لحسـد والكبر ولجفا وضيق لشيام

والطمع بيت الدل امناصب لحشايــــــم

كل سيا من ذا السميات ضر سمام

فاق سم الحيات الرقط السـوادم

ومن النصائح التي نكاد نجدها عند كل الشعراء : صلة الرحم ، يقول ابن احساين يوصى بصلة الرحم ولو بعبور البحار والوديان :

واصل رحمك وين كان شك لو ابحور اويدان

ويقول ابن على :

اواصل الرحيم ولا تقطع صلتو انقرب اولا بعديا

وصلو لاتقطعو اولا يصلك اخطـاه

ومنها المحافظة على حسن الجوار ، يقول ابن احساين يوصى بالمحافظة على مال الجار وعرضه واعانته ، مشيرا الى أن الرسول ظن أنه سيورث من كثرة ما أوصى جبريل عنه :

أما وصى اعلى الجـار جبريـل افكـل اوان

حتى ظن الزمزمى عل الجار فمكانـى

يورث ورث الدم لون ما أتاه التبيين

مال الجار احضيه كن مالك صونو تنصان

واعلى عرضو كيراقب لجليل الغانـى

واختصار القول كل جار الجيرانو عين

ومنها الصدق والوفاء ، يقول ابن على :

الصدق ولوفا فالكلما ولعاهد ولقبول مـن الوهبيـا

من اقبل عنو رب الكاينات هنـاه

ويقول الحاج ادريس لحنش :

شد احزام الصدق ولوفا اعرف مايعنيك

ومنها التخلى عن البخل والاسراف ، يقول ابن احساين :

لابخل لا سرف كيرضى رب العالمين

ويقول ابن على :

الرفق افلمعيشا قالوا افضل من التجارا بالف ميا

ومنها تمجيد الكرم ، يقول الشاوى فى «الجواد ولبخال» :

يالمولى عمر نعم لجواد لفضـــــال * ولبخال اعطهم لخلا اوتم لخـــــلا

ومنها الحث على التواضع ، يقول لحنش :

لاترفع هما اعلى لعباد اذا رفعوابك * بوس لقدم لاتحسب اكبير شانـك

اياك العجب يخطر لك ببالك

اذا عظمت نفسك كل لها مالك

اذكر لها الموت تنهزم الذات وتهنيك

وابقى اتجول فالى فاتوا قدامـــــك

ومنها عدم الفخر بالآباء ، يقول بوخريص :

لاتقول أنا بويا كان سيد لكبران * شف ماتغرس من بعدو انت ابتحسمين

ومنها الحث على الصمت ، يقول العلمى :

الصمت كيقولو لعرب حكما * مجـدوه إشعار القدمـــــا

اسكات عام احسن من كلما ابغير ندما

ويقـــــول لحنش :

واتعود بالصمت فيه سر اكثير ايقويك

واتصب غايت الراحـا مـن شيطانـــك

ومنها تجنب الغدر والشبهة والتجسس والغيبة والنميمة والمزاح واللهو،

يقـول ابـن علـى :

اياك لغدر والشبها وامواقـف لشميات الى سمويـا

خوك فالناس الى وتك كن لوخــــــاه

نوصيك لاتجس لاتغتب لاتنـــم لاتجهـــل ازليا

واعظ الخلق افوجهو لاتسبو فقفـــــاه

ويقول الحاج ادريس لحنش :

واترك قيل اوقال ولمـزاح اوشين يلهيـك

خوفى اعليك تمضى فاللهو ازمانك

لاتدخل ما بين زوج بالشر احرام اعليك

واتشتت لحبـاب ابتزويـق اكلامـك

ومنها فعل الخير دون انتظار الجزاء ، يقـول ابن احسساين :

افعل الخير اولاتعاينو يرجع لك تاني

ومنها عدم الرد على الشر بالشر ، يقول ابن احسساين داعيا الى عدم الرد على الشرير معللا بأنه يكفيه جزاء أنه خفف معاصي المظلوم :

من غتبك يكفيك فيه خفف عنك عصيان

ومنها الصبر على المحن ، يقول ابن احسساين :

اصبر ياراسي اولا تكون عل لحان احزين

ويقول ابن علي في سرابته .

أقلبي كن عن امصابك صبار * الصبر مفتاح اللكنوز والذخيرا

ومنها معاشرة أهل العلم والدين ، يقول ابن احسساين :

واهدي واتهدا وعاشر اهل الدين وليقين

ويقول لحنش

واصحب ناس الدين لاتخالط من لايوريك

ومنها الرفق بالصبيان والايتام وتوقير الشيوخ واغاثة المحتاجين ، يقول ابـن احسـايـن :

وارفق بالصبيان وليتيم رحمو باللي كان

والشايب نوصيك وقرو ولو نصرانـــي

غث اللي استغاث بك كن اتلي الصعب اعوين

وكانت «الجفريات» فرصة أخرى ليعبر الشاعر الشعبي عن نظرتــه المتشائمة للزمان الذي يراه يتنكر للمستحقين ويصفو للسفلة ، وهي قصائــد بتأمل فيها أحوال المجتمع والناس ويذكر العيوب والمناكر المنتشرة ، معتمــدا في الغالب على الرمز والتلميح والاشارة والتشبيه والمقارنة . ومن خلال تأمله يتنبأ بما ستفضى اليه هذه الاحوال من ظروف ووقائع وأحداث

ويذكر الاشياخ للفقيه الحميري لامية جفرية يحفظون منها قوله :

ذاك الولـد المهبول * أصلو من أناضول

الفرخ يشبـه اخوالـو

وهو قول وجده الناس مطابقا لوضع المولى عبد العزيز (1) بعد أن هزمه أخوه المولى عبد الحفيظ (2) ، اذ أن امه تركية ، مع ان الشاعر كان يعيش فى عهد المولى عبد الرحمان (3) . ومثل هذا قيل عن زازية الموقت التى أولها :

أسبانيى انفيدك ابكافر باريـــز *** استفد أكن عايق واتبع الغرزا

واعتبر ما ذكره فيها عن هزيمة فرنسا تنبؤا بما تعرضت له أثنـــاء الحرب العالمية الثانية مع أنه كان يعيش فى أواخر القرن الماضى . **وللموقت** عروبى **جفرى** يستغرب فيه للصيف غدا شتاء والربيع خريفا ، وقد تكلـــم الطنبور ــ كناية عن نطق الجماد او صولة الفارغين ــ وغدا الناس فى ضيق، وانتشر الغلاء والبخل ، وفشت المخدرات ، وكثر النهب والخطف . ولم تعد الدراهم غير رغوة فى اليد لا قيمة لها ، وانعدمت البركة ، وأجدبت الارض فلا تنتج فى صيف او شتاء ، وتمكن الحرص من القلوب ، وهبت ريح الكساد عاصفة على الاسواق ؛ وهو زمان ليست للوالى فيه سطوة ، وانما هو الدهر يتصرف فى العباد كيف يشاء ، تارة يقبل ويرضى واخرى يسخط ويعاف ، وليس يوجد وزير يقبل شكوى المظلوم ليبلغها دون خيانة أو مقابل . وليس غريبا ان يرى كل هذا بعد أن غدا الدين رخوا والايمان ضعيفا فى نفوس المغاربة ، وبعد ان علا شأن اليهود (4) وأصبحت لهم سطوة ، وأذلوا المسلمين،

---

(1) تولى من سنة 1311 الى 1325 هـ. (2) تولى من سنة 1325 الى 1330 هـ.

(3) تولى من سنة 1238 الى 1276 هـ.

(4) تجدر الاشارة الى أن موضوع اليهود اثار غير قليل من شعــــراء «الجفريات» لاسيما فى هذه الفترة .ولايبدو ذلك غريبا فحقائق التاريخ تفيد أن الجمعية اليهودية فى بريطانيا كانت قد ارسلت سنة 1280 هـ احد اعضائها اسمه روشابيل تطالب حكومة المغرب بمنح حقوق وامتيازات لليهود ، وأن بريطانيا ساندت هذه المطالبة بواسطة سفيرها فى المغرب ونشر السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن ظهيرا أعلن فيه رأى الشرع ومـــا يوجب لليهود من حفظ الذمة وعدم الظلم ، فاتخذ اليهود هذا الظهير ذريعة للتجبر والطغيان مما اضطر السلطان الى نشر ظهير آخر يبين فيه القصد من «ظهير الحقوق» ، ذهب فيه الى أن الايصاء انما هو فى حق اهل المـــروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم واما صعاليكهم المعروفون بالفجــور والتطاول على الناس والخوض فيما لايعنى فيعاملون بما يستحقون من الادب (انظر الاستقصاء للناصرى ج 9 ص 113 ط دار الكتاب سنة 1956) ولكــن اليهود استمروا فى سلوكهم محتمين بالدول الاجنبية وسفاراتها وقنصلياتها فى المغرب .

وغدا المغرب يتخبط فى متاهات العمى والغواية :

سبحان الله صيفنا ولى شتـــوا ✻ وارجع فصل الربيع فالبلدان اخريف

ملى فالغرب عندنـــا طنبـــور ادوا ✻ والناس افضيق حال ملغلا والصيف

ثم اتنشا الكيف وكثرت النشوا ✻ وافشا فينا النهيب والهيف ولخطيف

وادراهمنا اضحات فيدينا رغـــوا ✻ لابركا ابقات لاشتوا لاصيـــــف

والحرص اعلى اقلوبنا لنالقـــوا ✻ وادبّع ريح لكسادعل لسواق اعصيف

فزمان ما تشوف للولى سطـــوا ✻ والدهر بين لعباد كيقبل وايعيف

ولاتلقى اوزير كيقبل شكـــــوا ✻ ويبلغ مايخون مايرضى تكليـــــف

قلت اوعدى اضحات فالدين الرخوا ✻ ولى ليمان عندنا فالغرب اضعيف

ليهود قصدت لعلو دركوا سطوا ✻ واقبلنا دلهم عاد الغرب اكفيـــف

وقريب من هـذا **قصيدة الشيخ محمد بن عمر فى «الهرج ولفتان»** ، يقول فى حربتها مؤكدا ان الهرج والفتنة ــ كما اخبر الرسول عليـــه السلام ــ مسجلان على هذا الزمان حيث يكثر الجور والفوضى والاهوال :

الهرج ولفتان به اخبر طه ايمامنـــــــا ✻ حدثنا عن ازمانـــا

إيْـــجُـــورْ الـــزْمَـــانْ ✻ يقوا هول اتفرتنو

وفيها يذهب الى ان الناس فتنوا بالدنيا وشغلوا بهمومها فغدوا كالدواب لا يحسون محنها ، فقد انقلب الزمان ، ولم تعد للعيش متعة او هناء ، وعمت الفوضى ، وكثرت الفتن وانعدمت الاستقامة ، وافتقد العاقل الذى يرشـد الناس للخير وينبههم للشر :

يـــا اخ الولهـــــان ✻ بهمـــوم الدنيـا الفاتنـا

من شطنت لنا اقلوبنا ✻ عشنـــا كالحيـــوان

لا من فـاق ابتمحانو

وانقلـــب الزمـــــان ✻ لا لـذا فالعيش لا هنـا

والدنيـــا راهـــا امفدنـــا ✻ مـــن كثـــرت لفتـان

لا مـن غـادى فيمينو

لا عـاقـــل يقظـــان ✻ ينهينا عـن ســـو افعالنا

وينبهنا ويفيدنـــــا ✻ ولفســـاد إيـبــــان

واعـوان الوقت اتعينـو

ولسيدي لحسن وعلي قصيدة يتنبأ فيها باحتلال فرنسا للمغرب،
وفيها يصف حال الزمان كما اخبرت به الاجفار ، فقد كتبت في ألواحها أنه
في السنة الحادية عشرة ستكدر عيون المياه ويتفرعن الضفادع في الوديان،
وتتقوى الذئاب ، وتضعف السباع ، وتصول البومة على النسور ، وتنزل
مكانة ذوي الهمة والشان ، وتعلو مكانة السفلة ، ويصبح الفجار في قرار
مكين ، ويغدو الوجهاء والشرفاء كالحيوان ، ويظهر القول الحق تخبر بـــه
الاجفار معلنا دخول الفرنسيين : (ل ف ر ن ص س)

بعد الصلا اعلى الرسول انوضـــح ببيان
شرط الساعا نوصف حال الزمــــــان
بها لجفـار خبروا باقـي السنين
نظروا فالـــواح باحــوا بالكتمــــان
في عام احداش غتخوض العيــــــــن
ويتفرعن اجران فـي اجميع الـويـدان
اتقوى الذياب والسبع ارجع مسكيـن
حتـى موكـا اتصـول على اجميـع البيـزان
واهل الرفعا تخمد ويعلو من شيـن
نـاس الرفعا تعـود خافضا بعـــد الشـان
تضحى قوم لفجور في اقرار التمكيــن
واهــل الجـاه يضحـاوا مثـل الحيــوان
يا اسفا الحق يبقى بايــن ابيــــان
خبروا بـه لجفار لام وفا ورا ونون وصاد وسيـن

وهو يرى — من خلال الجفر بالطبع — انه في السنة الثامنة والعشرين
ستخرج الجيوش ، وتكثر الاهوال والمحن والفتن ، ويضيق العيش عـــلى
الفقراء والمساكين ، ويتولى الحكم قوم طغاة ، وتقسو القلوب بعد اللين ،
ويبسم الحظ للاغنياء ، ويكثر البنيان ؛ ويرى أنه ستشتد الازمة في العام
الرابع والثلاثين ، وتدمع العيون في السنة السادسة والخمسين حيـــث
سيموت الناس خلال شهري شعبان ورمضان ، ولكن لن تلبث البشرى ان

تظهر فى العام التاسع والستين لتهب ريح النصر فى العام الرابع والسبعين:

تخرج لحروك (I) فى عام اثمنيا اوعشريـــن

تكثر لهوال ولمحان امع لفتـــــان

ريضيق العيش على لفقير المسكين ⁂ ويتولوا الحكم الغوم الطغيـــــان

ترجع لقلوب قاصحا من بعد اللين ⁂ ايخرجوا هل المال ويكثر البنيان

وما يقع عام اربعا وثلاثيـــــن ⁂ بعد شد اتدوز واتعم البلـــدان

تدمع العين عام ست اوخمسيـــن ⁂ واتموت الناس بين شعبان ورمضان

يظهر بشار عام تسعا وستيـــن ⁂ فيه لبشر ايبان ما بقى تمحـــان

ريح النصرفى عام اربعا وسبعين(2) ⁂ خبر الاجفار فيه يرتاد الولهـان

ومن «الجنسريات» قصيدة «**لطف الله الخافى**» للحاج أحمد الفرابلى وفيها يعزو الى ضعف الايمان فساد الزمان وتولى الطغاة بالقهر والجور :

لولا ضعف الايمـــان ⁂ مـا يضعاف ازمـــان

ويولوا الطغيـــان ⁂ بالقهـــر جايـريـن

فقد شاعت المحرمات وكثرت المعاصى وغفلت القلوب عن الموت ،فكان طبعيا أن تظهر العلامات دون خفاء ، فتطغى الظلمات ويفشو المكر والكذب ، وتغمر الحياة قوما يطغى عليهم حب الشهوات ، يأكلون السحت ويغـــدون صماعميا :

بحنا بالمحرمـــات ⁂ ولمعـــاصى اقـــوات

واقلوب الناس اضحات ⁂ غـافـلا عـل المـوت

العلامات انبـــات ⁂ للـــورا مـــاخفـــات

واقوات الظلـــات ⁂ والمكـــر البهـــوت

قومان صمت واعمـــات ⁂ غمرتهـــم الحيـــات

تبعوا حب الشهـــوات ⁂ وقت سحت اسحوت

(I) لحروك ج حركة وهى الغزوة وخروج الجيش للحرب .

(2) تجدر الاشارة الى ان تاريخ نظم القصيدة كما بآخرها هوالف ومائتان وأربعة وسبعون : «تاريخ عد شر يالفاهم» فالعين بسبعين والدال بأربعة والشين بالف والراء بمائتين .

فلم يعد شيء يحب في هذه الدنيا وقد عم النفاق فلا عهد ولا ميثاق ولاصديق ، صعب الوقت وضاق وكسدت الاسواق ، فلا بركة في الارزاق، وكيف والناس حادوا عن الطريق ، فأصبح الدين غريبا وكذلك أهلـــــه، وانعدم الرفق بالضعفاء والاخوة والجيران ، وتنكر الدم لفصيلته :

ما باقي ما يعشـــــاق ۞ فـــي ازمـــان النفـــاق

لا عهد لا ميثـــــاق ۞ اتوجـدو لا اصديـــق

الوقت اصعاب وضـــاق ۞ كســـــدت لســـــواق

لا بركـــا فـارزاق ۞ خارجيـــن الطريـــق

الدين اغرب وانســـاق ۞ في بعض الآفـــــاق

واهلو فقدو الرفـــاق ۞ ما بقى مـــا يليـــق

والدم من دمو جافـــى ۞ ما يرفق غاني بضعيف خو اوجار

وهو يرى ان مثل هذه الشدةطبيعية طالما ان الناس لايتجنبون المعاصي، ولا يلجأون للاحسان ، ولا يخالفون الشيطان ، ولا يحسون باليقيـــن :

ما جنبنا عصيـــان ۞ مـــا فعلنـــا احســـان

ما خالفنا شيطـــان ۞ ما حسنا بيقين

لذلك يلزم الاستغفار في الليل والنهار ، وفي خشوع وذل واحتقار ، وتلزم التوبة الى الله عساه يجبر الكسر ، ويمحو الاوزار ، ويقيل مـــــن العثرات ويجود بخيره وفضله الذي لا حصر له :

لزمنا الاستغفـــار ۞ فالضيا ولسحـــار

بالذل والاحتقـــار ۞ الخشوع لكبيـــر

وانتوبو للقهـــار ۞ كافـــا ابلجهـــار

وانقولـــو ياجبـــار ۞ اجبر اللي اكسير

امحى عنا لـــوزار ۞ أمقيـــل الاعثـــار

فضلك شلا يحصـــار ۞ جد عنا ابخير

وهو لا ينسى ضعف الامة وقضاء الله وقدره ، فيرفع يده اليه بهذا الـــدعـــاء :

يانعم الحى الكافـــــى ۞ اكفنا شر الوقت ما نشوف اغيار

يا مول الفضل الوافــى * فضلك مايتنها ولا اتحدو اشطار
عجل بدواك الشافـــــى * وارحم ضعف الاما الغارقا افلوزار
قادر تبلى واتعافــــى * تنسخ الشدا ابلعفو اكما افلخبار
يامول اللطف الخافــــى * الطف بنا افما اجرت بــه القدرا

كذلك كانت الاحداث الحربية السياسية والازمات الاقتصاديـــــة والاجتماعية تبعث الشاعر الشعبى على التأمل ومحاولة البحث عن الاسباب والمسببات واستخراج العظة والعبرة، يغلب فيها عليه أن يعتبرها قضاءوقدرا من الله ، وأن يقف منها موقف الضعيف العاجز متألما باكيا رائعا اكــف الضراعة الى الله أن يفرج الكرب ويجود بالعفو .

فالكفيف الزرهونى فى القصيدة التى يذكر فيها خروج أبى الحسن المرينى الى القيروان وهزيمته يرى أن الله مالك عقول الامراء وشاد نواصيهاى كل زمان ومكان لايدبرون الا بأمره ، وان النصر رهــن بطاعة اللــه ، وان الهزيمة نتيجة حتمية للعصيان :

سبحان مالك اخواطر الامــرا * وانواصيها كل حين وازمــــــان
ان طعنــاه عطفـــو لنـــا نصرا * او ان اعصيناه غضنا ابكل اهوان

ويرى أن قلب السلطان كالجوزاء، وان قلوب الرعية تجرى مجراه، وتتبعه وتستنير به ، ان عدل فاح نسيمها يخترق الآفاق بعبيره الذكى ، وانكشف الحجاب وبدا نوره يسطع كالمصباح بضيائه يعم أثره على الانسان والحيوان والنبات والجماد ، وان جار ساد الفقر وحل الران فى القلوب :

قلب السلطان يقال كالجــــوزا * وقلوب الخلق جاريا مجـــــراه
ان كان عادل ابرافت العزا * يطلع منها النسيم ايشق اذكــــاه
اذا يعدل قد فتحت الغــــــرزا * كنو مصباح وهو اتصير لضيــــاه
حتى فالسنبلا أفالتــــــــرى * يظهر عدلو انعم وفالحيـــــوان
ون كان جاير بنا قترا (I) * يطلع منها عل لقلوب الــــــران

والشيخ الاكحل فى قصيدته التى يتحدث فيها عــن وضـع المغــرب والمسلمين فى القرن الثالث عشر واحتلال الجزائر (2) ، يرد الامر الى قــدر

(I) من القتر والاقتار بمعنى الافتقار او من القتر ج «قترة بمعنى الغبار»
(2) كان احتلال الجزائر سنة 1246 هـ (1830م) ومعروف ان المولى عبــد
=

الله ومشيئته واذنه ، فقد قضى أن يرتد العرب ويفشل المسلمون، وان يحتل الكفار هذا الجزء من بلاد العروبة والاسلام :

العرب ابقدرت الله اتعود مرتدين
اتعود باذن الله سكان للكفرا

ويستشهد على ذلك بقول ينسب للرسول يؤكد أن كفة المسلمين ستنقلب فى آخر الزمان ، وان القرن الثالث عشر سيشاهد قهرهم وذلهم:

قال الرسول مفتاح دولت لخيار ⁂ يابن خلوف(I) راقب شف ما يطرا
آخر الزمان ينعكس وتنقلب ليام ⁂ قرن ثالث عشر فيه ابنى مسرا
يتفقوا اعلى ابلاد تسمى ياكرام ⁂ هاذك زاويا فالزمان مذكورا
فيها الولى لخصص ويذكر بعلوم ⁂ جعلو الله عساس اقبالت الكفرا
سبحان مالك الملك الواحد لعظيم ⁂ آخر الزمان ماذا تحوز من قهرا
هذا القصاص مذكور عام امن اسنين ⁂ فى قرن ثالث عشر ابلا عبرا

وفى استسلام لقدر الله وقضائه ينتقل للحديث عن الموت والفناء :

لرواح فانيا ولجثات مرميين ⁂ مالك للوك يبقى اولا بعدها عبرا
سبحان امن اخلقنا بعد العدم كان ⁂ من بعد اوجدنا نضحاوا فالتراب مدفونين
سبحان امن اخلقنا امكون لكوان ⁂ واجعل اوكيل عنا عزرائيل

ويؤكد فكرة القضاء والقدر فى قوله :

يا مالك السما يا عظيم يا جواد ⁂ واجميع ما جرى بسبب القدرا

الرحمن كان يساند الامير عبد القادر الجزائرى فى حربه مع فرنسا ، وهى حرب استمرت من 1246 الى 1264 هـ فقد قدم الامير الطاعة لسلطان المغرب على أن يتيح له محاربة المحتلين من ارض المغرب خاصة بعد ان هزموه سنة 1259 . ولكن فرنسا لم ترض عن ذلك وارادت ان تعاقب المغرب على موقفه، فقامت بحملة سنة 1260 فى «اسلى» من إعمال مدينة وجدة عند الحدود المغربية الجزائرية هزم فيها المغرب واضطر على اثر الهزيمة أن يعقد معاهدة مع فرنسا كان من أهم بنودها نفى الامير عبد القادر من المغرب ،وهو بند اضطر السلطان المغربى الى محاربة الامير الجزائرى وارغامه على التسليم ، فما كان منه الا أن سلم نفسه سنة 1264 .

(I) يخاطب الشاعر الجزائرى الاخضر بن خلوف . ونخشى أن تكون القصيدة ليست للاكحل كما يرويها الحفاظ وانما لابن خلوف .

وعنده أن المومن الذى يعبد الله يهون عليه تحمل قضائه :

اذا اعبدت ربى اتنال خير اكثير ❊ اتسلم القدرت الله اولاترى قهرا

وهو لهذا يوصى بالايمان وبالاستسلام للقدر فى رضى وعلانية :

احذر اوكون مومن اوخوذ التمهيل ❊ سلم اجميع ماكان بالرضا جهرا

فمن علامات هذه الفترة ان يترك صوم رمضان ، ويذل المصلـون ، والا ينهى عن المنكر ، وأن يشيع الحرام ، ويخضع المومنون لاسياد كفار، صابرين باكين منتظرين أن تحين آجالهم :

ثم اتنوح الخلـق فيه بالتعـراج ❊ رمضان ينهجر ولا تبقى لوجـــرا

فيه اهل الصلا مذلوليـــــــــن ❊ ايرخصوا ولا يبقى فى امناكر نكرا

أكل واحد ابلحرام يلها املــــو ❊ والمومنين تظهر اعليهـم الصبرا

اوكل واحد ينظر لاجلـــــــو ❊ يرضوا ذوك لسياد ابسكب العبرا

ولهاشم السعدانى قصيدة فى احتلال مدينة وجـدة «دخـول وجـــدة» يقول فى حربتها :

يالاسلام ابكو اعلى ادخول وجدا ❊ دون حرب اغنمها لعدو اونال لمراد

وفيها يرى أن ذلك نتيجة ضعف القلوب وفقدها لحرارة الايمان وقوة الجهـــاد :

لقلوب اضعافو واكساتهم بردا ❊ اولا نظرنا فهموم ابعز دين لجهاد

وعنده أن يموت الانسان عزيزا خير من ان يعيش ذليلا :

موت العز فنهار اللقا وبرزوا ❊ خير من عيش الذل افكل حين مبروز

فلم تعد للحياة لذة ، وقد عز من حافظ على ايمانه فى قلبه ، والامل أن تمر سحابة الازمة وتنقشع ليغيب نجم النحس ويظهر هلال السعد :

مابقات افعيش الدنيا اليوم لــدا ❊ عز من دينو ويمانو افقلب لفــؤاد

امصرفين لوقت فعسى اليوم اوغدا ❊ اغيب نجم النحس وينباهلال لسعاد

ولكن فيـم الخضوع والصبر على الذل حبا فى البقاء وتعلقا بالحياة وهى مهما طالت فانية ، ليست بدار مقام وانما هى دار عبور ، كل من حل بها راحل ، والافواج سائرة ونحن على اثرها بأمر الله وقدره :

لتا واحنا اقفاتنا تصبر للـــدل ❊ اعلى حب لبقا ولفنا بعد ايطـول

ما هى دار لكام من جاكيرحـــل ٭ شف القومان سايرين اكفول اكفول
واحنا فاتباعهم ابلقدر الموصول

وليس يموت أحد دون اجله المعلوم ولو احاطت به الاخطار والمصائب، ومن حان أجله فلا يستطيع تأخيره مهما كان غنيا ذا مال ،وليس فيمقدورأحد ان يهرب مما كتب له الله وسجل له وحكم به عليه :

مايموت افلورا مخلوق دون أجل ٭ لوايكون افوسط الغضب مايوصلو
ومن اكمل محسوبولوكان كاسب اموال ٭ ماينفعو الا دغيا (I) ايمد رجلـو
كيف يمنع من مكتوبو اوكيف ينصال ٭ من احكم الرب اعليه وسجلـو

حقا ان مشيئة الله قد نفذت ، ولكن لابد من لطف منه يفرج الكروب، فلا شدة الا وبعدها فرج ، وتلك حكمة الله حتى يذكر ويحمد فى كـــل الاحـــوال :

كل من راد الله عل لورا اتـــودا ٭ اولازم لطفو ايفاجى هم ضيق لنكاد
كيف معلوم الرخفا بعد كل شدا ٭ باش يذكر الله افكل ضيق وارغاد

ثم ان لقاء الابطال ومقابلتهم شرف ، ومن لم يلقهم محتقر مهما علا شأنـــه :

من لايلقى لبطال لو يعلى محقور

والذى يغفل عن الاعداء ويسكت عنهم اويهادنهم مغرور :

والغافل فالزمان عل لعدا مغرور

ومثل هذا نجده عند الحاج ادريس بن على فى «التطوانية» (2) حيث يوصى الغافل الساهى أن يستعد للجهاد بعد ان جار الاعداء :

اساهى خذ اخبـــــار ٭ وافهم تعبير القول ولشارا
نوصيك ياغفيل احتال لامر لجهاد لعدا جاروا

واذا شاء الله رحم الضعف ، وجبر الكسر ، وأتى بالفرج ،واتـــاح للمغاربة غزو الكفار وارغامهم عـلى الرضى بالغلب ، وبدد شملهـم وكسر سفنهـــم :

(I) حينا وبسرعة .
(2) قامت حرب تطوان مع اسبانيا سنة 1276هـ (1859) فى اول عهـــد السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن .

ايلا راد الستـــار * ايفاجى عل لسلام اد لكـــدارا
يرحـم ضعفنا وايعاملنا ابلفراح فعسى تجبـارو
ونغـــزو فالكفــــار * حتـى يرضـوا الغلب بجهـارا
ويبدد لكريـم اشملهـم وسفونهـم لهـم يكساروا

وعنده ان الرومى — والمقصود به الكافر — ماكر ، وهى حقيقة تسيها بعض الناس ، فمجنون كل من يغتر به ويامن لجواره ، فهو فى مكره مثل النار ان لم تخمد فى الحين تزيد اشتعالا ، لا مثيل له فى الغدر ، فهـــو يطمع بجد فى مدن المغرب ، ولكن الشاعر يدعو الله الا يحقق طمعه :

والبعض انساوا ما صـــــار * ما يعرفوا بين الرومى هل امكارا
مهبول كل من يتغرا فهذا الزمـان والكافـر جـارو
الرومى مثل النـــار * قالوا ناس التشبيه ولعبـــارا
اذا ماطفتها فالساعا اتزيـد هـذا تمكارو
ليس ابحالـو غـــدار * طامع فمدون الغرب بتمـــارا
لهلا ايوصلو ولا يوفى له ظن هو وانظارو

واذا كان المغاربة قد أصيبوا بهذا العدو فلانهم شغلوا بالدينار وانهمكوا فى الاخذ والعطاء وقوى بينهم البغض والحسد كبارا وصغارا ، لم يعـودا ينهون عن المنكر ويوقرون السادات ويزورون الاولياء ، وقليل منهم مـــن لا يؤذى جاره :

أيـا اولـى لبصـــار * اعتبـروا نظروا افـذ العبـــارا
واتأملوا فهذا لقول اللى بان ياسيدى اثارو
لتهنــا بالدينـــار * واغبطنـا فالدنيـا ابخـوذ ورا
واقوى البغض ولحسد افهذا الجيل فى اكبارو واصغارو
لانهى اعلى المنكـــار * لا توقير السادات فزيـــارا
وقليل من اتصيبو فى هذا الجيل ليس كيدى جارو

وهو تعليل نجده عند الموقت فى «الزازية» حيث يقول :

سكان الغرب كلهم عباد اللويــز * فيهم اللى باع دينو بالخبـزا

ويرى الحاج ادريس ان الامل فى الجهاد ، ولكن لا جهاد بدون تقوى

وصبر ، فهما كالاساس للبنيان ، وليس يكون حصينا اى بنيان بـــــدون أساس :

ليس ايقوم لجهاد يالامت لخـوان ※ دون التقوى امع الصبرهاذو باثنين
تمثيل الساس للذى رايد بنيـان ※ اشمن بنيان دونساس ايكون احصين

وما حدث ليس غير تنفيذ لحكم الواحد القهار ، فعسى الله أن يعفـــو ويطهر وينصر دين الاسلام على ملة الكفر بجاه رسوله المختار :

من نسعاوه لعفو امع اطهارا ※ ينصر دينا عن ملت لعدا ابجاه طه مختارو

وللشيخ اسماعيل المراكشى **قصيدة أنشأها حين فرضت حكومة الحماية اول ضريبة على المغاربة** يقول فى حربتها متوسلا الى اللـــه الا يلجىء الناس للمخلوق ، وأن يجود عليهم بعفوه ويجيرهم من الضيق :

لاتولجنـا للمخلـوق يالخـــلاق ※ جد لنا بعفوك اوجرنا امن الضيق

ويقول فى دخولها متوسلا اليه بحرمة البسملة واسرارها أن يفـرج كرب الزمان المظلم ، ومتوسلا اليه كذلك برسوله الا يحاسب الناس عـــلى تقصيرهم لانه مشفق رحيم :

حرمت البسملا واسرارها افلافاق ※ فرج اعلينا من هذا الزمان لغسيق
لك زكنايا الاهى افمول لبـــراق ※ لاتحافنا بالنقصان لنك اشفيـــق

ومنها هذا العروبى يرجو الله فيه أن ينظر الى ضعف الناس وقـــد ضاقت الاحوال ، وكلت العقول ، واوثقت الصدور ، وذابت الاكباد محترقة بنار الشدائد ، وبكت القلوب مخفية دموع العين ، وغدت الاجسام كسفـــن غارقـــــة :

انظر منحال ضعفنا ضاقت لخلاق ※ كلت لعقول افلصدور الموثوقـــا
والبعض اكبادهم دابت من لحراق ※ من نار الوقت والشدايد محروقـا
وقلوب اتنوح خافيا دمعت لرماق ※ وامثيل اجسامنا اسفايـن مغروقا

وللشيخ ابن عمر المراكشى **قصيدة فى أزمة «البون»** اى بطاقة التموين ايام الحرب العالمية الثانية ، يرجو الله فى حربتها أن يحن ويجير من الزمان وفتنه ، والا يترك الناس فى الصف بالوسائط :

حن ياامولانا فينـــــــا ※ اوجرنـا فـالزمــــان

اوجرنا من لفتـــــان ٭ ولا تخلينافي سربيس(1) بالوجهيا

وفيها يؤكد فكرة قضاء الله الذى قدر الغلاء،ويرجوه أن يعين الناس، ويفرج ما نزل ، فهو وحده العاطف المشفق :

كل شيء ابقدرت المــــولى ٭ من اعلينا قــدر لغــلا

ايعينا بقدرتو رب لعبــــاد ٭ عالم بنا يفجى ما تصدر بنــــا

تـعــــم المـعـيـــن ٭ من غيرو مالنا احنين

ويرى أن ما قامت به الحكومة من جمع للقمح وتنظيم لتوزيع الخبـــز الهام من الله ، وهو الذى امر ولاة المراكز أن يعينوا رجالا يشرفون عــــلى العملية ، يساعدون الضعيف والعاجز والمرأة والمريض والكفيف والطالـب والشريـــف :

لهم المخزن من لا ينام

ايجمع الزرع افكل عام

حتى يامر به لكريم

اللى محتاجو افكل يوم

ايقبضو طايب (2) منهم

ومر الولات كل مركز يعملو لو ارجال

رياس ايعرفو اللفصال

وإيساعدوا ضعيف الاما

والعاجزين واللى حرما

وايميزو الطالب ويرفعوا بالشريف

واللى مضرور امع لكفيف

ومثل هذا يقوله فى قصيدة اخرى فى الموضوع :

جاد المعين برحمتو وافجا كل ضيق

بالهام من المولى قام المخزن

---

(1) سربيس أى الصف ، او ما يطلق عليه فى مصر «الطابور» ، والكلمة من الدخيل الفرنسى .

(2) طايب أى ناضج .

بالزرع اللى كان اخزن

بيعان المسكين احسن

افكل مسكن امراكز دارها

للمساكن أفقرا

او ماعملها لصحاب الزرع افلمطامر

الشحاتا هل لقطار

ولمحمد لحلو قصيدة فى نفس الازمة ، يرى فيها أن الزمان أصبح مرا والمصائب كثيرة ، وماذا عسى يفيد ؟ فقد خاض الناس فى المناكر ، وعمرت الاسواق بالمعاصى ، وظهرت علامات كثيرة وعجائب تحير العقول ، فلا الكبير يهاب ،ولا الصغير يحترم ، ولا الجار يوقر جاره ، لاحياء ولاعهد . وشغل الشيطان الناس عن أداء صلواتهم وعن كل ما يهمهم :

هذا الوقت امـــــرار * ولصايب كثرو شنهـو ايفدنـا

خضنـــــا فالمنكـــــار * ولمعاصى بها عمـرو اسواقنــا

عــلامات اكثـــــار * ولعجايـب فيها تفها اعقــولنا

لا رهبا لكبـــــار * لا صغار ايحشمو فى جيل وقتنا

الجار امع الجـــار * لا احيا لا عاهد حجـات باينـــا

لهنـــــا الغـــرار * عن اصلات الخمسا واللى ايهمنا

شف الـوقت احـــرار * من افعالنا هـذ الوعيد صابنا

ويذكر بعض مظاهر الغش المتفشى فى اوساط التجار ، فالجزار يخلط لحم الغنم بالماعز ، واللبان يضيف الماء للحليب :

شـــف الـلــى گـــزار * كايبيع النعجا غلمى (I) المسوقنا

شـــف الـــلى بگـــار * بالمياه ايخلط لنا احليبنا

ويستعرض بعض مناكر الوقت فيذكر منها كثرة النساء وتبرجهن فى جلاليب وأحذية ملونة ،يزين عيونهن وخدودهن،ويلون أظافرهن ويكشفن عن اساورهن وقفاطينهن الجميلة ، وقد بدت الخواتم والايدى المخضبة بالحناء :

(I) تقلب بعض الالسنة نون الغنم لاما .

لعيالات اكثـــــــار * بجلالب واسبابطها املـــونا
ويصبغو لظفـــــار * والدمالج فـوق الكبوط باينـا
والعينين اكبـــــار * ولخدود الحمرا تلمع باينـــا
بقفاطن تشكـــــار * ولخواتم وحنانيها امزينـا

وفى الوقت الذى يبقى الرجل فى الدار تخرج المرأة بهذا التبرج ، وتأتى بالسكر والدخان لتكيف مزاجها به :

الرجل فالـــدار * ولمرا فالزنقا تمشى امشرغنا
واتجيب السكــار * والدخخن هـذا هو ارشوقنا

وليست الشابة وحدها التى تعرض زينتها وانما العجوز كذلك تضع المساحيق على وجهها ، وتصبغ شعرها ، وتظن نفسها جميلة فتأتى المنكر ، ثم ان الساحرات كثيرات :

لعكـوزا تـــــوزار * كاتعكر وتقـول أنـا امزونا (I)
تفعـــــل فالمنكـــار * والشعر اتصبغو ما هو افدينا
السحـرات اكثـــار * كايسحرو ويقولو ياخديمنا

ويعطينا صورة لحال العيش الضيق الذى نتج عن أزمة البطاقة ، فـلا أقمشة موجودة ، ولا صابون للتنظيف ، واوقية السكر التى تسمح بهـــا البطاقة لم تعد كافية ، وليست فى الدار مؤونة فلا سمن ولا زيت ولا فحم، وليس فى السوق لحم الغنم او البقر أو الجمل ولا سمك «المرنا» المعروف وهى حياة جعلت ربة البيت تقلق وتعرب عن هذا القلق فى قول لزوجهـــا بأنها ضاقت بطبخ الخضر كل يوم وخاصة البطاطس ، وكأنها موصى على أكلها من طرف الطبيب :

لا كتـــان اظهـــار * لا صويبن باش انكلعو اوسخنا
أبـــون السكـــار * ولوقيا ماباقشى اتقـدنـا
لا عـــولا فالـــدار * لا سمـن لا فخر لا زيت كاينا
لا غلمـــى يذكــــار * لا جمل لا بكرى لا حوت مرنا
لمرا بالمعيـــــار * كاتقول للرجل طابـو اقلوبنا

(I) تصغير مزيانة بمعنى جميلة .

عينـــــا لخضـــــار * كل يوم الخضرا هي اطيابنا
بطـاطـــا فغطـــــار * واش لبطاطا نعتهـا اطبيهنا

ومع ذلك فكل شيء متوفر في السوق السوداء يباع في الخفاء :

تحت الكونطـــوار (1) * كـل ماتبغى من لسلوع كاينا
جيب المرشي انـوار (2) * كل سلعا مخزونـا ليس باينا

وهو لا يرى في ذلك كله الا تنفيذا لحكم الله وقضائه ، فيرجوه ان ييسر الامور وينشر رحمته لتعود الاسعار كما كانت ، حتى تزهر الايام وتزدهر الحيــــــاة :

تصريف القهـــــــار * ولقضا يتصرف بحكـام ربنـا
يــــا عـالـــم لسرار * يالمولى يسر لنا أمورنا
ربـــى يــــا غفـــــار * ليس عيبت فالي مخلوق كيفنا
حامـل مـن لـــوزار * لكن ارحمتك ياربي اتعمنا
يا رازق لعمـــــار * يا لغنى من لايخفاك حالنا
ويرخصو لسعـــــار * كيف كانـوا تزهر لنا ايامنـا
يـــا نعم الستـــار * جد برحمتك يالكريم غتنا

وللحاج محمد بن عمر **قصيدة في نفي محمد الخامس** يقول في حربتها:

قولو يا هلي معظم يوم السبت افلمدين الحمرا يذكار
عمنا لطف الله وخمد لفتايـــن

وفيها يرى أن كل شيء بقدر الله ، ولابد من تحمل هذا القدر والصبر عليه الى أن يفوت ، ولن يفوز بالنصر الا من رضى بقضاء الله وقبل مصـــيره، اذ لا ينفع الهرب منه في شيء وليس للعبد أي اختيار ، فماله الا أن يسلم الامر لمولاه ويذعن :

سبحان امن اقضى بقدرتو واحكم * ابما اجرى فـى جمـــع البشر
قدرو مولانا واعلم كـل كايـن

---

(1) مدرج البيع والمائدة التي يقف خلفها البائع، والكلمة من الدخيل الفرنسي
(2) السوق السوداء ، وهي من الدخيل الفرنسي كذلك .

يفوز امن اصبر للشداحتى اتفوت ＊ وارضى واقبل ما صـــار
افلقضا ما ينفع لهروب يالفاطن

ليام دايرا والفلك امعاها ايدور ＊ ما للعبد اختيـــــار
سلـم الامر المولانا اوكون داعن

وفى قصيدة اخرى له فى نفس المناسبة يدعو الله أن ينصر المغاربة ويفرج الكرب ، وان يخلصهم من يد أعدائه العصاة الحاكمين الذين رضـوا الدنيا وكرهوا الآخرة ، فالفلك يدور ولابد لكل شدة من فرج :

ربى ينصرنا عنهم لابد الفلك ايدور والسوايع هذا حال الزمان
قالوا لدهات ما تدوم الشـــدات
باللطف يتصرف لقضـا فالازليـا

يالعالم فرج كربنا ياغيـــاث ＊ ابجاه سيد الســـادات
سيدنـا محمـد طـه خاتـم الانبيا

لاتخلنا ياربى فيد هاد العصـــات ＊ من اعلينا حكمـــات
لاخـرا كرهوها وابغاوا غـير الدنيا

وكما نظر الشاعر الشعبى الى الاحداث المحلية (1) ، فكذلك نظر الى القضايا العربية الاسلامية (2) وتأملها من خلال ايمانه بالقضاء والقـــدر

(1) ليس من شك فى أن حرب الريف التى قادها محمد بن عبد الكريم الخطابى لتحرير البلاد من مختلف ألوان الاستعمار تعتبر من أهم احداث المغرب المعاصرة ولكن الاسف اننا لا نعثر لها على أثر فى الزجـــل على الرغم من الشعبية التى يتمتع بها ابن عبد الكريم وعلى الرغم كذلك من الصدى القوى الذى خلفته هذه الحرب فى النفوس .
وقد ذكر لنا الاستاذ ابراهيم الكتانى أنه حضر مرة موسما لاحــد الاولياء فى الشمال ـ لعله موسم سيدى عبد السلام بن مشيش ـ وكانت تقام حفلات رسمية حتى المساء يحضرها مسؤولون عن السلطة وحكومـــة الحماية تنفض اثرها جموع الناس . ولكنهم لا يلبثون ـ بعد اطمئنانهم الى انصراف هؤلاء المسؤولين ـ أن يعودوا للاجتماع حتى الفجر ينشدون قصائد شعبية بالعربية والبربرية الريفية فى تمجيد هذه الحرب ، وقد حاولنا فى احدى رحلاتنا للشمال أن نعثر على بعض بقايا هذا التراث ولكن الاسف، انا لم نوفق لذلك . ويبدو انه ضاع بسبب عدم الاعتناء بتدوينه كتابـــة او تسجيله بالصوت ، وبسبب موت الحافظين له كذلك ، وهم فى الغالب من الشيوخ الذين شهدوا الحرب مع ابن عبد الكريم .
(2) تنسب لابن على ولد ارزين قصيدة طويلة تسمى «المصرية» نظمهـــا فى دخول نابليون الى مصر ، ولكننا لم نعثر لها على اثر .

في النصر والهزيمة على السواء . وقد كشفت حرب فلسطين الاخيرة (1) عن تجاوب شعبي صادق مع هذه القضايا ، نحسه عند الحاج محمد بن عمـــر الذي طغت عليه عاطفته الوطنية المتأججة فحالت بينه وبين النظر الى هذه الحرب من خلال حقيقة النكبة التي أصابت العرب والمسلمين ، فهو يحمد الله على أن تألق نجم الاسلام مضيئا في الآفاق دون حد لنوره ، وعلت كلمة الله يسر خبرها جميع النفوس ، وظهرت أمة الاسلام في برج النصر يؤيدها الله ، وقد توحدت جيوشها ووقفت متراصة على طول الحدود ، ونادى حظ النصروظهرت بشائره فسعد من كان قريبا منه؛وهو يأسف لبعد المسافة،ولو وجد لقطعها أجنحة لطار:

وبعدها يالامت لسلام الحمد لله اطلع النجم السانى

واتجلى فالافاق بان ضيو ما هو محـــدود

وارقات الكلما العاليا واخبارها سر النفوس ياجمع اخوانى

وظهر شعب الاسلام ايدو لحليم المعبـــود

فى برج النصر شهدوه اجيوش لسلام جات من كل اوطان

واتحدت الاما الواقفا فمناهج لحــــدود

نادى فال النصر وبانت ابشايرها يا سعد من اضحى دانى

ونا ماصبت اجناح ولوصال اعليا مبعـــود

أليست دولة اليهود فانية منذ العهود الاولى للتاريخ ؟ تنقصهم القيادة الواعية ويخذلهم الله فتنهم في الحياة وأذلهم في كل مكان ، وجعلهم ضعفاء جبنـــــاء :

مبطولا دولتهم ياهلى خلاهـــم طورا فى اماج طوفانى

لا رايس واعى القاوا لامن بهم ايلـــــود

واخذلهم مولانا افلحيات افتنهم أدلهم فى كل امكانى

واجعلهم فالدنيا اكرايف(2) لكرايف الجنود

---

(1) حرب الستة أيام (يونيو 1967)

(2) الكرفا تعني البخيل حين تطلق على الرجل وتعني القبيحة حين تقصد بها المرأة ولكن الربط هنا بين الكرفا والجنود لا يجعل الكلمة تعني غير الضعيف والجبان .

ثم ، أليست شوكة المومنين قوية ؟ وعدهم الله بالنصر والغلب على اليهود مهما انتشروا فى الآفاق ، فما كادت تسمع بشارة الفتح الالهى تعم الامة الاسلامية ليهلك الطغاة كما هلكت ثمود من قبل ، حتى سطع نجم الاقبال وبدت علامات الفرح والسرور والسلوان تحيى النفوس والبيد ، ونهضت سائر الامم والاجناس لحماية بيت المقدس مطلقة اعنتها مستعدة للقتـــال :

شوكت هل ليمان قويا وعدها ربـى بالنصر عل لجبانـى

تغلب ساير ليهود لو اكساو القفر الممـدود

مهما سمعت بشار السعادا عـم لسـلام بالفتح الربانـى

يهلك جيش امن اطغا ربنا كيف اهلك تمـرد

ها نجم اليقبال بـان شف اعلامات الفرح والسرور أسلـوانـى

شاع اذكرها واحيات به لمهاج امع لبـدود

قامت سساير لجناس ناهضا جات اتحامى اعلى البيت طلقت لعنانى

محتالا عل لقتال واكدا بطرارد وبنـود

واليهود لا يؤمنون ، لا عهـد لهم ولا ميثـاق ، والأحمـق هو الـذى لا يحتاط من أعدائه ولا يحذرهم :

بالك تامن من خالفو الحد ونقضوا لعهود

وكذاك الميثاق ليس فيهم الى بنا ايثق يقرا لمـانـى

لحمق من يامن فى اعداه ماينجا من لنكود

وقد بدأوا يطغون ويتجبرون ويسعون للفتن منذ مدة غير يسيرة ، ولكن الله سيهزمهم ويصون منهم البيت ويحميه :

هاذى مدا ليهود باش زاغوا واطغاو افرعنو ورادوا لفتانـى

ربى يهزمهم من البيت ويصونو من ليهود

فأرض الشام شرفهـا الله وأمنها من قـديم ، لذلك فهو يرجـوه أن يحميها من اليهود الاجلاف :

الارض الشام الله شرفوا من قادم للآن فيه ساير لمانى

ياامولانا حرسوا امن اجلاف الاما لهـود

واذا كان ابن عمر قد نظر الى الازمة بمنظار غير واقعي فأشاد بوحدة صف المسلمين وقوة جيوشهم وبتخاذل اليهود وتشتتهم وما نتج عن ذلك من انتصارأصحاب الحق وانهزامالاعداء المتعصبين فانالشيخ ابن الكبير المراكشي كان اكثر واقعية في النظر الى الازمة ، وتأمل أحداثها والاعتراف بانتكاس المسلمين ولمس أسبابه الحقيقية . فالمسلمون مشتتون متنازعون ، في حين أن العدو الى جانبهم يتربص الفرص للانقضاض ، يسانده إخوته وأصدقاؤه يزودونه بالسلاح :

النزع ادهانا امع بعضنا بعضألعدو افجنبنا يتسنانا
وامعاه لخوت سلحوه بقنابل للتخـــراب

والمسلمون في حاجة ملحة الى الاتحاد وتوحيد الصف ماديا ومعنويا ، ومتى كانوا متفقين متراصين فان أحدا لن يستطيع مواجهتهم :

لازم للصف انوحدوه حس امعنا نتاحدو الا مـن يقوانا
اذا كنا متوافقين ما يلحقنا كذاب

أما اليهود فطغاة متجبرون ، وليس من يهلكهم ويمحقهم غير الله ، وهـم أقوياء مستأسدون ومتحدون لمحاربة المسلمين ، وقد نجحوا بالغدر في اهانتهم وتشريدهم ، واذا كانوا أقوى منهم فلان اخوتهم وحلفاءهم يمدونهم بالعون

ليهود اطغاو اتجبرو اولامن يهلكهم غيرك العاظم مولانا
امحقهم ابلقوا القادرا والسهم الرعـــاب

ليهود اقواو اتنمرو واتحدوا عنقتلاخوانا وقصدوا لهانا
هانونـا هملونا اشردونا غـدروا لكلاب

ليهود القاوا اخوتهم عانوهم ابقاوا اقويا عن اقوانا
قوتنا هو انت اوقوتك ما تحتاج اجعاب (1)

وهم لم يستحوا من انتهاك الحرمات سعيا الى تحقيق أمنيتهم ، سبوا النساء ، ومكروا بالشيب والشباب ، واتخذوا المساجد مراقص ، وأخرجوا المسلمين من ديارهم ، ونهبوا وشردوا وقتلوا :

ليهود انواو ايحققوا امنيتهم اينكونا ايسبو نسوانا
بنواع الفحش ايعاملو الشايب منا والشاب

---

(1) الجعاب : البنادق ويقصد أي سلاح .

امساجدنا للرقص هيؤهم اولاد الفاجرين قصدوا منفانا

قتلوا نهبوا لخوت شردوهم افكل اهضاب

وهو يرى ان المسلمين خدعوا في المعركة حيث نكل بهم العدو وتحداهم ، فكان مصابهم عظيما ولم يشاركهم فيه أحد ، لذلك فهو يلجأ الى الله يرجوه اللطف بعباده الاسرى والانتقام من العدو وحلفائه ، فمتى نزل الضيم بالعبد فليس ينجيه ويغيثه ويفرج كربه غير خالقه الذي يرعاه بالليل والنهار :

لصاب اعظيم أهل الدين لتين اتخدعنا اولا امن ابكى لبكانا

اربى ياربى لطفك نرجاوك ياوهاب

عجل باللطف اعبيدك اسرى شوه بهم لعدو أراه إتحدانا

والقى من يحميه واحنا فاحنا احماك الغلاب

العبد الا ينضام الا من ايغيثو يلا خالقو اولا سواه ايفاجى لكراب

ولكن لابد من التعجيل بالتوبة والاستغفار حتى تكشف الغمة ويشفى المصاب :

الله أهل لسلام بادروا بالتوبا واستغفروا وطلبوا مولانا

يفجى هذا الغما اعلى لجميع ايشفى لصاب

ولابد كذلك أن يتخلص المسلمون من كيد الشيطان ، ويشكوه الى الله وقد عجزوا عن محاربته ، فهو سبب كل ويل ، أغراهم بالطمع ،واستحوذ عليهم فغدوا له أعوانا ، وبعدوا عن الصدق ، لذلك فهو يطلب الله الا يحاسبهم وان يعفو ويسامح ويصفى ماءهم ويجعلهم اخوة متحدين :

اجعلنا من هل اليخلاص واحفظنا من كيد يبليس من قصد إنكانا

لن نشكوه غير لك ما طفنا له احراب

هو السبباب الكل ويل خدلو يارب راه يطمع ݣاع (1) إدانا

كهربنا ولينا اعوان عندو واصدقنا غاب

يا ربى يا ربى اولا تحاقنا يا لكريم سامح اصفى مانا

بك اجعلنا نتحدو ونضحاو للخوت احباب

(1) ݣاع بمعنى جميعا ، ولعل أصلها في الفصحى القاع ، وكأن الوصول الى قاع الشيء يفيد جمعه كله .

وقد أوصى الله المسلمين وأنبأهم بعداء اليهود لهم ، ونبههـــم الى ان من اتخذهم أولياء فهو منهم ، ولكنهم خالفوا قول الله ، وخضعوا لاهوائهم ، واتخذوهم أحبابا وأصدقاء وتزوجوا منهم ، فكانوا بذلك عونا لهم على الغلب:

لنا قال المولى لكريم راليهود إعداكـم ابهـذا وصانا

خالفنا قول الله كلنا درناهم احباب

من ولاهم الله قال هو منهم ابلا احيا اخضعنا لهوانا

وتزوجنا منهم غلبهم كنا له اسبـــــــاب

ولكنه متفائل طالما أن كل شدة لابد وأن يعقبها الفرج :

الشدا يتبعها الرخا احنـــا نترجاو تحقيق نصرك يوفانا

رب اللطف الخافـى أنـت المعطى من دون اسبـــاب

ثم فيم الخوف والجبن ، مادام الموت حقا على الناس ، ومادام الاستشهاد ضمانا للجنة ؟

الموت اعلينا حق ياك من مات اشهيد اهنا اوفاز ما يحتج اضمانا

راح اعريس الجنـــا افلاخرا يا سعـدو يسطـاب

مــــلاحظـات :

نود فى نهاية هذا الفصل أن نسجل بعض الملاحظات ، عساها تكمل الجوانب التى قد تبدو ناقصة فى نظرة الزجال المغربى الى الحياة .

الاولى : أنـه على الرغم من أن الشاعر الشعبى عاش فـى حياته وفنـه متجاوبا مع مجتمعه مهتما بمشاكله وما يتعرض له من وقائع وأحداث ، فانه يبدو وكأنه لم ينظر الى هذا المجتمع الا من علو وبعد ، لم ينزل اليه ولـم يقترب منه ليختلط به ويرسم حياته اليومية ليعرض لوحة مكتملة الملامح والابعاد . قد يكون ذلك صحيحا ولكن الى حد . حقا ان الشاعر الشعبى ظل وهو يعالج مشاكل المجتمع والحياة محصورا فى نطاق خاص ، هو نطـاق القضايا الكبرى التى تشغل الرأى العام من انحلال يصيب المجتمـــــع او أزمات تعترضه ، ولكنا لانريد أن ننفى عنه النزول الى الشارع والاتصال بالحياة فى ابسط مظاهرها واصغر مشاكلها ، ونكاد نجزم بأن هذا الشعر ضاع بسبب عدم رغبة الجماهير فى سماعه وترديده ، وبالتالى عدم اقبـــال

المنشدين على حفظه وتداوله . ونكاد نجزم كذلك بأن مثل هذا الموقف يتخذه الجماهير والمنشدون مـن شعر لايسيغه الذوق الجماعي للترديـد والغناء جعل الشاعر بدوره يحجم عنه ولا يقدم عليه الاحين يقوى الانفعال في نفسه ويضغط عليه ويجبره على القول وفي الحدود التي لا تزعج الذوق العام . ويبـدو أن رجل الشعب ـ شاعراً كان أو منشـدا أو مستمعا ـ لا يرى في الحياة اليومية العادية موضوعا للامتاع طالما أنه يمارس هذه الحياة ويعيشها بكل الابعاد والجزئيات . ومع هذا فان الباحث لا يلبث أن يعثر على نماذج ـ ولو قليلة ـ تثبت تجاوب الشاعر الشعبي مع مشاكل مجتمعه ومعالجتـه لقضاياه . من ذلك قصيدة «المطر» (I) التي تصور قسوة فصل الشتاء على الفقير الذي لا قدرة له على الاحتماء من البرد والمطر . فالقسم الاول منها وصف لحـال الجو الطبيعي ، لقـد هبت الريـح ، وصوتت الرعود ، ولمعت البروق ، وتهاطلت الامطار ، وراح كل الى مقره ملتفا في جلبابه ، وغدا الحي بمشيئة الله وقدرته خاويا بعد أن كان عامرا بالناس ، ووقف الشاعر يطل عليه من سور سطح بيته ومعه كاتبه :

حسيت بالريـاح الصرصارا * والرعودافلكوان ايزيمصوتها بهدير
لبروگ من القبلا شـــاروا * خطفوا المن انظر لبصـــور
وابدات شي امشاتي غزارا * صابا من لسحاب الواسقا الما لكثير
والناس كلها لقـــرارو * سرى وراح فالغنبـــور
طليت عل الحي امن اسطارا * بانلى فاضي بعدنكان فيه جمعاكبير
كلا امشى اسريع الـــدارو * يضحى من لمطر مستور
سبحان امن اقدرتو جبارا * جل شان اللي كيخلي الكون بعداعمير
ويلا ايريد لـو تعمارو * يضحى افساعتو معمـــور
لطار ما عملت الفتــارا * وناكماصبحتافبيتي ظلتماقدرتانسير
وامعاي كتابي مختــارو * يدري الشعر والمنثــور

وفي القسم الثاني يطلب الشاعر من كاتبه أن ينبه الاغنياء الى أنهـم

(I) سجلناها من المذياع غير منسوبة الى صاحبها، وسألنا كثيرا من الاشياخ فلم نهتد الى معرفة اسمه والغالب أنه معاصر .

مصابيح التنوير وراحة المتألم ، يجب عليهم الا ينسوا مواطنيهم الضعفاء ؛ ويرسم صورة للعامل الاجير يكدر الشتاء صفو حياته حيث يظل يدور طول النهار يبحث تحت المطر عن عمل يكسب منه قوت يومه فلا يجد . ويعود فـي المساء الى المغارة التي يسكنها ويفترش فيها مع أسرته الحصير ، فيدخل خاوى الوفاض فارغ اليدين وقد تعثرت قدماه من شدة الكدر والهم ، ويلتف حولـه الاطفال ، وتحس زوجته بحقيقة حاله ، وتحاول تصبيره على ما قدر اللـــه، فهي من أسرة نبيلة كريمة راضية بعيش الحلال مهما كان قليلا ؛ ووجـود مثل هذه الزوجة فى بيت الرجل الفقير عمارة له :

قـل الكاتب ليـل لغـارا ☆ عار لفكار اعليكم يا مصابح التنوير
انتم افشعبنا دكـــارو ☆ وانتم راحت المعكـــور
الي ايظل يخدم بجارا ☆ انهار تاتيه الشتوا كيظل فى تكدير
من حيث مادرك مسوارو ☆ اويظل افمطار ايـــدور
وايعود افلعشى اللمغـارا ☆ فين يوجد لطفال وزوجتو اعلى لحصير
ويشوك اللحم واشعـارو ☆ لوصاب لرض به تتغور
ويزيد ابلقـدام العثـارا ☆ والدرارى به ايدوروا اكبيرهم واصغير
واتحس زوجتو بكـدارو ☆ واتقول هكـذا مقـــدور
بنت لجواد نسل الخيارا ☆ راضيا بالعيش دالحلال لون كان اقصير
اعمارت لفقير افــدارو ☆ زوجـــا ومنهـــا مسرور

ويستعرض القسم الثالث نماذج من الغرباء المشردين الذين يفدون الى المدينة ، وليس لهم فيها مأوى يجدون فيه الدفء ، منهم من يختبىء تحت الاقواس وقد ستر جسمه بازار أو لبس ثوبا قصيرا أو ممزقا يكشف عورته ، ومنهم كثيرون يذهبون الى المقبرة عساهم يحتمون من الامطار ، ومنهم آخرون يتسولون فى الطرقات يسعون الى جود الاغنياء ، ولكن هؤلاء فى دورهـم وقصورهم مدفأون فى البطاطين والازر لايحسون بشيء ، وقد نسوا الكون والخلـق :

مـا ريت من جاوا اللعمـارا ☆ امشردين ولشاقى كطيح بالتدبير
مـا ريت من جاوا اللعمـارا ☆ امشردين وصابوالشتا ولاالقاوانصير

والـدفء مـا لقــو اثـارو * بين لقواس داروا كــــوز
فيهـــم امـــن اكساتـو دزارا
فيهم يالغنى من لابس ثوب عل الجسم اقصير
فيهم امن اتبان اعـوارو * من شرگ افوسط المحصـــور
واشحال منهم فالمقبـــرا * امكمشين امن امشاتي كطيح بالتبدير
وإخرين فالزناقي ســـــاروا * يسعاوا جود هل لقصور
وانت اكما لبخيل افــــدارو * ناسي الكون والمعمـــــور
وانــت افيشــك وتفشــارو * بين لبطاطن وليــــزور

وفي القسم الرابع والاخير يكمل اللوحة برسم ارملة لاقوت لهـــا ولاكساء ولا نور ، تظل تدور في البساتين تلتقط الفاسد من الخضر ، ولكن جسدها طاهر اشترت بالجوع طهره ؛ وها قد إقبل الشتاء بأمطاره ، وهي تعلل اطفالها ، وتفكر في وسيلة للتصرف فيما قدر الله ، في حين يظل الغني في تعاليه وتعاظمه ناسيا كون الله وخلقه :

لو كان ريت كمن صبــــــارا * مات لها والداولادها افيوم اعســير
اولا بقى لها تدخــارو * لا خبز ولاكسا لا نـــور
واتظل في ابساتن خضـــــارا * تلقط الطايش والعيان والجسداطهير
بالجوع شاريا تطهــارو * واليوم جاتها لطــــــوز
صبحت للدراري حـــزارا * وكتخمم كيف المعمول فىاقضالقدير
وانت افيشك وتفشـــارو * ناسي الكون والمعمـــــوز

الملاحظة الثانية : ان الشاعر الشعبي لجأ في الوعظ الى الخطاب ، وهو خطاب صريح مباشر قد يوجهه الى نفسه او الى غيره . ولعل مخاطبته لنفسه تعتبر من قبيل التجريـد المعروف في علـم البديع حيث يجرد المتكلـم من نفسه شخصا ثانيا يخاطبه ، بل انا كثيرا ما نجد الشاعر يوجه الخطاب لراسه وقلبه ؛ ففي خطاب الرأس يقول ابن احساين في «اللقمانية» :

لازلت نوصيك ولو صاياعلم وعرفان * راسي ياراسي ايلا اصغيتي لبداني
واعملت بوصايتي اتنال الدنيا والدين

ويقول ابن على فى «الوصاية» :

اراسى نوصيك يالزايد تعبى واشقايا ٭ من خلطت هل جيلنا اعـــزل

ويقول ابن سليمان فى «التوبة» :

تب ياراسى لا تشقـــى ٭ التاعب لابـد من لفراق

لا تامن فالدنيـا ابناسها غرارا

ويقول شقـــور :

بسم لكريم صفت انحاسى ياراسى بسم لكريم خلصتنى تخليص

ويقول المدنى التركمانى فى «الزهو» :

اراسى تنها من لمزاح ابناسو شواه ٭ والغى هل لفساد ولخطا والفعل المدموم

ويقول عـــلال العلـــوى :

اراسى واش اذلعميـــــا ٭ يـزاك اخـايب لفكـر

الشيب اجرا اعـلى الصغر ٭ وانت مازال افلعميـا

مطموس القلب ولبصر

وفى خطاب القلب يقول ابن على :

ياالقلب اتفكر مافات اللولى والتالى ٭ كيف شافوه اخرين اولا دراواليا كيف اجرا

ويقول العلمـــى :

عدتى يالقلب الغافل تخطا الصواب

الصمت كيقولو لعرب حكما

مجدوه الناس القدما

واسكات عام افضل من كلما

ابغير ندمـــا

وقد يخاطب الشاعر غيره على حد مانجد عند المغراوى فى خطـــاب الغـافـــل :

يـا غـافـل حضر بـالـك ٭ لاتامن افدار لغرور اسمع نوصيك

ويقول الشاوى :

حضر لدهان يالغافل اصغى لوصيتى المزيانا

ويقول الحاج ادريس لحنش :

أغافل مثلي اعلى اصلاح اسمعني نوصيك * بادر تب لله وحضر بالـــك

وفي خطاب الساهي يقول بوخريص :

يالساهي عما يعنيه والعمر فان * قم واعزم واخدم يكفا امن اتفرعين

وفي خطاب النائم يقول الشاوي :

يالنايم فق امن النوم راقب الفجر الطالـــع

قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم والطاعـــا

وفي خطاب الفاطن يقول العميري :

يالفاطن مغرور الواهيا افطن

وفي خطاب محبي الدنيا يقول العباس الحرار :

أغابطين فالفانيا ام السيات * غنموا إتوابها قبل الايفوت الفوت

وفي خطاب ابن الدنيا يقول ابن علي :

لك يابن الدنيا خذ اوصايت الدهات الي مرويا

قول مومن لك اعطاها اوخوك فالله

وفي خطاب قبيح الافعال يقول محمد ولد سيدي بوعمرو :

زال حكمك من صرفك ياقبيح لفعال * يالي عن منهاج السالكين ما يل

وفي خطاب الواله يقول الحاج محمد بن عمر :

يا أخ الولهان بهموم الدنيا الفاتنا

من شطنت لنا اقلوبنا

عشنا كالحيوان

لا من فاق ابتمحانو

وفي خطاب الصاحب يقول الشاوي :

رد بالك ياصاح اوصغ طرز لقوال * كن عايق فايق خذ لشيا بمهـــلا

وفي بعض نصائح السلوك الصوفية نجد الخطاب يوجه للمريد كمـا عند ابن رموية اذ يقول :

يامريد وجه قلبك واقرا لوح الشهود

أو الى الفاهم كما عند الشريف المرابط محمد المنالى اذ يقول :

يافهيم صغ لنظامى اوكون فاهم ٭ ردت نوصيك أوصايا فى اطريق لخوان

الملاحظـة الثالثة : ان فكرة تنبيه الغافلين المتهافتين على الدنيا جرت بعض الشعراء الى تخصيص قصائد للتذكير بقدرة الله وعظمته على حد مافعل المغراوى فى قصيدة له تناول فيها تكوين الانسان وخلقه ، ومختلف أطواره؛ يقول فى أولها :

سبحـان المهـين خالـق الانسان ٭ من ماء مهين والاصل صلصـال
لآدم أبو البشر امعزوجتو صنوان ٭ منهم ذا النسل افلزواج نسـال
سبحان امن اخلق جميع لوجود شاهد ٭ لله بالثنا والحمد والتوحيـد
سوى امن اكفر بجهالت لاحـد ٭ عن نهـج لهدا ضل اشقـاه اعنيد
شان الله اعظيم كيف ينكر الجاحد ٭ واشهود اقدرتو فى اصنعتو ترشيد

وفيها يقـول :

كم قد اتى افمحكم القـرآن ٭ تطوير انشيت من حال الحـال
نطفا ثم علقا افأول النشيـان ٭ مضغا ثم لحم اعظم اوصـال

وعلى حد ما نجد كذلك عند ابن على العمرانى فى «الذرة» التى يقول فى حربتها :

يالساهى من نومك فق سبح الرب ٭ لمتا وانت تايه افلغرور لـواب
الصلا والسلام اعلى اخيار لنسب ٭ سيدنا محمد طـه اشفيـع لعراب

وفى عروبى منها يقول متحدثا عن الذرة وكيف قسمها الله أربعـة أقسام ، الاول للرسول عليه السلام ، والثانى للقلـم ، والثالث للعـرش ، والرابع للكرسى :

من نور اقبض قبضا واقسمهـا ٭ اعلى ربعا اكما امن الـدار حـادث
القسما اللولى للحبيب اجعلهـا ٭ وقال لها كون محمد كانـت
والقسما الثانيا لقلم انشامنهـا ٭ ومن القسما الثالثا العرش الثابت
والقسما الرابعا للكرسى ورثها

الفصل الثالث

مع الناس

لكل انسان فى مجتمعه علاقات تربطه بالاناس الذين يشاركونه الحياة فيه أفرادا وجماعات ، وهى علاقات تتسع وتضيق بمدى اتساع وضيق النطاق العددى لهؤلاء الناس ومدى متانة وفتور الروابط التى تشده اليهم أو تشدهم اليه . ويمكن اعتبار هذه العلاقات عند الشاعر الشعبى من خلال مستويين ، أحدهما عام والآخر خاص . اما العام فيتمثل فى نظرته الى الناس كجماعات واهتمامه بمشاكلهم وقضاياهم وتجاوبه معهم فى رضى عن سلوكهم أو نفور منهم فى سخط على هذا السلوك . وقد عرضنا لهذا الجانب فى الفصل السابق لما رأينا فيه من تكميل لرؤية الشاعر الى الحياة وبلورة هذه الرؤية وتوضيح لاتجاه الحكم والعظات التى نتجت عنها .

وأما الخاص فينحصر فى العلاقات التى تربطه بأفراد معينين ، قد تكون لهم فى نفسه أو فى المجتمع مكانة تقدير واكبار ، فيثنى عليهم احياء وأمواتا ، مدفوعا بالحب الصادق حينا والتقرب والتملق احيانا كثيرة ؛ وقد لايكون لهم فى نفسه غير الشعور بالمنافسة والخلاف والخصام ، فيصب عليهم جام هذا الشعور ذما وتعييرا فى غير هوادة او لين . وهو الجانب الذى سنتناول فى هذا الفصل ، نقصد به فنونا ثلاثة هى : المدح والرثاء والهجاء .

أولا : المدح

من عميق ادراك الشاعر الشعبى لما هية الشعر ودوره انه ابتعد عن فن المدح انشاءا وانشادا ، وفى غير قليل من الاهمال والازدراء ، وكأنه أحس بما فيه من فتور العاطفة وتكلف التعبير وزيف الدوافع ، وخلوه نتيجة ذلك من امتاع الذهن والشعور ، فلم تتفتح قريحته للنظم فيه ، وجاءت قصائده لذلك قليلة ، وهى على قلتها لم تجذب الحفاظ اليها والمنشدين ، فكان أن ضاع اكثر انتاجه فى هذا الفن ، الا ماكان منه فى مدح الرسول عليه السلام (1) ، فانه انطلق فى أجوائه ، تسعفه عاطفة خالصة اساسها

1) خصصنا له الفصل الرابع من باب الموضوعات .

العقيدة الراسخة والحب الصادق ؛ بل انا نجد الاشياخ ـ شعراء وحفاظا حين يطلقون تسمية المدح او «المداحى» لايعنون بها غير المديــح النبوى ٠ وبين ايدينا نص يفيض بهذا الروح ، يعيب فيه بـوعـمـرو على الشعراء الذين تخلوا عـن تمجيد المكارم والفضائـل ، وغدوا يـمـدحــون الناس ويصفونهم بما لايتحلون به ، وهو يفتقد فى الممدوحين خصال الثناء ، ويرى ألا أحد يستحق المدح غير الرسول الكريم :

قال الاديب اعمرو ※ اه اعلى الشعرا

اسمعنا عـن الاعيان ※ فقديـم الـزمـان ※ كانـوا يمدحو الاحسان
واليوم تمدح الانسان ※ وتقول ذا فـــلان ※ ساعا تـوجـدو عجزان
اصغ غايت الـرقيب ※ يامن هـو البيب ※ لك فالناس اعدو وحبيب
تمدح ياأخى لنجيب ※ وتقول ذا اريـب ※ وترى السعد فيه ايخيب
أمن هو البيب احسيب※ فى ذا الجيل اغريب※ هـذا صح ابلا تكذيـب

نجم الثنا قـد غـاب ※عـنـا حقيق واغـبـا
وانبطـلـت لنسـاب ※ رجعوا لكرام تربـا
وكـذلـك الاصحـاب ※ لاتـامـن الصحبـا
نحلفلك اعظيم ايمان ※ حقـيـق بالبـيـان
مـا تمدح ولا انسان ※ سوى سيد الثقلان

كذلك نجد الشاعر العباس الحرار يعتز فى بيت من قصيدته الفخرية أنه لم يرفع بقوائم شعره سطوة ملك أو طاغية جبار :

أنا اللى ما رفعت بقوايم شعرى ※ سطوت مالك شامخ او اطغى جبار

ومع ذلك ، فقد وفقنا الى تدوين عدد من القصائد ، ومن أهمها مجموعة مدح بها السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام (1) ، والمولى أبوبكر بـن السلطان الحسن الاول (2) وكان خليفة فى مراكش للمولى عبد الحفيظ(3)، والملك محمد الخامس (4) ثم ابنه الحسن الثانى

---

1) تولى من سنة 1238 الى 1276 ه ٠
2) تولى الحسن الاول من سنة 1290 الى 1311 ه
3) تولى من سنة 1325 الى 1330 ه الموافق 1912 م ٠
4) تولى من سنة 1927 الى سنة 1961 م ، حيث خلفه ابنـه الملك الحسن الثانـى

أما المولى عبد الرحمن فيمدحه ابن سليمان ويذكر استعداده في مراكش للخروج الى حرب فى الحوز لم يشهد لها مثيل ، زادها وجود السلطان بهاء وهناء ، فابتهج الناس وانطلقت ألسنة المنشدين تلهج بشجاعته وجوده وعقله وذكائه :

فرجا يا بهجت لحضر وانـزها ※ زاد سيدنا فهناها
اعلى اسرور الملك ايفرحو كل اعقول ※ اتبشرى يا بهجت لمدون

وهو ياسيدى وعلى ازهوك ناسك تنشد بفصاحت السون
وهو ياسيدنا لهمام بن الامام لمجد بن سيدى هشام
اشريف امن اسلام ضى لنيام
اشجيع امن الضراغم والجواد عل الخلايق

فالحوز غنمت به طيف امناها ※ صاحب لعقل وانباها
قام حارك بها جميع لحروك امثول ※ ما شافت عوضها اعيون

ويخبرنا الشاعر بتقليد للسلطان يقضى قبل الخروج للحرب ان يزور على عادة أسلافه ، رجال مراكش السبعة (1) ليفوز بذخيرة أهل الكمال وينال مقصوده :

وهو ياسيدى ومنين وجد الحركا واسكاد الشور
افعل ما فعلت اسلافو لفضال
طاف عن سبعتو رجال
فاز بذخيرت هل لكمال
حاجتو نال

ونجد العلمى يدعو له الله أن ينصره ويهزم اعداءه الطغاة المتجبرين :

غث لهمام ابريح النصر يالقهار ※ ونفد ادعوتو فالطغات ولجبابر

ويتوسل اليه تعالى أن يحفظه من كل ضرر :

يامن رسى اجبال وارصدها بصخور ※ وابحور الطاميا ابقهرو محصورا
واحجب ضو النهار بظلام الديجور ※ واهزم لغسيق ابلفجر باهى الصورا
ياعالم مابدا وما تخفى لصدور ※ سلتك بملايك لحجوب المشهورا
احفظ ذات لهمام من كل اضرورا

---

1) هم أولياء هذه المدينة المشهورون : يوسف بن على والقاضى عياض وأبو العباس السبتى والجزولى والتباع والغزوانى والسهيلى .

ويرجو الله ويسأله أن يكسوه حلة من نور هيبته ويـؤيـده بالنصر والحكمة ويجود عليه بما يبهجه ويسره ، وأن يسعد حظه أينما حل ، ويبارك في عمره ، وأن يجعل دعاءه على اعدائه كدعاء نوح على أصحاب الطوفان :

يالجليل اكســه حــلا ابهبتك نــور ✻ وايدوا بالغلب وكرموا ابما ايسرو

وظفرو بالحكما اولــه سكم الشور ✻ افكل بقعا بــارك ياربنا افعمرو

اجعل ادعوتو دعوت نوح النبى المبرور

اعلى اصحاب الطوفان بدعوتو انبترو

ويطلب الله أن يفتح له باب التيسير وأن يجعل الاولياء والصالحين جيشا لحمايته يدافعون عن كلمته ويغـيـرون ، وأن يعينه ويحفظ جيشه ويؤيد علمه بالنصر ، وأن يهزم قوم الفساد والزور المخالفين :

افتح لــــام غربنا بــاب التيسير ✻ والصالحين جيش لحماه ايصيروا

حــق اعلى اكلمتوا يوكدوا ويغيروا

نعم المعين عــن لهمام المنصــــور ✻ واحفظ جيشوا وايد علمو بالنصر

واهزم قوم لفساد واهزم قوم الزور ✻ وافــن قوم لمخالفا بسنون السمر

وقد عم الازدهار عهده فربح التاجر والمتعلم ، وغدا الصبى الصغير فى الكتاب يتقن تجويد القرآن الكريم :

انزايه ايامو ظهرت لو افجمع لقطار ✻ نال كل من اقرا واربح كل تاجر

توجد الصبى فالمكتب اصغير محضار ✻ ايجود الآى تجويد لفقيه الماهــر

ويرى فيه الفقيه العميرى أميرا للمؤمنين شجاعا رفيع الشأن شريف النسب من قريش ، يتوسل به الى الله أن يعم الامة بالاحسان :

رفيع الشان ✻ ماتهمو شجعان ✻ فحروب امدان

نسبتــو عــدنــانــى ✻ من قريش مير المومنين

أيــــا رحــمــان ✻ كن لى مستعان ✻ بمن تلا القرآن

ودنى واعطانى ✻ اعطاه من خــيــر الداريــن

بوجود السلطان ✻ مولاى عبد الرحمان ✻ عمنا بالاحسان

انمجدو فــزمانــى ✻ من احكم فالبرين وبحرين

انقاد له الزمان وارخى له الدهر عنانه فاصلح احوال البلاد واعـــز الله به الاسلام :

اعـطـاه ازمـان ❊ الدهر ارخـى لو لعنان ❊ اصلح بـه البلدان

حـقـنـى وارضـانـى ❊ الله بحكامـو عـز الـديـن

وعند عزوز اللمتونى انه اعز الملوك ، نـادت مدينة مـراكش بصولته ونصره ، فهو سلطانها ومولاها وسليل الرسول :

لـك الـبـهـجـا نـدات ❊ يابـن هشام السلطانـى

صول اعطاك الله النصر ياعز الملوك ❊ مـولاى عـبـد الـرحمن

انت هـو السلطان ❊ وانت هـو مـولاها

مولاى عبد الـرحمان ❊ نخبت لفضل طـه

وهو خلاصة الاشراف ورأفة الله بالعباد ، أمن الخائف وأغاث اللهفان فغدت الايام حلوة والاوقـات ضاحكة ، كما ضحكت ثغور الـذيـن احبوه بجوارحهم حب الظامىء للماء :

هيا خـالص لشـراف ❊ يالهمام الهشامـى

بـك اللـه عـنـا راف ❊ يامول القدر السامى

أمـن بـك الـخـواف ❊ ياغيث الشرب الظامى

ايـام الدهـر احـلات ❊ واضحكت اوقات ازمان

كيف اضحكت افواه واجوارحها حبوك ❊ حب الماء للظمآن

وأما الخليفة المولى ابوبكر فيمدحه محمد بن لقزيز بأنه هلال ساطـع سعدت بنوره كل المدن والقرى وجميع أركان المعمور واقطاره ، وهـــو كريم وفارس وشجاع بل هو أسد الاسود ، ومن سلالة الافاضـل النجباء ذوى السر والعز والمكانة العالية ، وعدهم الله بالنصر وايدهم بجيوش قوية تبادر فى الجهاد للانقضاض واخذ الثار :

لـهـلال الـــزاهـــر ❊ بـه سعدت واهنات امدينت لحضـر

جوف اقبلا امع لعمارا ❊ والتل وساير لمنازل فى كـل اقطار

ضـرغـم لقســاور ❊ صيلت النجبا لفضال اهل السـر

من بهم العز والتجارا ❊ ناس الدرجا العاليا هما هل لسرار

سـطـوا وادخـــايـر ※ ودهـــم المـولـى بالـعـز والنصـر

واعدهم لجهاد فالنصارى※ برزايم (1) ولقواس وقنا اورمحبتار

تـوكـــد واتكابـــر ※ فى بحر الهوشا وفحـومـت السقر

وقت اماركبو من ليغارا ※ بفديو التار بالـعـزم ابلا تـوخـار

صـال بـعـسـاكـــر ※ ولـمدافـع وارجال وخيـل تنشكـر

والشجعان امقلد ازكـارا※ ابـأمـر الله ربنا لجليل السـتـار

حـلـت لـبـشـــار ※ بـالخليفا سـيـدى مـولاى بوبكـر

يم القرا فارس لغزارا ※ مسعد لسلام كـافـا بالليـث الغزار

وهو بعد هذا شريف النسب ، بحر فى العلم ، خطيب على المنابـــر تزهى له الارواح وترقص اغصان الشجر ويفوح طيب نسمات الازهـار ، ثم انه لايفتأ عن ذكر الله ينفى به الهموم والاكدار :

النســب الـفـاخـــر ※ يـم لعلوم الفالـح صاحـب الذكـر

نافى شغف الهول ولكدارا※ بهازهات الرواح جن او انس واطيار

مـابـيـن امـنـابـر ※ ابلعطوف رقصت القطبان فالشجـر

هب انسيم الـروض ابلبشارا※ ونفح طيبو امن الرضا بنسايم لزهار

وعند عبد الرحمان ابن الفقيه الحاج الطاهر انه خليفة السلطان المولى عبد الحفيظ نعم الخليفة ، بمثله تفخر الخلافة فـى كـل عصر ، واذا كـان السلطان سعيدا فى كل مناطق مملكته فهو بخلافة المولى ابى بكر اكثر سعادة

اخليفت المـالـك فـى ذا الـجـيـل※ عالى الهما بـالتجليل

جل ونعم لخلافا بـه فالعصر تفتاخر※ ضمها العـز الـوافـر

مناسعادت مولاى حفيظ ابسايرلقطار※ اسعد بخليفتو اكـثـر

بتمام شفائه (2) استقام الحظ وعم السرور مدينة مراكش ، وقـــد دعا الاشياخ للحفلات التى اقام قلبوها فرحين مبتهجين :

بكمال راحتو متسقم لنا الشور

تلقى السرور بالراحا فالبهجا ※ انحمدو مرفـوع الدرجا

---

1) ج رزامة وهى الصخرة الكبيرة او القطعة الثقيلة من الحديد .

2) يبدو أن القصيدة قيلت فى تهنئة الخليفة بالشفاء من مرض .

كايناديـنـا للفرجـا

فالسلاما لبات اقلوبنا القول الذاكر ❋ فرحنا اضحى متكاثر

ايجابت التلبيا بسرورنا اتبشر

وتـوضـح غايـت لخبر

وهو محروس بالسبعة بدور رجال مراكش

محروس عز لخلايق بالسبع ابدور

منهم سيدنا يوسف مول الغار

والذى بالشفا (I) يذكـــار

ولـهـمـام السـبـتـى غـيـار

له سندا مركاز الاوليا ابيدو داير

. . .

والمجد صاحب الدليل (2) اعنصر ايفور

فكفالتو يجعل احراكو واسكون

وحرم سيد التباع ايكون

له رقيا واحجاب ايصون

ســـر وعـــلان

الغزوانى ايحققوا ببشاير

جالبين كـــل ادخـــايـر

ابسيدنا السهيلى يسهل جمع لامر

فقصد مـولاى بـوبـكـر

ومثل هذا وذاك نجده عند الشيخ عمر المراكشى ، لايضيف الا انـــه نجل السلطان مولاى الحسن ، وأنه جزيل العطاء للقريب والبعيد ، وفريد عصره فى الكرم :

نـجـل الملك طلعت البدر السانـــى ❋ ياسيدنا ❋ سيدى مولاى بوبكر

. . .

يانجل الماجـد الشريـف الحسانـى ❋ ياسيدنا ❋ ياغايت كل امن اتضر

---

1) كتاب «الشفا فى أخبار المصطفى» للقاضى عياض .

2) كتاب «دلائل الخيرات» للجزولى .

معطاك اجزيل عل القاصى والدانى * ياسيدنا * فالجود فـــارد العصر

ومن المدح الذى قيل فـــى **محمد الخامس** مانجده عند محمد المـــودن التطوانى يصفه فيه بأنه الهمام نور عينيه ، نصر ه اللــه واعطاه سـطــوة فاقت سطوة كل من سبقوه ، شبيهة بسطوة هارون الرشيد وعبد الملك ابن مروان ، به يفخر العصر ويباهى ، حاز الادب وحسن الخلق والتواضع والدين المتين ، ثم انه من ذرية الرسول عليه السلام وسلالة الملوك :

نصرو ربـــى يستاهــل النصــــر * سيدى محمد لهمام نور اعيانى

. . .

اعطاه الله سطوا عطلت سطوات * دوك اللى فايتين فى لزمانـــى

كســطــوت هــارون الــرشـيــد * ومــالــك بـــن مـروانـــى

. . .

اعلى لعصــور اتباهـــا عصرنـــا *واستفخر بذا لهمام يافاهم لوزانى

. . .

حــاز الادب وحســـن لــخــلــوق * امع التواضع مايحجا الانسانــى

ثـــــم الـــديـــن لـمـتـيـــن * زاد خــاصــو بــه الرحـــمـان

مــلــك بــن المـلــك ولــد ملــك * دار الملك يا فهيم التبيانــــى

مـــن ذريــت عــيـــن لـــوجـــود * الـشــافــع فـالعصـيـانـــى

ويتوسل الى الله ان يصلح رأيه بحرمة اسمه العظيم :

تصلح ريو يا كامل لـــــعطا * حرمت اسمك لعظيم يا رحـمان

ولادريس الزمورى قصيدة خلد بها حفل (1) وضع الحجر الاساسى لمدارس باب شالة المعروفة بمدارس محمد الخامس ، يمدحه فيها بأنه نهض بالعلم وانشأ المدارس وأقام المساجد ، فأتاح للشباب أن يتفقه فى الديـن والعربية واللغات وعلوم العصر :

يحيا يحيا ملك غربنا سيدى محمد الشريف الحسانـى

كيف احيا لمدارس امعا العلم وامساجد للديــــن

فى ايامو المبروكا لسلام العصريين اتفقهوا فكل لديانى

حتى العجم وعــرب اقـــراوهم دركوا جـــاه امتين

بوجود نعم الملك لمشرف واقف احريص ابقلب ذاتو يقظانى

اعلى لمساجد وامدارس للقرايا واشيات اخريــــن

---

1) فى 19 يونيو 1946 .

من اعلوم التوحيد ولعلوم العصريا واقراوا القرآن

يتفقهوا فـى ديـن لسـلام واقـواعـدو المثبوتين

فحياتو المبروكا اتزادت امساجد وامدارس اللقرايا ببيان

واتجددو لمساجد اللـى اقدام ببنى فـى تحصيـن

وبعد استعراض مظاهر الاحتفال ، وصف وضع الحجر الاساسى لهذه المدرسة التى ستكون فاتحة خير كثير ، دون ان ينسى اكتتاب سكان الرباط لاقامتها وافتتاح الملك لهذا الاكتتاب بمبلغ مليون ونصف من الفرنكات :

من بعد هذا الخطبات وقف لهمام حجرت الساس فارح قلبو هانى

نـزلها بلطافا فـى سـاسـهـا بالـفـتـح المبيـن

تحقيق دا المدرسا افغربنا فيه خير اكثير للسلام بالبيانى

آذن عـنـهـا مـلـك غـربـنـا نـجـل الحسنين

هو الاول معدن الجود اتكرم من مالو الخاص دون الكتمانى

مليون ونصف مليون اهداه سيدى ولا تونين (1)

وامر هل الرباط كلها تغنم دالاجر ولفضل يالحسانى

لايـن هـذا هـو الخير هـذا ارباح الـدريـن

وهو فى مدحه للسلطان يذكر انتسابه للرسول الكريم ولسلالة ملوك هو ياقوتتها المضيئة ، وهبه الله الحكمة والعقل ، وأحبه فغدا محبوبا عند الشعب ، لم يتقدم مثله فى المغرب سلطان :

بوجود هذا الملك ونعم ملك اصل الملوك نسب طه المدانى

هـذا يـاقـوتـا منهم اضـوات ابـنـور مبـيـن

هذا الملك الله فيه اوضع حكمت واعطاه اعقل نور نورانى

هـذا حـاز الملك الشميخ والسعادا للمسلمـيـن

هذا ملك محبوب عند ربى وعند العباد افلحضر والعربانى

هذا سلطان مـافـات فى غربنا مثلـو بعقل افطين

وعند العيساوى الفلوس انه رمح فى الحروب مهند يجدد ثوب العز ، وأنه صاحب المجد ووارث العلوم مـن الاجداد ، وأنـه أسد تسعد بصولته

1) دون من باعطاء المبلغ .

العباد ، اختاره الله وجعل ثناءه مخلدا فى القلوب ينفذ فيها حكمه ، وقد سعد من جعله عماده وسنده ، فهو ينبوع الفضل والجود ، من لم ينظر الى عرشه بعينيه يظل بصره عليلا وقلبه متجمدا يعانى من جراح لاتلتئم :

العز بك تاك امجدد
رمحك افلحروب امهند
واثناك افلقلوب امخلد
يا صاحب لمجد
ياوارث لعلوم ولعنيا من جد الجد
ياضرغم لحميا سعدت بك لعباد
واختارك لجليل الجيد
حكمك افلقلوب امنفد
يسعد امن اعليك امسند
ايلوح نكدو
يا ينبوع الجود ولفضل شلا ما ينعد
من لاشاف افعرشك ياسيدى ابلتماد
بصرو ابلا اشكوك امرمد
قلبو عل لبدا متجلمد
لازال افلجراح ايكمد

ويراه قد فاز بالانتساب للنبى الكريم وحاز جميع المزايا والمفاخر والامجاد ، ويدعو له الله أن يديم صولة نوره المحمدى الذى اضاء نجم المغرب :

دام الله ايام صولت النور المحمدى ※ من به اضوا نجم غربنا سيدى محمد
حاز الفخر ومجد ولمزيا نجل المهتدى ※ سلطان المغرب نورنا سيدى محمد

ومن مدحه بعد هذا ماقاله مولاى احمد العلوى متغزلا فى جمال صورته وعينيه الشبيهتين بعينى الغزال :

نصر الله اجمال صورتك يانجلات الشاد ※ اتهليل الزين ولبها سيدى محمد

ويقول كذلـك :

اللـه ينصر احسـان اجمالـك ❋ ياذات الادب واللطافا يانور اتمادى

ولعله كان متوقعا أن تكون وفيرة حصيلة القصائد التى مدح بها محمد الخامس ، لما كان يتمتع به من شعبية نتيجة مساندته لكفاح الامة من اجل التحرر ، وما عانى من جراء ذلك ، ولكن كثيرا من هذه القصائد ضاع بسبب منع حكومة الحماية لترديد المحفوظ منها وبسبب اتلاف الشعراء لما دونوا ، خوفا من عمليات التفتيش التى كانت تقوم بها سلطات هذه الحكومة فـى البيوت . وقد ذكر لنا بعض اشياخ فاس أن العيساوى الفلوس كان اكثر الشعراء مدحا لمحمد الخامس ، ولكنه اضطر تحت ضغط مضايقات السلطة والخوف من البحث والتفتيش الى دفن مجموعة كبيرة من قصائد هذا المدح فى احدى المقابر .

حقا ان عهد الاستقلال أتاح للشاعر الشعبى ان ينطلق فـى مدحه ، ولكن اسراع الاحداث وتوالى المناسبات ورغبة اجهزة الاعلام ، والاذاعـة خاصة ، فى أن يواكب الشعر الشعبى هذه المناسبات وتلك الاحداث ، كل ذلك جعل الناظمين ــ وهم قلة معدودة ــ يتكلفون مدحا يطغى عليه التقليد، خاليا من كل روح ، بل يبدو فـى أغلبه وكأنـه ليس غير ممسـخ وسلخ لبعض قصائد الغزل او مديح النبى وآل البيت والاولياء . وهـو احساس نشعر به ونحن نستمع الى القصائد التى تذاع فى مدح الملك **الحسن الثانى** كهاته التى يقول مولاى احمد العلوى فى حربتها :

الله ينصر سلطان هل لبها الحسن ❋ راحت اعضاى روح الروح سـود لـعيـان

ومنها قصيدة لسلام الفاسى يقول فيها :

حياك الله يالبدر السانى ياهلال نور اعيانى

يالحسن الثانى يارفيع لاسم تاج المغرب سيدنـا

ومنها كذلك قصيدة للشيخ عبد القـادر مدحـه فيها بمناسبة استعراض الجيش ، يقول فى حربتها :

فرحوا يالخوان بالجيش الملكى اديالنا * قايدهم لكبير سيدنا مولاى الحسن

مـن لـه لجنود طايعين

ومثلها قصيدة لعلها لاحمد سهوم هذه حربتها :

قايد الجيش اهمام الشعب نور لتماد ※ تاج تيجان العصر اوسيد لسيادى

على اننا الى جانب هذا المدح الذى استعرضنا أهم نماذجه ، نجد لونا آخر من المدح «جماعيا» اذا صحت هذه التسمية ، على حدما نصادف عند الحسن بن شقرون فى رجال الطريقة الفتحية (1) يمدحهم بأنهم نور وشعاع وضياء للعيون وعلاج للعقل والروح ، من شرب خمرتهم ارتوى فى حضرة الرضوان ، تسقيه كؤوسها أيدى محبيه ، وغدا متجليا فى بساط السلوان ، يسلك طريقا تغمره الافراح ، وجعله الله فى مقام العز ومنحه السر والفضل والفتح :

ناس الفتح اللقلوب نور واشعاع اضيا لعيانى

واعلاج الروح ولعقل منهم امن اسقياه

باح ابخمرت لحباب وارتوى افحضرت الرضوانى

بكواب اللى اتناول ببنان اهن اهواه

فيه اتجلى يشراع فى ابساط البسط السلوانى

واسلك منهاج ابلفراح ايوا فى من راه

ثانيا : الرثاء :

ويطلقون على قصائده تسمية «لعزو» او «لعزا» ، وهو مثل المدح فى نظر الشاعر الشعبى ، لم يقبل على النظم فيه ، بل انه كان اكثر منه عرضة للضياع لعدم مناسبة موضوعه للانشاد والترديد • ولولا ان بعض المعتنين دونوا فى كنانيشهم نماذج لهذا الفن لكان ضياعه كاملا •

ومن أقدم هذه النماذج قصيدة للحاج اعمارة فى **رثاء الشاعر عبدالله ابن احساين** ، يبكيه فيها ويطلب من الشعر ان يبكى على أبيه كالمرأة الثكلى وينوح كالطائر الغريب فى الليل وأن يسقى من دموعه جذور النخلة التى كان يجلس فى ظلها لينظم ، فلن يحلو له العيش بعد عبد الله ، ولن يعرف كيف يتصرف فى الشعر ويخرج من مآزقه :

---

1) احدى فرق درقاوة منسوبة لشيخها فتح الله بنانى الرباطى •

ابك اعلى اباك اشعرى ابكا دشى امرا ثكلى

او نوح كينوح ورشان اغـريـب بوحدو فـالليل

ابك اعلى اباك اشعرى واسقى اجذور ذا النخلا

اللى اشحال (1) من شعر احداها رصعوا باك اكبيل (2)

العيش بعد عبد الله او الله كاع مايحلا

ونايـلا امشى عبد الله ابقيت فالشعار اوحـيـل

وللحاج اعمارة كذلك قصيدة فى **رثاء الشاعـر بوعمرو** يتساءل فيها عن شعره لم لاينطلق ، وعن دمعه لم سال على الخد كالنهر ، وعن ذاته لم ارتعدت ، وعن فكره لم تجمد وقلبه لم خفق وقد جرحته الهموم :

مـال دمـعـى عـن خدى واد ※ مـال ذاتـى فيها رعـدا

مال قلبى خـافـق فدفاد (3) ※ جرحـتـو الـف غـدا

مـال عقلى يا ويـحـى بـاد ※ مال شعرى ما يتسـدا

وهو يتألم ويتأوه لفراق حبيب قلبه الفذ النبيل المنير الذى برز فـى الشدو والغناء فغدا لايعوض :

أه اعليا يـالـعـبـاد ※ مـن افـراق احبيب الكـبـدا

النبيل الـفـذ النشاد ※ سيد مـن غـنـى او اشـدا

بوعمرو لمنير الـوقاد ※ لحـبـيـب الا لـيـه افـدا

ومـن أهـم قصائد هـذا الفن واشهرهـا **مرثية المغراوى فى المنصور السعدى** (4) ، وهى كلها حديث عن فراق الاحبة والبكاء عليهم ، لم يتعرض فيها لذكر شىء عن الرجل ، بل ليس فيها مايوحى بالموت غير حربتها التى أخبر فيها بأن عام موته عام حزن وأنه لم يعد للسعديين (5) مايرجحون به كفتهم :

---

1) اشحال بمعنى كم
2) مـن قـبـل
3) من فدفد بمعنى طـار
4) توفى سنة 1012 هـ .
5) دامت دولة السعديين من 961 الى 1069 هـ.

عام شايب مات الذهبى اخيار لتراب ※ مابقى للسعديين باش ايرجحو

فقد رمى الفراق الشاعر بسهم غاصب من قوسه أصاب قلبه وزاد فضربه بسيف ضربة هدت كيانه :

لفراق ارمانى قوسو ابسهم غصاب ※ ماخطانى مكن قلبى او لوحو

بعد ما مكنى جانى ابسيف غلاب ※ هدنى واهزم ديوانى وجيحو

ولم يكتف فى الرمز لقوة الفراق بالقوس والسيف ، وانما جعله أميرا يصول فى حزم وشدة ، يقود جيشا ماكاد يصل حتى أطلق عليه سهام وتره الشديد وضربه بالحسام ضربة قاتلة :

جانى مير لفراق صايل متحزم ※ واقصدنى للفنا ابحيشو واعلامو

بوصولو لاحنى ابلبساط امسهم ※ من وتر اشديد ماخطانى بسهامو

واضربنى ضربت لمقاتل بسهامو

وهو من اجل هذا يحق له أن يسهر ويبكى بالليل والنهار ، وينوح نواحا تتعجب له الغربان وتشيب :

ايحق لى نبكى للفرقا النهار والليل

※ انقطعوا ساهر وانجدد اعلى اصباحى

وانكثر من دمع المهراق كالسيل

※ اتعجب واتشيب الغربان امن انواحى

ويلومه الناس على البكاء فيطلب منهم أن يتركوه فى حاله وقد بان عنه احباؤه ، وغدا من وحشتهم كالطائر الذى قص جناحه بعيدا عن أهله ووطنه ووضع موثقا فى قفص ، طال فيه سجنه وكثرت محنه :

دعنى يالايمى اعلى لفراق نبكى ※ غابوا عنى احباب قلبى مابانوا

رانى من وحشهم فى حالا نحكى ※ طير امقصص فارق اهلو وطانو

فى قفص اوثيق طال سجنو وامحانو

وعنده أن فى البكاء راحة للذى التهبت قروحه ، وأن الدموع تطفىء ناره ، ولولا البكاء لذاب قلبه وضلوعه من لهيب الجمر المشتعل فى مهجته ، أما تنهده فتنهد له الشواهق وتتحطم الاشجار :

لبكا راحـا للمقروح مـن الهيبـو ❊ عندما يبكى تخمد بالـدمع نـارو
اشواهق لو بـانـو بالنهد ايريبو ❊ وارياض الناعم يتحطموا اشجارو
مهجتى واضلوعى لولا لبكا ايدوبو ❊ اعلى الهيبو شاعل فالقلب مـن اجمارو

ولكنه القضاء الذى جعل الفراق يعز عليه أن يرى روضا يانعا مزهرا فأيبسه واحرقه :

لقضا فرقنا والبين عند ماصاب ❊ روضنا متنعم حرقو وكلحو

وتلك هى الدنيا تدور دوالبها ، ممتلئة وفارغة ، محزنة ومفرحة ، جامعة ومفرقة ، مشغلة ومعطلة ، يكثر رزقها ويقل موقوتا ومحدودا ومقدرا كما يشاء الله :

هكذا الدنيا كدولاب اتحول واتدور❊ دورها يملا ويفرغ فى كل حالا
تارا بالحزن وتـارا بفرح واسـرور❊ واجتماع وفرقا وشغال ولبطالا
وارزقها المضمون ابوقتوا يفور ويغور❊ كيف قدر بحكامـو ربنا اتعالى

وللحاج محمد النجار **مرثية فى الفقيه حمدون بن الحاج** (1) يترحـم فيها عليه راجيا أن تظل البركة فى ابنه :

رحمت ربى اعلى لفقيه السى حمدون ❊ والبركا فخليفتو عز اولادو

ويرى واجبا أن ترثيه فاس وغيرها من المدن وان ينوح عليه المحبون :

واجب ترثيه فاس واقراها وامدون ❊ واكثير الحب فيـه يـقـوى تغرادو

ويذكر أن الفقيه كان معروفا بطبعه الحلو وبالجود والحياء والـعـلم والانشاد والاطلاع الواسع والتضلع فى الحديث وسنده ، وأنه ألـف كتابا يحيى النفوس فاق فى أسلوبه ابن زيدون ، لو رآه ابن عبدون لانبهر :

---

1) هو ابو عبد الله حمدون بن عبد الرحمان بن حمدون بن الحاج السليمانى المرداسى توفى سنة 1232 هـ . وقد ترجم له ولده ابو عبد الله محمد الطالب بن الحاج فى كتاب «رياض الورد الى ما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد» وهو مخطوط بخزانة الرباط العامة تحت رقم 396 . أما قصيدة النجار فى رثائه فواردة فى ديوان فى الثناء على ابن الحاج اسمه «روضـــة النيلوفر ثناء الناس عليه وبعض مناقبه التى هى اعطر مـــن الادفر» مخطوط بخزانة الرباط العامة تحت رقم D 383

غاب الشيخ الشهير بالطبع الملــدود※ والجود امع لحيا وعلمو وانشادو
وانشا حلا لشافها تنشط لــبــدون※ واتحلى ابلحديث واسما باسنادو
يبهت لــوراه فى احياتو بن عبدون※ سبحان اللى عطاه وارضاه وزادو
وارقى بالفاظ رايقا عن ابن زيــدون※ واعلى من باد فالحقيقا جتهادو

كذلك نجد للكندوز قصيدة فى **رثاء المولى عبد الرحمان** يرى واجبا فيها عليه أن يرثيه بدمع لاينقطع كالمطر المتهاطل ، وأن يبقى طول عمره هائــمــا حزينا عليه ، ويرى واجبا عليه كذلك أن يبكيه كما يبكى الــذى فارق حبيبه فغدا بيته خاويا مهجورا ، ولم يعد له من حبيبه غير الخيال ، وأن يبكــيــه بكاء الذى فقد أهله ضائعا فى السهول والجبال ، يبكى تارة ويتيه اخرى ، وأن يبكيه بكاء العليل الذى فقد الصبر والعلاج ، يسهر مرة ويغيب ثانية ويستيقظ ثالثة :

أنا الواجب نرثى بدمعتى عن خدى طول الدوام كالودق الهاوى
ونا الواجب نبقى طول عمرى هايم نــكــدان
ونا الواجب نبكى مثل من فرق احبابو افلورى ابقى رسمو خاوى
باقى غير اخيال لحبيب ومــا وجــدو مابان
ونا الواجب نبكى ابكا المفقود اعلى ناسو وتاه فربا واسهــاوى
تــرا يبكى تــرا يتيه بين اجــبــال اوطيان
انا الواجب نبكى ابكا المعلول اللى صبرو امضى ولاصاب امداوى
تــرا ساهد تــرا يغيب تــرا طــرفــو يقظان

فالمصاب جلل والرزء عظيم ، لذا فهو يعزى المسلمين فيه ، فقد كان ينبوعا للحلم والعلم ، اديبا نبيلا راجح العقل ، يعرف كيف يجرح ويداوى فذا فى كل شىء ، ليس فى اقطار الارض من يعوضه ، حجابا مسدلا على رعيته ، كم رد عنها من اخطار وأطفأ من نيران ، وكم انعم على رجال حكومته وحاشيته ، وكم فدا من قوم فى لحظة الموت ، وكم رقى رجال العلم ونهض بمجالسهم :

نفقد لهمام الا انصيب عوضو فقطار الارض كان يجرح ويداوى
أديب انبيل ارجيح افكل اشيا فذ اوديوان

كم من صهدات (1) اطفا اعلى الرعيا فالبحر ويرو لمهامه واعداوى

وابقت احجاب السنتر اعلى الغرب واللطف ولمـان

اما لاطف من قوم افلحكوما بالخير ايفوز كل من حرمـو ياوى

وما من قـوم افـدا افساعت المـوت افكل اوطـان

وما رقى من قوم افلمجالس دا العلم الا ايجد سامع والداوى

واحـيـات امجالس العلم بـيـن اكهول وشـبـان

وموت السلطان لم يترك اثره فى نفوس الرعية فقط ، وانما تركه فى خيول الركب التى غدت كالايتام مكوية بلظا جمر الفراق ، وفى المظل (2) الذى عاد ينوح من اليتم والهجر بعد ان كانت أيامه هناء وسلوانا ، وفـى البنود والاعلام ، ونفوس الجنود الابطال الذين كانوا يسيرون خلفه لابسين افخر الثياب كأنهم عرسان :

خلى خيل الكاد اكم ليتام هاداك الدايروم كالليث الكاوى

بلظا جمـرت لفراق ماقـوا افـراق السلطان

خلى لمضل اينوح عن افراقو بلسان الحال صاب شلا ماناوى

عـــاد اميتم مهجور بعد لـهـنـا والسلوان

خلى لمزارك ولعلوم والرايات ولبطال كلها بندو طـــاوى

كانوا فخلاف المير ايخرجـو امثل العرسان

وترك الموت أثره كذلك فى نفوس جوارى القصر النائحات وعبيد الدار التائهين وفى العلماء والقواد والوزراء ، وغدا المشور خاليا والاطيار نائحة على الاغصان ، وسكت صوت المغنيات اللائى كن يسرن خـلـف السلطان منطلقة اهازيجهن وزغاريدهن كالرعد :

خلى لجواد اعلى افراكو ❊ ترثى اكما ارثيت انا عل لفراق

واعبيد الدار ابقاوا تايهين امع كل اطريق كلها عقلو كاوى

ويـقـولو فالغاهـم سيدنا غمتو لكفان

---

1) ج صهد بمعنى الحر .

2) يعتبر المظل من أهم مظاهر الموكب السلطانى .

والطلبا والقياد واتباعاها داك الدا اينوح بالدمع القاوى

والوزرا فالغاهم كيقولـو كنو مـا كـان

والمشور فاضى عاد بعد توكت سيدى بن لبطال فات العلقاوى

واطيار عل لغصان كينوحو جهر وكتمان

خلى لغياد اصواتهم خجلو ابعد اصوات لكوان مافيهم داوى

كانوا خلف السلطان كن رعد افمدت حيان

وبلغ اثر الموت حدا ادرك خف السلطان وحذاءه اللذين باتا يشكوان الهجر والاهمال :

وابقايات امحانـــى اتماكو ✻ مهـجـور ما يـوالـم لطلوعـو ساك
والشربيل الباهى امساكـو ✻ مهـمـول عـاد كيدرك (1) تـدراك

والشاعر يتمنى لو استطاع ان يفديه بروحه ، ولـكـن عمره انتهى ولامناص لاقربائه ومحبيه من الصبر :

واسكن نعم السلطان قـبـرو ✻ لـوكـان ابلفدا برقبتى نفديـــه
لـكـن نتـهـى حـد عـمـرو ✻ الصبر واجب اعلى اللى دانى ليه

تلك حال الدنيا الغرور ، اين هم الاقوام الماضون ، اين كسرى والظاهر والرشيد والقوم الشجعان؟ كلهم ذهبوا ولم يبق الا الله سبحانه ، خـالـق العباد وقاهرهم بالموت والحاكم عليهم بالقهر :

هاذى هى الدنيا الغارا وين القوم اللى امضاوا وين الكسراوى

ويـن الظاهر ويـن ارشيد ويـــن القوم الشجعان

ولا دامت الا المن انشاها من قبل الا ايكون العامر والـخـاوى

سبحانـو جـل اجليل ربنا سبحانـــو سبحان

سبحان امن اخلقنا وبالموت اقهرنا بعد لحيات الجليل القـوى

واحـكـم بـالقهرا اعـلـى اعـبـادو نعم المـنـان

وربما كان **من جميل الرثاء واصدقه ماتحيى به ذكرى بعض العظماء** على حد مانجد عند الفلوس فى قصيدة عن «مقتل الحسين» يقول فى حربتها

يالحضرا سمعوا وفات نور لنوار   ولـد فطيم الزهرا سيدنـا الحسين

---

1) يختبىء ويختفى .

وهي استعراض للاحداث الاسلامية منذ وفاة الرسول عليه السلام حتى حادثة كربلاء ، يختمه بعروبي يحكي شكوى كان آل الحسين قد تضرعوا بها عند قبر جدهم :

مهما دخلوا ضريح لحبيب المهتاد ※ قالوا ياجدنا الهادي محمد
لوريت شين صار بنا دون افناد ※ في كربلا امع اجيوش الا تنحد
قتلوا لنصار ولصحاب امع لولاد ※ وبن هاشم كلها يامحمد
قتلونا دون حق فامهامه لوهاد ※ واحنا فالشوم ولعطش يامحمد
وقطعوا روس آل بيتك هل لعناد ※ تركو لشباح افلوطا يامحمد
سفكوا دم لشراف واعصاوا الاحد ※ سبوا على المرتضى يامحمد
لوريت شين كان دار ابن زياد ※ هو واهلو وشيعتو يامحمد
طعن الحسين كل من كان افلجناد ※ ولا رحمو اطفالنا يامحمد
قطعوا راسو ولاخشاو امن الجواد ※ داسو بالخيل مهجتو يامحمد
كشفو الحريم دوك لعدا والحساد ※ وبعدها اسباونا يامحمد
داروا لنا احبال واغلال ولكياد ※ ماشفقوا من احوالنا يامحمد
وجهناهم للقوى يامحمد

ونجد كذلك عند محمد حسن التطواني قصيدة في ذكرى المنظري مؤسس مدينة تطوان ، وكانت قد احيتها جمعية «عباد الرحمان» ، يقول في أول أقسامها :

نشأت هذا الذكرى السعيدا ※ السيد المنظري امجدد تطوان
قامت نخبا جادا وكيدا ※ فيام سيدنا مولاي الحسان
نادات ابذا الحفلا الرشيدا ※ واعلى راسها عباد الرحمان

وهو يغتنم فرصة اقامة هذه الذكرى ليقترح تكوين ثلاث لجان ، الاولى لترميم ضريح المؤسس ، والثانية لجمع المال ، والثالثة للعناية بالتاريخ يرأسها السيد التهامي الوزاني (1) :

لاتخيبنا ياكريم افهذا المشروع لعظيم بجاه سيد اعجام وعربان
اوفقنا لجميع كل خير ※ وبارك فالجميع اتخص اللجاني

(1) احد علماء تطوان الافاضل ، ويشغل فيها حاليا منصب عميد كلية أصول الدين التابعة للقرويين ، وهو مؤلف «الزاوية» .

لجنة الترميم المصريـح عنها بالتوفيق لاغـنـى يترمـم ينصان

نضحاوا بالضريح نفتخر ⁂ فرحا لهل البلاد ببلوغ الامانى

ولجنة جمـع المـال عمها بالـتـأيـيـد ولعنيا سـرا واعـلان

ولجنة التاريـخ تنذكـر ⁂ ابفدوة سيدنا التهامي الوزانى

ومثل هذه وتلك القصائد التى تحيى بها ذكرى محمد الخامس ممثلة فى «ثورة الملك والشعب (1)» ولعل احدث مانظم فيها قصيدة للحاج محمد العوفير يقول فى حربتها :

أمن اعظمها ذكرا يامن اتسال تاريخ امخلد

ثورة الملك امع الشعب يوم الاستعمار انفاه

لكن المولى جاد اعليه ايـــدو واكـرم مثواه

ثـالـثـا : الـهـجـاء :

ويطلقون عليه «لهجو» و «الشحط» او (الدق) عند اشياخ مراكش ، وكلاهما بمعنى الضرب · وهو اكثر انتشارا من المدح والرثاء ، بل هو من اكثر الموضوعات التى الهبت قريـحـة الزجـال المغربى وجذبـت المنشد والجمهور ، لما يبدو فيه من صدق الدافع وانطباع شخصية الشاعر عليه ، ولما يترك فى نفس الجمهور من احساس بالمتعة وهو يشاهد عروض المنافسة والصراع والخصام فى أقوى وأحد مظاهرها ، وهى مظاهر غالبا مـايكون سببها السجال الفنى الصرف بعيدا عن النزاعات الشخصية ، وان كانت لاتخلو منها فى بعض الاحيان ·

واذا كان الهجاء يأتى فى قصائد كاملة غرضا مستقلا قائم الذات ، فانه يأتى عرضا كذلك ، اذ لانكاد نجد قصيدة مهما كان موضوعها لم تختم بأبيات هجائية ، على حد ما سبق ان بينا لدى الحديث عن بناء القصيدة(2)

وتعرف قصائد الهجاء باسماء مثل «الدعى» اى الذى يدعى ماليس فيه و «المطموس» اى البليد ، و «الديب» و (الرامى) و «المهراز» اى المدفع و

1) الواقعة فى العشرين من اغسطس وهو اليوم الذى نفى فيه الى جزيرة كورسيكا مع اسرته عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة والف ·

2) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من باب «الشكل»

«البوغاز» و «القرصان» أي السفينة الحربية ، وهي كلها أسماء تدل على أن الشاعر الشعبي كان يستوحي هجاءه من المعارك الحربية والبحرية خاصة .
ويلحق بالهجاء الفخر وما يتصل به من محاولة تعجيز الخصم في قصائد اطلقوا عليها «السولان» اى السؤال ، وهي عبارة عن احاجي والغاز يعرضها الشاعر على خصمه يطلب منه في تحد ان يحلها

كذلك تلحق بهذا الفن قصائد تعرف بـ «الخصام» او «المحاورة» ، وهي قصائد مفاخرات ومنافرات على نحو «المدنية والعربية» او «الشابة والعجوزة» او «الخادم والحرة» او «الزمنية والعصرية» .

ومن أروع الهجاء قصيدة «صارم الطعن» حيث يتعرض الشاوى لخصومه (1) ، يراهم مجرد حثالات ، يصيحون كالذئاب العاوية ، يلقون بأنفسهم في المخاطر وهم دون مستوى مواجهته ، ويشبههم بالبومة التي تصطنع القوة والبراز ، وبالدجاجة التي تشد الباز من جناحه :

ريت موكا خرجت متصنعا الكفاح ※ والدجاجا شدت فالباز امن اجناحو
ظهرت ادياب الغابا عرسو افلبطاح ※ ولحتايل بعد الكلبا اليوم صاحوا

ولكن انى لهم الهرب وقد وقعوا في قبضة الباز ، كبلهم بسلسلة مهندة غدوا يرزحون في قيودها ، وسيفترسهم كالاسد ويتركهم مجرد شظايا :

لين تهرب قوم الضبعا اوشاق لمراح
※ صادهم باز اغنمهم تحت من ارياحو
لهم اصنعت سلسلا من شغل الهند
※ من عشر ادروع مالكيا معدودا
بكعوب امن النحاس واخراص اعلى الوجد
※ واميا فيها من لعنانق موجودا
دالهادا يتجبد فالغلال واحديد
※ بين خرص لكعوب اعدابها اتزادا
طاح فيهم ضرغم لوحوش فارس البيد
※ اتركهم اشظايا مهما ارقى ونادا

1) الاسف انا لم نوفق للتعرف الى اسمائهم .

وهم عمى ومدعون ومن احط المستويات واقبحها ، ولكن الايام سلطته عليهم فأصلت فيهم سيفه ، وهم يعرفون انهم متى وقعوا فى قبضته فلـن يطلق سراحهم :

امن الزبالا للطيفور (1) او مجرا اتبالا

☼ ماشفوا القوم العميا ابشيين فعلوا

سلطـتـنى ليام اعـلـى اقـبـاح لقباح

☼ كل داعى بالزور ابصرمى انجرحو

كلهم ايعرفـوا خـبـرى افكل مـركاح

☼ امن احصل فيدى عمرو لالقى اسراحو

ومهما بكوا بالدم وناحوا بالليل والنهار فانهم لن يرتاحوا ولن يخرجوا من سجنه الا بالموت :

اسناسلى عنهم مطبوخا افليل وصباح ☼ كل واحد يبكى ويقول ياجياحو

مايخرجو سجنـى حتى اتغيب لرواح ☼ لوابكاوا دموع امن الدملارتاحوا

وعنده انه خير للجاهل بالشعر والعاجز عن خوض المعارك ان يعذر نفسه ويترك الامر لاهله والا يحاول رفـع رأسه ، فـان المغلوب لايقدر ابدا على معاندة غالبه :

من لايدرى الغا او لايـقـوى لحروب

☼ يعدر راسوا ولايخرج امن اترابـو

يخمد خمد الدياب بين اوطا واشعوب

☼ ويفارق فالـلـغـا اسيادو وانجابو

واش المـغـلوب كايعانـد غلابو

---

1) الزبالة المزبلة والطيفور يقصد به شيئان متقاربان ، ففى لهجة اهــل الشمال يعنى مائدة الاكل ، وفى غيرها يعنى مائـدة صغيرة مقعرة تحمل بداخلها صحون الاكل أو الحلوى أو التمر والحناء أو غيرها • وغالبا ماتستعمل فى المناسبات والـولائـم الكبيرة • وقد استبدلت فى معظم الاوساط بالصوانى الفضية • وفى كلا المعنيين يدل التعبير على الانتقال من المزبلة الى الموائد التى تعرض أمام الضيوف ، وهو يفيد الانتقال السريع مـن مستوى وضيع الى مستوى عال رفيع دون استحقاق • وقد سار كالمثل يضرب فى هذا الباب •

ويمزج الهجو بالفخر فى أسلوب غير مباشر ، فيرسم صورة مثالية لاشك أنه يقصد بها نفسه ، يبدو فيها دائم السهر من اجل التحصيل والغوص على المعانى والافكار الزاخرة ، يبحث جهد الامكان لارضاء غيره واسكات طنين المتفرعنين ، يتجنب الجهلة وأصحاب الضغائن والاحقاد ، ويرافق أهل الفائدة ويجالس العلماء ويصاحب العقلاء يضيئون له الطريق، له اشياخ فى كل مكان يطيعهم ويروى عنهم ، وهو بعد هذا يتقلد السيف ويركب السفن معلنا عن استعداده لخوض الحرب ، وقد ساوت قوة ذراعه قوة اللسان ، أما خصمه فعلى عكس هذه الصورة ، كما يبدو من استفهاماته الانكارية :

آش را من لابات امساهر الجفن ※ والفكرا جايلا افزاخر لمعانى
بالمفاتنا ※ باش ايسود اعلى لوشا فزمانو
آش رامن لابحث افجهد مامكن ※ واعمل مايرتضى القاصى والدانى
والفراعنا ※ يقطع زياز عيطها بوزانو
آش را من لالهل الطايلا اركن ※ واترك فازوايت لهمل هل الضغانى
والمراكنا واعمل هل لعلوم من رفقانو
آش را من لاليه اشياخ افلوطن ※ واروى منها كما اروينا يعلانى
من اشياخنا ※ اقليل الطاعا امزدرى شانو
آش را من لاجرد صارم الطعن ※ ويركب اسفون لحروب وايعيطدانى
ها حنا هنا ※ ويكون ادراعو ابحال السانو

ولايكتفى بهذا بل يزيد فيصف خصمه فى أسلوب مباشر ويشبهه بالنخاعة الملقاة على الارض تدوسها الارجل فى مقت ، بلغت به الخيبة والفشل أن بلل جلد دفه بعد تسخينه ، وتقلد للطعان عصى ظنها رمحا ، وتدرع بالجلد ليقيه ، كل همه مصروف لملء بطنه ، لايفتر لسانه عن الشتم والكذب ، لايصول مع غير المغنابين المدخنين ويتملق الحثالات :

كتنخيما فالطين ※ معفوسا بالرجلين ※ والمقت اعليها باين
فزك جلد اكوالو بعد ما اسخن ※ قلد كلخا وظنها رمح اثمانى
للمطاعنا ※ واعمل جلد ابنى القيط اعوانو

همتو مصروفا فـعـمـارت لبطن ❊ والسانو بالشتيم يصنع وابيانى

بـه ماهـنـا ❊ واصوابـو نعديم زاد امهانـــو

صولتو عند اصحاب الناب والدخن ❊ يلحس لعماش للحتايل بالعانـى

كـان شافنا ❊ يكشر ويـعـرى اعلى تبيانـــو

ابلكذوب اقلبو طاوى اعلى لخون ❊ لكن مهما ايتوك حر البيزانـــى

بـالمعايـنـا ❊ يتلف فـرك البوم عـن جنحانو

فهو من قوم الخداع والشيطنة والكبر ، مثلهم مثل الخنافس تسكن الخرائب وتتعلق بالاوانى البالية ، وقـد حنت قفاها وهى تـدب يدوسها الناس ، او مثل الذباب يتجمع على جلد لبن فاسد مطروح :

هل لخدع واتشيطين ❊ وانفخا واتعرنين ❊ لهم اموجد تمونـــى

زيهم زى اخنافس بعضها اسكـن ❊ فالخوب ابعضها ادرج بين اوانى

باليا احـنـا ❊ للتغنيس اقـفـاه مـن دبـانـو

او دبان اعلى شكوا مـن الرغـن ❊ بات البنها وظل من ليهاءانـــى

عافها اغـنـا ❊ عنها وارماهـا اعـلـى عديانـو

ويحاول أن يستنتج من الموقف بعض الحكم فيرى فى ايحاء بالمقارنـة بينه وبين خصمه ، ان الزر دخان لاينسج فى الاماكن العفنة وان نـبـات الحلفة لايشبه الحرير الرقيق ، وأن من عمى عثرت رجله فى قب برنسه :

ماتنسج الزردخان فامنازل لعفن ❊ والحلفا ما شبهت لحرير الغانى

من اعمات ايامو قالوا هل لوزان ❊ تعثر رجلو اقب سلهامو هانى

جيـت لاغنا ❊ نبطل للكـهـان سحر اكهانـــو

ويروى ابن حمدوش فى قصيدة هجائية يخاطـب بها ادريس لحنش أن كل من دق بابه واستفزه لابد وأن يجيبه ويرد عليه ، وأن كل من آلمه ضرسه يسرع لقلعه ، وأن مايقدمه الانسان من خير وشر ليس غير سلفة لابد وان يرد ، وأن لكل قول جوابا :

مـن دق الباب ❊ مايلو غير اجوابو ❊ غر به من جابـو

من ضراتو الضرسما جا الكلاب (1) ❊ قالـت لعواب

الخير والشر اسلوفا كل قـول بجوابو

1) آلة قلع الاسنان .

ويرى محمد الزلايجي ان قول «الدعي» باطل ، وأن سجيته لاتساوي بصلة ، وأنه بالجهل يصلى نار الجمر ، وأن سور الدعوى لا أساس له ، وانه لابد ان يهزم جند الجحاد ، مهما كثروا ومهما حاولوا الفرار :

قول الداعي بطال * نهزم جند الجحاد اجمعهم لوطالوا

لويهرب لى عرض اوطول * من صادفتو مبطول

وما سجيتو ماتسوا بصلا * بالجهل فوق الجمر اصلا

سور الدعوى مالو الساس ضايع قالوا

صح عني خذ المعقول

مروى عن هل لعقول

وهو لايعبأ بادعائه وانما يتقن مقاله ليصيب به المقل ويثقل كاهل الجاحدين :

مايشوشني قولت قال * اولا نعبا بوجوه لغالي * امطرز امقالي

زنجار افلمقالي * والجاحدين لفظي عنهم ثقلا

ويهزمه دون قتال ويرغمه على الرضى بالقهر والغلب ويقطعه اربا :

نهزم الداعي دون انصال * حتى يرضى بالقهرا عن افصالي

وانفصلوا فصالي

وهو لايهمه الارذال مادام سوره عاليا ، وكل من حفر حفرة لابد وأن يقع فيها :

مايهموني شي لردال

سوري سور عالي

والحافر كايوقع افما احفر فمدالو

أما عباس بن بوستة فسور دعيه منهدم وشمله مشتت :

سور الداعي مهدم وشملوا مشتت * راب سور الداعي واتشتت الشمل

كلما اشتعلت نار الحرب أصابه شرارها بسبب سوء أعماله :

كل ساعا نيران الحرب تنشعل

اعلى الداعي تزند من قبح افعالو خاب فاعلو

سعيه يخيب وغزله ينحل ، وقد بعث الله له من يجزيه عن افعاله :

خـاب سـعـى الـداعـى واتـحـل مـاغـزل

عـــن فعلو جـاب ربنا مـن جـزالو يـوم دازلـو

وقـع بين اوقايع الـزلزلا

وأما محمد بن عمر الكفيف فقد فاز برضى الشعراء ، وغـدا لذلـك شجاعا بارعا وعودا فى عين «الدعى» الوغد اللئيم :

أنا زنجار فى اعيون امن ادعا * قل لليم الـوغد الداعـى

برضا ناس لقريض حـزت اشجاعا وابراعا

وقد كثر الاشياخ التأفهون الذين لايبعث كلامهم على غير المقت والملل يحطون به من شأن الفن ، ولو سكتوا لكان خيرا لهم :

كثروا فـزمانا اشياخ الربعا * اكـلامهم ايقوى تصداعـى

مهما نصغاه كـانمقتو وانمل افساعـا

والهوتلا امبخسين السلعا * اعلى الغاهم اصمكت اسماعى

لو سكتوا خير مايقولـوا معنى مبشاعا

ولم يعد فى هذه الصنعة مايليق بعد ان نزل الميزان ، والسبب هؤلاء البغال الذين فضحوا سوق الشعر فى كل مكان دون حفظ أو رواية او طبع :

ماباقـى مايليق فـى ذا الصنعـا * اكـلام بالمـيـزان الـكـراعـى

. . .

فضحوا سوق اللغا ابغال الـرتعا * اشحـال منهم امـلاو ابقاعــى

ماحفظوا ما رواوا ماطبعوهـم طباعا

ومثل هذا نجد عند مولاى احمد بن عبد السلام العلوى فـى القصائد التى كان يهجو بها خصومه (1) ، منها قوله :

يـالـداخـل بحر المعنى ابغـيـر تـبـجـال

صـغ طـرز ابـيـانـى وردات افـلـخـجـالـى

وقـولـه :

لاتـقـى لاشـــرارك * يالداعى سيف السانـى اطوال

واكشفـت اسـرارك * بالمـواهـب رمـحـى شظـاك

1) ذكر لنا أنه هجا كثيرا من الاشياخ وخاصة الغالى الدمناتى .

وقوله كذلك :

نـداك احصولـك ❊ يالداعي مـالـك منو اسـلاك

قطـعـت احبولـــك ❊ افلعضا نـارك تـكـبـت لـك

ومن الهجاء المتبادل مانجده بين ابن علي وتلميذه ابن سليمان . ففي «ليل الزهو» يخاطب ابن سليمان خصمه يخبره في تحد ان بساطه فـــي قلعة غطاءها وفراشها خير ولكن لاتطأها غير أقدامه ، فهي نقمة على كل وغد قبيح لايستطيع الاقتراب من العساكر التي تحميها والرقباء :

ابساطنا في قلعا ماتوطاها اقـدام

الا اقدامنا توطاها ❊ صعب اجبالها ووطاها ❊ الخير افراشها واغطاها

نقما الـكـل داسر ❊ فـيـهـا حـــاصـــر ❊ ابلعساكر مادام احياتو

مايتعدى شي احدودها من دون الرقبان

وقد داس بقدمه على قفا الظالم العاجز الذي غدا كالبومة يخمد صوتها كلما صرصر الباز الحر :

رجلي اعلى اقفات الظالم ❊ من لايكون فارس ناجم ❊ راني اعلى لحروب امـــلازم

آش اداه لسقارا ❊ يوم الغارا ❊ ابقى اعبارا ❊ مـوهـون افداتـــو

يخمد فرخ البوم كـان صرصر حر البيزان

ويستغرب لجدول الماء يعاند بحر الطوفان ، وللضفادع تترك المستنقعات وتخرج للصحراء تقصد غار الثعبان ، ولاهـل الوقت يرفعون شأن الكـلاب النابحة مثلهم ويهملون الاسود :

كيف اجرا للساقيا اتعاند بحر الطوفان

. . .

او الله ربـت الجران كيتعدا مـرجاتـــو

اخـرج للصحرا ابـغـي ايـروم الغار الثعـبـان

. . .

اهل هذا الوقت لقباح مثل الطاروس ابنبحاتو

رفـعـوا لـه آلجـاه والسبـع مـاداروه افشـان

ويرد عليه ابن علي في «الذيب» يذكره بفضله وجميله عليه ، ويكنى عن ذلك بقصة يحكي فيها أنه خرج ليصطاد غـــزالا اذا بــه يصطاد ذئبا ، فأخذه لداره وعطف عليه في حنو واشفاق واطلقه في روض الازهار وأطعمه وسقاه ولكنه لم يرض بالنعم الطيبة الحلال التي قدمها له وظلت نفسه تتوق لجيفة يلتهمها في خربة ، فلم يلبث أن هرب من الدار :

واخرجت انبري (1) افناحيات الصيدا غرضي انصيد اغــزال

حيحت لصيادا برني يصطاد ماتجيب الوجبا ※ ماجاب غير ديب وشديتو

. . .

المرسمي اديتو فالروح ارثيت له بعد الغلبا ※ حنيت لو واشفقت التمريتو

في روض ازهاري انلت هذا الديب اشتيق الليوث واشــبـال

. . .

وجبتلو لحم الضاني نحساب في امكاني ※ يرضى بانعايمي اطعمتوا واسقيتو

وترنـــي دخـــري ما ارضا بانعايـــم واللـــي احـــلال توكـــال

ما كان عيشتو غير الجيفا كان صابها ※ في خربا خلي لك المقلي في زيتو

اهــرب من وكــري واش وكــري باني للديــب يالعقال

ولكنه له بالمرصاد يبحث عنه ، وقد وضع له مصائد كثيرة لن يستطيع الافلات منها مهما حاول الجري والحيل والفرار ، والويل له ان وقع فـــي قبضته ، فهو يبشره بحرب لن يقوى على خوضها :

وانبشروا بحروب الا يقوى له في اهمومو يغبا ※ واشفايت الدياب افتشتيتو

تسرفني نبري جرتو ويلا جيتو له لهوال

اشحال امن امصايد عندي فامخابعي وكمن خشبا ※ للديب ويل بوه ايــلا جـيــتــو

آش جهدو يجري ينقطع جهدو واتبور اعليه لحيال

لم يعترف بالجميل ولـم يعرف أن احسانه اليه هـــو الـــذي سيحكـــم ويتصرف وياتي به في الحال ، اذ ذاك سيسجنه ويقيده الى أن يموت :

مايعرف خيري فيه يحكم وايجيبو لي الزمـــان والـــحـــال

وانديرله ساجور الهند ابسلسلا اتقلها كورا ※ حتى ايموت فالسجن ابغيتو

---

1) مضارع برا بمعنى بحث .

ويستأنف ابن سليمان هجاءه لابن علي فيوجه له «قرصانا» يقول في حربته :

هكذا قول للداعي ايدير قرصنن ويخرج * كيف من سافر بين امواجو واغـــنـــم وانـــجـــا

ويرد عليه ابن علي في «قرصان» آخر يغلب عليه الفخر هذه حربته :

حـجـب القرصـان السـبـع لمـشـانـي

من عين كل معيان اذا يفها ابحسن اجمال القرصان

ونقف وقفة قصيرة مع ابن علي في قرصانه الذي خاض به غمار البحور عارفا بالخارطة والبوصلة ومختلف الرياح والكواكب فاهما منتبها ، ميزانه النظر الذي لايماثله ميزان :

راكـب فـوق اللجات قـرصـانـي

فابحور لمعاني صاب الواري وجال فوق الجوج الطوفـان

ونـا مـدوب وقـابـض ادمـانـي (1)

ندري انكارطا وامعلم فالبوصـلا او حـافظها علـى لتقان

واريـاح اتـمـيـز ليس تـخـفـانـي

وكـذلـك لكواكـب نـدريها مـانشـوف اتراكم لـزان

ابقسـطـاسي وادمـانـي وديـوانـي

واعلى كل ريح انسافر ماني اغشيم(2) دهري حاضي لوزان

عـايـق فـايـق بـالشـوف مـيـزانـي

قالوا هل اللغا فالغاهم ولا ابحال شـوف العارف ميزان

فقد اطلق قلاعـه وقصد عمدا بـلاد العجم والديلم والعراق واليمن ، وجال في البحور السبعة ، وغاص بحثا عن المرجان والياقوت فـي مختلف ألـوانـه :

نهضو لقلوع وجـلـت بـالـعـانـي (3)

لـبـلاد العجم والديـلـم واكداك لعراق وبلد الـيـمان

---

1) المـقـود . 2) الغشيم : قليل التجربة .
3) عـمـدا .

والسبع ابـحـور ادخلـهـم عانـى

ندرى احسابهم وامخبر باللى ايزيد واللـى فيه النقصان

جـوال عـل الـوجـبـات فـازمـانــى

غواص بين لجات لبحر أصـاح صنعتى نصاد المـرجـان

والـيـاقـوت الـوهـاج يـرضـانــى

من كل لون عدت انصيف لبيض والزرق وكذاك اليرقان

واللـون الـرابـع شـــابـه الـقـانــى

هذا مناصف اخلاكى وقت مانصيف لـك اصدور الغيوان

لم يشاهد أحد مثل ماشاهد وهو يبحث فى أعماق البحار عن الجواهر والعقيان والدر واللؤلؤ واللجين والـزمـرد والزبرجـد والعقيق والحجـر اليمانى ، وقد اجتمعت له فى خزائنه من هذه الكنوز درر مسلوكة فى خيوط من الذهب ، كما اجتمعت له ألوان من الاقمشة والحلل والحلى . ثم عـاد الى شاطىء بلاده فدوت طلقات المدافع يتجاوب صداها فى كل أركان الفضاء:

مـن لاشـاف اكـمـا شـفـت بـاعـيـانـى

بين اللجوج غير انبرى بـرجحتى اعلى الجوهر والعقيان

والـــدر امـــع اللـــؤلؤ شـهـانـــى

واللجين والـزمـرد والزبرداج والعقيق وحـجـر اليمان

واللـــى يشـبـه هـــادوا فتبـيـانـى

فاخزاينى امد خر من كل ادرار ناصح فاسلوك الذهـبـان

مـن كـــل انـواع اوسـقـت حـجـانـــى

اوسقت امن اقماش الهندى اوما يماثل فانـواع الحجان

كـبـلـت الـبـر ابـلاد عشـــرانـــى

بامدافع شلا ماجوبت او جاوبو انفاضى مـن كـل اركان

وما أن وصل الى الشاطىء حتى رفع السنجق ولف القلاع ومد الحبال فجاء التجار للقائه وجاء آخـرون لايعرفونه يسألون عـن المـرسى التى قدم منها ، وتم البيع والشراء ، وعاد الى مكانه وقد ناداه وقت الفرح والسرور :

وارفـعـت السنـجـق بـعـد جولانـى

انقيت لقلاع واجبدت احبال مـــركبى واقلعـت النيشان

جات اجميع التجار تلقاني

واخرين عاد سمعوني جاو ايسولوا شمن مرسى اخرجفلان

باعوا واشراو اورحت لمكاني

واللي ايريد حاجا خلصها (1) من اخزاينو بلغها تمان

هذا وقت الفرجات نادانى

بالعز ولهنا والسطوا والفرح ولمنا واسرور وسلوان

هذا قرصان الا ايلو ثاني

فالبحر المحيط اخبارو عند الدهات من يدريو القرصان

ومثل هذه المساجلات الهجائية ماتبادله ابن ريسون والغرابلي ، يبدأها الاول فيوجه لخصمه «الرامي» بعد ان أتقن الرماية وحضر سلاحه مزودا بالبارود والرصاص وخرج للصيد متوسلا بالمولى ادريس يدعو الناس للتفرج :

جال عقلي في ترميت بالرياسا واتمزج * ساكني منها في تهياجو زايد درجا

درت شيخي مفتاح الغرب صاحب الطبع لبهيج * هبت الواخد عن منهاجو في ذا البهجا

درت رنا مقيو مايالها امن ازناد امزبرج * في ايميني واللي نحتاجو من مانرجا

درت بارود امشحر صنعت ايفادا وسنطرج * ابلحساب وتعبير اصناجو عقلي صنجا

درت مايكفيه امن ارصاص في اوجه لعدا يخرج * لوخرجت الميدان اهراجو تكفي خرجا

هكذا قول المن ابغى بالرمي يتفرج * شارتو يسقطها فابراجو حاضي مرجا

لقد شمر عن ساعده وخرج للصيد ، فويح للغراب ان صادفه في الجو فسيصيبه بما لن يعالج منه ، وهو غراب اسود القلب والريش ، دعا عليه

1) دفع ثمنها .

المولى ادريس فلايستطيع الاقتراب من أسوار البرج ، وان حاول فانه سيقع :

عن اطرافى شمرت اخرجت للصياد ستدرج ※ عل لبدا نرعى من راجو
كـنـتـبـجـا

. . .

ويح لغراب اللى فالجو صار ريشو سمار امدج ※ لادوا لا راقى لعلاجـو
طـيـر الـخـلـجـا

فيه دعوت مولاى ادريس مايروم السور البرج ※ غالس القلب امثيل ازباجو
وعـــد لـفـجـا

طاح افلقتال المذكور الذى شانو يوهج ※ صيدو مـن عنقو بافـلاجـو
فـالــج فـلـجـا

ويرد عليه الغرابلى فى «بوغاز» انشأه يحول دون خروج القرصان (I) وقد اختار لانشائه بقعة على الشاطىء بين الجبال والفجوات ، وأقام مرسى بنى أسوارها مـن الحجر المنجور ، تحيط بها البساتين ، وأبـوابها ثمينة ليست عند عجم أو خـزرج ، وحول الاسوار أطلق الاسود والاشبال والنمور التى ستفتك بأظافرها فى المعاندين :

درت بوغازى للقرصان وقت مايزعم يخرج ※ تلتقاه نـفـاض امن ابراجو
يصدق وهجـا

اخترت بقعاعلى حرفاليم بيناشوامخ والفج ※ حلق مانع بفراثـن هاجـــو
ليس اتنفجـا

انشيت مرسى وابنيت الساسها بنيان امحدرج ※ للصعـود اترقـات ادراجـو
عـز ونتـجـا

من لحجر المنجور اسوار فاقت المرمر لبلج ※ واشرارم كدور افتاجـــو
تـرمـى وهـجـا

ولبساتن عن ربع اركان وانفاض الكمن برج ※ درت خلف السور وتبهاجو
دور افـبـهـجـا

---

1) يبدو أن «بوغاز» الغرابلى رد على «قرصان» لابن ريسون وليس على «الرامى» ولكننا لم نعثر له على قرصان ·

دورت ببان الاهـى افـبـر لعجام وخـزرج ❀ كل باب افتقويم ارتاجـــو

خـزنـت خـوجـا

واحفير اعلى السور ودور ولسود اعلىالمنهج ❀ ولشبال افرادو وازواجـــو

سكنت ولـجـا

والنمور فقلوب هل لـعنـاد بامظافر تبعج ❀ مـن القاوه لتقاه اسماجـــو

قـطـع المـرجـا

ويجيب ابن ريسون على خصمه فى «المهراز» الذى اقامه فى مواجهة البوغاز ، مرفوعـا على سور منيع مـن الحديد ، يصعد لـه بألـف درج ، لتنطلق منه على البوغاز قذائف ثقيلة تنسفه وتزعج قلب الجاحد وتـنـزل كالصواعق عليه :

فى اعراض البوغاز انشيت سور مرصود اعلى اللج

طـالـع مـن لحديد ادراجـــو

ألـف درجـا

. . .

سور مهرازى سور امنيع سام فالبحر امزبرج

ضن واجزم من راد احـراجـو

تـركـو نـهـجـا

قـابـل البوغاز المخـدوع بلعماير يتفرج

من البومب (1) ايضالى لـرتاجـو

حتى يـفـجـا

كل بومبا فيها قنطار لجحيد اتزعـــــج

صاعـقـا تنزلوا فامهاجـــو

وقـت الخرجـا

ولكن الغرابلى يرى أن خصمه بليد جاحد جاهـل ، أتلفه الشيطان ، فغدا عاجزا عن التفكير والانتاج ، ووقع من أعلى الجبل على حجر صـلـد فتكسر :

---

1) القنابل والقذائف والكلمة من الدخيل الفرنسى .

زيت قلب الداعي مطموس غلف ابلجحاد امسج

✽ عايم افجهلو مـن تسماجـو

حـلـكـو ربـجـا

تلفو شيطانـو واحكم اعليه عـمـرو ماينتـج

✽ لوحو بين احياف احداجـو

يـبـهـيـم ادجـا

طاح من جرف اعلى منداف فوق من صلد امزدج

صادف اهراسو من تزداجـــو

وادلـــج دلـجـا

واذا كان يظن انه بالمهراز سينسف له البوغاز فهو مخطىء اذ قد صنع له «غطاسا» يغوص كالسمك في البحر ، زوده بالمدافع والقذائف والمناشر ، يهلك كل من صادفه أو اعترضه ٠

درتلو بـابـور الغطاس ضـد مهرازو لـعـرج

✽ زى سمك ايغوص ابتمواجو

بـيـن اللـجـا

ابلمهارز واصواعق والنفاض وامناشر تـودج

✽ مـن القاوه خرقـوه اوراجو

فـوق المـوجـا

هكذا من ينشى غطاس تـحـت لـمواج ايموج

✽ كل من صادفو قلب اصناجو

وابقى كـرجـا

سام بوغازي وارقى فالصعود واختنق كمن فج

✽ اعفارت الجن ابخرق امواجو

خـرجـت حـرجـا

من زعم يدخل تحت ارمايتي ابمهـراز امكرج

✽ مايهم ابطالـــى كجكاجـــو

دون المـرجـا (1)

---

1) ذكر لنا الشيخ بنعيسى الدراز أن لهاشم السعداني قصيدة سـعى بها =

ومن أشهر الهجاء المتبادل مادار بين الغرابلي والتركماني ، وهو هجاء أساسه خلاف موضوعي حول الايمان والعمل ، وهل الايمان وحده يكفي أم لابد من العمل ؟ ويطلق عليه «أعراض» أي المعارضة ؛ فالغرابلي يرى في «الدعي» أن الشهادة وحدها ليست كافية وأن العمل واجب ، في حين يرى التركماني في رده عليه أن في الايمان بالله ورسوله كفاء وخيرا في الدنيا والآخرة ، وأن نية المؤمن أفضل من عمله ٠ ويبدو أساس الخلاف واضحا في حربة كل من القصيدتين ، يقول الغرابلي :

يالداعي بالعرف اصغ الهل العلم افما قالوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفي مولاها

ويقول التركماني :

ألداعي شهد والشهادا بالله ابالرسول تكفي واكفات وكافيا اوخير

فالدنيا وافلاخرا اكثر ❊ والمومن نيتو افضل من اعمالو

يبدأ الغرابلي فيرى أن خصمه دخل في بحر لايطيق هول أمواجه ، وأنه سار مع هوى نفسه ، وأنه بلغ من الهبل والعمى حتى غره الايمان وزين له الشيطان سوء الاعمال ٠

ويرى أن كل من صفا قلبه يعمل ، وكل من غدا قلبه مشوبا يستحل الآثام ٠ لقد أمر الله بالفروض ، فكيف يريد أن يتساهل فيها ؟ ثم ان الشهادة لاتكتمل بغير شروط لابد ان تستوفيها ٠ انه يريد أن يطلق عنانا شده الله ورسوله ، فهو ناكر شمس العلياء التي أنشأها الله من النور ،

الى الصلح بين الغرابلي وابن ريسون يقول في حربتها :

الصلاة اعلى الماحي سيد كل مافالحي ادرج ❊ لفضل طه وازواجو زين الفلجا

وذكر لنا كذلك أن ابن ريسون كان السابق الى هذه الخصومة وأن الغرابلي لم يكن يكتفي في الرد بالقصائد فقط وانما كان يلجأ الى التمائم ووسائل السحر – وكان بارعا في ذلك – فتصدى لخصمه بها ويقال ان ابن ريسون ظل من اثر ذلك مدة اثنتي عشرة سنة مقعدا في بيته مكتوف الايدي الى أن قال السعداني قصيدته في الصلح والتمس من الغرابلي أن يذهب عند خصمه ويقبل رأسه ٠ فذهب وماكاد يمسك بيده حتى نهض من مكانه سليما ٠

ويزيد فيتهمه بعدم التمييز بين الحلال والحرام وبأن حياته كلها سفه وفجور وبهتان وبأنه لم يجالس العلماء قط :

يالداخل في بحر الا اتطيق لواج اهـوالـو

يامساعـف لغراضها افـغـيـوان اهواهـا

من اهبالك غرك ليمان بالمطموس انجالـــو

لــك زيــن شيطانــك سوء نعمال وبــهــاك

من اصفات امرايت قلبو ايدير مايجبر حالو

والذى مارايـم لصفا امتــمــو يستحلاهـا

أمو فرضو ربى شد فيه وتبغى تسهالـــو

والشهادا لهاكم من اشروط لاريـب امعاها

كيف ترخف من شد الحق بعد رشدك مرسالو

النا كر شمس العليا اللى امن النور انشاها

ياللى مـايفرق بين لحرام حتى واحـلالـو

عشتك فالدنيا الا افجور وافشر واسفاهـا

. . .

لاتعاتب قول اللوام حين نصحك باقـوالـو

ياللى مـاجالس عمرو هـل لفوايد وانباها

ثم أخذ في شرح وجهة نظره والتدلـيـل عليها مبينا أن العمل أصله النية ، وأن كل من سعى لشيء يناله وقد خاب من لايبحث في شريعته ولا يعرف مقاصدها ، وأنه ينبغي معرفة مايجب في حق الله تعالى مـن صفات الكمال ومايجوز وما يستحيل ومعرفة قواعد الاسلام ، من صلاة وصوم حتى يقوم الدين ويكمل ، وترد عن النفس مخالب المنكر والفحشاء ، بل انه يطلب منه أن يردها ويندرها ويقهرها ان طغت بحديث الموت :

لعمال أصلو النيا ومن اطلب شي اينعطالو

خاب مـن لاخبر فاشريعتو وحقق معناهـا

جيب مايوجب في حق الجليل صفات اكمالو

او مايـجـوز او مايستبح كيف نبأنـا طـبه

جيب اوصاف اقواعد ليمان يامضيع رسمالو

اوجيب اوصاف الاسلام كان كنت (1) تقراها

فالصلاة والصوم اتهلا وقوم دينك واكمالـو

اورد نفسك عن فعل الفحش قبل تغرق فاخطاها

لومها واندرها فعسى اتنال زى اللى نالـوا

الى اطغات اقهرها بالموت حق تدخل لجواها

حقا أن الشهادة مفتاح الدين وبدءه ولكن الفرض تمامه وكماله ، والبادىء للعمل دون انهائه كالخارج للحرب وفى يده قبضة دون سيـف . فالمسلم يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وينفذ الفروض بجوارحه ؛ ويخشى على كل مـن فرط فى الدين اذا ماحان أجله أن ينسى الشهادة ، فلا احد يضمنها عـنـد الاحتضار الا من جاد الله عليه وذكرها وحافظ عليها :

الشهادا مفتاح الدين والفرايض لكمالـــو

من ابتدا لشيا دون اكمال سار حجا فابداها

زى من راد ابقبطا دون سيف يلقى عدالـو

واش من مرا للقبطا دون سيف تقضى بامضاها

القول باللسان والاعتقاد افلحديث اكما قالوا

ولجوارح تمتاثل من افرض عنها مـولاهـا

كل من فرط فالدين لقويم يوم ايجى اجالو

اعليه ايخاف ايـلا يحتاج للشهادا ينساها

ماضمن حـد الحد افساعـت لنيا تعطالـو

غير من جاد اعليه الله وافتكرها واحضاها

ويستفهم فى انكار عن تارك الصلاة او الصيام أو الزكاة أو الحج ان كانت تكفيه الشهادة فينجو أم لاتكفيه فيحاسب ويعاقب :

جول واسأل فالخمس اوقات امن اتركها مدالو

كـان فيه القول او اشهادتـو اكفاتو معناها

---

1) كان كنت بمعنى لوكنت .

جول واسأل من اترك الزكا ولا زكى مالــو

عاش فحرام او اشهادتو اكفاتــو معناهــا

جول واسأل من اترك الصيام واشروط اكمالو

كان يتعاقب او اشهادتــو اكفاتــو معناهــا

جول واسأل من وجب الحج بعد زادو فاحلالو

كان يتحاسب او اشهادتو اكفاتو معناهــا

ويطلب منه أن يتوب ويرجع عما مــالــت اليه نفسه ، وأن يتمســك بالتقوى والطاعة حتى تصفو ذاته ، وأن يتخلى عــن هــواه ويطرد الشيطان اللعين الذى يغويه ويزين له المساوىء ويلذذ الشهوات ويتسرب الى داخل الانسان ويسرى كسريان الدم فى الجوارح :

تب وارجع واترك ماريت له لجوارح مالــوا

ولازم التقوى والطاعا اتفوز ذاتك بصفاهــا

لــهــوا والشيطان اعــداك يالتابــع عدالــو

ايبين لك لفضل حتى اتغيس نفسك فبلاها

اللعين ايلذذ للمــومنين شهوت مــحــالــو

افلجوارح يسرى سرى الدم ويسكن فحشاها

ولايتركه دون أن يرميه بالجهل والعمى واتباع الشيطان ، ويسألــه كيف يلقى ربه فى ظلمة القبر ويوم الحشر حين ينشر أمام كل واحد كتاب تسجل فيه الاعمال الحسنة والسيئة فيجازى عليها جميعا :

غابت اشموسك واهزمها اظلام جهلك باكحالوا

لادبك الشيطان اعماك زى قــومــان اعماها

باش تلقى غبت اللحود ولوقوف وتهوالــــو

يوم تــزفــر جهنم اعلى لخلايــق بالظاهــا

يوم لاتنفع مــرو لاشجاعتو ولا كثر مــالــو

فى اصحوفك توجد لسطار دون ريب تقراها

من ايجى بالسيا بمثيلها امن الله تجزالــو

من ايجى بالحسنى عشرا من المهيمن مجزاها

ويرد التركمانى فيتهم خصمه بأنه حمار ابن حمار ، دخل ميدان المعارضة بالجهل ، حاملا خشبة غير منجورة ولا مسواة ، وأراد أن يتطاول على من لم يكن يعرفه ولايسمع به ، ويتساءل عن سبب مانزل به ، أهو مصاب بخلل أم مدعو عليه فى وقت صادف باب الاستجابة مفتوحا ، أم أنه يجنى نتيجة حلف زور أو غضب الوالدين ؟

ياداخل بحر المعنى بوجادى (1) واحمار بن احمار ورافد كلخا ابـلا نجير

واتبعت من لايلو اخبر ✻ ولاعمر اسمع حسك مدالـو

واش انت مخلول او صادفت شى دعوا امكنا ساعـت لجابا اعلـى الضمير

او احلوف ابلا اصفا اغدر ✻ أو من الوالدين سوقك واضلالـو

ويدعوه الى الاستغفار لو كان مسلما متحققا من الشهادة يراها اعظم من أى عمل ٠ فكم من مغرور ظل يعمل حتى اقترب من الفوز ولكنه تبع نفسه فمات كافرا بأعماله ، وكم من احد ذاق بعد الكفر حلاوة الايمان بقلبه فشهد بالله والرسول وأدرك وفاز واعتبر بفضلها شهيدا ، وكل من قالها لامحالـة يسير الى الجنة يوم الحشر ومعه فضل الله ، اذ تكفيه الخاتمة ، فـهـى تعادل كل حياته :

استغفر لله لونت مسلم وامحقـق بالشهادا ماتجـعـل عنها اكبيـر

أهـى مـن كـل شى اكـبـر ✻ ولاعنها اعمال يعلى باكمالــو

والعمل ابكلمت الشهادا اهـى بـه واش من عمل انفع كمن اغريـر

اخـدم حتى شاهد الظـفـر ✻ واتبع نفسو ومات كافر باعمالو

واكذاك ضدو اشحال من واحد بعد الكفر داق عسل احلاوت ليمان ابلخبير

وانهار اتبرا من الكفر ✻ اشهد بالله والنبى بلـغ اعمالـو

قالوا مات اشهيد امن افضلها واجميع من قالها افعمرو للجنا لاغنى ايسيـر

وامعاه فضل الله افلحشر ✻ تكفيه الخاتما اتعدل بجالـو

ثم انه لاينكر الاعمال ولايتركها ولايدعو الى تركها . ولكنه يـرى ان المومن مومن ولو كان زانيا أو سارقا أو هاجما أو قاتلا أو مخمرا ، ومهـمـا اعتبره خصمه كافرا ، اذ تكفيه كلمة الايمان ٠ والمومن لابد وأن يتوب مهما

(1) البوجادى بمعنى عديم التجربة ٠

حاد عن الطريق ، وهو يجبر اذا تاب ولايعدم الفضل طالما أنه محافظ فـي قلبه على هذه الكلمة ، فهي رأسماله وسلاحه وعزه ونصره • وهل ياترى يقبل العمل من حمار مثل خصمه لولا أن الله يستر ويـعـفـو ويقبل عباده ويـرضى عنهم بجوده وفضله ؟ :

مانكرت اعمال ماتركتو ولا عمرى أ بهت حـد ايتركـو لكبير والصغـيـر
الا لـلايـم قلت لـو اعـذر ✲ ومـا فالغيب امـن احكام ابمجالـــو
والمومن مومن قلت لوزانـي او لاسارق او هـاجـم او قـاتـل او مخميـر
نـطـق اللايم قـال ذا كفر ✲ قلت اكفاتو السابقا واسعد فالـــو
والمـومـن يرجع بعد يـدلـع ولابـد اينال فضل الكلما مـن لالها انظـيـر
ويلاتـاب المومـن اجـبـر ✲ ولايعدم افضل حاضي راسمالـــو
والمومن من فضلو وراسمالو واسلاحو ونصرو وعز اكلمتو ليمان فالسريـر
يتلـيـا ويـحـمـد ويشكر ✲ وجـعـل ارجـاه افلمـكـرم قبالـو

• • •

ولعمال اصلا او صوم وازكا واجهاد وحج ياترا يقبال مـن امثالك لحمـيـر
والستار يسمح و يستـر ✲ وقبلنا ابـجـل جـودو وافضالـــو

ويحاول أن يظهر فضل كلمة التوحيد فيراها تضم سبع كلمات تصد عن سبعة أبواب من أبواب الجحيم وألف ، يظفر صاحبها بالنعيم ويبـلـغ الآمـال • واذا كان العمل من الفضة فكلمة الاخلاص من الـذهب العالـي العيار ، بل ان الله خلق عمودا من نور لايقربه الا من يقول لااله الا الله :

وكلمت التوحيد جاب لحديث اسبع كلمات ضاما ضد اسبع بيبان فالسعير
والف تغلق بـاب واظـفـر ✲ مـولاهـا بالنعيم وابلغ امـالـــو
والعمل ايلا ايكون فضا كلمت لخلاص ذهب يبريز امشحر خـالطو اكسير
وافضل ربـى مايلو احصر ✲ سبحان الدايـم لغنى جـل اجلالـو
عمود امـن النور مايلحقو الا مـن قـال لا الـه الا اللـه السامـــع لبصير
يهتز الـعـمـود ويجـهـر ✲ يبردت وسـع لفضل ومن افضالـو

وهو يرى خصمه قد ارتكب ذنبا كبيرا لن يستطيع التكفير عنه بغير الذهاب لمدينة مراكش مذموما حقيرا حتى ينتهي من أمره بالذبح • فسينادى

بالنفير فى الحمراء وغيرها من المدن والقرى والبوادى ليعلم به ، ثم يأخذه للحمام حيث يغسله بالقطران ويخرجه بعد ذلك فى موكب مكبلا مغلولا ، ويذهب به الى فندق الجلود ويلبسه جلد تيس اسود ، ويضع لـه أسورة فى حجره ، وحزاما بظفائر وحذاء من النحاس الاصفر ليرقص به ، ويتوجه بكومة من الريش وعمامة عليها خمسة قرون طرية اللحم ، ويعلق له سبحا حباتها من الحلزون ، ثم يطوفه المدينة بالولاول والزغاريـد ليرجمه الاطفال بالحجر وينكتوا عليه ويضحكوا طوال سبعة ايام ، وان تعب خلالها يعاد الى أغلاله ويركب حمارا :

وانصحك ماريت مايكفر ذنبـك الا اتجى البهجت لمدون امبهدل احقيـر
وانجزرك وامثالك ينـجـزر ❊ حتى نحتال عن اخلاصك وافصالـو
ونطلق البراح (1) افلمدين الحمرا وافحوزها ويمشى حتى للغرب بالنفير
فاباد (2) امداين اوعر (3) ❊ يعلم بك لسلام ويـرجـع فى حالـو
ونا نفرح بك انديك اللحمام الديب ببياض تغسل واتعوم افلغديـر
وانخرجك ابهندقا وطر (4) ❊ ويـديـك امكتفا وعنقك فاغلالـو
وندخلك الفندق لبطانا ونفرغ اعليك واحد الكسوا مكمولا اعـلـى الشهير
مـاقيمتها مـال افلعـفـر ❊ من عتروس اشبه القلـبـك فاكحالو
وانبايل (5) افحجرك طايشين ايمانا واشمال ولحزام امخالف بضفايرواعسير
والسباط اقدام امن الصفر ❊ فى رجليك للشطيح ايقل امثالـو
واعلى راسك رايما ازكوا بالريش أو عنها اعماما بـرذيـل افـوقها اندير
خمس اقرون الحومها اخضر ❊ ومن الببوش (6) شى اتسابح يحمالو
وانطوفك اعلى الشهاد افمراكش بالكف ولولاول وازحام اكثير ولهديـر
ويـرجموك اطـفـال ابلحجر ❊ واخـريـن اينيبوك ولا ينـظـالـوا

---

1) المنادى . 2) البوادى .
(3) الجبال .
(4) سبق ان ذكرنا فى المدخل هاتين الآلتين «الهندقة والطر»
5) اسـورة .
6) الحلزون ويطلق عليها كذلك الغلالة وخاصة فى لهجة اهل الرباط .

سبع ايام وكل يوم تطويفا فالـحـومـا اولا ارزمتي ترجع لغلايلي ايسيـر
فـوق احمار زنـد وعـتـر * حتى يجتامـعـو الناس ويحتالـــو

كذلك **كان الفخر** عند الشاعر الشعبي جانبا في فن الهجاء وان لـم يحظ باهتمام المنشد والجمهور ، لما فيه لاشك من انانية وحـب شخصي .

ومن الفخر مايذهب اليه محمد بن الصغير يخاطب حساده انهم لن يستطيعوا معارضة كلامه مهما اتفقوا ضده ، فشعره يحلو انشاده ويتوق الناس لسماعه ويطربون ، فهو غزل صافي سلس رقيق عرف كيف يسلك فيه مختلـف المسالك والمسارب ، لايخشى من الغرق ، وقد شيد قلاعا واعتلى القمة :

قولوا للباغضين قولـي ليام اتلافي * محال ايعرضو اكلامي لوجاواتفاق
نظـمـي يتـقـال اعشاقـا * أهـل الفرجـات شـوقـوا
غزلي صافـي اسليس رتقـا * سالك منهاج كل طرقـا
وايحق امسارب الطروق
جفني مضمون مـن الغرقـا * وامشيد ابلقلوع زرقـا
وازيـادا طالـع اللفوق

ومنه قصيدة لعباس الحرار يفخر فيها بأنه لاينفذ صبره عند الشـدة يوم يضيق الناس وتعبس الوجوه ، ولاينقطع مورده يسقي جميع الظامئين حيث لاوجود للماء ، ولايغيب نجمه زاهرا مشرقا بنور ثنائه في كل مكان ، وبأنه لم يمدح قط ملكا أو طاغية ولم يؤذ أحـدا ، ولم يفضح سرا لـه او لغيره ، ولم يأكل غير أكل شريف حلال ، وبأن شعره لايخلو مـن حـكمـة وبأنه ورث الرياسة عن أجداده وأنه لايفر من مواجهة الاقران :

أنا اللي ماتضايق الشدا صبري * يوما تنقابح لوجوه انـا الصبار
أنا اللي مايـزول للظامـي نهري * مورد عذبي فامواطن لامايـذكار
أنا اللي مايزول فلك اسما ذكري * يشرق باكواكب الثنا في كل اقطار
أنا اللي مارفعت باقوايـم شعري * سطوت مالك شامخ او اطغيجبار
أنا اللي ماكويت مخلوق ابجمري * كاتم سري ولانفضح الحد اسرار
أنا اللي ما اخلات من حكما جفري * مشتمل اعلى قوا ايفادت كلاخبار
أنا اللي ماتكدر اجـواهـر ثغري * لقمت منان لو انجوع اسنيناشوار

أنا اللى وارث الرياسا من بكرى ✻ من جد الجد حزتها امن دارالدار

أنا اللىَ ما اتشاهد اعداى ظهرى ✻ يوما تتواجـه لقران لفدى الثار

وكانت على العكس من ذلك عناية الاشياخ «**باكسولان**» كبيرة ، وهـو فن يتصل بالهجاء وتحدى المدعين ، حيث يوجه الشاعر لخصمه جملة اسئلة هى فى الغالب احاجى والغاز ، ان لم يحل رموزهـا فهو مغلوب وعاجـز . وغالبا ما يمهد للسؤال أو بالاحرى لمجموعة الاسئلة بمقدمة يخاطـب بها المدعى او راوى القصيدة ، وكذلك يختم السولان .

فهذا ابن على فى «سولانه» يطلب من راوى القصيدة أن يفخر بالسؤال الذى ليس له مثيل :

باسؤالـك استفخر ياحفاظـى ✻ اولا ابحال عند اللى عارفين ســولان

ويخاطبه فى القسم الاول يؤكد عليه أن يفخر ويواجه كل معارض ، وأن من عاتبه أو اغتابه فكأنما عاتب الشاعر او اغتابه ، ويخبره انه ضبط الحروف ورتب القوافى ، ويوصيه أن يقرأ جهرا ماكتب له على كل الناس القريب منهم والبعيد ؛ ومن كان منهم يدعى فليجب على السؤال وليجل فى معانيه وليشرح جوابه حتى لايظل مدينا فيشهد عليه العدول :

باسؤالى استفخر واتلق كل من ايعاتـب
اللى ايعاتبك كنو عاتبنا
او غتبك كـنـو غـتـبـنـا
او هكـذا فالشعر اكتبنا
اضبطنا لك لحروف والقوافى لها ترتيب
اقرا بالجهر ماكتبنا على لبعيد ولقريب
واللى داعى لنا ايرد لجواب
ايـجـول افـلـمـعـانـى
ويشـرح لسؤالـنـا اجوابـو
اولا يـعـود مـديـانـى
واعليه شاهـديـن اعـدولـى
وارضـى ايـكـون مـديـان

ثم يستعرض له بعض الالغاز كهذا الذى يسأله فيه عن ماهية علم الشعر والمواهب وكيف تتسرب للنفوس ، وعن اقسامها التى لايعتبر شاعرا مـــن يجهلها ؛ وكل من غاص فى بحر الهوى يجده صعبا الا من منحه الله الموهبة ويوصى راويه الا يهاب المدعى بالجهل ، فهو اعجز من ان يأتى بمثل هــذا السؤال أو هذا الشعر مهما طال به الزمان :

وانسال امن ادعاو اعلى علم الشعر ولمواهب
واعلى اشمن (1) اسبيل يدخل لجسام
كـان تهم فالخـلـق ارســـام
قســـوه الـفـهـام اقســـام
من لايدريها لايقول شاعر فالقول ايجيب
واللى داخل بحر لهوا بجهلو يلقاه اصعيب
الا من ودو ربنا الوهاب
واللى ادعا اعليك ابجهلو بالك تستهابو
ما جـاب عـوض ســولانـــى
ألو ايعيش ماعاش المرو ولا ايجيب لوزان

ويختم القصيدة بتحذير للمدعين ان عجزوا عـن الرد ـ وهـو عليهم واجب ـ انه سيبقى دينا فى عنقهم طوال الحياة ، وأنهم لن يساووا شيئـا بعد ذلك ؛ ومن عرف كيف يحل السؤال فليشرح اجابته وليعرف بمصادره ولينظم ذلك على نفس الميزان :

وانسال من ادعاوا بجوابى واعليهم واجب
ويذا يعجزو عنهم يبقى ديـــن
لـجـواب الـواضـح لـمـبـيـن
طـول مـا دمـنـا فـالحـيـيـن
لاتحسبهم اسواوا وخذلك فالخلطا تجريب
من يفقه لشيا اكما انشاها علام الغيب
معناوى ياتـيـنـى افصح لـخـطـاب

1) وعلى أى ·

ايفيدنى بشرح اسؤالى فاشمن اكتاب صابو

واعلى اطبوع ميزانى

واعلى اكواكبو وادراجو طرقان هل الغيوان

وللتركمانى «سولان» يقول فى حربته :

اصغ اوجول واتأمل يا انسان ❋ جاوب اسؤالى كان انت البيب فاطن

ويسأل فيه من جملة ما يسأل عن طائر يجول فى البر والبحر دون أجنحة أو زاد ، يقطع الارضين فى ساعة ويصعد للسماء بسرعة ، يبيض ويفرخ فى البطاح ، رأسه فى ذنبه ، وليس لعينيه مثيل بل له عين زائدة وأذنان ، ولكنه لايسمع الا بواحدة ، ترى ماهو وأين يقيم ؟ :

عن طير سلتك ايجول ابلا جنحان بر وابحار

وابغير زاد اولا ليه ابضاعا

ويقطع لرضين افساعا

وللسما يصعد باسراعا

وايبيض ويفرخ افلبطاح ايمين واشمال

وابراسو فى قزبتو وعينيه ابغير امثال

بمقعد وبودنيه رد بالك

ويسمع غير بودن وحدا سبحان ذا المواهب

وابعين زايدا ثانى

يندر اوحد ماندرى

اكما هو اوفين كاطن

ومن اسئلته يستفسر عن رأى الشرع فى أمر رجل سافر الى فاس وترك زوجته فى القصر ، وفى يوم سفره تزوجها غيره فولدت له ، وكتبت للزوج المسافر تخبره بمولود رزق به وأصبح ذا مال ، وتقسم انه ليس ولده ولا ولد زنا وتطلب منه ان يلحق بها على الفور ، فامتثل وحضر ولكنه وجد نفسه مغلوبا على أمره وغريبا بعد ان كان قريبا :

وانهار فاش سافر غيرو خذها

وارجول سافر الفاس اخلى زوجتو افلقصر

اولـدت امـعـاه امـن ابطنها

ولـدت اكـتـبـت الـراجـلـهـا

فالكتاب قالت ولد زاد عندك واصبح ذو مال

تالله ماهو امن ازنا ولا هو ولدك واحتال

واقدم بالتكبيرا وجـــى اتبارك

وامتاثل الرجول امرها واضحا امن المغالب

مـن بـعـد كـان دخـلانـى

عـنـد الامـر ارجـع بـرانـى

والشــــرع بـــاش آذن

وبمثل ماختم ابن على ختم التركمانى فقال :

ياحافظ اللغا خذ اسؤال المن ادعا امختصر

يعزم ابلجواب اوياتينى بـه

ويـرضـى بـالـغـلـب اعـلـيـه

ويـقـبـل شـرطـى وانـوريـه

أما فى **الخصام** فيتحفنا **ابن على** فى قصيدة «العربية والمـدينية (1)» بحوار رائع بدأته بنت المدينة فرمت محاورتها بأنها كلبة الـدوار ربيت فى الخلاء ، واذكرتها بالقرب تملاها فى الصباح وبالحطب تجمعه فى النـهـار وبالرحى تسهر عليها طوال الليل ؛ حياتها تعب وشقاء ، ورجلها حافـيـة متشققة ورأسها عار ، تفترش التراب عند النـوم وتوسد حجر الكانون ، وشتان مابينها وبين بنت الحضر تربت مصونة فى بيت العلماء . وأين هم أهل البدو الوسخون من سكان المدينة يعمرون المساجد وينصتون للخطب ويبعثون ابناءهم للكتاتيب :

قـالـت لـمـديـنـيـا *العربيا واش افـعـالـكـم تنساهـــم

تربيت لخلا كلبات الدوار *آش ايجيك لبنات لحضر واترابى لعلوم

وانـــت بـــدويـــا *ماتفكرت لكرب فـالصباح تملاهـــــم

واتحرفى احبل لحطب كل انهار واتظلى واتباتى اعلى الرحى ماطال الديموم

(1) المقصود بالعربية : البدوية .

متعوبا مشقيا ✻ ارجليك ابلحفا ينشقوا افسرت اشقاهم

والراس ابلعوا عمرو مايستار وابحال التمود ترقد من جهلك واتقوم

كحيا مطويا ✻ بالرفايق كتتغطى بكفاهم

واتوسدى مناصب كانون النار واتروحى عيانا اعلى التراب ترقدواحموم

مافيكم انقيا ✻ هكذا سيرت هل برا اسواك واسواهم

شيجيكم لهل الظل والجدار ✻ وامساجد للخطبا امع الصلا وامسايد وارسوم

وردت البدوية مشبهة الحضرية بالبومة فى الغار ، دائمة المرض لايغيب عنها الطبيب ، لونها يصفر بدون داء ويذبل من أثر سم جير الجدران الذى ينعكس عليها فيجعل طبعها ساما كذلك ، وهى ميتة فى حياتها ، لم تخرج يوما الى البادية لتتعرف الى حى محاورتها تحيط به الاشجار ، وتحميه الخيول والسيوف والرماح والاشواك من الاعداء . ثم ان العرب موصوفون باكرام الضيف وبالطبع الكريم ، وهم كذلك ينشؤون المساجد ويتخذون الخيام كتاتيب للتعليم ، وكل من زارهم ينال من خيرهم على عكس المدن التى لايوجد فيها شىء دون مساومة أو شراء :

وادوات العربيا ✻ قالت المدينيا يالفاهم الغاهم

خمدى ياشبيهت موكا فالغار ✻ آش ايجيبك لبنات لعرب واعوالىواسهوم

وانت بلديا ✻ شوف لتالك ماعمر الطبيب يخطاهم

وابغير ضر كتدبال وتصفار ✻ سم الجير ايولى اعليك مايشبه لكمسموم

موتك وانت حيا ✻ ياللى ماشفت عمرك عربنا ومأواهم

امعمرين بصوارمهم لقفار ✻ لوكان اتشوفى حينا اذا صاكت قوم القوم

بسروت محضيا ✻ ابلقنا والدركا يدرقو امن اعداهم

وامثيلهم من يوصف ويذكار ✻ هما كرمين الضياف وهل الطبع المكروم

وامساجد منشيا ✻ وبخيام الطلبا واجميع كل من جاهم

يمشى ابخيرهم يتشكر تشكار واش ادى اللمدون كل شى بالمشرا والسوم

وعلى هذا النمط تسير المحاورة تتناول جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية فى كل من المدينة والبادية . تفخر المدنية بأنها محجبة تحافظ على الصلوات وتعيش حياة زاهية منعمة وترفل فى الحلل والحلى ، وتعير

البدوية بأنها سافرة تظل تدور فى الاسواق وتـرعـى الابقار وتقلع نبات الدوم ، ليس لها ماتزهى به من النعيم والرفاه والحلى واللباس ، عيشهـــا مذموم اساسه الذرة والشعير وعفنها كثير والماء عندها قليل . أمـا العربية فترى أن التقوى موجود فى القرى والمدن على السواء وتعير ساكنات المـدن بأنهن شر الخلق ، اجتمعـت فيهن كل الهموم والسيئات وأعمال ابليس ، ساحرات كاهنات غادرات بالاخوة والازواج ، تتفشى فيهن المناكر . وينتهى الحوار حين تفخر العربية بأنها من أصل قرشى معروف وأن الله وعد العرب بثلاث بالجنة والقرآن والرسول ، وتذكر بنت المدينة بـأنها ببغضها للعرب تبغض الرسول ، ولكن هذه سرعان ماترد بأنه لولا موقف محاورتها مامست العرب بسوء لانها تتفانى فى حب الرسول وفى سبيل حبه تتغاضى عن كل ماقالت فيها من شتائم وتطلب منها ان تستغفر .

ثم يتدخل الشاعر للصلح ويقيم لهما نزهة ليسليهما وينسيهما الخصام:
قـــلـــت الـــهـــم اعـــلـــيــــا ※ صلحكم وانزاهتكم كيف كنت نشهاهم وصالحتهم وقـــمـــت الهم انهار ※ كيف يشتهاو الباهيات وافجـيـت الهم اهـــمـــوم

ومثل هذا الخصام نجده عند امتيرد فى قصيدته التى حربتها :
أمى احنا وايلى امى لوريت يافاهم اللغا ماذا صـار البنت لحضـر والعربيا
وايلى امـــى لـــوريـــت يـــافاهـــم اللغا

ولكنه يجعل محاورتيه تدعوانه ليصلح مابينهما ، فيتدخل ويرضـــى كلا منهما فيبدى اعجابه بجمال العربية الكامن فى جاذبيتها وعيونها الفاترة وخدودها الموردة وقدها العالى ؛ كما يبدى اعـجـابه بجمال بنت الحضـر الشبيهة بياقوتة فى تاج النصر مصونة فى ابهج المدن .

ويرى أن الله كتب عليهما هذا الخصام وأنـه ليس فيهما مايعاب ؛ فلم تلبثا أن انشرحتا لكلامه وصفا قلبهما وغدتا تتبادلان اللعب والضحك :

قالوا مرحبا جابك ربى يافصيح الشياخ اعز الماهرين
جـــول اخـــمـــم فالـحـيـــن فـــارقنا
قلت لهم حـــتـــى عيب مـــاهـــو فيكم

زينات زينكم يرضاني

أنت اتبارك الله العربيا

امرونقا مسمرارا بعيون نايما سرديا

واخدود فاتحا عكريا

والقد قد صاري

وانت يابنت لحضر

ياقوتا فى تاج النصر محضيا

فى بهجة لمداين صولى ياروح راحتى وهنيا

هاد لغيار جابو ربي

لجواد مايعيبو

حاشا يكفا من لخصام

انشرحو واصفاو لقلوب افرحو

جازونى بخير اجازيت الباهيات ساروا فى حفظ الله ديك

تلعب لخرا لها ضاحكا

ومن أروع قصائد الخصام وأشهرها قصيدة «الخادم والحرة» للغرابلى يقول فى حربتها :

قصا اجرات للخادم والحرا ✻ يوم ظلو فخصام اكثير عل المعيار

وفيها تصف الخادم (1) الحرة بأنها كسولة وبخيلة وصفراء وباردة وثقيلة ومسمومة ، دائمة الشكوى من الاضرار غير قادرة الا على الخصام والتعيير ، كل من مسها يصير عليلا ويصفر لونه ، أمها ساحرة وأبوها يقضى يومه فى جمع الاعشاب والبخور ، وان كانت حرة فانها هى الاخرى قد تعتق وتظفر بالحرية . ثم ان الخادمات يكن فى الدور الكبيرة عزيزات فيهن العلاج واللذة الطيبة ولونهن يفوق لون العنبر · وترد الحرة بأنها تستحق كل ماحصل ، فقد قبلتها للسخرة وهى كالحمارة يحيط بها الويل، لاتخرج من المطبخ ، وتضرب بالليل والنهار ، رائحتها كريهة ، ولونها أسود· وتذكرها بيوم مجيئها فى حال بؤس بلباس وحذاء ممزقين ، ثم انها مثار شؤم ، كل من اقترب منها يعمى من شدة رائحتها الكريهة · ولم تكتف

1) المقصود بالخادم الامة ·

الحرة بهذا الرد وزادت فعنفت معها فى القول ـ الذى سنمثل به ـ ووصفتها بأنها عجوز بنت عجوز وبأن الله فضلها عليها ، لو قتلتها لما حدث أى شىء ، وأنها قربة قاذورات وعلقة فى بئر ، طباخة تسرق اللحم مـن القدر ، أمها تكشف عن الحظ فى المحار وتتلهف على القديد ، وابوهـا يسعى مـن دوار لآخر يضرب فى طاسات الحديد ، وأخوها يجول فى الحى ينفخ فى المزمار من أجل جمع قطع الخبز ليبيعها ويبقى بالجوع ، أما هى فكالخنـزيرة أو القردة الممسوخة . ثم تسألها اهى على دين الاسلام ام كافرة ؟ وكيف تـم مجيئها جائعة حافية عارية الا من فوطة ائتزرت بها ؟ وبأية عملة اشتراهـا التجار أبالملح او الودع ؟ وتذكرها بأنها حين وصلت لم تساو عشر دينار، وكم مرة دللها السمسار ، وكل من رام شراءها يأخذها لتقضى الليل عنده ويصبح وقد تضايق من رائحتها الكريهة وشخيرها الشبيه بالمنشار ، فيردها للدلال ، الى أن قدر لزوجها أن يشتريها دون مشورة • وحين أتت للبيت وجدت ربته بارزة فى فراش قبتها ، جميلة لابسة افخر الحلـى والثياب • ثم أخذت تصف جمالها وبشاعة الخادمة مقارنة بين بياض شبيه بضوء القمر ولون كقطعة من الليل ، بين سوالف رائقة للتضفير وشعر مكـور كحبوب الابزار ، بين خدود حمراء منقوشة وخدود مشققة كالمندوب عليها بالاظفار، بين أنف دقيق كالباز ، وانف منتفخ كالكير يوقد نار الجمر ، بين شـفـاه حمر كالشهد وشفة بعير ، بين نهود صدر كبرتقال فـى شـجـر ونـهـود كالباذنجان الكبير ، بين أقدام دقيقة وأقدام كاظلاف الحمير • وما ان وصلت الحرة الى هذا الحد حتى فقدت الامة وعيها ومسكت بحجر وقذفـت الحرة ولكنها اخطأتها ، فحمى وطيس الحرة واخذت تلطمها وتضربها كيفما اتفـق بقفل حديدى كبير • وقام هرج وضوضاء فى الدار ، وكادت ان تقتلها لولا ان حضر الجار وفكت الامة من قبضة سيدتها • وحين رجع رب الدار وحكى له ماوقع باع الامة واستراح وعاش بقية ايامه يزهى مع زوجه الجميلة :

قالت افلجواب الحرا مهما اطـوال لكحار

سكتى يالنكرا بنت النكرا ❊ اعليك فضلنى ذا لـقـدرا

اولـو اقتلتك شى مايجرا

لاش اتصلحى ياكربت لخنز ياعلقا فى بير

طيابا طباخا او سارقا اللحم امـن الطنجيـــــر

اتقول يما حافظا الـكـــارا

امك ابلودع شوافا واعلى لكديد تسعار

وابـــاك يـالـقـنـجـارا (1) ✻ بالقرقبا ايظل ايكوع وايدور كل‌دوار

اوخوك افلمدينا داير شـهـرا ✻ كايسوط افقرن اعشارى افقاع مزمار

وايدور افلحـوم ايلم الكسـرا ✻ ايبيعها وايقيل بالجوع بـــن المطيار

وانت امثل حلوفا فـى قـفـرا ✻ أو قردا ممسوخا ساكنا افلوعـــــار

اعلى اضنايتك حكم المسخ اجرا ✻ عيدى لـى جنسك اســـلام او كفار

واعلى امجيك عيدى لى كيف اجرا✻ ابلودع ولا بالملحا اشراوك تـجـار

جابوك ابلحفا والـجـوع ولعرا ✻ ولا اسويتى يوم اوصلتى اعشور دينار

ولاعليك بعد اكشيـف السترا ✻ امتزرا بالـفـوطا وامتبعا السمسـار

واشحال ماتـدللتى مـن مـرا ✻ من راد ايقلب عندو اتبات فـالـدار

فالصباح كيقول ايولاهى جـرا ✻ بايتا كاتشخر شـخـرات زى منشار

وصنان ريحتك خنزين شكرا ✻ خرجك للدلال وعـاد لـه ماصـــار

دلال امن احواز البهج الحمـرا ✻ اعيا ايهايت وبعدها ابقى افلكرار

حتى جا المغرور امع الـقـدرا ✻ اشرا وخلص فالساعا ليس دار بشوار

وامنين جيت صبتينى مشتمرا ✻ بارزا فكساوى واحلول زهـو لبصار

وافراش قبتى ماهو فى حضرا ✻ كل من شاهد زينى دون قيس يعدار

شوف ابياض لونى كضى القمرا ✻ شوف لونك كنقطا امن اظلام لسحار

شوف اسوالف تعجب للضفرا ✻ شوف شعرك لمكركب كاحبوب لبزار

شوف انقيش عل لخدود الحمرا ✻ شوف لخدودك زى النادبـا بالظفار

شوف الانف باز افبطحا خضرا ✻ شوف انفك نحكيه كير واقد اجمار

شوف اشفايفـى كاشهدا حمرا ✻ شوف دوك اشلاقم لبعير جافتحكار

شوف انهود صدرى ليم افشجرا ✻ شوف لنهودك دنـجـلات دوك لكبار

شوف اقدامى كن خدلج واطرا ✻ شوف لقدامك نحكيهم افراقش احمار

1) الـحـمـارة ٠

تما انرا الخادم رفدت حـجـرا ❊ شيرت اعلى الحرا واتقول كلبت الدار
نـكـلاتها وحـركـت لها الحرا ❊ ابقات تعطيها بالزكروم دون ختـيـار
وما اكلت من طرش ابـلا فترا ❊ عاد رجعت لحسبها بعد بان لـعـوار
بالهرج نوضت فالـدار الكسرا ❊ امشات تقتلها لوماكان حاضر الجار
وفـكـهـا وخرجها واتـبـرى ❊ حين جامول الدار وعاد ليه مـاصار
باعها وهـنـا راسـو وابـرا ❊ وسار يغنم زهـوا ايامو مع الخنار

ومثلها قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبى ، وحربتها :

آش را متى لارا لبنات يوم قاموا لكحار (1)
زوج هـيـفـات اصـغـار
شابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

وفيها نجد ثريا «العصرية» تتهم هنية «الزمنية» بـالامية والتأخـر ، لم تذهب مثلها للمدرسة ولم تحضر المجالس ، مشغولة بأعراض الناس تشتم وتغتاب ، ولكن هنية ترد بأن محاورتها غير مؤدبة وبأنها مشغولة بدفاترها ودهن شعرها المحلوق وتسريحه ، لباسها بعيد عن الوقار ، سافرة الوجه ، عارية الرأس ، لاتعرف شيئا عن الطبخ وشؤون البيت :

نسمع العصريا اتقول للزمنيا
يـاجارتـى اهنيا
سـمـعـى مـنـى اخـبـار
من يوم اسكنت احداى جارا وانتيا فاشفار
ياحسبى لله سالبا بخصامك جمع لفكار
عمرك ماشفت اتقول شـى مـدرسـا
اولا حضـرت مـجـالـسـا
ولا اهـواتـك الدراسـا
ايـلا اهـواتـك
بك اعوار الناس جارحا بالسانك
فـات لـقـيـاس

1) الخصـام .

مشغولا بيا

اولا العنت شيطانك الشرير

خوذيني نصفاك تتشتمي فيا

جهرا ابلا اخفيا

فالستنا تاعت لعشيا

عـنـد اغـــروب النهـار

قالـوا للشتامـا النار

بالسانك قلت اعلى الشكارا (1)

مصحوبـا ديـمـا امعايـا

ممليا ابلكتوب عل لفتخار

سـابـقـا بـالمـعـيـار

كابرا اميا فالسب ولغتب والزورا

لالك المدرسيا فايقا عل لبكار

يـاتسـمـعـي لـخـبـار

يالزمنيا غشميا اموخرا للورا

قـالـت الزمنيا بجـهـار

يـا لعصريـا هـذا عـار

ياك حق الجار اعلى الجار

ماعرفت كود الهدرا (2) اعلى الشكارا

قـمـت كـسـرا

وزايدها اتفلقي ابلحجار

مخصوصا ادب يالشبانيا

يـارهط الـبـويـا

مشطونـا ابلشـعـار

السانك مطلوق ما عرفت مونا

ولا اعجنتك معجونـا

---

1) محفظة المدرسة .   (2) صحة الكلام وصوابـه

ومع اكنانشك مشطونـــا

طـــول الـــنـــهـــار

أنا زمنيا او حاجبا فى دارى

وامع الشغال طول انهارى

لـــيـــا اصـــغـــاى

انـــت ديـــمـــا امقزبـــا

صايا فالمحزم امع اقويمجا دون انخفا امجيفك

اكـــريفيطا خـــانـــقـــك

وانعالا محسوب صاندالا

للخرجـــا والـــدخـــول

شرع الله امعاك يالعصريا

مـــادرت اصـــــواب لـــيـــا

فالشـــعـــر امحلـــقـــاه تيـــا

دون لغراض لقصار

حتى الراس امع لوجه بايـــن

لادرا لانـــــكـــــاب

قالوها مثلا اعلى ابحالـــك

خرجـــى ســـوق الـــزحـــام

آش اتعرفى فالطباخ

طجين امحمر ابـــلـــفـــراخ

ولا ميدا ولا مخرقـــــا

ولا بسطيلا اورقـــا

لاقورما لا محنشا اشغل الدار

زايـــداهـــا تـــعـــفـــار

ماتعرفى لشغال الـــــدار

حـــــتـــــى دورا

آش غير الدهنا والراس حالقالو لشعار

امخالـفـا للآثـــار

فـالسـوالـف نـظـرا

مـاهـى ابحـال بـتـورا

ونجيب العصرية بأنها مهتمة بالتعلم وطى مراحل الدراسة ؛ فلم تجد الزمنية غير التركيز على مظهر العصرية الذي لاتراه لائقا وعلى معرفة الطبخ وشؤون البيت لاسيما ان جاءهـا ضيوف فـانها تعجز عـن تهيىء الطعام وتاخذهم الى المطاعم . ولكن العصرية ترد بأنها مثقفة وأن الطبخ من اختصاص الخادمة التى تتقن كل أنواع الطهى ، وتخبرها بـان خطيبـهـا راض عنها تخرج معه وقد تعرفت الى أهله وتعرف الى أهلها . وتدعوها الى ان تخرج من غمة الدار وتصاحبها فـى فسحة بالسيارة لتزور مـدرستها . وتـؤكـد الزمنية أنها محجبة تتبع العادة وأنها بذلك سعيدة ؛ وهى كذلك مخطوبـة ولكن على الطريقة التقليدية حيث لم ينظر اليها خطيبها ولم تنظر اليه بعد ، يقول أهلها انه شاب صغير ومن خيرة الناس ، وقد خطبها فى البيت وتولى أبوها الامر وهو يبعث لها بالهدايا فى الاعياد . ويتدخل الشيخ الجار فيصلح مابينهما ويصارح الزمنية بضرورة مسايرة العصر ومـحـو الامية ، وينبه العصرية الى ضرورة تعلم شؤون البيت . ثم يعود اليهما بعد سنة ليجدهما عملتا بوصيته فتحضر له العصرية مائدة اكـل شهية وتنسخ لـه الـزمنية أقسام القصيدة .

ومن الخصام المعتاد مانجد فى محاورة بين العروس وحماتها ، وهـى محاورة لم نوفق للتعرف الى صاحبها ، تقول حربة القصيدة :

ماعظمها فالزمان قصا سارت يافاهم لخطاب

بخصام اكثير خـرق عـادا بين اعكوزا وشابا

فالعروس تعير الحماة العجوز بكبر السن وضعـف العـقـل والغيرة وتوعو عليها بألوان من العلل والامـراض قبل ان تـمـوت ، بضعـف البصر والبرد وداء الجانبين والحمى والمرض الخبيث . فقد انحنى ظهرهـا وشاب رأسها وخلا فمها الا من ناب ومع ذلك مازالت نار الرجال تلتهم اعضاءها :

قالـت للشايبا اكبرت واهترت يالعايبا

غرتي اكرفت لعكايز منى يعطيك الضباب ■ والبرد اعلت الجناب

والحمى واخبيث يديوك للروضا امعاتبا

بعد ميخلك ظهرك احنا والراس لك شاب ■ فمك مافيه غير نـاب

مازال ياخلاك نار الرجل فاعضاك تاكبا

وتحيبها الحماة لتطعن في عرضها ، داعية عليها بانقطاع الرجاء فكثيرا ماوعظتها ولكنها لم تنتبه من عماها ، كانت تريدها أن تشتغل في البيت كما يفعل من هن خير منها ، وتقنع بالواقع وتحمد الله عساه تعالى يرضى عنها كما رضيت هي عنها عروسا لولدها ، على الرغم من أن طالعها كان شؤما على البيت حيث ضاق العيش وارتفع الخير وشاب رأس ابنها الشاب ، ولكنها كلبة لاتتعظ طالما ان قلبها ميت أسود ، وطالما انها لم تستوف دينها :

نسمع فـالشايبا ونطقت ■ قالت للبنت كيتك

عدفني عرضك لمشمت ■ يقطع ربي ارجيتك

اعيت انـواعظ وانحدت ■ مافقتي امن اعميتك

معنيت اعليك قلت واش انهيقي ياعـرت لكلاب ■ واتكوني من اهل الصواب

واتعرف بين الزمان ابعوانو يالسايبا

واتخدمي كيف لالياتك واتقبلي ابما اكتاب ■ واتحمدى عاتق الرقاب

او طلبيه يقبل اعلينا ويهون كل صعبا

كيف اقبلنا اعليك بعد اعرفنا اقدامك الزغاب ■

مللي حضروا الخير غاب

وارضينا ابلقضا وقلنا لاهرب من لمكاتبا

اديت امعاك باللطافا من جانب رقتنا اصعاب ■

والولد اصغير كيف شاب

نبغيك اتساعفيه واتكافي من دي لعاتبا

وامنين شفت قلبك ميت اكحل امن اغـراب ■

والظن اللي انويت خـاب

احرام اعليك يالكلبا دينك ابلا امراتبا

وترى العروس في ردها انها لو لم تستح من شيب الحماة للطمتها ، وأن كبر السن معدن كل العيوب وأن الخدمة والكنس لايليقان بها وبمثيلاتها من الشواب ، وأن شغل البيت من واجب الحماة ، فهي تخرج بلا لثام ، وعليها ان تنفق في السوق وتطبخ وتقدم الطاس (1) وتحضر المائدة . اما هي فتنعم مع زوجها في مجالس الاستمتاع متزينة فوق الفراش وعلى ضوء الشمع وأمامهما صينية الشاي يتساقيانه في سلو وتيه وضحك وملاعبة . واذا ما شاءت الخروج للحمام أو الذهاب لفرح عند الاصهار فان العجوز تسير خلفها حاملة لها رزمة الملابس على ظهرها كما تفعل غيرها من العجائز :

نسمع فالبنت ابغير دهشا ■ للشايبا وقالت ابصوت الهيب
ماحق اعليك غير طرشا ■ لولا استحييت امن الشيب
ولايني يالشاخشا ■ لكبر معدن كل عيب

آش ابقى لي ايلا اخدمتك قولي حشمت بالشواب (2) ■
واتهون انشطب الرحاب
ولانرضى انكون لك خادم ياعجب لمعاجبا
انت بعد ايلابقيت سهم الخرجا ابلا نقاب ■
والمقضيا والطياب
وارفود الطاس يتبع الميدا واعليك واجبا
ونا فامجالس امع ولدك فوق لفراش بالثواب ■
واعلى الماكول والشراب
والشمعا شاعلا افبيتي والصينيا امرتبا
ترا نسقيه ويسقيني بتاي اعجيب افلكواب ■
ترا نسلاو ابلحجاب
ترا بالتيه واخنات مني ترا ضحك واملاعبا

---

1) آنية غسل اليدين قبل الاكل وبعده
2) جلبت لهن العار ، من الحشومة بمعنى العار ، وهي كذلك بمعنى الحياء

انهار ايلض لى الحمام واحضور افراح النساب ■

وايـلا كنت امـــن اللباب

تتبعينى ابحال لعكايز بالرزما امـراكـبـا

وتسير المحاورة على هذا النمط فى تبادل الشتائم ، تحاول الحماة ان تحط من شأن العروس والطعن فى أخلاقها ومستوى أسرتها وأن تقنع ابنها بضرورة طلاقها لتخطب له غيرها . وتـرد العروس بالـوان مـن السباب تستوحيها من الشيخوخة وآثارها المادية والنفسية على الحماة . ثم يتدخل الولد بعد أن حار فى الامر وكأنه يصارع الف امرأة وبعد أن بكى وقرأ ولعن الشيطان ، فينحنى أمام أمه ، يداه خلف ظهره وخده فى التراب معترفا لها بأنه لها عبد ، ولكنها أحرقته بالحطب والنار ، وذلك جزاء كل من يساعف زوجته وتهون أمه عليه وتغلبه نفسه ، وهو يفضل أن يـؤدى فـى الدنيا ويزيل غضب امه ويريحها على أن يظل متابعا فى الآخرة ليعاقب شر عقاب . فكان ان لانت الام وحنت وزال عنها كل كرب . ثـم التفت الى العروس بحزم ونظر اليها بعينين ملتهبتين ، فاعتذرت لوالدته ورجتها ان تفك رقبتها من العقاب وأكدت لها انها تائبة الى الله وأن اسلامها سيتم ويحسن عـلى يدها :

طاح الولـد يبكى ويـقـرا ■ ويلعن المـارد الرجـيـم

ويحك اعمامـتـو ابقهـرا ■ وادموعو ساكبا ايضيـم

واتقول اتلقى ابألف امـرا ■ والعز ابوجـهـك لكريـم

اينادى بعد مد ايديه اوراه اوخد اعـلى التراب ■

العبد اوكل ما اكســـاب

انا مكسوب عبد يالميما (1) وانت الكاسبا

احرقتنى ياميمـتـى فالـدنيا بـالنار ولحطاب ■

يستاهل امن اخطا وسـاب

واسعف امراتو وهان بمو والنفس اعليه غالبا

---

(1) تصغير ام

اللهم انخلص اهنا وانقول اصفا من لغضاب ■

خاطرك ولا بقى اعتاب

ولا نبقى الاخرا نتعاقب شر لعاقبا

حنت وارطابت لميما وزال من خاطرى لكراب ■

واهنا من بعد التعاب

واتلفت افلمرا بقلب امصمم واعيون لاعبا

زاوكت فمو وقالت لها عتقى رقبا من لعقاب ■

منفعا واجر والتواب

واليوم انا اعلى ايديك اسلمت ولله تايبا

وقد تتعدد المحاورات فى قصيدة واحدة على حد ما نجد فى «الخصام بين عشر جوار» لابن داوود ، وهى عبارة عن خمس محاورات ثنائية تدور بين البيضاء والسمراء ، والطويلة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة ، والحضرية والبدوية ، والشابة والعجوز . وهى فى الواقع مجموعة محاورات مستقلة لايخرج الحوار فيها من الثنائية الى نطاق واسع تتعدد فيه الاطراف كما يتبادر من التسمية

تبدأ البيضاء فتفخر بأن لونها كالعاج وجسمها كقطعة قطن فى يد النساج وبأن بين البياض والسواد مثل ما بين الليل والنهار ، والوسخ والنظافة ، وبأن السواد شبيه بالقار :

لونى ابيض اكما العاج ■ بدنى اكما القطن بيدين انساج

بين لبياض وبين لسواد ادراج ■ مثل النهار والداج

. . .

انظر تفكرتك فالثوب المجلوب ■ صاحب لبياض محبوب

وما السواد من راد يتنقى ■ باطل كذاك يشقى

. . .

وانت لونك يحكى للقار ■ وادنيت (I) ياسودا تعاندينى

فتجيبها السمراء بأن لونها كلون الخمر فى الزجاج وكماء الذهب يكتب

I) جرؤت

به التاج ، أما العاج فليست تنقش به غير القباقب ، وفى البياض خمسة كلها بارد وثقيل هى الملح والجير والرخام والعاج والقداد (1) ، تداس مبخوسة الثمن بالاقدام ، وليس يسام غاليا غير الاسمر كالعسل والمدام والمسك والعنبر والتبر والبرهمان ، ولولا السواد فى العين مانظرت الى الدنيا

يشرق اكما الخمر فى قطعان الزاج ■ نسما وطيبا واعلاج
وبماء الذهب كيتكتب التاج ■ ونقش لقباقب العاج
ماريت افلبياض سوى خمسا ■ معروفين بالثقل ولبراد
ملح وجير به تكسا ■ وارخام وعاج فالبياض اقداد
مبخوسين او قلها بخسا ■ تحت لقدام ايجرعوا النكاد

وارفاعت لسوام ❀ تعرف للاسمر
شهد لعسل وامدام ❀ والمسك والعنبر
والتبر حين يغنام ❀ والبرهمان لحمر

. . .

لولا السواد فالعين ■ ماترمقى الدنيا

وتفخر السمينة بأنها ان جلست اشبهت جيشا وان مشت تبخترت كمركب محمل موسوق ، جمالها شحمها والشحم معشوق ، لاتحتاج الى رداء او كساء ، ولحم السمين لذيذ فى حين ان لحم الهزيل مذموم مردود ليس غير عظام وجلود . وأما النحيفة فكالقطة يبيت زوجها فى قنط وهم ونكد كانه يغسل الموتى لايلمس غير العظام والجلود ، وهى تستغرب له كيف ينال منها مقصوده :

نمشى مثل المركب الموسوق ■ ويذا نجلس كنى امحلا
زينى شحمى والشحم معشوق ■ مانحتاج اردا اولا اجلا (2)
لحم السمين ملذوذ ■ واما لهزيل مردود
مارج اعظام واجلود
وانت يارقيقا مثل القطا ■ زوجك انراه افقنطا

---

1) لم يتضح لنا معنى هذه الكلمة
2) الكساء

ايبات فـــي مرتـــا ۞ هايم اهميم منكـــود

يغســـل الــمـــوتـــى ۞ يلمس اعظام وجلـــود

عجبني وكيـــف حتى ۞ يبلغ امـــعـــاك مقصود

فترد النحيفة بأنه شتان مابين الغزالة والناقة ، وبأن السيف لـــولا رقته ماقطع ، وبأنها لطيفة ظريفة الطبع . أما السمينة فلاطعم لها ، يكفى أن يعرق جسمها قليلا ليحمض :

كان هى لغزالا تشبه الـجـمـــلا ■ او افلحضـــور اتـــجـــلا

. . .

وامـــن الرقـــا السيف كا يقطـــع ■ ويشطر كل من صادف بدنـــو

مـــنـــى هـيـــا اللطافـــــا ■ والـطـبـع والـظـرافـــــا

ياصاحبت لـغـلافـــا

وانـــت بـــاسلا تشـــبـــه للزقـــا ■ تـحـمـــاض ابـقـــل عـــرقـــا

وتفخر الطويلة بقدها الذى يغار منه البند والرمح ، وتشبـــه القصيرة بكيس كالسلحفاة الملتصقة بارض او القردة تتدحرج فى مشيها ، وتستشهد بما يقال من أن الكامل الوافى فى الناس لايغدر وأن الناقص مستعد للغدر وأن الكامل من الثياب يستر والناقص يكشف العورة :

نطقت الطويلا قالت بالشـــــدا ■ مـــثـــلى ايصـــول بـــالـــقـــد

مـــنـــى ايغير بين القامات البـــنـــد ■ والـــرمح كـــيـــف يـــنـــحـــد

. . .

ومـــانـــت ياقصـــيـــرا خـــنـــشـــا ■ مثل الفكرون فالتراب يحبو

فمشـــيـــك اتـــــدردب ■ كـــنـــك قـــــردا

اسمع قـــول الناس واستعـــبـــر ■ واتأمـــل فيه انخبرك خـــبـــرا

الـــوافـــى فالناس مـــا يـــغـــدر ■ والناقص تزيـــان لو الـــغـــدرا

والوافى فالـــثـــيـــاب كيستر ■ واللى ناقص يكشف الـــعـــورا

فترد القصيرة تشبه قامة محاورتها بقامة الـــزرافـــة وبـــأنها تدور كالمروحة حين تهب الريح ، وتفخر عليها بأن السهم على قصره يذهب ابعد من الرمح ، وبأنها لاتكلف زوجها كثيرا فى المآكل والملبس فيبيت فرحا ،

وبأن في القصر النقاء والطلاوة والذكاء وخفة الطبع ، وبـأن الطويلة سرعان مايصيبها الحدب :

بالريح كاتدور مثل الرفرافـا ■ ياقامت الزرافـــــا
السهم شبر هـــدى ■ حصلات كيودى
اعـلى الرمـح كيعدى

أنا فاكلى واكسوتـى نـرفـق ■ بالراجل وانبيتو فرحان
لقصـر فيه انـقـاوا ■ والطبع والذكـاوا
بـانـت اعليه اطـلاوا

وتفخر المدنية على البدوية بأنها ليست مثلها تدير الرحى وتنام عـلى التبن وتخرج للقطف فى الصيف وتمخض اللبن ، وتعيرها بـأن الـعـرب مكشوفون دائمو العذاب والشقاء ، وتفخر عليها بأداء الصلاة واقامة مختلف شعائر الدين وبنقاء الثياب وستر الوجوه :

مانطحن ارحـى ما انبات فـاغبن ■ مـانـرقـد اعلـى اتـبـن
مانحترقـو فالصـيـف باللقطـا ■ ماندحاو امع امخيض شكـوات

. . .

لـعـرب مكشوفـيـن ■ فاشقا اكثير واعذاب
واحنا الصـلا والديـن ■ وانـقـاوت لثـيـاب
بـوجـوه مستوريـن ■ عـن لعيون فـاحجاب

وتجيب البدوية بـأن جمالها معروف يشار اليه لايحتاج الى لثام او سراويل ، يشرق جسمها كالياقوت أو الذهب ، وهى ليست كمعيرتها صفراء توشك أن تموت شبيهة بأعشاب الظل سرعان ماتذبل حين تهب الريح . ثم ان سكان البادية يقضون اوقاتـهـم فى الصيد والحفلات ، يعـمـرون الخلوات ويؤمنون الخائف . ومـن راح ضيفا عندهم لابـد وأن يبيـت ، يتنافسون فى الفروسية واقتناء الذهب والخيول ولايعرفون غـيـر السخاء والاحسان والكرم والصدق :

العربيا زيـنـهـا مـنـعـوت ■ ماتحتاج الثام اولا اسراول
وابدنها يشرق اكما الياقـوت ■ او الذهـب النايـر الشعال

واما انت يالصفرا قربت اتموت ■ اربيع الظل ابلهوا يـذبـال

. . .

بالصيد والفرجـات ■ كنقطعو الازمـــان

وانعمرو الخلـوات ■ وانأمنو الخوفـان

واللي ايروح ايبات ■ من ساير الضيفان

نتعاند عـل الكادا والمـركوب ■ والـذهـب فـوق لركـوب

والسخا ولحسان ولكرام وصدقا ■ نزلـوا جـمـيـع رفـقـا

وتفخر العجوز على الشابة بأنها لم تعد تلد فأراحت نفسها وزوجهـا من هم الرضاع وبكاء الصغار ، طعمها لذيذ يشتهيه الـذوق شبيها بطعـم التين الذي لايحلو الا بعد يبسه ، ثم ان القادة والفرسان لايركبون الجذع الصغير ويفضلون عليه الفرس المكتملة يذهبون بها للمبيت في أي مكان :

اقطعت الـولـدا واتهنـيـت ■ واتهنا زوجي وصبت امناي

مانكسب غير الزبون فالبيـت ■ مـاعندي مصاص ولا زواي

. . .

طعـمـي الذيذ وابنين ■ للـذوق فيه شهـوا

. . .

ماكتراشي (I) التـيـن ■ يـحـلا اذا يـلـــوا

. . .

القدوات اضراغـــم الفرسان ■ افرسنان الحرب والحملات

ماقط ارضوا يركبوا الجدعان ■ قالوا لك فامثالـهـم كلمات

اركـب كارح ايبيتك فـرحان ■ لاين ماعولت بـه اتـبـات

فتجيبها الشابة معيرة اياها بالتجاعيد ، تدعوهـا للنظر فـي عينـي واسنان كل منهما ، وفي جيدها الذي تغار منه الغزالة ، والوجـه المضيء والجبين الوضاح وثغرها الشبيه بالشهد وريقها الشبيه بمدام معســول ، أما العجوز فان طبعها شرس نخر وكذلك قولها والفعل ، كـمـا أن الســم يخالط جسمها ، وريقها مهلك ، ثم ان الناس لايمدحون غير الفتى الصغير سواء في نبات أو مأكول ، أما غيره فيحطب وتوقد به النار ، ومعروف ان

I) الاترين

العجائز لايدخلن الجنة (I) ؛ وان الكبر مذلة ومرض اولى منه القبر ، وليس يحمد الكبر فى غير الدنانير :

قالت لها الصغيرا كيف اتشبهنى ■ بـاكـمـا شـك المتنى
انظر اترا العينك وانظر العينى■ وانظر اترالسمنك وانظر السنى
. . . .
والجيد منو غارت الـرشـا ■ والوجه ايلوح ولجبين اصباح
والمـرشـف شاهـد ويغشى ■ والريق امدام فى اعسل لجباح
طبعك اقـبـيـح امسوس ■ تولك امع افعلك
. . . .
السم فـيـك مـدسـوس■ ريـقـك كيهـلـك
. . . .
اجميع ماهو افتى مشـكـور ■ فاجميع انبات الارض والمأكول
فالـقـاح الارض كلها واشجـور ■ كل فتى منها ايصول وايقول
والشارف يـحـطـب بالشاقـور ■ يصلاح للنار اشهير معقول
واللى اعـجـوز قـطـعـى ■ ماتـدخـل للجنا
لـكـبـر فـيـه امـذلا ■ ومرض ابغير علا
لـقـبـر بـــه اولى
. . . .
ماهو لكبير امليح الا فالمضروب ■ مسكـوك امـوهـوب

مـلاحـظـة :

بلغ ولوع الشاعر الشعبى بفن الخصام انه لم يقصره على الاشخاص وانما تخيله فى النبات والحيوان والجماد وبعض مظاهر الكون . وقد سبق أن عرضنا لخصام بين الورود والازهار (2) ، ونـريد ان نـقـف قليلا عند ألوان الخصام الاخرى

فمن الخصام بين الطيور مايقدمه محمد بن على المسفيوى فى البستان حيث يعرض لمحاورة بين أم الحسن والكنار . فأم الحسن تتهم الكنار بأنه

I) اشارة للحديث النبوى الشريف «اما علمت ان العجائز لايدخلن الجنة» يعنى انهن يدخلنها شابات

2) انظر الفصل الاول من هذا الباب

يحسدها لجمالها ويعيرها بين الطيور ، وبأن محاولاتــه فى التقرب اليها لن تجديه ، وسيظل جسمه يحترق بنار الاكدار تبدو آثارهــا عــلى وجهه الذابل المصفر من هجره لوطنه ، فقد أصابــه الغرور وحضر الى بلدهـــا يسعى الى المجد ولكنه لم يدركه ، وهو شقى أسير مقصوص الجناح مسقوم الذات ، ومع ذلك يريد ان يبرز عليها ويتفوق :

ابغضمتنى واشمتنى بالعار من لطيور

ليس انفعتك فى امحبتى تحزار

مــكــواك فــى جسمك نـــار

ومـــن لـــكـــدار

عن جسمك لون الضنا ولصفرار

ومـــن لـــغـــرور

جيت لبلادى ولا دركت شان

ولا عــمــرت بــك اوطـــان

فـــى كـــل آن

تصفار وتدبال ابلهجر يرقان

. . . .

طول ايامك افلشقا امع السجان

أسير عـــــادم الجنحان

حـــتـــى لـــبـــدان

مسقوما وانت اتعول يا ولهان

عــنــى اتـــران

ويجيبها الكنار بأنه يعذر فى حاله لان العشق وهــوى الفاتنات هما سبب الهموم الساكنة فــى جسمه ، فقد اتى بــه صغيرا مــن بــلاد العجم وأدرك مقاما رفيعا لترنمه بالانغام فى أوقات السرور والهناء ، حيث يتصدر مجالس الانس كالسلطان تحيط به الفاتنات والفتيان ، يهديهم الحـنــان ويرحبون بأنغامه المتفننة :

دار لهموم لوكان اتعرفى الساكنا افلجسام

فـامصايب لعشق واغـــرام

بـهـوى الـــريـام

اتعذرى حالى اولا تزيد اكلام

لـــيـــا اتـــروم

جابونى ونا صغير من لعجام

وادركت اعلو وامقام

طـــول الـــدوام

كانلاغى وقت لهنا ابكل انغام

ولا انـــــــام

. . . .

تلقانى وسط لبساط كالسلطان

بين الـــريـــام وشبان

نـهـدى احـــنـــان

واكذاك فى شغلى ابغيت اليتقان

قـالـوا اهـــلان

وتنطق ام الحســن بعد هــذا تعيره بـأن قلبه فــى حريق وضيق ، ولــم يجد من رفاقه من يشفق عليه ، أخذ بحيلة وسجن وعزل عنوطنه ، لاصديق له بين الطيور ، هائم فى قفصه دائم الظمأ والجوع متغير الالوان

قلبك امن اجفاك احريق

وانـت افضـــيـــق

ويحك ما صبت اليوم قلب اشفيق

بـيـن الـرفـــاق

سجنوك ابحيلا اولا ايليك تدريق

مالك فالطيور اصديق

ولا ارفـــيـــق

عن وطنك معزول ماتعرف اطريق

. . . .

وانت ياعجمى اعلى لبدا ظمآن

بـالـجـوع انحيف عـيـان

واعلى اللوان تختلف وانت افلقفص هيمان

وسط لـعـفـان

ويرد الكنار معيرا محاورته بأن وجهها أسود كقلبها ، تخرج فـي الليل شبيهة بالجان :

وجهك اكحل ابحال قلبك

وايلا ايبان الليل تخرج انت من لغطان

امـثـيـل جـان

ثم يتدخل السمريس ويصلح بينهما ذات البين

ومن الخصام بين الجمادات ماذهب اليه خيال الحاج محمد بـن عمر المراكشى حيث تمثل حوارا بين القلة والغراف فى قصيدته التى يقول فى حربتها :

الخصام اكثير أفاهمين توضح شلا يوصف ■ والكلا والغراف ■ داروا باتنين الخصومـا

باتوا فالمعيار ماارتاوا اولا هم قصصروا

وفيها يقول على لسان الغراف يعير القلة دون خوف بأنها غدت زائدة لايحتاج اليها بعد ان استغنى الناس عنها بالخوابى التى تملا بالمـاء وتبخر بالعود ، وهى لم تشاهد الركوات المختلفة الاصناف تحمل فى همة وشأن متبخترة على البغال لتملا وقد وقف عندها الحراس :

نسمع فالغراف ■ قال فاجوابو ولا خاف ■ للكلا فالتعناف

شيطـت يـامـدمـومـا

لخوابى بالمـا كايعمرو ■ بالعود اتبخرو ■ ماشفت ركـوا اولا انـظـرت عمرك وقـاف

عـنـدو ركـوات اصـنـاف

دركوا هما واحكوما ■ دايم عل لبغال كيعمرو ■ بالما يتبخترو

وترد القلة بأنه اولى بالغراف أن يخجل وقـد استغنى الناس عـنـه

بغراريف الخزف والبلور الجديدة (1) المحيرة ، تشتهى العين ان تراهـــا زينة فى الدور الكبيرة تقدم فى المناسبات . أما الغراريف مثله فملقاة فى المطابخ شظايا معيفة :

جاوبت الكلا اسريع قالت هذا الغراف ■ من شيط ياعراف ■ مــاجــاتوشى احشومـــا

ماشاف اغرارف ادلبديع وبـــلار ايحيرو

اعشاقا مهما اتشوفهم فيهم مايتشاف ■ موجود غير الناف (2) عـــنـــد الكبرا مفهومـــا

فى ساعت لفراح بستا (3) حاشا مايتوخرو

وابحالك سرمى افلكشماش مابين اشقاف ■ اشظايا حين اتعاف ■ طـــارت منو شاقوما

تركوه استغناو ابـــلـــغـــرارف الا يتغيرو

ومن أروع الخصام بين مظاهر الكون مايتحفنا به العيساوى الفلوس فى قصيدة «النجمة» التى تصور الصراع (4) عليها بين الليـــل والنهار ، يقول فى حربتها :

سمعوا باحضار ماجرا للضى البهيم

عن حسن النجما اتحاربو فى ساير لاكام

وانصار الضى وحـــازهـــا الرسمو وانزاح اللوم

وهى فى الحقيقة قصيدة رمز الشاعر فيها بالنجمة للحريـــة وبالليل للاستعمار وبالنهار للوطن . فقد اشتد حزن الليل وبكاؤه وأنينه وطـــال به السهر ، وسأله قومه عن سبب حاله فأجابهم بأنه اختفاء النجمة وهجرها

---

1) المقصود فى المحاورة الغراف المصنوع من الفخار

2) الكلمة من الدخيل الفرنسى ، بمعنى جديد

3) بمعنى زينة وهى من الدخيل

4) سبق أن رأينا فى الفصل السابق ألوانا من الصراع بين بعض مظاهر الكون وخاصة بين الليل والنهار ولكنه لم يكن فيه خصام وحـــوار كهذا الذى نمثل به

له ، واستغربوا لذلك وقد ضم تحت اجنحته كل النجوم وطلبوا منه اسمها ونعتها فرد عليهم بأنها الحرية لاتخفى ، يريد أن يذهب اليها فى أى أرض أو بحر تكون ، فقالوا له انها كانت من قبل فى القيروان :

والليل أقرا حزنو من الجفنى ■ كيهدر ويزيم ■ قالوالو نـاسو اشبيك خبرنا يالهـمـام

قــال لهم النجما اخـفـات عنى ■ واهجـرت الـنـوم

قالوا لـو جمع الـنـجـوم ■ تحت اجناحك لفحيم

واتقول النجما اخفات لك ياصاحب لحكام

ورالنا سمها ونعتها لاتبـقـى مهموم

قال الحريا ابلا اخفا سماها لعظيم

فاشمس ارض اتكون اولمافا بحور رسام

قالوا فالقيروان قاطنا كانـت قبل اليوم

وذهب مسرعا الى القيروان وسائر بلاد تونس فلم يعثر لها على اثر ، وبعث جواسيسه يبحثون عنها فى كل مكان ، وطالت به السنون ينتظـر وهو مهموم حزين . ثم جاءه الخبر بانها فى حوزة النهار حيث يوجد سلطان فى المغرب يمتطى جوادا ملجما مستعدا بجيشه للقتال . فتاقت لها نفسه وهيأ جيشه كذلك ، وكانت مقابلة كاد فيها سلطان النهار ان يأتى على الليل بسيفه ، وخاطبه بأن طالب الحرية ينبغى ان يكون فارسا مقداما وانه هـو صاحبها منذ اليوم :

جاو الجساس جمع قالوا لو يالغريم * جبنا خبر النجما انتيا فارس ضرغام

حاجبها مير الضيا افرسمو وانت مغموم

اوجدنا سلطان فالضيا دون شكا فالغرب امكيم *

وجندو للحرب واجدا بالرمـاح ولحسـام

واهمام الضى اشجيع عن اجوادو امسرج ملجـوم

قال الـداج ابغيـر توقار * لا بد ما نحور النجما بسقارو

أوطال الحرب افليل وانهار * عندىاجنود هما للحرب اصهار

قام الضى ابسيف بتـــار * واهوا على الداج كاد يقطع اتارو

واخرج سلطان الضى للوغى ندا يا لبهيم *

من راد الحريا ايكون فارس حـربى زطـام

انا مول النجما اليوم ولا من بعد اليـــوم

ورضى الليل بالهزيمة وسلم أمر النجمة للنهار الذى عفا عنه وامره بالرحيل ، ولكن الليل امهله ورجاه أن يكون له عبدا يخدمه فى كل شىء ، فوافقه النهار ، على أن تعقد بينهما شروط تحدد مدة اقامته وتعود علـى البلد بالخير (I) :

انطق الداج وقال للضى انا لك اخديم * وانتظم لحوال كلها كعادت لغلام

أمر بجميع ما تريد انفعلو محتوم

وادوا الضى وقال للدجا هذا الامر الزيم *

خبرنى لصلاح ارضنا شيقدك من عـام

قال هك هـــوام ياما بالشرط المبروم

ولكن الليل لم يلبث ان تنكر للاتفاق وغدا يحشد جيوشه ويقـوى مركزه فى الساحل والداخل ويكسب له اعوانا يتقوى بهم ، فما كان من سلطان النهار الا أن ارسل له كتابا يستفسره عن هذه الحشود ، فأجاب الليل بانه يسعى بكامل استعداده لحيازة النجمة التى طالما بحث عنهـا ولاقى الهموم والاهوال فى سبيلها ، ورد النهار بان نجم الحرية فى أرضه منذ الف عام كما يشهد التاريخ :

احرك الليل وجا على لبحر كيرحل ويقيم *
وانزل فالساحل كيف ماذكرت وزاد القدام
واعمل صدقان احداه واصبح شملو ملموم *

واخرج سلطان الضى فى امحال كفجر ابسيم
وارسل للداج اكتاب بالصواب وحسن لنقام *
قالوا شتريد افأرضنا لاش اجمعتى د القـوم

وادوا لبهيم وقال جيت للنجما بالتقويــم *
هذى مدا جوال عنهـا فالعـرب وعجـام
واحجبتها عنى وحبهـا خـلانى مهمـوم *

I) اشارة الى عقد الحماية المبرم مع فرنسا سنة 1912

خبرنا بالنجما الي اعشقتي حتى نفهـام *
وانطق سلطان انضى للدجا قالوا يالئيـم
قال الحريا اغرامها فى قلبـي مرسـوم

قال اهمام الضى للدجا ياك الكذب اذميم *
نجم الحريا افأرضنا هـذى الف عـام
طالع لتاريخ الغرب شاهد اعلينـا كم ارسوم *

وهيأت الظروف لليل فحكم بسلطانه البلاد مستوليا على خيراتهـا طاغيا ومتجبرا ، يقتل ويسجن ويطرد ويشرد ، واحس النهار بقومه ثابتين واعين لقضيتهم فدعاهم الى ضرورة الاستعداد للانتقام وتخليص البلاد من الليل الخائن ، فاستجابوا ، طائعين لاوامره واعتبروا انفسهم حماة الشعب مستعدين للتضحية بالارواح . واعترف لهم سلطان النهار بهذه الشجاعة المعهودة فيهم يوم البراز . ولكنه نصحهم بان ينهضوا للتعليم وان يطيعوا رأى زعيمهم :

فاق اهمام الضى بالدجا خوان امن اقديـم
واثبت اليخلاص امن اقوامو وافجا لغيـام
واعرف ما دار الدجا من مكر للـه مضيـوم

واخرج من لحجاب للكباح امحزم تحزيـم
شار اعلى قومو الخالصين ايشدو لحـزام
بلسان الحال ادوا وقال لهم اليـوم اليـوم

. . .

قالوا قوم الضى لاخفا قولك قـول احكيـم
احنا لك ارعيا ابلا اشر الركابك خـدام
أمرنا واتشـوف منـا ما يفجى لهمـوم

نحن حماة الشعب دون شك خادم واخديـم
نحن لشبال اشهود عندنا فالتاريخ العـام
ليس انبخلو بروحنا اعلى ذا الشعب المضيوم

قال اهمام الضمى للرعيـــا بلسان احليـــم
ندريكم افساعت لوغـامـــا تخشـــاو آلام
انتم المخلصين امن الصبا مانا جاحدكــــوم

لكن خذوا وصيتـــي نهضوا للتعليـــــم
تبعوا رأى الزعيم صاحب الفكــــر واهتمـام
هذى روحي وأرواحكم هذا العارف يا قـوم



الفصل الرابع

في

حمى الله والرسول

ليس غريبـــا والشعر الشعبى مـرآة تنعكس عليها نفس منشئيـه ومردديه ، وان فى غير وضوح وصفاء ، وليس غريبا كذلك وهذا الشعريقوم بوظيفة ــ ولو محدودة ــ فى نطاق التوعية الروحية والتعبير عــن شعـور الجماهير الدينى ، أن تكون المدائح النبوية والتوسلات من أغنى الموضوعات التى شغلت ذهن الزجال المغربى وملأت قلبه وعقله . فافاض فى القول كاشفـا عن خالص حبه للرسول عليه السلام ، مادحا ومصليا ومتوسلا ، ليس له مـن غاية غير زيارة قبره والتملى بمشاهدة نوره عساه يكسب عطفه وينال شفاعتـه ويحشر فى زمرته يوم القيامة .

وقد سبق أن رأينا فى أول الفصل السابـق أن الشاعـر الشعبـى ابتعد عن فن المدح الا ما كان منه فى الرسول عليه السلام فانه انطلق فيه ، الى حدان تسمية المدح أو «المداحى» لا تعنـى عنده غـــير المديح النبـوى .

ولم يكتف الشاعر الشعبى بارتضاء القول فى المديح النبوى ، وانمـا جعل منه فنا قائم الكيان ناضج الصور مكتمل الخصائص ، تناول فيه سيرة الرسول بما فيها من صفات وشمائل ومعجزات ، عرض قصصها فى قصائـد أطلق عليها المعراج و «الخلوق» اى ميلاد الرسول ، و «الوفاة» يعنى وفاتـه عليه السلام . وقد يتناولها عرضا فى قصائد التوسل والقصائد التى سماهـا « هول القيامة » حيث يتحدث عن شفاعة الرسول فى أمته ، وفى قصائد الحنين الى البقاع المقدسة والشوق لزيارتها ، وهى قصائد يمتـــزج فيها ذكر هذه الاماكن بالحديث عن الحب والوجد . كذلك غدا التوسل غرضا مستقلا مقصودا لذاته مستوية معانيه ، وان اتى عرضا فى قصائد المديح .

وكما حبذ مدح النبى فكذلك حبذ مدح ابنتــه فاطمة وحفيديه الحسن والحسين ومدح الاولياء والصالحين تبركا بمقاماتهم وكرامتهم وتوسـلا بها الى الله .

وكانت المواسم الدينية ـ وخاصة ذكرى المولد النبــوى والموالــد الطرقية ـ أعظم مناسبة لانشاد هذه القصائد . وكان ضريح سيدى فرج بفاس ، منذ منتصف القرن العاشر (1) حتى اليوم ، من اهــم ملتقيــات حفاظ الملحون فى ذكرى مولد الرسول ، تسرد (2) فيه القصائد التى تحكــى قصة السيرة وخاصة منها المطولات التى يندر تداولها ويقل اقبال الناس عليها ، والغالب ألا تلقى فى هذا المحفل غير قصائد كبار الاشياخ أمثـال المغراوى والنجار وابن على وغيرهم من أعلام الفن .

حب الــرسول

عبر الشاعر الشعبى عن حبه الصادق للرســول ، فبدت فى تعبيره بعض سمات الحب المعروفة فى شعر الغزل كالفراق والهجر والحنين والبكاء، تعلوها مسحة من روحية المعنى وسمو العاطفة ، وتتخللها بعض الانفعالات والمواجيد البسيطة الساذجة .

فحب الرسول عند النجار علاج للقلب لا يستطيــع طبيب أن يداوى بغــيره :

يـا مسعدنا به حب للقلب * اعلاج لا امداوى من غير ادواه

اشتعلت نار غرامه واتقدت فى صميم مهجته فلا يطفيها موج البحـر الزاخر لو فاض ، وبكت عينه من الشوق حتى رسمت دموعه سطريــن على الخد ، وغاب النوم عن عينه فى كل وقت ولم يعد يستطيع الاكل من السقم والهيام ، وهو يطلب ممن كواهم الشوق مثله ان يعذروه ، ويرجو أن يمنح نظرة فى الرسول نور الحق السامى لانه علاج دائه :

شعلت نار اغرامــى * واكمات فى اصميم امهاجى قبل الصيام
موج البحـر الطامى * لو فاض لاطفاها بالداجل والديــام

---

1) انظر الفصل الاول من الباب الثالث لدى تعليق على قصيدة ابن عبود المعروفة بـ «الحربى» .

2) انظر الفرق بين السرد «السرادة» والانشاد فى المدخل .

واكتب دمع انيامي * سطرين فوق سحن (1) الوجن لهل لملام

بعد اجفيت امنامي * فالضي ولغياهب واضحى قوتي اصيام

عدروني فهيامي * امن الكواو كيفي واكماو اعلى السقام

نرجا طب اسقامي * وانمتع النظر وانفوز بطيب لمرام

نور الحق السامي * صلى اعليه ربي وعلى آلو اكرام

وابن على في « جل الصلا مهديا » يعشق الرسول ومقامه منذ صباه، ولكن البعد يكيد له ، فهو في حالة يرثى لها من شدة السهر ، وقد حطم الفراق جسمه وأوهن قلبه ، وفاضت دموعه حتى ان غـرفة منها تفوق الامطار . وعبثا حاول أن يخفي هواه ، فان عليه شواهد تكشف عن اسراره الدفينة ، اذ لا ينفع في الهوى كتمان . وعرف أهل الغرام داءه ، ولكن لا علاج له غير زيارة كنز غناه ومنبع سروره وسلواه :

عشقي امن الصبا فمقامو والبعد كد لي والبيـن

لحال حالتي مدالي نسرعى اكواكب الديجان

هد لفراق ديوان اسياري ولخبير (2) صار اوهين

غرفا امن ابحور ادموعي ولا اعوارض من امزان (3)

اشحال ما خفيت اهوايا والبين افلمهاج اكنين

خبرو اشواهدي بسراري ما فاد افلهوا كتمان

وهل لغرام عرفوا ديا مالي اطبيب فالبرين

الا اوصول كنز اغنيا هـو السرور والسلوان

ويعبر ابن الوليد عن حبه للرسول بأن فيه عز روحه وهواه :

آه اعلى بهـواك * يامن روحي فهواك عزهـا واهـواها

وقد تمكن الغرام من كبده وسكن الحب جسمه ، وهو حب خفي ، ولكن مرضاه كثيرون ، اصابه فشقيت أعضاؤه وحرمت عيناه النوم ، يقضي

---

1) في الفصحى : السحنة بفتحتين بمعنى الهيئة .

2) الاسيار الدواخل والخبير القلب .

3) اعوارض امن امزان اي سحب ممطرة ، وهي كذلك في الفصحى اذ العوارض ج عارض وهو السحاب الذي يعترض في الافق ، أما امزان فجمع مزنة وهي السحابة البيضاء او المطرة .

ليله من الاشواق فى مصارعة الافكار والهواجس ، عيناه ترفرفان وجوارح قلبه ترجو الوصال :

وانت اللى اغرامك دك اطنابو اعلى اكبادى
والحب ولمحبـــا ساكـــن لعضـــا
واخفــا وكثـــرت المـــرضـــى
صعـــن واحـــرمـت الغمضـــا
اشـــاق لعضـــا
وانبات امن اشواقى فالداج نصرع لعزايم
والغير فى امنامو متهنى كيبـــات نايـــم
عينـــى اتبـــات رفـــرافـــا
واجوارحى وقلبى ترجا لوصال ليل وانهار

والحراق يخاطب محب الرسول ان يغنى فيه اذا اراد أن يتـم لـه الوصال ، ويشهد نور الحضرة المحمدية ، ويرقى سعده على جميع الاكوان حتى يغنيه عنها بنظرة واحدة . فمن كان هذا الحبيب نصيبه فهو يشفى من كل الاسقام والاضرار ، وتشرق شموسه واقماره وتأتيه البشائر فى كل وقت وحين :

يامن ابغى اوصال احبيبو * افنـــا اتشوف نور الحضرا
وارقى على لكـــوان اتصيبو * يغنيـــك عنهـم ابنظـــرا
من كـان ذا لحبيب انصيبو * من كـــل باس حالو يبـــرا
تشرق افلقلوب اشموسو واقمارو * واتجيه افكل وقت ابشـــارا

اما الغرابلى فيشقى عقله من الحب ويشتعل جمره فى ذاته ، ولـو فاض موج البحر لما اطفأ نار اشواقه . من ذاق طعم الهوى ينصفه ومـن لم يذق لا يعذر ، ليس به غير حب الهادى ضوء عينيـــه ، فهو يتمنـى أن ينظر اليــه :

آه اعلى بلحب عقلى شـــاق * واجمار البين اكدات فسفاقى (1)
ألو فاض ابموجو بحر دفـــاق * محـــال ايبرد نار لشـــواقى
ما يعذرنى فهوى من لا ذاق * واللى ذاقوا يعطوا تحقـــاقـى
بيا حب الهادى ضى لرماق * هـــل نظـــرا فيهاه برماقى

---

1) اتقدت فى دواخله .

وعنده ان حب الرسول ملك الروح والعقـــل والاحشاء والاكباد ، وترك عيونه ساهرة ودموعه سائلة ، وليس يتمنى الا أن ينال غاية مراده ويرتاح مزاجه المكدر ، وهو مملوك يريد ان يكون في كنف سيده حتـى يعيش في رغد وهناء ، بل انه يهرب من أخطائه يريد اللجوء الى حماه كما تفر من اعدائها العيس والغزلان :

حبك املك الروح ولعقل واحشايا واكبادى * وانجالى (I) بدموع ساهدا
هل يا مدرا انال بها غايت امرادى * وترتيح اخلاكى الناكـدا
آش ايلا المملوك دون سيدو فحماه ايفادى * و ينال العيشا الراغـدا
اهروبى لحماك امن اخطايا ما هرب الشادى * والعيس اللى ظلمت لعـــدا

واما الفلوس فحب الرسول عنده فرض على المسلمين دائـم باق ، به يروق أهل الايمان ، وهو رونقه وحلته المنمقة ، وهو يقوى شوقه ويروى المشتاقين ، بل ان حبه كان سابقا لوجوده مسجلا في صحيفته بقلم القدر . ويرى أن كل من لا يملا قلبه حب الرسول فهو عامى الابصار غارق الذات في بحر اللهو ، هائمفى الشقاء ، تمزق ريحه أعضاءه :

حبك فليسلام فرض باقى عن كل اخلاقى * بـــه هـل ليمان رايقـا
حبك يا عين لوجود عندى هـــو روناقـى * واحلول اكساتى امنمقا

. . .

حبك يا سلطان كـــل تقى قوى تشواقى * به اروات اقوام شايقـــا
ونا قبل انكون كان حبك سابق فوراقى * بقلام القدرا الصادقـا
قلب الا سكنو اهواك باقى عامى لرماقى * داتو عل ليام غـارقا
فلجوج اللهو لقصيف حتى هام افلشقاقى * واعضـاه ابريحو امزقا

اوصاف الرسول وشمـــائله

وانطلاقا من هذا الحب الصادق العميق غدا الشاعر الشعبي يستعرض أوصاف الرسول صلوات الله عليه يقتبسها من شمائله وخصائصه المعروفة. فهو عند الحاج اعمارة غاية الجمال الهاشمي القرشي المدني ، حبيب الله ،

I) العيون وأصلها في الفصحى من النجل بفتحتين سعة شقة العين.

وقرة الابصار ، وعين الهدى الهادى ، ومصباح الانصار ، وعين الرحمة ، وسيد السحرين :

زين الزين الهاشمى القرشى محبوب البارى

المــــدنى قــــرت لبصـــــار

محمد عين لهدا مصباح انصارو

عين الرحما سيـــــد امـــن اسرا

وهو عند المغراوى فى « عين الرحمة » سيد الرجال المصطفى صاحب الشفاعة والخاتم :

ازغرتى ازغرتى (I) اعلى المصطفى سيد الرجـال

عـــين الرحمـــــا صاحب الشفاعا والخاتم طه

وهو جميل الملامح مشرق الانوار ، المخصوص بغاية الكرامة ، جعله الله رفعة وشأنا وبعثه رحمة :

هذا عرس اضيافت النبى محمد زين لحروف صلى الله عليه

لازم اعلينا انجمدو اسم القيـــوم ابديع لكـــوان

وانصلـــو اعلى الرسول شارق لنـــوار انبينــــا

المخصوص ابغايت لكـــرام جعلو رفعـــا وشـان

من بعثو رحما اوجاد مــــن فضلو بـــه اعلينا

وهو تاج المرسلين وخاتم الانبياء الكرام ، قدره كبير لــــم يحصر وصفه اكبر العلماء ، سبحان من خلق صورته وكساه الحسن والكمال ، ومنحه الحرمة وعلا درجته الرفيعة . والنظرة الى جماله لا تفدى بمال ، وكل من عشق غيره لم يجن غير الهول واللهو :

من مدحو يدخل تحت ظلو يوم القياما

لنو تاج المرسلين وانهايت لنبيا لكرام

قدرو اكبير ما تنهى وصفـــو عـــلاما

سبحان من اخلق صورتو واكساه بلحسن الكمال

اعطـــاه الحـــرمـــا

I) زغردى (انظر آخر نص بهذا الفصل) .

ادرجتـــو العليـــا عـلاهـــا

نظرا للعشاق فى اجمالو ما تقديها امــــال

هول راسو كل امن اعشق غيرو كيتـــلاها

وهو عند النجار سيد الدنيا ووجيهها ، صاحب المعراج وخير الاولين والآخرين ، ليس يشابهه أحد :

والغدار اجفيه واعلم سيد الدنيا اوجهها من لا حد سواه

طـه مول المعراج خير من ياتو واللى فـــاتـو

انه المفضل طه خير الانام :

نحسن به اختامى * محمد لمفضل طـــه خير الانـام

لا مثيل لجماله ، ومادحه لا يخيب ولا يهمل غزله :

حسنو مالو ثانى * حاشا ايخيب مداحو غزلو ما يبور

وعند النجار كذلك انه صاحب التاج واللواء والخاتم ، وانه سيـــد الابرار ومشرق الانوار :

لمفضل سيد لبـرار * طـــه شـــارق لنـــوار

صلــوا ء لى المختار * محمد مول التاج واللوا والخاتـم

ويصفه ابن على بانه صاحب الكرامات خير النسب عالى القدر :

واثنى بصلات لمفضل محمد صاحب لكرايم بن عبد الله

خيـــر النسب اوعـــالى القـــدر

وهو الشفيع الذى جاء بالفرقان ، وعين الهدى وسيد البشر :

صلى الله اعلى اشفيعنا من جا بالفرقان عين لهدا رسول الله

يا عشاق افسيد لبشر * عيننا فى اصلات لمفضل طه

وهو عين الوجود ، لولاه لما كان آدم او اى مخلوق ، ولما وجـدت أرض تسكن او قفر خال ، لولاه لما أرسى الله الجبال ولما وجدت بحور بأمواج تصوت كالرعد ، وبعجائب فى أعماقها تفوق لكثرتها ما فوق الارض وما يغطيها من موج ، لولاه لما كانت السماوات والافلاك تملأها الملائكـــة تسبح بحمد الله دون انقطاع ، ولولاه لما كانت الحجب والكرسى والقلـــم والعـــرش :

لولا عين لوجود ما يكون آدم ولا يكـــون حتى مخلوق امعاه *
لا ارض اسكـان لا اقفـــر * ولا كانوا اجبال لجليل ارساها
لولا عين لوجود ما تكون ابحور ابلماج كرعود اتزكلم بمياه *
واعجــايب فوسطها اكثــر * من فوق الثرى او موج اغطاها
لولا عين لوجود ما تكون اسماوات اكل فلك منهم بملاك املاه *
مشغلـــين ابدا ابلا افتـــر * في تسبيح لله بصوات الغاها
لولا عين لوجود لا حجوب الاكرسي ما يكون قلم ابأمرو نهاه *
سبق باسم الله فالسطـــر * واسم عين لوجود مقرون امعاها
لولا عين لوجود ما يكون العرش افعظمت استعجب مهما تنشاه *
خلق الحي عالـــم لامر * ابسبح ادوار به دارت معتاها

ويستعرض ابن علي بعض خصائص الرسول ومعجزاته ، فهو صاحب الشفاعة ، وهو الذى انشقت له الارض وحضرت الملائكة بين يديه ، وهو المؤيد بالعز والنصر ، رضى الله امته للنعيم ، وهو الذى كانت تسجـــد الملائكة لضياء كوكبه حين يسطع ، وهو صاحب الاسرار والمعجزات من صغره ، دانت له النخلة ليجنى تمرها ، ونبع الماء بين اصابع يده ليسقى جنود جيشه وقد اطعمهم من صاع تمر ، وفر اليه الغزال وكلمه الضب ففهم كلامه وآمـن برسالته ، ودخل الغار مع رفيقه فستر بابه بنسيج العنكبوت وعشش الحمـام وشجر اليقطين ، وغرس عودا نخرا ذابلا فعاد بذكر اسم الله مخضرا وانبت تمرا طيبـا :

هذا هو صاحب الشفاعا نهل الذنوب لكثيرا واعدو بهـا مولاه
داخل حرمو ما يشوف شر * وناملو اطلبت للـــروح افداها
هذا هو من انشقت اعليه الارض اجات لو املاك ابأمر امن اعطاه
لمؤيد بالعـــز والنصر * اماتو فالنعيـم لجليل ارضاها
هذا هو من كانت لملاك تنظر كوكبو حين يطلـــع تسجد لضياه
ديولى ايغيب عـــل لبصر * سبعين الف سنا ويطلع فوفاها

هذا هو صاحب لسرار امع المعجزات لـــه ظهروا من حـــال اصباه

. . .

يوما كان افحـــالت الصغر * له النخل ادنات بتمر واجناها

. . .

صلى الله اعلى من انبع من بـــين اصباعو الما اسقا جيشو بعد اظماه

واطعمهم من صاع امن اتمر * من بركتو اروات والصاع اكفاها

صلى الله اعلى امن اهرب لغزال العندو اكلم الضب افهم الغاه

واشهد لـــو برسلت لبـدر * واصعد معصوم كان ملقاه اعلاها

صلى الله اعلى امن ادخل برفيقو للغار ولهبون اطلـــق غـــزل اسداه

واليقطين ابعرفهـــا انشر * واحمام العش دار بمهو وابناها

صلى الله اعلى امن اغرس عود امسوس بعد مـــا ذكر لسم الله

وارجع لو من بركتو اخضر * واطعم بتمر مختلف طعم احلاها

ويصفه العلمى فى « الشافى » بانه علاج كل مريض ، رفيع المكان سيد الموالى وقدوة الافاضل ، شريف القبول سراج الهـــدى وكـــوكب المعالى والطاهر المطهر والصادق القول :

جد بدوايا يا طب كـــل معلـول * يا رفيع المأوى يا سيـــد لموالى

يا قدوت لفضالا يا شريف لقبول * يا سراج لهدا يا كـــوكب لمعالى

يا الطاهر لمطهر يا الصادق القول * ادخيل جاهك عندالله روف يالوالى

وهو عند ابن الوليد الزاد والعون واعز الاهل ورسول الله المختار وسيد الابرار :

فيك عاد الزاد العوين يا عز الوالدين

. . .

انت ارسول الله يا المختار * منك نور لنوار * وانت سيد لبرار

وهو الكامل البهاء :

يالمصطفى ضيف الله يا المختار * ياكامـــل لبها نزهى فبهـــاك

وجد الحسنين :

هل يا مضرا نلقاك ونشاهد نور ابهاك ياحمد ياطه يالمصطفى زين الزين ياجد الحسنين

وهو عنده جميل الوجه أسيل الخد أسود العينين :

انحيى ذاكالوجه الجميل ونشف فالخد الاسيل ونزهفالطرف الكحيل

وهو طيب المسك :

الصلا والسلام افكل ليل وانهار * اعليك يا الهادى طيب لمساك

ويمدحه ابن الوليد كذلك بانه تاج المرسلين ، اعطـــاه الله فمنـح الرحمة للمسلمين من عطائه اياها ، به تم الاسلام وصحت الهداية يــوم هداه الله وتولى أمره وأجلاه من نوره ، وعلا درجته وشرفه ونصر بـــه الديــن :

وانت لكريم اعطاك ﴿ والرحما من معطاك ﴿ للســـلام اعطـــاهـا

بك يسلام المسلمين صح اصدق لمبين

صـــح لهدا بهداك ﴿ انهار الله اهداك ﴿ للهـدى هـــداها

ودها في ليلت لثنين بك المولى لحنـين

يوم الحـق اتولاك ﴿ من نور اتجـلاك ﴿ ادرجتك عـلاها

شرفك وانصر بك الدين يا تاج المرسلين

انه سيد الثقلين ، اكرم الله مثواه ورفع درجات مأواه ، وسمـــاه الزكي بين الرسل ، وقرن اسمه باسمه ، وجعل الشمس تشعشع فـــي السماء بنور ضيائه ، وتزدان به الارض والسماء :

اكرم لكريم مثواك ﴿ وارفع ادراج مأواك ﴿ واسمك بين لرسال الزكي

واسمو مقتـــرن باسمـك

والشمس ابنور اضياك ﴿ شعشعت فسماها ﴿ زانت السما والارضين

بـــك اسيـــد الثقلـــين

وانه طبيب روحه وعلاج دائه ونفسه ، احسن فيه الظن ليداويه ، جعل الله صلاته فرضا في مجالس المسلمين ، يحدث عنه العلماء ويؤلفون الكتب فيه وفي الصلاة عليه :

وانت علاج روحي والروح الساكـن افجسدي

وانت اطبيبهـــا واعـــلاج ادواهـــا

فيك حســـن الظـــن افداهـــا

وانت اللي الله امر بصلاتـك فـــرض لازم

اعلى امجالس أمتك وحدث بك كل عالم

ولفتهـــا (I) الـــولافـــا

واكدايا في اكتب النساخ امصحح افلسطار

وهو مدد ونور وعز ورحمة للعباد ، وهو المبين الشافع في المذنبين،

I) الراجح انه يقصد التآليف كما يفهم من السياق وليس الالفة .

من رأى صورته فاز بالكرامة ونال الكرم ، وتزوج الحوز فى جنة النعيم ، وشفى وغفر الله ذنبه بالنجاة من النار :

مدر شفتك نور اعز للعبادى

لله الشكر يا جد الحسنين

يا المصطفى زيـــن الزيـــن

يا الشافـــع فالمذنبيـــين

يا المبـــــين

من شاف صورتك يامحمد فاز ابلكرايم

نـــال الكـــرام

وازواج الحور افجنات انعايم

وابـــرا اراح واتعـــافى

والله يغفر ذنبو واقبط النجا امن النار

وهو الامام المهدى وخاتم الشهداء وعروس الملـــك وصاحب اللواء والحمد ، رقاه الله وشرفه وناداه :

سبحان امن اكرمنا بالمصطفى الهاشمى الامام المهدى

الشفيـــع لمشفع خاتـــم الشهـــــدا

. . .

الطاهر لمطهر عروس الملك صاحب اللوا والحمـد

مـــن ارقى واترقى واتشرف واتنـــادى

ويكشف الشاعر عن هذا النداء القدسى يخاطبه به الله ان يامحمد قد هديتك فأهلا بك فى بساطى فتقدم وطأه ، ليس لى حبيب يماثلك ولم أناد لحضرتى محبوبا ، خلقتك م ن نور النور ، فى صلاة أمتـــك عليـك غفران لاوزارها قليلة او كثيرة ، جعلتك شفيعا لامتك يـــوم الحساب وبدأت باسمك قبل خلق الكون قرنته باسمى وقدرتى وعزتى وكـــرم جودى ، من سألنى بك وجدنى فى غاية الاستعداد . لولاك لما كان عرش او كرسى او لوح او قلم او نبى يهدى او ملائكـة تاتيك منى بالرشد ، ولما كانت الاغاثة والجنة والنار والصراط والنهار ياتى فى اعقابه الليل ، ولما كانت الدنيا والبحر والارض والسماء المضيئة بالنجوم ، ولا الشمس

والقمر والكواكب الفريدة . لولاك لما كان آدم والخلائق التى خلقت من أجل العبادة ، ولما كان الايمان والصدق والمسلمون يهـــدون الى طريقى ، ولا حياة ولا ملة ولا صبر ولا زهد . لولاك لما كانت الكتب والعلـوم ولا قضاء الحق وشهوده وشهداءه ، ولما كانت الصلاة والصوم والحج والزكاة الواجبة فى المال ، ولا الفروض والسنن ولا العمل والدين . لـــولاك لما كان الرعد والبرق والمطر والخصب والشجر والطلح النضيد ، ولا الفضل والاستنجاد والعطاء ، ولا الحكم والحاكم والملك والقيادة ، ولما نال الاشياخ عندى غاية مرادهم بمدحك :

ناداه ربنا سبحان امـن انشاه واهـــداه الى الرشد

قال لو يا محمـــد هاك ليفـــادا

اهلا بك زد اوطا افبسطى يا لى مـا مثلك عنـــدى

احبيب اولا محبوب لحضرتى اتادا

انا الى اخلقتك من نور النور لمتك فصلاتك تفـدى

اوزارها من قـــل النقصان وزيـادا

انا الشفيع فيهم وانت الشافع فمتك يـــوم التندى

واسمـــك خالقو قبل الكون ابتدا

. . .

قرنت اسمى واسمك بقدرتى اعزتى واكرايم جودى

من اسأل بك اوجدنى غايت لوجدا

واعلم قال لو يا مختار انـــا الى عند ظن عبـــدى

با لمعلـــوم يا كرمت لجـــدا

لولاك لا عرش لا كرسى لا لوح لا قلم لا نبى مهدى

لا ملايك منى تاتيك بالرشـــادا

لولاك لا ابغانا لا جنا لا نار لا جسر صراط امعـــدى

لا نهار او لا ليل خلف ذا افهـذا

لولاك لا بحر لا دنيا لا ارض لا سما بنجوم اتكدى

لا شمس لا قمر الا كوكب نفـرادا

لولاك ما يكون آدم او لا يكـون بادى ولا عبـــدى

لا خلايق اخلقتهم لاجل لعبـــدا

. . .

لولاك لا يمان الا صدق الا اسلام يهـــدو النجـــدى

لا حيا لا مل لا صبر لا زهـــدا

لولاك لا كتب الا علم الا شهـــود فالقرطـاس اتودى

لا قضا بالحق تزكى اشهـود الدا

لولاك لا رعد لا ميض اولا فيض لمزن وكم مـــزدى

لا خصب لا دوح الا طلـح لا نضـدا

لولاك لا صلا لا صوم الا حج لا ازكا للمال الوبدى

لا فرض لا سنا لا دين اولاكدا (I)

لولاك لا فضل لا صرخ ولا يكون كف لعطا بيـــدى

لا حكم لا حـاكم لا ملك لا اقيـادا

لولاك لا شياخ ابمدحك لعزيز يا حبيبى نالت عندى

هكذا بك اكمل لمرام والـــودا

ويصفه التركمانى بانه لا مثيـــل له فى الارض او فى السماء ، فى الغيب او فى الوجود ، سبحان الذى انشأه وأسعد به أمته ، هـــو صاحب اللواء والحلة والتاج والورد والفرس النجيب ، وصاحب الخاتم والسر والمعجزات التى لا عد لها ولا حصر . من اجله خصص روض الجنـة رحمة للسعداء وعذاب النار للجاحدين ، لذا يرجـــوه أن يرأف به فانه صاحب الاغاثة يوم الشدة . وهو عروس يوم القيامة ، يفـــرج غمتهـا حين يشتد الهول ويستعصى الفداء :

انت والله ما فلرض امثيلك افالسما اوجد * وحدك فالغيب والوجد (2)

سبحان اللى انشاك واسعد بك الام الساعدا

انت المخصوص باللوا والحلا والتاج والورد * والفرس الناجب لمجـــد

والخاتم والسر أمعجزاتك شتـــى امشاهدا

I) الكد والعمـــل . 2) الوجود ، أما اوجد الاولى ففعله .

انت لجلك كان روض الجنا رحما المن اسعد ※ والنار اعذاب امن اجحد
رافا يا صاحب لغاثا عن ذا الشد الواكـدا

. . .

انت هو اعريس القياما فشهار الهول والنكد ※ بـين اهل القـرب والبعد
وانت فراجها اذا اشتد الهول وعصا لفـــدا

أما الفرابلي فيراه نور كل الانوار ، المبرور الصادق الامين ، امـــام المومنين ورحمة لاهل الايمان ، وأول الاولين وامام المرسلين :

أمحمد يا نور كل انوار ※ صلى الله اعليك يا المبرور
انت الصادق وانت الامين انت امام المومنين ※ انت رحمة ربى لهل ليمـــان
انت أول الاولين ※ انت امام المرسلين ※ واعلا منهم رتبـا اوعز وشـــان

ويخاطب الرسول عليه السلام بأن الله اختاره ورفع قدره واصطفاه ومنحه المعجزات ، لا سبيل الى حصر ثنائه ، لو اتخذت الارض صحيفـــة والاشجار اقلاما والبحور السبعة مدادا لما وصف الخلق غير عشر معشار قدره وجاهه ، من نظر الى حقيقته ذهل عقله مهما كان ثابتـــا ، لانه بشر وليس كالبشر ، اخباره في التوراة والزبور والانجيل والفرقان وكتب الجفـــر :

يامن جعلك ربى انبى مختار ※ وارفع قدرك عن سير الجمهـور
يامن اصطفاك الملك الجبار ※ بالمعجـزات الواضح والنـور
يامن سرك واثناك ما يحصار ※ لو كانت من لمداد سبع ابحور
والارض اصحيفا والقلوم اشجار ※ لا وصف الخلق اعشور من لعشور
الو انظرت احقيقتك لبصار ※ تذهل لعقول الراسخ واتفـور
لنك بشار اوليس كالبشار ※ واخبارك فالتورات والزبـــور
والفرقان والانجيل والاجفار ※ خبرو بوجود حملك المبشـــور

واما الفلوس فيصفه بانه التقى حبيب الله صاحب الحجة الموثقة ، وصاحب اللواء والتاج والبراق :

صلى الله اعليك يا التقى محبوب الباقى ※ يا مول الحـــج الواثقـــا
يا محمد صاحب اللوا والتاج والبراقى ※ لغرامك لخـــلاق شايقـــا

المـــولد

وكان مولد الرسول الاكرم ومايتصل به من أخبار تحكيهاالسيرة النبوية مادة خصبة لشحذ قريحة الشاعر الشعبي وبعث الهامه ودفعه الى التعبير عن كمين عواطفه نحو صاحب الرسالة عليه السلام . وتعتبر قصيدة «مولد النور» للغالى الدمناتى من أروع القصائد التى سجلت هذا الحادث العظيم، بدأها بذكر النسب النبوى من جهة الاب ، فهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

هذا محمد الزكى قرشى لنساب ※ ابن عبد الله بن عبـــد المطلب
ابن هاشم بن عبد مناف اقترناب ※ ابن قصى الدكى المدوب الارب
ابن كلاب لوضييح بن مر المجتاب ※ ابن كعب المجد راحت القلب الكارب
ابن لؤى التقى الراقى بن غالب
غالب ابن فهر المذكور بين لعراب ※ بن المالك بن النضر دون تكذيب
بن الكنانا من به لمثال تضراب ※ بن الخزيما زخار لحسان لعجيب
بن المدراكا بن الياس در لجياب ※ بن مضار ونزار الاديب لحسيــب
بن المعد ايلا عدنـــان ابلختصار ※ اجدود محمد هاذو سرهم سمارى

وانتقل الى نسبه من جهة الام ، فذكر انه ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومتوقفا فى نسبها عند كلاب الجد المشترك فى سلسلة الاب :

أما ام الشفيع من لهـــا تشريف ※ امين بنت وهب بن عبد منـــاف
ابن زهر المرتضى نعم المتصف ※ ابن كلاب الذى اسرارو ما توصاف
هو جد النبى اوجد مو تعريف ※ كيف اروينااحقيق من بعض العراف

ثم ذكر نور الرسول ، وقد جعله الله يتكون فى صلب آدم ، وينتقل من فاضل لفاضل الى أن وصل لعبد المطلب ثم ابنه عبد الله :

افصلب آدم اتكون نـــور سيد لرسال ※
وسار يتناقل نورو من لفضيل لفضيل

ابعد ابلغ النور الصلب الذكي المفضال *

سيدنا عبد الملطب طب لعليـــل

كون المولى من صلبو اوضيـــح لجمال *

آب محمد عبـــد الله نعـــم نجليـــل

وكان بعد ذلك زواج آمنة بعبد الله يوم الخميس فاتـــح رجب او يوم الاثنين ، لم يلبث أن تلاه الحمل . وما كادت تحمل به حتى اكرمها الله بكل خير ، اما ابوه فارتقى سعده وغدا نور جبينه يسطع ليل نهار :

اوبعد عبد الله ادخل حق الآمنا * ثم حملت بشفيع القوم كامل الزين
أول رجب ليل الجمع اكما اروينا * كان عرس آباويه اوقول ليل لثنين
سعد أمينـــا أم الهاشمي انبينا * ابكل خير اكرمها نعم لعظيم لمعـين
أسعد عبد الله اهلال لبها السيار * آب طه من فاز ابغايت نوطـــارى
كان نور اجبينو يضوى افليل وانهار * اذن انوار المصطفى سيد انظـارى

وما ان عاد الرسول نطفة حتى نودى فى السماء والارض أن النــور يسطع وأمر الله رضوان ففتح باب الفردوس ونطقت دواب قريش فى الليل مقسمة أن الرسول قد تكون فى رحم أمه وأصاب الملوك بكم وانقلبـت أسرتهم :

لا عاد الرسول نطفـــا يافهام * فبطن مينا الزاقيا دوحت لنســوم
نودى فالسما وفلرض ابنقـــوام * ندا بامر الجليل لعظيم القيـــوم
أن النور اسطع من حـاز التفخام * الى منو اشفيعنا نعـــم المعصوم

فبطن مينا اضحى افدا الليل مقيــوم

وامر الله الرضـــوان لفضيـــل لوسيم *

ايحل باب الفردوس اكما اتقول لعلام(1)

ثم انطلقت ادواب قـريش وقت لبهيم *

واقسمت بين اتزاد الهاشمى افلرحـــام

أو كل ملك اصبح بـين لخلاق ابكيم *

اوصاب ليه اسريرو مقلوب صح لكــلام

---

1) العلمـــاء .

وما كاد يمر شهران على الحمل حتى توفى عبد الله :

لما مرت من حمل مينا شهران * مات المرحوم آب طه بالتمكين

ورأت آمنة ليلة فى المنام آتيا يخبرها أنها حملت بسيد البشر على الاطـــلاق :

مهما حملت بالتقى طيب لخلاق * آتاها آت قال لها قول البيـــق

راك احملتى ابسيد لبشر بليطلاق * قالوا فالنوم رات والرؤيا تصديـــق

وغدت بعد ذلك على غير عادة النساء لا تحس ثقلا او ضيقا او وحما أو حريقا :

ليس شعرت بحمل ولابثقل واضياق * اولا بما يوقع للنسا منالوحم واحريق

وذات يوم ، وهى بين اليقظة والنوم ، أتاها من سالها عما تشعر به من الحمل ، مؤكدا لها أنها تحمل بسيد الانام . وحين اقترب الوضع عاد البشير وطلب منها ان تستعيذ بالله من شر الحساد واوصاها اذا ما وضعت أن تسمى المولود محمدا :

اذ قالت أتاها آت بـــين نـــوم وافياق *

أقال لها كان اشعرت ابدا الحمل عيق

ابسيد لنام احملت قـــال جـــل بشار *

امهل اعليها قالت زينت لحـــوارى

أحين قرب ميلاد المجد خير لخيـــار *

ثم أتـــاها دلبشار كيـــف دارى

وقال أعيديه ابرب لـــورى الجبـــار *

من اشرار الحساد امكـــــالب اشنارى

ايلا وضعت طه سميـــه اعلى الختيـــار *

سيــــدنا محمد امفرج لغيـــارى

وما ان بدات تحس آلام الوضع حتى رأت شيئا ابيض شبيها بجناح طير مسح على فؤادها فزال ما كان بهـــا من روع وكرب ، والتفتت لتجد شرابا صافيا أبيض كالحليب فشربته من الظمأ ، فاذا هو حلو كالشهد :

كاجناح الطير قالت ابيض لا تمبيت * جا وامسح عن افؤادها فالحين ابرات

واذهب عنها الروع واجميـــع الكربات

التفتت وجدت شربا صافيا ابتنعات *
ظنت البن لاجل لبياض كيف نظـــرت

بالظما كانت نور اهلال كل غيدات *
بعد ما شربتها مثل المصال وجـــدت

وتقوى المخاض فرات بياضا ناصعا يمتـد بيـــن الارض والسماء ، وسمعت هاتفا يوصيها بأن تصون مولودها حين تضعه من الآفات وعيــون الناس ، ولمحت بعد ذلك قوما وقفوا فى الهواء تبدو عليهم الهيبة وقـــد حملوا اباريق من الفضة كما لمحت أطيارا تغطى السماء ، مناقيرها مـــن الزمرد وأجنحتها من الياقوت ، ثم تبدى لها الشرق والغرب ، وظهـرت لها ثلاثة اعلام ، احدها فى المغرب والثانى فى المشرق والثالث فـــوق ظهر الكعبة :

ولمخاض اتقوى عنها وبعدهـا رات *
ابلعياك ادباج ابياضو ابصيح وصفت

امتد بين الارض وبين السما وسمعت *
قايل ايقول لها واحكات كيف سمعت

قال صونيه افوقت الوضع من الآفات *
خوف من عين الناس وبعد ذاك لمحات

قوم وقفو فالهوا حايزيـــن صولات *
فيدهـم ابرايق فضا او تم رمقـــات

اطيار غطاو اسماها سرهم ينعـات *
من ازمرد منقرهم كيف راد واحدات

ومن الياقوت اجوانحهم ثـــم نظرت *
بامر المولى شرق اغرب كيف ذكرات

بعدها رات اعلوم اعلا لحقايق انبات *
اجميعها ثلث اعلوم اعدادهم حسبات

اللولى فالشرق الثانى افغربنا رات *
افوق ظهر الكعب لاخور حق واضحات

ثم خذها لمخاض وبعدهـا المولات *
بالعزم وضعت طه والفـــراح كبلات

وبذلك تمت ولادة الرسول قبل الفجر على المشهور أو بعده صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول حيث يجب أن يعم الفـــــرح والسرور :

أكان ميلادو قبل الفجر كيف شتهار وبعض قالوا من بعد الفجر قول‌واری
اصباح لثنين اخلاق اشفيع‌ناس لوزار اتناش ربيع الاول قــالت لحبــاری
واجب اتفرحو لخلوقو بقلب واسيار لاين لاجلو كان الخير افلقطـــاری

وهنا ينهض الشاعر ويقوم (I) ليهدى السلام للرسول الاكرم على هذا النحو :

حق اعلينا انسلم اعلى محمـــــــد وقت اخلوقو انقول من داخل لفؤادی
اعليك اسلام ربنــا يا محمـــــد قد اوحوش لقفار والطير الفدفادی
اعليـــك اسلام ربنا يا محمد قد لحصا والتراب واقراهب لوهادی

وأخذ الشاعر الدمناتى بعد ذلك يستعرض بعض المعجزات التــى ظهرت اثر الوضع مباشرة ، وأهمها اهتزاز ايوان كسرى وانهدام شرفاته الاربع عشرة ، وخمود نار فارس التى ظلت موقدة مدة الف عام :

حين اتزاد الرسول طه بحر العــلم ظهرت من غير شك للناس اعــلايم
منها كسرى اهتز ايوانو واغتــم من بعد املاكتو ابقى حاير هايــم
واشرارفو امن ابنيه عادواليه اردم ربعا عشر كيف قالوا اكمن عالــم
بها كسرى ابقى اضميرو متفاكـــم
أنار فارس خمدت يوما اخلاق لحليم بعد كانت موقودا ألف عـــام بتمام

وتحدث عن قصة الرضاع وكيف ان نساء سعد سمعن مناديا يخبر بمولود فى مكة ستسعد مرضعه ويسعد كافله فهرعن الى مكة . وكتـــب لحليمة ان تكون مرضعه ، وتقدمت اليه ، فاذا هو يبتسم كالهلال الساطع تلوح أنواره ، فأرضعته من ثديها الايمن ثم أعطته الايسر فرفضه لحكمة أرادها الله ، وهى أن يبقى هذا الثدى لاخيه فى الرضاع :

صابوكن اهلال اوضيح لايح انوار اكذاك وجهو متبسم ذاك فالاثــارى

I ــ على عادة قراء المولد النبوى حين يذكرون خروجه عليه السلام الى الكون .

ثم حملتو فيديها ابشوق لسيـــار اوتدها ليمين اعطاتو ابلبن طـــارى
اشرب منو فالحين اعطات ليه ليســار ليس رادو بحكمت امخصب الشجارى
ابقى الشدى الخوه افلحليب هكذاسار سيرت القرشى تحكيها افداشطارى

ثم ذكر بعض المعجزات التى واكبت السيدة حليمة فى طريـــق عودتها الى بنى سعد وقد حملت معها المولود ، منها أنها عوفيت من أدواء كانت تحسها وأن الغمام كان يظلله عليه السلام طوال الطريق :

ربما عافاها من علـــت الجـوارح لاجل المدنى طـــه امليح لملاح
ولغمام امعاه اتمشى اكما لجوانـــح وظللوا يا صاحى من حر شمسلضاح

وما كادت تشرع حليمة فى تربيته حتى بدأت ترى له اسرارا باهرة. تسلم عليه الحجارة والاشجار ، وترخى هذه أغصانها عليه حين يمـــر تحتها لتظلله :

أقامت احليما بترابى اهـلال لفلاك سيدنا محمد من عظمـــو المالـك
كل يوم اترى له اسرار ما تنتراك وكم اعلاما شافت للنبـى السامك
وساعتاتمرا بسيد الخلق تحتلشجار اعليه ترخى لغصان اصاح ادلشجارى
وابلفصاح اتسلم عنو اشجار واحجار يا سعدنا بمسلكنـــا من لوعارى

وحين بلغ السن الرابعة جاءه ملكان وشقا صدره وأزالا من قلبـه مضغة وطهراه بماء قيلت فى وصفه نعوت كثيرة :

وحين كمل ربع اسنين الشفيع بثبات كان لو شق الصدر الليادعىاعداتو
جاتلو زوج املايك فى انهار سدات ثم شقوا صدرو وكذا صميم ذاتـو
وزولوا من قلبو مضغ ابغير تمرات وطهروه ابماكم اقوال فى انعاتـــو

وأخذ بعد ذلك فى الصلاة على الرسول ، وبها أنهى القصيدة .

ومثل هذا العرض المفصل نجده مجملا فى ثنايا قصائد الصـلاة أو المدح ، كما عند الشاوى فى «تصابيته» حيث يقول :

ليلت زاد اوحات ليه لملايك دون اعداد رفعوه افلفا من لحرير اخضروقادى
للزور لثقات له لملاك اجنود اجنود

طافوا به اعلى الكون وبلغ قصد لمراد وارجع سيدالمرسلين لمقاموجدادى
وشرقت انوارو الاحت اعلى الجهات ابنود

مهما جاوا يقربوه لمتدى انفر وابعاد حتى جات احليمت النساحرت لسعادى

بالفرحا لها انحاز وارضاها عين الجود

سارت به الناسها اوربات اضيا التماد حين ابلغ شدو افدات يوم اعلاج انكادى

سار اخوه امع الرفيق يسرح مالو مكود

له اوحى جبريل لمفضل كهدف التمجاد بالطاس البريق من انهر جنت لخلادى

والما من كوثر ولملايك بحماه اتلود

شقوا صدر الطاهر لمطهر نعم المهتاد غسلوه انظفوه زالت المضغ للهادى

شاين دار احكاه خوه واشنع خبر المجود

وليس كل الشعراء يستعرضون القصة حين يتناولون مولد الرسول عليه السلام ، بل ان بعضهم يقف عند تمجيد شهر ربيع وذكرى المولد الواقعة فيه ، على حد ما نجد عند المدغرى الذى يرى انه بقدوم هـــذا الشهر الانور هب النسيم يبشر بكل خير ، فاضت النعم وازهرت ورود البطاح ، فليس كعيد مولد النور عيد يزهو ويزهر ، تفيض بحوره وتزخر أمواج ذخائره ، ويستقيم السعد فيغدو الكون شاكرا لله :

هب انسيم لعفـــو ايبشـــر ❀ لعباد ابكـــل خيـــــر

فى ربيع الشريف لنـــوار ❀ فـاض الخير لكثيــــر

وازهى زهر لبطاح وازهـر ❀ مـن لحزيـــن لكثـــير

مولود النـــور ❀ ماكيفو عيد ازها او زاهــــر

فايض ببحـــور ❀ موجو زخار امن الدخايــــر

واسقام الشور ❀ الكون اصبح لله شاكـــر

وعنده أن عيد مولد النبى منور ليس كنوره نور ، يفخر على الاعياد الكبار بوجود الرسول البشير ، ويفوق شهره كل المواسم :

عيد املود النبى امنـــــور ❀ ولاكيفو امنيـــــــر

عن لعياد لكبـــار يفخـــر ❀ بالمرسول لبشير

ماكيفو افلماسم اشهـــر ❀ بين انجومو اشهير

الوفاة :

وكما تناول الشاعر الشعبى قصة الميلاد فكذلك تنـاول قصـــة

الوفاة ، وكان الغرابلي من أكثر الشعراء استيفاء لمختلف فصولها ، وفى قصائد كثيرة كهاته التى يقول فى أولها :

يالساهى وحد رب لكوان لجليـــل ❊ حى باقى فى ملكو بالـدوام لازال
قدر اعلينا فرض الموت دون تمهيل ❊ مايدوم افملكو يلا لغنـــى المتعال

ومن أروعها القصيدة التى يقول فى حربتها :

معظم يوم يتوفى بدر التـــام ❊ سلطان النبيـــا بلقاسـم

يبدأها بنزول آخر سور القرآن الكريم حين جاء جبريل يختمها له، وعودته عليه السلام الى بيته فى صحبه يشكو من صداع حيث عصبت له عائشة رأسه :

وانزل جبريل بمـر الجبـــار اعلى ارسول خير البريـــا
واتلا عليه سور ختمت لسوار انظـــر يا فهيـم الا شيـــا

. . .

واقدم المنزلو وصحبو لحـلام وادخل البيت عيشا عـــازم
قالت لو اشبيك أقرت لنيام ❊ فقال امن اوجاع ساقـــم
وادنت عصبت لوخو الاسلام ❊ وانبـــا غيرها بعـــلايـــم

وامر عليه السلام بلالا أن ينادى الناس للصلاة فى المسجد حيث يريد ان يجمعهم ، ثم خرج اليهم وخطب ، وحلفهم الله ان كـان بلـــغ رسالته بصدق ، وهدى الى سبيل الرشاد ، وأحسن القـول والفعل ، ورأف بالايتام والغرباء والارامل ، وأنبأهم بما فيه صالحهـم ، فأجابـوه بانه جاءهم بالدين القويم الواضح ، بلغه بحق لا تبديل فيه ولا تحريف، ودعوا له الله ان يجزيه :

يا قـوم سلتكـــم بالله المتعال ❊ هـــل جيتكم صادق ناصـــح
برسالتى او حسن القول الفعال ❊ واسبيـــل الـرشاد الصالـــح
واحسنت ابليتام اغربا وارمـــال ❊ وانبأتكـم افكـــل امصالـــح
قالوا جيتنا حـــق ابلا تبدال ❊ بالديـن لقـــويم الـــواضح
بجزيك ربنـــا بالخيـر ولنعـام ❊ وانت الكـل مـــومن راحـــم

واحس سلمان كان الرسول يودع المسلمين وداع الرحيل ، وصارحه

باحساسه ، فكان رده عليه السلام أن الموت فرض ، وان العمر محدود ، وأن الجميع راحلون ، لا يجزى احدهم عن الآخر :

ثم جاوبو سلمان افلمقام * ما لك يا البدر الواسم
كنك كتودع جمع الاسلام * بوداع الرحيل العازم
قال النبى احمد للماجد * سلمان خذ لك ايفادا
فرض لممات عنا واكد (1) * لعمر ليس فيه ازيادا
والقلق للرحيل اموعد * هذا ما جرى عن هذا

وعاد الرسول الى بيت عائشة وجمع نساءه ، وطلب منهن أن يصبرن وألا ينحن لكى يعمهن الغفران ويرغد عيشهن ويزيد خيرهن :

وادخل البيت عيشا بلقصد اوكيد (2) *
فالجين عن ازواجو نادا
وقال لا تنوحوا والله اشهيد *
صبروا اتعمكم ايفادا
وايعمكم غفران وعيش ارغيد *
والخير عنكم يتزادا

وتاخر عن الصلاة وأناب عنه ابا بكر . وخرج بعد ثلاثة ايام للمسجد متكئا على عثمان وعلى ، فوجد ابا بكر فى المحراب يبكى وينوح ، وأراد الصديق ان يخلى له المحراب ، ولكنه طلب منه ان يبقى فى مكانه حتى يؤم بالناس :

ندا على اتجى والعباس امعاك * واخرج بنهم امتكى
حتى اوصل المسجد المبراك * واستنشق اشداء المسكى
يوجد بابكر فالمحراب اكذاك * اينوح ابلشواق ايبكى
واجلس عن اخلافو درت لفلاك * ايزيم (3) بسقام الحلاك
راد الصديق يفرغ لو دون اشكال * ناداه الرسول المكى
اثبت فى اصلاتك بالناس ايمام * تغنم جل طيب اغنايم

---

1 و2 ــ أكيد

3) يئن .

وبعد ان صلى الرسول جالسا تكلم فى الحاضرين ونهاهم عن البكاء والنواح ، وسالهم عما اذا كان لاحدهم حق عليه أن يقتص لنفسه ، فتقدم عكاشة وذكر الرسول بضربة تركت أثرها فى نفسه كـــان عليه السلام ضرب بها ظهره يوم تبوك ظنا منه انه يريد الهرب ؛ فى حين انه كان يريد أن يذهب للاستطلاع :

صلى اجلوس طه سيد لانام * حتى اقضى الفرض اوسلـم
واسأل عن الاما وانطق بكلام * وانهى عـن النواح الهـــزم
وقال يا جميع الحضرا * من كان له حق اعليـا
ياتـــى القصاص افمرا * من قبل ما تجى افنيـا
ثـم جـــوب باجهـرا * عكاش ابغـير اخفيـــا
أقال يا طلوع البدر لمنير * انا ايلى الحــق الشاهـــر
كنا افأرض تبوك افحرب اكبير * واخرجت نسرح ونخبـر
ما هو اهروب منى ولا توخير * رب لعبـــاد حاضر ناظــر
واضربتنى الظهرى دون التقصير * ضربا قترت فالخاطـــر

فسالت دموعه عليه السلام وامر بلالا أن ياتيه بقضيب أخذه عكاشة غير مبال بلوم الصحابة وطلب منه الرسول ان يضربه ولكن عكاشة أجاب بأنه كشف ظهره قبل الضرب ، فهو لذلك يريد منه ان يفعـل كذلك . فنزع صلوات الله عليه قميصه ، وما كاد يفعل حتى بدا الخاتم بين كتفيه يسطع بنور ربانى يفرج الكروب وتحار فى وصفه العقول والافهام . فلم يستطع عكاشة الضرب واخذ يتمسح بالخاتم والنبى الكـــريم يدعو له بالخير ودخول الجنة :

قال جزاك لكـــريم اعليا خير * وارســـل ابلال عند لامـــر
جاب لقضيب فالساعـــا ابلجزام * والدمع امــــن اعيونو سجم (1)
قبضو الشيخ عكـاش دون املام * واصحاب النبى تتــلايـــم
. . . .
ثم الرسول ندا بالجهـــر وقال * تركوه حين مبا (2) يقبـــل

1) سجم كما فى الفصحى بمعنى سال .
2) مبا اى ما أراد وهى فى الاصل ما بغى بحذف حرف الغين ، وهو
==

فقال لو اتقدم والسـغ لجدال * واقص اجزاك مني واعـدل

وقال كيف نضرب وانت ما زال * افتوبـك الضيض مرفـول

انا اعريت ظهري افـذاك الحال * نبغي اكمل افعلت نفعـل

نزع لقميص طه واظهـر لختـام * بن لكتاف نعت الخـاتـم

شلا (I) اتصيف لعقول واليفهام * بـه اختص عل لعـوالم

يضوي بنور واضح يفجي لغتام * من نور اد لجلال العـالـم

لغريم نال جل انصيبـو * واظفر ابكـل ما يتمنى

موغ عل الخـاتم شيبو * واقليـد عروض المزنا

وادعالوا بخـير احبيبو * واضملو ادخول الجنـا

وقال كيف نضـرب قوت لهداب * ونـا اوصيف مـن وصفانو

وتحكي القصة بعد ذلك كيف عاد عليه السلام الى بيته ، وكيف بعث الله عزرائيل ليأخذ روحه، ولكن الرسول امهله حتى يسأل شيئا يعتمل في صدره ، ورفع كفه الى السماء وشكا من شوقه لجبريل الذي ما كان يظن أنه سيغفل عنه ويتخلى في هذه الايام . وما كاد ينتهي من سؤاله حتى نزل الملك الامين وسلم عليه :

وادخل المنزلو يتسنى المكتاب * محسوس امن اوجع ابدانو

. . .

عزريل جا ابأدب وانقر البـاب * ثم ادوا ابفصـح السانـو

وقال جيت لكنـم ياهل لمقام * انزور درت بن هـاشـم

. . .

قال مهـل اعلى نسأل بدمام * عن شين ما افسري كـاتم

مد لكفوف وادعـا واسأل * وقـال يا سامـع اسؤالي

تعبير خاص بلهجة مدينة مراكش وقد سارت عنهم عبارة تعدد فيها هـذا الفعل ، هي قولهم : اللي بيت بيتو واللي ما بيت ما بيتو اي الذي بغيت بغيته والذي ما بغيته ما بغيته . ومن الغريب ان ياتي مثل هـذا التعبير على لسان الغرابلي وهو شاعر من فاس ، ولعله فعل ذلك مدفوعا بالميزان، اد لا يبدو أن ذلك من تحريف الرواة ، لان ما بغى لا يستقيم معها الميزان.

I) فوق ما تصف ، وتستعمل التعظيم والتكثير .

جبريل ما نويتو يغفل * غنى افمنتهى فى حالى

ثم لأمين فى انحين انزل * واقشما اسلام نعم العالى

اذ ذاك اطمأن الرسول وحمد الله ، واذن لعزرائيل ان يتقدم ويأخذ روحه مستعذبا لقاء ربه . وفى الحين صعدت روح محمد الى صدره واحس بغصته تضغط عليه ، وعبر عما أحس ، فاجابه الملك انه لم يذق عشر معشار سكرات الموت ، وامهل عزرائيل لحظة ليدعو ربه ان يخفف عن أبناء امته ضيق الموت وما يحس من شدة حره على ذاته ، فلم يلبث أن سمع هاتفا قدسيا يقسم له بعزته وجلاله بالا يذيقهم سوى ما أذاقه وان يجود عليهم ويعفو ويرحم ، ثم حمد الله وشهد بجهر :

احمد ربنا واشرح ابتبسام * وقال العزرائيل اتقدم

اعزم وخوذ نتهى لمكام * محلا القا اعظيم الاعظم

فالحين روح طه صعدت * للصدر الشريف اورسات

وانطق بلسان امتبت * يا ملك ما صعبها غصات

قال لو ابحق جاهك ما دقت * اعشور امن اعشور السكرات

قال لو امهلنى علنى ندعو دعات * بلطف ولعفو لماتى

خفف على الام ضيقت لممات * وشد حرها عن ذاتى

سمع اندا ابأذن سامع لصوات * وجلال عزتى واقدرتى

إلداقو سوى ذاقك من لمرات * وانجود ونعفو برحمتى

وتحكى القصة بعد ذلك ان عليا وابن العباس غسلاه ، وهو يتلألأ كالبدر من البهاء والنور وكفناه فى ثوبه كما شاء وطيباه ، ثم دفن ، وقد ذهلت العقول واحتارت الالباب وغدا الناس فى دهشة وحزن :

وحارت لعقول ودهشت لوهام * واشحال امن اضمير اتفاكم

وتاوا للقام اخصوص ولعوام * شلا ايطيق يوصف ناظم

ادناوا ليه وقت التغسيل * وغسلوا لمفضل وعلى

وجدوه كالبدر فاليكليل * والنور امن ابهاه ايلالى

...

وكفنوه فتيابو اكما قال * وابنوع كل طيب احتفلو

...

وبعد ادفينو اشتـدت لنكال * واشحـال امن اعقول اندهلو

وتنتهى قصة الوفاة بالكلمة الخالدة التى فاه بها الصديق ليهدىء من روع المسلمين وفزعهم ودهشتهم حيث قال : «من كان يعبـد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » :

اكثر اصياح بن الناس ولهـوال * شد لفراق عنهم حبلـو
وقام ببكر واخطب افهل البـال * خطبـا لا تخطابت قبلـو
وقال فلخطبا يا جمع اليسلام * المـوت فرض عنـا لازم
من كان يعبد الماحى سكن ارغام * هـذا وصـف شأن ابنـادم
ومن يعبد الحـى لا يعدام * باقـى اقـديم بنا عـالم

المعـراج (1) :

وهكذا ، وعلى هذا الاسلوب فى عرض السيرة النبوية تناول الشاعر الشعبى قصة الاسراء والمعراج فى القصائد التى اطلق عليها « المعراج » ومن أشهرها قصيدة عبد العزيز المغراوى وعبد القادر الجرارى . يقول المغراوى فى أول معراجه :

لسـم لعظيـم ذا العرش الديان * رافع لفـلاك افلهوا دون اعمـاد
من خص المرسلين ابا"يت البرهان * وارسلهم ابلهدا اودين الارشـاد

ويقول الجرارى فى حربة معراجه :

الصلاة اعلى الهادى راكب البراق * سيدنا محمـد لمشرف الصديق
من اسرى من حرم الى حرم افلغسيـق

وفى أوله يقول :

ابديت لسم المولى لقسم لرزاق * رب لكوان الحق الدايم نحقيـق
والصلا عـل الماحى طيب لخلاق * خير لورا لفضيل الماجد الشفيق
والرضا الآل والصحاب والرفـاق * وهل البيع والعهد الوافى لوتيـق
بعدها فكرى هاج وخاطرى اشتاق * نحتك معجز كبر اكما ايليـق
فالسرا والمعراج ففيهب لغساق * لكن اصلات الماجد قولها اسبيـق

1 — كان مفروضا أن يسبق المعراج الوفاة ولكنا أخرناه لانه دونها عند الشاعر فى الاهتمام وهذا ما جعلنا لا نفصل فيه القول .

التصلية (1) :

ومن عميق تفاني الشاعر الشعبي في الرسول عليه السلام وتعلقه به أنه لم يقف في التعبير عن عواطفه الجياشة عند الحديث عن حبه وذكر صفاته وعرض مراحل من سيرته الكريمة ، وانما زاد ــ منوعا في مدحه ومتفننا فيه ــ فخصه عليه السلام بقصائد اطلق عليها « التصليات » يصلي فيها عليه محاولا أن يبلغ بصلواته أكبر عد يمكن تصوره او تخيله ، مستعرضا انواع الكائنات والمخلوقات المختلفة ، عساه يبلغ اعلى درجات العد والحساب . ومن اروع التصليات وأقدمها تصلية محمد بن عبد الله ابن احساين ، وفيها يبلغ بصلوات الله على نبيه الكريم الى عدد ما هطلت الامطار وسقت من اشجار ، وعدد ما حملت هذه الاشجار من غلال ، وحمل النخل من تمر ، وعدد ما يوجد من بساتين وأغراس عطرة :

صلى الله اعليه عد مــا هطلت من لمطارى *
ومــا كتسقى امــن الشجر

وحملت امن اغلول والنخـل عـــد اتمارو *
وما من حرجات (2) عاطــرا

وعدد البحور والانهار الفائض منها والجاف ، وعدد ما في جوف الارض من عيون وآبار لا تحصيها العين من الكثرة :

صلى الله اعليه عــد لبحور امـــع لنهارى *
ما واكح فيها او ما اعمـــر

وما في جوف الترى امن اعيون اوعد ابيارو *
شلا شافت عــــين كترا

---

1 ــ المقصود بها الصلاة ، وقد استعملناها محافظة على المصطلحات المتعارف عليها عند الاشياخ ، والمعروف لغويا أنه لا يقال صلى تصلية في الدعاء ، وانما يقال صلى صلاة بوضع الاسم موضع المصدر ، أما التصلية فالقاء الشيء في النار لاحراقه .

2 ــ الحرجات البساتين وهي كذلك في الفصحى اذ يقال مكان حرج بكسر الراء وفتحها اى كثير الشجر .

وعدد لسع القر للعذار ، ولفحات الزمهرير والحر ، وعدد نسيم الصباح وما هب من رياح غربية فى العشايا الساحرة :

صلى الله اعليه عد لسع القـــر افلعذارى *

وازمهرير الحر بعد قـــر

واعداد انسيم الصباح او ما هب ابتعطارو *

واغرابى لعشـــى الساحرا

وعدد الرياح والاعاصير والبرق الخاطف للابصار ، وعدد الرعـــود تدق طبولها ، والبروق المضيئة تعلن شاراتها عن مطر غزير :

صلى الله اعليه عد لرياح امـــع لعصارى *

والبـــرق اللى خاطـــف لبصار

والرعد ايلا رعدوا اطبـــولو وبروقو شمارو *

واذن بالرعـــد الغـــازرا

وعدد الغيم المتوارى الغابر ، وعدد السحاب المحمل الذى حارت فيه العقـول :

صلى الله اعليه عد لغيـــام اللى متو–ارى *

ذاك اللى فتوايحو اغبـــر

واعدد الوارى امن السحاب اللى فى كدارو *

كتضحـــى لعقول قاصرا

وعدد نجوم الثابت والشارى ، ودوران الارض والافلاك فى كل وقت وحـــين :

صلى الله اعليه عد نجـم الثابت والشارى

فغروب ولسحار والفجـــر

وما دام الليل فى اعقابو يا صـــاح انهارو *

منهمـــا لحوال دايـــرا

وعدد ما ظهر المريخ والمشترى ، وما اشرقت الشمس واضاء القمر ، وعدد كواكب زحل وعطارد والزهرة :

صلى الله اعليه عد ما انبى مريخ ومشترى *

وما بانت شمس ولقمـــر

والزحل وكوكب لعطـــارد ساعت يظهرو *

ونجمت الزهرا الزاهـــرا

وعدد ما فى اعماق البحار ، وما من وحوش فى القفار ، وعدد الاطيار المحلقة باجنحة وحكمة من المبدع العظيم ، وعدد ما باضت انثى الطير :

صلى الله اعليه عد مـــا فدواخل لبحـــارى *

وما من لوحـــوش افلقفـــر

واطيار ابلجناح ولحكايم ذا البـــادع طارو *

وما باضت كل طـــايرا

وعدد الحيوانات الاليفة ودواب النحر والركوب :

صلى الله اعليه عد بكم السماكـــن لجدارى *

لموالف بنا امـــن الصغـــر

واعداد الى للنحير كانـــوا والى نختـــارو *

للركبـــا يوم لمفاخـــرا

وعدد النحل والنمل ، وعدد الهائم من الحيوانات والحشرات ما ظهر منها وما خفى عن العين :

صلى الله اعليه عد لهوام يا من هو قارى *

ونحل ونمل وعد ما كبـــر

وما من لهوام ما تشافو من حيث اصغارو *

بوجود القـــدرا القـــادرا

وعدد الذين نسوا ذكر الله من ابيض واسود واسمر واشقر واعجام صغر ، وعدد اقوام البدع والغدر :

صلى الله اعليه عد لنفاس السماواذكارى *

لبيض واسودها امع لسمـــر

وادهم وابراكا مع الشقار واعجام اصغارو *

وقوم البـــدع والمغـــادرا

وعدد تكور الليل والنهار :

صلى الله اعليه ضمى وادجا تبقى فشطارى *

مكتوبا من اجل الذكـــر

صلى الله اصلا امداوما تبلغ لــو فقرارو ※

فى حضرت ربى النايرا

وعدد مدن كل الاقطار وما فيها من دور وقصور ، وعـــدد الصحارى والمداشر والقبائل ودواويرها ، وعدد تلال البيد والقفار :

صلى الله اعليه عد لمدون افكـــل اقطارى ※

وما فيهـــا دار اولا قصر

والصحرا وادشورها اوكل اقبيل ودوارو ※

واتلول البيـــدا القـــافرا

وعدد الهضاب والسهول والشعاب الخالية والمعمورة ، وعدد الربـــى وعدد كل طول يقاس :

صلى الله اعليه عد لكدى اوحيث لغدارى ※

واشعاب القفرا او ما عمـــر

والربوات او عد كل طول وقيمت مقدارو ※

بكيال الدنيا العـــابـرا

وعدد الغابات والبرارى وما فيها من عرين الاسود والنمور ، وما بها من مآوى وغيران :

صلى الله اعليه عد لغيـــاب امـــع لبرارى ※

وعريـــن الاسد والنمـــر

والمثوى دجميع امن اسكنها كل فى غارو ※

صلى الله اعليه غـــازرا

وعدد اكسية الحيوانات الضارية وغيرها من صوف وحرير ووبـــر وريش وشعر :

صلى الله اعليه عد لكسا دا للى هو ضارى ※

بالصوف ولحريـــر ولـــوبر

والمكسى بالريش والذى متلفف بشعارو ※

واللى ما ضارى ابساترا

وهو يصلى عليه بقلبه ودواخله ولسانه وعقله وفكره عدد الاكـــوان

التى لم يحص منها حتى العشر :

صلى الله اعليه والسلام ابقلبى واسيارى *
ولسانى والعقل ولفكـــر

عد الكون اللى ما احصيت منو حتى معشارو *
صلى الله اعليه كاتـــرا

وعدد ما فى علم الله وهو فوق الحصر ، وعدد الزبور الذى لم يبق منه غير خبره ، وعدد الالواح العامرة بالحكمة :

صلى الله اعليه عد علـــم الله افتذكارى *
علم الله الا ايلو احصـــر

عد الزبور الذى الا ابقى غـــير اخبـــارو *
والـــواح ابلحكـــام عامرا

وعدد الانجيل وقارئه قبل ان يحرفه ويطفئ نوره جحاد الحكمة .

صلى الله اعليه عد لنجيل وعد القـــارى *
والقاريا اكما وحى اخبـــر

قبل ايجيو اللى امحرفينو يطفيو انـــوارو *
جحـــاد الحكما القـــادرا

وعدد سور القرآن الكريم وما تضم من سطور ، وعدد حكمه وبراهينه وأسراره ، وعدد ما فى السنة الطاهرة :

صلى الله اعليه عد سورات القول الوارى *
وما فالسور امن اسطـــر

واعدد الحكمات ولبراهن واعداد اسرارو *
وما فالسنـــا الطـــاهرا

وعدد الرسل والانبياء فى كل عصر ، وعدد الاولـيـــاء والاقطـاب والملائكة ، وعدد الجن الذى لم تره الابصار :

صلى الله اعليه عد لرسال افكـل اعصارى * والنبيا لنـــوار ادلبشار
والوليا واقطاب ولملايك ويـــن ما ساروا * والجن الا رات باصـــرا

ومثل هذا نجده عند المغراوى الذى يبلغ بصلوات الله على الرسول

في «عين الرحمة» عدد الحب وأوراق الاغصان، وعدد الفواكه التي تنتجها الاكوان في كل عام ، وعدد نجوم السماء وحور الجنان ، وعدد اعشاب البيداء المختلفة الاصناف ، وعدد ما احاط به علم الله وكل ما هو حي وميت وكل ما ظهر للعين وما خفي :

صلى الله اعليه عد اطعام الحب اوراق لغصان

واعداد الغل افكل عام من لكـوان اتجينا

واعداد نجوم السما وحور الجن والجنـان

واعشوب البيدا اعلى اصناف ايسار وايمينا

واعداد ما حاط به علم الله كيف اقضاه كان

والحي والميت او شـلا شافوا عيننا

وكذلك النجار فانه يصلي على النبي الكريم عـدد النحل وشهده ، والاطيار المغنية في رياض حافل بالغلال ، وعدد الجراد والنمل وما زرع الفلاح ، وعدد الحصى والرمل ، وعدد انفاس الخلـق والالوان والصـور المتشابهة ، وعدد اصناف الارزاق المختلفة ، وعدد اللغات والمتحدثين بهـا والسامعين ، وعدد حروف آيات القرآن وسوره والحديث الشريف ، وعدد ما يلقنه الفقيه لطلبته ، وما في السماء والارض من سكان ، وعدد ما دب على الارض ، وعدد الرائحين والغادين ، وعدد ومضات البرق الخاطف وأصوات الرعود وهبوب الرياح وما تهاطل من أمطار ، وعدد مياه البحور وعجائب الحوت ، وحب الجوهر والياقوت والمرجان وكل ما يلمـع ، وعدد الاقمشة الهندية المزينة كالزرابي ، وعدد نعيم الجنـة والقصور ، وعدد مـا في علـم الله :

اعليه اصلات الله دايما قد انحل واعفـاه

وما غنت اطيار في ارياض احفيل ابغـلاتو

. . .

واعداد اجنود اجراد والنمل جندو يتعداه

وما زرع الفلاح ولحصا والرمل اعتمـاتـو

ما نقـوى نحصيـه

واعداد انفاس الخلق والوان اصورت لشباه

واصناف ارزاق امخالفا او كل امحدث بلغاتو

واللى يصغـــى ليـــه

واحروف آيات اسوارو ولحديث ارقت معناه

وما فاد الطلبا افقيه نجمي يدري معنانـــو

مهمــا يلفظ بيـــه

وما فتخوم اسفالها او قد الساكن فسمـاه

وما دب على الارض قاطبا والرايح لمباتـو

والعـــاطف لمجيـــه

وما شار البرق لخطيف والرعد اصوت انداه

وما هبت لرياح والركم اكـــافي مزناتـــو

والمتـــوكـــل بيـــه

وما صبت لمطار امن اسماها وابحور امياه

واعجايب حوت فحجابها وحب الجوهر واتقات

مـــرجان ايوتيــه

وبديع الياقوت الرفيع وما يلمع بضيـــاه

واقماش الهندى وما يماثل لنوار افحرجات

لـــزرابـي نحكيـــه

وانعيم الجن والقصور وما في علم الله

ويذهب ابن علي في عد صلواته الى ما خلق الله وما سار على الارض وعام في البحر ، وعدد سائر المخلوقات التى لا يمكن احصاؤها ، وعدد ما طار في الجو من اطيار ، وعدد النحل وما قطف من ازهار ، وعدد ما هبت الرياح وصوتت الرعود ولمعت البروق ، وما نزل من أمطـار ، وما فاض بمائها من أنهار ونبت من أعشاب ونما من أشجار ، وعدد ما انتفع الخلق بهذا الماء ، وعدد ما ظهرت النجوم ، وعدد اوقات الفجر ومصليه ، ومـا أشرقت الشمس واضاء القمر ، وعدد الاكوان التى أخفاها الله :

صلى الله اعلى اشفيعنا عد ما خلق لكريم يدرج من فوق اثراه

وما دب افداخـــل لبحر * من مخلقات لا من يقوى يحصاها

صلى الله اعلى اشفيعنا عـــد ما طارو اطيار وارقوا الجو اعلاه

بقدرتـو واتروح للـــوكر * واعدد انحل ما قطف زهر اعفاها

صلى الله اعلى اشفيعنا ما هبت لرياح وارعـود والبرق اشعاه

وما نزل الارض امـــن امطر * واعدد اعشوب به نفحت واحياها

صلى الله اعلى اشفيعنا ما فاضت لنهار ابلمياه اساق ابمجراه

وما لقحت به امن اشجـــر * واعداد ما تنفع الخلق ابماهـــا

صلى الله اعلى اشفيعنا عد ما طلعو انجوم والفجر او من صلاه

وما طلعت الشمس ولقمـــر * واعداد اكوان رب لعباد اخفاهـــا

ولابن على تصلية رائعة يقول فى حربتها :

صلو اعلى الصديق الصادق جـد الشراف نور العين

امام لنبيا بلقـــاسم محبوب ربنا الرحمان

وله أخرى يدعو فيها للصلاة الدائمة دون حصر :

عين الرحما يا عاشقين طهصلوا عليه * اصلات الاتحصى امداوما هى ربحاماتو

اخـــاتـــم كل ارسال

اما ابن الوليد فيصلى عليه مائة الف مرة صلاة صافية خالصة :

يا صاحب الشفاعا صليت اعليك فى انشادى

اميـــات الف من اصـــلا مقبـــولا

ثـابتـا مـــن عنـــد المـــولى

امحققا ما فيهـــا لولا اولا ابـــدولا (I)

بل يصلى عليه فى كل ليل ونهار ، عدد الرياح والرعـود والامطار ، والاقلام والالواح والافلاك والعرش والكرسى ومياه البحار ، وعدد ما خلـــق الله من اغصان دائمة الفوح بالطيب والعبير دوام ملك الغنى القهار :

اصلا والسلام فى كل ليل وانهار

اعليك يالهـــادى طيب لمساك * قد ارياح قد ارعادها ولمطـــار

I) اللولة : الشائبة ، والبدول : التبديل والتحريف .

واعدد القلم واللوح الفـــلاك * والعرش والكرسى واكذا امياه لبحار
واعدد ما خلق فالدنيا من ياك (1) * دايم ما دام الملك لغنى القهـــار
بالطيب ولعبير وعنبر وامساك

ومن اروع التصاليات بعد هذا تصلية الشاوى التى يقول فى حربتها:

صلى الله على الشفيع نور الحق المرشاد
عين الجود الطاهر الزكى ربحى واسنادى
طه مولى التاج واللوا والحوض المورود

الغاية من المدح والصلاة :

والشاعر الشعبى فى مدائحه وتصلياته مدفوع بحب يتأجج فى قلبه للنبى الكريم ، وهو حب لا شك فى أنه خالص صادق ، وان بدا فى التعبير عنه تشابه وتماثل أساسهما وحدة الرؤية من جهة ، وعدم تعمق حـــال الوجدان لاستخراج الجديد من الافكار والاحوال ، وخاصة عنـــد الشعراء الاوساط من جهة ثانية . ولكن هذا الحب رغم خلوصه وصدقه ليس غاية فى نفسه ، وانما هو وسيلة لتحقيق هدف يطمح الشاعر اليه وهو زيـــارة مقام الرسول الاكرم والدخول فى حماه لنيل شفاعته وادراك الجنة . وقـــد يبدو فى ذلك ما يدعو الى الطعن فى صدق هذا الحب طالما انه ليس مقصودا لذاته ، ولكن عظمة الغاية التى يسعى اليها وبعدها يشفعان لهذا الازدواج ، وهو ازدواج يكاد لشدة تقاربه يوحى بالتحام الغاية والوسيلة فى وحـــدة وارتباط . ولا عجب فالمحب — اى محب — يسعى الى نيل رضا حبيبه ووصاله، والوصال بالنسبة لمحب الرسول يتم بزيارة مقامه الشريـــف ومشاهدة نوره ، اما رضاه عليه السلام فدليله ان يمنح محبه الشفاعة يوم القيامـــة حتى يفوز بالجنة . لذا فلا غرابة ان يتخذ الشاعر الشعبى مديحه للنبـــى وصلاته عليه جواز عبور للبقاع المقدسة ثم الدار الآخرة عساه ينـــال فيها الجزاء الحسن .

فالمغراوى يطلب من الله أن يجود عليه بفضله ويجعل مقامه فى الجنة ويكرمه بالنظر الى وجهه :

---

1 — الايـــك .

يا ذا الجليل جــد علينا * فى ذى اوذيك حرمت ف
واجعل امقامنا فالجنـــا * ابحرمت الشريف ارسم
وارحم اسلافنا واكرمنـــا * بزيادت النظر فى وجه

ويرجوه ان يعجل له بزيارة مقامه الكريم حتى تشفى
فى جماله وان يمنحه ظل لوائه يوم الحساب ليفوز بالجنة وينج

عجل ابزورتى امقامك نعم النظرا * تشفى فى جمالك الرو
وانكون تحتظل الوالكانهار العسرا * انفوز وانجنب نار

وهو يرى فى «عين الرحمة» ان مدح المختار تنزه وان
يوم القيامة فى ظله :

ربى كريم اجعل ارحمتو سبقت غضبو افلا زال
واجعلهـا فقلوب هل ليمان مدح المختار انزاها
من مدحو يدخل تحت ظلو يوم القياما

لنوتاج المرسلين وانهايت ل

ويرى كذلك ان تمجيد الرسول يطرد الحاسدين ويطهر
وأن صلاته تصفى القلوب من الكدر :

تمجادو يجرى اعلى انكودى ويطهر جمع لحزان
اصلاتو اتصفــى اولا تخلى فالقلب اغبينا

ويسال الله ان يلطف يوم الحشر ، فهو قادر على أن
ويعمهم بالغفران ، وان ينجيه من شر النار المحرقة وان يسع
وان ييسر له الطواف بالكعبة ورؤية حرمها والسعى بين ال
ومشاهدة مقام الرسول وطيبة . اذ ذاك يهنا ويعود طاهرا ك
وقد انطلقت مهجته وارتاحت روحه :

. . .

من نسعاوه لقبول يلطف بنا يــوم لوقوف *
والخلـــق كـــل ابفعلو

يسعدني فدنيتي يجعلنـــي نمشي انطوف *
بالكعبا وانشوف حرمهـــا والروا والصفا

انشاهد عين لوجود لفضل عن احميع لفضال *
وانشاهد طيبا اوقبتو نبصرها وانراهـــا

نتهنا وانعود كيف نبغي ميا صافي ازلال *
اصميم المهجا ايريع والروح اتصيب امناها

ويرى النجار أن الصلاة على النبي تمحو سيئات المكثر من الذنوب :

واكثير الذنب ايزيد في اصلاتو تمحا سياتو

وغاية المنى عنده ان يحج قبل ان يموت ، فبذلك يندى روضـــه ويتفتح زهره ، وهو مشتاق لزيارة البقيع والكعبة والحجر الاسود ، لـو وجد الى ذلك أجنحة لطار ، وقد طال جرحه وليس له دواء غير الاقتراب من باب السلام ، ولكن جسمه مثقل ، وليس له ريش يطير به ، فهو لهـــذا راض بالقــدر :

اتوجـه يا بادي * نوصيك للسفر واعمل قبل الموت زاد
يصبح روضك نادي * ويفتح الزهر والسوسان من تغماد

. . .

ونقـــول آتغرادي * اعلى لبقيع والكعبا واحجرت لسعاد
لو صبت امـرادي * واجناح طير زاعم تدنـا به لبعـــاد
طال الجرح الكامي * مالو اطبيب دون القرب الباب السلام
لكن ثقـل اعظامي * والريش خاني وارضيت ابما افلحكام

وابن علي يرجو من ممدوحه الا ينساه ، ويطمع ان يدخل في حماه لينجو من حر جهنم ، فقد اثقلت كاهله الاوزار فلا يستطيع تحملها جسمه ، ومادحه يصول ويفخر ويطلب الجنة :

أمحمد لا تدوز (I) مداحك طامع في احماك ينجا من حر الظاه
حامل عـن كهلي من لوزار * وامحمل عن اعضايا شـل نقواها
أمحمد لا تدوزني ربي يغفـــر للخلق كافا الو جمـع اعصـــاه

I) داز فات ولعل اصلها من دامس في الفصحى .

مداحك ايصـول ويفخـر ✻ لك الجنا اطلب وانت مـولاهـا

أمحمد من ادخل افحرمك يمحى وزرو لكريم لجلـك اجعل مأواه

فالجنـا يهنـا ويستقـر ✻ دار اليكرام ينكرم من فحماهـا

أمحمد لا تدوز مداحك طمع الخير فيك اجعل الجنـا مجزاه

كان اشفعتى ربنا اغفـر ✻ للنفس الو اتعيش فى وزر اخطاها

ويرى العلمى فى احدى « جيلالياته » ان الصلاة على الرسول حـرزه ورقيه وأمانه ، تحفظه وتصون دينه وايمانه ، ويراها زهوه ونزهته وسلواه وعزه وحرمه وشأنه ، هى ورده فى كل وقت وحين طالما امتدت به الحياة :

هى حرزى ورقيتـى هى الامان ✻ هى حفظى اوصون دينى ويمانـى

هى زهوى وانزاهتى هى السلوان ✻ هى عزى وحرمتى هى شـانـى

هى وردى اعلى الدوام افكل احيان ✻ ان شاء الله ما فلحيات ابقانـى

أما ابن الوليد فيطمع فى أن ينظر اليه لكى يصلح فساده بجـاه مديحه ، وان يشهد له بانتسابه اليه ، ويرحب به حتى يزول عنه الكرب والضيق وأن ينقذه من الاضرار ، ويدخله فى زمرته للجنة ، ويسقيه من حوض الكوثر ، وتلك أقصى غايات الضيافة :

وابغيت فيك نظرا تصلح بمدادها افسادى

وابغيت فيك تشهد لى بالنسبا

بعد تلقانى بمرحبا ✻ اتزول عنى هاذا الكربا ✻ اكـل نشبا

وابغيت فيك تنقذنى مـن لضرار واسقايم

وابغيت فيك ندخل فزمرتك للجنان زاعـم

اكمـال عـز لمضـافـا

وابغيت فيك تسقينى من حوضك ما الكوثـر

فاذا ما تمت له النظرة فى طه خرجت كل انكاده واغتنى بعد فقره ، وعلم ان الله قبله فى جنته واعتقه من النار ، وحق له ان يصول بشرفـه الحسنى مفتخرا دائم الفرح ، زاهيا منتشيا ، وقد سلم من كل عيب ، وهو يلح على الرسول الاعظم ان يجود عليه فى سخاء وعطف ورحمة :

ونا ايلا انشوفك ياطه تنفجا انكادى

ونعرف بين رب البيت اقبلنى

امن اعــذاب النــار اعتقنــى

بعــد فقرى نصبــح مغنى

اشــريــف حسنــى

انصــول وانفخر افطول ازمانى

بفــــراح دايمــــا

اشريف بالزهو متخمر من كــل عيب سالــم

ونتمعدن الوافا جداسخ اعطف وارحمنى ياطب كل اضرار

وهو يريد ان يراه فى المنام حتى يعالج من سقمه وتزهــى عيناه ، ففى رؤيته بشرى وغنيمة :

هل يامدرا نلقاك فى امنامى

فبــرا مــن اسقــامــى

وتــزهــى انيــامــى

نظرا فصورتــك لكريما

بشرا على الرضا واغنيما

أبــو لال فــاطمــا

وعنده ان النظر اليه غاية طلبه ومناه :

اخيــار كل مــا نتمنــاه

فالدنيا شوقا فيك يالعربى

هــادك حد رغبــى

عنــد لكــريــم ربى

ومثل هذا يذهب اليه التركمانى حين يرى ان الصلاة على النبى مفتاح كل المقاصد وغايتها :

طه واصلاتك الشريفا مفتاح الكل امن اقصد * اعليك اغايت لقصد

واما الغرابلى فيريد من الرسول ان يكون له سندا يوم القيامة حيث الامة كلها لائذة بحماه ، فذنوبه كثيرة ، وهو يخشى من ضيق القبر وعذابه ويرجو ان يقبل مدحه هدية ويرضى عنه ويرشده وينظر فى حاله وياخذ

بيده حتى يصلح فساده ويخف حمل ذاته الثقيل :

أطه نبغيك اتكـــون لى اسنيد واسنادى * افيوم الا تجزى الوالـــــدا
عن مولود او لا اسنيد دونك يوم المعادى * والاما فحمـــاك لايـــدا
أطه ذنبى اكثير خوفى من ضيق الحادى (1) * يـــوم اتكون الذات فاقدا
لا أهل لاخوان او لا عمل اونيس التفرادى * لا توبـــا للاثـــم هـــادا
أطه تقبل اهديتى برضـــاك وتمجـــادى * وارشدنـــى جل لمراشدا
انظر من حالى اوخوذ بيدى ينصلح افسادى * ذاتى حمل اشغيف رافـــدا

لعله واضح من هذا ان امل الشاعر من الرسول يكاد ينحصر فـــى أمرين : أحدهما الفوز بشفاعته يوم القيامة والثانى زيارة مقامه .

اما الشفاعة فقد جر موضوعها بعض الشعراء الى الحديث عن يـــوم القيامة وما يتم فيه من حساب وجزاء وعقاب ، وكيف يشفع الرسول فى المسلمين ، على حد ما نجد عند المغراوى فى «هول القيامة» حيث يذكر انه عليه السلام كان قد اخر دعاءه الذى طلبه منه الرب الكريم ليجيبه عليه ، الى يوم الحشر ليجعله عاما على أمته خاصا بالشفاعة :

انجوا الهاشمى باهـــج لنوار * ويقولوا جملت لأمـــام
جنا لك نطلب الشفاع يامختار * يا عـــالى الجاه ولمقـــام
ويقول انا لها واليوم الموعود * وخرت اجواب ادعوتى عنداسؤالى
عند امنابر ايقوم بمقام المعبود بين اكراس لونيا شمس ايلالى (2)
ويسجد فالترا اينادى ياموجود * وعدك بشفاعت لورا تجبر حالى
ويقـــول الدايـــم لمسرمد * ارفع راسك من السجود
اشفـــع نشفع يا محمد * واطلب تعط ابجل جود
وايقول الهاشمى لمجـــد * اعجـــل بقضاك يا ودود
اهل الجنا يدخلوها وهل النار * يمشـــوا لهـــا ابلمـــرام
انا الشفيع فمتى وانت الغفار * يا عالى الجـــاه يا سلام
ايقول الرب كونوا افجنت رضوان * اهنيا جميع ما وعدت اليوم ايكون

---

1) اللحد .   2) يتلألأ .

الشوق والحنين للبقاع المقدسة :

واما زيارة مقام الرسول الاكرم فقد أتاحت لكثـــير من الشعراء ان يعبروا عن شوقهم وحنينهم للبقاع المقدسة وما يعانون من ذلك الشـــوق وهذا الحنين ، فعبد الله بن احساين دائم السهر والبكـاء من الشوق ، معتل الصدر من التنهد ، لا شيء يطفيء من ناره غير زيارة أرض طيبة حيث يريد ان يمرغ وجهه على قبر الرسول ويتضرع اليه أن يمنحه الامان :

رانى الله شاهد عن قلبى واللسان كل احيان

انبات كنضل ابشوقى والدمع كاينو لمـــزان

بتناهدى اتعلل صـــدرى والصعب ما بقى يليان

نمشى الارض طيبا نطفى ما فالقلب من نيـران

وانمرغ لخدود ونتضرع فوق من قبر العدنان

وانقول ياشريف لاسم مـــداح طالبك للامان

ثم يعود الى منزله فرحان ليصلى ويصوم ويمدح الرسول :

وانعود من الحج المركاحى يا عنايتى فرحـان

للصوم والصلا وامديحك بـين لحديث والقران

ويخاطب الطالب لحسن حجاج البيت ، وقد تعلق بهم قلبه وارتبط عقله ، متمنيا ان يقف مثلهم فى عرفات ويلبى :

عقلى طاش امعكم يا زيار العدنانى

لجبـل عرفـــا وامنا

قلبـــى كيتمنـــى

بفضل مول المنـــا

نحصن بالحرم ايمانى

نوقف فى موقفكـــم

وانلبى بالرحمـــانى

يرحمنى بفضلكـــم

وانقول ابلغت امانى

وهو يامل ان ينادوه فيقطع المسافات ليلحق بهم :

مـــدرا لى باللحقان
نربى نهج الطرقان
ندهولى يا صدقانـــى
نصبـــح فى حضرتكم
مير العشاق اسقانـــى

ومن اجل ذلك يرجوهم ان يدعوا له الله ان تتم له مشاهدة نـــور العين والشرب من المعين ما دام يعشق وما دام الشوق يدعوه :

رغبو فيا المعـــين
انشاهد نور العـــين
نروى من راس العـــين
نعشق والشوق ادعانـــى
فالمعـــلا ننظركـــم
وانشاهد من يرعانى
كرمـونى بدعاكـــم
خايـف نفسى تسعانى

ومثل هذا نجده عند الكندوز الذى يخاطب الزائريـــن يرجوهم ان يخبروا صاحب المقام بحال مهجته الفانية وذاته النحيلة من الشوق ، يقضى ليله ونهاره تائه الجوارح ذاهل الروح ، لا يحلو له عيش فيرغب فيـه ولا يناديه الموت فيرتاح ، دمعه متهاطل كالمطر لا يفتر ، وسهره لا ينقطع مـن فراق من سلبه وملك عقله ، لا يزيد قلبه الا لظى واحتراقا وقد حالت دون الوصول اليه الروابى والجبال ، وهو وحده الذى يستطيع معالجة دائه :

خبروه ابحالى رامهجتى ارشات * من الوحش وذاتى بالشوق ناحـلا
اكما انظل انلالى(I) بالشوق كنبات * ولجوارح تاهو والروح داهـــلا
ما زهى لى عيش اولا نـــادانى اممات *
من افـــراق امناكم لنجـــال هاطـــلا

I) اسير بدون هدف .

ليس تفتر كالودق (I) السـاكب الدقيق *

تـــاه عقلى شى ايـــلاقنى ابحبكـــم

. . .

وين ما سرت انشاهـد ماريت اخيال *

فالفكـــر واليقظ والذات فاهيـــا

اسلبنى واملــــك عقلى سيد الرجال *

تاهت اسيار الذات امعاه داويـا

. . .

كل ساعا ايزيد القلب الظا احريـق *

يا لى غيبتـــم اوفـــين حدكـــم

اكما انقيل نمشى سهران كـــل ليل *

من اهوى محبوبى فاقد راحتـى

. . .

درقـــوه اعليا لـــرواب الطـــواد *

ليس من غيرو كـــان الليعتى اطبيب

كذلك يبعث الفلوس سلامه للرسول مع الذاهب لزيارته ويطلب منه تبليغه انه من الفراق ينحب معذب القلب هاطل الدمـع ملسوع الضمير ، راجيا ان يقرب لمقامه وحماه وقد طالت غربته :

يا الغادى لمقـــــام الهاشمى المرشاد *

بلـــغ اسلامى حـــزم للنبى الهـــادى

قل للحبيب من أفراقـــو عدت انحيب *

وقلبى ابلفراق يا صـــاح متعـــذب

قل للحبيب دمع عينى هاطـــل اسكيب *

واضميرى ابلفراق لا زال امنكـب

قل للحبيب ردت لمقامو تقريـــب *

هـــادى مـــد اشحال ونا متغـــرب

امتى لحماه فحياتى نتقرب

I) الودق كما فى الفصحى المطر .

ويتوسل الى الله بمن زاروا بيته ان يزين اسمه ويزكيه وينعم عليه بلقب الحاج ، كناية عن أدائه الفريضة :

يا لمولى زكي اسمي باسم الحاج * ابجاه من حج أطاف أزار حرم طه

فما أسعد من زار مقام الرسول الكريم وادى الشهادة عنده ، وما أسعد من رأى سكان طيبة وفاز بالعز والرشاد ، وما أسعد من شهد نور الهدى المبهج ، فما مثل النظر اليه تنزه ، ولكن هل سيمتع بصره في جمال الرسول ليرقى عند رؤية صورته ؟

يا سعدات من زار امقام سيد لسياد   يا سعدات من عندو أدى الشهـادا
يا سعدات من شاف امقام تلك لوهاد   قوم طيبا فايز بالعـز والرشـادا
يا سعدات من رانور لهدى المبهاج   ما بحال النظرا فشمايلو انزاهـا
ياترى ننظر فجمالو ابشوف نغنـاج   عاد نترقى لما صورتو انراهـا

وقد تتاح الزيارة للشاعر فيحس هذه السعادة على حد ما تم للحاج اعمارة الذى غدا سعيدا وقد حج مع الابرار ، وطلب العفو عن أوزاره ، وزار مقام النبى المختار ومتع بصره فى قبته ، أنعم الله عليه بالزيارة فتنور قلبه ، وتلا القرآن فى مسجد الرسول وسبح فى ساحته :

سعد سعدى حجت امع لقطاب لبرار   سعد سعدى وطلبت لعفو عن اوزارى
سعد سعدى زرت امقام النبى المختار   سعد سعدى متعت افقبتو ابصارى
سعد سعدى نعمنى خالقى ابلمـزار   سعد سعدى واتنور ساكن السيارى
سعد سعدى فى مسجدو اقريت لسوار   سعد سعدى سبحت افساحتو البارى

لذلك فما شاهد — فى رأيه — شيئا من لم يشاهد مقام الانوار ، وما أدرك من لم يدركه ، وما أحس من لم يحس سر الاسرار فى مقام المصطفى عظيم الاسرار ، وما فاز من لم يفز بالحج والذكر عند قبر النبى الكريم ، وما رشف من لم يرشف من ماء زمزم العذب خير الآبار ومطهر القلوب :

آش شافوا من لاشافوا امقام لنوار   واش دركوا من لادركوه افلعـمارى
واش حسوا من لاحسوا ابسر لسرار   فى امقام المصطفى عاظم السـرارى
واش نالوا من لانالوا الحج واذكـار   فوق قبر الهادى لمشرفو البارى
. . .

واش رشفوا من لارشفوا افخيرلبيار   بير زمزم لعذيب امطهر السيـــارى

واذا ما هيئت الزيارة للشاعر فانه قد ينقل وصفا للركب ومراحل الحج فى قصائد أطلق عليها «المحمل» ، وهذا ما فعله عبد القادر بوخريص الذى وصف ركب الحجاج المغاربة وهو يستعد للرحيل من فاس ، وقد ضم جماعات من سوس ومراكش والحوز والعرب والبربر ومختلف القبائل:

أرواح أراسمى اتشوف هذا الركب السايـــر

خلا ناس الذوق سايقا لمقـــام المختـــــار

مادامن قومان جات تمشى للحج اتخاطــــر

من سوس امراكش اللفريج جلوا الخطـــار

واهل الحوز اوكل امن اتهيا واعرب وابرابر

واقبايل شلا انصفهـــا والطلبا لخيـــار

ويعطى صورة لاطار هذا الجمع الذى برز فيه أكابر أهل فاس ، حيث نصبت الخيام واصطفت الخيول ولمعت الخناجر والسيوف والبنادق والرماح ، وحضر أبناء السلطان يحيط بهم الخدم والحشم ، ووقف رئيس الركب يستعد للرحيل وقد فاضت عينه بدموع كالجواهر :

واخوايج هل فاس برزوا بمضارب واسحاحر

واخيام اعجيبـا امتحـفا فرجـا للنظــــار

واهجاين واخيول رايضا واصوارم واخناجر

وامكاحل واسنون والسيوف اتقصر لعمـار

واولاد الملك عبدو رضى اسناهـم زاهـــر

حفت بهم ناس لوفـا واعبيـــد ولحـــرار

والحاج الطالب (I) فاض بحرو دافق بجواهر

واتهيا للميــز والسفـر بالمـال ولجـــوار

I — فى البحث الذى كتبه الاستاذ محمد المنونى عن «ركب الحاج المغربى » ان ركب هذا العام (1326) حج فيه المولى ابراهيم ابن السلطان المولى سليمان وان الذى ترأسه هو الحاج الطالب بن جلون (ص I5 ط معهد مولاى الحسن — تطوان 1953) .

واجمال وابغال ولحمال والصايم والفاطـــر

واهوادج واجحاف صاينا واعوانس وابـكار

ويستعرض مختلف مراحل الحج ، وتبدأ فى رابغ حيث مكـــان الاحرام — بالنسبة للمغاربة — والشروع فى التلبية ، فالطواف بالمقـام وتقبيل الحجر الاسود والوقوف بعرفات ، ثم الهدى والنحر فى منـــى صباح يوم العيد فرمى الجمار ، وبعد ذلك يؤدى العمرة ويقوم بزيـــارة قبر الرسول فى المدينة :

وافرابغ يحرم امـن اتهيـا للـحج وهاجـــر

ويلبى للحى امن اصميم القلـــب البكـار

ويطوف ابلمقام ولحجر قداه‍و يتجابـر

وافعرفا تكمل حجتو ابرحمت الجبار (I)

وايضحى بمنى اصباح عيدو وايولى ظافر

بفرايض وامناسكو او حجو يرمى بجمار

وايجب العمرا اعلى النهايا ويطيش الخاطر

وايجدد بالسير للشفيع الماحى لمـزار

أما اذا لم تتح الزيارة ، فيكتفى برسول يبعث معه كتابا للنبـــى العظيم ، على حد ما فعل الحاج محمد بن على المسفيوى فى «المرسول» الذى يقول فى حربته :

من الغرب اتسير ابلكتاب يالمرسول وصلوا لحمد طه خاتم الرسالا

ويشير عليه بالطريق الذى ينبغى أن يسلك للوصول الى البقاع المقدسة ، مع تحديد لكل المحطات التى يمكنه أن يتوقف بها ، وهو فـــى البدء يوصيه ان يتجنب الصحراء لقلة الماء وصعوبة الطريق وينصحه ان يسلك طريق الساحل وان يظل فى ركاب الحجاج :

لا تفرق الحجاج اتنال كل تقـراب فى اجمعهم تدرك لمراد دون ريبا

جنب الصحرا تنجا من هول واشغاب قلت الما فيها واطريقها اصعيبا

اعلى اطريق الساحل تغدا وصغ للقول رايد النصحك بحديثى افد لمقالا

I — المجير

أما الطريق فى المغرب فيبدأ من الرباط فسلا فمهدية فأصيـــلا فالعرائش فطنجة فسبتة فتطوان فمليلية فجبال الريف :

امن الرباط اخرج كربك ينفجـــا ولقبول ايشملك طيبو اعطير نفاج
فى اسلا تلقنى لرجوعـــك نترجا دوز مهديا وزلا (1) او فوت لبراج
من لعرايش تغنم فى طنجا الحاجا ابزورت الوالى لمكنى السميد الحاج
يمن اعلى سبتا وفتطوان محفـــول اتكون فملالا واتعود افلكفـــالا
دوز فجبال الريف اولا اترافق اجهول اترك خلفك قومان الجور ولجهالا

ثم يعبر الحدود للجزائر حيث يمر بوهران ومستغانم والجزائـر العاصمة فعنابة ليصل الى تونس ، وفيها يزور بنزرت وتونس العاصمة حيث يوصيه أن يقف على مقام سيدى محرز قبل أن يأخذ طريقه لسوسة وسفاقس وقابس ، ومنها يدخل الى ليبيا بادئا بطرابلس فطبرق فبنغازى فبرقه .

دوز للغزوات بنى انصاف بظهر * وهران (2) اقبالو ينبا احصين زاهـر
مستغانم اسواسر اكبلها امضيـر * كان فالتيه اتبان امدينت اتزاير (3)
بعد عنابا فى بنزرت ماترى هـول * بات فى تونس لها روح افلمهـــالا
زور سيدى محرزواغدا متيل رقاص * ذكر احبابى فى سوسا امع اسفاقس
فى احماهم تحظى هانى او لاترى باس * ما تفطن اقبالك حتى اتشوف كابس
بعد كابس فى امسايراتشوف بفلاس * من اسواحل جرب حتى طـرابلس
بات واقصد طبروق اولا ترافق اكفول * اتصيب بنغازى طرف اليم غلفـــالا
كن فى برقا حاضى لايصيدك ادهول * فى امهامه درنا ما تلتق ادهـــالا

ويصل بهذا الى الحدود المصرية الليبية ، فيدخل السلوم ومنها الى الاسكندرية فدمنهور فطنطا فالزقازيق فبنها فالقاهرة :

زد للسلوم اصغالى انفيدك بغراض * ابلحدق كن افلمشى اخفيف لعضـا

---

1 — يغلب قلب صاد أصيلا زايا

2 — يغلب على المغاربة نطق وهران بكسر الواو .

3 — يغلب على لهجات الشمال الافريقى قلب جيم الجزائر تاء وكأنها تستثقل الجمع بين الجيم والزاى .

فى اسكندرية تلقى من لوفاحـظ ✻ للدمنهور اتكلف ابلمشى اكبـــالا

. . .

فوت دار الرهبان تدرك عز واقبول ✻ بلعباس المرسى اللى افلحظــــا

زر سيدى البدوى كان رايد اتصول ✻ افطنطا ما تحتاج لراسمو ابـــدالا

لزكازيك امع بنها اتصيب فالحين ✻ منها روح المصر يا رسول فرحـــان

ويتوقف ثلاثة أيام فى القاهرة ليزور مقام سيدنا الحسين والقلعة وضريح الامام الشافعي والسيدة سكينة ويستمتع بضفاف النيل . وهو خلال هذه الايام يتفرج على حفلات المحمل بقبابه وهوادجـــه والمشاعـل والعساكر فى زيها الجميل والابواق والاعلام والطبول :

سر لمقام ولد الهاشمى اتصيب فالحين	الجاهم اسع الرب لـورا المنـان
اطلع للقلعا لحصينا ومتع العيــن	اعلى لخبير انفتش من به حق ستعان
زر لمام الشافعي اتعود مشمـــــول	بالثنا والبركا ولا تـر امهـــــالا
اكداك ست سكينا(1)طب كل معلول	افحرمها زد اتدلل غايـت الـدلالا
اجلس تلتيام افرجا ابغيتك اتنـــال	بنزايه بين القلعا وساحل النيـــل
كل يوم افراجا بين لكهول واطفال	فى ايام المحمل اللى هو موكب احفيل
بالجوامر شمع يبريزها ابلهــــلال	ولقبب وهوادج تشفى اسقام لعليل
ولعساكر تظهر فى زيها المكمـــول	افلكسا وما دركت كيفها اعمـــالا
ابلعساكر واغوايط ولعلوم واطبـول	ايجددو داك الموكب كل ما اتبـالا

أما الرسالة التى يحمل فسيبلغها عند شباك المقام ، حيث يوصيه أن يضع يده ويخبر صاحبه الكريم انه جاء مبعوثا من محب فنى جسمه فـى حبه ، لو استطاع لقدم روحه مقابل وصله ورؤية نوره ، جاء برسالة منه وقد تركه رهين الشوق يريد أن يتشرف بطيب اللقاء ، وألا يحرمه من رؤية جمال وجهه ولو فى المنام ، فكل رغبته وكسبه أن يجود عليـه بالرضـا والعطـف :

بعدها توضع فالشباك راحـــت ايديـــك

قل لويا من روح النفس هايـــم افـــداك

---

1) الذى يحفظه الرواه هو «ست ستينا» ولكن لا يعرف ضريح بهذا الاسم فى القاهرة ، ورجحنا أن يكون تحريفا لـ : «ست سكينا» .

جيت من عند اللى جسمو افنا افحبـــك

قال لك حق اللى بيـــن لعبــاد نبـــاك

لو ايصيب ايبدل روحو ابطيــب وصلـك

ايشوف نورك من سجدت لو اجميع لملاك

جيت برسالا واتركتـــو ارهين شوقـــك

راد يتشرف يـــا سيدى ابطيــب ملقـــاك

لا تحرمو من نظرا فى اجمـال وجهـــك

حبها ولو فى امنامــو ايشاهـــد ابهاك

كان رفتلو من بعد الرضـــا ابعطفـــك

ذاك رغبو واكمال اتجارتو امـــن أوفـــاك

ومثل هذا نجده فى القصائد التى يطلق عليها «المرحول» أو «الورشان» أو «الحمام» حيث يرسل الشاعر طائرا الى البقاع المقدسة يحمل رسالته للرسول ، مارا بنفس المراحل ومزودا بنفس التوصيات . من هذه القصائد «مرحول» الحاج عمر المراكشى الذى يقول فى حربته :

أولد لحمام ادى لى عنوانـــى للصادق لمصدق رسول اللـــه

ومنها كذلك قصيدة الحاج ادريس لحنش المشهورة بـ «حمام المدينة» والتى يقول فى حربتها :

هاك اكتابى يا حمام المدينـــا من أرض فاس سر اتزور المدنى

ويوصيه اذا ما وصل الى الشباك أن يلقى بالكتاب ويبلغ الرسول أنه مبعوث من طرف عبد أثقلته الاوزار ، تحبسه وتقيده جرائم كبيرة ، وهو يرجو شفاعته ليل نهار :

أوقف فالشباك الشريف الزاهر والق اكتاب للماحى تاج انصارو

ثم قل أشافع لعباد الطاهـــر هذا كتاب عبد امثقل بـــوزارو

محبوس امقيد فى اجرايمو لكبار يرجا اشفاعتك فى ليلو وانهارو

التـــوسل :

واذا كان الشاعر الشعبى قد عبر فى قصائد الحنين الىالبقاعالمقدسة والشوق لزيارتها عن حال ضعفه مثقلا بالاوزار ، فانه فى قصائد التوسل

كشف فى وضوح أكثر عن هذا الحال وعن رجائه الملح فى الله أن ينقذه ويعفو عنه ، متخذا وسيلته اليه أو الى رسوله الكريم وساطات مختلفة(1) .

ومن أشهر قصائد التوسل قصيدة العلمي التى يقول فى حربتها :

يا من ابلانى عافنى ارحمتك انال   خفف ثقلي يتسرح يرتخا اعقالى

وفيها يطلب من الله أن يغيثه حتى ينفرج كربه ويصرف همه ويهنا خاطره ويسلو قلبه ، فليس له من ملجأ الا هو بعد أن فشلت كل حيلـــه وخيمت الاكدار فى ساحته ، وهو يريده أن يقضى حاجته فى الحال متوسلا اليه بالرسل والانبياء والاولياء والسادات والصالحين وكافة الاقطـاب والابدال وبجبريل وملائكة العرش وعزرائيل وميكائيل واسرافيـــــل واسماعيل وابراهيم :

غشني يتفجا كربى انلـــوح لهـــوال * خاطرى يتهنا قلبى ايعود سالـــى
لين يركن من بارت لو اجميع لحيال * اوعاد منزل ديوانو ابلكدار مالـــى
ادخيل لك أمولاى بالانبيا ولرسال * ادخيل لك اسيدى بجاه كـل والى
ادخيل لك بالسادات الصالحين لفضال * كافا لقطاب ولجراس وابدالـــــى
يايلاه اسألتك بجاه حق جبريـــــل * اسع املايكت العرش هل السما العالى
اوجاه عزريل وميكائيل ويسرافيـــل * كل ما نطلب لك نبغيـــه ينعطالى
اوجاه اسماعيل ومول لمقام لخليـــل * حاجتى نبغيها فالحين تنقضى لـــى

وهو حين يتوسل الى الله يعرف أنه غير غائب حتى يرجوه أو عاجز حتى يعذره ، وانما هو قريب حاضر ناظر ، جزيل العطاء والاحسان ، قادر على أن يشفى ذات العبد من كل علة :

مانت شى غايب نرجاك يالجليـــل * اولا انت شى عاجز تعدر يالمــولى
اقريب حاضر ناظر معطا احسانك اجزيل * تقدر تشفى من دات العبد كل علا

أما هو فضعيف الجسم ثقيل الحمل لا يعذره الناس فى بلواه ، لا حول ولا قوة له ولا جهد ولا حيلة ولا تدبير فيما قضى الله :

لبدان اضعيف والحمل جاير اثقيـــل * ولخلايق ما تعدر حال من اتبـــلا
مايلى قوا ولا جهد ولا حــــــــول * ولا تدبير افلقضــــا ولا حيــــلا

---

(1) معلوم أن للدين رأيا فى موضوع التوسل الى الله بالغير أو التوسل لغير الله ، ولكن ليس من شأننا أن نتعرض له فى هذا البحث .

وأمله كبير في أن يبلغ مقصوده ، فالعبد اذا شكا لسيده قبـــل شكواه وحرره ورفع مرتبته ، لذا فهو يدعوه ويرجو منه القبول والاسراع فيه ، ما دام باب الاجابة غير مقفل ، ومـــا دامت خزائنـــه مفتـــوحة للسعاة مثله :

اذا اشكا العبد اعلى سيدو ايزيد يقبال *

ايحررو ويديـــرو فمـــراتب لمعالي

باب لجابا عندك ما تسد بقفـــال *

امخـــازنك مفتوحا للساعى ابحالى

. . .

من عندى انا الدعى ومن عندك لقبـــول *

والحـــاجا ما تكون فيها تعطـــلا

أليس هو القائل لرسوله : «واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعانى » ؟ واذن فلن يخيب عبد دعاه وسأله ، فهو سريع العطاء ، تنفيذ امره رهن بحرفى الكاف والنون ، وتلك قدرة الجليل التى حارتفيهاالعقول ، وما حاول احد ان يحقق فيها الا وغاب عن عقله وتاه :

حق قلت يا ربـى للنبى المرسول * من ادعانك فعبيدك حق تستجب لو
كيف يدعى عبدك وايخيب بالمسؤول * يا سريع المعطا لجميع امن اطلب لو
أمرك بين الكاف ونون حق مفعول * من اتحقق يحمق وايغيب له عقلو

ولا عجب فقدرته وسعت كل شيء ، اذا اراد شفا العليل واغنى الفقير ورفع الوضيع وعلا شأنه وجاهه ، واسعد الشقى وغفر له معاصيه وصيره من اوليائه . لذا فالواقف ببابه يطمع فى العفو الذى يجود به على العصاة أمثاله :

اذا ردت بحكمتك تشفـى لعليل * ويذا ردت لفقير يرجـــع ذو مالى
ويذا ردت لوضيع يدنــا للتفضيل * ترفع جاهو ايعود فى منــزل عـــالى
ويذا ردت الشقى اتسعدو بالجليل * تغفر لو افما اعصاك واتجعلوا والى
بعفوك اتجود * على العصات ابحـــالى

وهو يرجوه الا ينظر الى قبائح أفعاله ، وان ينظر الى ضيقه وضعف حاله ، فلن تنفع الله طاعته ولن يضره جهله ، ما دام غفارا لا يحاسب على الضلال :

لا تنظر يا كريـــــم لقبايح فعلى *
انظر من ضيقتى وضعف الحـــالا
ما تنفعك طاعتى ولا ضـــرك جهلى *
لنك غفـــار ما تجافـــى بضــــلالا

فيه رجاؤه وعليه توكله ، ولا يريده ان يسلمه الى مـــن لا يرحمه ولا يرثى له ، هو المتعالى يعلم سر قلبه وانه لا يفكر فى غيره ، مهمـا ضاق به الحال وفاض قلبه فهو لا يسعى لغيره ولا يفتر عن سؤاله :

من فيك الرجا راعليك الاستكال * لا تولجنى اليد مـــن لا يرثى لى
انت تعلم ابسر قلبى يا متعـال * لا ينى ما ندير غيرك فى بـــالى
مهما يقنط سماكنى ويضيق الحال * نسعاك اولا يغيب عنـــك اسؤالى

ولابن الوليد توسل رائع يقول فى حربته :

ناديت ابكـــرحتـى اوصوتـــى * وارفعت صوتى الرب الملكـوت
وادعيت آقلـت فى ادعوتى * يا من نجيت يونس فبطن الحـوت
اما قبل الموت وما بعد الموت ياربى كن لى افموتى

وهو يتوسل به اليه ان يسمع دعاءه ويلبى طلبه ، فقد وقـــف ببابه مملوكا يرجو ان يغنيه من احسانه وفضله الواسع ويهديه لذكره ويجعل هذا الذكر قوته والذ فى لسانه من كـــل لذيذ ويكتب لـــه فى قسمته قصرا بالجنة :

اللهم ابحقـــــك أمـــولاى اعليـــك *
سلتك بك بالسميع المـن ادعـــاه
كن افطلبى اسريع اكما نطلب لك *
يامن صورت صورتى فى شين ارضاك
انت السلطان مايلك فالملـك اشريك *
ونا المملوك واقف فى بابك نرجـــاك

يارينـــا اسألتـــك * من فضلك واحسانك * وانت الخير عندك

ضافى اعلى اعبادك * اغننـــى بفضلـــك * الواسـع اخزانــك

واجعـــل مشريى اوقـــوتى * ذكرك فلسانى اغلى من لذ القوت

واجعـــل يا خالقـــى اقسمتى * اقصر امـؤيد افجنت لعلا موروث

وله آخر يتوسل فيه الى الله باسمه وببعض سور القرآن الكريم ، يقول فيه :

نتوسل باسمك ليك اوصاد اوطه اوقاف والقرآن لمبين والرحمان اياسين

ولمولاى على شقور توسل يقول فى حربته :

يالله نتوسل لك ابنـورك يا سيدنا مولاى محمد لحبيب عندك

يرجو فيه الله ان يحن ويشفق على عباده ، والا يخيب من جهـــل بأمره والا يعاقب العصاة لانهم يلتمسون رحمته ، فكل الخلق فى قبضته وحكمه ، وكلهم يعرفه بقدر ما يريده هو ، بيده شفاء المريض لا يداويه غيره ، وبيده القبض والبسط ، واحد فى ملكه لا شريك له :

حـــن واشفـــق اعلى اعبادك ياسيدنا *

اولا اتخيب شى ياسيدنا من جهلك

لا تزعج ابلعقوبا اعلى اللى اعصاوك ياسيدنا *

اوهمـــا ابلحبيب يرجاوا رحمتك

كلما خلقت ياربى كلو فى احكامك ياسيدنا *

كلها اوما بينت لـــو منـــك

واللى امريض امعلال ادواه بـــك ياسيدنا *

اولا ايداويه يـــا سيدى من غيرك

يا باسط لنعام ابسط اعبـــادك ياسيدنا *

ابخيرك يا سيـــدى ونعمـــك

القبض والبسط كلـــو منـــك ياسيدنا *

فيه القت يا مـــولاى عبـــدك

لا شريك امعـــاك اولا مشـــروك ياسيدنا *

واحـــد احـــد فى ملكـــك

ومن طريف التوسل الى الله لون جماعي يشترك في انشائه اكثر من شاعر يطلق عليه « التويزة » او «الراحة والشفاء» (I) ، وهو عبارة مساجلة يقصد منها الى طلب شفاء صديق مريض ، او انتقام من طاغية ، يتطارح فيها الشعراء عروبيات أو اقساما تكون في مجموعها قصيدة (2) ومن اروعها تويزة مراكشية شارك فيها الاشياخ محمد بن لكبير ومحمدبن عمر ومحمد بن بوستة متوسلين الى الله ان يشفي صديقا لهم مصابا بداء الضيقة النفسية ، بدأها ابن الكبير داعيا الشعراء الى طلب الرحمة والشفاء لهذا الصديق ومتوسلا الى الله ان يدركه بلطفه الخفي :

أسادتي افوامس العلم الموهوب * يامن لكريم هبكم افضل وافي
عنكم اسلام فايق المسك افلجيوب * يعبق عن جمعكم ياهل لقوافي
وبعد مرو اقصدكم وجا مرعوب * امريض النفس طالب الله ايعافي
طلبوا له الرحمة العالم لغيوب * اسميع امجيب ابلخطا ليس ايحافي
هو يعفو اعليه من هذا المكروب * يشفي ضرو افحين بدواه الصافي
وادرك هاذ لمريض باللطف الخافي

I) في مراكش يطلقون على هذا اللون «التويزة» وفي فاس يطلقون عليه «الشفاء والراحة» . ومعنى التويزة الحصيلة ، وهو اسم شائع عند الفلاحين . وذكر لنا الشيخ ابن عمر المراكشي في نشأة التويزة عند شعراء الملحون قصة اسطورية تقول ان ملكا كان له كنز لا يفتحه الا ايام المجاعة . وفي يوم من هذه الايام أراد ان يفتحه فلم يستطع فاستدعى العلماء فعجزوا فهددهم بالقتل . وكان احد هؤلاء العلماء متصلا ببعض اشياخ الزجل فحدثه عن الموضوع فقال له الشيخ : «انتم علماء الاوراق ونحن علماء الاذواق» واخبر العالم السلطان فاستدعى هذه الطبقة من حملة علم الاذواق — وهم الشعراء — فاخذ كل منهم ينشيء وينشد الى ان تيسر فتح الكنز .

2) ذكر لنا اكثر من شيخ ان التويزة تقال قصيدة في فاس وعروبيات في مراكش .

فأجابه محمد بن عمر :

واعليك السلام يا نعـــم المدوب * اسلام الا يزول من عند اولافـــي

استفدنا جل قـــولك والمخطوب * افشأن هذا الرجول من ضرو خافي

له نسال اعلاج ضرو دون اسبوب * يضحى سالي اسليـم هاني متعافي

ما بين اهلو ولامتو فارح مطروب * توب الراحا اكساه لبس بالوافـــي

راهلت بالسقم ما بقى مشغوب * شفاه الله امن الضيقا متشافـــي

حفظو من لاينام وانسى كل انكوب * وامضى ضرو وعاد بدنو صـــافي

له نسال لكريـــم وكفى منصوب * فدعايا كنقول يا نعـــم الكـــافي

ادرك هاذ لمريض باللطف الخافي

ثم رد عليهما ابن بوسته متجاوبا معهما في التوسل :

اتي مسطوركم ا يالامت لنجاب * واشرح صدري امنين ريتو بهدافي

افشان هذا الرجول بالضيقا موصوب * بالراحـــا بشروه ضرو متنـافي

وفاه الله بعـــلاج ارمى لنحوب * نجاه الله سار جرمـــو مترافي

اللهـــم ابجاه لحبيـب المحبوب * طـــه عين لوجود نعـــم المقتفي

اللهم ابجاه ما ضمت لكتوب * وابجاه الساجدين في كل افيافي

اسألتك بك لـك عجل بالمطلوب * يامن ترى وليس ترى كشوافـــي

ادرك هاد لمريض باللطف الخافي

كذلك توسل الشاعر الشعبي للرسول على حد ما نجد عند ابن الوليد الذي يتوسل اليه بحرف القاف من القدرة ، وبحرف العين من اعز اصحابه العشرة ، وبحرف الفاء من فضل فاطمة وبحرف اللام من الملائكة المقربين :

ادخيل لك ابقاف القدرا * اعين عز اصحابك عشرا * أفا فضل فاطم الزهرا

الام لملاك لقراب عند مـولاك

ويقف عند بابه يشكو متوسلا الى حماه ليعتق روحه من أيدى اعدائه : هواها الخشن والشيطان اللعين :

واقف عند بابـــك شاكـــي
زكت يا محمد فحمـــاك
فـادي روحـــي بفـــداك
امن ايديـن اعـــداهـا

نفسها واهواها لخشـــين

والشيطـــان اللعـــين

ومثله توسل الطالب لحسن الذى يقول فى حربته راجيا من الرسول أن ينجيه من حر النار :

فكنا من صهد النيران * يالعدنـان * يا رسول الدنيا والدين

ويطلب منه الا يفرط فيه يوم اللقاء الكبير ، فهو صاحب الفضـل والبر والشفقة ، وان ينجيه كما نجا الغارقين مثله فى الذنوب :

يا رسول العاهد لوثيق * لا اتفرط يـــوم الملقـــى

يا فصيح اقوال التصديق * والفضـــل والبر اشفقـــا

يا مسلك من كـــان اغريق * فالذنوب امثيلى وابقـــى

ويتوسل اليه بعمر وعثمان والحسن والحسين والصديق وعلى وبقية الصحابة الاركان واهل القرآن ، وبحمزة وفضلاء عقيـل وبحرمة الكتاب وصحف العلم ، يتوسل اليه بكل هؤلاء أن يفكـــه والمسلمين فى ساعـة الحساب :

ادخيل لك بعمـر وعثمان * بالعدنان * والحسن واكداك الحسين

والصديق اجملـت لركان * يالعدنان * ابعلى وهل اللبيـــــن

ادخيل لك ابجملت لصحاب * يالعدنان * ابحمزا وفضايـل عقيل

ادخيل لك ابحرمت لكتاب * يالعدنان * والصحوف اعلم ادليـل

اتفكنا فـى ساعت لعقـاب * يالعدنان * ياشريف النسبانفضيل

ويتوسل محمد بن الحسين العلوى الى أصحاب الرسول العشـــرة الشرفاء المنورين الذين سبقوا الى تصديقه :

زكت فحما نعم العشرا اخيار لصحاب *

اصحاب محمد من لا كيفهـــم محبـــوب

زكت افحرم لصحاب نعـم الاكرمـــين *

من بهم طابت لمكـــارم فلجسنـــا

هما الشرفا لمكـــارما فالعالمين *

هما الى نورهـــم لكمل اقتبسنـــا

هما الى صدقوا ابلحليم الامـــين *

مهما نور عل لفلاك ارضا واسنـــا

فيما جابه صدقوا نور اشمسنا

ويتوسل الحاج ادريس لحنش الى أبناء الرسول أصحاب الجـود والفضل ان ينظروا الى حاله حتى يظفر بأمله ويسلو وتهنأ روحه ويزول عنها الشقاء ، فقد جاء يسعى حماهم ، وهم اهل الوفاء والرحمة ، ونجوم الدنيا الزاهرة ، عساه يقبل وينال الرضى ويزهى بالبشر حاله ، فقاصدهم لا يخيب ، وقد صال عليه الزمان فأتاهم شاكيا تسيل دموعه :

أسادتـــى اولاد طـــه * شوفوا من حالى

جمعوا داتى امـــع ادواهـا * نظفر بمالى

واتريح الروح امن اشقاها * وانولى سالى

أسادتـــى أولاد طـــه * بغى نبرا من لعلال

شوفوا حالى افغير حـال *رفعوا عارى اوصارخونى تهنا روحى الحايرا

أسادتـــى اولاد طـــه * لحماكـــم جيت يافضـــال

قبلـــونى بالرضا انال * يادار الجود ولوفا وانجوم الدنيا الزاهرا

أسادتـــى اولاد طـه * قاصدكم ما يرا انكـــال

لين لبعيـــر ولغـزال * اهرب لمقام جدكم ياهل الرحما الناشرا

اسادتـــى اولاد طـــه * عنى هذا الزمان صـــال

والدمع مـــن لعيـــون سال * قبلوا من جا لبابكم شاكى يزها ابلمبشرا

فليس له من دواء غيرهم ، فى رضاهم عنه ربحه وغناه وراسماله ، وهو يرجو ان يقبل عبدا فى حماهم للخدمة ، فهم آل النبى الاصفياء الاوفياء المطهرون ، أعطاهم الله من اسراره الباهرة ، وهم ابناء فاطمة القرشيـــة الشريفة الكريمة درة الجمال الحسنة الافعال ، الشبيهة بحور الجنان :

شيدونى ابلا دواكم ياهل لمعالى

ربحى واغناى فى ارضاكم هو رسمالى

قبلونى عبد فى احماكم نخدم مدالى

انتم اهل الصفا ولوفا وانتم اهل النبى الآل

طهركم حق ذو الجلال

واعطاكم كامل لعطيا حسن اسرارو الباهرا

انتم اولاد الشريفا القرشيا درت لجمال

لكريما زنت لفعـــال

مولاتي فاطما البتول الحريا القاصرا

والى اولاد فاطمة كذلك يتوسل الغرابلي في قصيدته التي يقول في خـربتهـا :

طلبكم ضيف الله سرخنا ياهل لحسان *

من يقصدكم حاشا ايخيب ياهل البيت العدناني

لشراف الحسنـــين

وفيها يقول متوسلا اليهم بجدهم ونورهم السني وشانهم العظيـــم وطيبهم العطر أن يفكوا اسره ويغنوه ويجبروا كسره ويزيلوا ظلمته ويضيئوا نجمه ، فتفتح له أبواب الخير ويربح ويسعد في آخرته ودنياه ، وطالما ان خلفهم مستتر ، فهم رحمة للعصاة والمتقين ، وكل من لجأ الى حرمهم لايخاف ، وهم يشفعون في محبهم فيدخل الجنة :

نبغي اسراح يسري * وغنا فقري * اوطب كسري

نسعد وانفوز ابلمزيا حين ايعطفو اسيادنا

هل نوفا ضماني لشراف الحسنين

وابحق جدهم نسألهم الماجدين

وابحق نورهم الوسم * وابحق شانهم الفاخم * وابحق طيبهم الناسم

نبغي انلوح ظلمي * يضوى نجمي * ابنور يسمي

وابواب الخير تنفتح افربح الدنيا او لآخرا نسالهم يعطاني

نسعد فالداريـــن

يا ولاد الزهرا الطاهرا الشرفا نخبة عدنان

ما داموا فالدنيا انجالهم تقات وعصياني

بهـــم مرحومـــين

كيف انخافوا واحنا افحرمهم يالمت لخوان

ايشفعوا فاللى حبهم ويدخل الجنا عانى

يغنم حـــور العين

ومثل هذا التوسل باولاد فاطمة الزهراء نجده عند الفلوس اذ يقول :

يا ولاد المختار الهاشمى الرسال ※ لا تدوزونى يوم البعث ولهـــوالى

نوركم اكسا الدنيا ياهل لكرايم ※ يا ترى فيها كم يتمتعوا انيامـــى

ودكم ابغضاو نحـم لغنى الدايم ※ اتل الخلق اعباكم اوجاهكم سامى

اذا اعطفتو عنى روضى ايعود ناعم ※ من اسقيتوه ما يبقى اكليح ضامى

اذا ارضيتو عنى ترمى اجميع نهوال ※ ما يخيب امن اقصدكم ياهل لعالى

اذا عطفتو عنى قلبى ايريح والبال ※ كان وصل ارضاكم على ارضى العالى

. . .

يا هل النور السانى جيتكم مكيود ※ سرحوا سجنى يالشراف امن اكيادى(I)

يا هل النور السانى جيتكم مطرود ※ دونكم ما عندى من ذا الغلال فادى

يا هل النور السانى جيتكم موكود ※ عاملونى يا آل المصطفى الهـــادى

يا هل النور السانى جيتكم موسال ※ صرخونى يكمل قصدى امع اسؤالى

مدح الاشراف والاولياء :

واذا كان الشاعر الشعبى يتوسل بابناء الرسول فهـــو يمدحهـــم كذلك ، فابن الوليد يطلب من المنشد ان يفخر بفاطمة بنت رسول الله عروس يوم القيامة ، الصائلة بجمال الشرف على سائر بنات آدم ، ويطلب منه أن يمدحها ويتغنى بمدحها حتى يفوز بنظرة فى جمالها ويفرح :

صول ياغانى وافخر ابللا فاطما الزهرا بنت ارسول الله اعريس يوم القياما

الصايلا ابزين الشرف اعلى ابنات آدام

. . .

وامدح للا فاطم بنت الرسول ※ غنى بالمدح وامدح حتى بالمدح

تربح نظرا فزينها وافراح

. . .

I) مكيود : مقيد ، والاكياد القيود .   2) سائـــل .

امدح يالمدح أقول أزيد قول * عســى ان شا الله اتحوز نظرا

افزينها واتفوز كنز امعظم افلكنوز

ولكنه لا ينسى شرف المقام فينبه مخاطبه ويطلب منــه أن يتعظ ويتادب ويتامل ويمتثل ويطلب الامان ، ويهدى كلامه الجميل الى أم الجمال حتى يهدأ من الفتنة ويحوز الهناء وينال الغنى ويفوز بنظرتها فى المنام :

اتعظ واتأدب واتأمل يارجول

وامتاثل واطلب لمان

واهدى كلامك الحسن

لــم الحسن

وارتاح من الفتنــا

واطلب لهنــا

اتنال لغنــا

واتفوز ابعز لحلاما

ويذهب شقور فى مدحه للاشراف حفدة الرسول الى أنهم معروفون فى كل مكان ، لا يخفى سرهم ، من احبهم عظم وشرف وغدا سيفا مصقولا لا يفل ، ومن ابغضهم صار حزينا ذليلا مهموما :

اولادك فى اجبال ووطا ساروا بالتعريف *

شوفوا يالناس سرهم عمرو ما يخفا

اللى ايحبهم صار امعظــم اشريــف *

سيفـــو مطحون عمرو ما يحفــا

واللى يبغضهم صار احزيـــن اخسيف *

كيف المغبون اللى يرفــد لحفــا

وفى نطاق مدح الشرفاء حفدة الرسول والتوسل اليهم ، مـــدح الشاعر الشعبى مشاهير الاولياء والصالحين وتوسل اليهم (1)

---

1) لا يخفى ان للدين رايا فى تقديس الاولياء والتوسل بهم او اليهم، لا نعرض له ، فهو بعيد عن موضوع البحث . وكانت قد قامت فى المغرب

=

وكان المولى ادريس (1) اوفرهم نصيبا ، ويطلق على قصائد مديحه «الادريسيات» ومنها قصيدة للعلمى يصفه فيها بانه هلال أهل الرأفة والوفاء والاحسان ، اذا رأف به نال لا شك ما فى ظنه ، وهو الامير الذى لا يعجز عن تنفيذ الاحكام ، يأمر ان عطف فينفذ أمره :

يا هلال اهل الرأفا والوفا ولحسان ✻ الى اتروف ابلا شك اتنال ما فظنى

يالمير الا يعجز عى انفوذ لحكام ✻ ابلا اعطفت امر يعمال شرط كازم

شهد بجوده أقدم الكرماء أمثال عدى وزيد وتاجهم حاتم ، كما تشهد الانس والجن والوحوش الهائمة والبر والبحر وسائر العوالم :

لك نشهد بالجود السماخيين لقدام ✻

اهثيل عدى أو زيد اوتاجهم حاتـــم

الانس والجن ايشهدوا ولوحوش لهوام ✻

ولبحور وبريـــن وسائـــر لعوالـــم

من العشرينات الى الثلاثينات من القرن الحالى حركـــــة سلفية متاثرة بالوهابية ودعوة الافغانى ومحمد عبده الاصلاحية ، قادها الشيخ ابو شعيب الدكالى ، حاربت تيار الطرق والاضرحة والزوايا . وبحثنا فى شعـــــر المعاصرين الشعبى علنا نجد انعكاسا لهذه الحركة فلم نجد شيئا حتـــى قابلنا شيخ مكناس السيد بنعيسى الدراز فذكر لنا انه كان مرة عائـــدا من زيارة ضريح المولى ادريس فقابله احد اشياخ مكناس كذلك ، يسمى مولاى احمد الدلال ، وعلم بأمر الزيارة فخاطبه بعروبى فيه روح سلفـــى لم يبق منه فى علم الشيخ الدراز غير هذا الشطر :

اجى نوصيك ياللى زاير لقبب

فاجابه الدراز فى روح معاكس بعروبى لم تحفظ ذاكرته منه غير قوله:

غرك يبليس ياللى غث ابلقبب
عنهم لا خوف لا حزن قول انعالى

. . .

هادوك هل ليمان والتقوا والحب
حب المولى اوحب خاتم لوسالى

وواضح انه يردد فى هذا العروبى الاية التى كان يتمســـــك بها الطرقيون وهى قوله تعالى «الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

1) وفد المولى ادريس الى المغرب فارا من وقعة فخ سنة 169 هـ وبايعه المغاربة سنة 172 ومات مسموما سنة 177 ، ودفـــن بزرهون ، وخلفه ابنه ادريس بن ادريس المتوفى سنة 217 والمدفون بمدينة فاس ، وكلاهما كان موضوع «الادريسيات» .

هو مقام الخير وكهف الاحسان والجود ، وهـــو القطب والسلطان المرفوع الاعلام ، وهو القرشى الهاشمى المرشود الوارث للفضل والحلم ، وهو سند المساكين والغرباء والمفقودين ، يلوذ به الفقراء والاغنياء واهل المدن والقرى وساكنو الخيام والاقطار المجهولة ، يتوسلون به وينادونه فتصيبهم جميعا رحمة الله :

يا مقام الخير وكهف لحسان والجود * يا لقطب السلطان الراقيا ابنودو
يا لحسن القرشى الهاشمى المرشود * يالوارث لفضل والحلم مناجدودو
اسنيد لمساكن والغربا اوكلمفقود * اوغانيين وفقرا بك كيلـــــودو
اوهل لمدون وقريات وساكنين لخيام * وهل لقطار الا نعرف لهم آســم
كافا ترغب واتنادى بفصيح لكلام * اوكافا ترحام أبفضل لغنى الراحم

ويتوسل اليه بحرا فاض ماؤه على الثرى ، ويرجوه ألا يترك روضه يابسا وان يعطف عطفة تشفى من الادواء ، شبيهة بعطف الناقة على بكرها بين العيس ، ويتوسل اليه ذا منزلة عالية لا تخفض ، ونورا يسطع ضياءه كالشمس ، جاءه ولهان مستهام القلب مغتاظا متعب الفكر مهموم القلب يرجو أن يجود عليه بالعلاج :

يا من بحرو اعلى الثرى دايم فياض * لا تترك روض غلتى ظمآن ايبيس
اعطف عطفا امخنترا تشفى لمراض * عطفت ناقا اعلى ابكرها بين العيس
ياماسك امنزلا اعلاها ما يخفــاض * يامن نورو انبا اعليك اضياءاشميس
اعزم لى ابلعلاج يا مولاى ادريس

فالذى لا يسقى غرس روضه من مائه لن يفوز بزهر جميل ، والذى لم يغتن أو يربح فى حماه فان جيبه يبقى خاويا ويظل مفلسا على الدوام ، والذى لم يعالج داءه بدوائه يظل متألما من مرضه :

من لا يسقى ارياض غرسو من ماكم * مايدرك ماينال بهجتزهر انفيس
من لاغنا وفاز واربح فحـــماكـم * يبقى جيبواعلى الدوام اصفر امفليس
من لايبر استقام ذاتــو بدواكـــم * لازال ابضر علتو معثور احسيس

ويرى الطالب لحسن ان ببركة المفضل مولاى ادريس شاع ذكر خير مدينة فاس بين مدن المغرب :

امدينت فاس خيرها يتذكر بين لمدون افغربنا

ابركت لفضل مولاى ادريس

ماس رمحه فظهر العز والفرح ، حيث جنب الناس الفتنة ، وملأ صدورهم بالعلم وأبعد عنهم الوسواس :

هـــا رمحـــو مـــاس * هل العز افرحا عنهم جنب لفتان

لعمر الصدور ابعلم التدريس * ذهـــب الوســــواس

أما الغرابلي فيرى له مجدا قديما متأصلا يصونه كرم الجدود ، يكفيه النسب الطاهر الذى يقربه من الرسول :

لك المجد اقديم صايناه اكرايم لجداد * بالعرفان أغايت الرضا ماهىمجحودا

دريا تاصلا (1) صيلها ما يحتاح اشهود

تكفيك النسبا الطاهرا وقريب الميعاد * من معدن الجود ولحظا نسبا محمودا

مابينك أبين الزكى غير ادى لجـــدود

ذاعت علومه فى كل مكان متقنة يرويها كل الناس ، غزيرة لا تدرك الا بجهد :

واعلومك نائى اصقوعها فى غايت لبعاد * متقونا يروى انساجها عمراوازيودا

مغزورا تغزير ساجيا مدروكا بجهود

وكالادريسيات «الجيلاليات» وهى القصائد التى قيلت فى المولى عبدالقادر الجيلالى (2) على حد ما نجد عند العلمى حيث يصفه بأنه بدر لاحد للمعان شعاعه ، يلهج بذكره الشباب والكهول والشيب فى أركان الدنيا الاربعة من عجم وعرب وانس وجن :

بدر الا ينتهى امن اشعاعو لمعـــان * الشريف الكامل الشريف الكيلانى

ياسيدى بك ايلغطو عل ربع اركان * اشياب أشابا وكهـــل وشيبانى

. . .

---

1 ـ الطاصلة : الاصل ، وقد ترقق الطاء .

2 ـ الجيلانى (ويغلب نطقها باللام) او الكيلانى او الجيلى ، ولد فى جيلان سنة 471 هـ وتوفى ببغداد سنة 561 ، واليه تنسب الطريقة القادرية، ولها عدة زوايا فى المغرب .

لمداين والقرى والعجم والعربـــان * اتعيط كافا باســم الجيلانـــى
كيف ابنادى الانس بك أينادى الجان * سبحان الواحد لوحيد الوحدانى

منحه الله من سره وقوته ، وولاه ملكا على كل السلاطين ، يرفع من أراد له الله العلو والرفعة فيصبعد به الى أعلى الدرجات ويحط من شاء اهانته وتحطيمه فينزل به الى أسفل مقام :

ولاك الحق عن اسلاطن كل اوطان * تتبختر فى امحاسن الملك الهانى
ترفع من راد به خير لعلو امكان * يصعد فالحين للمقـــام الفوقانـــى
واتنزل امن ابغاه يسلب ويهــان * يتحط اسريع للحضيض السفلانى

ويمثل للمهانين بالسودانى الذى استولى عليه الكبر ورفض طاعة الشيخ وقال غاضبا الا طاعة الا لله الذى ولاه ، فكان ان سلب كل شىء وغدا حزينا وخرج من عالم النور الى عالم الظلام ، وتبدلت حلاوة عسل القبول الى مرارة الهجر :

كل افحل مد ارقبتو طايع رضيان * اسوى ما كان امن احديث السودانى
ناضت نفسو وقال بكلام الغضبان * ما نعرف حد دون ربـــا ولانـــى
ثم فالحين شاهد السلب ولحزان * راح امن الضو اللمقـــام الظلمانى
بدل عسل لقبول بمرار الهجران * معلوم الكبر امن اسباب الحرمانى

وعند العلمى ان تعظيم الاولياء جزء من الايمان ، يسلو لذكرهم خاطره، ويفرح مزاجه ويلين قلبه ، ويتهلل من البشر وتذهب أحزانه :

تعظيم الاوليا امن او طايف ايمان * ونا تعظيمكم هـو سلـــوانـــــى
عند ذكركم نوجـد قلبى فرحان * كنى منكـــم من كثرت مازهانـــى
قلبى القاسى ايلا اتفاكدكـم يليان * تتهلل ابشارتى ويذهب شيطانى

حبه لهم قوة لساعده وحجاب يستره من عيون الحساد :

درت اشكال حبكم لعضودى عوان * احجاب اعلى اعيون لحسود اخفانى

وهو عبد له يخدمه عساه يوفيه بعض جميله عليه وعساه يجود عليـه برؤية بدر وجهه فى المنام ، مثله حين يراه كمثل المرتعش من البرد ينظر الى قرص الشمس فيشفيه الله من داء البرد :

عبد انخدمو انكون له من الخدمان * اولا نستوفا البعض من شاين اوفانى

من فرط الحب شفت للرؤيا عزمان ※ ايلانا شفت نور وجهك يكفانـــى
كيف اللى شاف دارت الشمس البردان ※ من ضمو البرد قال لكريم اشفانى

وكيف وفضله أعظم من ان يحصى أو يحصر ، فلو اجتمع الانس والجن والحيوان ومخلوقات ما وراء الكون ، ولو اجتمعت دواب الارض وطيورها وهوام اليم وحيتانه ، لو اجتمع كل هؤلاء ومثلهم آلاف آلاف الاضعاف ليشربوا من بحره لظل بحره ملآن فائضا :

لو اجتمع آدمى او جن او حيوان ※ او ماشدين اورا الشمد اللورانـــى
وادواب الارض واطيور امع الجرذان ※ او ما فاليم امن اهـوام وحيتانى
يرواوا اجميع والبحر يبـقى مليان ※ وامثلهم ضعف آلف آلف ضعفانى

لذلك فهو يتوسل اليه بجاه الرسول عليه السلام والصحابة وكبار التابعين ومشاهير الاولياء والعلماء فى كل مكان ، وبجاه الملائكة والانبياء والاماكن المقدسة والكتب المنزلة أن يعالج سقم ذاته ويحميه ويرعاه . وهو يستعرض أسماء المتوسل بهم على هذا النحو :

الجيلالى حرمت جدك بولحسـان ※ الهاشمى لهمام ذا النـــور السمانى
وابن ابى طالب الفضل روح الشجعان ※ كوكب لمجاهدين رشدى ومـــانى
وبابكر الزكى عمر وعثمـــان ※ لرجا يوم اللقا ايكونوا رفقانـــى
. . .
واجميع الانبيا امن ازمان الطوفان ※ لزمان المجتبى اشفيع العصيانـــى
. . .
وابحق املايك لعظيـــم المستعان ※ واسدرت المنتهى وعرش الرحمان
. . .
حرمت طيبا امن فحضرتها سكان ※ من لهم ارجال ابـــلا اضمانـــى
. . .
وابحق العلم والحديث الضـــمان ※ والايما اوكـــل من لهـــم يانـــى
. . .
بسلافك ولحفاد والاهل والجيران ※ داوى ذاتى او لوذ بيا وارعانـــى

وبمثل هذا الروح يتوسل اليه فى قصيدة أخرى يقول فى حربتها:

لاعلاك آليت اليوت أمولاى عبد القادر ※ صارخنى ماتخاف أولد رسول الله

وقريب من هذا نجده عند الطالب لحسن الذى يقول فى حربـــة قصيدته الجيلية :

غثني يا مولى بغداد * ادخيل لجواد * بك شجني محسوب اعليك بك عاني

ويقول في رجال مراكش السبعة :

ليغاثـــا يالفضالي * ياناس البهجا لبدور سبعة رجال

ويقول الفقيه العميري في سيدي عبد السلام بن امشيش (1) راجيا منه الرأفة والعون ومشبها اياه بالبدر الذي لا يتوارى ضوءه على طول السنين وقد حجب أنوار كل الكواكب :

انا يابن امشيش غارا بالرأفا كن لي اعوين

يا بدر انبا اولا اتوارى يضوى ما طالت السنين

يخفى لهلال ولنارا والسيرا الباقيين

ويشبهه الحاج ادريس لحنش بالهلال الذي أشرق نوره في المـــدن والبوادي :

انمجد لهلال اللي اشرق اضياه * بين لمدون ولبديـــا

امام الوسيـــلا ضيف اللـــه * ابن امشيش غير اعليا

ويقف لحنش بباب حمى الجزولي (2) بحر الكمال وكريم النســـب المقرب من الرسول عليه السلام ، يرجوه أن يعطف عليه ويكرمه بشراب ويعطيه من فضله ما يطلب :

عطــفا اويـــا الجـــزولي * مولاي ابن اسليمان بحر لكمال

عطفا اويايمام الغربـــا * العبد جالعندك يشـــــرب

كرمو فـحماك ابشـــربا * واعطه ابلفضـــل ما يطلـــب

لنك ياشريف النسبا * من سيد لوجـــود امقـرب

ويتوسل محمد بن المختار الشرايبي الى الله بالتباع صاحب الخير العظيم والسعد الطالع والقدر الرفيع لكي يكمل قصده ويبلغ مناه ، ويرجوه أن يسقيه من سر بحره الفائض الذي فاقت حلاوته الشهد حتى يفوز كما فاز أتباعه وقد هداهم الله بسره :

1 ــ هو شيخ أبي الحسن الشاذلي ، قتله سنة 625هـ اصحاب المشعوذ أبي الطواجين الكتامي بجبل العلم فدفن هناك .

2 ــ محمد الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» توفي سنة 870 هـ .

أمـــول الكيميـــا * لله غيـــر اعليـــا

اطلب ربى فـــيا * يكمل ليا قصـــدى

بك انتوسلت للـه * وابجاه ارسول الله

ندرك ما نتمناه * أطالع السعـــدى

الله ارفـــع قـــدرك * اسقنا مـــن سرك

ايم فايض بحـــرك * احلى مـــن الشهـــد

أيا سيد التبـــاع * ربحت منـــك لتباع

لاين سرك نفـــاع * بك المولى يهـــدى

ويصف الطالب لحسن عبد الرحمن المجدوب بانه طب كسره وصاحب الاوقات :

في حق الله طب كســـرى * سيدى عبد الرحمان المجدبو لوقات

وقد جاءه قاصدا متلهفا مطرودا من شدة الشقاء والتعب عساه يفك أسره ويبشره بزيارة لمقام الرسول عليه السلام ، فقد اشتاق له :

غارا لله جيت قاصد لك لهفان * مطرود ابلا طراد من شد التمحان

يا بو لوقات سيدنا عبد الرحمن

تبشر حالى اوفـك حصــــرى * شايق لمقام من اعليه اوحى لايات

فشهر رمضان بعد لســــرى * واحكم حكم لمبين فجميع الاشيـات

وللفقيه العميرى توسل الى بوعسريه(1) يقول فى حربته راجيا منه أن يجود عليه :

ضيف ربى غارا جود يا سيدى قاسم * لمختنر هيا حمر لكرون يابوعسريـا

والرغبة التى يتوسل اليه فى تحقيقها أن يكون له خلف وعقب فى

---

1) لعله أبو القاسم بن احمد بن الرشد السفيانى المتوفى سنة سبع وسبعين وألف والمدفون على ضفة وادى ارضم حيث له قبة كبيرة . ترجمه الافرانى فى الصفوة (ص 157 ـ 158 ـ 159) قال : «وأصحابه يلقبونه بأبى عسريه لانه كان يعمل بشماله أكثر ، كان رحمه الله من المولهين فى ذات الحق سبحانه ومن أهل الاحوال الصادقة والشطحات الربانية . وكان فى ابتداء أمره معدودا من شجعان قبيلته ، ومن أهل الفروسية التامة فيهم » . ترجمه كذلك صاحب «ممتع الاسماع» ص : 134 .

حياته ، وأمله في ذلك كبير طالما أن برهان الشيخ قاطع ظهرت آثاره في كل مكان يقضي حاجة كل من قصده وبغنيه :

عني واسرخني أيا الشيخ أوكون امحازم

ابغيت لولاد فالدنيا انشوفهم ابعينيا

ابغيت تتحزم امعايا أوكون فالدنيا ناجم

الوالي برهانك بان افلحضر ألبديا

كايجوك من لقبايل اوسوس اوعرب تتلايم

كلها تقضي حاجتها اوكيف من جا بالنيا

اشحال من واحد نغني اوسار في حالو قادم

هكذاك أنايا يا شيخ واتكمل ليا

وقد يمدح الشاعر كل الاشراف أو جماعة منهم دون تحديد للاسماء ، على حد ما فعل المدني التركماني واصفا اياهم بأسياده الابرار أصحاب العز والنصر ، ومشبها اياهم بالاسود الذين لا يهابون الجائرين ، ومتوسلا اليهم ألا يتركوه معذبا بين الثلج والجمر ، وهو عبد الدار :

واسيادي لبرار كلهم اقساور

مايهمهم الجاير

عيب عل لسود هل العز والنصر

تبقى بين الثلج والجمر

ونا عبد الدار

ومثل هذا نجده عند المدغري في قصيدته التي لا شك يمدح بها الاشراف العلويين ملوك الدولة ، يقول في حربتها متوسلا الى المولى ادريس والمولى على الشريف جد الاسرة العلوية :

غارا مولاي ادريس بن ادريس أمفتاح الغرب والشريف الفيلالي

سيدي مولاي اعلى الشريف الينبوعو خصال

وفيها يصفهم بأنهم المسك والعود والورد والندا والعبير ، وأنهم طيب الغرس ورثوا العرش عن الرسول عليه السلام ، وأطيب سائر المخلوقات وأنهم الاصل ، ، ومن سواهم الفرع ، وأنهم الملوك الصائلون على الدوام ،

وأنهم الفتح المبين فى قلوب العارفين الواصلين ، من لم يصل بهم تاه فى الظلمات ، وانهم مفاتيح كل المغلقات وعلوم الاولين والآخرين ، بهم يفتح العباد أقفال أبواب الله :

هما المسك افطيبو أوعود(I) والورد امع الندا اعبير فوطا واجبالى
والجنا فاح انسيم طيبها من طيبت لفضـــال

هما طيب الغرس والعرش ميرات امن انسيم لحبيب راحت لنجالى
هما طيب الثقلين جن وناس وانسا وارجال

هما الاصل والخلق كلهم افروع من اوجـــودهم وجدى يبقـى لى
هما لملوك اعلى الدوام بهم صايل من صال

هما الفتح لمبين فى اقلوب العرفان الواصلين حضرت لوصالـى
من لا يوصل بهـم تاه فالظلما عـن لوصال

هما امفاتح لمغالـق الرقيقـا واعلوـم اللوليـن والختم التالـى
هما افبمان الله للعباد امفـــاتـح لقفـــال

ومن قصائد مدح الاولياء والصالحين بعد هذا ما يطلق عليه «الجمهور» أو «جمهور الاولياء» وهى قصائد ـ كما يبدو من تسميتها ـ تستعـــرض مجموعة كبيرة من الاولياء ، ومن خير الامثلة عليها قصيدة العلمى يقول فى أولهـا :

يا من يشفى اضرار عبدو بعد السقم * وايفرح من اقوات فالصدر احزانـو

وفيها يستعرض أولياء المغرب على هذا النحو حيث يذكر بعض رجال مراكش كالقاضى عياض والامام السهيلى وابى العبـــاس السبتى ويوسف ابن على والجزولى :

I) المقصود به العود الهندى وهو نوع من البخور معروف بطيب عرفه حين يحرق ، وهو شائع الاستعمال فى البيوت المغربية حيث تصنع لاحراقه مباخر خاصة تكون فى الغالب من الفضة ، ويطلق عليه فى المغرب «العود لقمارى» .

قاضى عياض والسهيلـى والسبتى * ابو العباس غوثنا بـــو لدراوش (I)

هو يطفى ابصرختو صهد الهفتـى * اكما يطفى المـا الظاجـوف العاطش

يا يوسف بن اعلى انجيت ايلا رفتى * عيطت اعليك عيطت المرو الداهش

الجزولى الشريف ستجب لدعوتـى * دعوت من اعلى العطف يبحث وايفايش

لاه الله يارجـال حضرة مـراكش

كذلك يستعرض العلمى فى هذه القصيدة بعض كبار المسلمين على نحو ذكره الحسن والحسين وحمزة والعباس وسعيد وسعد وطلحة والزبير وأبى عبيدة وأنس وابن عوف :

ياحسنيـن ياسياد اجميـــع الناس * عند اذكر جاهكم يصغر كل اكبيـــر

ادخيل اعمامكـم حمـزا والعبـاس * واسعيد وسعد ثـــم طلحا والزبيـر

وابجاه أبا اعبيد والسيد أنـــاس * حرمت بن عوف لا تركونى فى ضير

سالوا من رافتو اعلى ساير الناس * ساعد واشقى ومعتذر واغنى وافقير

يعطينى كل ما اطلبت اكثير الخير

ومن هذا النوع من القصائد ما يطلق عليه «المرحول» ويقصد به الرحلة تشد لزيارة بعض الصالحين على حد ما نجد عند الشيخ البرى السلوى الذى اعتاد أن يخرج لزيارة بعض الصالحين كل عام ، يزور وزان وصلحاءه ثم تازروت ووليها سيدى يوسف ومنها الى جبل العلم حيث قبر سيدى عبد السلام بن امشيش ، ومن الجبل الى تطوان ليزور سيدى بركة ثم الى طنجة ووليها سيدى بوعراقيا ، ومنها للقصر الكبير لزيارة سيدى بوغانم ، ومنه الى لال ميمونا والشريف ابن منصور ، فالى مولاى ادريس الاكبر بزرهون وجاره سيدى محمد بلخير ثم الى سيدى بوغابة وسيدى علال فى طريق عودته الى سلا :

فى كل عام نقصدهم أوفكل يوم بالحاجا مقضيا

طاحت اصبناها رفدوا احمـــال مـــن طـــاح

. . .

I) ابو الفقراء ، اشارة الى مذهب السبتى القـــائم على أن « الوجود ينفعل بالجود » .

أزرت وزان أشفت اركان السعيد واضراغم لحميا

أزرت سيدى يوسف فى تـــارزوت مصبـــاح

واطلعت للجبل لمكنى جبل لعلام بصناكر اعلى النيا

من ابن امشيش المولى عبـد السلام نرتـــاح

أبعدها اخرجت النطاون قابـط لفيافى والبريـا

زرت سيـــدى بركاوالكــريـــم فتـــاح

....

من الطانجا شايلاه ابشامــخ لقدر بوعراقيـــا

اشكيت بالغربـــا واغرايـبـى وتكـــلاح

....

من اللقصر ياصاحى خويا قلت وبن الندلوسيا

وين بوغانم ويـــن الساكنـين لبطـــاح

وياك فالقصر تتغشم يا من لا اعرفت لو طويـا

لقصر برجالـو طـــول الـدوام صـــلاح

منو الال ميمونا والخير ماخطا رجل ووليـا(I)

اقريت معــروف اللــه واختمــت سورت افــلاح

واخرجت كانسال اعلى الحد أنا غشيموطريقو ملويا

ماوصلنا حـتى شفنـا امسايـف اقبـاح

منو اللعنيا بن منصور الشريف وارجال الصوفيا

والبحـــارا ساداتـــى كلهـــم صـــلاح

والغوث ابن ادريس اكبيرالخصلا اخصايلوعندى مرويا

احداه سيدى محمد بلخير امن السيـــاح

....

اصبحالصباح وارمات الشمس اعلىلبطاح واخطفنا سرويا

زرت سيدى بوغابـــا باللسان لحـــلاح

واعلى الشجيع سيدى علال الشيخين عز المساويا

اعمـــارت المعمــورا والفايـــــز واسلاح

I) يطلق اسم « الوليا » على المرأة .

منو البورزيم أفتوا واثنيت لمسافات المثنيـــا

اعلى اوصــالى اسلا ثـم ابـــراوا لجـــراح

وقد لا تتاح للشاعر فرصة الزيارة فيكتفي برسول يبعثه ، وهذا ما نجد عند الحاج ادريس لجنش الذى بعث مرسوله يحمل رسالة الى الولى ابـــن المهيدى ، فى قصيدته التى يقول فى حربتها :

الغادى للرباط هاك اسلامى لسيادى * الاه اولـــى بـــن لمهيــــدى

يبدأ الرحلة من فاس الى الرباط مستعرضا أسماء الاولياء الذين سيمر بهم فى طريقه :

أمرسولى هاك البـــرا (1) * تدها لسيادنـــا لطهـــار

من فاس الحضرا الزاهرا * لربـــاط الفتـــح ولسرار

اطريقك سهـــل ظاهـــرا * اسمع لى لبيان ولخبـــار

زور الشيخ امع سيدى يعلى جـارى * والمقتفـــى بـــه لاح بـــدرى

باب المحروق فوتها واتوسل للبارى * يكفيــك الستـــار كـــل شرى

بوعبد النور ولفقيه الشيخ الجرارى * سيدى مسعود طب ضـــــرى

الشدادى اوبوبكر اشموسى واقمارى * اتـــأدب للباقييـــــن واســرى

وهكذا الى أن يصل الى سلا حيث ضريح سيدى ابن عاشر وابن حسون وسيدى موسى ثم الى الرباط حيث زاوية الشيخ ابن المهيدى ليسلم الخطاب الى مقدمها الذى سيتكفل بتسليمه للسادة الشرفاء :

هاثغر اسلا اقريب بلسان الحال اينادى * وايقول اهلا زيد عنـــدى

تـــم تدخـــل اقـــواسها * ناشط بنسيم لعشى اتميس

زور العارف عز ناسهـــا * بن عاشر والـــدر النفيس

بـــن حسون وتابــع راسهـــا * سيدى موسى نور اشميس

واقطع لمدينت الرباط هم اكدارك ناسى * فتمام الحج افدوك نفسى

وادخل للزاويا اسعد تدفع قرطـــاسى * لمقدم صافحـــو اورسى

هو يعطى اكتابنا للسادات امجـــادى * للى بهـــم هـــاج وجـــدى

واقصد لضريح جدهم فمان لقصـــادى * بن لمهيدى للصلاح يهدى

---

1) الرســالـــــة .

ويذكر بعض أولاد الشيخ ، من مات منهم ومن لا زال على قيد الحياة ، أمثال سيدى الحاج محمد وسيدى علال وسيدى عبد السلام والسيد الجيلالى والسيد الستل وسيدى الحاج بنعيسى :

بن لمهيدى بـــه عزنـــا * له السر الواضـــح المبين
معظمهـا عنـــد سلطنـــا * مدامت ليـام واسنيـــن
ولـدو نـــال السر ولعفـــا * ورث ذاك الجـاه لمبيـــن
نعنى سيدى الحاج محمد هـو الثانـــى * ثم الاول امـواج اعيـانى
سيدى علال له جاه امعظم ربانــــى * كان ابربى والنبى امعانى
أو سيدى عبد السلام امع سيدى الجيلانى * سيد الستل بدوام حصنى
يارب نعم لجميع افجنت رضوانــــى * واللى باقى منهم نعنـــى
لفحل سيد الحاج بنعيسى سرو سانى * ادعى لى واكمل به ظنى
بن عمو شامخ لقدر جملـت لعيانـــى * اسدى بومهدى اشريـــف سنـــى
. . . .
ايطلبوا لى اللـه عـند اتمـام لـوراد * يطلع بكمـــال اسرور سعـــدى

ملاحظة : العشق الالاهى

ونبحث بعد هذا عن العشق الالاهى فى شعر الزجال المغربى ، فنفتقده أو نكاد ، وكان الشاعر الشعبى ابتعد أو تعمد أن يبتعد عن النظر الى ذات الله والتغزل فيها والتعبير عن حبه لها ، حتى فى أبسط صور هذا الحب الخالية من التفكر والتأمل والتفلسف ، وأغلب الظن أنه خشى الوقوع فى التجسيم وتشبيه الله بخلقه . ولعلنا لن نستغرب ذلك مـن شاعر شعبى محدود الثقافة بسيط الايمان ، يلقى بشعره الى الجماهير تنشده وتتغنى به، وهى بدورها لن تقبل على أى شىء لا يوافق مزاجها الساذج . ثم انه مهما ارتفع المستوى الفكرى للشاعر وجمهوره فانه يظل محصورا فى نطـاق الفكر العام ، ونعرف ان الفكر المغربى طوال فترات التاريخ ــ اذا استثنينا عهد الموحدين ــ كان يتمسك بحرفية النصوص ويبتعد عن التأويل ، بما لا يتيح المجال للنظر فى ذات الله وصفاته وتعمقها وبالتالى للتغزل فيها والتعبير عن حبها . ومن هنا اتجه الشاعر الى الرسول عليه السلام يفجر كل طاقة حبه الروحى وعاطفته الدينية .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الشاعر المتصوف أبا الحسن الششترى ، وهو ــ كما سنرى ــ (1) احد الذين نقلوا الزجل الاندلسى الى المغرب ، كان ينظم قصائده وموشحاته وأزجاله فى مذهبه متغنيا بحب الله ووحدة الوجود، ولكن يبدو أن الناس الذين كانوا يستمعون الى أزجاله فى الاسواق وحلقات الذكر ، لم يكونوا يدركون فى هذه الازجال ما تصور من جوانب مذهبه التصوفى الفلسفى ، ولم تكن تأخذهم غير واقعيتها المتجلية فى شخصه وهو يجول فى الاسواق ينشد ويغنى ، وكذلك كان شعراء الشعب لا شك ، لا يفهمون مذهبه ، وربما كانوا سيقدحون فيه ويكفرونه لو فهموه .

ومع هذا فانا حين نتعدى نطاق هذه الطبقة من الزجالين الشعبيين الى طبقة العارفين المتصوفين ، فانا لا نفتأ نعثر على بعض الوان حب الله . ومن هنا لم نجزم فى الحكم بعدم وجوده ، وقلنا فى بداية الملاحظة اننا «نفتقده او نكاد» . وربما كان عبد الله الهبطى (2) اكثر من غيره تعبيرا عن هذا الحب ، يتجلى لنا ذلك فى بعض قصائده ومقطوعاته كهاته التى يقول فى أولها :

للــرب شوقونـــى * يا أيهـا الرجـــال
للحضــرا وصلونــى * حتى نرى الجمـــال

وكقوله من قصيدة أخرى :

ربى دايـم اعظيم حضـار * قـد جهلـت انعوتـــو
ايغيب عنـــى مانقـــدر * أو يحضـــر انموتـــو
حن لجمال عذبنـــى * ياقـــوم العنـــدو
قهر لجلال يقهرنـــى * مـن قربـو البعـدو
مـن لطفـو للعيـن * يختفـــى ويبـــدو

وكقوله كذلك فى «القصيدة النورانية من المسامرة الربانية» :

الحبيب فى ذى المبانى * الـتى سوى وعـــدل
قد ظهر لـى بالعيانـى * لا ترانـى بعـد نغفـــل

1) فى الفصل الاول من باب « الاعلام »
2) انظره فى الفصل الثانى من باب «الاعلام» .

ان تقول بعـد التجـلى * ربمــا يسدل حجابـو

يظهر لك لكن يولــى * فى لحظا يضرب نقابـو

لا تامـن عـند التجـلى * أن يعـــرك من ثيابـــو

قد يقول قائل : وماذا عن القصائد التى خصصت للسلوك الصوفـى ونصح المريدين ، أليست تعبر عن الحب الالاهى مهما كانت صور هذا الحب وصفاته ؟ حقا انا نشم رائحة عشق ذات الالاه فى بعض هذه القصائد ، وان كان يبدو من هذه الرائحة خلط بين حب الله والرسول . ونستطيع أن نمثل لذلك بما ورد فى دالية ابن رمويه حيث يقول فى لغة تكاد تكون معربة :

هم فى الحب واتوله وفى القلب ردد الله

ثم غب فى الله بالله كالجـلى والجنيــد

طف ابكعب لوصال وافن ذاك لخيـــال

وقف عند لخيال واشرب كـــاس التفريد

فحجنـا مشروط وموقـــوف ومنـــوط

على البـذل والسقـوط وتمـــام الوعـــود

حجت لهوا اغالــت وبالنفس اشتريــت

وعلى الصادق هانت بهـا نـال المقصـود

اتجرد عـن الحس وعـن الحـب للجنس

واقصد حضرت القدس لب باسم المقصود

اذكر ما دمت طالب وفى وصفو راغـــب

حتى لا يبقى حاجـــب وتصـــل للمعهود

وحتى اذا كانت تشم من مثل هذا النموذج رائحة تتصل بالحب الالاهى ، فلعله واضح أنها خالية من تناول ذات الله وصفاته وعلاقة السالك بربه وما قد يصل اليه المريد من مشاهدة او اتحاد ، وانها محصورة فى التنفير من الحب الجنسى والحث على الذكر .

وقد يقول آخر : وهذه الاشعار التى تنشد فى حلقات الذكر وخاصة منها قصائد الحراق ومقطوعاته ، أليست هى الاخرى تدور ولو من بعيد فى

فلك حب الله والتغزل في حضرته ؟ قد تكون، ولكنا لعدم وضوح صورة هذا الحب نميل في غير قليل من الترجيح الى أن الحراق لا يقصد غير حب الرسول عليه السلام ، ولنستمع اليه يقول انه حين جن الليل وسطعت كواكبه لطف الله به ووافاه بالمرغوب اذ ظهر له حبيبه وظل يمتع النظر فيه ، فهو يهديه روحه لا يطالب بها أبدا ، وهو له عبد مكسوب اذا رضي به :

جن الليـل اعليـا * حتى ظهرو اكواكبـو

والطف ربى بيـا * وافى ليا المرغـوب

بان احبيبـي ليـا * ماذالي ونا انراقبـو

روحي ليه اهديا * عمري فيها مانطالبو

ويدا يرضى بيـا * آنـا لـو مكسوب

وهو يرى أن كل من حلت النية في قلبه ظفر بالمحبوب :

واللى فيـه النيـا * يظفـر بالمحبـوب

ويقول كذلك انه حين تم له الوصال وأشرق نور بهاء حبيبه نسي كل شيء فليس يذهب عقله غير هواه :

جـاد اعليـا برضـاه

لحبيب اللـي حبيتـو * زارني وانعم لي ابلوصال

حين اشرق نـور ابهـاه

كل شي بالقهر انسيتو * ياهل عقلي اذا شفتوه زال

ما بي غـير اهـواه

ويذهب في موضع آخر الى أن ذكر الحبيب دواء يشفي من داء الاوهام ، به يضيء الوجود ويجلي ظلام الحب :

ذكرو احقيق للقلـب ادوا * يشفيه امن اسقامو اوهامـو

به لوجود كلـو يضـوا * من غسق لهـوا واظلامـو

وعنده ألا أسعد ممن عشق الحبيب وخلع في حبه العذار ودار في حلقة الذكر ينشد الاشعار في مدحه وحوله القوم سكارى من هواه :

ياسعد امن اضحى يخلع فيه اعذارو * وايـدوز في أسواح الـدارا

ينشد افلحبيب اسجالو واشعـارو * والقوم امن اهـواه اسكـارى

ويشجعنا على هذا الرأى ما شاع فى قصائد الذكر عند غير الحراق من تمجيد للرسول صلوات الله عليه ، ومن أروعها قصيدة المغراوى التى يطلب فيها من مخاطبته ، لعلها حبيبته او زوجه او نفسه ؛ ان تزغرد فرحا وطربا بالمصطفى ، وأن لا تظل ساكتة ، وان تستوحى صوت زغردتها من وجده ، ويستغرب منها صامتة كأن نغمته لم تهزها ، ويشبتها ويلح عليها فى الطلب ان تزغرد بصوت عال على سيد الرجال والناس :

ازغرتـي ليس ساكتـــا * من وجدى صيغـى اوصيتـى
مالك مبكومـا أو صامتـــا * مـا هزك غيوان مايتـى
كونى زكموطا او ثابتــــا * واعلى سيد الرجال زغرتــى
واعلى سيد الناس زغرتـى * بالصـوت العالــى اقـــوام

ويلح على ذلك أن يكون طول النهار ، ويطلب منها أن تشد حزامها وتكف عن المشى والحركة ، فقد حضر ضيف الحفل واشعل الشمع مـن المشى وفرشت الزرابى ورصت المخدات على اللحوف وأسدلت الستائر على القباب ليبدأ الذكر والصلاة فى هذا الجو ، جو الفرح بضيافة الرسول :

ازغرتـــى لا تمـــــل شى * بن اصـلات الصبـح ولعشا
شد احزامك مابقـى امشى * ذا الفرجـــا ضيفهـــا اغشا
اشمعها يكدى مـــن لعشى * واقطوف ازرابـى امفـــرشا
وامخايد فـوق اللحـــوف * واخوامى زينا اعلىابساط القبا سجافا

هل الحضرا ايعظمو ويذكرو نعم الرؤوف   ايصلوا اعلى خير خلق الله المصطفى
هذا عرس اضيافت النبى محمدزين لحروف * صلى الله اعليه والرضا لهلو والخلفا
ما دام ادوام لغنى ينظر حضرا فينا ايشوف

فالليلة ممتعة يجب السهر فيها وقد هب النسيم الطيب العطر ، وعين العاشق تنظر ، وكل من نظر الى الله ينصر :

ازغرتى لازم السهر * ليلتنا ليلا امخنترا * هب انسيم الطيب ولعطر
واعيون العاشق نظرا * اللى نظر الله ينتصر

الباب الثالث

الأعلام

الفصـــل الاول

مرحلة النشـــأة

اسماء ونصوص قديمة

ليس من شك في أنه من الصعب تحديد نشاة شعر اداته لهجة عامية دارجة ، وليس من شك كذلك فى أن تلك الصعوبة تزداد حـين لا تتوفر النصوص الاولى لهذا الشعر ، مروية كانت او مدونة ، لذا فانا نجد غـير يسير علينا ان نحاول بحث اصل القصيدة الزجلية المغربية ونشاتها طالما أن الرواية الشفوية لا تمتد بعيدا عبر القرون ، وطالما أن المصادر المكتوبة لم تعن بتاريخ الآداب الشعبية وتسجيل نصوصها الا فى القليل النادر .

وقد لجأنا الى هذا القليل النادر علنا نعثر فيه على ما يسعف فـى البحث ، كما لجأنا الى الشيوخ الرواة وتتبعنا معهم تسلسل محفوظاتهم حتى الخيوط الاولى منها عسانا نقف على مرويات قديمة ، فتجمعت لنا مـن المصدرين مادة هزيلة ، ولكنها على هزالها القت بشعاع من الضوء رقيق لا يساعد على غير تلمس السبيل فى متاهات مظلمة لسرى قد يحمد عنـد الصباح وقد لا يحمد .

وقد حاول الاستاذ محمد الفاسى أن يحـدد البواكير الاولى لهـذا الشعر ، فوقف عند قصيدة نظمها ابن عبود فى منتصف القرن العاشر ، واعتبرها أقدم نص . وفى هذا يقول :

« وكانت اقدم قصيدة بلغتنا عن طريق الحفظ والكنانيش القديمة هى قصيدة «الحربى» للشاعر ابن عبود ، وهو من اهل فاس ، كان ايام الوطاسيين وكان مع سيدى عمرو الوطاسى قائد الجيوش الوطاسية فى وقعة تادلا بين احمد الاعرج السعدى واحمد الوطاسى ، وهى التى اسفرت عن اعتراف الوطاسيين بسيادة السعديين على الجنوب ، وهذه القصيدة فى وصف هذه المعركة ، وتاريخها سنة 943 هـ الموافق لسنة 1536 م (1) .

---

1) مقال «الادب الشعبى المغـربى الملحون» مجلـة البحث العـلمى العدد الاول السنة الاولى 1964 .

اما القصيدة ، ولم يذكرها الاستاذ الفاسي (1) ، فهي التي يقـــول الشاعر (2) في اولها :

---

1) اكتفى بالتعليق عليها بقوله في نفس المصدر : « وقد اجيز ابن عبود على هذه القصيدة بتلبية طلبه في جعل محل بفاس رهن اشارتـــه لانشاد قصائده به يوم المولد النبوي ، وهذا المحل هو ما يسمى مسيـــد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس وقد خلفه فيه الشاعر الكبـــير سيدي عبد العزيز المغراوي . ولا زال شعراء الملحون الى يومنا يجتمعون يوم عيد المولد وينشدون كلام سيدي عبد العزيز المغراوي وكلام النابهين منهم ، ومن ادرك أن ينشد شعره في ذلك المحفل البهيج فقد بلغ المنتهى في تقدير زملائه له »

2) تجدر الاشارة الى أنه تطلق على الزجالين المغاربة اسماء وصفات، أهمهـا :

أ ـ الشعراء : يقول ابن علي في القسم الرابع من «السولان» :

واسلامي عن كل من احضر * متادب في كل حال للشعارا
هكذا سميرت هل لشعار

ب ـ النظام : يقول عبد الفضيل المرنيسي في «الفصادة» :

قالوا مرحبا بالنظـــام

ج ـ الاشياخ : يقول امتيرد في نهاية محاورته :

قال اكمي لشياخ عز الودبا حبر النظام

د ـ أشياخ السجية (تمييزا لهم من المنشدين الذين يعرفون باشياخ لكريحة) يقول المرنيسي في قصيدته المشار اليها :

شافوني احضرت اكبالتهم شيروا اوندوا
رسلـــوا لي الخـــادم قالت ليا
مـــن اتكـون ابقصد النيـــا
قلت لهـــم شيـخ السجيـــا

هـ ـ أشياخ النظام (تمييزا لهم كذلك من اشياخ لكريحة) يقول المكي الصويري في آخر « فطومة » :

واسلام الله لشياخ النظـــام

و ـ أهل النظام : يقول محمد الشاهد في آخر قصيدة « معلوم الشوف ما طفا نار الجوف» :

نتهـي قولي امـــع انظامي * مـــن فضـــل الا ينـــام
احسنت اعلى الرضا اقسامي * برضـــات اهل النظـــام

ز ـ اهل القوافي : يقول محمد بن لكبير في «تويزة» :

عنك اسلام فايـــق المسك افلجيوب
يعبق عن جمعكم ياهـــل لقـــوافي

مال الخيل الـــذى اختلط فميدان ✻ صكت هاذى الذى واهـــذك الهاذى
والغبرا عمدت اكسات اعلى التيجان ✻ حتى عاد النهـــار غالس فارصادى

ولسنا نوافق الاستاذ الفاسى على اعتبار هذه القصيدة أقدم ما وصل مرويا او مكتوبا فقد وصلتنا قبلها بعض النصوص ، منها ما هو من نوع زجل القصيدة ومنها ما يختلف عنه ، وهى نصوص سنستعرض بعضها فى هذا الفصل — بعد سطور — وسنترك البعض الآخر الى الفصل الثانى من هـــذا البـــاب .

حقا ان قصيدة ابن عبود تعتبر من النصوص الاولى للزجل فـــى الشكل الذى بدأ يستقر عليه وقد أخذ يحرز كيانه ، وحقا كذلك ان القرن العاشر يعتبر بداية انطلاق مرحلة جديدة بالنسبة لهـــذا الزجـــل — كما سنرى فى الفصل الثانى من هذا الباب — ولا نقول بدايته ، ولكننا نستبعد أن تكون اللغة العربية قد تم انتشارها فى القرن السادس بشكليها المعرب والدارج ، وتمر اربعة قرون دون أن يصدر شعر عن الناطقين بهذه اللهجـــة الفنانين ، ثم فجأة يظهر فيها نمط من الشعر مكتمل جميل . وهو رأى تدفعنا الى ترجيحه هذه النصوص التى وقفنا عليها ، على الرغم من انها مختلفة

ح — اقوامس الملحون : يقول سعيد التلمسانى فى رثاء عبد العزيز المغراوى :

لو حد عبد العزيز قاموس الملحون ✻ من لاحاطوا ابشرح معناه اقـــوامس

ط — اقوامس العلم الموهوب : يقول محمد بن لكبير فى استهـــلال التويزة السالفة الذكر :

اسادتى اقوامس العلم الموهوب ✻ يامن لكريم هبكم افضل وافى

ى — أرباب الموهوب : يقول المرنيسى فى «الفصادة» :

واسلام ربنا لورباب الموهوب

ك — الودبا (اى الادباء) : يقول المدغرى فى «زهرة» :

واسلامى للشراف والطلبا قال القارى ✻ ما دوحت انسام لعطر
واعلى الودبا اقوامس الموهـــوب الشعارا

(وانظر كذلك قول امتيرد السابق)

ومتباينة ، كما يدفعنا اليه ما ذكره **الحسن الوزان** (1) في كتابه « وصف افريقية» ، فقد لاحظ في فصل منه بعنوان « شعراء بالعامية الافريقية» (2) ان هؤلاء الشعراء كثيرون ، وانهم كانوا يتبارون لاظهار براعتهم الشعرية في مناسبة ذكرى المولد النبوي حيث يتجمعون صباح يوم العيد في ميدان رئيس القناصل (3) ويعتلون المنصة واحدا تلو الآخر لالقـــاء اشعارهـــم وقد تجمهر عليهم الناس ، ثم ينصب أميرا للشعراء من احرز منهم قصـــب السبق . وذكر كذلك ان السلطان المريني كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعي له رجال العلم والادب ، وان الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فينعم على الفائز الاول بمائة دينار وفرس ووصيف وحلته التي يكون لابسا في هذا اليوم ، ويمنح سائر الشعراء خمسين دينارا لكل واحد . ولاحظ الوزان بعد ذلك ان هذه العادة انقطعت منذ انهارت دولة بني مرين (4) ، وهي فترة تمتد عنده مائة وثلاثين عاما .

وهذه أسماء الزجالين وما وصلنا لهم من أزجال او اجزاء من ازجال على الاصح :

ابن غرلـــة

قال عنه الحلي : «وقد كان ابن غرلة الشاعر المغربي ، وهو مـــن أكابر اشياخهم ينظم الموشح والزجل والمزنم فيلحن في الموشح ويعـــرب

---

1) الحسن بن محمد الوزان (901 — 956 هـ ، 1495 — 1548 م) ولد في غرناطة ورحل مع اسرته الى فاس وقام بجولات داخل المغرب وخارجه في الشمال الافريقي وبلاد المشرق . اسر سنة 926 في نابولي بايطالية وأخذ الى البابا ليون العاشر فقربه اليه لعلمه وتجاربه ، ودعاه الى المسيحيـــة فتمسح وسمي بـ : جان ليون Jean Léon وهو الاسم الذي يعرف به في اوربا . ويقال انه بعد موت البابا عاد الى الشمال الافريقي ونـــزل بتونس وفيها توفي .

2) « Poetes en vulgaire africain » p 130 131
Description de l. Afrique - Jean leon Africain
Ed. C.H. SCEFER Paris

3) Le chef des consuls لعله يقصد به رئيس القواد او الوزراء

4) من 674 الى 869 هـ

فى الزجل تقصدا منه واستهتارا ، ويقول ان القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك ، وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى دار الطراز (1) »

وقد كان ابن غرلة يعيش فى عهد الموحدين ، بل كان معاصرا للخليفة عبد المومن الكومى ، وتذكر المصادر حبه لاخت هذا الخليفة ، وفى ذلك يقول الحلى : «فمن موشحاته المزنمة الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التى نظمها عن عشقه رميلة اخت عبد المومن الاموى (2) ملك الاندلس وقتله الملك بسببها لتوهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها ، والواقعة مشهورة ، وكان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة » (3) وذكر له مطلع هذه الموشحة ، واوله :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدى * صيدى الغزالة من مراتع الاسد

ثم زاد قائلا بعد ذلك : «وقيل انه لما اخرجه الملك ليقتله نظر الى الناس وارتجل بيتا فى الوزن يستنجد به عشيرته لاخذ ثأره :

خدها الاسيل * بدت منه انوار

طرفها الكحيل * سل منه بتار

قد اسرت عبدا * ولم اك بالعبد * مت لا محالة * فاطلبو دمى بعدى (4)

وقبل ان نورد بعض ما ذكرته المصادر لابن غرلة من قطع زجلية نقف قليلا عند ملاحظة لاشك ان القارىء سيثيرها ، وهى اذا ما كان ابن غرلة مغربيا حقيقة اى من المغرب الاقصى ، ام اذا كان اندلسيا ونسب للمغرب على اعتبار ان النسبة بالمغربى كانت تشمل حتى الاندلسى نظرا للمفهوم الذى يدخل فى المغرب كل المنطقة التى تقابل المشرق ، ونظرا كذلك لان الاندلس عاشت فى وحدة مع المغرب الاقصى طوال عهدى المرابطين والموحدين .

---

1) العاطل الحالى الورقة 20 وجه وظهر ، وسنعود الى موشحات ابن غرلة .

2) هذا خطأ ، والصحيح : عبد المومن الموحدى .

3) العاطل الحالى الورقة 20 ظهر .

4) العاطل الحالى الورقة 21 وجه .

والواقع انه ليس من السهل البت فى هذا المشكل الذى كثيرا ما يعترض الدارسين لتاريخ الاندلس والمغرب وآدابهما ، ولكنا مع ذلك نرجح أن يكون ابن غرلة غير اندلسى ، ونعتمد فى ذلك على نص وارد عند الحلى لم يذكره فيه رغم اعتباره اياه من السباقين الى نظم الزجل . يقول الحلى :
« . . . ومدائن الاندلس المختصة بالمسلمين دون غيرهم اربعة وهى التى خرج منها الموشح والزجل وهى اشبيلية وقرطبة وبلنسية ومالقة والذين خرجوا منها من الزجالين سبعة وهم يخلف بن راشد ابن قزمان مدغليس الحبيط البردعى الجمال ابن اللمنكة (1) »

وسبق لنا ان اثرنا هذا الموضوع مع الاستاذ الصديق الدكتور احسان عباس ، فكان رايه فى ترجيح مغربية ابن غرلة انه لو كان اندلسيا لما جرؤ على نظم موشحة فى اخت الخليفة وان ذلك لا يتصور صدوره الا من مغربى .

وقد ذكر الرباط لابن غرلة فى «العقيدة الادبية» اجزاء من ازجال يقول فيها :

بنت قزمان فى خباها * عند اباها
العريس خاطب اباها * وقد تباها
لو يكن بزال * كان امعاه اموال * الا دا دجال
بالمحال يقنى الاست البراقع (2)

ويقول فى جزء آخر :

ان كنت ريس ومالك عاقة * هذا خبرك على الزلاقة
اسمى * وارمى (3)

بل انا نجد الرباط ينسب لابن غرلة قطعة « عروض البلد » التى ذكر ابن خلدون لابن عمير — كما سنرى بعد — ويمثل منها بالبيتين الاولين ، وهما :

---

1) المصدر السابق الورقة 22 وجه
2) الورقة 45 ظهر ، وقد قدم لهذا الجزء بقوله : «وهذا الوزن لابن غرلة مقز من »
3) المصدر السابق .

أبكانى بشاطئ النهر نـوح الحمام * على غصن فى بستان قبيـل الصباح

وكف الطـلا يحكـى مـداد الظلام * وريـق الندا يجرى بثغـر الاقــاح

ويقدم لهما بقوله : « وهذا الوزن لابن غرلة رحمه الله مقز مــــن رباعى » (1)

كذلك ذكر له صاحب « بلوغ الامل فى فن الزجل » بيتين قدم لهمـا بقوله : «ومن لطائف ابن غرلة قوله فى مطلع :

بعد ذبحـك يا فروجى * واش ايفيـــد الجـــرى

كنت تجرى من قبل ماتذبح * وعنيقــــك يــــرى (2)»

عبد المومن الموحدى (3)

ذكر له الرباط قوله : (4)

يا عصافير الجنينة * جــل ربى نشاكـم

الجمل طوله وعرضه * لم قد يطلع احداكـم

رميلة أخت عبد المومن

قال عنها الحلى بعد انذكر علاقتها بابن غرلة : «وكانت هى ايضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة اللسان تنظم الازجال الرائقة الفائقة» (5)

ثم قال : «ومن ازجالها الرقيقة الرشيقة الزجل الذى مطلعه :

مشى السهر حيران * حتى راى انسان * عينــى وقــف

تقول فى خرجة منه تصف خالا كان بخده :

اسيمر جنــان * فى شقة من نعمـان * قد التحـف » (6)

ابـن خبازة

قا لعنه صاحب « الجذوة » : «ميمون بن على بـن عبد الخـــالق

---

1) المصدر السابق الورقة 44 ظهر
2) مخطوطة الزيتونة رقم 4467 ص 47 .
3) تولى سنة 524 بعد وفاة ابن تومرت وتوفى سنة 558 هـ .
4) العقيدة الادبية الورقة 38 وجه
5) العاطل الحالى الورقة 20 ظهر
6) المصدر السابق الورقة 21 وجه .

الخطابى نسبة الى قبيلة من صنهاجة من اهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة ، كان سريع البديهة ناظما ناثرا مع الاجادة والتفنن فى اساليب الكلام معرفة واتقانا فى هزله وجده على اختلاف اللغات (1)» ومثل هذا الكلام نجده فى «ازهار الرياض» ينقله المقرى عن « الذيل والتكملة » فيقول : «كان متفننا فى أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات » (2)

وليس من شك فى أنه يقصد باللغات وهزل الكلام النظم فى الزجل ، والاسف انا لم نعثر له على أثر لذلك .

ابن حسون

سماه الحلى ابا عبد الله محمد بن حسون الحلا المغربى ووصفه بالاستاذ وبالشيخ (3) وذكره لدى الحديث عن اسقاط الهمزة عند الزجالين حيث اورد له بيتا من زجل يقول فيه :

كم نبت منكد * من هواك وهجرانك يا مليح القد

يا مليح بمن سماك اش هذا التجنى

طول ما نشتهى قربك تبعد انت عنى

ان كان الرقيب بلغ لك قضية عنى

لس انا فى ذا الجد * عوذ بالله ياحبى الاخير هو اجود

وعلق عليه بقوله : «فقد اسقط الهمزة فى موضعين فى قوله ليك بمعنى اليك وفى لفظة عوذ وأصلها أعوذ » (4)

---

1) ص 208 وقد استمرت ترجمته حتى 214 . توفى آخر سنة 637 بالرباط ودفن بسلا قريبا من الشيخ ابراهيم ابى حاجة . وقبره معروف بسيدى الخباز واليه ينسب الباب المعروف بهذا الاسم فى سلا . انظر فى ترجمته الذيل والتكملة ، ورايات المبرزين لابن سعيد ، وتحفة القادم لابن الابار ، والعدد السابع من ذكريات مشاهير رجال المغرب للاستاذ عبد الله كنون .

2) الجزء الثانى ص 379 .   3) الورقة 36 وجه و 54 وجه .

4) الورقة 30 وجه .

وذكر له كذلك مطلع زجل لدى حديثه عن اسقاط حـــرف العلة ، يقول فيه :

صحبة العينين السود طول صدودك ابلانى *

انا فى هـواك هايـم وانت ترضى هجرانـى

قال بعده : « ومراده صاحبة العينين » (1)

ثم ذكره بعد هذا الاستشهاد على اقامة الخامقام خذ ، بقوله :

قد ضحك ضو الصباح * وافتضح سر النـوار

لا زمان غير ذا الزمان * الصلاة على الرســول

ختـــرا ذا المهرجان * خترا جر الذيـــول

ومكان ابـدع مكـــان * تفتتن فيه العقـــول

ولقاح املـــح لقـــاح * وثمـــار املح ثمـــار

والطيور قامت وقام * الوتـــر مـــع الجوار

« فقوله خترا بمعنى خذ ترى ، وله مثلها فى خرجة أخرى من هذا الزجـــل :

لا تقل شراب وراح فـى الزجـاج ولا عقار *

خترا ماء الغمام قد رجـع من نور ونـار» (2)

ومثل بمطلع أحد أزجاله لادخال حرف النداء على قافية الالف واللام ، وفيه يقول : (3)

اهجر بالغـــزال واتدلـــل * واعمل ما تريد فمن بلى يحمل

كما استشهد باجزاء من ازجاله فى الوصـــل فى القـــافية ، فاشار الى قوله :

ارفع قطيعك وطيب واتملا * والســـــغ عمـــن ولى

فالوصل الالف بعد اللام ، ثم قال فى احدى خرجاته :

وهذى عندى نصيحة فى الله

فالوصل منها الهاء » (4)

ثم ذكر له مطلع زجل هو : (5)

---

1) الورقة 33 ظهر 2) المصدر السابق 36 وجه
3) المصدر السابـق 4) المصدر السابق 41 ظهر
5) المصدر السابق 49 ظهر

لى تقدير شهـــر * منذ عشقت الفلانية

وآخر ما اشار به الحلي لابن حسون قوله : « وجدت للشيخ الاستاذ ابى عبد الله محمد بن حسون الحلا فى زجل مطلعه :

صحبة العينين السود طول اصد دك ابلانى

يقول فى خرجة بيت منه حكاية عن قول معشوقته :

وترى سيفا مجبوذ * منتخب من اجفانى

بالذال المعجمة فى لفظة مجبوذ مقابل الـــدال المهملة فى لفظـــة السود » (1)

ويذكر مباركشاه لابن حسون من زجل قوله : (2)

لو ريتنى حين نلتقيه * مما نجد من شوقى ليه

نصفـــر ونرعد من يديـــه

اما بعد هذا فنجد ذكرا لابن حسون فى ختام قصيدة الكفيف الزرهونى التى يذكر فيها هزيمة ابى الحسن المرينى فى القيروان ، حيث يقـول مخاطبا نفسه :

واستغفر يا لكفيف لابن حسون * واتفكر ما ذكر فى عام ستتا

فهو يدعو نفسه الى الاستغفار له والى تذكر ما قاله فى السنة السادسة ولسنا نعرف هذا الذى قاله ابن حسون ، ولسنا نعرف كذلك سر ذكـر الكفيف له ، ألأنه شيخه – وكانت العادة أن يهدى الشاعر السلام ويقدم الاستغفار لشيوخه – ام لأنه سبق فى زجل له الى ذكر حوادث هذه السنة المشار اليها ؟ والغالب أنه شيخه .

ابن سبعين (3)

يقال ان ابا الحسن الششترى (4) حين وفد الى المغرب اتصل بابن

---

1) الورقة 54 وجه .

2) السفينة ج 4 الورقة 26 وجه مخطوط رقم Feyzullah 1612 مكتبة Millet اسطنبول .

3) عبد الحق بن سبعين السبتى 613 – 669 هـ .

4) 610_668 .

سبعين وتلمذ عليه ، ويقال كذلك ان المتصوف المغربى اعطى تلميـذه علما وطلب منه أن يتجول فى السوق مغنيا ببيت زجلى يقول فيه :

ابديت بذكر الحبيب * وعيشـــى ايطيـب

ومضى الششترى يغنى فى الاسواق بهذا البيت وقضى يومين دون ان يستطيع اضافة شىء اليه حتى كان اليوم الثالث فاكمله وقال :

لمـــا دار الكاس * ما بين الجـلاس

عنهـــم زال البـاس

اسقاهم ابكاس الرضا * عفا الله عما امضى (1)

ومثل هذه الحكاية تثبت لا شك ان ابن سبعين كانت له معرفة بنظم الزجل وان هذا الفن لم يكن غريبا على المغاربة الى حد انهم يسمعونه فى الاســواق .

ابن شجاع التازى

ذكره ابن خلدون على اثر ذكر فن «عـــروض البلد » (2) حيث قال : « فاستحسنه اهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعـــراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا الى المزدوج والكازى والملعبة والغزل ، واختلفت اسماؤها باختـلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها » (3)

واورد له مقطوعتين ، يقول فى بداية الاولى : (4)

المال زينة الدنيا وعز النفـوس * يبهى وجوهـا ليس هى باهيـــا

فيها كل من هو كثـــير الفلوس * ولوه لكـــلام والرتبا العـاليا

---

1) انظر شرح احمد زروق على نونية الششترى التى يقول فيها :
ارى طالبا منا الزيادة لا الحسنى * بفكر رمى سهما فعدى به عدنا
(مخطوط الاسكوريال رقم 4186 ص 1-2)

2) سنشير اليه فيما بعد .

3) المقدمـــة ص 530 .

4) المصدر السابـــق .

ايكبرو من كثر مالو ولو كان اصغير * ويصغرو عزيز القـــوم اذا يفتقـر

من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يغير * يكاد ينفقـــع لولا الرجـــوع للقدر

ويقول فى بداية الثانية : (1)

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان * اعمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك

ما منهم مليـــح عاهـــد الا وخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك

يهبو اعـلى العشـــاق ويتمنعـوا * ويستعمدو تقطيع القلـوب الرجـال

وان واصلوا مـن حينهم يقطعـوا * وان عاهدوا خانوا على كل حـــال

الكفيف الزرهونى

قال عنه ابن خلدون فى مقدمته : «وكان لهذه العصور القريبـة من فحولهم بزرهون من ضواحى مكناسة رجل يعرف بالكفيف ابدع فـــى مذاهب هذا الفن ، (2) ومن احسن ما علق لى بمحفوظى قوله فى رحلـــة السلطان ابى الحسن وبنى مرين الى افريقية يصف هزيمتهم بالقيـــروان ويعزيهم عنها ويونسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم الى افريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول فى مفتتحها وهو من ابـــدع مذاهب البلاغة فى الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحـــه ويسمى براعـــة الاستهـــلال :

سبحان مالـــك خواطـــر الامرا * ونواصيها فى كل حين وزمـــان

ان طعنـــاه عطفهـــم لنا قسرا * وان عصيناه عقب بكـل هـــوان

. . . (3) »

ثم ذكر له منها جملة أبيات . وقد وقفنا على القصيدة كاملـة ــ وهى طويلة من واحد وتسعين واربعمائة بيت ــ بآخر مجموع مخطوط فى خزانة مراكش رقمه 184 واوله شرح المقدمة الوغليسية للشيخ زروق .

---

1) المقدمة ص 530 ــ 531 .

2) يعنى الفن الذى نظم فيه ابن شجاع التازى . وقد ذكر ابن خلدون من الذين نظموا فيه كذلك على بن المؤذن من تلمسان ولكنه لم يمثـــل لنظمـــه .

3) المقدمة ص. 531 .

المنصور الاعمى

ذكر له الحلي(I) مطلع زجل هو قوله :

الحبب ابيض يا حبيب * وكـؤوس الخمر حمـر
نعم المـزج بالرحيـق * قط ما نعرف السلـو
فالحبب في حريق غريق * عايم ابيض عجبت لـو
فاسقني مع رشا رشيق * كل من راه مبجلـو

مـولاي الشاد

وهو اقدم شاعر وجدنا ذكره عند الاشياخ الحفاظ ، ويقولون عنه انه من تافيلالت وانه كان يعيش في أوائل القرن التاسع للهجرة ، وينسبون له قولة يذهب فيها الى أن «من لا يحفظ موهوب يبقى عقلو مقلوب » ، ويستنتج بعضهم من هذه القولة المبكرة ان الشعر الشعبي المغربي كـان يطلق عليه « الموهوب » او «العلم الموهوب» قبل ان يسمى « الملحون » او غيرها من التسميات .

وكل ما يحفظ الاشياخ من زجل مولاي الشاد مقطوعتان قصيرتـان ، يقول في الاولى :

لا تقولوشي يا حسرا على ازمان * الخير والشر افكل ازمان كاينـين
ما حد اكتـاب الله فالصدور * اعـلاه نبكـيوا اعـلاه
ما قاطعين ياس مـن رحمة الله * واحبيبنا الشافـع رسول الله
فاش جـا ذنب المخلـوقـين * عنـد واسـع الغفـران

ويقول في الثانية :

خوك عبدك وانت ديما الخوك مملوك
لا تأديه الله يهديـك ما يؤديـك
لـك عايش وانتيـا له كاتعيـش
لا تكونوشي طوب افشي ابني اهشيش
عيشوا بالله والنبي والقرآن مع لحديث

وقد علق عليهما الشيخ احمد سهوم في حديث اذاعي نشر في « مجلة

I). الورقة 4I وجه وظهر .

الاذاعة والتلفزة المغربية فاعتبرهما تمثلان الملحون «قبل ان توضع له بحوره وعروضه ، انه مجرد كلام غير موزون وغير مقفى لكنه بليغ وهادف وفيه مسحة من جمال الشعر» (I)

عبد الله بن احساين

يقول عنه كبار الاشياخ انه كان معاصرا لمولاى الشاد وانه مثله من اضرا فى تافيلالت . ومن جملة ما يحفظون له قصيدة طويلة ، هذا نصها :

نبـــدا لسم الله انظامى يا اللى ابغا لوزان *

لوزان خير لى انيا من قول كـــان حتى كان

ربى اللى الهمنى نمدح جد الشراف يا لخوان *

بالشعر السليس الفايز هو ايكـون لى عـــوان

حتى انقول ما قالوا عشاق النبى افكل ازمان *

وانكون افلقريض الملحون انـا المادحو حســـان

مداح مادحو بلسانى والشوق له من لكنـــان *

والمادحو ابقلب اكنانو يرضـــاه ماعيا بلسان

الموغ واللغا واللغوا بين اللها امـــع اسنان *

والحب ذا الشفيع الشافع فالقلب ذا الدخال اتصان

رانى الله شاهد عن قلبى واللسان كل احيان *

انبات كنضل ابشوقى والدمع كاينـو لمـــزان

بتناهدى اتعلل صدرى والصعب ما بقى يليان *

نمشى الارض طيبا تطفى ما فالقلب من نيـران

وانمرغ لخدود ونتضرع فوق من قبر عدنان *

وانقول يا شريف الاسم مداح طالبك للامـــان

انت اشفيع يا محمــد والى راحـــم ورحمان *

والعبد بين شافع وارحيم ايعاين لعفـــو نهفان

I) العدد I2 السنة الثانية يوليوز — غشت 1966

انت اشفيــق يا محمــــد والي عنا حنـــان *

ونا حسنت ظني فالله وفيــك طالب الغفـــران

وانعود من الحج المركاحي يا عنايتي فرحان *

للصوم والصلا وامديحك بين لحديث والقـران

تاريخ حلتي «رخل» عــد ازمانها افكل ازمان *

والقايلين كــــاع امحضرا ونا فقيهـــــم وزان

واسمي افلامتي عبد الله بــن احساين الوزان *

اسايلين عني فاضرا عاصي ومعدن النقصـــان

نرجا من لكريم التوبا امن الرسول فالميزان *

اشفاعتو الهذا الاما ونـــا فوسطهـــا فرحـــان

واتمام ما نظمت السيدي من ذا العقيق والعقيان *

اصلا موصلا للماحي ما ناح طير عل لغصــــــان

والسلام ربنا للشرفا واهل نهدا افكل امكــان *

والناظمين عن ميزانــي والي ايزيد لو ميـــزان

ونميل الى اعتبار ابن احساين من خلال هذا النص يمثل مرحلـــة جديدة في الزجل المغربي ، لعلها فاصلة بين ما كان من قبــل وما غــدا عليه . وسنعود اليه في بداية الفصل الثاني ما دمنا قد اعتبرناه كذلك ، ونكتفي الآن بملاحظتين :

الاولى : ان الشاعر يشير الى «كان حتى كان» في أول بيت مقارنا بينه وبين « لوزان » ، ولعله يقصد بــ «كان حتى كان» نوعا من الشعر الشعبي يعتمد القص والحكاية كما يبدو من التسميـــة ، و بــ « لوزان » الشعر القائم على الوزن ، وهذا ما يعزز الاعتبار الذى ملنا اليه في أن هذا الشاعر بدا مرحلة جديدة في القصيدة الزجلية المغربية

الثانية : قوله في الرمز لتاريخ قصيدته بــ «رخل» فالراء بمائتـــين والخاء بستمائة واللام بثلاثين ومجموعها ثلاثون وثمانمائة ، وهى سنة نظمه لها ، وبهذا نستطيع تحديد تاريخ مرحلة القصيدة الزجلية الجديدة .

اصــل القصيدة الزجلية

نحن بهذا أمام نصوص قليلة ولكنها على قلتها متباينة الاشكال متباعدة الفترات . ومع ذلك فهي تثبت وجود زجل في المغرب منذ عهد الموحدين، بل الوان من الزجل مختلفة عن القصيدة المعروفة الآن ، وهي ظاهرة لا تدل على غير تطورها عبر الزمان . وعلى الرغم من ذلك يبقى السؤال قائما حول نشأتها ، وتبقى كذلك متفرعة عنه جملة اسئلة عن الاصول التي استقت‌منها وتأثرت بها قبل ان تحرز كيانها :

1 ـ أهي امتداد للزجل الاندلسي ؟

2 ـ أم هي محاكاة مباشرة لفن التوشيح الاندلسي كما عرفه المغاربة ؟

3 ـ أم هي تاثر بشعر اهل الامصار العرب الوافدين الى المغرب ؟

4 ـ أم انها استمرار لعروض البلد الــذى استحدثه أهل المدن بالمغرب ؟

5 ـ أم انها تطور لاغان ومرددات شعبية محلية ؟

كل هذه اسئلة تراودنا في محاولة البحث عن البذور الاولى للقصيدة الزجلية لا نرانا نخرج منها الا بردود لا تقوم على غير التخمين والافتراض .

اما الزجل الاندلسي فقد تاكد لنا ان المغاربة نظموا على نمطه في عهد الموحدين(1) ، ولكننا لا نعرف ان كانوا قد نظموه في العهد السابق . وعلى الرغم من ان النصوص لا تسعف ، فانا لا نستبعد ان يكونوا نظموه فــي عهد المرابطين (2) ، يدفعنا الى ذلك سببان :

الاول : ان المغاربة في هذا العهد ـ وبعد ان تمت الوحدة بــين البلدين ـ كانوا يقلدون الاندلسيين ويحتذون خطاهم في مختلف مناحــي الحياة ، وخاصة منها الحضارية والثقافية .

1) من 524 الى 674 هـ .

2) من 430 الى 524 هـ .

الثانى : ان الاندلس شهدت على هذا العهد ازدهار فن الزجل حيث لمعت أسماء كبار الزجالين وعلى راسهم ابو بكر بن قزمان .

والذى كنا نستبعده هو أن ينظم المغاربة الزجل على عهد الموحدين لما نعرف عن هذه الدولة من محاولة الابتعاد عن تقليد الاندلسيين وايجاد كيان خاص بها يعبر عن شخصية أهم ما تمتاز به هو التاثر بالدعـوة الموحديـة والميل الى البساطة والوضوح والبعد عن الزخرف والتعقيد .

ويبدو ان هذه المحاولة لم تتعـــد الرسميات الى الشعبيات ، حيث صادفنا غير قليل من الزجالين المغاربة فى هذا العهد ، بل أكثر من ذلـــك وجدنا صاحب « العقيدة الادبية » يتحدث عن الاختلاف حول مخترع الزجل ويذكر من المختلف فيهم ثلاثة من المغاربة هم ابن غرلة والخليفة عبد المومن وأخته رميلة ، يقول : «اختلفوا فيمن اخترع فن الزجل فمنهم من قال ابن غرلة ، وقيل يخلف بن راشد ، وقيل ابن قزمان ، وقيل مدغليس ، وقيل عبد المومن ملك الاندلس ، وقيل رميلة اخت عبد المومن . والذى اتفق عليه الجمهور أن أول من تناشد به ابن قزمان وبعده القيم مدغليس وبعده ابن غرلة وبعده يخلف بن راشد وبعده سبع الاندلس عبد المومن وبعـده رميلـة » (1)

ولعلنا نستطيع ان نذهب الى أن نظم المغاربة لفن الزجل فى هذا العصر الذى كان يحاول منافسة الاندلسيين وعدم تقليدهم يدل لا شك على نظمهم له فى عصر المرابطين من قبل وان وجوده فى عصر الموحدين ليس غير استمرار لما كان من قبل .

وعلى الرغم من أنه لم ترو أزجال مغربية كاملـــة ، فانا من خـــلال النصوص الناقصة التى ذكرت لابن غرلة وابن حسون لا نرى اختلافا بين الزجل الاندلسى والزجل الذى نظم هؤلاء الشعراء ، وهى ظاهرة يمكننا أن نستنتج منها فى كثير من الترجيح أن الزجل الاندلسى انتقل الى المغرب عن طريق تبادل الوفود والرحـــلات . ويكفى فى التمثيل لهذا التبادل أن نذكر قدوم أبى الحسن الششترى الى المغرب ، فقد كان يتنقل

1) الورقة 37 ظهر .

داخل المدن المغربية وينظم ازجالا يتغنى بها فى الاسواق كهذا الزجـــل الذى يقول فى مطلعه :

شويخ مـــن أرض مكناس * وسط .الاسـواق .يغنـــى

آش اعليا امـــن الناس * واش اعلى النـاس منى (I)

فهل كان المغاربة يستمعون الى مثل هـــذه الاشعار تنشد فـــى الاسواق وحلقات الذكر دون أن يتجاوبوا معهـا ودون أن تهـــز بعض المعتنين منهم لمحاولة النسج عليها ؟ نحن لا نشك فى أن تاثير الششترى كان قويا فى نفوس المغاربة ، وهو تاثير تـدل عليه الازجال التى لا زال يرددها فقراء درقاوة حتى اليوم ــ وهم طائفة من الشاذلية ــ ، وتدل عليها محاولة بعض المتصوفة المغاربة تقليد الششترى فى بعض ازجاله على حد ما نجد عند محمد الشرقى فى قصيدة زجلية يبدو فيها التاثر واضحا بزجـل الششترى السالف الذكر ، وهى القصيدة التى يقول الشرقى فيها :

انـا مالى فيـــاش * آش عليـــا منـــى

نقنط من رزقى لاش * والخالق يرزقنـــى

كذلك تدل على تاثير أشعار الششترى عنايـة المغاربة بنسخهـــا وشرحها على حد ما فعل الشيخ أحمد زروق (2) وابن عجيبة (3) ، وقـد كان بعض العارفين يحثون اتباعهم على قراءة هـذه الاشعار وانشادها . يقول ابن عباد الرندى(4) داعيا الى ذلك : «وأما مقطعـات الششتـــــرى وازجاله فلى فيها شهوة واليها اشتياق ، واما تحليتها بالنغـــم والصوت الحسن فلا تسل فان قدرتم ان تقيدوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك » (5).

وهذا يجعلنا لا نشك فى أن المغاربة ــ حتى فى نطاق التصوف ــ حاولوا ان ينظموا فى هذا الفن الجديد ، بل انا نكاد نجزم بذلك خصوصا

I) ديوان أبى الحسن الششترى ص 272 تحقيق الدكتور على سامى النشار الطبعة الاولى الاسكندرية سنة 1960 .

2) المتوفى سنة 899 هـ

3) المتوفى سنة 1311 هـ

4) المتوفى سنة 790 هـ .

5) انظر مقدمة الديوان ص 4 .

حين نجد مؤرخا كأحمد بابا التمبكتي (1) يقول : «وقد نسج الناس على منواله كثيرا فما ابرقوا ولا ارعدوا ولا قاموا ولا قعدوا الا من قل وندر لانهم ان اصابوا علما أخطأوا حالا وبالعكس » (2)

واذن فقد عرف المغاربة الزجل الاندلسي ونظموا متاثرين به ومقلدين له ، وهذه حلقة من حلقات البحث .

وما قلناه عن الزجل نقوله عن الموشحات ، خصوصا وان عهد المرابطين شهد ازدهارا لهذا الفن بظهور وشاحين كبار في الاندلس أمثال ابن بقي واحمد بن علي المشهور بالاعمى التطيلي وعلي بن حزمون المرسي وأبي بكر بن باجة ، وخصوصا كذلك وأن غير قليل من شعراء التوشيح وفدوا على المغرب في فترات مختلفة أمثال الحفيد ابن زهر وابن حزمون والهيثم المريبطري وسهل بن مالك الغرناطي وابن الخطيب فيما بعد .

وقد رويت لابن غرلة أجزاء من موشحات ، فقد ذكر له الحلي طرفا من موشحته المعروفة بالعروس (3) وهذا مذهبها واول أبياتها :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدي * صيدي الغزالة في مراتع الاسد

كيف لا أصول * واقتنصت وحشية

ظبية تجول * في ردا وسموسية

صاغها الجليل * فهي شبه حورية

---

1) المتوفى سنة 963 هـ .

2) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 70 طبعة فاس سنة 1317 هـ .

3) لاحظ استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهواني أن هذه الموشحة ليست الموشحة العروس التي ذكر ابن سناء الملك في دار الطراز فقال : «اذا قارنا عدد الاجزاء في اغصان هذه الموشحة واقفالها عرفنا انها ليست الموشحة العروس التي أشار اليها ابن سناء الملك فتلك كما صرح دار الطراز تتألف من اقفال ذات سبعة أجزاء وهذه اقفالها اربعة اجزاء » (انظر الزجل في الاندلس ص 113) علما بان ابن سناء الملك لم يسم ابن غرلة .

كذلك وجدنا فى « كتاب مجموع موشحات » (1) موشحة لابن غرلة يقول فى مطلعها :

يا من حكى خده الشقائق * وما له فى البها شقيـــق
تركتنى بالدموع شـارق * لما بدا خـدك الشريـــق

ويقول فى خرجتها :

بكر غدت فى الدنان عاتق * ما الحر من رقهـــا عتيــق
تلوح فى الكاس شبه بارق * ان مزجت صرفهـــا بريـــق

واورد له الشهاب الحجازى (2) موشحة هذا مذهبها واول ابياتها :

باســـم عن لآل * باســـم عن عطـر
نافر كالغـــزال * سافـــر كالبـدر
اى ظبـــى ربيب * لى فيـــه ارب
ريقه كالضـــريب * واللما كالضـــرب
يا لـــه من حبيب * باسـم عـــن حبب

---

1) مخطوط مكتبة أيا صوفيا رقم 4243 – السليمانية – اسطنبـول (الورقة 33 ظهر و 34 وجه وظهر) وقد وردت نفس الموشحة منسوبة لابن غرلة فى كتاب « روض الآداب » للشهابى الحجازى – الورقة 98 وجه وظهر (مخطوط مكتبة احمد الثالث رقم 2293 قصر توبكابى باسطنبول) كمـــا وردت فى «سجع الورق المنتحبة » الورقة 33 ظهر و 34 وجه وظهر (مخطوط مكتبة فاتح رقم 3918 السليمانية اسنطبول) ولكن منسوبة لعلاء الدين بن أبيك وليس لابن غرلة .

2) كتاب «روض الآداب » الورقة 96 وجه و 97 ظهر مخطوط مكتبة أحمد الثالث رقم 2293 . وفى نسخة أخرى من الكتاب مخطوطة بمكتبة راغب باشا باسطنبول رقم 1115 الورقة 190 انها لصلاح الدين الصفدى ، وفى نسخة ثالثة رقمها 4017 فى مكتبة أيا صوفيا باسطنبول (الورقة 91 وجه) ان الموشحة لاحمد بن حسن الموصلى .

واورد له الحجازى كذلك موشحة ثانية (I) يقول فى مطلعها :

زايــر بالخيــال * زايـل عــن قربى

باهــر بالجمـال * نــاهـر بالعجـب

ويقول فى خرجتها :

صــد تيهــا وقال * وهو يبغــى قربى

لحظ عينى تنال * قلت آه واقلبـــى

كما انه رويت لابن حسون فى سفينة مباركشاه (2) موشحة يقول فى مطلعها واول ابياتها :

مــا احمـــق * عن قطيع من دقق

الصباح قد اقبـل والظلام قد ولى

والنجوم قدغابت فى حجاب علم‌الله

ونجوم الاغصان قد بدت ان تجلى

واذن فقد نظم المغاربة الموشحات على طريقة الاندلسيين ، وهــذه حلقة ثانية من حلقات البحث .

واما شعر اهل الامصار العرب الوافدين على المغرب فقد حدثنا عنه ابن خلدون فى المقدمة فقال : « فاما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون وياتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجــاء ويستطردون فــى الخروج من فن الى فن فى الكلام وربما هجموا على المقصــود لاول كلامهم ، واكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون ، فاهــل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائـــد بالاصمعيات نسبــة الى

I) نسخة راغب باشا الورقة I9I ظهر و I92 وجه وظهر ، فى حــين انها فى نسخة مكتبة احمد الثالث (الورقة 97 ظهر) منسوبة لجمال الدين يوسف الصوفى .

2) الورقة 25 ظهر و 26 وجه مخطوط فيض الله مكتبة Millet رقم I6I2 اسطنبول .

الاصمعى راوية العرب فى اشعارهم ، واهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى » (1)

واورد من هذه الاشعار قصيدة على لسان الشريف ابن هاشم يبكى الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب (2)

قال الشريف ابـــن هاشـــم على * ترى كبدى حرا شكت من زفيرها
يعز للاعلام اين مـا رات خاطرى * يرد اعلام البدو ويلقى عصيرهـــا
وماذا شكات الروح مماطرا لها * عذاب ودائع تلف الله خبيرها

واورد منها « قولهم فى رثاء أمير زناتة ابى سعدى البقرى مقارعهم بافريقية وارض الزاب ورثائهم له على جهة التهكم» (3) ، هذا اوله :

تقول فتاة الحى سعـدى وهاضها * ولها فى ظعون الباكـــين عويـــل
ايا سائلى عن تبر الزناتى خليفة * خذ النعت منى لا تكون هبيـــل

واورد منها كذلك «قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم :

فشايب وشباب أولاد برجم * جميع البرايا تشتكى من ضهادها

ومنه قوله يعاتب اخوانه فى موالاة شيخ الموحدين ابى محمد بـــن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة ابـــى اسحاق ابن السلطان ابى يحيى ... :

يقول بلا جهل فتى الحى خالد * مقـــالة قوال وقال صـــواب
مقالة جيران بذهن وتـم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهـــاب
. . . » (4)

وقد كان المغاربة يستمعون الى مثل هذه الاشعار تنشد وتروى ، وهذه حلقة ثالثة من حلقات البحث .

ونصل بعد هذا الى الحلقة الرابعة وهى « **عروض البلد** » ، وقـــد تحدث عنه ابن خلدون فى مقدمته فقال : « ثم استحدث أهـــل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر فى اعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم

---

1) ص 510 . 2) ص 511 — 512 .
3) ص 512 — 513 . 4) ص 517 .

الحضرية أيضا وسموه عروض البلد ، وكان اول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب ، مطلعها :

ابكانى بشاطىء النهر نوح الحمام * على الغصن فى البستان قريب الصباح
وكف السحر تمحو مداد الظلام * وماء الندى يجرى بثغر الاقاح
باكرت الرياض والطل فيه افتراق * سر الجواهر فى نحور الجوار
ودمع النواعر ينهرق انهراق * يحاكى ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار

. . .

فاستحسنه اهل فاس ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شانهم » (1)

اما الحلقة الخامسة والاخيرة **فالاغانى والمرددات الشعبية** . وعلى الرغم من أنه لم تصلنا نصوص لهذه الاغانى والمرددات ، فانا لسنا بحاجة اليها لنثبت وجودها ، فلكل شعب ــ مهما كانت درجة حضارته وتمدنه اولية ــ اغانيه ومردداته ، بل «لسنا فى حاجة لان نثبت من الناحية العقلية ضرورة وجود الاغانى فى المجتمع الانسانى كله وان الاغانى الشعبية قديمة العهد بين سكان المدن والبوادى وان الحياة الاجتماعية بمناسباتها المفرحة والمحزنة قد حتمت التعبير الجماعى الذى يستعين بالآلة الموسيقية وبالتنغيم اللفظى فاصطنع فن يجمع بين هذين الجانبين الموسيقى واللغة هو ما نصطلح على تسميته بالاغنية الشعبية » (2)

وليس المغرب بدعا من الشعوب والمجتمعات ، فقد كانت له اغانيه ومردداته واناشيده يتنغم بها فى مختلف اللهجات المنتشرة فيه ، وبالعربية العامية منذ ان تم استعرابه على عهد الموحدين وربما قبل ذلك .

هذه اذن حلقات اوجب علينا استعراضها ما نفترض امكان اعتباره أصلا لنشأة القصيدة الزجلية المغربية ، فبأيها يا ترى نربطها ؟

---

1) ص 529 ــ 530 .

2) الزجل فى الاندلس لاستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى ص 3 .

لسنا نستطيع أن نقول بانها امتداد لتيار الزجل الاندلسي ، فالفجـوة الزمنية بعيدة بين الفترة التي وصلتنا عنها نصوص مغربية متاثرة بالزجل الاندلسي وبين الفترة التي ظهر فيها الزجل المغربي محرزا كيانه وخصائصه والاختلاف الشكلي ظاهر بين اللونين وخاصة حين نقارن بـين الزجـل الاندلسي والزجل المغربي في المراحل الاولى لتطوره الاخير ، وخاصة عند أمثال الشباد وابن احساين .

ولسنا نستطيع القول كذلك بأنها محاكاة لفن التوشيح لانا لا نعتقـد ذلك حتى بالنسبة لنشأة الزجل في الاندلس .

واذا جاز لنا ان نتحدث عن محاكاة القصيدة الزجلية المغربية لنمط من الانماط الشعرية فاغلب الظن أنها لعروض البلد الذى أشار اليـه ابن خلـدون لاستحسان الناس له ونظمهم على طريقته . ويميل بنا الى ترجيح هذا الظن الشبه الكبير الذى نجده بين النصوص التي نظم المغاربة متاثرين بعروض البلد كما عند ابن شجاع والكفيف وبين الزجل المغربي في مراحله الاولى وقبل أن يحرز كيانه الحالي اى عند الشباد وابن احساين .

كذلك لا نخفي ميلنا الى الظن بان اشعار العرب الوافدين ، وخاصة منهم الهلاليين وحلفائهم ، القت بظلال كثيفة على القصيدة الزجلية المغربية ، فليس من قبيل المصادفة ان تكون القصيدة في شكلها الحالي ظهرت في جنوب المغرب وان يكون اغلب اعلامها من الفيلاليين الصحراويين ، ونحن نعرف ان اولئك العرب الوافدين أقاموا في الجنوب ، وليس من قبيل المصادفة كذلـك أن يتخذ الزجالون المغاربة من التقاليد ذكر اسمهم في قصائدهم ، وهى عادة تعارف عليها الشعراء العرب الوافدون ، (I) بل ليس من قبيـل المصادفة بعد هذا ان نجد في الازجال المغربية آثارا للقصص والملاحم الشعبية التي جاء بها أولئك العرب ، تتمثل في الاشارة الى أسماء عبلـة وجازية وعنترة

I) انظر الجزء الثاني من الفصل الثالث من باب « الشكل » .

والشجعان الزناتيين (1) وفى التعليل لوجود هذه الاسماء بانها مقتبسة من القصائد الاصمعيات (2) .

ومع هذا فنحن نرجح ان تكون الاغانى والمرددات والاناشيد الشعبية المحلية هى الاصل الاول للقصيدة الزجلية ، وقد ذكر لنا الشاد ما يطلق عليه «الموهوب» كما ذكر منها ابن احساين «كان حتى كان» . وبذلك تكون القصيدة نشأت شعبية محلية نابعة من البيئة ومتأثرة بها كغيرها من الفنون والآداب الشعبية ، ولكنها ظلت محصورة فى نطاق ضيق محدود . ونرجح كذلك ان تكون هذه القصيدة اثرا طبيعيا من آثار استعراب المغاربة وانسجامهم مع اللغ الجديدة وتطويعهم وتذوقهم لها فى قالبها العامى حين عجزوا عن ذلك فى قالبها المعرب ، وهى بذلك نتيجة الازدواج فى اللغة تعاطاها العوام فيما بينهم ، ولكنها لم تصبح لونا ادبيا معترفا به اذ لم يتح لها الشاعر الفنان الذى يعمل فيه موهبته وعبقريته ويقدمها فى صورة فنية مكتملة . وظلت لذلك مدة طويلة تتنفس فى جو شعبى خالص ، وبقيت بهذا نماذجها الاولى مجهولة .

---

1) على حد ما يقول امتيرد فى «خديجة» :

لوصول اتصول * صولى يامولاتى اخديجا *

صولت عبلا وجازيا * يا سلطانت الريام

ويقول مبارك السوسى فى «زهرة» :

سلبت عقلى زهـرا * بالبها والحسن المكمول حازت اسرارو

بشمايل لبها فاقت عل لبكار * فاقت عن عبلا وجازيا وامحاسن لبكـور

ويقول المدغرى فى « ام كلثوم » :

كلثـوم تريـاق لسقـامى *

كلثوم كنها ياقوتا فى سلسلا امن اذهب تشحارو معلوم

كلثوما شمس اضوات فارسامى *

كلثوما ما ادركها عبسى فضخامتو اشجيع اسناحو مقيوم

ويقول محمد ولد افريحة فى « خناثة » :

يا دات الزين الوارث * امنين امجيك آمولاتى الخنتا

سبحان امن انشاك اقد الرمح الصقيل أرايافى تشجيع بين شجعان ازناتا

2) يستعمل الاشياخ مصطلح « الاصمعيات » دون ان يعرفوا انه يعنى قصائد اهل امصار المغرب من العرب كما شرح ابن خلدون وكما سبق ان أشرنا لذلك .

ولكنا نرى ان الشعراء الشعبيين تأثروا بعد هذا بالازجال الاندلسية والموشحات فى محاولة للتقريب بين القصيدة كلون شعرى عامى وبين الاشعار التى كانت تلقى فى مجالس غير العوام عند العلماء والحكام والملوك ، وفى محاولة كذلك لفرض وجوده وتوسيع نطاقه واقناع الطبقات المثقفة والارستقراطية بهذا الوجود ، وهى طبقات لا شك كانت معجبة بالازجال والموشحات الاندلسية بل بكل ما هو تراث اندلسى ، لا سيما وان غير قليل من الاسر الاندلسية انتقلت الى المغرب وظلت تعيش على ماض تعتز به وتفخر ، وهو شعور يكاد يعم جميع المغاربة حتى الذين ليسوا من أصل أندلسى .

والغالب ان هذه المحاولة تمت حين انتقلت القصيدة الزجلية من البيئات الشعبية الصرف الى بيئات راقية ان لم نقل انها بعيدة كل البعد عن الشعب. ومثل هذه النقلة تظهر فى التفنن الشكلى الذى اصبحت عليه وزنا وقافية (1) وفى المعانى والافكار التى بدأ يصورها الزجال المغربى والتى لا تمت بصلة للشعب ولا تمثل الا حياة الرفاهية والقصور والطبقات الغنية المنعمة ، وهى حياة يكاد تصويرها ان يكون اقرب الى نسج الخيال منه الى الواقع (2) .

على أنه لا ينبغى ان ننسى عاملا آخر ساعد على التأثر بالازجال والموشحات الاندلسية ، وهو انتقال الموسيقى الاندلسية الى المغرب بنوباتها واناشيدها ، وهى موسيقى حافظ المغاربة عليها . وقد سبق ان راينا (3) انهم اضافوا الى الميازين الاندلسية الاربعة ميزانا خامسا هو الدرج وان الحاج علال البطلة استخرج طبع الاستهلال فى أوائل ايام السعديين. وكان طبيعيا ان ينظم المغاربة — لهذه الاضافات على الاقل — مقطوعات كانت

---

1) أنظر الفصل الثالث من الباب الاول وانظر كذلك الفصل المقبل عن تطور القصيدة الزجلية .

2) انظر فصل المرأة من باب الموضوعات وانظر كذلك الجزء الاول من الفصل الثانى من نفس الباب .

3) فى المدخل .

بلغة عامية فى الغالب ، ولعلنا نذكر «البراول» التى سبق ان جعلناها نوعا مستقلا من الزجل المغربى لا يختلف كثيرا عن القصيدة .

وتتجلى عناية المغاربة بالموسيقى الاندلسية ومقطوعاتها ـ حتى بعد ذلك ـ فى العمل الذى قام به الحايك التطوانى فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى من جمع الموشحات والازجال التى تنشد فى هذه الموسيقى فى كتاب يعرف باسمه .

ولعلنا ان نذكر بعد هذا ان القصيدة الزجلية حين دخلت مرحلة الغناء لم تجد غير ميازين الموسيقى الاندلسية ونوباتها تقيم عليها الالحان .



الفصل الثاني

مرحلة التطور

رأينا فى الفصل السابق أن مرحلة جديدة من القصيدة الزجلية بدأت قبيل منتصف القرن التاسع للهجرة فى أواخر عهد المرينيين على يد عبد الله بن احساين ، وهى مرحلة تطورية كانت القصيدة خلالها تكتسب غير قليل من الجديد وتحاول احراز كيانها الذى ستستقر عليه ، سواء من حيث الشكل أو المضمون .

وليست هذه المرحلة قصيرة ، فهى تمتد زهاء ثلاثة قرون ، ومع ذلك فانا لم نتتبع كل شعرائها وما أنتجوا من أزجـال ، واكتفينا بذكـر الاعلام الذين قدموا جديدا أو طوروا قديما ، ولم نقف الا عند النصوص التى اعتبرناها معالم فى طريق هذه المرحلة . والحقيقة أننا لم نقصد الى ذلك ، ولكن المادة التاريخية والشعرية لم تتيسر لنا لاستعراض كامل نؤرخ به لهذا الفن ، والسبب أنها لم تدون فكان مآلها الضياع ، وما بقى منها فى أذهان الاشياخ قليل ، وهو على قلته ملىء بالتناقض والخرافات ، يحتاج الى كثير من التصفية والغربلة حتى يستخلص منه ما يمكن اتخاذه أساسا للدرس والبحث .

لهذا سنركز على القصائد نفسها ، نحاول أن نستكشف منها ملامح هذه المرحلة وما يميزها من ظواهر التطور والتجديد ، وسنتتبع نصوصها من خلال استعراضنا لاعلامها ، حتى نجمع بين التأريخ للقصيدة والتأريخ لمنشئيها ، وسنبدأ بعبد الله ابن احساين ونختم بالمصمودى .

عبد الله بن احساين

من قبيلة «اضراء» بصحراء تافيلالت كما يصرح فى شعره . ولسنا نعرف تاريخ ولادته ووفاته ، ولكنا نستطيع القول بأنه عمر زهاء مائة عام معتمدين على أمرين :

الاول : ان احدى قصائده مؤرخة فى سنة ثمانمائة وثلاثين ، واذا افترضنا أنها من أولى قصائده ، فيحتمل ان يكون قالها وهو بين العشرين والثلاثين من عمره .

الثاني أنا نجده يذيل قصيدة لاحد تلاميذه **يسمى الحمرى ، وهى** قصيدة مؤرخة فى السنة العاشرة **بعد المائة التاسعة ، وليس من شك فى** أنه كان اذ ذاك فى أواخر حياته .

ويعتبر ابن احسماين –فى رأى بعض الاشياخ (1)– صاحب مدرسة وأستاذ جيل ، ووضع لمن جاء بعده من الزجالين غير قليل من التقاليد ابتدعها فى زجله ، والاسف أنه لم تصلنا منه غير قصيدتين سنحاول منهما أن نستخرج ما يعزا له من ابتداعات وأسبقيات :

أولا – البحر المثنى : يستشف سبقه الى النظم على هذا البحر من استهلال القصيدة الاولى حيث يقول :

نبدا لسم الله انظامي باللـــى ابغا لـــوزان

لوزان خير لى أنيا من قول «كان حتى كان»

ربى اللى الهمنى نمدح جد الشراف بالخوان

بالشعر السليس الفايز هو ايكون لى عـوان

ويستشف كذلك من قوله فى نهاية نفس القصيدة :

واسلام ربنا للشرفا واهل لهدا افكل امكان

والناظمين عن ميزانى واللى ايزيد لو ميـزان

فهو يريد أن يقول شعرا موزونا سلسا يراه خيرا من «كان حتى كان». وقد سبق أن راينا (2) أن «كان حتى كان» ربما كان نوعا من الشعر غير منظم ولا موزون ، يقوم موضوعه لا شك على حكاية القصص والخرافات ، كما يبدو من تسميته .

والجدير بالملاحظة ان هذه القصيدة على قصرها – فهى لا تضم غير سبعة عشر بيتا – ليست معروفة الا عند كبار الاشياخ ، وأول قصيدة

1) هو السيد أحمد سهوم الذى استفدنا من تقاييده غير قليل من النصوص والاخبار المتعلقة بشعراء هذه المدرسة .

2) أنظر الفصل الاول من هذا الباب .

يحفظها أغلب المنشدين على «قياصها» هي «تصلية» ابن علي ولد ارزين التي يقول في حربتها :

صلوا اعلى الصديق الصادق جد الشمراف نور العين

امام لنبيا بلقاسم محبوب ربنا الرحمان

ثانيا ــ البحر الثلاثي : نظم فيه قصيدته «اللقمانية» ، وهي ــ كما سنرى حين نتحدث عن سبقه الى تاريخ القصائد ــ منظومة سنة ثمانية وثلاثين وثمانمائة ، أي أنه ابتدع هذا البحر بعد ثماني سنوات من ابتداعه البحر الاول . يقول في أول «اللقمانية» :

يا راسي نوصيك كيف وصى ولدولقمان ✻ وانت اصغا كيف ماصغا ولدو لبياني

واتوصى بوصايتي المرويا قوم اخرين

ثالثا ــ البدء بالبسملة : يبدو في أول بيت من القصيدة «المثناة» حيث يقول :

نبدا لسم الله انظامي باللي ابغا لوزان

لوزان خير لي أنيا من قول كان حتى كان

رابعا ــ توجيه الخطاب الى الرأس : يقول في أول بيت من قصيدته اللقمانية :

يا راسي نوصيك كيف وصى ولدو لقمان ✻ . . . .

خامسا ــ الاشارة الى تاريخ نظم القصيدة : يقول في أواخر أبيات القصيدة الاولى :

تاريخ حلتي «رخل» عد ازمانيا افكل ازمان

والقايلين كاع امحضرا ونا فقيهم وزان

حيث رمز بـ : ر خ ل ، فالراء بمائتين والخاء بستمائة واللام بثلاثين ، ومجموعها ثلاثون وثمانمائة ، وهي سنة التأريخ .

ويقول مؤرخا لقصيدته الثلاثية ، محددا تاريخها بالشهر واليوم :

واسمي عبد الله بن احساين نسل العدنان ✻

مركاحي فاضرا وحلتي فالوزن الساني

«خرجهالي» جماد والشهر باقي لو يومين

أما السنة فرمز لها ب : خ ر ج هـ ل ، فالخاء بستمائة والراء بمائتين والجيم بثلاثة والهاء بخمسة واللام بثلاثين ، ومجموعها ثمانية وثلاثـون وثمانمائة .

وأما الشهر فجمادى ، وأما اليوم فقبل نهاية الشهر بيومين .

سادسا — ذكر الاسم : يقول في قصيدته الثنائية مصرحا باسمه وبأنه من قبيلة «اضرا» :

واسمي افلامني عبد الله بن احساين الوزان

أسايلين عني فاضرا عاصي ومعدن النقصان

وكذلك يقول في «اللقمانية» مشيرا الى شرف نسبه كما يتضح من آخر أبيات ذكرنا منها عند التأريخ .

سابعا — اهداء السلام والصلاة والدعاء : يعرض ذلك في الابيـات الاربعة لقصيدته الاولى حيث يقول :

نرجا من لكريم التوبا امن الرسول فالميـزان

اشفاعتو اليها ذا الاما ونا فوسطها فرحــان

واشفاعتو اليها ذا الاما هي اذخيرت ليمــان

اشفاعتو اليها ذا الاما هي الضامنـا لجنــان

واتمام ما نظمت السيدى من ذا لعقيق والعقيان

اصلا اموصلا للماحي ماناح طير عل لغصان

واسلام ربنا للشرفا واهل لهدا افكل امكــان

والناظمين عن ميزاني واللي ايزيد لو ميزان

ويقول في اللقمانية :

واتمام المقصود فالصلا عن سيد عدنــان *

زين الزين الهاشمي احمد محبوب الغاني

والرضوان اعلى اجميع آلو وانصار الدين

ثامنا — هجاء الخصوم : يعتبر نفسه أستاذا وسائر الشعراء له تلاميذ، حين يقول في قصيدته الاولى :

. . . . . والقايلين كاع امحضرا ونا فقيهم وزان

فالقائلون عنده ـ وهم الشعراء ـ امحضرا ، وهو الاسم الذى يطلق على صبية الكتاب القرآنى ، أما هو ففقيه ، وهو الاسم الذى يعرف به مدرس الكتاب ومدرره .

تاسعا : تذييل قصيدة التلميذ : وهو دليل اعترافه بشاعريته واجادته حيث يختم قصيدته ببيتين أو ثلاثة . ويقال عنه فى الاصطلاح «اطبع لو»(1) ولا يكون الا بعد أن يراجع الشيخ القصيدة أو على حد قولهم «صفى لو لقصيدا» و «دوز اعليه» . ويعتبر التذييل شهادة يعتز بها الشعراء مثبتين تلمذهم على كبار الاشياخ الى حد قالوا : «شيخ ابلا اشياخا باطل شاخ»(2) .

من ذلك ما نجده فى نهاية قصيدة لحماد الحمرى ذيلها أستاذه ابن احساين بهذين البيتين مشيرا فى البيت الثانى منهما الى أن الحمرى يحفظ معانيه :

واسلام ربنا للشرفا وهـــل لعلوم ياحضـــار

اعداد ماهطلت امن امطار وما لقحت من تزهير

فاشعار حافظ امعانينا حماد رايـق للتشطـار

والحمد اللكريم الدايم عما اعطى ابلا تقصيـر

وقد قدم الحمرى لبيتى أستاذه بقوله معتزا بسنده :

والحمد والشكر فالختما واصلا اتسير للمختار

من درع ابن احساين الحمرى حماد رمزها «فلخير»

وتجدر الاشارة الى أنه رمز لتاريخ قصيدته بالفاء واللام والخاء والراء ، فالفاء بثمانين واللام بثلاثين والخاء بستمائة والراء بمائتين ، ومجموعها تسعمائة وعشرة .

---

1) نصادف هذا المصطلح عند محمد بن عمر الكفيف فى «الدعى» حيث يهجو الاشياخ الذين كثروا دون أن يكون لهم سند من حفظ أو رواية أو تلمذ على أشياخ يطبعون لهم ويجيزون :

فضحو سوق اللغا ابغال الرتعا * اشحال منهم املاوا ابقاعـى

ما حفظوا ماروا ما طبعوهم طباعا

2) ويقال كذلك انه «سلك الطرقان» أى حصل على تجارب وتعرف الى مختلف جوانب الفن عن طريق تلمذه على شيخه .

هذه جملة الاسبقيات التى استطعنا استخراجها لعبد الله بن احساين من ثنايا قصيدتين هما كل ما وقفنا عليه من زجله . وقد وجد من شعراء قبيلته غير قليل من السخط بسبب اتخاذه الوزن ، وهو سخط يكشف عنه قوله فى أواخر «اللقمانية» :

من غتبك يكفيك فيه خفف عنك عصيان *

كيغتبونى فقبيلتى عــن طـــرز اوزانـــى

نرجا من ربى ايتوب عن ساير المسلمين

ولكن احتضان ابن احساين لجماعة من تلاميذه فى الفـن ، سواء فى اضرا أو خارجها ، جعل ابتداعاته تنتشر وتفرض وجودها فى بيئة الزجل ويعترف للسابق اليها بالفضل ، وهو اعتراف تكشف عنه هذه الابيات التى رثاه بها أحد تلاميذه الفاسيين واسمه الحاج اعمارة ملقبا اياه بأبي الشعر ، يقول مخاطبا شعره ، يحثه على البكاء على أبيه حتى يسقى من دموعه جذور النخلة التى كان يجلس اليها ابن احساين لينظم قصائده :

ابك اعلى ابـاك أشعرى لبكـا دشى امرا ثكـلى

اونوح كينوح ورشان اغريب بوحدو فالليـــل

ابك على اباك أشعرى واسق اجذور ذا النخلا

اللى اشحال من شعر احداها رصعو اباك اكبيل

العيش بعد عبد الله او الله كـاع مايحـــلا

ونايلامشى عبد الله ابقيت فالشعار اوحيـــل

حمـــاد الحمـــرى

نعرف أنه من تلاميذ ابن احساين وأنه كان يعيش فى أوائل القرن العاشر كما تقدم . وقد ظل ينظم على بحرى أستاذه كما تكشف قصائده . فمن نظمه على البحر المثنى قصيدته «الربيعية» التى يقول فى حربتها :

الورد والزهر واغصانو واشجار باسقا واطيار

ايسبحو النعم الغنى والما افقلب كل اغديـــر

ومن نظمه على الثلاثى قصيدة «التصلية» التى يقول فيها :

صلى الله اعليك يالهادى خاتم لرسال * عد ادواب البحر والاسماك اللى فالمالى

العايش واللى امضى ومن هو مازال اقبيل

وقد ظل كذلك يسير على جميع التقاليد التى سنها أستاذه ، ولكنه – فى رأى الاشياخ – لم يكتف بها وأضاف لها من عنده . واذا كانت كل أسبقيات ابن احساين محصورة فى نطاق الشكل ، فان ما أحدثه تلميذه الحمرى يتصل كذلك بالشكل ، ولكن يتعداه الى المضمون . ويتبين لنا ذلك من خلال قصيدة واحدة هى التى وفقنا الى تسجيلها كاملة ، وهـــى «الربيعية» :

أولا : تطور المضمون :

ويتجلى فى كون القصيدة نظمت فى وصف الطبيعة وجمالها أيــــام الربيع ، وهو موضوع يؤكد كبار الاشياخ أنه لم يكن معروفا من قبل عند الزجالين الذين كانوا لا يخرجون فى أشعارهم عن المدائح النبوية و «التصليات» والحكم والمواعظ .

وقد سبق أن مثلنا ببعض أبيات هذه القصيدة لدى الحديث عن شعر الطبيعة(I) ، ونود هنا أن نلاحظ أن الحمرى جعل ربيع شعره أزهى من ربيع الزمان ، هذا ينقضى بمرور فصله ، وذاك دائم الازهار والاثمـار لا ينتهى ولا يذبل ، يقول فى القسم الثانى من القصيدة :

هاك ارياض يا من لاشاف ارياض فى اقريض اشعار

انزايه لفكار ارياضى الشعر فايـــق التشجيــر

لخريف كايقصف نمر والورد ويربـــى لزهـــار

والورد والزهر فارياضى فيام لخريـــف اغـــزير

لشجار افلخريف اتغرد واتنوح عن اشباب اقبـار

ويجف ورقها ويفدفد ويصير كحطـــب لهجيـــر

I) أنظر الجزء الاول من الفصل الثانى من باب (الموضوعات) .

ونا اشجار روضى خضرا تسبى ارباع النظـــار

فخريف ولمشاتى والصيف اربيعها اربيع اغزيــر

لغصان يانعا مسرارا والــــورق منها يخضـــار

واقطاطر النـدا فعــــروق سايـــر التشجيـــر

ثانيا : تطور الشكـل :

يتمثل فى ثلاثة جوانب هى : تقسيم القصيدة ووضع لازمة لهــــا واستعمال الحوار .

1 ــ تقسيم القصيــدة :

قسم قصيدته «الربيعية» الى تسعة أقسام كل منها مكـــون مـــن خمسة أبيات وهذا أولها :

سارت لمشاتى كالجيش ايلا انهازم افلكحـــار

من بعد زام طبلو واتنصر سار افلقفار اكسيـــر

وجا اهمامنا لمسمى الربيع حايــز التفخـــــار

وصاب ما يصيب المنصور ايلا امشى اعداه احقير

ارمات السما ثوب حزنهـــا ولبست الافتخـــار

واتحزمت بالسبع الوان اللى اهدى لها لخبيــــر

والنعايم لغنى سبحانو واسقات منها لشجـــــار

شلا احصى السان الفاصح سبحان ربنا لقديـــر

اعراجن الثمر فالنخلات الراكبات عــــل لجـدار

واعناقد لعنب فادوالى سالو عل لعصير اخبيـــر

2 ــ وضع الحربـة :

فقد جعل لقصيدته حربة أى لازمة تلتزم فى نهاية كل قسم ، هـــى قولـه :

الورد والزهر واغصانو واشجار باسقا واطيار

ايسبحو النعم الغنى والما افقلب كل اغديــر

3 ــ استعمال الحـوار :

وهو حوار بسيط وقصير أجراه فى القسم الثامن بينه وبين النحل

والفراشات ، وقد سماها «أم الوبرات» . فقد جاء على لسان الفراشات ما ضمنه الحمرى أول بيت من هذا القسم ، وجاء في رد النحل ما ضمنه في الشطر الثاني من البيت الثالث ، أما هو فرده عليها يبدأ من آخر البيت الرابع ويكمل في البيت الخامس ، يقول :

«اهلا بالربيع اللى جانا بعد ماهزم لمطـــــار

واهلا بالنسيم اللى هب حامل اشدا واعبيـر»

هكذاك قالت أم الوبرات الطايفات عل لزهـار

الراشفا اعطور النوار افطاست الندا لغزيـــــر

سمعوا اقوالهم النحلات وجاوبو ابلا تستــــار

«لاصيف لاخريف ابغينا الا اربيعنا لمنيــــر»

لكلام ابلقلوب يتسمع فشدا امرايح النـــــوار

ونا بقلب قلبي صغتو وانطقت قلت: «كل اغرير

ما راد غير راسو والهانى مارتا اعلى محتـــار

واللي الفي اغراضو وامرادو مايسالشي عن غير»

محمد بن على بوعمرو

وهو كذلك من تلاميذ عبد الله بن احساين اذ يترحم عليه في آخر قصيدته «عبلة» ملقبا اياه برفيق النخلة ، فيقول :

لازم ايجى من يدرى فضـــلى * والفضل الخالقى فالاول والتالى

ورحمة الله اعلى ارفيق النخلا

ونعرف من تأريخه لاحدى قصائده أنه كان يعيش بعد السنة الثلاثين من القرن العاشر ، يقول في أواخر قصيدته «عبلة» :

بوعمرو محمد لعشيق ابن على * والرمز «الحب اقهرنى قتالى»

فقد رمز ب : ل ح ب ق ه ر ن ق ت ل فاللام بثلاثين ــ وقد ذكرها مرتين ــ والحاء بثمانية ، والباء باثنين ، والقاف بمائة ــ وقد ذكرها كذلك مرتين ــ والهاء بخمسة ، والراء بمائتين ، والنون بخمسين ، والتاء بأربعمائة ، ومجموعها خمسة وعشرون وتسعمائة .

وقد أحدث بوعمرو ـ حسب ما انتهينا اليه فى البحث ـ بعض التطور على مضمون القصيدة وشكلها ، يتمثل الاول فى سبقه الى الغزل ، ويتمثل الثانى فى ابتداعه وزنين : احدهما داخل البحر المثنى ، والآخر داخل البحر الثلاثى ، كما يتمثل فى نظمه قصائد غنائية خفيفة :

أولا : تطور المضمون : الغزل

يعتبر بوعمرو أسبق شعراء القصيدة الى النظم فى الغزل ، ولقب لذلك ب : «العاشق» . ومن محاولاته الاولى فيه قصيدة «زهرة» التى يقول فى حربتها :

زورينى قبل الانقبار * ياهلال الدارا زهرا

وقد كان لغزل بوعمرو وقع سيء فى نفوس معاصريه الذين استاءوا منه وسخطوا عليه لاتخاذه المرأة موضوعا للشعر ، وبالغوا فى ذلك فرموه بالزندقة والفحش على حد قول أحدهم ـ اسمه لمرانى ـ وهو من امدغرا :

زنديق ابن الزنديق الوغد اللى ايردنا فساق

يستاهل الرجيم ابلحجر حتى ايموت بالتحقيق

ويلا ايموت يتصلب عام وبعد دلتو يحراق

وانشتتو ارمادو وانقول هكذا بغى لعشيق

فهو عنده زنديق ابن زنديق ووغد دنس الشعر بفسقه ، يستحق الرجم حتى يموت ثم يصلب مدة عام وتحرق جثته بعد ذلك ويذر رمادها جزاء عشقه وقوله فيه .

وعن مثل هذا السخط العنيف عبر أحد شعراء مراكش المعاصرين له اسمه حسون وتير فقال :

ملت امن السجيا ونى فيها العار والشنار

واغضبت اعلى الشعر الملحون اللى ناظمو فاضرا

الفاسق اللئيم الزنديق اللى شنع بالبكار

ألويلى اجناح انفدفد وانطير له للصحرا

واندير له لكبل واسلاسل من الهند للتشبار

وانطوفو اشهر وانحبسو عشرين عام في عشرا

فقد مل الشعر الذى غدا فيه العار والشنار ، وضاق بالملحون الـذى ينظمه شاعر اضرا محمد بوعمرو ، وهو يرميه بالفسق واللؤم والزندقة والتشنيع بالابكار ، ولو كانت له أجنحة لطار اليه حتى الصحراء ليضع له القيد في رجليه ويكبله بسلاسل الحديد ليقوده منها ويطوفه شهرا ثـم ليسجنه مدة ثلاثين عاما .

ولم يكن بوعمرو يسكت عن خصومه ، وكان يرد عليهم بأنهـم لا يعرفون حقيقة ما به وأنهم لو أدركوا هذه الحقيقة لاتخذوه نبراسا يضيء لهم الطريق وتبعوه ، وبأن سر ما يعاني كامن في رقة قلبه ؛ يقول في القسم الثاني من قصيدة تأملية :

واسباب ليعتي وامصابي حتى اوصلت للتخنـاق

قلبي ارهيف ياهكواني طبعي ابلا اشعـار ارقيق

البعض راد لي تشنيقا والبعض راد لي نحـراق

والبعض راد لي نتصلب بالسلاسل حين اعشيق

تالله لون عرفوا ما ساكن فالقليب بالتحقـاق

حتى انكون لهم شمعا تضوى افضيق كل امضيق

وفي القسم الاول منها يرجو الله أن يطبعه بطابع قومه أو يطبعهم بطابعه حتى لا يظل كالعاقل بين المجانين أو كالمجنون بين العقلاء ، وحتى يتفاهم مع مجتمعه الذى يحلل من الاشياء ، ويحرم ما يشاء :

يا خالق لخلايق خلقني بطبايـع دا الخـلاق

ولا اخلايقك خلقهم بخلايقي اتبـان الطريـق

ايلا انقول لهم ياناسي هامسارب التحقـاق

ايجيوا اللخرايف ويقولوا هانهايت التحقيـق

والعاقل لفطين ايلا كان امشي الحارت الحمـاق

هو ايصير لحمق والحومق عاقلين بالتحقيـق

اناعفيل بين الحومق واهبيل فوسط العيـــاق

واشحال حللوا من شيات وحرموا ابــلا تحقيق

كذلك كان يرد عليهم محاولا أن يبرر لغزله على حد ما يقول فى القسم السادس والاخير من «زهرة» يسائل الذين لعنوه — فى استفسار انكارى — عن العيب الذى يمكن أن يكون فى التغنى بمحاسن المرأة ومدح الجمال ، ويطلب من الله أن يقيه شر الجاحدين :

واتمام القول افلشعـــار * يالى لعنونــى جهـــرا

آش من عيب اعلى لشطار * دلغنا بمحاسن لمــــرا

واش من حشما يالجبـــار * فى امديح اعلوم النظــــرا

ياهلى والجحـــاد اكثـــار * بـين امدغـــرا وامغـــرا

والستر من عند الستـــار * منهم يوقينـــى جهـــرا

وقبل ذلك وفى القسم الرابع يطمئن الذين يخشون من العار الــذى قد يلحق بأهل حبيبته فيبين لهم أن العاشق لا يحتار فى أمره طالما أن العشرة تتم بالزواج ، وقد كنى عنه بالصداق :

خايفين اعليا من عـــار * كيـدل احبـــاب البكـــرا

والذى عــاشق مايحتـــار * بالصـــداق اتــم العشرا

ولم يقف سخط خصوم بوعمرو عند هذا الحد ، وانما زادوا فمنعــوا تداول جميع قصائده حتى ما كان منها فى غير الغزل ، فلم تعد تنشد فى المساجد والزوايا والمجالس العامة حيث كانت العادة أن تنشد قصائــد الزجل ، ولكن الشاعر استمر فى اتجاهه الجديد الذى وجد قبولا واستحسانا فى المجالس الخاصة ولاسيما عند النساء والشباب . واضطر بوعمرو الى أن يساير جمهوره الجديد وأخذ ينظم له أغنيات خفيفة كهاته التى يؤكد بعض الاشياخ أنها ما زالت تغنى حتى اليوم فى الصحراء ، يقول فى أولها :

اتقرقبو الزوج اخراص * طــــار النعـــاس

خلونى هنـــا لوناس * غابــــوا الفـــاس

وسنعود الى هذه الاغنيات فيما بعد كتطور للشكل عند الشاعــر ، ونبقى قليلا مع بوعمرو فى مواجهته لخصومه ، فهو لم يقنع بالمصير الذى

آل اليه شعره وظل يرد على خصومه مؤكدا تمسكه باتجاهه فنظم قصيدة «عبلة» التي يقول في حربتها :

ايلا اتعذبت اعذابي من انواجــلي * ويلانا هنيت واسعدنـــي فـــالي
اسبابي فالهنا اغـزالي عبـــلا

ولعله في اختيار اسم عبلة لم يكن يقصد غير الابتعاد عن أسمـــاء النساء المألوفة ومحاولة اقناع خصومه أنه لا يعني بنت هذا أو زوجة ذاك أو أية امرأة بالذات .

وفي القسم الثاني يخاطب الذين شوهوا قوله ولاموه على هواه ، ويبين لهم أن الحب كنز حصل هو منه على قدر كبير ، وأن المحبة رضوان من الله يهبه للعفيف ويرفع به الوضيع ويغني به المعدم ويحول به القفار الى جنان :

ياللي شوهتـــو ليا افعايــلي * لوموني افلهوا ونـا فسجالـــي
نوريكم حب ماتوصلـو خـــلا

لمحبا رضوان الخالق العالـــي * للي هو اعفيف الحب احلالـــي
واياموا ابلهـوا العـذرى تحـلا

ايلا ايكون اوضيع افلعباد ياللي * ما ساق اخبار لازم اينال لمعالـي
ويعود ايلو اجنان ما كان اخلا

كم عادم فغناه اليوم بـــان لي * الحب اكنوز ياللي كايصغالـــي
أنا بعدا ادركـــت منها شلا

وفي القسم الرابع والاخير يكشف لخصومه أن البون شاسع بـين العشق والفسق ، وأن العاشق لا يمكن أن يكون فاسقا ، وأن العشق يبعث الرقة والنور في قلب الجاهل البليد فيصير فاضلا لبيبا أديبا لا تمـــل مجالسته :

عاشق وفاسقماينصاب في اخلا * ولا فعمارت لمـــدون ولطـلالي
بين العشق والفسق عندي شلا

من اعشق يترقق لو كان كرغلي * ويصير افضيل بين لامت لفضالي
البيب اديب عنـــو ماتسلا

ويرفع شكواه الى الله من أولئك الذين اغتابوه وهاجموه فاسودت

صفحته وساء حظه :

يالى بغتبكم سعدى اسواد لـى * واشكايا للكريم لجليل العالـــى

لاقـــولا خافيـــا ولافعـــلا

ولكنه لا يفقد الامل فيمن يدرك فضله ، فيقول فى آخر بيت مـــن قصيدته :

لازم ايجى من يدرى فضلـــى * والفضل الخالقى فالاول والتالــى

ورحمة الله اعلى ارفيق النخـلا

وكذلك كان ، فقد جاء فيما بعد شعراء عرفوا قدر بوعمرو واعترفوا بفضله ونزهوه عما اتهمه به معاصروه ، من هؤلاء الجيلالى امتيرد قالـــه فـال فيــه :

ماوتيتـــى حـاشا لله * غير ساعفتى من تهـواه

زاد لـــك أولاعـــا

الزهو فسطور انظمناه * ولهوا ساقى سمينـــاه

ولـــودن سماعـــا

ومنهم كذلك التهامى المدغرى شاعر الغزل الاول فانه قال :

لو كنت فى ازمان «العاشق» * انكون لـو الخـــو الشقيـــق

وانحق للجحـود احقايـــق * وانقـول يالنايـــم فـــق

والحقيقة أننا حين ننظر فى قصيدة «عبلة» لبوعمرو نكـاد نلتمس العذر لثورة معاصريه الذين لم يألفوا فى الزجل غير المدائح النبويـــة والتوسلات والمواعظ ، ثم فجأة يسمعون لشاعر مثل هذا القول :

انظم وانغنى سعدى اسكام لـى * وانقول افحلتى وشعرى واسجالى

فى محراب لغرام هى القبـــلا

ليس من شك فى أن بوعمرو كان جريئا على مجتمعه المحافظ حين اعتبر الحبيبة قبلته فى محراب الغرام ، بل انا لا نجد شاعرا آخر مـن الغزلين الذين جاءوا بعده استطاع أن يجرؤ على مثل هذا القول باستثناء التهامى المدغرى الذى قال فى قصيدة «غيثة» :

اخلعت لعدار فى محراب لهوى وصليت * وامطارب لخمر تركع لصلاتـــى

ومن عجيب أن الموقف الذى اتخذه معاصروه منه بمنع تداول كل شعره وما نتج عنه من انتشار قصائـده الغزلية فى بيئات خاصة حمى هذه القصائد من التلف والضياع فى حين ضاع كل ما عداها من زجله .

ثانيا : تطور الشكل :

ويتمثل عند بوعمرو فى ابتداعه وزنا قصيرا لكل من البحرين الثنائى والثلاثى ، وفى نظم قصائد خفيفة للغناء .

1 ـ الوزن الاول للبحر المثنى :

ويعتبر أصغر وأقصر أوزان هذا البحر ، وقد سبق اليه فى قصيدة «زهرة» التى يقول فى حربتها :

زوريني قبل الانقبـار * ياهـلال الدارا زعـرا

ويؤكد الاشياخ أن أحدا لم ينظم فى هذا الوزن غير التهامى المدغرى فى قصيدته «فروح» التى يقول فى مطلعها :

مال ذاك الغنج الذبـاح * كايزيد القلـب المجروح

2 ـ الوزن الاول للبحر الثلاثى :

ويعتبر كذلك أصغر وأقصر أوزان هذا البحر ، وكان أول نظمه عليه فى قصيدة «عبلة» وهذه حربتها :

ايلا اتعذبت اعذابى من انواجل * ويلا نا هنيت واسعدنى فالـى

اسبابى فالهنا اغزالى عبـلا

ويؤكد الاشياخ كذلك أن أحدا من الشعراء لم يوفق فى استعمال هذا الوزن كما وفق الفقيه العميرى ، على حد قوله فى احدى قصائده :

بارت احيال لعقالا افجيلنـا * والحق اغبر ولعلايم كبـالا

وعلامات المسيح لنا وصلـو

3 ـ قصائد خفيفة للغناء :

اضطر بوعمرو الى نظمها تلبية لطلب جمهـوره الجديد بعد أن أعرض الاشياخ عن شعره ومنعوا تداوله ، وهو جمهور ـ كما سبق أن ذكرنا ـ محصور فى نطاق النساء والشباب . وقد وقفنا على قصيدتين من هذا النوع الغنائى الخفيف ، يقول فى الاولى على لسان فتاة سافر

حبيبها الى فاس وتركها وحيدة لا تكاد تنام حتى يوقظها صوت حلقات أذنيها لتسهر طوال الليل معذبة عليلة القلب ، وهى ترجو الناس أن يحدثوا أباها وأمها وعمها فى كولميم ليذهبوا فى البحث عن حبيبها الذى طالت غيبته وكانها مدة عام :

اتقرقجوا الزوج اخراص * طـــار النعـــاس
خلونى هنا لونـــاس * غابـــوا الفـــاس

انبات ساهرا فالليـــل * ليلـــى اطويـــل
لو اعمل كيف كان اكبيل * باقـــى اهبيـــل
قاسيت فالعذاب اشحال * قلبـــى اعليـــل
دالشى احرام أو احلال * صـــدوا الخيـــل

جانى البارح فالمنـام * مـــاشى اليـــوم
واشنو البارح افليـام * أنسيتـــهـــم
اتقول غاب هـذا عـام * وادى النـــوم
دالشى احلال أو احرام * صـــدوا الخيـــل

لاغيوا لـى ابا وامـى * لا نغيـــوهـــم
لاغيوا لى اعـلى عمـى * مـــن كولميـــم
ايفتشوا عـلى نجمـى * بـــين النجـــوم
دالشى احلال أو احرام * صـــدوا الخيـــل

ويقول فى الثانية مستعرضا مجموعة من الفاتنات المزدغيات فى سن المراهقة يتحدثن باللهجة الشلحية والعربية ، وقد لمع جبينهن كالبدر وانطلق شعرهن الفاحم على الخدود ، وما كاد يراهن حتى أحس بدوار ، ودخل معهن فى حوار حيث سألنه عن مكان قدومه فرد بأنه من منطقة ورغة جاء الى امزدغا لينظر الى طغيان الجمال فى خدهن وليعانى من جفائهـــن وبغى حبهـــن :

روح اتشوف الزين ياللى ما شاف الحسن فامزدغـــا
طفـلات افجهـد لبلـــوغ
صاكا صاكا دايزين اعـــلى ورغا رافديـــن صيفـــا
يلغـــوا بشلحـا اولـــوغ

اجبين كالبدر والتيوت مفروغين اعـلى لخدود فرغـا
وايـن اللـى راهـو ايـروغ

مهما ريت ابهاهم دوخوا دماغي ياصاغي ولا وجدت وين انـروغ
قالوا لى امنين اتكون قلت لهم أنيا من احواز ورغا جابتنى رجلى انزيغ
انشوف الزين افخدكم طاغى * وانتما حبكـم باغـى
جفـالات كلكـم غواغـا * مزينكـم بـملاغـا

والجدير بالملاحظة أن مثل هذه الاغنيات خرجت فيما بعد من نطاق مجالس النساء والشباب ودخلت مجال الانشاد حيث اتخذهـا المنشدون لخفتها مقدمات للقصائد الكبيرة يضبطون بها ايقاع النغم واللحن ، وقد تطورت هذه المقدمات الى ما عرف فيما بعد بالسرابات كما سنـرى فى الفصل الثالث من هذا الباب .

وقد ظل بوعمرو طوال حياته ينظم فى الغزل لم يتراجع عنه الى أن وافته المنية ، فرثاه أحد رفاقه فى التلمذة على عبد الله بن احساين هو الحاج عمارة الفاسى بقصيدة منها هذه الابيات :

مال دمعى عن خـدى واد * مال ذاتى فيهـا رعـدا
مال قلبى خافق فدفـاد * جرحتـو ألـف غـدا
مال عقـلى ياويحى بـاد * مـال شعـرى مايتسدا
آح اعليـا يالعبـاد * من احراق احبيب الكبـدا
النبيـل الفـذ النشاد * سيد مـن غنـى أو اشدا
بوعمر لمنيـر الوقـاد * لحبيـب الا ليـه افـدا

الحـاج اعمـارة

من شعراء فاس كما يصرح فى آخر قصيدته «الحجة» اذ يقول :

والذى سالك عن اسمى ابلجهـار * الحاج اعمارا مادح درت النـوارى
من امدينة مولاىادريس صيل لطهار * امدينة العلم وأرض النور افلقطـارى

وهو من تلاميذ عبد الله بن احساين ، وقد ذكر لنا بعض أشياخ فاس أنه نشأ فى طريانة بالطالعة الصغرى ، وأنه عمر طويلا حتى قارب المائة

عام ، وأنه دفن بمقبرة باب الفتوح فى نفس المدينة . وعلى الرغم من أنا لا نعرف بالضبط تاريخ وفاته فانه من المؤكد أنها بعد وفاة بوعمـــرو لانه رثـــاه .

وقد وقفنا من زجله على أبيات فى رثاء ابن احساين وبوعمرو سبق أن أشرنا اليها ، وعلى قصيدتين : احداهما «فاطمة» والثانية «الحجة» . وعلى الرغم من أنه نظم فى الغزل قصيدته الاولى فان أحدا لم يثر عليه ولم يخاصمه، ولعل مرد ذلك لامرين :

أولهما : أن ثورة الاشياخ ضد الغزل كانت قد هدأت لا شك ، ولعلهم بدأوا يألفونه ويعجبون به ، علما بأن قصيدة «فاطمـة» مؤرخـــة خمس سنوات بعد قصيدة «عبلة» لبوعمرو الذى ربما كان توفى حين نظم الحاج اعمارة قصيدته ؛ ويتضح تاريخ نظمها من قوله :

رمز الحلا ياللى اصغى «غالى» ذاك اقوام * مهديا لام النيوت مولاتى فاطما
ذات الزين الفايز الدكى سلسالت لكرام

فقد رمز ب : غ ــ ل أما الغين فبتسعمائة وأمام اللام فبثلاثين أى أن القصيدة نظمت سنة ثلاثين وتسعمائة .

الامر الثانى : ان الاشياخ بدأوا يلتمسون التبريرات للحاج اعمــارة ويحاولون تأويل قصيدته زاعمين أنه لا يقصد غير فاطمة الزهراء(1) .

وبامعان النظر فى قصيدتى الشاعر يتبين لنا جانبان من جوانــب التطور يبدو أن الحاج اعمارة سبق اليهما ، أما الاول فوزن جديد للبحر المثنى يعرف ب «قياس لمشركى» ويظهر فى قصيدته «الحجة» وأما الثانى فمقدمات الاقسام المعروفة ب «النواعر» وذلك فى قصيدته **«فاطمة»** .

أولا : قياس المشركى :

وهو وزن من البحر الثنائى سبق أن رأينا(2) أنه أسهل أوزان هذا

---

1) فى حين أن الواقع غير ذلك كما بينا فى الملاحظة الثانية بآخر فصل «المرأة» من باب (الموضوعات) .

2) أنظر الجزء الاول من الفصل الثالث من باب «الشكل» .

البحر ، وكان أول ما نظم فيه قصيدة «الحجة» التي يقول في حربتها :

يا لحضرا قولوا بالسر ولجهـار * الصلا والسلام اعلى النبي المختار

وهي قصيدة تحدث فيها عن أدائه لفريضة الحج ، ويبدو أنه نظمها في البقاع المقدسة ، ومن هنا جاءت تسمية وزنها ب «المشركي» منسوبا الى المشرق ، بل انا نراه يؤكد ذلك حين يقول في البيت الرابع من القسم الاول انه أتى به من مكة :

واش كنزوا من لاكنزوا قياص لشعار * يوم جبتو من مكا تربت الطهارى

ويقول كذلك في أول بيت من القسم الخامس والاخير :

هاك يا راوي درا من ادرار الشعار * في اقياص امشركي من بلدة السرارى

والملاحظ أن شاعرا لم ينظم على هذا الوزن ـ كما جاء به الحاج اعمارة ـ أحسن من التهامي المدغري في قصيدته «فروح» التي يقول في حربتها :

ما نروح اللفراح ولا نروح بالراح * دون راحة روح اللوامح افـــروح

ثانيا : مقدمات الاقسام (النواعر)

لعلها ظهرت لاول مرة في قصيدته «فاطمة» التي يقول في حربتها :

أنا فطموني اعلى اهواك أباشت لريام * وانت مفطوما اعلى اعذابي يافاطمـا

والني فرقنا ايلمنا ماطالـت ليـام

فقد قدم لكل قسم بأبيات ثلاثة ابتداء من القسم الثاني دون الاول الذي كان يمهد له بالحربة على عهد الحاج اعمارة ، ثم اصبح يقدم له فيما بعد بالسرابة .

وكمثال على ذلك نورد «نواعر» القسم الثالث من القصيدة ، وفيهـا يقـــول :

كم اسنين وكم امن اشهور * واشحال من الليالي دازوا وانهايـر

ونيـا منسي مهجـــــور * طعمي امحايني واشرابي لمراير

بعد الصبر اكتبت مسطور * مرسول سار به وعاينت ابشاير

وبها ينتقل للقسم حيث يقول :

أفاطما لله جا اكتابي فايـح بنسام * أفاطما لاجواب جانـــي لا تسليمـــا

اطردني مرسول عاشقك وانسيت ليام

افاطما كم ليل بت انطوف ابلرسام * أفاطما كيف طاف بالكعبا اقويمـــا
فيس وكيف ارجا ارجيت لايعفو من لغرام

أفاطما هاجت لمطار بلت لي لحرام * أفاطما والقيام زايدني تغييمــــا
لاوجيك لابدر فالسما لانجما فظــلام

محمد بن عبد الله بن احساين

هو ولد عبد الله بن احساين السالف الذكر وعميد الزجل بعده . واذا كنا لا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته فانا نستطيع جعلها بالتقريب في السنوات الاولى بعد المائة التاسعة وقبل وفاة والده بسنوات قليلة ، لانه يصرح في قصيدة له في «التصلية» انه لم يمنع نظره في والده كناية عن كونه مات وتركه صغيرا ؛ فهو يقول في القسم السادس والاخير منها داعيا لوالديه بالجنة :

واللي سالك عن اسمي افشعري محمد * مامتعت افوالدي ابصـــر
عبد الله بن احساين بجعل فالخلد اقرارو

وامعـــاه الحـــرا البـــارا

ثم ان هذه القصيدة مؤرخة في السنة السابعة والثلاثين بعد التسعمائة، يقول في القسم الاخير منها :

تاريخ الحلا افرمز «غزلي» قولوا للداري * فابجد مـا قل ماكثـر
والكسدا فاضرا وروحها سارت فيزوارو * من تركو لعيون هامرا

فقد رمز ب : «غزل» فالغين بتسعمائة والزاي بسبعة واللام بثلاثين ، ومجموعها سبعة وثلاثون وتسعمائة .

فليس بعيدا أن يكون نظمها وهو بين العشرين والثلاثين من عمره ، وليس بعيدا كذلك أن تكون من أول ما نظم .

وقد وقفنا من قصائده على اثنتين : احداهما في «التصلية» ويذهب كبار الاشياخ الى أنه سبق فيها للبحر الرباعي ؛ والاخرى في التغزل في «طامو» ويذهبون الى أنه سبق فيها للبحر الخماسي والى التجنيس والتصريف والتضمين والى الشعر القصصي كذلك .

أولا : البحر الرباعي :

فقد جعل البيت مكونا من أربعة أشطار على حرف واحد في القافية وبحركات مختلفة ، والتزم نفس الحرف والحركات في كل القصيدة ، ويتضح ذلك من حربتها التي يقول فيها :

صلى الله امع املايكو عل لحبيب السارى * وامر هل ليمان افلبشر
بصلاة الهادى امع اسلامو بايات اسوارو * صلى الله اعليه وافرا

فانه التزم قافية الراء في كل أبيات القصيدة وجعلها في الاشطار الاولى على الكسر وفي الثانية على السكون وفي الثالثة على الرفع وفي الرابعة على الفتح .

ومن الزجالين الذين نظموا على هذا البحر بنفس الوزن محمد بن على ولد ارزين في قصيدته «الوصية» وان لم يلتزم بنفس الحرف والحركات المختلفة ، وفي لازمتها يقول :

بعض الناس احبابدرتهم نوجدهم اعدايا * من عدالى كرهنا احصل
واعيت انهادى افحيهم مادارو بهدايا * كل مادارو لنا اوصل

ثانيا : البحر الخماسي

نظم عليه قصيدته «طامو» التي يقول في حربتها :

قالت يما اتقول طامو * قلت او أبيك يالطام
يا قد اعلام فاللطام * قالت ترا يقول طاما
ترات ايقول فاطما

ويذكر الاشياخ أن أحدا لم يستعمل هذا البحر في نفس الوزن الذى وضعه له ابن احساين كما استعمله النهامى المدغرى ، ومن الامثلة على ذلك قصيدته «فارحا» التي يقول في حربتها :

سلتك ببهاك يالرايح * مالك سكران دون راح
ونا عقلى امعاك راح * بايت من ليعت لجرايح
ساهر والناس رايحا

ثالثا : التجنيس(1) أو الجناس

ويتضح سبق محمد بن احساين الى استعماله فى هذا البيت من قصيدة «طامو» حيث يقول :

كيفى ينا انهار نامـوا * عينى فعيـون موحـرام

واعقيلى من الهام هـام * بالحال اللى افقلب شاما

فـوق الـوردا الناسما

فالهام الاولى بمعنى الراس والثانية فعل الهيام .

رابعا : التصريف(2) :

وهو أن يتصرف الشاعر فى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها ، وكأنه نوع من الجناس ، ويتضح ذلك فى حربة قصيدة «طامو» .

خامسا : التضمين(3)**أو التلزيم :**

وهو أن يجعل الشاعر قافيته على أكثر من حرف شبيها بلزوم ما لا يلزم فى الادب المعرب ؛ ويتضح سبق ابن حساين اليه فى حربة طامو السالفة الذكر حيث جعل القافية على حرفى الطاء والميم .

سادسا : الشعر القصصى :

فقد حكى فى قصيدته «طامو» قصة حبه لها بدأها بأول لقائهما واعجابه بجمالها الذى وصفه فى القسم الاول حيث تشجع على أن يسلم عليها ويسألها فى نهايته عن اسمها ، فقال :

قلبى فيها القى اغرامو * زعم نطقى اعـلى **السلام**

ماردت **بالحيـا** اسلام * جرت قبطتها **ازعامـا**

قلت اسمـك بالناسم

(1، 2، 3) أنظر الجزء الثانى من فصل «اللغة والفنية» بالباب الاول .

فأجابته بأن أمها تسميها «طامو» ، وحين سألها بم يسميها أبوها ردت بأنه تارة يناديها بطامة وتارة بفاطمة ، وقد ضمن هذا الاستجواب في حربة القصيدة .

فزاد جوابها لوعته وسرى في جسده كالخمر وأسكره وأفقده وعيه وعقله ، ولكنها لم تلبث أن لاذت بالفرار وكأنها الغزال حين يحس بخطر الصياد يحوم حوله ، ولم تفعل كالنعامة توهم نفسها أنها بعدت عن الخطر بدفن رأسها في الرمال ؛ وساعدتها على الفرار أقدام شابة قوية لم يقدر على متابعتها لوهن عظمه ، فاختفت عن نظره طائرة كحمامة وتركته كالقمرى الظامىء ؛ ذلك ما يحكيه في القسم الثاني اذ يقول :

صوت العذرا امع انغامو * اسرا فمفاصـــل لجسام
خمر ذاتى ابلا امـــدام * وافقدت العقل والفهامـا
صدقـــت هـــى الفاهمـا

دارت مادار فى اوهامو * لغزال الراتـــع لوهـــام
حس بالصياد بـه حام * ما درق راس كالنعامـا
وا بنـــى طـار فالسمـــا

الباهى عانتو اقدامـو * ونـا لموهـــن لعظـــام
ماطقت لجـرى ابلقدام * والخودا كنهـا الهامـــا
فتلول الرمـــل هايمـــا

حتى ختفات يـا عدامو * قلبى من ليعت لغــرام
من بعد اسلام ولكلام * طارت كطيرت لحمامـا
ثقرت كمرى لهـا اظمـا

وظل في القسمين الثالث والرابع يحكي أثر حبها عليه معذبا مسهدا طوال شهر الى أن كان يوم خرج القوم للصيد وخرج معهم على حد ما يقول في آخر بيت من القسم الرابع :

حتى لليوم فاش قاموا * الصيد اسياتـل لخيـام

ونـا مالد لـي امكـــام * واخرجت امع اهل الزعاما

اليـوت اضراغـم لحمـــا

ويحكي في أول القسم الخامس أن الناس تشتتوا في البطاح والآكام بحثا عن الصيد حتى كان آخر النهار وعاد الجميع ، وقد اصطاد بعضهم النعام والغزال آخرون ، أما هو فعاد ومعه فاطمة :

كلا ننساق في اقوامـو * مابيـن ابطايـح لوهـام

وتشتتنا عـلى لاكـــام * ضلينـا كافـا اهيامـــا

من مور اوحوش هايمــا

حتى عكب الضيا اظلامو * عدنا بجميـــع في اسلام

شي منا قـانص النعاما * شي جاب من لغزال لاما

ونيـــا جبـــت فـاطمـــا

ادريس المريني

الثورة على قيود الـوزن والقافيـة

من شعراء مراكش ومن معاصري محمد بن عبد الله بن احساين كما سنرى من مساندته له في دعوته التجديدية ، ذلك أن المريني ضاق بقيود الزجل المتمثلة في الوزن والقافية ، ودعا الى التحرر منها في ثورة عليها تكشف عنها هذه الابيات .

أنا ابغيت ننظم والحرف ابدا ايغور

اعلاه ما يكون الشعر ابلا حرف

غير حس اوقول الكلمات

ولودن تسمع ماقلتي

ولقلوب اتغني بغناك

تابعا تلديد المعنى

ولا اعنات ابشى قافيات

. . . .

لاش نحبس فكرى فالحرف

ونحبس عقلى فالتبييت

ولفكار اتماثل لطيور

مارضات اقفز من لبيات

جايب اسلوكو من لحروف

والركايز من لقياصات

فهو فى هذه المقطوعة يوضح فكرته ويدافع عنها بروعة ، انه يريد أن ينظم ولكن القافية تخونه . ولم لا يكون الشعر بلا تقفية ؟ لم لا يكون مجرد كلمات تعبر عما يحسه الشاعر ، تسمعها الاذن ويتغنى بها القلب متجاوبا مع ما فيها من معنى رائق لذيذ دون اعتماد على القافية ؟

ويتساءل فى الجزء الثانى منكرا تقييد الفكر فى القافية والعقل فى الوزن ، فى حين أن الافكار كالطيور لا ترضى أن تحبس فى قفص الابيات المشبهة أسلاكه بالقوافى وركائزه ب «القياصات» .

والعجب أن المرينى لم يتعرض لنقد معاصريه الذين لا شك فوجئوا بهذه الدعوة التحريرية ، وربما كان السبب فى سكوتهم أن عميد الزجل فى وقته وهو محمد بن عبد الله بن احساين لم يتخذ من دعوة شاعر مراكش موقفا معاديا ولا حتى سلبيا ، بل على العكس من ذلك وقف منها موقفا ايجابيا كأحسن ما يكون الايجاب وأقواه ، فنظم قصيدة على نسق مقطوعة المرينى دليلا على تجاوبه معه ومساندته اياه ؛ والاسف أنا لم نقف من هذه القصيدة الا على هذه الابيات القليلة التى يقول فيها :

وصف لهوا وعدو خبرو به لكتوب

اصغ انصف احساب اعدادو

للذى سول بجهادو

وجاه محال افترشادو

ونكاد نجزم بأن هذا التجديد فى نظام الوزن والابيات والقافية هو

الاساس الذى انطلق منه مكسور الجناح والمشتب والسوسى .

عبد العزيز المغراوى(1)

عميد زجالى عصره كما يكشف وصف الاشياخ له بأنه «شجرة الكلام» عاش فى النصف الثانى من القرن العاشر وأول الحادى عشر ، وكان معاصرا للمنصور(2) السعدى ، حيث نجده يرثيه بقصيدته التى تسمى «لعزو» والتى يقول فى حربتها :

عام شايب مات الذهبى اخيار لتراب يا مابقى للسعدى بماش ايرجعـــو

وهو من آمغرا فى صحراء تافيلالت . وقد ذكر لنا الشيخ بنعيسى الدراز أن أحد شعراء فاس — واسمه باحدو — كان يتهاجى مع المغراوى فيعيره بصحراويته ، فكان المغراوى يرد عليه بمثل هذا القول معتزا بأصلـــه وشرف نسبه :

فيلالى ياحزين مانكر حسبى مـــن جد الجـــد

مـــن اقريش الى عثمــــان

---

1) وجدنا فى بعض مصادر التراجم المغربية ذكرا لعالم يدعى عبـــد العزيز المغراوى من تافيلالت كان قاضى الجماعة بفاس وكان يعيش فى نفس الفترة التى عاش فيها شاعرنا الزجال ، ولكننا لا ندرى ان كان هو أم غيره ، وقد سألنا عن ذلك من عنوا بالتأريخ لعلماء فاس فلم نظفر بجواب . ومهما يكن فانا نورد ما وقفنا عليه فى تلك المصادر . يقول محمد الصغير الافرانى المراكشى فى «كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادى عشر»: «ومنهم الفقيه القاضى أبو محمد عبد العزيز بن على الفيلالى المركنى المغراوى قاضى الجماعة بفاس ، كان فقيها مدرسا أخذ عن ابن مجبر والمنجور والحميدى والسراج ، ذكره سيدى العربى الفاسى فى تأليفه المعمول فى شهادة اللفيف حسبما ذكره الشيخ ميارة فى شرح الزقاقية ، توفى رحمه الله عام أربعة عشر وألف» . (ص 102 ط فاسية) .

ويقول أبو عبد الله محمد بن الطيب القادرى فى «نشر المثانى» : «ومنهم الفقيه العالم القاضى عبد العزيز المركنى المغراوى الفيلالى ولى قضاء فاس بعد أبى مالك عبد الواحد الحميدى ، وفى وفاته قال المكلاتى :

فواها لاحكام توارى شهابهـــا * بعبد العزيز المركنى المعزل»

(ج 1 ص 98 — 99) .

2) هو أحمد المنصور الملقب بالذهبى ، تولى على اثر وقعة وادى المخازن سنة 986هـ وتوفى سنة 1012هـ .

ولعله كان من العلماء على حد ما يقول عنه الادريسى فى «كشف الغطا»: «وكان من أهل العلم وذوى الزهد والورع(1)» وعلى حد ما ذكر لنا أغلب الاشياخ من أنه كان يدرس بجامع القرويين . ويقولون عنه انه انتقل الى فاس وأقام بها مدة طويلة ، وأنه خرج الى رحلة استطلاعية فى بلاد الشمال الافريقى دامت بضعة شهور عاد بعدها الى آمنزا ، ويقولون انه خرج بعد ذلك بظاهرتين جديدتين فى عالم الزجل هما : «الصروف» و «العروبيات».

أولا : الصـروف :

أحس المغراوى أن الشاعر اذا أراد أن ينظم قاس على قصيدة غيره ، ليست له قواعد أو ركائز أو ما يسمى فى العروض العربى بالتفعيلات ، فدعا الى اتخاذ «الدندنة» مقياسا و «صروفا» لوزن الابيات . وقد سبق أن رأينا(2) أن هذه الدندنة تقوم على «دان دانى» وانها مقياس موسيقى صرف ، أساسه النغم والايقاع ، كما سبق أن مثلنا لتطبيقها بمثل قولهم بالنسبة لهذا البيت من شمعة ابن على :

ايلا باكيا بسقامك شوفـى اسقـام حالـى *
من قيس وارثو بعد افناه اغـرام حـب ليلى

أدان دان دانى دانى يـادان دان دانـى *
أدان دان دانـى دانى يـادان دان دانـى

ثانيا : العروبيـات (3) :

وهى الابيات التى يقدم بها للاقسام ، ويذكرون للمغراوى من قصائده

---

1) كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء . ص : 112 .

2) أنظر الجزء الاول من فصل «العروض» بالباب الاول . والجديـر بالملاحظة أنه يوجد فى الزجل التونسى وزن معروف يطلقون عليه «المغراوى» يدرجونه تحت نوع يسمونه «القسيم» يسير على الشكل الآتى :
لسم المعبود فى البقا واحد احـــد * لا دونو دون ابتسخيرو جرت الاقدار
(أنظر مقالا لمحمد المرزوقى بعنوان «الشعر الشعبى فى تونس» نشر فى مجلة الفنون الشعبية بالقاهرة ـ العدد الاول ـ السنة الاولى 1965) . فلعله منسوب للزجال المغربى عبد العزيز المغراوى ، خاصة وقد عرف عنه أنه قام برحلة طويلة للشمال الافريقى زار خلالها تونس والجزائر .

3) أنظر الجزء الثانى من فصل «العروض» بالباب الاول .

الاولى التي اتخذ فيها العروبيات قصيدة «الغاوى» التي يقول فى حربتها :

رد بالك للقبلا را الحال ضـــوا * والقبول امن الله امقرب لخطـــاوى

فقد قدم لاحد أقسامها بهذا العروبي :

يا راسي تب شف لمآثم يقواوا * تب المولاك تب يا هذا المغــوى

واعمل حسنات قبل لصحوف ينطواوا * تلقاهم فارغين واتولى مكـــوى

يبليس امع النفس فى الغى اتــواوا * وانت ما زال غابط وزايد تهوى

راسي لله لين غادى يامغـــوى

أما القسم فهـــو :

باللى كايسمها سهوا امـــــور سهوا * فارقاسهوك استيقظ لاش ذا السهاوى

ماحضا زرع اللى ما حارثو افربـوا * ولا حرث من يرجا لسوايع لفجــاوى

لا اتخاف امن الذنب ايلا اتقل واقوا * تب لله اوقم الليل ذ اتــــــــــآوى

قم واستغفر للمولى افكـــــل نجوا * اولا تخلى نفسك تهوا مع السهـــاوى

اترك ارضا النفس ويبليس لا تنكوا * وحلق فعلو الروح العالى السطـاوى

بالشاكى من دا فالدين جالـك ادوا * ايلا اتعلو تضحى من كل دا امداوى

ويعتبر المغراوى من كبار الشعراء الذين برزوا فى الموضوعات الدينية، ومن أهم قصائده فيها «المعراج» التي يقول فى أولها :

لسم الله لعظيم ذا العرش الديـــان * رافع لفلاك اقلهوا دون اعمــــــــاد

من خص المرسلين ابآية البرهـان * وارسلهـم اباهـــدا وديـــن الارشاد

نسم الله ابديت نظم نسعد بــــه * ويعلمنى ابحكمتـــو مـا لـم نعلـــم

بجاه اجلال اقدرتو وارجايا فيـــه * يهدينى للصواب قصـــــدى نغنـــم

خالص مدح الرسول صلى الله اعليه * والآل امع اصحابو عد امواج اليـــم

ومنها كذلك «هول القيامة» التي يقول فى أول أقسامها :

نعم القيوم خالـق اكـوان الكونيـن * وسير امسيرها اعلى وفق امـــرادو

الكون اللولى انشاه اعلى وصفيـن * العلوى والحضيض ملك وابـــــلادو

والفوقى لملايك جمـــع الثقليـــن * والسفلى كون الجمهـــور اعبـــــادو

والفلك الدايم لمغيـب * فاسيار اسيار لــــودود

والنار للكافرين تلهب * بلظاها مالها اخمـــــود

وانعيم السرمد لموهب * لاهل الاسلام افلخلـــود

من أمـن بالله والرسول لخيـــار * سعـــدو الرحمـــان واستقـــام

ؤاكمل اسعادت الهادى نعم المختار * الماحـــى صاحـــب لحسـام

وعلى الرغم مما يقال من أنه لم ينظم فى الغزل فقد وقفنا منه عـلى عروبيين مرتبطين بحادث وقع له يستنتج منه الاشياخ صلاح الرجل وسمو نفسه وتقواه . يحكى فى هذا الحادث أن المغراوى كان خارجا من جامـع القرويين فلقى فتاتين تتوادعان فقال لهما معلقا : «وأنا أين أذهب ؟» فردت عليه احدى الفتاتين : «اذهب الى الحبس» فما كان منه الا أن ذهب فعلا الى السجن وأقسم ألا يخرج منه الا اذا حضر الشخص الذى أمره بدخوله ، وكانت للمغراوى مكانة وسمعة فى فاس فاضطر باشا المدينة الى أن «يطلق البراح» أى المنادى يجول فى الاحياء يطلب حضور الشخص الذى دعا على المغراوى ، وكان خارجا من القرويين ، أن يدخل السجن . وسمع أبـو الفتاة النداء وأخبر به أهله فعلم أن ابنته هى المعنية بالامر فذهب بها فأطلقت سراحه . ويقال انه بعد أن حضرت الفتاة لتسريحه أنشأ هذا العروبى ـ ويبدو أنه كان مولعا بنظم العروبيات حتى فى غير القصائد ـ :

ركبت اعليا عنسى من طاق الطاق

وكل طاق ابطواقو

عينى رات شى ازواق داروه الحداق

مر مر العاشقين منو يحماقو

هذا حال لغرام يا من لاذاقو

وتذهب الحكاية الى أن الاب قدم ابنته للمغراوى زوجا له ، وفى ليلة الزفاف دخل المغراوى غرفة زوجه ، ولكنه لم يلبث أن خرج منها دون أن يشعر به أهل الدار ولا أن يعرفوا من أين ولا كيف فعل ، ووجدوا مكتوبا على ورقة ـ تركها لهم ـ هذا العروبى :

أنا عاشق مانا فاسق

نعرف ربى احقيق

مرجان واعقيق فيدى متلاقى

الدنيا ماتدوم سبحان الحى الباقى

أما بعد هذا فيذكر الأشياخ من كرامات المغراوى أنه حين جاء من الصحراء الى فاس كان يلبس العمامة والقميص الصوفيين ، فضحك منه أهل فاس ، ولكنه حين جلس للدرس بهرهم . وذات يوم حاول بعض رواد درسه أن يهزأ به وسط المجلس فاتفق مع خادمة له أن تأتيه أثناء الدرس وتزعم بأن البغل مات ويحتاج الى صحراوى ليقوده ويدفنه ، وكانت العادة ألا يقوم بذلك أهل فاس ، وجاءت بالفعل وأخبرته ، فقام الى المغراوى — وهو يلقى درسه — وطلب منه أن يقوم لدفن البغل فلبى الطلب وخرج من الجامع وذهب مع الشخص الى المكان(1) المعين فوجد البغل قد مات بالفعل ، فأخذ المغراوى يجره من كراعه مارا به من حى الى آخر ، وكلما مر بحى انهدمت بيوته ودكاكينه فأدرك الرجل والناس صلاح المغراوى فأخذوا يرجونه أن يتوقف عن السير .

ويحكى عن صلاحه بعد هذا أن «بلغته» ظلت جديدة طوال سبعة عشر عاما لم يلحقها التلف والبلى لانه كان يسكن المدرسة المصباحية ولا يخرج منها الا للدخول الى جامع القرويين لاداء الصلاة .

هذا وقد وجدنا فى أول ورقة من كناش(1) يضم قصائد للمغراوى فائدة بقلم كاتبها أحمد الهلالى يقول فيها : «يوجد ضريح صاحب هذا الكتاب بمقبرة تسمى باسمه بين عبد القادر الهلالى جنوبا وامبارك بن عزى شمالا ولا زالت لحد الساعة . له عائلة كبيرة بعضها فى أنحاء المشرب وبعضها جالس بقصر امسيفى فرقة الغرفة ، وهم دار علم وكرم وشهامة وتقوى وصلاح ، وقبره فيه ثلاثة أمتار تقريبا وليست له قبة حيث يحكى أنه كلما بنوها عليه تهدمت . وتقصده الناس من كل حدب وصوب للبركة . ويقال : كل طويل خاوى سوى النخلة والمغراوى ، كما يزعمون أن الشقى — وقانا الله — هو الذى لا يزور قبره» .

---

1) يقال انه هو المعروف الآن ب «زقاق البغل» وان سبب التسمية هذا الحادث .

1) مخطوط الخزانة الملكية رقم 860 .

المصمودي (1)

من كبار أشياخ القرن الحادي عشر ، وهو امتداد للمغراوي وعميد الزجل بعده كما تكشف القولة السائرة «المغراوي شجرة الكلام والمصمودي فرع من فروعها» . ويراه أشياخ الزجل النقاد مقعد الفن وحلقة وصل بين مرحلة سابقة لا يعرفون عنها الا القليل ومرحلة لاحقة كاد الركود يأتي عليها في البداية ، ولكنها لم تلبث أن شهدت ازدهارا كبيرا سنتحدث عنه في الفصل الثالث من هذا الباب .

والواقع أن المصمودي يعتبر آخر شعراء مرحلة التطور الذين وصلتنا أخبارهم ، فقد انتهى بنا البحث الى أنه شارك في تطوير القصيدة بشيئين : أحدهما شكلي يتمثل في محاولة وضع تفعيلات جديدة لعروضه ، والثاني يتصل بالمضمون وهو السبق الى أسلوب المراسلة في الغزل .

أولا : مالي مالي :

اشتهر المصمودي بثورته على «دندنة» المغراوي وتبديلها ب «مالي مالي» حيث يروى عنه أنه قال «زولوا علينا داني داني فات وقتها واعملوا لنا مالي مالي» . وقد سبق أن رأينا(2) أن «مالي مالي» لا تكفي وحدها لضبط الايقاع ويضطر الوازن بها الى أن يضيف اليها بعض الكلمات التي يشد بها الميزان مثل «الرادا — سيدنا — للاموالاتي للا ....» وذكرنا من الامثلة على تطبيقها قولهم في هذا البيت من «وردة» ابن سليمان :

لا تلوموني في ذا الحال جيت نشهد وانودي *

يا عدولي فالمـــوت اسبابي خد الـــوردا

للا ياموالاتـــي للا ويا مالـــي مالـــي *

للا ياموالاتـــي للا ويا مالـــي مالـــي

ثانيا : المراسلـــة :

---

1) من لطيف الاتفاق أن يطلق «المصمودي» على بعض الايقاعات الموسيقية حيث يفرق فيها بين المصمودي الكبير والمصمودي الصغير .

2) أنظر الجزء الاول من فصل «العروض» بالباب الاول .

وقد ظهرت لاول مرة في قصيدته «يامنة» التي يقول في حربتها :

قولوا ليامنا تهليل العثمانـــي * مينا يامينا امعاك شرع الله

فبعد أن طالت غيبتها واشتدت لوعته بعث لها خطابا مع رسول . ولكنها طوت الخطاب وطردت الرسول وهددته ان عاد الى مكانها وطلبت منه أن يرجع الى صاحبه ليبكي واياه ، وأقسمت بصوم عامها ألا يظفر مرسله بها أبدا ، فقد شاءت بعد الوصل أن تهجره ، وهذا حال الجمال ولابـــد للعاشق أن يرضاه . ذلك ما ضمنه القسم الثالث من القصيدة حيث يقول :

صفطت اللغزال ابراتـــي * مرسولـــي امشي طرداتـــو

اقرالها احـــروف ابياتـــي * «قبطـــات مصول عن مخطوطة

قالت لو : «ابصوم اسناتي * بيا لا اظفـــــر فحياتـــو

منذا النهار ماتتصورفمكاني * ولي العندو ابكي انت واياه

بعد لوصال ردت انهجرو بلعاني * هذا حال الزين عاشقو يرضـــاه»

وارجعت اللبكا بالدمع الطوفاني * باكتابي نطوا ودزت له اعـــزاه

ولكنه لم ييأس وأرسل مبعوثه مرة ثانية بعد أن حثه على عدم الملل وأغراه بالمقابل ان قضى حاجته . وما كاد يصل الى دارها وينقر الباب حتى وجدها في الانتظار وقد انهمرت دمـــوع عينها ، والكتـــاب بـــين يديها مفتوح تقرأه ، فرحبت بسلامه واعترفت بخطأها معلنة توبتهـــا الى الله ، وطلبت منه أن يبلغ حبيبها أنها ستلحق به يوم الاثنين ويتـــــم الوصال . وكذلك كان حيث أوفت بوعدها فسعد قلبه وطابت له الحياة . هذا ما يحكيه في القسمين الرابع والخامس — وهو الاخير — اذ يقول:

عـــاود قلت : «يا مـــرسولي * اترك النـــواح وارجـــع لهـــا

بادر لا تكـــون املـــولي * لا بـــد حاجتـــي تقضيهـــا

احكي لها وكـــن افضـــولي * ونـــا بشارتـــك نعطيهـــــا»

ولي لعند ولفي بكتابي ثاني * نقر باب الدار صابهـــا ترجاه

وادموع عينها فاقت دمـــع اعياني * واكتـــابي محلول فيدها تقـــراه

« مرسول عاشقي هو هذا جاني * اهـــلا بسلامـــو تايبـــا لله

لله يا رسول احبيبي * ولي لو وفرج نكـــدو
ولي وكو لو بذنـــوبي * واعطيه الـــدلال ايسعدو
ويلا وتيت يستر عيبي * حاشا مـــا نخالف عهـــدو
يوم لثنين هـــو العاهد يرجاني * وانقمو فرجا اعلى احسان ارضاه »
وافات يامنا فـــي عـــاهدها ثاني * قلبي من بعد الصدود طاب امناه

اما بعد الصمودى فقد تشعب شعر المراسلة وتعدى نطاق المحبوبة الى نطاق البقاع المقدسة ومقام الرسول عليه السلام ، وغدت قصائده تحمل أسماء مثل « المرسول » و « الحمام » و «الورشان» اى الطائر ، بـــل تطور عند بعض الشعراء الى الحديث عن الرحلة والتجوال على حد ما نجد عند الكندوز فى « الرحلة » وابن على فى «الطوموبيل» ، وهـــى قصيدة مشهورة جال فيها بسيارته كل بقاع الارض ، وفى حربتها يقول :

سعدى زارتنى اخليلتى لغزال ام ادلال
وازهينا بعد لوصول واركبنا طوموبيل
واتسارينا بالجميع فالدنيا عرض وطول

***

بالشيخ الصمودى تنتهى هذه المرحلة فى أوائل القرن الحادى عشر بعد ان بدات بعبد الله بن احساين فى أوائل القرن التاسع ممتدة عبـــر ثلاث مئات من السنين شهدت القصيدة خلالها تطورا لم نستطع لضعف مادة التاريخ والنصوص ان نقف عند غير بعض اعلامه ومعالمه . وكان منتظرا ان تستمر هذه المرحلة ويظهر اشياخ كثيرون ، ويبدو انها استمرت بالفعل وان الركود اصاب الرواية ولم يصب النظم لانه سيتبين لنا لدى الحديث عن سعيد التلمسانى أنه حين قدم الى المغرب فخر عليه الزجالون المغاربـــة وعابوا عليه الموازين الجزائرية البسيطة ، وسيتبين لنا كذلك فى الفصل القادم انه ما كادت تمر هذه الفترة حتى انطلق الزجل ناهضا مزدهرا ، وما كان له أن ينطلق لو لم يستمر سيره دون توقف .

واذا كنا نرى ذلك فانا لا ندرى الاسباب التى جعلت الرواة يركدون ، ولعلهم لم يركدوا وانما اهملوا قصائد الزجالين المغاربة فلم يتداولوها وتداولوا بدلها قصائد الزجالين الوافدين من الجزائر ، والدليل على ذلك أن المنشدين المغاربة يحفظون حتى الآن كثيرا من هذه القصائد وان بعض الكنانيش التى عنيت بتدوين الزجل تضم منها غير قليل . وربما كان العامل فى هذا التحول اعجاب الرواة بانتاج الشعراء الوافدين وما كان لهم من مكانة عند السلاطين جعلتهم يبسطون نفوذهم على الحفاظ ويغرونهم برواية قصائدهم . وتلك عادة جبل المغاربة عليها ، يؤخذون بما ياتى به الغريب ويبهرون به حتى ولو كان تافها غير ذى قيمة ، ينطبق عليهم ما يقال فى المثل من ان«مغنية الحى لا تطرب» .

والاسف انه حتى بالنسبة للزجالين الوافدين ظلت الرواية محصورة فى شعر واحد او اثنين ، ولا سيما فى قصائد سعيد التلمسانى ، ولعل السبب فى ذلك انه كان متصلا بملوك الدولة .

وكم كان يكون مفيدا لو ان الحفاظ قدموا لنا اسماء اغلب الوافدين وكثيرا من قصائدهم ، ولو انهم رووا كذلك الى جانبها اسماء المغاربة وقصائدهم ، ولو انهم فعلوا لكان فى امكاننا ان ننظر فى انتاج هؤلاء وأولئك ومدى التأثر المتبادل بينهما والمنافسة كذلك . حقا لقد وصلتنا بعض أزجال الصوفية فى هذه الفترة ، ولكنها محصورة فى نطاق ضيق يجعلها بعيدة عن أن تكون موضوعا للمقارنة .

مهما يكن فقد دام هذا الركود زهاء قرن ونصف لم تنقشع سحابته الا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر على عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله (1) حيث بدات فترة نهوض وازدهار هى التى سنخصها بالحديث فى الفصل التالى من هذا الباب . ومع ذلك فقد لاحظنا خلال مدة الركود تلك ظاهرتين نرى أن نعرض لهما : الاولى انتشار الزجل فى بيئة المتصوفين ، الثانية قدوم بعض زجالى الجزائر الى المغرب .

---

1) سيدى محمد بن عبد الله بن اسماعيل ولد بمكناس سنة 1134 هـ وبويع 1171 وتوفى 1204 .

اولا : زجالون متصوفون

تقدمهم لنا مصادر الترجمة المغربية لهذه الفترة ، وقد وقفنا منهم على هؤلاء : (1)

عبد الرحمان المجذوب :

سبق أن ذكرناه كشاعر «الحكمة» الاول واشرنا الى مصادر ترجمته واستعرضنا نماذج من أبياته المزدوجة في هذا النوع(2) .

ونضيف هنا أنا وجدنا في « تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان» (3) لحمدون بن الطاهر الجوطي ، لدى ترجمة مولاى التهامي الوزاني وكان ايضا من الزجالين : «انه ذكر بين يديه كلام سيدى عبد الرحمان المجذوب ، وهو :

غيبت نظرى افنظرو * وافنيت عن كل فانـي

حققت ما نظرت غيرو * اورحت والقلب هـاني

---

1) ليس مقصودنا استقصاء كل المتصوفة الذين كانوا ينظمـون الزجل فلعل معظم رجال التصوف كان لهم ميـل الى نظمـه لاتصالهم بالجماهير . ومن هنا لا سبيل الى تتبع هذه الظاهرة ، ومع ذلك نود ان ان نضيف الى من ذكرنا : السيد الغزواني . فقد وجدنا في كناشة عبد الله الشرقي (مخطوطة الخزانة الملكية رقم 5958 وهي مجموع من الكراريس والاوراق) : «ومن كلام سيدى الغزواني نجل سيدى محمد الشرقي نفع الله بهما آمين :

ريت لعريس اتعرس ريحو ايهوس من شرق وغرب اتهوس يابابا

انخضر اللي يابس يفجى الدحـامس ايضوى الى ناعس يـابابا

جوابه لابيه نفعنا الله به آمين :

هيا الراقد نض اسمال فوق لمعاني * كان اتسمال نعطيك لخبـار يابابا

لا بد من لهـوال عقبـى الليالي * مارس اعليك افحـالي يابابا ... »

وهي قطعة من عشرة ابيات .

2) انظر آخر الفصل الاول من باب « الشكل » لدى الحديث عـن « الحكمة » كنوع من الزجل .

3) ص 100 ـ 101 طبعة حجرية .

فقال مولاى التهامى رضى الله عنه. هذا انما قضى حاجة نفسه ولم يقض حاجة لغيره فأنا لا اقول هكذا فقيل له وكيف تقـول يا سيدى ؟ قال أقـــول :

من جا الحضرتنا يبرا * يمشى ابقلبو مستمن
ايجى نحاس يمشى نقرا * وسيدنا محمد ضامن »

محمد الشرقى :

سبق ان ذكرناه كذلك فى نفس الموضوع (1) ونضيف له هنا مراسلة زجلية دارت بينه وبين ابى المحاسن الفاسى (2) تدل على أنه كان ينظـم فى غير المزدوجات الحكمية ، وقد ذكرها محمد المهدى بن احمد بن على ابن ابى المحاسن يوسف الفاسى فى «كتاب ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع وما لهما من الاتباع » فقال : «وكان الشيخ صاحب الترجمة صاحب فيض وقوة فى حاله فكان لا يعتبر أحدا يشكره لكنه اذا وجد من هو اعلى منه أنصف له واعترف ، وقد كان وقع له انكار فى جانب سيدى يوسف الفاسى بسبب كلام بلغه عنه حمله على غير وجهه فكتب ــ اعنــى صاحب الترجمة ــ اليه كلاما يعرف فيه بحاله ويصف له مبالغ الرجــال ويدعوه الى صحبته ، فلما اجابه سيدى يوسف وتعرف له اعترف بتقدمه عليه . وذكر ذلك هنا متأكد لما فيه من وصف صاحب الترجمة لحالــــه وهو اعرف بنفسه من غيره . قال صاحب الترجمة :

ما غيبوا عنا　　اهل الجبروت　　وصفهم منعوت　　الملك والملكوت
عنك وقتنا　　بادر لا يفوت　　على ارباب القوت　　تنـوح السموت
شرابها مختوم　　فى عالم الغيوب　　تشاهد المحبوب　　شموس القلوب
للواحد القيوم　　تخرق الحجوب　　فى طيها مكتوب　　الشرق والجنوب
ما خفاهم حال　　واربـاب المحب　　تـاتى على غبا　　ريـــاح الصبا

---

1) انظر آخر الفصل الاول من باب « الشكل » لدى الحديث عن «الحكمة» كنوع من الزجل .
2) المولود سنة 937 هـ بالقصر الكبير .

القلب نبـــا من سرك اتربا والروح جاذبا فى حضرة الجلال
نفحـــات المحب من رياض العرب بها لم يزل روضا زاهيـــا
ادا سقيتـــونى اشراب الرشيف ثـــم انشاهدو ليلى كما هيا
قولوا للنـــوى اتهيج لهوى القلب انكوى من حيك الحراق
انفيت السوى وتركت ما نهوى قالوا لى الدوا فى راكب البراق

فبلغ سيدى يوسف خبر هذا الكلام قبـــل ان يدخـــل يده وانه قاله معرفا له بحاله لما بلغه عنه وانه مع ذلك انكر حاله فكتب اليه كتابا يذكر له توجيه ما اراد بكلامه فى شانه وانه ليس من دأبه البحث فـــى الخلق جملة فضلا عن مثله ويعلمه بانه ممن يحبه ويحسن الظن به ويعرض عليه حاله على جهة اتهامه لنفسه لما بلغه عنه من انكاره وتنازل معه فى ذلك كله غاية التنازل ثم دخل يده كلامه فاجابه عنه بكلام على وزنـــه وقافيته معرفا بحاله هو نصيحة له وتادية لحق كتابه ، فقال :

الملك والملكوت فى طينا منعوت حتى الجبروت لا يختفى عنا
جملتها مبتوت حتى الرحموت وقـات انوقوت هـــو وقتنـــا
شمسو دا التحقيق قد تعطى حقيق لمنسير وصديق للواحد القيوم
عفوف بالتوفيق فنعوتو ارشيق قل يسقى الرحيق الصافى المختوم
رياح الصبا ما تنتهى عنا والعالم الاسنى هو مصعد الكمال
القلب للمعنى والروح متهونا والسر يتعنى من سرذا الجلال
نفحات المحب وكذلك المحبوب فارياض التعريف احوال مستويا
لكن فالتهذيب يختلف المطلوب حتى فى التشريف اسرار سويا
من هو متهنا ما يخشا لعنا بشرب يتعنى يمسى من السباق
موصول المنا من كل ما يتمنى محفوف بالعنا فى الواحد الخلاق» (I)

هذا وينسب له بعض الاشياخ القصيدة «الفياشية» التى حربتها :

انا مالى فياش ✻ واش اعليا منى

I) ص IIO — III — II2 ط حجرية .

كما ينسبها له جامع الكناش ك 3027 (1) من مخطوطات خزانة الرباط العامة . مع ان المعروف انها للشيخ عبد الوارث .

محمد بن عبد الكريم بن يجبش التازي :

ترجمه محمد بن علي بن مصباح المعروف بابن عسكر في «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» (2) وعنه نقل الحضيكي في » المناقب» (3)

قال عنه ابن عسكر : «وحدثني بعض الفضلاء من اهل بلده قال : كان الشيخ رحمه الله عاشقا لا يكاد يفارق السماع ساعة واحدة ، وله قصائد كثيرة :

خرجنا واحد الصباح * انشاهدو روضا ابهيا

واطيار تشهد ياصاح * لله بالوحدانيا» (4)

وقال عنه كذلك في نهاية ترجمته : «وله توشيحات وقصائد ومقطعات كلها رائقة وله على بردة الامام البوصيري تخميس عجيب ، وله في فن التصوف العجيب من النظم والنثر .. توفي في آخر العشرة الثانية والله اعلم» (5)

محمد بن يحيى البهلولي :

ذكره ابن عسكر في «الدوحة» فقال عنه : «كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له منه ، وله فيه اشعار وقصائد زجليات وغيرها .. وله زجليات ومقطعات حسان في الحث على الجهاد منها اللامية المشهورة التي خاطب بها السلطان ابا عبد الله البرتغالي ، ومطلعها :

قل للامير محمد يا طلعة الهلال * الويلة فالسواحل من افضل الليالي

---

1) ص : 2
2) ص 51 — 52 — 53 — 54 ط. حجرية
3) الجزء الثاني ابتداء من ص : 17 .
4) ص 51 — 52 .
5) ص : 54 .

ومنها القصيدة التى مطلعها :

ظهر الرمل مراد والعشر يا كرام * نفسى على الجهاد سلبتو السلام»(1)

عبد الله بن محمد الهبطى :

ترجمه صاحب « الدوحة » فقال انه «الشيخ العالم الزاهد المحقق جنيد زمانه وقطب دائرة أوانه الهضبة الراسخة والحجة الدامغة الناسخة» (2) وان «اصله من صنهاجة طنجة من قبيلة ايمتنة (3) » وان « له تآليف عديدة بين منظوم ومنثور وله فى علم المشاهدة الشان الذى لا يدرك ... وكان الشيخ ابو القاسم بن على بن خجو يقول هو غزالى هذا الزمان ولقد من الله علينا وعلى المسلمين به » (4) . ثم ذكر له كرامات وختم بقوله : «توفى ... سنة ثلاث وستين وقد نيف على الثمانين ودفن بزاويته بموضع يعرف بمواهب » (5) .

له «كتاب الاشادة لمعرفة مدلول كلمة الشهادة» و «الفية فى تاريخ الدولتين الوطاسية والسعدية » . وقد وقفنا فى الخزانة الملكية بالرباط على كراس ، لم يرقم بعد ، يضم له ست قصائد زجلية كلها فى الذكر والشوق للحضرة ، منها هذه القصيدة التى يقول فى اولها :

ربى اعظيم يا حضار * قد جملت انعوتو

ايغيب عنى ما نقدر * او يحضر انموتو

حب لجمال عذبنى * يا قوم العندو

قهر نجلال يقهرنى * من قربو البعدو

من لطفو للعين * يختفى ويبدو

احمد بن خضرة المكناسى :

ترجمه القادرى فى « نشر المثانى » (6) والحضيكى فى « المناقب»

---

1) ص 45 ، 46 ، 47

2 ، 3) ص 7 .

4) ص 7 – 8 .

5) ص 13 .

6) ج 1 ص 255 .

حيث قال عنه «وله كلام ملحون يخبر بالمغيبات ظهر اكثرها ، توفى رحمه الله سنة خمس وسبعين والف ودفن داخل مدينة مكناس » (1)

ابو البقاء عبد الوارث بن محمد اليا صلوتي :

ترجمه ابن القاضي في « نشر المثاني » فذكر ان « له زاوية بناها قرب داره بزقاق الحجر ... بفاس يقرأ فيها اصحابه الاحزاب ، يقرأون صباحا المعشرات وحزب الفلاح وصلاة مولاى عبد السلام بن مشيش والحزب الكبير للشاذلي ، ومساء حزب الفلاح ولا اله الا الله مائتين .. وتوفى رحمه الله يوم الاحد الثالث من ربيع النبوى سنة ست وسبعين والف ودفن بزاويته المذكورة»(2) . وقد وقفنا له على قصيدة في الذكر حربتها :

لا اله الا الله

يقول في اولها :

الحمد لله والشكر لله على فضل الله لا اله الا الله

استمع القولى واعلى النبى صلى وابصوتك على لا اله الا الله

يامن هو راغب فالخير وطالب افضل المآرب لا اله الا الله

وينسب له كثير من الاشياخ القصيدة « الفياشية » التى ذهب بعضهم انها للشرقي كما تقدم ، وهذه حربتها :

انا مالى فياش * واش اعليا منى

وفى اول أقسامها يقول :

انا عبد رب لـه قـدرة * يهون بها كل أمر عسير

فان كنت عبد اضعيف القوى * فربى على كـل شيء قدير

منى آش اعليـا * ونا عبـد مملوك

والاشيـا مقضيـا * دا فالتحقيق اشكوك

ربى ينظـر ليا * ونـا نظـرى متروك

---

1) ج 1 ص 73 — 74 .

2) ج 1 ص : 261 .

ونؤكد ما سبق ان لاحظنا فى مدخل الرسالة لدى الحديث عن الانشاد ا نهذه القصيدة جمعت بين المعرب والملحون حيث نجد فى بداية كل قسم بيتين معربين يستهل بهما بعد الحربة ، وهى ظاهرة لم نعثر عليها فى غير هذه القصيدة ، على أننا نلاحظ فى ازجال المتصوفين عموما سواء فى هذه الفترة او غيرها ، لغة هى اقرب فى كلماتها وتراكيبها الى الفصحى منها الى العامية ، لا تكاد تنقصها غير الحركات لتصبح معربة سليمة .

محمد بن علي بن ريسون :

ترجم له الشيخ محمد التاودى بن سودة (I) فى فهرسته ، (2) فذكر ان ولادته كانت سنةثمانية عشر ومائة وألف ووفاته عامتسعة وثمانين ومائة وألف ، وقال عنه : «وله كلام مؤثر فى القلوب بتحقيق معانيه ويفهمها ارباب القلوب ، فمن كلامه صدر قصيدة فى الملحون :

اللى يرفقنا فمحبت سيدى الرسول * هو احبيبنا واحنا له احباب

ومن كلامه صدر قصيدة اخرى :

انا سيدى عندى طبيب * ويعالجنى بـ . واه

متولع ابحب لحبيب * سيدى رسول الله

ومن كلامه صدر قصيدة :

الروحفالجسد والقلب امعاكم * ما خاب فيكم ظنى

اللى اتركبوه يحسب امعاكم * واتقربوه بدنى

الله انظركم ما عاد ينساكم * اهل لكمال نعنى

ايا هل لكمال قلبى يرعاكم * هـذا لكريم رادنى

ومن كلامه صدر قصيدة :

العيون الجاريا فيض اعليا * من ابحور محمد عليه السلام

ومن كلامه ايضا صدر قصيدة :

ما بكيت اعليكم الا اترحمونى * والدموع من عينى تجرى الحبكم

I) المتوفى سنة I209 هـ .

2) مخطوطة الخزانة العباسية رقم 3388 من صفحة 86 حتى 9I .

ومن كلامه في هذا المعنى كثير .»

وقد وقفنا من هذه القصائد على الثانية ، وهى من خمسين بيتا .

احمد بن علال الشرايبي المراكشي :

ترجم له الشيخ محمد التاودى بن سودة في فهرسته (1) حيث ذكر أن له ديوانا من كلامه بالملحون بين توسلات ومقامات ، واورد لـه نص قصيدة مطلعها :

بسم الله الرحمن الرحيم حلا نبداها

في اسلوك الذهبان والجوهر تشرق بجمالو

كما ترجم له عباس بن ابراهيم في « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» (2) نقلا عن فهرست ابن سودة . كذلك ترجم له محمد بن عبد الله الموقت في « السعادة الابدية في التعريف بمشاهـير الحضرة المراكشية » فنقل بعض ما جاء في الفهرسة السودية وعلق عليه بقوله : « ولم يذكر وفاته وما كان ينبغي ... ولا شك وانه من اهل القرن الثاني ، ويعمل له موسم في اوائل كـل ليلة من رجب الفـرد ، وينشدون أزجاله » (3) .

ثانيا : زجالون جزائريون

يبدو ان كثيرا من الزجالين وفدوا في هذه الفترة من الجـزائر الى المغرب فارين من حكم الاتراك او منفيين ، ولكن المصادر لم تفدنا بغـير اثنين من اكبر زجالي القطر الشقيق هما : سعيد التلمساني واحمد التريكي ، علما بانا وقفنا على غير قليل من الذين لجأوا الى المغرب فيما بعد هذه الفترة ، وخاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر ، (4) وهو دليـل على أن

---

1) المخطوطة السالفة الذكر من ص : 77 حتى 82 .

2) الجزء الثاني ، ص 203 — الطبعة الاولى سنة : 1936 فاس .

3) ص 154 — المطبعة الحلبية — مصر — سنة 1341 .

4) خصصنا جزءا في آخر الدليل الملحق بالرسالة لقصائد الشعراء الجزائريين الذين وفدوا الى المغـرب والذين لم يفدوا ، ولكـن كانت قصائدهم منتشرة فيه .

هجرة المتنورين الى المغرب من ابناء هذا البلد الجار ظلت مستمرة طوال عهد الظلام المتمثل فى حكم الاتراك والاحتلال الفرنسى .

ابو عثمان سعيد التلمسانى :

زجال تلمسانى اشتهر بقصيدة فى السيرة النبوية تسمى «العقيقية» نسبة الى وادى العقيق فى الحجاز ، وفد الى المغرب فى أول الدولة العلوية وادرك مكانة عند سلاطينها وخاصة المولى اسماعيل (1) .

ذكر صاحب « الدر المنضد » لــدى حديثه عن المولى محمد بــن الشريف (2) قال :

« وكان سخيا جوادا حتى انه اعطى الاديب الشهير المتقدم فى صناعة الشعر الملحون ابى عثمان سعيد التلمسانى نحوا من خمسة وعشريــن رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه ، وحكايته فى هذا المعنى شهيرة » (3)

اما قصيدته العقيقية فهى التى يقول فى أولها :

كيف ينسى قلبى عرب لعقيق والبان * والعقيق اعيونى بقلايدو انهلـــــو

وقد بلغت من الشهرة انها نشرت بالجزائر فى نصها العربى ومترجمة للفرنسية ،

وذكر المشرفى فى « الحسام » انها « قصيدة طويلة مشحونة باللغة والحكم وامثال العرب تنافس علماء واسطة المغرب فى شرحها ومنهـــم

1) اخو المولى رشيد تولى سنة 1082 وتوفى سنة 1139 حيث دام ملكه سبعا وخمسين سنة. عند العربى المشرفى ان للشاعر ديوانا ضخما فى ملحون الشعر جله فى المولى اسماعيل « الحسام المشرفى فى الرد على اكنسوس المراكشى» (ميكروفيلم خزانة الرباط العامة مصور عن مخطوطة ابن سودة رقمه 1207 ص 423)

2) بايعه اهل تافيلالت سنة 1050 وقتل سنة 1075 .

3) الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر لابى عبد الله محمد بن عبد القادر بن احمد الكـــلالى الشهـير بالكردودى توفى بفاس يوم 11 رمضان 1268 هـ (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1584 D الورقة 113 وجه)

الشيخ ابو راس الناصرى ثم المعسكرى فقد جعل عليها ثلاثة شروح اصغر واكبر ومتوسطا بينهما » (I)

وتوجد بخزانة الرباط العامة نسخة من احد هذه الشروح رقمها 1656 د تحمل عنوان :

« الآداب الرقيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت الدرة الانيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت التحف المهدية فى شرح السعدية» ، وتحدث الشارح فى مقدمة شرحه عن الناظم فوصفه بانه «الشاعر المفلق ... الشيخ الربانى والهيكل الصمدانى العلامة ... فان له اليد الطولى فى آداب العربية ومقياسها ومعيار حكمة الوضع وقسطاسها ، فقد كان تشد له فى ذلك الركاب » (2) وذكر ان المولى اسماعيل نفاه ثلاث مرات وانه توفى « بعد الخمسين من القرن الثانى عشر ودفن بسجلماسة فهو منداسى نجارا وتلمسانى منشأ ودارا وسجلماسى مدفنا واقبارا » (3)

ونجد لسعيد التلمسانى فى أواخر « العقيقية » بيتا يفخر فيه بان هذه القصيدة فاقت كل قصائد المغراوى عميد الزجل فى عصره ، وهو البيت الذى يقول فيه :

تفنى العشاق ما تخلى عدراوى * ما ضمت مثلها خزانة مغراوى

وفى كتاب « كشف القناع عن آلات السماع » لابى على الغوثى بن محمد الجزائرى تعليق على هذا البيت ذكر فيه ان التلمسانى «لما قال هذا الشطر راى الشيخ المذكور فى المنام معاتبا له فلما أصبح رثاه بالقصيدة التى أولها :

بوفارس الفارس فى كل اعلوم * بحر المحيط ما تنهيه اقراطس » (4)

وفى نفس الكتاب « ان الشيخ سعيد لما قدم المغرب الاقصى ولقى الاكرام من المولى الرشيد ... حسده شعراء المغرب وعابوا عليه شعره قائلين ان موازين اشعار المغرب الاوسط يقدر على الاتيان بمثلها صبياننا لان

I) الحسام المشرفى (الميكروفيلم ص 423)
2) ص 2 . 3) ص 5 .
4) ص 73 – مطبعة جوردان بالجزائر .

غالبها يتمشى على حرفين فلو ارتكبتم ما نرتكب من التفنن لما وجدتم معنى اصلا فعندنا من ينظم الرباعى والخماسى حتى العشارى (والخماسى والعشارى ... الخ عبارة على أن الغصن اى البيت الواحد يشتمل على خمسة او ستة او عشرة قواف) فلما راى الشيخ سعيد رحمه الله من شعراء المغرب ذلك الانكار ذهب من فوره وقال قصيدة بليغة لا من السداسى ولا من السباعى بل من الثنائى عشر واتى بها اليهم فعلموا حينئذ انه بحر لا يطاق ولا يقاس وسلموا له . وطالما بحثت عن هذه القصيدة ولم اقف لها على خبر الى الآن » (1) .

وقد وقفنا للزجال التلمسانى على غير قليل من القصائد التى مدح بها السلطانين المولى رشيد (2) والمولى اسماعيل ، منها قصيدة فى مولاى رشيد يقول فى أولها :

حياتك ريح الصبا بالفين اسلام * واسقاك اغمام السما رحما وانعيم

ومنها قصيدة فى المولى اسماعيل هذا اولها :

بين اكرام الفعل والعليا ميعاد * بيدهم يرموا على الصدق احبالو

وقصيدة اخرى فيه مطلعها :

برقا جرد صارمو فى ساحت نجد * ذكرنى فى امنازل اشهابو

كذلك وجدنا فى كتاب « الكنز المكنون فى الشعر الملحون » لقاضى محمد الجزائرى قصيدة قالها حين خرج من فاس على اثر غضب المولى اسماعيل عليه ، يقول فى أول ابياتها :

هذا حد اودعنا بوفا واكمال * ماذا لى فالحنث نغدى وانولى

بعد اثلاثا (3) مابقى للرد احلال * غير ايلا تفات عن تالى بعلى

خليناكم بالسلاما يا لفضال * يا غرة وجه الشراف اولاد على

---

1) المصدر السابق .

2) تولى بعد موت اخيه مولاى محمد سنة 1075 واعلن ملكا سنة 1079 بعد ان استولى على مراكش واستمر فى الملك حتى سنة 1082 .

3) فى هذا تاكيد لما ذكر شارح العقيقية من أن السلطان نفاه ثلاث مرات ، وهو فى الشطر الثانى من البيت يشير الى أن المراة التى تطلق للمرة الثالثة لا تحل لزوجها الا بعد ان تنكح زوجا غيره .

وفى تقديم القصيدة ذكر مؤلف الكتاب حكـاية ذهب فيها الى أن المولى اسماعيل « كان له شاعر آخر مغربى اسمه خباب فامرهما ذات يوم بنظم قصيدة يمدحان بها جارية له اسمها سلمى . اما سيدى سعيد المنداسى جعل استخارة ورآها فى المنام فحكى على حسب ما راى ، واما السيد خباب قال من غير رؤية ، ولما تلوا القصيدة على الملك قال لخباب : سعيد افضل منك ، فأجابه بان سعيدا ولعله رآها ، وأما انا فلم ارها ، فعند هذه التهمة خرج سيدى سعيد من مدينة فاس واتى الى مدينة تلمسان فكتب له الملك ليرجع فابى وبعث له هذه القصيدة » (1)

ولكن يبدو انه عاد بعد ذلك الى المغرب بناء على ما نعرف من ان وفاته ومدفنه بسجلماسة .

والتلمسانى لم يكن شاعر ملحون فقط وانما كان شاعر موزون كذلك ، وقد ذكر له صاحب « الحسام المشرفى » قصيدتين :

الاولى يجيب فيها بلسان المولى اسماعيل على رسالة بعث بها اليـه احمد بن محمد الحاج الدلائى مستدعيا للحرب حين ثـار عليه ، يقـول فيهـا (2)

تاهب ليوم الحرب فالحرب عيد * لنا وعليكـم محنـة ووعيد
ستعلم اشقى الناس يوم لقائنا * اذا قعقعت تحت العجاج رعود
فسل انجهلت الناس عناوعنكم * متى قابلت جنس الاسود قرود
دعوت مجيبا فارتقب ما طلبته * فانا بما تبغى عليك نجـود
عدمنا فحول الخيل ان لم تصلكم * عليها من الابطال منا اسـود
اتطلب دار الملك من غير قدرة * وانت من المجد الاثيل بعيـد
أساتم فكنا المحسنين وعدتـم * الى السيئـات بالعقاب نعـود
عفونا وكان الظلم منك سجية * ستبلغ من غى الصبا ما تريـد

---

1) ص 21-22 (المطبعة الثعالبية — الجزائر سنة 1928) .

2) الميكروفيلم ص 422 — 423 حيث وصفت القصيدة بأنها رائعـة ومشتملة على سهام راشقة

والثانية فى الامام مالك وموطاه منها هذه الابيات(1) :

فلا مالك فى الارض قام لسنة * وشدت له بالخافقين المناطــق

سوى المدنى الطيب الاصل مالك * أواه على الاسلام بالغرب خافــق

ترقى فوطــا بالموطا مواطنا * صعابا ولم يسبقه للفتح سابق

موطاه للاسلام فى الارض كعبة * توطا بها للسالكين شــواهــق

احمد التريكي :

تلميذ لسعيد المنداسي ومن تلمسان كذلك . قال عنه الغوثى فــى « كشف القناع » : « وقد نفته دولة الاتراك من قطر الجزائر سنة ثــلاث وثمانين والف فذهب الى المغرب الاقصى وآوى الى جبل بنى زناتن قبيلة من قبائل المغرب قريبة من وجدة فمكث هناك اياما نظم هناك قصائد كثيرة يصف فيها حال بعده عن اهله وعشيرته واوطانه ... منها قصيدة مشتملة عــلى ثمانية ابيات كل بيت يشتمل على عشرة اغصان وطالع موكب من ثلاثة أغصان ، يقول فى مطلعها :

طال نحبى وادموعى كل يوم زراب *

والفراق اكوانى كيا ابــلا اسبـــاب

من اسمومو سيب لى فالدليل مشهاب *

ما وجدت الضرى حكمــا اولا اطبيب

شاب راسى يا ربى من افراق لحباب *

بهم اجمع شملى ايا الميســر حقب» (2)

وقد وقفنا من شعره على قصيدتين : الاولى فى مكة المكرمة ، يقول فى مطلعها :

شعلت نيران اكبـــادى * واعييت ما نبكى ولا انفعنى نواح

أما الثانية فربيعية ، يقول فى حربتها :

اتبسمو وضحكوا غصون اللقاح * يسبوا من اعشق ومن هو والع

---

1) المصدر السابق من 434 حتى 438 .

2) ص : 80 .

الفصـــل الثالث

مرحلة الازدهـار

ما كادت سحابة الركود الكثيفة تنقشع ويزول كابوسها الجاثم حتى انطلقت القصيدة الزجلية في نهضة مزدهرة وصلتها بماضيها لتستكمل معالم كيانها وملامح ذاتها ، وهي نهضة كتب لها أن تمتد فترة غير قصيرة ، تبدأ في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري وتنتهي في أوائل القـــرن الحالي بعد أن فشا في الشعراء الضعف والوهن وأصيبوا بداء الجمود والتقليد.

فقد بدأت على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي يقال انه كان ينظم الزجل وان كنا لم نعثر له على أثر ، ولكننا لانشك في أنه كان يحتضن هذا اللون من التراث ويشجع فنانيه . وليس غريبا أن يفعل ذلك فقد شهد عصره نهضة شاملة عمت جميع مرافق الدولة ومناحي الحياة ،وكان حظ الثقافة منها غير يسير (1) .

ثم كتب لهذه المرحلة ان تجدد ازدهارها في الربع الاخير من القرن الثالث عشر على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن (2) الذي كان بدوره من شعراء الزجل كما سنرى حين نتحدث عن صديقه التهامي المدغري .

وكان آخر بريق للنهضة في هذه المرحلة ايام السلطان المولى عبـــد الحفيظ الذي كان من علماء عصره وزجاليـــه ، وسنخصه بوقفـــة قصـــيرة .

وقد بلغت هذه الفترة من الازدهار حدا جعل العارفين بالفن يطلقون عليها «الصابا دلشياخ» اى موسم الاشياخ لانها تعتبر أخصب فترات الزجل في المغرب لكثرة ما نبغ فيها من الشعراء . ولكننا لن نتتبعهم جميعا لان مادة التاريخ والنصوص لا تسعفنا لذلك ، وسنكتفي بالوقوف عند الاعلام البارزين.

---

(1) كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله من العلماء والمؤلفين وخاصة في فن الحديث ؛ ومن المؤلفات التي تنسب له :
أ ــ الفتوحات الالهية الكبرى (من منشورات المطبعة الملكية)
ب ــ الفتوحات الالهية الصغرى
ج ــ مواهب المنان بما يتأكد على المتعلمين تعليمه للصبيان
د ــ طبق الارطاب فيما اقتطفناه من مسانـــد الائمة وكتب مشاهـــير المالكية والامام الحطاب
هـ ــ الجامع الصحيح للاسانيد المستخرجة من ستة مسانيد

(2) بويع سنة 1276 هـ وتوفي 1290

وهو فيلالي الاصل ، ولكنه ولد ونشأ في مدينة مراكش حيث كان له دكان لبيع الخضر . ولسنا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته ووفاته ، ولكنــا نعرف أنه على عهد سيدي محمد بن عبد الله كان شاعرا مكتملا ومجددا، يتبين لنا ذلك من حرازه ــ وهو أول حراز عرفه تاريخ الزجل ــ حيث يذكر من جملة الصفات التي تنكر بها ليصل الى محبوبته صفة «مخزني» للسلطان سيدي محمد ، وفــي هذا يقول :

من ساعتي ارجعت امخزني مشمور امن اصحاب الملك

الله ينصر سيــدي محمــد

ويبدو أنه عمر طويلا حتى أدرك بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري على حد ما يذهب الاستاذ الفاسي من أنه توفي «في اواســـط سلطنة مولاي عبد الرحمن حوالي سنة 1840 م ودفن بمقبرة سيدي علي ابي القاسم بجوار مسجد الكتبية تحت مناره (1) »

ويقال في تعليل تلقيبه بامتيرد على صيغة التصغير أنه كان ضعيـــف البنية نحيل الجسم ، ويحكى أن السلطان المولى عبد الحفيظ كان اذا ذكر في مجلسه الشيخ الجيلالي بهذا اللقب علق بقوله : «بل هو متمرد امعمـــــر بالتمريد» وهي قولة تدل على المكانة التي كانت للشاعر حتى بعـــد عصره ، واكثر منها في الدلالة على مكانته ما قاله التهامي المدغري :

«لو كان احضرت لامتيرد كنت انكون لو عبد اشويرد»

ولا عجب فقد كان عميد زجالي عصره ــ أو كما يقال في المصطلح عندهم شيخ الاشياخ ــ لقبــه معاصروه فــي مراكش بــ «الفاكيــه دالشياخ» أي فاكهتهم ، ولقبوه في فاس «عرصت لشياخ» أي روضهم ، وبلغ من تأثـــير قصائده على الجماهير أن المنشدين أطلقوا عليها «الشعالة» للجوئهم اليها في تحريك السامعين واثارة انتباههم اذا ما أحسوا منهم ضيقا بما ينشدون وعدم تجاوب .

(1) مقال «الادب الشعبي المغربي الملحون» مجلة البحث العلمي العدد الاول السنة الاولى 1964

ويعزو العامة نبوغ الشيخ الجيلالي الى حادث خرافي يقولون في حكايته أنه «كان يذهب كل عشية منفردا لصهريج ابن الحداد خارج باب الخميس من محروسة مراكش وهو محل مخيف فيه مياه راكدة تسكنها الضفادع ، وكان الشيخ الجيلالي يجلس هناك للتفكير والاعتبار ، فخرجت له ذات يوم ضفدعة وكلمته وقالت له: ياشيخ إنني أريد أن تحضر عرسي وتغني لنا فقبل وجاء في يوم موعود فأغمض عينيه ووجد نفسه في عالم آخر فأحضروا له آلة تقول هذه الخرافة الشعبية لم يكن له عهد بها فغنى لهم وجازوه بما يستحق ثم أرجعوه لصهريج ابن الحداد فوجد في يده تعريجة فرجع الى المدينة وحكى للناس ما وقع له ، ومن ذلك الحين صار يأتي بالمعجز من القول ، وتظـن العامة انه لم تكن التعرجة معروفة قبل هذا وهي من اختراع الجنـة (1)»

وقد كانت لامتيرد جملة اوليات نرى حسب ما وصلنا من نصوص (2) أنه سبق اليها في تطوير القصيدة الزجلية شكلا ومضمونا ، سنذكر منها ما أمكننا أن نستخرجه من القصائد التي جمعنا له :

أولا : في المضمون تظهر ابتداعاته في الموضوعات الجديدة التي طرقها وهي :

1 ـ الخمـريـات :

يعتبر امتيرد اول الزجالين نظما في الخمريات ، فتح لها الباب بقصيدته «الساقي» التي يقول في حربتها :

ألساقي وكض لريام رد بالك للنوبا لاتغيب عن مولاها

كب يا ساقـي راح الليـل

وكان الشعراء قبله لا يجرؤون على مثل هذا الموضوع ، وبين أيدينا نص يثبت ذلك ، نجده عند الحمري في قصيدته «الربيعية» حيث يقول في

---

(1) المصدر السابق

(2) نلفت النظر الى أننا في كل ما نعزو للزجالين من اسبقيات لا نعتمد على غير ما وصلنا من نصوص وما بلغ الى علمنا من أخبار ، وقد يكونون مسبوقين بغيرهم فيما ننسب لهم من اوليات ولكن بين ايدينا مـن نصوص وأخبار لا يسعفنا في اثبات ذلك .

آخر بيت من القسم الاول :

اعراجن اثمر فالنخلات الراكبات عل لجدار

واعناقد لعنب فادوالى سالوا عل لعصير اخبير

فهو يذكر عناقيدالعنب فيالدوالى ولكنيحيل السامعين الىخبير يسألونه عن عصير هذه العناقيد .

2 ـ الشمعة :

لعله أول من اتخذ من الشمعة فى احتراقها وذوبانها موضوعا للكشف عما يعانيه المحب فى مقارنة بين حاله وحالها ، مستعرضا على لسانها ما تمر به من مراحل قبل أن تصبح شمعة تبكى لتضىء للآخرين . ويتضح هذا من شمعته التى يقول فى حربتها :

لله يا الشمعا كرى واعلاش دالنواح والناس افلفراح

وانت اجواهر ادموع ابكاك الـلا اهطيـلا

ومن عجيب أن شمعة امتيرد لم تلق من الشهرة ما لقيته شمعة ابن على ، وهى التى يقول فى حربتها :

لله يالشمعا سلتك ردى لى اسؤالى * واش بك فالليالى تبكى مادالك اشعيلا

3 ـ الحراز

يبدو أن امتيرد كان صاحب فكرة التنكر للوصول الى المحبوبة فى محاولة لاغراء محرزها والايقاع به ، وذلك فى حرازه الذى يقول فى حربته :

حراز للا لرسامو جيتو انصيب قلبو نصرانى * كيف عارفو مـازال

وهنا كذلك نلاحظ أن حراز البغدادى (1) حاز شهرة أكبر من حراز امتيرد ، وهو الذى يقول فى حربته :

مال حراز الدامى ما يثق بيا هيهات * حارس فى كل اوقـات

اعلى الدوام ايجنب ولا يرومنى كطعيا

وقد تحورت عند المنشدين الى قولهم :

مال حراز الدامى مايثق بيا هيهات * غير حاضى لوقـات

فى اثيابو مسلـم افعايلـو روميا

(1) المتوفى فى نهاية القرن الماضى

4 ـ الـضـيــف

كما كان صاحب فكرة التنكر فى هيئة «ضيف» للوصول الى حبيبته على حد ما فعل فى قصيدته «ضيف الله» التى يقول فى حربتها :

أضيف الله رد لجواب اصغ لى * لا تحشم رد الســــلام

فقد طرق باب دارها ليلا يطلب ضيافة الله ولكنها لم تلبث بعد أن أدخلته وأزال اللثام ان تبين لها انه حبيبها لجأ لهذه الحيلة حتى يصل اليهــا .

5 ـ الـقـاضـي

وقد كان ـ على ما نعلم ـ أول من فكر فى اللجوء اليه للفصـل بينه وبين محبوبته بعد أن جارت وطال هجرها ، يقول فى حربة قصيدته «ألقاضى» :

ألقاضى لك ادعيت لغزال خنارى
اعلاش دون سبا هاجر لوكـار
جفلت مـن رسمى قامت لقنا بودواح ازهور
زينـت لاسـم زهـــرا

6 ـ الـخـصـام

ظهر أول نظمه له فى قصيدة «بنت الحضر والعربية» التى يقول فى حربتهـا :

امى حنا ايلا امى لوريت يافاهم اللغا ماذا صار البنت لحضر والعربيا
ءايلى امى لـوريت يا فاهـم اللغا

7 ـ الـخـلـخـال

ويتبين لنا سبقه الى نظم هذا النوع من القصائد فى «خلخال عويشة» حيث يحكى أن محبوبته بعد أن زارته قدمت له خلخالها تذكارا يحتفظ به لتخليد الزيارة وحتى لا ينساها ، ووضع الخلخال فى جيبه ولكنه ضاع منه فأخذ يبحث عنه فى كل مكان فلم يجده واضطر الى اللجوء لفقيه منجم يكتب الخط استطاع بواسطة الجن ان يحضر له الخلخال . يقول امتيرد فـــى حربة هذا الخلخال :

خلخال اعويشا درت لبها فى مكتوبى يا فهيم درتو وامشى لى

كيف المعمول ايـلا اتسالنى مولات الخلخال

وقد فتح امتيرد بهذا الخلخال بابا لمن جاء بعده من الشعراء الذين جعلوا موضوع قصائدهم : الخلخال او الدمليج أو الخاتم أو الضبلون ، وهو بهذا طور فى الواقع جانبا من جوانب القصة فى القصيدة الزجلية

3 ـ الفـصـــادة

ففى قصيدته «لفصادا» سن لمن جاء بعده من الشعراء أن يصفوا الحفلات التى تقيمها النساء بمناسبة اخراج الدم حيث يبرزن متزينـــات متحليات بأفخر الحلى وأجمل الثياب ، وهى التى يقول فى حربتها :

آش را من لاحضر امع اوجوه لريام ٭ يوم حنطو فثياب العز اللفصادا

ثانيا : فى الشكل تتمثل براعة امتيرد فى الجوانب الآتية :

1 ـ السرابـــة

فهو ـ حسب ما انتهى اليه علمنا ـ اول من اتخذها فى التمهيـــد للقصيدة ، ويذكر كبار الاشياخ أنه قبل ان ينظمها كان يقدم بأغانى بوعمرو الخفيفة . ومن أول السرارب التى نظم امتيرد هذه السرابة التى يقول فـــى أولهـــا :

اعلاش امحبوب خاطرى تجفينـــى ٭ ألجافينى واعلاش دالجفـــــــا

حبيتك من خاطرى ولا رديتنـــى ٭ كاتمنينى يا شارد لعفـــــــــا

خالفت فالقول باش واعدتنـــى ٭ ولاوصلتى الرسمى قاسيت ما كفا

(قالت ناس الشعر والقوافـــى ٭ الزين ابلا تيه صورتـو تعـداف)

والخير صاحبو يعراف

ويذكرون أنه يقصد بقوله «قالت ناس الشعر والقوافى» الشاعر بو عمرو ، وبقوله «الزين ابلا تيه صورتو تعداف» شطرا واردا فى قصيدة لهذا الشاعر تعرف بـ «باهى لحروف» ، وأنه لجأ الى هذا الاقتباس تخليدا لذكرى بوعمرو واشعارا بأنه الموحى بفكرة السرابة .

2 ـ وزن للبحر المثنى

فقد وضع فى «الساقى» وزنا للبحر المثنى لم يكن معروفا من قبل .

صدره أطول من عجزه ، اوكما يقال في الاصطلاح «الفراش» أطول مـــن «الغطا» ، وتتضح هذه الملاحظة من حربة القصيدة التي يقول فيها :

السـاقي وكْفي لرِيام رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها

كب يا ساقي راح الليـــــــــــل

3 ـ بحـر السـوسـي

نميل الى انه أول من سبق الى النظم عليه ، وذلك في قصيدتـــــه «الحراز» التي يقول في حربتها :

حراز للا لرسامو جيتو انصيب قلبو نصراني

كيـــــف عارفـــــو مـــــازال

4 ـ الحـــوار

كنا قد رأينا في الفصل السابق أن فكرة الحوار بدات عند الحمري في قصيدته «الربيعية» ولكن امتيرد طوره وجعله يمتد في كل القصيدة ، وقد ساعده على ذلك نظمه في موضوعات تستدعي تبادل الخطاب أمثـــال الحراز والقاضي والخصام .

الحـاج محمـد النجـار

من مدينة مراكش ، وهو ربيب الشيخ الجيلالي لان هذا الاخير تـزوج أمه بعد أن توفي ابوه علي النجار . ويقال ان النجار سجل قصة هذا الزواج ساخرا ومستهزئا في عروبي سماه : «مولاة الربيب» وهو بالتالي مساعده في الدكان وتلميذه في الفن . ولعله دخل الكتاب القرآني قبل ذلك حيث تعلم القراءة والكتابة وغدا في سن مبكرة يدون لشيخه بعض قصائده . ومن هنا زاد تعرف النجار الى الزجـــل ينسخـــه ويحفظـــه ويـردده ، ومن هنا كذلك بدأت تظهر في النظم اولى محاولاته التي كان زوج أمه لاشك يتعهدها بالتصحيح والتنقيح .

ويحكي الاشياخ أنه حدث في الوقت الذى أخذ النجار ينظـــم ان اصيبت البلاد بجفاف دام سنتين ، أصبح معه من المتعسر على النجـــار أن يظل عبئا على امتيرد ففكر في الرحيل الى فاس ، واتفق يوم سفره أن ظهر كسوف في السماء أرخه النجار في قصيدته التي قالها في توديع مراكش

واشياخها . يقول في مطلعها ملتمسا من اهله الدعاء له ان يحقق منـــاه فـــي فـــاس :

لله يا هلي سمحوا في شي فات

وادعوا لي انصيب امنايا

في بلد فاس كنز اغنايا

عند الشراف هل لعنايا

يسقوني السقوا بعد السقوا انال تقوا

نبسط لكفوف ضي وادجا

للخالق ساير لخلايق يغفر الواتي فجميع السيات

ويقول في حربتها :

ألين اوين الشمس فالسما ريناها كسفات

حتى ظهروا النجوم فالنهار الكهار العاتي

والظلما سدات

ويسجل في القسم الثاني ما أصاب البلاد من جفاف ، فيقول في اوله:

عامين يا هلي هاذي مرت ما اشتات

عامين ما اعطات الصابا

ولا ابقى احسان ايهابا

واقوا الرهط دالنهابا

وفي آخر قسم يؤرخ للقصيدة ولسفره فيقول :

تاريخ حلتي «مشقاني والدال» ⁂ دال اعلى ترتيب ابياتي واسبيك المعنات

فقد رمز بـ : م ش ق ن د ، فالميم بأربعين والشين بألف والقاف بمائة والنون بخمسين والدال بأربعة ، ومجموعها أربعة وتسعون ومائة وألف (1) .

---

(1) وهذا ما تؤكد كتب التاريخ على حد ما نقرأ عند الناصري في الاستقصا حيث يقول «وبعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنة اثنتين وتسعين ومائة والف انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها ، وفي اعوام تسعين ومائة وألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريبا من سبع سنين» (ج 4 ص 128 ط المصرية)

ويقال ان أشياخ فاس تفاءلوا بمقدم النجار لانه ماكاد يصل الى مدينتهم حتى كانت الامطار تتهاطل ، ويبدو أن من اول القصائد التى نظم فى فاس قصيدته التى يقول فيها مخبرا انه سكن منطقة فاس البالى :

دعت اهـلى وارسامـــى * واسكنت بلدفاس البالى دار لهمام

القـوم ارعات إذمامـــى * ونا ما نزول انراعى لها الدمام

ولسنا نعرف شيئا عن أخباره فى فاس ، وكل مانعرف انه استطاع أن يفرض وجوده ويصبح «شيخ الاشياخ» و «مداح النبى» .

ونقف قليلا عند اللقب الاخير الذى اكتسبه لكثرة مدحه للرسول عليه السلام ، فان بعض الاشياخ اعتمدوا عليه وذهبوا الى أن النجار لم ينظم فى غير هذا الموضوع ، وهو رأى جانب الصواب .

حقا ان جل قصائد النجار فى المديح النبوى والصلاة والتوسل ، ولكن له قصائد فى الغزل ، لعلها ليست كثيرة ولكنها كافية فى اثبات مانقول . فقد وقفنا له على «البتول» و «ام كلثوم» و ــمسعودا ــ . يقول فى حربـة ــ البتـــــول ــ :

داوى اجـوارح اعليـــلا * أشوم ليعتى بفراق البتـول

ويقول فى أول قصيدة «ام كلثوم» :

ألايمنى فهوى اشبهت الدامى دعنى اوكف خلى اجوارحك اسليما

واعذريا لايم حال المغروم

ويقول فى حربة «مسعودا» :

ما فالخودات ريم اتشابه مسعودا * مسعودا رايت النصر باشتكل املاح

مسعودا مولوعا او ساعدا

ومن يدرى فلعل هذا التنويع فى الموضوع حدث بعد أن استقر بى فاس وطابت له بها الحياة ، بل انا حين ننظر فيما بين أيدينا من شعـــــره نلاحظ ظاهرةلاشك أنهامتأثرة بحال عيشه فىمراكش وما آلت اليه حياتهفيما بعد بفاس . هذه الظاهرة هى طغيان النفس التأملى الجاد ــ والمتشائم فـــى بعض الاحيان ــ على قصائده فى مراكش وأول مدة اقامته فى فاس ، ثـــم

تغير هذا النفس بعد ذلك ، وقد علته مسحة من التفاؤل . وتتأكد لنا هذه الظاهرة حين ننظر في قصيدتين : احداهما فـي تأمل الناس والحياة ، والثانية في يوم عاشوراء . يقول في أول القصيدة التأملية وقد مل الدنيا ومحنها ولم يعد يتمنى غير الموت :

مل قلبي من دنيا كلها امحـــان * ولا ابقى يترجى الا ايموت هانى

ويقول في حربة القصيدة الثانية فرحا مبتهجا :

أجي اتشوف يا من لاشاف الهايجات بسدارى

كيف شفت عين حسن يوم عاشـــور

عبد القادر بن عبد الرحمن بوخريص

فيلالي الاصل لكنه ولد ونشأ في فاس ، وهو تلميذ للنجار كما يقول في أول القسم الثامن والاخير من قصيدته «مرحول للمشرق» :

نهيت القطعا الرايقا واسمى عبد القـــادر

ابن عبد الرحمن بوخريص تلميذ النجـار

ويعتبر من الزجالين الذين كان لهم حظ وافر من الثقافة، بل يزعم بعض الاشياخ أنه كان من كبار العلماء وأنه تولى قضاء مدينة فاس ، في حين أن القاضي غير الشاعر ، وهو سميه وجده ، كان قاضيا بفاس ، توفي سنـــة 1188 هـ

كان بوخريص متأثرا أشد التأثر بالنجار من حيث الاكثار من النظم في المدائح النبوية والتوسلات والمواعظ خاصة الى حد يطلق الاشياخ عـــلى قصيدته في الوصاية «المدونة» وهي التي يقول في حربتها :

يالساهي عما يعنيه والعمر فان * قم واعزم واخدم يكفي امن اتفرعين

ويتأكد هذا النفس المشبع بعاطفة الدين في قصيدته «مرحول للمشرق» وهي التي يقول في حربتها :

أرواح أراسي اتشوف هـذا الركب السايـر

خلا ناس الذوق شايقا لمقام المختـــار

وكما لاحظنا عند النجار نلاحظ كذلك عند تلميذه ، فهو لم يقصر نظمه على الموضوعات الدينية والتأملية كما يظن غير قليل من الاشياخ ، ولكنه نظم فى غيرها على حد ما تثبت قصيدته «الجار» التى يقول فى حربتها :

جـــارى يـــاجـــارى * حن واشفق واكرم من له جـــار

واعطـــف لوكـــارى * اولا اتخلى رسمى مهجــــــــور

هذا وقد وقفنا عند أحد كتبيى فاس على ديوان لبوخريص بخطه ، يضم حوالى مائة قصيدة كلها فى التوسل ومدح النبى والاولياء ، كان جد ضنين به لم يسمح لنا بغير تصفحه ولبضع لحظات ، ومازلنا لحد الساعة نفاوضه فى اقتنائه ، واذا ما تهيأ لنا الحصول عليه فانا ننوى أن نحققه ونقيم دراسة خاصة عليه .

محمد بن على العمرانى

ويكنى ولد ارزين ، يصرح هو نفسه بذلك على حد ما يقول فى نهاية قصيدة «الشمعة» مؤكدا شرف نسبه :

واسمى انبينو ما يخفى موضوح فى اسجالى

محمد الشريف ابن على ولد ارزين صيـــلا

وعلى حد ما يقول كذلك فى آخر قصيدة «حجوبة» :

واسمى محمد ولد إرزين القب تلقاب * وافضل من كل انســـــاب

حـــق نســابـــى * من اولاد المختار اللى اعليه منسوبا

وهو من تافيلالت حيث ولد فى مسيفة على ما يؤكد جل الاشياخ ، وهم يذهبون الى أنه نشأ فى بيت علم لان والده كان صاحب كتاب قرآنى إتاح له فيه فرصة التعلم وحفظ القرآن الكريم وبعض المتون التى جرت العادة بحفظها فى الكتاتيب وقد قضى فى هذا الكتاب وبجوار والده فترة لاشك أنها لم تكن قصيرة ، ظهر خلالها نبوغه المبكر متجليا فى سرعة الحفـــظ والادراك ومحاولة نظم ما يتلقى من فوائد وقواعد على طريقة نظم المتون . ولم تنته هذه الفترة الا بسفره مع أسرته الى فاس لتتسنى له الدراسة فى جامع القرويين . وعلى الرغم من أنا لا نعرف طول المدة التى قضاهـــا

طالبا فى القرويين ، فانا لانشك فى انه حاز حظا وافرا من العلوم المختلفة التى كانت تدرس بها ، وفى أن تكوينه الثقافى انعكس على بعض شعـــره وخاصة فى قصائد «السولان» و «الوصاية» و «هول القيامة» و «الـــذرة» بل انا نجده فى بعض قصائده يصرح أنه يستقى من الكتب ويقتبس منها على حد ما يقول فى اوائل القسم الثانى من «حجوبة» :

ثم نبغيك اتشوفينى افعين من يعرف لمرمات ﴿ وامطالع كل اكتـــاب
حق اكتابـــى ﴿ فارس افمايتى واتراجمى افلكتوبـــــــا

ويقال انه ما كاد يقضى بضع سنوات فى فاس حتى هلك والداه فأحس قسوة الوحدة والغربة على الرغم من أنه كان قد تعرف الى النجار واتخذه صديقا وأستاذا ، فعاد الى مسقط رأسه فى الصحراء حيث نظم قصيدة فى مدح مولاى على الشريف جد الملوك العلويين ، تعتبر من أروع المدح على الرغم من أن ابن على لم يكن الا مبتدئا ، وهى التى يقول فيها مخاطبا ممدوحه :

ياحـــلاوة تمر الصحرا ويا حفيد امام العشرا
يا سنا الصحارى يا مولاى على الشريــــف

ولكنه لم يلبث أن عاد الى فاس لينظم القصيدة تلو الاخرى وليصبح «أعظم شعراء فاس فى القرن الثامن عشر (1)» ويحرز لقب «المعلم» قبل وفاته «سنة 1237 هـ (1822م) وقد تجاوز الثمانين (2)» .

وقد كان إبن على مكثرا ومجيدا ومنوعا فى موضوعاته ، ومن اللطيف أن نجده فى قصيدة «حجوبة» يستعرض أسماء بعض قصائده ، وهى التى يقول فى حربتها :

يالى زينك فاق الشمس والقمر والبرق افلحجاب ﴿ صلتى بحروف اعجاب
صـــغ لوجابـــى ﴿ عالجنى بوصولك يا لريم حجوبا

ففى القسم الثانى منها يخاطب حجوبة ، بعد أن وصف مجلس الانس

---

(1) Anthologie d'auteurs arabes par M. Bekhoucha et A. Akkal p 74.
المطبعة المهدية ــ تطوان سنة 1934

(2) «مقال الادب الشعبى المغربى الملحون» للاستاذ الفاسى العدد الاول من مجلة البحث العلمى سنة 1964

الذى يتمنى ان يجمعهما ، يريدها ان تستمع فيه الى قصيدتين له فـــى
«الحجام» وقصيدتين فى «المرسم» وقصيدة «القاضى» و «الورشان» وقصيدتين فى «السالف» وقصيدة «الشمعة» و «الحراز» و «جمهور البنات» يقـــول فى هذا القسم :

ثم نبغيك اتسمعى «حجام» اللولى والتالى باسباب ✻ ما غتبتهم غتـــاب
دون غتابـــــــى ✻ اولا يردوا قولى الا اعقول مقلوبـــــا
ثم تبغيك اتسمعى «لمراسمى» ابزوج «اقاضى» للباب ✻ و «الورشان» الخباب
مـــاسك اكتابـــى ✻ «والسوالف» زوج «أشمعا» اضوات مركوبـــا
ثم نبغيك اتسمعى «حراز» حارسو فمناصف لجواب ✻ دور افذهبالتذهاب
ايحـــير الصابـــى ✻ وقت مايتذكرو اتصيب لحسود مرهوبـــــا
ثم نبغيك **اتسمعى** «جمهور لبنات» افمعنى وداب ✻ فيه اسميات اغراب
طرز بغـــرابـــى ✻ كيف ننحل ماياتى فالنظام معروبـــــــا

واذا ما أمعنا النظر فيما بين ايدينا من قصائد لابن على فانا نلاحظ خمس ظواهر :

الاولى : أنه ــ على ما نعلم ــ أول من نظم زجلا سياسيا على حـــد ما تثبت قصيدته «المصرية» التى يكاد يجمع كبار الاشياخ أنه قالها فى حملة نابليون على مصر ، والاسف أنا لم نعثر على أثر لهذه القصيدة التى لاشك تكشف عن تجاوب المغاربة مع اخوانهم المصريين فى هذه النكبة التى حلت بهـــــم .

الثانية : أنه ربما سبق الى قصائد «السولان» يوجهها لخصومـــــه يحاول تعجيزهم ان لم يستطيعوا حل سؤالها بل الاسئلة التى تتضمنها ، وهى فى الغالب معميات وألغاز ، منها قصيدته التى يقول فى حربتها :

بســــؤلك استفخر يـــا حفاظى ✻ اولا ابحال عند اللى عارفين سولان

وفى أحد أقسامها يسأل من جملة ما يسأل عن ماهية علم الشعـــر والمواهب وكيف تتسرب للنفوس ، وعن أقسامها التى لا يعد شاعرا من يجهلها ، ويرى أن كل من غاص فى بحر الهوى يجده صعبا الا من منحه الله الموهبة ، ويوصى راويه الايهاب الداعى فهو أعجز من أن يأتى بمثـــل

هذا السؤال أو هذا الشعر مهما طال به الزمان :

وانسال امن ادعا واعلى علم الشعر والمواهب

واعلى اشمن اسبيل يدخل لجسام

كان لهم فالخلق ارسام

قسموه الفهام اقسام

من لايدريه لا يقول شاعر فالقول ايجيب

والى داخل بحر ليوا ابجهلو يلقاه اصعيب

الا من ودو ربنا الوهاب

والى ادعا عليك ابجهلو بالك تستهابو

ما جاب عوض سولانى

ألو ايعيش ماعاش المرو ولا يجيب لوزان

الثالثة : انه وضع وزنا للبحر المثلث فى قصيدته «زينب» التـــى يقول فى حربتها :

يابـــدر ماغطاك احجـــاب * فى ادجايا شمس النهار السعيد يازنوبا

فاين العهد يا زينب

وهو فى الواقع تطوير للوزن الذى وضعه امترد للبحر المثنى فـــى قصيدته «الساقى» التى يقول فى حربتها :

ألساقى وكض لريام رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها

كب يا ساقى راح الليل

فقد لاحظ أن «الفراش» أطول من «الغطا» فجعله قسمين .

الرابعة : أنه عدل بعض الشىء فى «قياص لشركى» وجعله على نحو ما نجد فى قصيدته التى يقول فى أولها :

يا هلى ريت اجبال الغرب غيبـــو * وجبال الصحرا اتبان غير العظمات

وقد نظم أغلب مطولاته على هذا الوزن ، ويقال ان الغالى الدمناتى كان أكثر الشعراء تقليدا له فيه على حد ما يبدو فى قصيدته التى يقول فى أولهـــا :

ياهل البيت اسيادى لامت لشراف * زكت ابحماكم قبلو زوكت لوصيف

وكان هذا «القياص» قبل ذلك على نحو ما تكشف عنه قصيـــدة «الحجة» لابن احساين ، وفى حربتها يقول :

يالحضرا قولوا بالسر ولجهار ⁎ الصلا والسلام اعلى النبى المختار

الخامسة : أنه ــ حسب ما تثبت النصوص التى وصلتنا ــ أول من أطال القصائد فجعلها «ملاحم» كما يقولون . حقا ان للمغراوى قصائد طويلة مثل «هول القيامة» فان أبياتها وصلت الى مائتين ، ولكن ابن على تعدى هذا الطول بما يزيد على ضعفه . ومن خير الامثلة على قصائده المطولة «الــذرة» التى ضمنها ما كان معروفا فى وقته من معارف كونية ، فهى تضم ثلاثـــة وستين وخمسمائة بيت ، يقول فى دخولها :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلب

وقدس المولى تقديس النجاب لقراب

سبح المــولى مــاشرق الضيا وغرب

قدس المولى مادام الضيا وغيهـــاب

ويقول فى حربتها :

يالساهــى مــن نومــك فـــق سبـــح الــرب

لمتا وانت تايه فالغرور لــــواب

الصلا والسلام اعلى اخيــار لنسب

سيدنا محمد طه اشفيع لعـــراب

ويقول فى القسم الثانى منها :

منها اللوح انشاه ابقوتو وحولو ⁎ ومنها الروح والعقل كيف شا وقدر

اللوح جعلوخمسين الفاسنافطولو ⁎ والفين فى عرضو كيف جا امعبــر

ولقلم طولو ألف اسنا ايقولـــو ⁎ كلهم فالكرسى نقط الديام فبحار

لقلم والكرسى واللوح لمكتـــب ⁎ والسماوات ولرضين والتلول واروا ب

ولحجوب ولشيا فالعرش كل تذهب ⁎ خرس منسى ففقرقال النبى الاواب

وقد سبق ان راينا في المدخل ان مثل هذه القصائد لم تكن تنشدفي المجالس وانما كانت تسرد في بعض المناسبات وخاصة في ذكرى المولد النبــوي .

واشتهر ابن علي بعد هذا بالمعارك الهجائية التي كانت له مع تلميذه ابن سليمان ، وقد تعرضنا لها في الفصل الثالث من باب الموضوعات

محمد بن سليمان

من زجالي فاس ، وهو تلميذ ابن علي وخصمه الذي خاض ضده معارك هجائية شهيرة ، لم ينس في غمرة حدتها اعترافه بالفضل لشيخه على حد ما يثبت هذا البيت ينصفه فيه :

رجلي اعلى اقفات العكل(I) * حجا ايلا اوطيت ابن علي

ولكن جاء بعض الاشياخ فقلبوه هجاء وقالوا في جناس بين اســـم الشاعر والنعل الذي يلبس :

رجلي اعلى اقفات ابن علي * حجا ايلا اوطيت إبنعلي

ويذهب الاشياخ في حكاية قصة حياته الى روايتين : تقول الاولى ان اباه الحاج ادريس بن سليمان كان رجلا رقيق الحال يشتغل بالدرازة ، وتقول الثانية ان والده كان من أكبر أغنياء وأعيان فاس ، وأنه كان محبا للطرب الملحون يحيي لياليه في بيته ، وأنه كان صديقا للشيخ ابن علي .

ونحن نميل الى هذه الرواية بل نذهب الى أن ابن سليمان الابــن تأثر لاشك ـ وهو طفل صغير ـ بهذه الليالي التي كان يقيم والده ، والى أن تلمذه لابن علي بدأ في هذه الفترة ببيت والده .

وتحاول هذه الرواية أن تربط بين وضع أسرته وما ترتب عنه مـن تأثير كبير على حياة الابن فتضيف أن والده توفي وترك له ثروة طائلة كان فيها وارثه الوحيد ، فلم يلبث ـ وهو في أول الشباب ـ أن انطلق للحياة

(I) البليـــد .

اللاهية الماجنة في غلو واسراف كانت نتيجتهما أن أصيب بداء القلب الذى أودى بحياته ولما يتجاوز الثلاثين من عمره .

وتعتبر قصائده التى نظم فى حال مرضه وهو طريح الفراش من أروع ما أنشأ الزجالون صدقا وابداعا ، تشم منها رائحة الموت تكاد تخنقه وهو يحاول الفرار منها في خوف وتشبث بالحياه . ومن أهم قصائده فى هذه الفترة «الطبيب» و «الوردة» ولعلهما آخر ما نظم قبل موته ، يقول فى حربة الاولـــى :

الطبيب يعرف دايا والدوا سومو غالى

عالجونى يا ناسى لا نموت موت الغفلا

ويقول فى حربة الثانية :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى

يا عدولى فالموت اسبابى خد الـوردا

وقد كانت لابن سليمان عناية باسلوب زجله تمثلت فى اكثاره مـــن التضمين ـ وهو كما سبق أن رأينا (I) بناء القافية على حرفين ـ ومن الامثلة عليه عنده قصيدة «الرعد» فقد التزم فى قافية الاشطار الاولى للابيات حرفى الياء والميم على حد ما يقول في هذه الابيات من الدخول :

الرعد زام طبلو من بعد اقناطر التمسايـــم

والبرق سل سيفو ويخيل فى اخيول لمران

والـريـــح فـــارس ايشـــالـــى

عن اعيون العلفات اعلى اللغا امشمـــــــــر

لقزاح شد بنـدو للفرجا اعساكرواتلايـــم

واحرك ابلمطار البيدا حتى أجرات ويدان

قلبـــى ابحبهـــا ســـالـــى

كـل فـج اصبـح مـــن ذاك الضباب خضر

(I) انظر الفصل الثانى من الباب الاول ، وانظر كذلك الفصل الاول من الباب الثالث لدى ذكر محمد بن عبد الله بن احساين .

ومن الامثلة عليها عنده كذلك قصيدة «حجوبة» ، وفيها التزم الفـــاء والهاء في قافية الاشطار الثانية للابيات ، على حد ما يقول في هذه الابيات من القسم الاول :

وصلك حاجا مطلوبـــــــــــا * مرادي مايا لمتا اتصغيـــــــــه
نعتاد بك غرضي فغراضك ياك مانهيا دخلت بينتنا اعگوزا خواضــــــــــا
دارت ملقانا جوبـــــــــــا * ايمتا شرگ لفراق ترفيـــــــــه
نبرا من الزيارا فيها خيط الرضا الوافي روفي يا رماك الداميا فالطباح مني نهاضا

محمد بن قاسم العميري

ويعرف بالفقيه العميري ، وهو من مدينة مكناس . ولكنه أقام مدة غير قصيرة في صفرو حيث تولى خطة العدالة . وكان معاصرا لشيخ مكناس سيدي قدور العلمي الا أنه توفي قبله ويحكي الاشياخ أن العلمي بعث بعض أصحابه الى دار العميري ، وطلب منهم ان لـم يجب أحد لطرق الباب أن يكسروه ، وكذلك فعلوا ، ولكنهم حين دخلوا الدار وجدوه قد مات وبين يده مصحف وقد وضع فيه أصبعه على الآية الكريمة : « هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون» . ويعتبر الاشياخ هذه الحادثة كرامة ليس للعميري فحسب وانما للعلمي كذلك .

واذا عرفنا ان العلمي توفي عام ست وستين ومائتين وألف ، واذا عرفنا كذلك ان العميري كان يعيش في عهد المولى عبد الرحمن (1) لانـــه مدحه ، فانا نستطيع أن نجعل وفاته في منتصف القرن الثالث عشر .

والدارس لشعر العميري لا يلبث ان يلاحظ ظاهرتين :

الاولى : ولعه بقافية النون ، كما يبدو من هذه القصائد :

يقول في حربة قصيدة يمدح بها سيدي عبد السلام بن مشيش :

أنا ابن امشيش غارا بالعرافا كن لي اعوين
يا بدر انبا اولا توارى يضوى ما طالت السنين
يخفي لهلال والمنارا والصيارا الباقيين

(1) تولى سنة 1238هـ وتوفي سنة 1276 .

ويقول فى أول بيت من قصيدة «الزين» :

هيـــا هيـــا ويـــن * يا من ردى للمطاعنـــا
بسيوف الضمديـــــن * لو طاروا ما . اقونـــى

ويقول فى حربة قصيدة له يمدح بها المولى عبد الرحمان :

بـوجـــود السلطان * مـولاى عبد الرحمـــن
عمنا بالاحســـــان * نمجـــد فزمـانـــى
من حكم فالبرين وبحرين

الثانية : سبقه (2) الى النظم فى «الجفريات» ، وهى ـ كما سبق أن رأينا (3) ـ قصائد يتأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس ويستنتج منها تنبؤات بما يحتمل أن يقع . ومن جفريات العميرى قصيدته التى يقول فى أولها ، رامزا بالصوف والقطن الى طبقات من الناس :

لا اتوطن فالغرب اتخلط لوطن
الصوف امع القطن عاد فابطانا تحت ابطانا
ابرزلهوا املابس قفطانو

ومنها لاميته التى يقول فيها :

ذاك الولد المهبـــول * أصلو مـن أناضـــول
الفرخ يشبه اخوالو

وقد وجد الناس هذا القول مطابقا لوضع السلطان المولى عبد العزيــز بعد أن هزمه أخوه السلطان المولى عبد الحفيظ لان أمه تركية ، مع أن العميرى كان يعيش فى عهد المولى عبد الرحمن .

واذ كانت هذه القصائد تعتمد على الرمز والتلميح والاشارة ، فان العميرى بسبقه الى النظم فيها كان سابقا كذلك الى هذا النوع من الاسلوب فى القصيدة الزجلية

---

(2) حسب النصوص التى وقفنا عليها

(3) انظر الجزء الثانى من فصل «فى الحياة» من باب الموضوعات.

عبد القادر العلمي

يعرف بـ «سيدي قدور» (1) ، وهو من مكناس ومن أكبر الزجالين وأشهرهم ان لم يكن أشهرهم جميعا، وهو كذلك من أولياء هذه المدينة. نظم في مختلف الموضوعات وبرز في التوسل والحكمة والموعظة حتى غدا يعتبر فيلسوف الزجل بلا منازع. ولعله من أكثر الشعراء الذين حفظت قصائدهم من الضياع بسبب كثرة انشادها وتدوينها ،لما له من مكانة في النفوس باعتبار ولايته ، وهي فكرة جعلتهم ينزهونه عن كل ما لا يعقلون صدوره من الاولياء ، ويؤولون بالتالي شعره في الغزل والخمر على حد ما سنرى بعد .

ترجمه المشرفي في «الحسام» (2) فتحدث عن زاويته وبعض كراماته وقال ان «له قصائد عديدة في ملحون الشعر تتلى في حضرة الملوك وتنشد في مجالس السرور وتشرق بها الاسماع ويطيب بذكرها وانشادهـــا السماع ، احتوت على توحيد عظيم ، ويتغزل بالخمر والنساء وما حـــل نطاقا لامرأة من صغره لكبره» (3)

وأشار الى أسماء بعض قصائده في التوسل ومدح الاولياء ووقف عند قصيدته التي يقوّل فيها متوسلا :

ما انتاشي عاجز نرجــــوك يالجليـــــل

ما انتا شي غايب تعذار يالمـــــــــــــولى

فذكر أنه كان يريد شرحها ، وفي ذلك يقول : «قلت له يا سيـــدي فاتتني الخدمة لك بيدي أردت أن أخدمك بقلمي ايذن لي في شرح هــــذا التوسل ، ومرادي أن تذكر مناقبه وجملة كافية من كراماته فأمرنـــي بقراءتها عليه وهو ساكت ، فلما أكملتها قال لي : من قال هذه القصيــدة هي لي ؟ ولم يقل : ما قلتها ولا ليست لي ، بل مهما كررت عليه قولتـــي

---

(1) قد يختلط اسمه مع اسم أحد أشياخ فاس المعاصرين يسمى قـدور العلمي ويعرف بـ «طقطقان» وقد توفي منذ حوالي عشرين سنة .

(2) الحسام المشرفي في الرد على آكنسوس المراكشي (مخطوط خزانة الرباط العامة ك 2276 ص 288 — 289 290)

(3) ص 288

فى شان شرحها يقول : ومن قال هى لى ؟ ويسكت . فلما لحيت عليه القول قال لى : نم وغدا ان شاء الله يظهر لنا ولــك ما يكون عنــد فسكت وما سالته بعد ذلك الا ما يكون من أمر الدعاء الصالح » (I)

وترجمه المؤرخ المرحوم عبد الرحمن بن زيدان فى «أتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس» (2) باعتباره من صلحائها فذكر أنه «عبد القادر بن محمد بن أحمد بن بلقاسم الادريسى العلمى الحمدونى ... نشا فى صيانة وعفاف بمكناسة الزيتون فى حجر والده بالدار التى اتخذها بعد وفاة والده زاوية وبها أقبر ... وكان رحمه الله من أهل المقامات العالية والاحــوال السنية لايعرف لعبا ولا لهوا ولا مــا يرجع لزخرف الدنيــا وزينتها كثير التطوف على أضرحة الصالحين وزيارة الاحياء منهم والاموات » (3)

ونقل ابن زيدان عن ابى عبد الله محمد الامين الصحراوى المراكشى فى «مقدمة الارتجال فى مشاهد ومشاهير سبعة رجال» قوله : «قال لى الــولى سيدى عبد القادر العلمى انه مكث بضعا وعشرين سنة وكان بمراكش وكل يوم يزور سبعة رجال او يزور الاربعة المتقاربة : سيدى ابى العباس السبتى وسيدى محمد بن سليمان الجزولى وتلميذه سيدى عبد العزيز التباع وتلميذه مولانا عبد الله الغزوانى ، او يقتصر على زيارة ابى العباس السبتى (4) »

وزاد ابن زيدان : «وقد لازم دهرا طويلا زيارة ضريح المولى ادريس الاكبر وبالاخص يوم الجمعة لم يتخلف عن صلاتها بمسجده فى صيف ولا شتاء مدة من ثلاثين سنة ،و كان ذهابه لزرهون كل جمعة على أتان له وكان يتطارح على شريف تلك الاعتاب ويتضرع الى مولاه فى تنوير سريرته وصفاء باطنه وتطهيره من الرعونات النفسانية ثم بعد مدة لازم داره وصار لا يخرج منها الا يوم الجمعة . وفى آخر عمره لما كبر سنه ووهن عظمه واعتراه ما اعتراه من الجذب وذلك قبل انتقاله لدار النعيم بنحو أربعة أعوام ... ترك حتى الجمعة وكان يتحرى صلاتها بجامع الزيتونة احــد المساجد الشهيرة بمكناس (5) »

(I) ص 289 — 290

(2) الجزء الخامس من ص 336 حتى 352 (الطبعة الاولى — الرباط) .

(3) ، (4) ص 336 . (5) ، ص : 336—337 .

وقد اعتمدفي تحديد مدةجذبه على ما ورد عند الطبيبمحمد غريط — وهو من تلاميذ العلمي وملازميه — في رجز له يسمى «رياض انس الفكر والقلب» قال فيه (1) :

والجذب معه نحو اربع سنين ＊ وبعضنا به من المستيقنين
ومع ذا بسائر الاذكار ＊ يصدع بالليل وبالنهار
حتى قضى بقرب فجر الاثنين ＊ ليلة يوم سادس وعشرين

وذهب ابن زيدان الى أن السلطان المولى عبد الرحمن كان «من خاصة محبي المترجم ومعتقديه يذهب لزيارته كلما حل بالحضرة المكناسية ويستشيره في كل مهم عن له ويقف عند حد اشارته ، وقد شاهد له كرامات وخوارق عادات (2) » .

وقال عنه كذلك انه كان «سيدا حصورا لم يحتلم قط ولا عرف معنى الالتذاذ كما أخبر هو بذلك عن نفسه لا في صغره ولا في كبره ، ولايأكل دسما ، جل قوته الخبز والزيتون ... وقد ظهرت له رضي الله عنه كرامات وأسرار وقصده وفود الزوار من سائر الاقطار (3) » .

وذكر لهمن مشايخه : (4) العارف السيد الحاج المختار البقالي المتوفى عام خمسة وخمسين ومائتين وألف ، وسيدي علي بن عبد الرحمن المعروف بالجمل دفين فاس المتوفى عام أربعة وتسعين ومائة وألف ، والشيخ بدر الدين ، ومولاي الطيب الوزاني ، وسيدي محمد ابن أحمد الصقلي المتوفى عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف .وذكر له من تلاميذه السيد فضول ابن عزوز والسيد فضول السوسي والسلطان مولاي عبد الرحمن والسيد محمد غريط والعارف محمد بن عبد الحفيظ الدباغ والامام محمد صالح الرضوي وسيدي عمر بن المكي الشرقي والسيد عبد الرحمن بن التهامي الادريسي الزرهوني وسيدي العربي بن السائح الشرقي دفين الرباط .

---

(1) ص : 337 .　　(2) المصدر السابق .
(3) ص : 339 .
(4) ص : 341—342 .

ثم تناول شعره فقال : «وما ينسب للمترجم من الازجال هو له حقيقة، وقد كان له رواة يتلقونه منه ويكتبونه عنه منهم العلامة السيد محمد غريط والسيد الحاج قاسم بن الخير والسيد الحاج احمد الدقيوق وغيرهم حيث أن المترجم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . ومع ذلك قد ضمن تلك الازجال من أنواع فنون البلاغة ودقائق المعاني ما أخرس الفصحاء وأخجل البلغاء واودعها من الحكم والمواعظ والامثال ما حير اولى الالباب وألزم المعاند الحجة . أما تغزلاته فقد أزرت بنسيم الصبا ووسيم الصباح وكلها اما في الحضرة العلية أو النسمة النبوية أو الاكابر من الاولياء والصالحين ، شنشنه فطاحل العرب والصحابة التابعين وسلف الامة وخلفها المتقين في تغزلاتهم في أشعارهم الفائقة الرائقة لا فيما يفهمه بعض الاوغاد من أنه في معين لا يحل حاشا أهل الفضل والدين من ارتكاب ذلك والحوم حول ولوج وخيم تلك المسالك . ولو دون جميع ما قال من الازجال لجاء في عدة أسفار ولكنه منه ما لعبت به أيدي الاتلاف ومنه ما مات بموت حفاظه ومنه ما أحرق على عهد المترجم بأذن منه ، وما بقي انما هو قل من كثر (1)» .

وذكر له من شعره نماذج في موضوعات مختلفة ، أتبعها قبل أن ينهي الترجمة بذكر ولادته ووفاته فقال : «ولد بمكناسة الزيتون سنة أربع وخمسين ومائة وألف و... توفي عن مائة واثنى عشر سنة بداره الكائنة بقصر درب ابن العواد من مكناس في البيت يمين الداخل قرب فجر يوم الاثنين ليلة سادس وعشرى رمضان المعظم عام سته وستين ومائتين وألف ، كما صرح بذلك تلميذه غريط المذكور في رجزه بقوله :

حتى قضى بفجر يوم الاثنين * ليلة يوم سادس وعشرين
من رمضان سته وستين * والف اثر مائتين ثنتين

وصلى عليه بجامع الزيتونة ودفن بدار والده التي صيرها زاوية قيد حياته بحومة ابى الطيب (2) ».

---

(1) ص : 340 — 341 .
(2) ص 351 .كذلك ورد تاريخ وفاته ،مكان دفنه في الاستقصا للناصري، ج 4 ص 201 (الطبعة المصرية).

كذلك كتب عنه المستعرب بورى بحثا بيوغرافيافي مجلة هسبريس (1)
ذكر فيه أن سونيك نشر قصيدة للعلمى فى «أغانى المغرب العربية» (2)
هى المسجلة فى الرقم الثانى عشر ، وان فيشر فى مجموعة الاغانى المغربية
التى نشر (3) اورد له قصائد فى الارقام السابع عشر والسادس والعشرين
والتاسع والعشرين والرابع والثلاثين وان كان لا يذكر اسماء مؤلفى أغانى
مجموعته . ثم نقل كلام الناصرى فى «الاستقصا» عن وفاة العلمى وبعض
ما جاء فى ترجمة ابن زيدان له . كما نقل من مؤلف للشيخ عبد الحى الكتانى
كان أطلعه عليه عنوانه «مواهب الرحمن فى صحبة القاضى أبى محمد عبد
الرحمن» أن العلمى توفى فى السنة السادسة والستين ولكن عن مائة
وعشرين سنة وأنه كان على اتصال بقاضى الجن شمهروش الذى كان صديقاله

وروى بورى عن شخص من فاس الجديد حكاية مفادها أن العلمى كان
حاضرا فى أحد الاعراس ، ورغب بعض المدعوين فى الاستماع الى قصيدته
«طامو ابهيج الخدادا» ولكن المنشد لم يجرؤ على تلبية هذه الرغبة لانه كان
يعرف أن صاحب القصيدة موجود وأنه لا يليق انشاد قصيدة غزلية فى
حضرته ، وعلم العلمى بالامر فاذن بانشادها مؤكدا أنه لا يعرف لا طامو
ولا فطومة .

وختم المستعرب المذكور بفائدة عثر عليها فى كناش يضم قصائد
للعلمى يقول كاتبها ان السلطان المولى عبد الرحمن أراد أن يعرف ان كان
العلمى فى أواخر حياته مازال ينظم فبعث له وزيره سيدى محمد بن ادريس
يطلب منه بعض قصائده تبركا ، وقابل الوزير اول الامر تلميذه محمد غريط
فأكد له أن الشيخ لم يعد يعنى بالنظم ، وكذلك قال العلمى نفسه للوزير
ولكنه أبدى استعدادا لتلبية رغبة السلطان التى اعتبرها أمرا تجب طاعته
وطلب من السيد غريط أن يكتب ما يملى عليه ، وأخذ يرتجل القصيدة
التى أولها :

---

1) M. T. BURET : Hesperis 1038 1er trimestre, dans ; communications « Sidi quaddur El-Alami - Notes biographiques »

2) Sonneck : Chants arabes du maghreb

3) A. Fischer : Das liederbuch eines marokkanischen sangers (Leipzig 1918)

عشق لجمال طبع اغزير افمن هو البيب

ولعلنا من خلال هذه الاخبار ومن خلال ما يروى على ألسنة الاشياخ وعامة الناس ، ثم من خلال ما وصلنا من شعره ، وهـو غير قليل ، نستطيـع أن نتحدث عن العلمي من خلال خمس نقاط :

الاولى : أنه كان شاعر الحكمة الاول وفيلسوف الزجل دون منازع

ولكن يبدو للكثيرين أن فلسفة سلبية يائسة تقوم على التشاؤم من الناس والحياة ؛ والواقع أنها ليست كذلك أو بالاحرى ليست دائما كذلك . حقا اننا نجد روح التشاؤم تطغى على العلمي فيرى أن كل ابناء جيله مطبوعون بطابع واحد ، فشا فيهم النفاق والتحايل والخداع والرياء وانعدم الاحسان والصدق والحياء والعرض والحسب ، وهي كلها علامات الخراب :

هاذو اشروط اعلامات التخراب

عاد النفاق امودا بين الناس الكبرا

. . . .

بالحيلا والمصانعا ولخدع عادت اخلاق اطبايعهم مقلوبا

. . . .

مذهبهم ندريه خممت اولاد جيلنا كاع بعصا وحدا مضروبا

شاع الريا ولحسان اغبر والصدق غاب

واترفع لحيا والعرض ولحسب

ويرى أن الصحبة غدت وسيلة للاغراض وأن من يصاحب شخصا يريد أن يشمت فيه بمجرد أن تتاح له الفرصة :

ولات عند ناس اليوم الصحبا اسباب

اللى اتخالطو يبغى يشمت فيك

. . . .

غير تركن لو يغدر فيك

ما يخليك داير كابوس لغدر فيك يتسناك

وهو لهذا يرى ضرورة معاملة الناس بالمثل :

من لايخدع ويلاطف ويدارى لعدا ويرشى لخوان

ما يوجد حتى رايف فالرخا والشدا ابخاوتو يستعان

ولكنه لا يلبث أن يعتدل في نظرته فيرى أن الحياة لاتخلو من الحلاوة والمرارة ، فيقول في قصيدة «الدار» :

يوم اشلوق ويوم احلو ويوم زقوم * ويوم مستعدل بين الطيب والزهاما

ويقول في «طامو» :

معلوم كيف ما دامت رخفا مـا تدوم شـــدا

هذا امـــواجب احكـام اصروف الدهـــر

يـوم احـــلا مـــن طعـــم التمر

ويـــوم كمثـل الحنظـل مـــر

ثم ان فلسفته لم تكن دائما سلبية حيث نجده يقدم نصائح ايجابية في أدب السلوك يدعو فيها من أراد السعادة أن يتحلى بخمس خصال ويتجنب خمسا أخرى ، ان يتحلى بالصمت والعزلة والمسالمة والقناعة وترك الملام ، وأن يتجنب الحسد والكبر والجفاء وضيق الخلق والطمع :

مـن احفظ خمسا دالحسنات حفظ محكـام

أفيه رسخوا كرسخ الوشم افلمعاصــــــم

الصمت والعزلا والهدنا وترك لملام * ولقناعا من كاسبهم امن ابنـادم

يعتدل ميمونو والسعد له يسقام * يرتفع بعد الخفض الهمة الضراغم

ومن اترك خمسادالسيات ترك عزام * من أجملت المحروم اللي اعليه حارم

لحسد والكبر ولجفا وضيق لشيام * والطمع بيت الدل امناصب لحشايم

كل سيا من ذا السيات ضر سمام * فاق سم الحيات الرقط السوادم

الثانية : ان العلمي كان ينظم في الغزل ، ولكن الناس يذهبون الى أن هذا الغزل غير حسي لم يقصدبه الى المرأة ، ويحاولون بذلك تأويله كقولهم ان قصيدته «طامو بهيج الخدادا» لا يعني فيها غير فاطمة الزهراء، وقد سبق أن لا حظنا (I) أن مثل هذه القصيدة لا يمكن أن يكون قالهافي بنت الرسول وفيها مثل هذه الابيات :

بتنا وبات الخمر يتزادا

(I) انظر فصل المرأة من الباب الثاني .

لا عدو لاواشي لا حراز احسيد

فبساط امحتفل مركادو

الكاس والشمع موقود

ليا ادراعها بات اوسادا

وريقها بات اشرابي انرشفو الذيذ

يشربو امن احلا توارادو

غفران ربنا موجود

ونحن حين نذهب الى هذا الرأي لانريد أن ننفي عن العلمي صلاحه وولايته ، ولكنا نريد فقط أن نجعل في حياته مرحلتين : الاولى مرحلة عادية كان فيها يعيش حياة انسانية ، يحب ويستمتع بحبه ما أمكنه ، وفيها نظم قصائده الغزلية والخمرية ، ولعل الشعر الذي ذكر ابن زيدان أنه أحرق باذنه كان صادرا عنه في هذه المرحلة . والثانية مرحلة زهد وانقطاع عن الدنيا وابتعاد عن متعها ولذاتها ، وفيها نظم معظم توسلاته ومدائحه النبوية ومواعظه ووصاياه .

ولعل حادثاما لا نعلمه جعل الرجل يغير اتجاه حياته، وان كنا نستأنس بما ذكر لنا بعض الاشياخ من أنه حين نظم قصيدة «المحبوب» وحربتها :

كيف ايواسي الي افرق محبوبو وبقى ابلا عقل في لرسام افريد

كيف اجفاني احبيب قلبي ماخلا غير صورتو وانعوتو واخيالو

أمن لا عمري انظرت زين البدر ابحالو

عارضها أحد معاصريه — لا نعرف اسمه — بقصيدة في مدح الرسول عليه السلام قال فيها :

كيف ايواسي الي عشق محبوبو وبغى ازيارتو لكن جاه ابعيد

وناكيف اعشقت سيدي العربي ما نهواغير صورتو وابها حسنو..

فكان لهذه المعارضة تأثيرها عليه ، آلى بعدها على نفسه الا ينظم في غير الابتهالات والتوسلات والمواعظ ومديح النبي والاولياء .

الثالثة : انه كان يقابل احترام السلطان له ومحبته اياه بغير قليل من القصائد يسدمها في مدحه ومساندة حكمه والوفاء للدولة العلوية . ومن

الامثلة على ذلك قصيدته التي يقول في حربتها :

غث لهمام ابريح النصر بالقهـــار ❊ ونفذ ادعوتو فالطغاة ولجبايـــر

وفيها يدعو للسلطان بالنصر والتأييد وطول العمر حيث يقول في أول القسم الخامس :

ياجليل اكسه حلا ابهيتك نــور ❊ وأيدو بالغاب وكرمو ابمـا ايسرو

وظفرو بالحكما وله حكم الشور ❊ افكل بقعا بارك يا ربنا افعمـــرو

اجعل ادعوتو دعوة نوح النبي المبرور ❊ اعلى اصحاب الطوفان بدعوتو انبترو

ويظهر وفاء العلمي لهذه الدولة وملوكها في قصيدته التي يقول في حربتها ناصحا بزيارة قبر سيدي محمد بن عبد الله جد المولى عبد الرحمن، وكان عاصره كذلك :

لذ ابجد لشراف لهمام السلطان ❊ ابن عبد الله كوكب الغرب الجوان

وفي سويرحة القسم الاول منها يقول :

يمم للزاويا الشريفـــــا ❊ سواعلى اصلاحهـــا اتطـــوف

والقبا الباهيا النظيفـــــا ❊ تبسط فـي بابها لكفـــوف

وامدح بسراك اللطيفـــا ❊ مولاها لا غنـي ايـــــروف

يا نجل السيد لعفيـــف ❊ أمن قـــول امــن الخــوف —

الرابعة : أن كثيرا من الاشياخ الرواة يذهبون الى أن بعض القصائد التي تنسب للعلمي ليست له وانما هـــي لبعض تلاميـــذه أمثال الطيب الواستري (1) ومحمد بن هاشم العلوي (2) وعزوز اللمتوني (3) ، وهم من أشياخ مكناس، ويمثلون بذلك لقصيدتين يزعمان أنهما من نظم الواستري

---

(1) كان من كتاب العلمي ، وقد اشتهر بسرابة ربيعية تعتبر أحسن سرابة نظمت في «الربيع» ، يقول في أولها :

فصل الربيع كبل والوقت ازيان ❊ واعلامات الخير للورى بانو

وله كذلك قصيدة «المحبوب» التي يقول في حربتها :

أنا فعارك أسلطاني توفى ازيارتي ❊ واتفكدني يا عنايتـــــي

يامن طاعوا لك بالقهرا لبنات

(2) اشتهر بقصيدة «أم كلثوم» التي يقول في حربتها :

الايمني فهواي اشبهت الدامي دعني أو كف خلي أجوارحك اسليما

واعذر يا لايم حال المغروم

(3) له قصيدة في مدح السلطان المولى عبد الرحمن ، يقول في حربتها :

صل اعطاك الله النصر ياعز الملوك ❊ مـــولاي عبـــد الرحمـــن

هما «الجافي» و «المزيان» .

أما الاولى فتقول حربتها :

رف ادابل لعيان

يا بو حجبين امعرقا وزينا

زر لعشيق يزاك امن التيهان ياغزيل بستاني

واما الثانية ، فتقول حربتها :

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيان

لاسماحا ميعاد الله ياالهاجر

وأخبرنا شيخ مكناس السيد بنعيسى الدراز أن بعض الشعراء كانوا حقيقة ينظمون وينسبون للعلمي ، ولكنه كان يقول في حقهم داعيا عليهم بالفقر والمرض والموت على غير ملة :

«اللي ايقولني شلا قلت الله إيرزقو القلا والعلا والموت من غير ملا» .

وذكر لنا الشيخ الدراز كذلك أن الطيب الواسترى حاول أن يضيف لاحدى قصائد العلمي الادريسية هذا العروبي :

ياناظر دا البيات بشعاع المقلات

اقراهم بالتبات تصطاب اكلامي

اتصيب من التقات في جيبك احلات

اتبين للدهات كالبدر السامي

مصيون عل لوشات بسيوف وحربات

مفهوم للدهات عراف انظامي

للحافظها احلات وللكاتب زهات

والسامعها ادوات

قالت افوهامي يوجب عني انقول رحمو العلمي

وعلم سيدي قدور بذلك فقال له في انكار: «واش انا شكارتي اخوات؟»

يقصد : هل خوى وفاضه حتى يحتاج لغيره يكمل له . وفي هذا مايرجح أن تكون القصيدتان المذكورتان للعلمي وليستا للواسترى كما يظن .

كذلك وجدنا بعض الاشياخ يخلطون بين قصائد العلمي وقصائد أحد معاصريه ، واسمه محمد بن الوليد التنسيطي الدرعي العلوي ، وهو من كبار الزجالين ، وقفنا على غير قليل من شعره ، ولكنا نستبعد هذا الخلط لان ابن الوليد يذكر اسمه في كل قصائده ، على عكس سيدي قدور .

الخامسة : ان العلمي لا يسمي نفسه في قصائده ، وهذه حقيقة؛ ولكنا عثرنا على قصيدتين يذكر فيهما اسمه ، الاولى قصيدة «الشافـــي» التي حربتها :

الصلا والسلام اعلى النبـــي المبرور ٭ عد ما خلق الله اميات الف مرا

فانه يقول في آخرها :

والباحث عن اسميتي بعد السولان ٭ عبد لقادر اعلام رب الفوقانــــي

والثانية قصيدة «بسم الفتاح المعبود» وحربتها :

يارســـول اللـــه غثنـــا يـــا يمـــام لرســـال

خذ بيدي واعتق حالي امن النكايــــــــــل

فانه يقول في آخرها :

وارحم نساج لقصيد العلمي

محمد الحراق

ألف عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن العربي الرباطي (1) كتابا سماه «النور اللامع البراق في ترجمة محمد الحراق» وقفنا منه على نسخة

---

(1) الدلائي المجاطي المتوفى بالدار البيضاء يوم الجمعة 15 شوال 1285هـ (1868م) ، وكان هو أيضا من الزجالين ، وقفنا من قصائده ومقطوعاته على خمس ، كلها في الصلاة والذكر ، وفي أول احدى هذه المقطوعات يقـــول مخاطبا شيخه الحراق :

مبر لغرام أساقي هيج اشواقـــي ٭ ناديت يا حراقي يا بابـــــــــــا
هاذ لمدام الباقي يروي اذواقي ٭ والوقت حين ايلاقي يا بابـــــــا
اذا شربت الراقي تزها اخلاقـــي ٭ فسبيل حل لذواق يا بابـــــــا

مخطوطة بمكتبة تطوان العامة تقع في سفر متوسط ، وهو عبارة عن مجموع يضم رسائل الحراق وتقاييده وقصائده وشروحه لبعض كلام العارفين ، جعله المؤلف على خمسة أبواب وخاتمة :

الاول : في الرسائل .

الثاني : في الحكم .

الثالث : في التقاييد على آي قرآنية وأحاديث نبوية وكلام بعض أئمة الصوفية .

الرابع : في قصائده وتواشيحه وأبياته ومقطعاته مرتباذلك بحرا بحـــرا .

الخامس : في شروحه لبعض كلام العارفين وذلك كالصلاة المشيشية والحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي وبعض كلام الششتري ونبذة من شرح الحكم العطائية .

الخاتمة : ذكر فيها بعض دعائه وقصائد مدحه بها بعض تلامذته .

ثم ان المؤلف صدر كتابه بمقدمة عرف فيها بالحراق قال فيها عنه أنه «العلامة القدوة الفهامة مصباح الظلام وحجة الاسلام شيخ الطريقة ولسان الحقيقة شريف النسبتين ومفتي المذهبين الشريف الحسني القطب الرباني أبو عبد الله ... محمد بن محمد الحراق» (1) وأنه كان «اماما جليل القدر متضلعا في علم الظاهر والباطن انتهت اليه فيه الرياسة مشاركا في فنونه من تفسير وحديث وفقهوفتوى ومعقول بجميع فنونه. واما الادب والشعر كاد ان ينفرد به في عصره قد شهد له بذلك كل من عاصره او خالطه أو وقف على كلامه (2) » .

وتحدث عن طريقته التي أخذها عن مـولاي العربـي الدرقاوي (3) فقال بأنه جعلها «بين شريعة وحقيقة حتى سهلها للسالك ونهجها فـــي

(1) ص : 1.

(2) ص : 2.

(3) أبو عبد الله محمد العربي الدرقاوي 1150 — 1239 هـ.

أوضح المسالك وأتى فيها بالعجب العجاب من علم الاشارة بألطف بيان واوجز عبارة وكشف غوامض من اشارات القوم وحل رموز ما ليس بمعلوم وأسس طريقته على أربع قواعد : ذكر ومذاكرة وعلم ومحبة (I) » وقد أخذ هـــذه الطريقة عن الحراق «خلق كثير لا يعد كثرة من طلبة العلم وأعيان الناس وأهل الاعتناء بدينهم من حاضرة فاس ونواحيها كصفرو والبهاليل وجبل كندر وقبائل الغرب وأهل الجبال والمداشر من نواحي تطوان وجم غفير من أهل تطوان . واما شفشاون فكاد أهلها كلهم ان يدخلوا في طريقته ،وانتشر مدده الى ان بلغ الى الرباط مع أنه لم يصلها بنفسه (2) » . واستمر يدعو الى طريقته «الى أن توفى ... يوم واحد وعشرين من شعبان سنة احـــدى وستين ومائتين وألف ، فتحصل إن مدة عمره ثلاث وسبعون سنة .. وفى رواية عن بعض ملازميه ان عمره خمس وسبعون سنة (3) .

وللحراق ديوان صغير (4) متداول يضم سبعة أزجال وعددا مـــن الموشحات والقصائد المعربة ، وهى فى أغلبها مقطوعات قصيرة فى حـــب الرسول عليه السلام والتغزل فى حضرته والسكر من خمرته ، أنشأها لاشك لتنشد فى مجالس الذكر وحلقاته ، على حد قوله فى ذكر الحبيب وان حبه يشفى من داء الاوهام ويضىء الوجود ويجلى ظلمة الحب :

الحب احقيق للقلب ادوا * يشفيه امن اسقامو اوهامـــو

به لوجود كلو يضـــوا * من غسق لهوا وظلامـــو

وعلى حد قوله كذلك وقد تم له الوصال مع حبيبه وأشرق نور بهائه فنسى كل شىء :

(I) المصدر السابق .

(2) ص IO وتجدر الاشارة الى أنه توجد بالرباط زاوية يطلق عليها«الزاوية الحراقية» يجتمع فيها فقراء هذه الطائفة وهم فرقة من درقاوة .

(3) ص I2 ونشير الى أن السيد التهامي الوزاني ذكر الحراق فى اماكن متفرقة من كتابه «الزاوية» (مطبعة الريف تطوان I942 ضمـــن منشورات مكتب النشر) .

(4) توجد منه طبعتان : احداهما على الحجر بفاس ، والثانية من نشر وتوزيع مكتبة المعارف بمكناس .

جـــاد اعليـا بـرضـــاه

لحبيب الـــلى حبيتـــو * زارنى وانعم لى ابلوصال

حين اشرق نـــور ابهاه

كل شى بالقهر انسيتو * يـــا هلى عقـــلى اذا شفتـــوه زال

مـــا بيـــا غـير اهـــواه

ومن قوله فى الخمر الصوفية :

اغنـــم كـــاس الـــراح * هـــاحبيـبــك زار

اســـــق او دور * انـــف الـشـــرور

طـــول الدهـــور

صـــــل الـــشراب * فـــالنكـــد غـــــاب

والخبر صـــاب

رشـــــف لـكـــواب * امـــــع لـحبـــاب

عيـن الصواب

فـــازهـــا فيـــامـــك * لـــو اتعيش انهـــار

نظرا فالحبيب تمحى كل اجرايم * والرحمن اكريم يالى نرجـــــاه

اذا مارضى مـــاتنفـــع اعزايـــم * لوبعمال الخير كلها تلقـــــــاه

أما موشحاته فمنها هاته التى يقول فى أولها :

زال عن قلبى توله الفنا * وصفـــا أمـــرى

اذ غدا لى كل ربع وطنا * وانتفـــى نكـــرى

كل ماء قد حوته شربتى * فـــأنـــا ريـــان

لست يوما أحتسـى مـــن خمرتـــى * وأنا نشـــــوان

من رآنى ثابتا فى حيرتـــــى * ظننـــى وسنـــان

وأما قصائده المعربة فأشهرها وأطولها تائيتهالتى يستهلها بهذه الابيات:

أتطلب ليلى وهى فيك تجلـــت * وتحسبها غيرا وغيرك ليســـت

فذابله فى ملة الحب ظاهـــــر * فكن فطنا فالغير عين القطيعـــة

ألم ترها القت عليك جمالهـــــا * ولو لم تقم بالذات منك اضمحلت

تقول لها ادن وهــى كلك ثم ان ٭ حبتك بوصل او همتك تدلـــــت
عزيز لقاها لا ينال وصالهـــــا ٭ سوى من يرى معنى بغير هويـة

التـهـامـى المـدغـرى المسـعـودى

أصله من امدغرة بتافيلالت كما هو واضح من اسمه ، ولكنه نشأ وعاش في مدينتي فاس ومراكش . وكان صديقا للامير سيدى محمد بـن عبـــد الرحمان وملازما له أيام الدراسة ثم حين ولاه أبوه الخلافة ، ولكنه لـــم يدرك عهد سلطنته لانه توفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف قبل أن يتولى رفيقه الامير الملك بأربع سنوات (1) .

وقد بلغت الصحبة بين التهامى المدغرى وسيدى محمد بن عبد الرحمن حدا من العلاقة جعل المولى عبد الرحمن يضيق بها ويخشى منها عليـــه أن تفت فى تربيته وسلوكه فلا يقدر على تحمل أعباء الملك بعده . ويحكى أنه سأل مرة أحد وزرائه ان كان ابنه مجدا فى دراسته فأجاب بأنه «بين الشقى والعاصى وملذ المعاصى» يقصد بالشقى مولاى السعيد وبالعاصى أخاه مولاى المطيع وبملذ المعاصى صديقه التهامى المدغرى ؛ ويروى تكملة لهذه الحكاية أن المدغرى علم بها فاغتنم مرة كان فى حضرة السلطان وحـــاول بلباقة أن يجعله يثير الموضوع ليرد عليه ويصحح ما وصفه به الوزير فقال : «بل أنا ملذ المعانى يا مولاى» .

وتتجلى هذه العلاقة واضحة فى غير قليل من القصائد قالها المدغـرى فى صديقه الامير ، منها قصيدة «غزيل» التى يقول فى حربتها :

دام الله اجمال صورتك ياشادى ٭ انت اعنايتى وامــــــــــرادى
اغزيل يا سالب من جا ايصيدو ٭ زنجار فى عين حاسدى سيدى محمد

---

(1) فى «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» لابن زيـــدان (ج 3 ص 575) أنه توفى بفاس ضحوة يوم الاحد 21 محرم 1273 ؛ وقد ذكر لنا الاستاذ عبد السلام بن سودة أنه سجل فى وفياته المسماة «اتحاف المطالع» أن المدغرى توفى سنة 1271 .

ولم يكن المدغرى ينظم في الزجل فقط ، وانما كان ينظم في الشعر المعرب كذلك . قال عنه المشرفى في «الحسام» مبرزا مكانته عند الامير ومدى ذيوع شعره : «هو الشاعر المفلق الحائز لفصاحة المغرب والمشرق ، ملحونه من الهموم يبرى ، وموزونه على أبحر الخليل يجرى هو والله واسطة عقد الدهر في صناعة الشعر الملحون والموزون ، كان بهما يسلي قلب المحزون ، شاعر تاج الدولة العلوية المنسوب اليه والمشهور به لانه الذى جذب بضبعه ورفع من قدره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار شعره فيه سير الشمس والقمر وطار كلامه بالملحون فى البدو والحضر وكادت الليالى تنشده والايام تحفظه «I» .

ثم ذكر له من شعره المعرب قصيدتين طويلتين (2) في صديقه الامير :

الاولى قالها حين ختم جامع البخارى ، مطلعها :

حديثى غريب عن تواتر لوعتى ✻ وأمرى عجيب عن غرامى بميتتى
روته عدول عن تلاق وسجلت ✻ سجولا بأخدود الخدود وأدت
وأثبت قاضى الوجد رقى بجيرتى ✻ وقد كان رقى ما نويت بهجرتى

وفيها يقول متحدثا عن البخارى :

تراجمه كأنما النخل أينعت ✻ قلائدها لم ازدهت وتدلت
وأحكامه الوقادة التبر أحكمت ✻ يداها لعمرى منتقى كل حكمة
الا فاضربوا أكبادكم لصحيحه ✻ وجدوا كما جدت مطى الاعنة

والثانية أنشأها بمناسبة ختمه كتاب اقليدس (3) سنة I27I ، يقول فى أولها متحدثا عن الهندسة :

برزت على قدر لنا أشكالها ✻ من خدرها فى طيها أشكالها

(I) ص 380 ـ 38I (المصورة I207)
(2) الاولى واردة فى ص 38I ـ 382 ـ 383 (المصورة) والثانية فى ص 271 272 ـ 273 من المخطوطة ك 2276
(3) وهى واردة كذلك فى «اتحاف أعلام الناس» (ج 3 ص 575 ـ 576)

وحكت مقالتها المقادر بعدمـــــا * صحت نتائجها وصح مقالهـــــا

أشكالها تحكى قباب محلـــــة * تحت الخليفة خيلها ورجالهـــــا

أوخلتها شجرا صغيرا مثمـــــرا * فاجن الثمار ولو أبت عدالهـــــا

أو خلتها خيلا بدت عربيـــــة * بربـاطها قبل العدا أبطالهـــــا

ما شئت من قوس رنت أوتارهـــا * ترمى البغاة سهامها ونصالهـــــا

رنت وأنت فـــى فنا أفكارهـــا * وحمت مناشرها الحما ونضالهـــا

الى أن يـــقـــول :

فانظر لهندسة تلاشى حصنهـــا * لولا الخليفة ما بدت أضلالهـــا

لولا الخليفة بثها فى غربنـــا * غربت ضعيفة شمسها وخيالهـــا

وعلى هذا النحو يستمر فى ابراز ولع الخليفة بالهندسة واحيائه لها ولعل شهرة المدغرى فى الزجل طغت حتى غطت على ما سواه ، وهى شهرة لم يدركها غيره حيث كان يعتبر شاعر المرأة والخمر الاول ، ليس فى هذه الفترة فحسب وانما فى كل فترات الزجل ، ويعتبر بالتالى أكثر الشعراء قبولا لدى الجماهير ، وهى ظاهرة جعلت كثيرا من قصائده يصل الينا سواء عن طريق الرواية أو التدوين ، على أنه من المؤكد أن بعض شعره قد ضاع أو اختلط مع شعر غيره لانه لم يكن يذكر اسمه فى قصائده . وقد سبق أن رأينا (1) فى سبب ذلك أن صديقه الامير كان ينظم الزجل كذلك وكـان لا يريد أن يعرف ذلك عنه ، ولعله كان يخشى من والـده ، فاتفقـا على ان ينظما القصائد دون ذكر الاسم على غير عادة الزجالين حتى تنسب كلهـا للمدغرى ، وهذا ما يجعلنا فى ريب من أمر غير قليل من شعره ، فليس من شك فى أن بعضه من انتاج سيدى محمد بن عبد الرحمن ؛ فقد ورد أنه «برع فى نظم الازجال وفاق ، يأتى بالتخييلات العجيبة والتشبيهات البديعة والنوادر» (2) وقد تنبه بعض الاشياخ لذلك وحاولوا تحديد بعض هـــذا

---

(1) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من باب «الشكل» .

(2) الاتحاف ج 3 ص 368

الانتاج ، فذكروا منه قصيدة «عزبا وشابا» (I) فانهم لا يرونها للمدغرى — وان نسبت اليه — ويقولون ان سيدى محمد بن عبد الرحمن نظمها على اثر زيارته لاضرحة فاس عشية يوم جمعة وكان قد شاهد فى طريقه بزقاق الحجر فتاتين تطلان من شباك . وهذه القصيدة تقول حربتها :

أنا عشيت الجمعا شاب أشبابى ※ هلكتنــى عزبــا وشابــا

مــن شاهدهــم يسخــا بشبابــو

ومثلها قصيدة «الــزهــو» التى يكاد يجمع الحفاظ على أنها لسيدى محمد وليست للسى التهامى ،وهى التى أولها :

الزهــو فــى طبــلا حســن ※ لــبــرارد زوج وكـيـســان

لـونـهــم يـهــوانــى ※ احكيتهــم حــرجــت بلعمــان

ولسنا فى حاجة الى الكشف فى هذا الفصل عن شعر المدغرى ، فقد بسطنا عنهالقول فى باب الموضوعات ولا سيما ما يتصل منها بالمرأة والخمر، ولكنا — اتماما لذلك — نضيف بعض الجوانب عساها تكمل التعرف اليه .

أولا : كان المدغرى ولوعا بقافية الحاء الى درجة لقب بــ «حياح الحا» ويحكى أنه سئل عن ذلك فأجاب بأن هذا الحرف يجسم كل أحوال الانسان وأنه . قاسم مشترك بين المتعة والالم لان الانسان اذا ارتاح أو التذ قال : «أح» واذا تألم أو تعذب قال «أح» كذلك ؛ والامثلة على ذلك أكثر مــن أن تعرض ، فجل قصائده على هذه القافية ؛ ونكتفى بالاشارة الى قصيدتين : الاولى «فارحا» ، وفى حربتها يــقــول :

دسنى تحت لخــلال بيــن ادروعــك لـــلاح

واللبـــا والـــدواح وانهــداتـــك تفاحـــا

خفت ايشوفونى ايجرحونى يا فارحا

الثانية «رابحة» وفى حربتها يقول :

(I) وتسمى كذلك : «عشية الجمعة» .

زيـــن الـــدواح عطفــــى يالغــزال رابحـــا

يا عيـــن الدامـــى السارح أطـاوس فادواح

يا بدر اضوا ابكوكب اوضيح

وقد دفعه ولعه بهذا الحرف الى أن يتخذ منه قوافي داخلية ، كما هو واضح في الحربتين ، بل ان هذا الولع جعله يقع في عيب من عيـــــوب القافية (1) ، وهو ألا يكون حرفها موحيا بالموضوع ، ويتبين لنا ذلك مـــن قصيدته «زينب» التي يقول في حربتها :

زيـنـب كـنـزى واربـاحـــى * زيـنـب للقلـــب اصـلاحـــى

زينـب زهـوى وافـراحــــى * زيـنـب للسعـد افـــراحـــى

فقد كان لازما ، حتى تسلم القافية من هذا العيب ، أن تكون على حرف الباء ، ولكنه أتى بها حائية . ومثلها كذلك قصيدة «طامو» التي يقول فـي حربتهـــا :

نصرو رايت لكفاح بو وجنات الوضـاحـــا

والشاما والخـال والشفر والغنـج الدبـاح

طامـو يـا قـوت الـروح

فهي على حرف الحاء ، وكان يجب أن تكون على قافية الميم .

ثانيا : سبق (2) المدغرى الى «النشب» (3) وهو استهلال البيـــت بكلمة أو شطر من البيت السابق عليه ، ويتمثل في قصيدته «فارحا» على حد ما يقول في القسم الثاني منها :

رفـــدى يـــاللا الطايــــــح * بهـواك اعيـــا ابقـولـــت أح

مـا بيـــن الهيـض والنـــواح * سرو بيـن لحســود بايـــــح

كـــدامـــك يـالمـالحـــــا

سرو بين لحسود بايـــــح * يا كنز الكنـــز والربــــاح

---

(1) انظر الجزء الخاص بالقافية من آخر فصل في الباب الاول (قوافـــي صيـــاديـــة)

(2) على ما نعلـــم .

(3) انظر الجزء الثاني من فصل «اللغة والفنية» بالباب الاول .

ياروح الروح والنجـــــاح * يا دامى فالفجوج سايـــح

بيـــن ازهـــارو اللامـــحـــا

يـــا دامـــى فالفجوج سايـــح * كمـــن مغـــروم بـــك ســـاح

حس الخلخال به صــــاح * صاح الخلخـــال والـــدواوح

فـــى تحيـــاح لمكـــابحـــا

صـــاح الخلخـــال والـــدواوح * مـــن حسو مـــا يـــلى انجـــاح

مـــا ريت الغـــاه فاتبـــاح * فالليـــل ايهيـــج اللوافـــح

وســـط المهجـــا الـــلافـــحـــا

فالليـــل ايهيـــج اللوافـــح * ما يقبل فالهوى الحـــــاح

رحمـــى يـــا رايس لـــلاح * رحمـــة اللـــه الـــذى ايصافـــح

ويـــدارى بـــالمصـــافـــحـــا

ثـالـثـا : كان المدغرى بارعا فى نظم السرارب ، ويحفظ الاشياخ منها سرابة يعتبرونها من أروع ما نظم فى هذا الفن ، يقول فى أولها :

أنا اللى ابلغرام قلبى مجـــروح * ولهوا منو فانى ما جبرت راحـــا

آش اعمالى انبات مجروح انـــوح * طول داجى وادموع انواجلى سياحا

من فلكد اللى اهويت نعت الدبدوح * ياترى تعطف لى واتجود بالسماحا

رابـعـا : يظن الكثيرون أن المدغرى لا ينظـــم الا فـــى الغـــزل والخمريات ، ولكنا وقفنا على بعض قصائده فـــى غـــير هذين الموضوعيـــن ، نذكر منهـــا :

1 ـ قصيدة «ربيع النبوى» نظمها فى ذكرى مولد النبى عليه السلام ، يقول فى حربتهـــا :

لله الحمد جاد من هو فتاح * فاتـــح البيان ابمفتاحـــو

مفتاح الخير والرضا والرحما الفتاحا

2 ـ قصيدة فى مدح «العرصة الشريفة» يقول فى حربتها :

ابهـــاك اشهـــد لجباحـــك * صفى امصفيا واصفيا من برهمن

شهـــدا مـــن طيب امصالـــك * شهدا امصفيا من نسبا قرشيـــا

3 ـ قصيدة فى مدح الاشراف ، يقول فى حربتها :

غارا مولاى ادريس بن ادريس أمفتاح الغرب والشريف الفيلالى

سيدى مولاى على الشريف الينبوع خصال

وقد استطاع المدغرى بهذا وغيره أن يشغل عصره ويغطى على كثير من **الاشياخ الذين عاصروه** ، نذكر منهم :

1 ـ ابن ابراهيم : وهو من مراكش ، وقد اشتهر بقصيدة «مباركة» التى يقال انه رمز بها لمكة المكرمة ، وفى حربتها يقول :

حرمت نعم لغنى المالك * ديرى ياللا امعاك

شرع المولى ايلا اهداك

نستحسن فى ابها اجمالك * أمولاتى امباركا

2 ـ الفقيه ابن الفاطمى المراكشى : ذكر لنا الشيخ محمد بن عمر المراكشى أنه كان صاحب كتاب قرآنى بحى ازبزط بمراكش . وقفنا من زجله على قصيدتى «الرياض» و «الجافى» .

3 ـ الرجراجى : وقفنا على غير قليل من قصائده .

4 ـ الحاج عبد الفضيل المرنيسى المكناسى : وقفنا له على قصائد «جمهور الخودات» و «المحبوب» و «الفصادة» ، وكان تلميذا للنجار على حد ما يصرح به فى القصيدة الاولى حيث يقول :

واسمى معروف الحاج عبد الفضيل المرنيسى الا اخفات اخبارو

الذكى تلميذ النجار

5 ـ علال الكحيلى المراكشى : يقال انه كان شيخ الاشياخ فى مراكش، **له** قصيدة «زهور»

6 ـ محمد الحبابى الفيلالى : اشتهر بقصيدتى «مباركة» و «خناثة» .

7 ـ محمد الشاوى : من أشياخ فاس ، وقفنا من قصائده على «الحراز» و «صارم الطعن» و «عيشا» و «الوصاية» وقصيدة خامسة فى الهجاء .

8 ـ الطاهر فعيس : لعله من مراكش ، لم نقف من شعره على شىء.

9 ـ الجيار : ولعله من مدينة الرباط .

10 ـ الفقيه القريعى .

11 ـ أحمد امريفق المراكشي : ذكره الادريسي في «كشف الغطا» فقال انه كان شيخ الاشياخ (1) له «زينب» و «راضية» و «وآمنة» . ذكر لنا بعض الحفاظ أنه كان من العلماء وأن له قصيدة «الخادم والحرة» وقصيدة «بستان الفكر» يقول في حربتها :

دير الوجهك امرايا شف صنعت الله

12 ـ أحمد ابجيوات : وقفنا من زجله على قصيدتين : «عرصة الرضا» و «فاطمة» .

13 ـ أحمد بن علي الغنيمي : ترجم له محمد الكانوني في «جواهر الكمال في تراجم الرجال» ـ وهو القسم الثاني من «تاريخ أسفي وما اليه ـ » فذكر أنه «كان أستاذا حافظا للقراءات السبع عارفا بأحكامها معروف الصلاح مشهور الاحوال من رجال الفضل والدين والسماحة ، له قصائد ملحونة (أزجال) منها ما هو في المدح النبوي ، ومنها ما هو في أحوال الزمان الحاضرة والمستقبلة ... توفي حوالي سنة 1290 ودفن بمقبرة أسلافه» (2)

أحمد الكندوز

من كبار أشياخ الزجل ، وهو من الرباط ولكنه انتقل الى فاس حيث أقام مدة طويلة . كان يعيش في عهد السلطان مولاي عبد الرحمن وابنه سيدي محمد أي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ويثبت لنا ذلك أن له قصيدة يرثي بها مولاي عبد الرحمن ، وهي التي يقول في حربتها:

الله ايعظم اجرنا واجركم يالاسلام فالشريف العلوى
ينبوع الحلم وعلم نعم مولاى عبد الرحمن

وقد امتدت به الحياة حتى أوائل القرن الرابع عشر حيث عاصر الغرابلي والتركماني على حد ما يثبت هجاء هذا الاخير لهما في أواخر قصيدته «الداعي» حيث يقول :

والشيخ الكّندوز اخرج فعراضي نحسبو اعقيل واموب ذوقي صارمو اصغير
واحمد لغرابلي افشر لين منو سمعت لعراض او قالوا

وقد شرح لنا الشيخ محمد بن عمر سر هذا الهجاء فذهب الى أن

---

(1) ص 113

(2) ص 25 ـ 26 (المطبعة العربية ـ الدار البيضاء) .

الغرابلي حين خاطب التركماني بقصيدته التي حربتها :

يالداعي بالعرف اصغ الهل العلم افما قالـــوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفي مولاهـــا

لم يصرح باسمه فيها أول الامر وشيع أنها للكندوز ، ولكن التركماني عرف أنها للغرابلي فجمعهما في الهجاء . ولـــم يضف الغرابلي اسمــــه الى القصيدة الا بعد أن كشف الامر . وقد علل الشيخ ابن عمر محاولة التستر هذه باحساس الغرابلي بالضعف والخوف من الشيخ المدني .

ويحكي الاشياخ أنه قيل مرة للكندوز : «انك تنكر فضل ابن علي ، ولو كان حيا لما جرؤت على ذلك» فقال ينصفه :

قالوا تنجحد ابن علي وشهدو بعقود الزور

ونا لو جبرت الزاد كل يوم انجدد لزارو

واجب لو يزار .

وربما كان في هذا ما يدل على أنه أدرك ابن علي العمراني وتلمذ عليه.

وقد اشتهر الكندوز في فنين :

أولـهـمـا : التضمين والتجنيس .

فقد كـان أبرع الشعراء في استخدامهما حتـى قيل عنه أنـه «رايس التضمين والتجنيس» . أما التضمين ـ وهو جعل القافية على أكثر مـــن حرف ـ فيظهر في قصيدته «غاسق لنجال»وهذه حربتها :

أيا غاسق لنجال عذبتني بالتيه يا شملالي

زر رسمي يا مول الخال كم لي نرجا لوصال

يقول في أول القسم الثاني منها :

احكم ابتيهانك يالخليل

لكن بعد التيهان جد واعطف

قلبي امعاك نخطف

نبغي ابهاك نقطف

نقطف من الورد الناسم

وانقبل الجبين الواسم

وانقول يا رفيع الاسم

لنا اسمايتك احجاب

ويظهر كذلك في قصيدته «البتول» التي حررتها :

كبل يا رقاص للرضا واحتال * لوصـــول بـوشفـر قتـــــال

لـــــــرواح تـــــــال * حســن ابهاهـا لالا البتـــول

وأما التجنيس فيتبين من قوله في القسم الاول من «غاسق لنجال» :

بجفاك عمدا لى عدت انحيل

ما شفك تعذابي اولا امحاني

سيف لجفا امحاني

لعباد لامحاني

فامحاني الاولى جمع محنة والثانية من المحو والثالثة من اللمح (I) .

الـثـانـــي : ذكر احمادشة .

وهي قصائد نظمها لينشدها «حمادشة» في حلقات ذكرهم ، ويطلق عليها «الدراع» ويحكي الاشياخ في تعليل هذه التسمية أن الكندوز لم يكن يعتقد في الطائفة الحمدوشية أو غيرها من الطوائف الطرقية ، ولكن كان له ولد ينتمي لهذه الطائفة ورآه يوما يمر في استعراض الطوائف في حالة حماس وجذب فأخرجه من الصف وحاول منعه من الاستمرار في هـــــذا الاستعراض ، ولكن الولد استطاع أن يفلت من أبيه ويعود الى ماكان فيه . أما أبوه فأصيب للحين في ذراعه التي ظلت مريضة منتفخة نتنة من القيح الى درجة أنه اضطر — لشدة الرائحة الكريهة التي كانت تصدر منها - الى ان يعتزل الناس في غرفة عالية . وذات ليلة صعد اليه في الغرفة مؤذن جامع الحي — وكان حمدوشيا — وضربه على ذراعه فكان في هذه الضربة شفاءه ؛ ومنذ ذلك الحين تراجع عن رأيه بالنسبة لهذه الطائفة وبدأ ينظم القصائـــد للحمدوشيين . والاسف انا لم نوفق في الوقوف على نماذج من هذه القصائد.

محـمـد المـوقـت

من أشياخ مراكش ، ولعله والد المؤرخ ابن الموقت صاحب «السعادة

(I) انظر الجزء الاخير من الفصل الثاني من باب «الشكل» .

الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» . ويبدو أنه كان معاصرا للعميري حيث وجدنا في الكناش الذي وردت فيه زازيته المعروفة بـ «الساهي» تعليقا على هامش الحربة كتب فيه : «على قصيدة الموقت» (1) كأنها قيلت في معارضتها أو الرد عليها . أما الحربة فيقول فيها العميري :

اشروط عل لنقلاب بشرا امقلزا * أوجوه اصلاب ولقلوب افتكرين وجيا انزا
والمسكين بين لشواق كيتحزا

وقد اشتهر الموقت بجفرياته، وخاصة قصيدته «الزازية» التي يقول في حربتها :

أسايلني انفيدك ابكافر باريز * استفد أكن عايق واتبع الغرزا

وله كذلك من الجفريات عروبي مشهور تحدث فيه عن الواقع المؤلم الذي أصبحت عليه الاحوال ، يقول في أوله :

سبحان الله صيفنا ولى شتوا * وارجع فصل الربيع فالبلدان اخريف

مولاي علي بن أحمد شقور الحسني العلمي

ذكر لنا السيد هاشم السفياني الشاوني أنه ولد بالشاون «شفشاون» سنة ثمانية وعشرين ومائتين وألف وانه توفي بها سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف حيث دفن بزاوية تعرف باسمه لازال أتباعه يقيمون بها حلقات ذكر كل يوم جمعه . وذكر لنا كذلك أنه كان نساجا ويمارس الفلاحة والبيطرة في نفس الوقت وأنه كان ولوعا بالطرب يعزف على آلة الكمبري . وحين زار السلطان مولاي الحسن الاول مدينة الشاون سنة سبع وثلاثمائة وألف أعجب بالشيخ شقور فاستضافه مع عشرة من رفاقه المطربين مدة تسعة أيام في قصره بفاس ، وأهداه وصيفا وكسوة وبغلا وخمسمائة ريال وأخرج له مردود «قاعة» (2) الشاون ، كما أهدى كسوة لكل من رفاقه . وكان الشيخ شقور يطعم من هذا المردود فقراء المدينة كل سبت حيث يقدم لهم الخبز «والبيصارة»(3) بالزيت .

(1) انظر الكناش المخطوط بخزانة الرباط العامة رقم : 165 ق صفحة 509
(2) السوق الخاصة يبيع السمن والعسل والزيت .
(3) شربة الفول ، وينطقها أهل الشمال بفتح الباء.

ويعتبر مولاى على شقور من كبار أشياخ الزجل فى الشاون ، وقد ترك وردا لاتباعه وديوانا صغيرا يضم أربع عشرة قصيدة ومقطوعة معظمها فى الذكر والشوق لحضرة الرسول عليه السلام والسكر من خمرته . وقد تفضل السيد السفيانى فانتسخه لنا عن مخطوطة لديه . ومازال أتباعه فى الزاوية ينشدون هذه القصائد ويذكرون بذلك الورد .

يقول فى احدى مقطوعاته :

بسم لكريم نظرا فيكم * وهو الحاكم فيكم
سبحان امن اتجلى فيكم * كريم الا ايـنوم
لا تصحب من لا ايدوم * لابدا ايغر بك النوم
يا وافى كل مظنون * يا معاهد لفنون
ما بين الكاف والنون * اذا يقول كن ايكون
لا الاه الا الله * لا الاه الا الله
والله بالله يا لله * ما يكون غير ماكون الله

ويحفظ أشياخ الشاون قصيدة فى مدح مولاى على شقور من نظم محمد العملى ولد زيطانة ، يقول منها فى نفس جفرى :

مولاى احمد اعلا امقامو * اهدى اهديا امن امكانو
امحابق من اشغلنا * موكا ولات ابلقفاطن
هل الضلعا اتغبنو * فالصولا ارجعنا اللحراطن

كذلك يحفظون فى مدحه قصيدة معربة لعبد الهادى الصقلى ، يقول فيها :

وتحية أنسية قدسية * تهدى مع الرضوان فى المنشور
لفريد هذا العصر قطب زمانه * ووحيده بالمنصب المشهور
بحر المعارف والعوالم شمسها * من أشرقت أسراره كالنور
ذاك الولى الواصل الفرد الذى * حاز العلا مولى على شقور

شاعرتان من شفشاون

أخبرنا عنهما صديقنا الدكتور عبد السلام الهراس :

الاولى : الشاعرة التوردانية

وهى ابنة الفقيه التورداني (I) الشفشاوني ، كانت تعيش أيام سيدى محمد بن عبد الرحمن وعمرت حتى أدركت عهد الحسن الاول ، وكانت تنظم الشعر ملحونا ومعربا ، وكانت متزوجة بالسيد أحمد بوجنة . ومن أبياتها فى مدح امرأة ريسونية اسمها العزيزة بنت أحمد ، وكانت جميلة وغنية :

للا لعزيزا يابنت احمد * يابنت الجاه العالى

الثانية : الشاعرة الورديغية

من اسرة الورديغى ، ومما يحفظ لها قصيدة فى مدح سيدى محمد بن الحسن الريسوني المتوفى سنة II3I هـ تقول فيها :

القطب لهمام * شافتو عينى افلمنام
لابس لحرير * دايرتو خضرا

أحمد بن على الدكالى السلاوى

ترجمه والدنا حفظه الله فى الجزء الاول من كتابه : «أعلام الفكر المغربى المعاصر فى العدوتين : الرباط وسلا» فقال انه : «كان ذا زهد وورع وتعفف مع أدب وفكاهة، يحسن علم التوحيد ويتقن التلاوة ، وله معرفة بالملحون على اصطلاح أهله .. وهو جد المؤرخ الكبير أبى عبد الله محمد بن على الدكالى .. أخذ عن جماعة كالعلامة العربى أحضرى والعالم أبى عبد الله ، وكان أديبا متقنا ، توفى عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف» (2) .

وأخبرنا الشيخ بنعيسى الدراز أن ابن على كان من كبار زجالى عصره وأنه كان من جلساء السلطان الحسن الاول وأنه اشتهر بقصيدته «زينت الغبا» التى يقول فى حربتها :

يا زينت الغبا حزت من لغزال الركبا
يا توكت الركابا نسل لقراهب
زينك ورانا اعجايب واستولى ابلحكام عل لقلوب .

(I) اندثرت هذه العائلة من شفشاون . (2) مخطوط المؤلف ، ص 5I .

الحاج ادريس بن علي السناني لحنش

أكبر شعراء الزجل بعد التهامي المدغري ، كان ينظم فى كل الموضوعات فيجيد على ما يبدو من النماذج المتعددة التى مثلنا بها من قصائده فى «باب الموضوعات» ؛ وأغلب شعره محفوظ . وهو من العلماء المؤلفين ، له رسالة بعنوان «المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروضة المنادمة والايناس فى لطف محاسن وادى فاس (I) ، وله كذلك ديوان من الشعر المعرب أسمـــــاه «الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح (2)» نقتطف منه قوله في مدح آل البيت: (3)

بربك هل تحت ظل السمــــاء * أناس كأنجمها فى السنـــــاء
وأبهى من الشمس وقت الضحى * ومن دارة البدر حال الضيــــاء
سوى آل فاطمة اذ لهــــــم * لباب المعـــالى وكنـــه العـــلاء
فمن مثلهم فى الورى «منصبـــا» * أما قدرهم والسما ذو استـــواء
وان شئت قل قدرهم فوقهـــا * تكن قد أصبت مرامى السمـــاء

(I) تقع فى ثمانى صفحات مطبوعة على الحجر بفاس .

(2) فرغ من جمعه سنة I3I6 هـ ، عدد صفحاته ثمانية عشرة وأربعمائة تضم احدى عشرة وثلاثمائة مقطوعة وقصيدة مرتبة على حروف المعجم . توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقمها ك 1678 ، وهى بخط ابنه محمد المرضى السنانى ، انتهى من نسخها سنة I327 . كذلك أورد له ابنه المذكور مقتطفات من شعره فى كتابه «الشذرات» المسمى «التقاط الفوائد وغرر العوائد» وهو مطبوع فى جزءين بمطبعـــة بوشنتوف فى الدار البيضاء (ص 28 من الجزء الاول وص 39 — I43 — I56 — I63 — I64 من الجزء الثانى) وقد وردت له أيضا قصيدة تقريظية بآخر كتاب «الابتهاج بنور السراج» وهو شرح للسيد أحمد بن المأمون البلغيثى على منظومة سيدى العربى بن عبد الله المسارى (ص 228 — مطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر سنة I3I9 هـ) والقصيدة موجودة بالديوان كذلك من ص 225 الى 229 وهذا أولها :

شرحت سعاد صدورنا بمزار * فبدت محاسنها بلا أستـــــار

(3) ص : (I0) .

وقوله متوسلا الى الله (1) :

يارب عاملنا بعطف شامـــل * بصباحه ليـل المكـاره يدمـغ
يا رب ألبسنا لباس سلامـة * من حفظك الكافي علينا يسبغ
يا رب هب أمنا لنا ووقايـة * ننجو بها وحمى أمانك تبلـغ
انا تشفعنا بأعظم شافـع * قد فاز وجه فـي حماه يمـرغ

وقوله متغزلا (2) :

يا رب سائلة الاطراف غانيـة * مليحة من ذوات المجد والحسب
غزالة قد غزا الاكباد ناظرهـا * بصارم سل قصد الفتك والعطب
تختال كالرمح أو كالغصن قامتها * تلفعت بلباس الحسـن والادب
. . . .
جاءت تميل بكاس الراح قائلـة * أجب لكأسك يا ادريس واقترب
فأطربت بلذيذ اللفظ واحتجبت * فغاب عقلي لـا قـد نلت مـن طرب

حكى لنا بعض الاشياخ انه كانت للحاج ادريس مساجلة مع شيخ سلا عبد الرحمن بن حمدوش أثناء زيارته لفاس حيث استضافه جماعة مـن الاشياخ كان من بينهم الحاج ادريس ، وهو الذى «قام» (3) الاتاى ، ولكنه حين وزع الكؤوس مد للضيف كأس «التشليلـة» (4) فسكت ابـن حمدوش ووضع الكأس بجانبه ونظم قصيدته التى حربتها :

مـن دق الباب * ما يليه غير اجوابو * غربه من جابـو
مـن ضرتو الضرسا جـا الكلابـو

ويقال ان كل الاشياخ ردوا عليه وان الحاج ادريس برز في رده الذى ضمنه القصيدة التى حربتها :

قصر لعنان يالي غرتو نفسو وطول السانو
وابغى ايكون شيخ ابقوة لغنان

كانت وفاته سنة تسع عشرة وثلاثمائة وألف .

---

(1) ص : 372 (2) ص : 48
(3) قام الاتاى : هيأه (الاتاى : الشاى)
(4) تطلق التشليلة على الماء القليل الذى ينظف به البراد بعد أن توضع فيه حبوب الشاى . وقد جرت العادة أن يصب فى كأس تبقى فـي الصينية ، وكثيرا ما تختلط بكؤوس الشاى لاتخاذها نفس اللون .

أحمد بن عاشر بن محمد الحداد الرباطي

ترجم له عباس بن ابراهيم المراكشي في الجزء الثاني من «الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام (I) » فنقل ما كتب عنه الحاج عبد العزيز بك المصري في رسالته المسماة «مختطفات الشوق من مقتطفات الذوق» (2)، حيث قال : «اجتمعت بشيخ ذاكر مذاكر مغربي الجنس والمقام وأدبي الخلـــق والكلام يقال له الشيخ أحمد الحداد بن عاشر صحبته رضي الله عنه أياما بعد رجعته من الحج والزيارة فوجدت في ظاهر أحواله على عمارة باطنه أكبـــر اشارة ووقع بيني وبينه من المحبة والالفة ما أهلني لاخذ أوراده جميعها من غير كلفة ، وقد كفاني في فضله ما رأيت له من الاوراد والصلوات الالهامية مع ما هو عليه من الامية والعامية كما اني استدللت مما يظهر عليه من الوجد والهيام الذي ينجذب له كل من رآه من الانام ان الشيخ رضي الله عنه خارج من حضيض أراضي الطبائع والعادات عارج في أوج السعداء والسادات (3)»

وذكر ابن ابراهيم أنه وقف له على مجموع أحزابه ويسمى «مجموع الاحزاب وتيقظ أولي الالباب ومفتاح الابواب لمن أراد القرب من رب الارباب» وقال انه سكن مدة أربعة أعوام مدينة مراكش حيث قال متوسلا برجالهـــا السبعة قصيدته التي حربتها :

أهل البهجا الحمرا اسيوفكم بطار ٭ مال سيفي ما بين اسيوفكم قاصر

وفي دخولهـــا يـقـــول :

أهـــل لحما فحماكـــم زايكت اوزار ٭ واش ماعار اعليكم سربت لغنادر

أليـــوت الخضرا يا باهيين لسرار ٭ بالنبي نتشفع خير لورى الطاهر

أنجوم اضياها ويا سحوب لطار ٭ للذي أرضو عطشانا ابشوم قاهر

ثم ذكر أنه توفي في تاسع ربيع الثاني عام ست وعشرين وثلاثمائة وألـــــف .

(I) الترجمة I29 من صفحة 27I الى 276 (الطبعة الاولى ـ المطبعة الجديدة ـ فـــــــاس)

(2) مطبوعة مع الحزب الاعظم للقاري شارح الشفا سنة I300

(3) ص : 272

كذلك ترجمه والدنا حفظه الله فى الجزء الاول من «أعلام الفكر المغربى المعاصر بالعدوتين : الرباط وسلا (I) »حيث ذكر أنه دفن بالزاوية الحراقية بدرب الزهراء فى الرباط .

محمد بوزيان

من كبار أشياخ فاس فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجرى ، اشتهر باستعمال نشب الكلمة على حد ما تثبت قصيدته «المحبوب» التى يقول فى أولها :

محبوب خاطرى من فكدو عمدالى ٭ عمدالى والنوم ضاجر من لنجال
لنحال على الخد دمعها سلسالى ٭ سلسالى تهواكما لمطر هطال
هطال من افرق الـلى زاد اهبالى ٭ اهبالى من فكد من اهويت اغزال
اغزال افلبها غيرو ما يحـلالى ٭ يحلالى وصلو ايلا انعم ابلوصال

الحاج أحمد الغرابلى

من فاس ومن كبار أشياخ هذه الفترة ، كان يشتغل بالدرازة ثم تركها للاشتغال بكتابة الحروز والتمائم . كان بارعا فى «التضمين» كما يتضح من قصيدته «ملكة» التى يقول فى القسم الثالث منها وقد ضمن القافية حرفى الدال والكاف :

ايلا اوفا ميعادك
روحى انهب لفداك
ننكى اعداى واعداك
نبغى اتودنى من ودك
وازيارتى اجعلها وردك
حتى احبيب مالى بعدك
يامن اقوام قدك

(I) من صفحة 9 الى I3 (مخطوطة المؤلف)

مرهاف اصقيل هازم اعدوك

ويحد من ايحدوك

اضفاير اسوالف بالطيب انسيمها ادكا

تسبى عقل اللى ايشاهدك

واترصع لدرار دى اتناسب ديكا

كذلك كان بارعا فى نشب الكلمتين على حد ما تثبت هذه الاشطار من قصيدته «عين الرحمة» :

أعين الرحما الراحما يا قرت لنيام

يا قرت لنيام جد لى يا بحر التعظيم

يا بحر التعظيم والفضل يا عين الرحما

وقد كانت له مع معاصره ابن ريسون منافسة شديدة تجلت فى خصومتهما التى سبق أن ذكرناها (1) والتى تدخل هاشم السعدانى (2) لا صلاحها بقصيدته التى يقول فى حربتها :

الصلاة اعلى الماحى سيد كل ما فالحى ادرج * لفضل طه وازواجـــــر

زيـــن الـفـلـجـــــا

وكانت له أيضا مع احمد المدنى التركمانى المراكشى (3) مساجلـــة مشهورة دارت حول الايمان والعمل سبق أن ذكرناها (4) ، قال فيها شاعر مراكش قصيدته التى حربتها :

اللايم خـلى لعباد كل واحـــد فـــى حالـــو

الشهادا بالله وبالرسول تكفى مولاهـــــا

---

(1) الفصل الثالث من باب «الموضوعات» لدى الحديث عن الهجاء

(2) من كبار أشياخ هذه الفترة ، يقال أنه كان يتاجر فى البلغة بسوق السباط فى العطارين ، وكان له كناش بالدكان يدون فيه قصائده . ووقع مرة حريق فى السوق فأحرق الدكان والكناش . وقد نقل عنه أنه قال بأنه لا يستطيع من حفظه أن يعيد كتابته ، وبهذا ضاع غـير قليل من انتاجه . وقد اشتهر بقصيدته «دخول وجدة» التى يقول فى حربتها:
يالاسلام ابكوا اعلى ادخول وجدا * دون حرب اغنمها لعدو ونال لمراد

(3) كان درازا بحى أبى صالح بمراكش

(4) الفصل الثالث من باب الموضوعات

وقال فيها شاعر فاس قصيدته التى حربتها :

ألداعى بالجهل اصغ الهل العلم وما قالـــوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفى مولاهـــا

وزد التركمانى بقصيدته التى يقول فى حربتها :

ألداعى شهد والشهادا بالله وبالرسول تكفى

واكفات وكافيا وخير فالدنيا ولاخرا اكثـــر

والمومن نيتو افضل من اعمالو

ومن القصائد التى اشتهر بها الغرابلى قصيدته «لطف الله الخافى» التى يقول فى حربتها :

يــا لطــف اللــه الخـــافـــــى * الطف بنا فما اجرات به القدرا

وقصيدته «مــلــكــة» التى يقول فى حربتها :

أرايت لملكا يا مولاتى المالكـــا * لك العبد وكل ما ملـــــــــك

نصرو ملكا احمايت الملـــك

وقصيدة «المرسول» التى حربتها :

خبرنى يامرسول عن اسراج اعيانى * وشمس انهار نظفر بوصالو عراض الزين

اللــه ينصر مــولاى المــزيان

وقصيدة «الخادم والحرة» وهى التى حربتها :

قصا اجرت للخادم والحرا * يوم ظلوا فخصام اكثير على المعيار

وقصيدة «لشراف الحسنين» التى يقال انه نظمها فى مسجد سيدنـــا الحسين بالقاهرة ،وكان يزورها فى طريق عودته من الحج ، وقد ضاع منه زاده ؛ ولكنه لم يلبث أن عثر عليه بعد توسله بأبناء فاطمـــة الزهراء ؛ يقول فى حربتهـــا :

طالبكم ضيف الله سارخونا ياهـــل لحسان

من يقصدكم حاشا ايخيب يا هل البيت العدنانى

لــشراف الــحــســنيــــن

كذلك اشتهر بنظم قصائد للذكر كهاته التى يقول فى حربتها :

بيا حب الهادى ضى لرمـــاق * ملى نظرا فبهاه برماقـــى

كان للغرابلي تلاميذ أشهرهم محمد جسوس وعبد الهادى العامرى الذى وقفنا من شعره على قصيدة «فاطمة» ، وهما من أشياخ فاس . **وكـــان لـــه معاصرون** لم يرقوا الى درجته ، منهـــــم :

1 ـ الحاج العربى الرحوى الفيلالى : من فاس ، يقال له «المعلـــم» وهو من فقراء طائفة احمادشة ، اشتهر بقصيدته فى «المحمـــــل» ، وفـــى حربتها يــقــول :

غارا لله يالـــوالى ✻ مولى مكناس جد برضاك اعليا

2 ـ عبد الهادى بنانى : له قصيدتان مطبوعتان على الحجر بفاس ، أخبرنا بهما الفقيه الباحث سيدى ادريس بن الماحى :

الاولى : «الدرة البهية فى مدح رجال الشاوية» فى ثمانى صفحات.

الثانية : فى شرح ما وقع عند الفتنة التى حدثت عند خلع المولى عبد العزيز ، فى أربع صفحات . وقد وقفنا من شعره على جملة قصائد .

3 ـ عبد السلام الزفرى : من أشياخ القصر ، ولكنه أقام مدة فـــى فاس ، اشتهر بقصيدته «خلخال يامنا» التى يقول فى حربتها :

خلخال يامنا تفكيرا خلاتووامشى لى ✻ عجبى افيوم توفى واتقول أراهمانقول

وله كذلك «الساقى» الذى يقول فى حربته :

كمب يا ساقى كاس الـــــــراح ✻ كاس اعراقى فعـــــراقى
وكمض اللى طايح ✻ وكـــب للساهـــى بـــاش ايطيـــــــــح

4 ـ الغالى الدمناتى : من فاس ، وكان رفيقا للزفرى وتلميذا له كذلك ، له قصيدة «مولد النور» التى يقول فى أولها :

ابديت بسم المـــولى نعـــم لغنى الستـــار
باسمو نستفتح يا صاحى فاشعــــارى

وله قصيدة فى المدح والتوسل يقول فى حربتها :

يا رسول اللـــه غثنى فنهار الميعـــــــــــاد
يا رسول الله ما يلى دونك حـــد اسنيـــــــد

وقد اشتهر بقصيدة فى مدح آل البيت والتوسل ، هذه حربتها :

يا هل البيت اسيادى لامت لشراف
زكت فحماكم زوكت لوصيف
لا تدوزونى يوم الموقف لعصيف

السلطان مولاى عبد الحفيظ العلوى

هو ابن السلطان الحسن الاول (I) ، كان خليفة فى مراكش لاخيـــه المولى عبد العزيز الذى تولى من سنة احدى عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة الى خمس وعشرين ، ثم اعتلى العرش بعد موت أخيه حتى سنة ثلاثين حيـــث تنازل لاخيه المولى يوسف بعد أن أمضى عقد الحماية الفرنسية على المغرب(2)

يعتبر من العلماء والمؤلفين ، له :

I ــ العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل

2 ــ كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع (فى الرد على أصحاب الطرق)

3 ــ نيل النجاح والفلاح فى علم ما به القرآن لاح

وهى كلها مطبوعة ، وله كذلك :

I ــ منظومة فى مصطلح الحديث

2 ــ الجواهر اللوامع فى نظم جمع الجوامع (فى أصول الفقه)

3 ــ ياقوتة الحكام فى مسائل القضاء والاحكام

وكان المولى عبد الحفيظ الى جانب علمه وتأليفه شاعرا زجالا ، لـــه ديوان طبع على الحجر بفاس دون تاريخ ، يضم تسعا وثلاثين قصيدة أغلبها فى الغزل ، وبعضها فى الهجاء والتوسل .

ويبدو فى غير كثير من هذه القصائد ميل الى العناية بالاسلوب يتجلى فى استعمال النشب والتضمين .

(I) يقال ان ابنا آخر للسلطان الحسن الاول كان ينظم الزجل وهو المامون، وكان خليفة لوالده فى فاس . وتنسب له قصيدة «زعريا» التى يحكى أنـــه قالها اشتياقا لزوجته حين تركها فى مكناس وسافر الى مراكش . وهـــذه القصيدة هى التى تقول حربتها :

خاطرى سلبتو لى ياولد سيدنا زعريا ❊ ابقات فى مكناس الجمـــرات

وتنسب للتهامى المدغرى .

(2) كان عقد الحماية فى II ربيع الثانى سنة I330 الموافق 30 مارس I9I2 وكان تنازل المولى عبد الحفيظ لاخيه فى I3 غشت من نفس السنة .

أما وفاته فكانت سنة I937 فى انجان لوبان حيث كان مبعدا عن المغرب ثم نقل جثمانه الى فاس .

أما التضمين فنظم عليه قصيدته «زهرة» على حد قوله في القسم الاول منها جاعلا قافيته على حرفي الياء والسين :

وهو ياسيدي واهواك زاد ليا واعيت امعـــاه افلمقايس

وافنيت من اشغل هجرك اياسي * كيـــف مــــا يعياوا اعيـــاس

لاش مـانفهـــا فقيـــاس

ننشي قولي من سر صورتك ما يسلب لكياس

كيف ايسلبو فكري اعيونها من دون القياس

من اتيـه اشغال الزيـــن والكياســــا

امتا انشوف وجهك ما بين اغراس حق ياسي

فـــريـــاض طـــابـت الياســـو

الورد والزهر والخيلي كحوان جار ياسي

وأما النشب فيتضخ من حربة قصيدته «الحاجبة» حيث يقول ناشبـــا بكلمتي الراس والناس :

من اسموم الهجرا والتيه شاب لي راســـي

راســـي الحاجبا يهـــوى بـــدر النـــاس

الناس اللي تعشـــق حالها مـــا تعـــدر بقياس

يــــا حســـرا الانفـــاســـي

وقد ساورنا شك كثير في أن يكون المولى عبد الحفيظ ناظم هذا الديوان حقيقة ، وسألنا غير قليل من الاشياخ فوجدناهم يشكون كذلك ، بل أخبرنا بعضهم أن الديوان نظم له أيام كان خليفة لاخيه في مراكش ، وأن الذيـن نظموه هم ثلاثة من كبار زجالي هذه المدينة كانوا من جلسائه ، وهم :

1 ــ الحاج أحمد الزغبات

2 ــ الكبير بن عطية الذي يقال انه كان كاتبا للباشا ابن داوود وأنه توفي في نهاية الربع الاول من هذا القرن ، وهو صاحـــب قصيدة «بودلال اهنيا»

3 ــ الاحمر المرياق الذي كان معروفا بالوجد والذي يقال انه توفي سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف .

والواقع أن سبب الشك عندنا يرجع الى جملة ظواهر لا حظناها فى الــديــوان :

أولاها : وجود قصائد بأكملها فى الهجاء بالاضافة الى أن معظــم قصائد الديوان مختومة به ، فهو يقول فى حربة أحد أزجاله :

لاش تظلم قوسك تركو المن اعتن ٭ من لايسبح فى ابحور امواجو محسوب تحشا

خـلى ريحـو مـا قلبت اسفـان

وفى دخولــه يـقـــول :

مادرى رمز امعانى نايم الجفـن ٭ ولا يوصل للدواخل لمدارك فى اعلومنا

من لايـدرك نهـج اعيانـــو

مادرى كيف ارقاوا الناس فالدهن ٭ حتى صادوا من امعانيها كنز مافنا

بنيان ابنا اقويـم عـن تيقانـــو

مادرى من لاعتق الجسد من اسجن ٭ يومى جهل لعلوم فاقفر خليان من ابلادنا

يقطف مشموم ويهيج فى تفنانـو

واش تعتدا بفكرت الجاهــل الفـن

مـن لايقرا اكتب علمانـو فاهم كيف اصنعنا

وقت ما يروى ايزيد امحانـــو

ويقول فى آخر قسم من «المـرسـم» :

شتـم اقديـم شانـنـــى ٭ مـــا نرضاشـــى ابقولهــم

نفخـيـا تهلـــك تركنـــى ٭ مـــن شاتـــم فى انظامهـــم

مـــن يتعاظـــم ما يلوشـــان ٭ حسبـو ادميم مالـو فالخلق امزيا

ما يرقى فى ادروج اسنـــان ٭ طبعو ابهيم ما فاز ابكل انويـــا

حتـــى لـــو طالــوا ببهتان ٭ فالحين ما يرجعو الا مخزيـــا

ويقول كذلك فى القسم الخامس والاخير من قصيدة «كنت هانى» :

كل دعوا بفنون القول صاهضـــا ٭ ناس الدعوات ما يلهم تفـــويض

مادا روا امعانى ترجيـح ولقضا ٭ حتما ليا انجبهم فى تربيـــض

كل مايا يفصح بها امخوضـــا ٭ ليس يسموا اكـلام ناس التخويض

ما نبالى بكلاب الدور افلفضـــا ٭ حـق لهم جيـت معراض اعريض

ولسنا نتصور شخصا جمع بين مركزين عظيمين : الملك من جهة بما يفرضه من سلطة وسطوة ، والعلم من جهة ثانية بما يكتسى من صبغة التجلة والاحترام، ثم يكون له فى نفسه هذا الاحساس بالمنافسة ومايترتب عليه من خصام وهجاء لزجالين آخرين ، مهما علا شأنهم فهو دون الملك العالم ، وما نظنهم كانوا يجرؤون على مواجهته أو مبادلته نقدا أو معارضة بله الخصام والهجاء، وهو فن لا شك يقوم على المواجهة والتبادل .

الثانية : تغزله فى نساء يذكر أسماءهن مثل :

«حجوبة» التى يقول فى حربة قصيدتها :

واعلاش يا محجوب ننساك وافراقك عز اعليا

وادمــوع اعيانــى لضنــاك ســاهــرا داج

و«رقية» ويقول فى حربة قصيدتها :

اليوم نبغى ارمزك يلمع بالشفر * زورى رسمو ايزول حقا تخمامـــو

بشرى بمجيك يالريم ارقيا

ويقول فيها قصيدة أخرى هذه حربتها :

كنت امسلى اقديم من قبل انشوف ابصــارو

مـــن صالت بــالــزيـــن ولفخـــر

تستاهل فالريام تعظيم النصر ارقيا

و«امينا» التى يقول فى حربتها :

شـــير بحداقـــــى * واعط امدام صافى بالرضا الاشواق

بوجـود امينــا ليلت لبها شارقا

و«لالا ربيعا» وفى حربتها يقول :

الله ينصر زهو اللحظيـــن * والظرافــا مصباح الزين لالا ربيعا

لوجيبــا نــور المطبـــوع

وله فيها قصيدة ثانية يقول فى حربتها :

ربيعــا قــوت الــروح * من اهواها نرجا منو اصلاح

يوم اتواصل بعطوف عاينا بفصاحا

و«زهرا» وهذه حربتهـــا :

لازلت امـــن اهـــواك فانزايـــه واعراس

كيف نقطـــع منـــك يـــا زهرا اياســي

وله فيها قصيدة ثانية هذه حربتها :

عنوا اليوم زارت زهرا لرسام ناكرا

نكـــوا قلـــب اللـــي مـــا ادرى

من خزرات اللحظ منها واسهوم

و«هنيـــا» ويقول في حربتها :

دام الله ابها امحاسنك مـــن فاقت لهـــلال

قد اسهوم البين ولزارگ دون ادزيـــــــا

من لازال القلب كايراجى بك اهنيا

وهي ظاهرة نراها تتناقض مع تقاليد الملوك العلويين التي تقتضي عدم الكشف عن نساء القصر والتصريح باسمائهن حتى لا يعرفن ، وخاصة من تكون لهن مكانة في نفوسهـم .

الـثـالـثـة : المعانـاة من الحب واظهار الخضوع والطاعة للمحبوب على حد مايبدو من حربات القصائد المشار اليها سالفا ، وعلى حد ما يقول في الابيات الاولى من قصيدة «الغـــروب» :

ذكرني لغروب في اصفورتو لونـــو مغيـار

ظن اخليل اصغا من اقوال العادل بهديـــر

واتوارى لحجاب ترك رسمو منـو مهجـــور

وافجات اسرارى وحالتو عـــدت المـــدرار

من طعنوه اشفار الريام بالطعنا فاضمـــير

واتهدم صبرو لادرى مـــن حكمو مشهـــور

واتمادى هـــولو من اسكاب ادمـوعـي فسحار

واتحكـم قـولـو افساكني واسرع بالنـــذير

يا حسرا لسموم مالكى من صعبو بالنفـــور

مـــا حادر عيبي ولا فهـم ابشارت لشفــــار

كن اظلام الليل حامـــل من قبحـــو تغيير

خلانى بضناه فى امهامه حكمـــو مقصـــور

وافنايا واصفورت ورقتى يعطـــوك لخبـــار

لاش اتزيد اتسال امن احوالو يكفيك اخبـر.

والعارف من شوفت لعيون ايميـز مدعـــور

ويقول فى حربة قصيدة «زهــــرة» :

بالتيه ولبها والشفرين اتزاد هول اعياطـــو

من يوم فيـــه زارت زهرا ونا فى احكام شطط

ويقول فى آخر قسم من قصيدة «هنية» :

من بايـع للزين والبها والتيــه ألـــدلال

وامطايب لحديث كاتخامر به اغنيـــــــــا

ما مثلو سلطان امن اسلاطن سعدويا

فمثل هذا الشعور لا يحسه ملك ما نظن الا أن الحياة كانت متيســرة له بمختلف امكانيات اللهو ووسائل الامتاع ، وأنه كان يأخذ منها ، ان لـم يكن فى اسراف ، فبما يكفيه لوعة الحرمان . وحتى ان كان يحس شيئا من ذلك الشعور فنخوة الملك تحول دون اظهاره والتعبير عنه ، الا أن يكـــون حديثه فى ذلك من باب المحاكاة والتقليد .

ومع هذا فنحن نلاحظ ظاهرتين لعلهما تحولان دون ترجيح الشك الذى ساورنا ان لم تنفياه :

الاولى : ان الـديوان طبع فى عهد سلطنـة المولى عبـد الحفيظ كمـــا يتضح مما كتب فى الصفحة الاولى عنوانا له ، حيث نقرأ :

«هذا ديوان فائق ومجموع رائق بارع عظيم الشان شامل الدرر المعانى وفحوى البيان جمع من الملاحـة أصفاها وأعلاها ومن الرقائق والحكم أوفاها وأغلاها فأصبحت به نفوس ذوى الادب فى ابتهاج وهمم العوانى فى تحريك وانزعاج ، وكيف لا وهو من بنات افكار من لا يضاهى نجاره ولا يماثـل فخاره ، كوكب الادب الوقاد ، الناظم الناثر ،المشارك الحجة النقاد سلطان البلغاء الذى تاهت العقول فى تصانيفه وحارت الاوهام فى فنون تصاريفـــه أمير المومنين ناصر الملة والدين سيدنا ومولانا عبد الحفيظ ، لازال حسامـه

منتصبا لكل فظ غليظ ، أدام الله نصره وتأييده وخلد ملكه ومآثره العديدة آميـــــن» .

الـثـانـيـة : تتجلى فى النفس الذى يعلو هذه الازجال ، وهـــو نفس ـ يبدو من الشعر الذى سبق أن مثلنا به ـ أنه غير طبعى ، نحس فيه بعض التكلف ، كأن الناظم ، لطغيان اللغة المثقفة عليه ، يجد صعوبة فـــى استعمال اللهجة الدارجة وتطويعها للتعبير . ثم انا لا نلبث نلاحظ بعـــض التعابير العربية التى لم نألفها عند الزجالين ، منها استعماله «حيص بيص» فى آخر بيت من أول أقسام قصيدة له فى التوسل والاستغاثة حيث يقول :

من اعلا واطغى اتهد ذاتـــو يـــا لجليـــل
حتـى يبقـى ايشـــوف نفســـو لدليـــلا
فى حيص وبيص ما سالى بالحيـــلا

واستعماله المثل العربى «الصيف ضيعت اللبن» فى آخر دخـــول قصيدة له فى الحكم حيث يقول :

عاد يبحث الشخص افغير ما تقن * قل المن جايرمى اشهاقو فى اكلامنا
الصيف ضيعت البانـــو

واستعماله «خبط عشـــواء» فى أواخر أبيات قصيدة «الـــداعى» حيث يـقـــول :

لاتعاند جاهـــل يهـــوا امخابطا * خبط العشوا ما يمثل تخباطك
واللي معدور ما يخيط اخياطا

ادريـــس الـعـلـمـــى

شيخ أشيـــاخ فـــاس بعد الحاج احمـــد الغرابـــلى ، أخذ عن الشيخ التهامى الغرفى الفيلالى الذى كان مقيما فى فاس يحترف البناء . كان يقصـــده الاشياخ من كل مدن المغرب ليأخذوا عنه كلامه ، ومن خارج المغرب كذلك حيث يقال ان بعض أشياخ الجزائر كانوا يفدون عليه أمثال الحاج محمـــد العلقا وقاضا الكصاب وعبـــد الكريم دالى والمنـــور التلمسانى ومولاى الجيلالى الزيـــانـــــى .

كان بارعا فى قصائد «التصلية» ومدح الرسول عليه السلام ، على حـــد

ما تثبت قصيدته «عين الرحمة» التى يقول فى حربتها :

يالهادى عين الرحما الحال ضاق ⁂ غثنا يا محمد طيب لخلـــوق

ومن تصلياته هذه التى يقول فيها :

صلى الله اعليك يالماحى محمد ياشريف لاسم سيد لملاح

يا من بـــك الناس فارحـــا

من شهد بك نال ربحو واصلاحو

اصلاتك كنزى وراس مالى وربحى واذخيرتى اصلاتك هى المفتاح

تفتـــح لـــى لقفال قاصحـــا

واتلين لقلـــوب بعد يقصاحـــو

وكان بارعا كذلك فى قصائد التأمل والموعظة ، ومنها قصيدة وقفنا منها على هذه الابيات :

لا غنى يرحم ابلفقير معتا لقلوب اقساهـــا

اقسى من لحجر يفجر سيل ابمـــــــاه

لا صغير ايوقر لكبير قلت الناس احياهـــا

والخمر والميسر والزنا جاهم يا محـــــلاه

لاصلا فى اوقتها ولامـــن فيهم اداهـــا

من غير الغيبا امع اشتم والكذاب الخـــــاه

غمرتهـــم الفانيا وعادت لهـــم انزاهـــا

ولا انساوا الآخرا وكل واحد ماذا يرجــــــاه

ابسطنا لكفوف للـذى خالقهـــا مولاهـــا

وينجينا سامع الدعا مـــن شر ويـــلاه

يكرمنا بالدين وليقين والخمسا واصلاهـــا

والتقديس والحمد وشكر للمعبود اللـــــه

وقد ظهر تفوقه فى الغزل من قصيدة «غارو لعواتق» التى لم نوفق منها الا الى هذه الابيات :

غاروا لعواتق من اجمالك ياد البدر الشريف يازهو العاشق

ياللى زينك ما رينـــاه

مكوانى فايق امن اجفاك أولفى جفنى وسيف تيهانك واسق

كل كهلى بحمول اسفـــاه

مدرا يا حادق واش قلبك عن محبوبو اشفيق من حالو شافق

يالي غـــيرك ما نهـــواه

بالقول الصادق يالبدر عوضك مالي اصديق لن حبك سابق

افلكنان امورث مثـــــواه

والسابق لاحق امن اجبيني كتب اقلام اترفيق سبحان الرافق

ما يواخذ عبدو بخطـــــاه

وقد وقفنا في أوراق للشيخ أحمد سهوم على قصيدة في رثائه لم يذكر ناظمها ، نسوق منها هذه الابيات :

وكحت لعيون يـــا حبيبي من لدمـــوع

والقلب مـــن لفراق محســـوك امقطـــع

والجسم ابد العـــداب يا سيـــدي مصروع

والعقل امع الضمير بالشوق اتزعـــــزع

واسياري واهنـــا اوجدانـــي ملســــوع

والنفس املاحقـــا افصـــدري لليـــع

والروح السايـــر امـــع النعش المرفـــوع

يمتا تسخا ابـذاك لضريـــح اترجـــع

الصبر اعلى لفراق مـــا عطاني طـــوع

بعد ما كـــان عنـــد الشدات امطـــوع

باكي شاكي افريد ما رايـــم لجمـــوع

انقيـــل فـــالضنـــا ونمســـي نتضرع

محمد المدغري المكني العيساوي الفلوس

آخر كبار أشياخ فاس ، توفي سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف وهو دون الستين . انتسخنا غير قليل من قصائده من كنانيش لاحد حفاظ شعره كان يشتغل معه في الدرازة هو السيد ادريس المروني الفاسي .

كان ينظم في كل الفنون ، ولكنه اشتهر بالقول في الموضوعـــات الدينية ، ومن خير الامثلة على ذلك قصيدته التي يقول في حربتها ، وهي

فى مدح الرسول عليه السلام :

صلى الله اعليك يالتقى محبوب الباقى * يـــا مـــول الحجـا الواثقـــا

يامحمدصاحب اللوا والتاج والبراقى * لغرامـــك لخـــلاق شايقـــا

وقصيدته التى يقول فى الشوق للديار المقدسة ، وهذه حربتها :

يالمولى زكى اسمى باسم الحـــاج * ابجاه من حج وطاف وزار حرم طه

وقد اشتهر كذلك بقصائده الوطنية ، ومنها هذه القصيدة التى مدح بها محمد الخامس ، وفى حربتها يقول :

دام اللــه ايــام صولت النـــور المحمـــدى

من به اضوا نجم غربنـــا سيـدى محمـــد

حاز الفخر ومجـــد ولزيا نجـــل المهتـــاد

سلطان المغرب نورنـــا سيـــدى محمـــد

ومنها قصيدة «النجمة» التى رمز بها للحرية ، وقد جعل الليل والنهار يتصارعان من أجلها ، يقصد بالليل الاستعمار ، وبالنهار الوطن ، يقول فى حربتهـــــا :

سمعوا يا حضار مـا جرى للضى ألبهيـــم

عن حسن النجما اتحاربو فى ساير لاكـــام

وانصار الضى وحازها الرسمـو وانحاز اللــوم

وقد ذكر لنا الفقيه السيد محمد بن الهاشمى الفاسى — وهو من حفاظ شعر الفلوس — أن كثيرا من قصائد هذا الشاعر الوطنية ضاعت بسبـــب احجام المنشدين عنها لخوفهم من سلطة ادارة الحماية ، بل ان الفلوس نفسه خشى الامر بعد أن حذره رجال السلطة فأخذ مجموعة من قصائده الوطنية ودفنها فى احدى المقابر حتى لا يعثر فى بيته على شىء منها اذا ما فتش ، علما بأنه كان غالبا ما يخفى اسمه «محمد» فى قصائده بمثل هذه الرموز :

1) اسمى للا والبا .

2) اسمى كعب .

3) اسمى عبك .

وهى كلها كلمات مجموع قيمة حروفها اثنان وتسعون ، وهى قيمة

حروف م ح م د ، ولكن السلطات الاستعمارية كان لها من عيونهـــــا وجواسيسها من يدركون مثل هذه الرموز .

بنعيسى الــــدراز

أكبر زجالي مدينة مكناس منذ بداية القرن ولا يزال ، وهو رجـــل مسن يناهز الثمانين وأمي ، كان يشتغل بالدرازة ومنها اكتسب لقبه ،زارنا في بيتنا بفاس لمدة أيام أملى علينا خلالها بعض قصائده وقصائد غيره ، وأفادنا بأخبار ومعلومات كثيرة يتصل جلها بمعاصريه .

يكاد كل شعره يكون في الغزل ، ومن قصائده التي يعتز بها «زهرة» التي يقول في حربتها :

بمزاري بمـــزاري * جدلي بوصالك نبرا

يـــا مولاتـي زهـرا

ويقول في دخولها :

سلطان حبك اسكن لى فصميم السيار

يا راحت لعقل يا قرت لبصار

يا طلوع البدر السيار

شف دمعي هاوي مدرار

ورخ اسطار

فوق لخدود بجهار

والبين زاد حسرا

وكد جمرا

اكدات حمرا

ما تطفيها امياه لنهارى

ولا اطبيب يوقي من ذا التشحار

كضاري كضاري * افنا ونرجا مـول القدرا * يشفي ذاتي تبـرا

الحاج محمد بن عمر الملحونـــي

شيخ أشياخ مراكش ، زرناه في بيته حيث قضينا معه يومين أملى

علينا خلالهما من كنانيشه مقتطفات من قصائده وغيرقليل من الفوائد.وقدذكر لنا أنه تلمذ على الشيخ اسماعيل عميد الزجل فى وقته ، وأنه كان ينظم فى مدح مولاى يوسف (I) جد الملك الحسن الثانى ، وان عمره الآن يقرب من الخامسة والسبعين . وهو على جانب غير يسير من المعرفة فضلا عن القراءة والكتابة ، وينظم فى كل الفنون . وقد واكب بزجله الحركة الوطنية فى مراكش ونظم قصائد فى أزمة نفى محمد الخامس سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف .

وفهمنا من كلامه فى السرابة أنه خير من نظم فيها من أشياخ العصر . ومن سرابة له يصف فيها ثورة الشعب على اثر نفى السلطان نسوق هذه الابيات :

يا عل معظم يوم السبت بانت ارجال

فالمداين خرجت بطرادها كاتقاتل

شبان افحول خارجين اكفول

ذالهذا جذبان الحال سار فى حال

كل واحد بلسانو كيصرخ قايل

وينادى فالحجايف ولحفول

يا هل الشعب المغربى اكهول واطفال

ما بقى بعد اليوم اصبر يا لسايل

به الشبان بالجميع اتقول

يوم لخميس (2) امضى وابقى الحرب مازال

عمر الثورا ماتهنا الشعب حامل

واليوم اهلو سيبو لحمول

والشيخ ابن عمر لا يتجاوب مع أحداث وطنه الصغير فحسب ، وانما هو يتجاوب كذلك مع وقائع الوطن الكبير على حد ماتثبت قصيدة قالها فى حرب فلسطين الاخيرة (3) ، هذه حربتها :

(I) تولى على اثر تنازل أخيه مولاى عبد الحفيظ سنة I330 ه الموافق سنة I9I2 م وتوفى سنة I346 ه الموافق I927 م حيث خلفه نجله محمد الخامس .

(2) اشارة الى أن النفى تم يوم الخميس (20 غشت 1953) .

(3) خامس يونيو I967 .

صونوا بيت المقدس يارجال النجدا نصروا الدين ياهل ليمان

واحموه من لعدا اتفر منو سداير ليهود

ومن أروع ما للشيخ ابن عمر بعد سراربه ووطنياته قصائده الغزلية كما تشبت هذه الابيات من «أمينا» :

أمينا حبك نيران * اعلى نيران
كاديا فصميم الوجدان * وسط اكناني
أمينا هاذي لحزان * أو الطوفان
فوق خدي أو الويدان * فالجرياني
أمينا قلبي لهفان * جسمي سخفان
لاتخليني فالحرمان * راه اضناني
أمينا ماني نعسان * ماني يقظان
كيف بت انقيل ولهان * وسط امكاني
أمينا قلبي ملآن * محنا واحزان
مابقي ينفعني كتمان * بين امحاني

عثمان الزكي

أكبر شيوخ الرباط المعاصرين ، وممن كانت تشد اليهم الرحلة . والاسف أنا لم ندركه حيث كان قد توفي حين بدأنا نعنى بهذا الفن .

كان كثير النظم في الازمات السياسية والاقتصادية على حد ما تكشف عنه قصيدة له في التوبة ، يقول في حربتها :

يا طالب لمان * تب واعمل ما أمر به ربنا

وفي بعض أقسامها يقول :

حدثتك بلسان * ساكن السماكن كان اتريد وعظنا
واللي زاد ايبان * ما حفر قبر اللي يكرهنا
قالوا ناس ازمان * ولا بنى لنا قصر اللي ايحبنا
لو طاروا جنحان * ما يلو قدرا لنفعنا وضرنا
واش اللي مديان * كيداين أمرو معروف عندنا
ما وافق صدقان * غير من كره اغلب ايدو املينا
سال اهل التبيان * والحديث ايخبروك ابغايت لننا

وانصت للقـــــرآن * لا تجسس عل لقوام لؤمنـــــا
واجز هل لحســـان * ابلحسان او بدعوت خير عمنـــا
لا تشهــــد نقصـــــان * افلعباد اللى بالمـــولى اميقنـــا
لا تعمـــــل عديــــان * غير زوج اللى هم اسباب اذنبنـــا
لفسق والشيطـــــان * خالف امرهم قبل انشاهد لفنـــا

ومن شعره في غير هذا الموضوع قصيدة في الهجرة النبوية ، هـــذه حربتها :

يا محمد يا خير خلق الله * صلى الله اعليك يا طه

عبد القادر الجرارى

من كبار أشياخ الرباط وأحد أعضاء جوق الاذاعة للطرب الملحون ، وهو تلميذ الشيخ عثمان الزكى ، تذاكرنا معه غير ما مرة فأفدنا منه ؛ ولعله أكثر الاشياخ المعاصرين ثقافة ومعرفة بأصول الزجل وقواعده . له دكان فى حى فران الزيتونة يبيع فيه الدقيق ، وكان من قبل يحترف فيه النجارة .

من انتاجه قصيدة فى أزمة البون «بطاقة التموين» يقول فى حربتها :

حرت ابقلت لبـــزار والفاخــــر
والزيت والسمن والصابون امع السميد عاد اهموم السكر

وقصيدة فى الذكر حربتها : .

اللهـــم صـــل اعـــلى النبـــى راكــب البـــراق
محمـــــد الزكـــى نعـــم المجـــــد التقـــى

وله فى معارضة «الداعى» (I) لعباس بوستة المراكشى قصيدة هذه حربتها :

تاك بشار السعـــد وفرحنـــا اكمـــل
ومـــن اظلمنا القـــى افعالـــو واعمالـــو
الـويـــل رام لـــو * ولى عند الناس فالمهملا

(I) وحربتها :
راب سور الدعى واتشتت الشمل * وارجالو ما جزوا ليه اعلى مالـــو
جـــاه عاملـــــو * لمرقى شانو افكل اعمالا

وفى أحد أقسامها يشير الى فرنسا وما لاقت من ويلات فى الحرب العالمية وما واجهت من الوطنيين فى حركة «اللطيف» المشهورة ، فيقول :

يامن اعيا كهلو بتقال ادلحمل * فالحين ارميه جاب ربى حمالو
اللى ايحملو * ملا كان افطرقتو لحمالا
غير جاير كان امن الجور ليس مل * ويقول اهمام ابلجيوش وعمالو
ومن احتملو * وارضاوا اشروطو ابغير ايمالا
كان ظنو باقى دالشرط ينكمل * لكن الله جاب لو من رتمالو
ابشر دام لو * بسيوف اللطيف والبسملا
بعد عزو فيامو صادف لهمل * ضاع افملكو وزاد بهلو وابمالو
الهم شاملو * عاد يشتهى طرقت الحمالا
بات ملك واصبح ينكس لخمل * ويخمم فى ابلاه شى ايكون اعمالو
واسقام لو * ليس اوجد لبدو اولا لكمالا

ومن أروع شعره قصيدة «ألف باء» تتبع فيها حروف الهجاء ، ليس فى أول الابيات فحسب وانما فى القافية كذلك ، يقول فى حربتها :

يا راسى من لوزار تب * واسترجع من وهم لعيوب
تنتهى واترك فعل الذنوب * خاف الله التواب

يبدأها بقوله على حرف الالف :

أسم المولى فالمبتدأ * سماس النظام افما انشأ
واللى بها جيجو املا * يدرك بها مرتاب

الى أن يقول على حرف الياء :

يارب كمل لى ارجاى * جاوز عنى وامحى اخطاى
يوم اسؤالى ايحضرو امعاى * ليس يعجز افلجواب

ثم يختمها بتوسل يتتبع فيه الحروف على هذا النحو :

بالالف الف بينا * وآتى بالنصر الدينا
انتبعو منهاج ايقينا * ايعود احكمنا غلاب
. . . .
باليا يسر أمر الضعيف * عبد القادر يمشى اخفيف
لقام المبرور الشريف * ثم ينزع تسقاب

وواضح أن القصيدة بائية حيث جعل الروى باء فى كل الابيات ، ولكنه نوع فى قوافى الاشطار الثلاثة الاولى من كل بيت . وقد ذكر لنا أنه يطلق على هذا الاسلوب اسم الدربلة والعزرودة والمرشوش (I)

والشيخ الجرارى بعد هذا مشهور بقصيدته فى «المعراج»

الحاج محمد العروفي

شيخ أشياخ الرباط والرئيس الحالى لجوق «الطرب الملحون» بالاذاعة المغربية ، وهو على قسط لا بأس به من المعرفة ويشتغل محاسبا فى السوق الرئيسية للخضر . أطلعنا على بعض كنانيشه التى انتسخها بنفسه وأخبرنا أن أكثر نظمه فى الغزل ، من ذلك قصيدته «فوزية» التى يقول فى حربتها :

صل بجمالك عن جمع لبنات يا قد الرايـــا

ياخدود الـورد المفتـــوح ياغزالى فوزيـــــا

وقصيدته «نزهة» وهذه حربتها :

آش يـزها مـن لايزهـا ابزين مولاتى نزها

آش را من لاغنم امع لغزال فرجا وانزاهـــا

وقصيدة «كريمة» وفى حربتها يقول —

جـــد ابغـايت لمـــــرام * يامصباح الخودات لالا كريمـــا

بـردنــى رانـا المشـــروم * نضحـــى سالـــى مكـــروم

ومن أروع قصائده «الحمام» ، يقول فى حربتها :

بالله ياحمام ادى عنوانى امـــع الســـلام

لسبيغت النواجـل آمنـــا زينت السميـــا

و «الخاتم» وحربته :

خاتـم ولفى تـاج لبها اتوضر وامشــى لى —

كيف المعمول ايلا اتسال عنو درت لجمـــال

كما أن له بعض القصائد ينظمها فى المناسبات الوطنية كقصيدته التى قدم فى الصيف الماضى بمناسبة ذكرى «ثورة الملك والشعب» فى العشرين

(I) الدربلة المرقعة ؛ العزروده : دودة سوداء مخططة بالاصفر ؛ المرشوش تدنال أبيض مخلوط بألوان أخرى .

مـن غشمت ، والتي يقول في حربتها :

من اعظمها ذكرى يامن اتسال تاريخ امخلـــد

ثورة الملك امع الشعب يوم الاستعمار انفاه

لكن المولى جاد اعليه أيدو واكرم مثواه

زجـالـــون آخـــــرون

نبغ من المعاصرين كثير من الزجالين غير من ذكرنا ، منهم من وقفنا على نماذج من انتاجهم (I) ، ومنهم من لم نقف لهم على شيء ، نرى تكملة لهذا الفصل أن نستعرض أسماء بعضهم مرتبة حسب مدنهم :

أولا : مـراكـش :

I ـ العباس الحرار : صاحب «الشيبية» التي يقول في حربتها :

يالغابط فاحـوال الفانيا استرجع ٭ شف اللحيا بعد اكحالها ابياضت

وله «الفجر» ، يقول في حربته :

يقـظ جفنـك يـانايـــــم ٭ قم اتودي حق لكريم من لاينام

مولانا خـــيرو دايم

وقد وقفنا له من قصائده على «الوصاية» وعلى قصيدة فخرية .

2 ـ أحمد الراس : كان بارعا في قلب القصائد **ومسخها** ، وقـد سبق أن مثلنا لذلك (2) .

3 ـ عباس بن بوستة : كان فهوجيا ، وقفنا من شعره على ثـلاث قصائد ، احداها في أحوال الناس واثنتان في الهجاء . له كذلك قصيـــدة تأملية يقول في حربتها :

لاتغرب فالغرب امع لقاربــــا ٭ الغرب اغريب سايرا فيه اغريبـا

من اغرايبو عن اهلو غربا

كان كثير الميل الى الحكمة والموعظة ، ومن أشهر أبياته التي سارت كالمثل قـــوله :

(I) انظر الدليل الملحق بالرسالة .

(2) انظر آخر الجزء الاول من فصل «مع الحياة» من باب الموضوعـــات (ملاحظة عن شعر الفكاهة) .

يحصد حب لكذوب من ازرع المحال

4 — محمد الرودانى : له «خديجة» ، وفى حربتها يقول :

ياهلى رغبو فيا بوشفار وداجـــا * شمس الضحا الواضح كمرا فى داج

فى داجى فى داجى كان راجى لك اخدوج

5 — محمد بن موسى الشريف : كان بارعا فى النظم على وزن مكسور الجناح ، ومن شعره نسوق هذه الابتهالات :

مرغت فى ابواب رحمتك هاذ لخدود
وانويت فيك يا سيدى ظن اكميل
ايلا اعصيت أنا عبد اذليل
طامع فالخير اقريب اجزيل
ما نخاف امن الدنيا ايلا اصفات ايمانى
ومن اطلب شى ايقصدو ايلا اصفات النيا

وقد وقفنا من قصائده على : «لغزال محمد» و «الحجام» و «زينـــب»

6 — عبد الرحمن بن الحاج الطاهر : كان دباغا ، توفى منذ نحو ربع قرن ، له «شمعة» ولكنه جعلها خصاما بين بنت البر وبنت البحر ، اذ أن الشمع اما ان يتخذ من شهد النحل أو مسحوق السمك ، وهى فريدة من نوعها ، يقول فى حربتها :

غنمى غايت لفراح ألشمعا بك أبنت الطميم لخلاق زاهيا
عيدى لى سبت لبكا من قادم للآن

7 — ولد احجـــام .

8 — مـــولاى ابيـــه .

9 — محمد بن لكبير : من كبار الاشياخ المعاصرين ورئيس «جمعية هواة الملحون» ، قابلناه فى احدى زياراتنا لمراكش ، وهو ممن يناهز الثمانين ومن قصائـــده التى يعتـــز بها قصيدتـــه فـــى حرب فلسطين الاخـيرة وهذه حربتها :

الله أهل لسلام بادروا بالتوبا واستغفروا وطلبوا مولانا
يفجى هذا الغما اعلى لجميع ايشفى لمصــــاب

10 — محمد المختار الشرايبى : اشتهر بقصيدته «مول الكمية» التى

قالها فى الشيخ عبد العزيز التباع . ونذكر — ونحن فى سن الطفولة — أنه كان يزور السيد الوالد كلما حل بالرباط وانه كثيرا ما كان ينشـــد قصيدته المشار اليها و«الفياشية» ، وكنا نحفظ غير قليل من أبيـــات القصيدتين لكثرة ما كان ينشدهما .

وهو ينظم في المعرب كذلك ، ومن شعره فيه قصيدة يمدح بهـــا السيد فتح الله بنانى الرباطى شيخ الطريقة الفتحية الدرقاوية ، يقول فى أولهـــــا :

آل فتـــح لكـــم جمال بديــــع ＊ طاب أصلا ومنه طابت فــــروع
لائحا فى الوجود بدرا منيــــرا ＊ ماله مشبــــه ولا مــــن يـروع
طلعت شمسه على الكل بالفتـــح يراها من كان فيه ولــــوع
طبـــق الارض ذكـــره ولـــه ＊ فى كل افق من الفتوح جمـــوع

بل ان اللغة المعربة كانت تطغى عليه حتى فى زجله على حد ما يبدو من الابيات الاولى لقصيدته «مول الكمية» حيث يقول :

أمــــول الكميـــــا ＊ للـــه غـــير اعليـــا
اطلب ربـــى فيـــا ＊ يوفــــى ليا قصــــدى
بـــــك اتوسلت للـــه ＊ وبجـــاه ارسول اللـــه
قـــدرك مـــا نتمنـــاه ＊ أطـــالـــع السعـــد

II — محمد بن بوستة : من الاشياخ الناشئين ، قابلناه فى بيت شيخه الحاج محمد بن عمر بمراكش فأملى علينا نص «التويزة» التى اشترك فى نظمها مع الشيخين ابن الكبير وابن عمر والتـى تقـول ردمتهـا (I) :

وادرك هاد لمريض باللطف الخافى

ثـانيـــا : فـــاس :

I — الهادى بنانى : كان عطارا

2 — محمد الجابرى : كان درازا وكان معروفا بالوجد ، له «فاطمة» .

3 — محمد لحلو : صاحب قصيدة «البون» التى حررتها :

يـانعـــم الستــــار ＊ جد برحمتك يالكريم غثنا

توفى منذ سنوات قليلة

(I) للتويزة «ردمة» كالحربى ، وهو الاسم الذى يطلق على آخر شطر .

4 ــ عبد العزيز بن ادريس الوزانى : وقفنا له على قصيدة «سابغ الشفر» وأخرى فى المدح النبوى ؛ ويقال ان له قصيدة فى «الزهو» فاق فيها التهامى المدغرى . ومن أشهر شعره قصيدة فى مدح الرسول عليه السلام ، يقول فى حربتها :

عول ياساهى اعلى الرحيل احتال ٭ اصغ افايت الرسال هاك لشـــال

واتعلق فالماحى اوزوگ فالبتول اترك لخديل

5 ــ عبد العزيز اعنون : وقفنا من شعره على «أم كلثوم» .

6 ــ محمد **الشنتوي** : له «الياسمين»

7 ــ الطيب الدباغ : له التوسل الذى يقول فى حربته :

عـارى اعليك يـا محمـــد ٭ لله لا اتشافى فيا لعدا

8 ــ محمد الدباغ .

9 ــ علال العلوى : هو أخو محمد بن عرفة الذى نصبته حكومـــة الحماية الفرنسية سلطانا على المغرب بعد أن نفت محمد الخامس . وهـــو مقاول فى البناء ، قابلناه فى فاس ، ووقفنا من انتاجه على قصيدة «المجد» من مطالع قصائده قوله :

أنا تكلى فالله يوقينـــى ٭ لقديم الدايم من لا ينام اولا اتراه اعيـــان

جيد لجواد الا ايحافينـــى ٭ المالك لكريم الغنى من لاتنطرد من بابو سعيان

ومن قوله فى المدح النبوى قصيدة هذه حربتها :

صلوا على الرسول التقى طه ايمام هل ليقين

محمد الشفيع الشافع من جا ابشير بالقران

ومن شعره فى الوعظ قصيدة «الفجر» التى يقول فى حربتها :

يـــارب جـــد جـدلـــى ٭ بالتوبـا أباسـط الستـــر

نخلف ما ضاع افلعمـــر ٭ نفـــدى ما ضــاع لـــى

اخطيا وانعود امقابل لفجر

أخبرنا شيخ مراكش الحاج محمد بن عمر الملحونى أن الشيخ العلوى هو أحسن زجالى فاس المعاصرين .

10 ــ عبد القادر الودغيرى : تلميذ بوزيان ، كان درازا فى فاس ثم انتقل الى الرباط موظفا بدار الاذاعة . من شعره الدينى قوله من قصيدة ..

المومن ايكون اعتقــادو اصحيـــــح فالله

عند باب التوحيد احبيس حق يحميـــه

لو ايكون افحلقوم الليث فاتــح الهــــاه

ينحضـا ابقدرة السميع ما يحاديـــه

ولو ايكون افمنصب لحجار حـــاط بعضـــاه

يتعدى مفدى ابراهيــــم ما اتآديـــه

ولو ايكون اعلى نحرو سن سيف ممضـــاه

ينفدا مفدى اسماعيل طوع أبيـــــه

ولو ايكون ادخل بطن الحوت ست اخطاه

ينفذا مفدى ابن كنعان يونس انبيـــه

هكذا حال امن اختبرو الحـــى منـــان

للصبر ينحاز افراجو ايبادر ايهـــون

ومن شعره الغنائي قصيدة «جمهور البنات» وفيها يقول :

آش را من لا را هيفــــــان ٭ بلــــد لخضر فيهـــا واثبـــات

بالكياسا والميز اكما اشهوتـــى ٭ والباقا فالزهو الا فيها بـــــاس

وكل وحدا تنهض فرحا ابزورتى ٭ بجفال امنظما للزهو انفـــــاس

غير لوتار ولحى الغا اسجيتـــى ٭ من صوت الباهيات وكض لحساس

حيث وقفوا للرقص افجات كربتى ٭ دى عن هاذى اتميس كغصن الياس

II ــ أحمد سهوم : من أشياخ فاس المقيمين فى الرباط ، كان له طوال سنة خمس وستين وتسعمائة وألف برنامج يقدمه فى الاذاعة بعنوان «ركن الادب الشعبى» استفدنا منه . وقد أطلعنا على بعض الاوراق والتقاييد فأفدنا منها غير قليل من النصوص والمعلومات . وفيها وقفنا له على قصيدتين : احداهما «محكمة الضمير» والثانية فى تحية مؤتمر القمــة العربى الـــذى انعقد بالدار البيضاء فى سبتمبر من السنة المذكورة .

ومن شعره كذلك قصيدة قالها فى مدح الملك الحسن الثانى بمناسبة الدروس التى يحييها فى شهر رمضان المعظم ، يقول فى حربتها :

ياراحت لرواح ولقلوب امع لفكار

والمهجات ولكباد يا رمز وحدة شعبنا

يا تاج اوطانا الحسن الثانى

وله من القصائد الغزلية «سعاد» ، وفى حربتها يقول :

يالى سعـــدى بـــك اسعـــاد * فى اركابـك ساير لسعـــاد

سعداتى ياسعاد منك اسعـــادى * سعد سعدى بهلال اسعود السعديا

ثـالـثـا : الـربـاط :

1 ــ الشيخ فاضل : كان حجاما

2 ــ الشيخ التهامى : ابنه ، ويذكرون أن له قصيدة جفرية قالها فى التنبؤ باحتلال فرنسا للمغرب تسمى «الموندو» ، والاسف أنا لم نهتد اليـهـا .

3 ــ المعطى بن صالح الشرقى : وقفنا من شعره على قصيدتين فى «الذكـر» .

4 ــ محمد بن احمد الشرقاوى : شيخ عثمان الزكى ، له قصيدة فى قبة بناها السلطان الحسن الاول يقول فى حربتها :

فرحوا ياهل النيا جل افرايـح * اعلى فرحتنا يفرح كل اوطـان

اعلى قبتك ومولاى الصالـح * بانيها لهمام سيدنا مولاى الحسن

5 ــ الشيخ محمد الضعيف : وقفنا من شعره على قصيدة فى مدح الرسول عليه السلام .

6 ــ التهامى بنانى : كان «مجادليا» أى حرارا وكان من الذاكريـن وأهل الجذب ، وهو شيخ الريش

7 ــ المكى الريش : كان ينظم فى الذكر وهذه حربات بعض قصائده

أ ــ اللهم صل اعلى لحبيب المحبوب التقى * محمد خير لورى انعشقـو

ب ــ يا عشـاق النبى المـاحـى * صلوا وسلموا اعلى كوكب للماح

ج ــ تهامـا ناس لحسـان * نسعى من قلبى ولسان

غارا ياقنديل وزان * يـامولاى عبـد الله

8 ــ بوعزة الدريبكى : من قصبة الودايا ، اشتهر بقصيدته التـى حربتها :

عذرونى يا هلى ولاش اتلومونى هكذا افحالى

سروا خلوا كل حال ايسير اعلى حالــــو

9 ـ محمد بن يوسف : انتسخ لنا من شعره قصيدة فى المـــادح النبوى .

10 ـ محمد الفلوس العلمى : كان خرازا ، اشتهر بالذكر ، وهذه حربة بعض قصائده فيه :

يا عشاق النبى الهـــادى ٭ صلوا وسلموا اعلى شافع لعباد

11 ـ الشيخ لحلو : اشتهر بقصيدته «زهرة» التى يقول فى حربتها:

أنــا امزاوڭ افزينــك أسلطانت لبدور

ألــــلا ازهـــــور

من بك طلعت الزهرا ٭ وانت لــلا ازهــيرو

12 ـ الطاهر افقير : كان حرارا

13 ـ ادريس بن بوشعيب : ويعرف بالغياط مازال على قيد الحياة ويقول فى المناسبات .

رابــعــا : ســـــلا

1 ـ أنجار : صاحب «الذهبية المشهورة .

2 ـ محمد الشليح : له قصيدة «الكاس» .

3 ـ الحاج محمد بن على : وهو غير محمد بن على المسفيوى نزيل هذه المدينة ودفينها

4 ـ العربى معنينو : ذكر الادريسى فى «كشف الغطا» (1) أنه كان صاحب كتاب قرآنى .

5 ـ الشيخ البرى : له «المرحول» لزيارة بعض الصالحين .

6 ـ حمان النجار

7 ـ حسن اليعقوبى : اشتهر بقصيدته «العصرية والزمنية» .

خـامـســا : أزمـــور :

1 ـ احمد بن رقية : وقفنا من شعره على قصيدة «الشمعة» . لـــه

---

(1) ص : (114) .

قصيدة فى «الزهو» يقول فى حربتها :

الزهو فكتوب التنزيل والسراز الى موهوبا من لجليل العالى

ولفراسا فى هــــل لعقول

2 ــ البصير الزموري : انتقل الى العرائش وبها توفى ودفن ، يقال ان له «الحراز» و «الادريسية» و «اليوسفية» وهى قصيدة فى سيدنا يوسف .

3 ــ ادريس الزموري : يعتبر من كبار الاشياخ ، ولكن شعره نبذ لاتصاله بسلطة الحماية ومدحه لرجالها وأعوانها . وقفنا مــن شعره على قصيدة قالها فى تدشين محمد الخامس لمدارس باب شالة . وهو أخو المرحوم أحمد الزموري الذى تولى قضاء مدينة الدار البيضاء .

ســادســا : تـطـوان :

1 ــ محمد المردن التطواني : له قصيدة فى مدح محمد الخامس .

2 ــ محمد حسن : أمدنا بغير قليل من النصوص ، وله قصيدة فى ذكرى المنظرى مؤسس مدينة تطوان .

ســابــعــا : أســفــى :

1 ــ ابراهيم السوفانى .

2 ــ محمد بن على الدمناتى : انتقل الى سلا وبها توفى ودفن ، وقفنا على جملة من قصائده .

ثـامـنـا : وزان :

عبد العزيز الوزانى : أحد أشياخ هذه المدينة وعلمائها ، له قصيدة فى الشوق لزيارة البقاع المقدسة يقول فى حربتها :

الرباح فى اصلاتو هما واتجارا

أيارب لعباد كمل قصدى نمشى انحج ونطوف

ونشاهد لبقيع والبيت وعرفا

تـاسـعـا : شـفـشـاون :

محمد العلمى ولد زيطانة : وقفنا من قصائده على «فاطمة» و «التوبة».

عاشرا : تافيلالت :

سيدى أحمد لحبيب : ذكر الادريسى فى «كشف الغطا» (I) أنه من طبقة عبد العزيز المغراوى .

الحادى عشر : صفرو :

لحسن الصفريوى : يقال انه نظم فى احدى الليالى ست قصائد فى «الزهو» . توفى منذ حوالى خمسة عشر عاما .

الثانى عشر : بنى ملال :

مولاى عبد الرحمن بوقطيب .

الثالث عشر : الدار البيضاء :

مولاى أحمد بن عبد السلام العلوى : من علماء هذه المدينة العدول ، أطلعنا على ديوان له نظم أغلب قصائده فى فترة الشباب وقبل أن يبدأ دراسته بالقرويين . اتصلنا به أكثر من مرة وحاولنا مذاكرته فى الفن ولكنه كان يصرح لنا بأنه لم يعد يخوض فيه .

❀ ❀ ❀

وبعد ، فاذا كان لنا أن نقول كلمة عن القصيدة الزجلية فى العصر الحديث فهى أنها تجمدت فى صور ونماذج غدت لها سيطرة على هؤلاء الاشياخ الذين ذكرنا وعلى غيرهم ممن لم نذكر ؛ خضعوا لها مشدودين الى من سبقهم من الشعراء ، يتبعون ظلهم ويحتذون نماذجهم ، قانعين برؤيتهم لا ينظرون الا من خلالها ، وبتعابيرهم وأساليبهم لا يحيدون عنها ، عاجزين عن الانطلاق فى ميدان التجربة والابداع ، لا نجد عندهم غير أفكار وصور متكررة تتردد بنفس الالفاظ ، بعيدة عن احساسهم الذاتى وعن روح العصر . وحتى الذين عانوا تجربة ما فانهم لا يحاولون استيحاءها والتعبير عنها من خلال واقع حالهم الوجدانى وتعمقه لاستخراج أفكار ومعانى وأقوال جديدة ، ويكتفون بالنظر الى ما عند غيرهم يقتبسون منه دون محاولة لتكييفه أو تطويره ، وتلك أقصى درجات الجمود والتقليد ، لا يعقبها الا الفناء والموت .

(I) صفحة : II2 .

المصادر

مصادر عامة

أولا ـ المخطوطة :

1 ـ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبى المحاسن وشيخه المجذوب
لعبد الرحمن الفاسى
خزانة الرباط العامة : نسختان 326 ك ـ 2302 ك

2 ـ أعلام الفكر المغربى المعاصر فى العدوتين الرباط وسلا
لعبد الله بن العباس الجرارى (والدنا حفظه الله)
مخطوطة المؤلف (الخزانة العباسية)

3 ـ الاقنوم فى مبادىء العلوم
لعبد الرحمان الفاسى
خزانة الرباط العامة : نسختان 11 21 د ـ 15 ك

4 ـ بلوغ الامل فى فن الزجل
مخطوط الزيتونة 4467

5 ـ ثمرة أنسى فى التعريف بنفسى
لسليمان الحوات
مخطوطة خاصة للاستاذ سعيد أعراب

6 ـ جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس
المكتبة الوطنية بمدريد 4879

7 ـ الحسام المشرفى فى الرد على اكنسوس المراكشى
للعربى المشرفى
أ - مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 2276
ب ـ نسخة مصورة بخزانة الرباط العامة رقمها 1207

8 ـ الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر
لابى عبد الله محمد بن عبد القادر بن احمد الكلالى الشهير

بالكردودى

خزانة الرباط العامة رقم 1584 D

9 ـ الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح (ديوان شعر معرب)

للحاج ادريس بن علي السناني لحنش

خزانة الرباط العامة 1378 ك

10 ـ روض الآداب

لاحمد الحجازى ـ ثلاث نسخ :

مكتبة أيا صوفيا (السليمانية ـ اسطنبول) 4017

مكتبة أحمد الثالث (قصر توبكابى ـ اسطنبول) 2293

مكتبة راغب باشا (اسطنبول) 1115

11 ـ رياض الورد الى ما انتهى اليه هذا الجوهر الفرد

لمحمد الطالب بن الحاج

خزانة الرباط العامة 396

12 ـ سجع الورق المنتحبة في جمع الموشحات المنتخبة

للسخاوى

مكتبة فاتح (السليمانية ـ اسطنبول) 3918

13 ـ السفينة (الجزء الرابع)

لمباركشاه

فيض الله Feyzullah مكتبة ملت Millet (اسطنبول)1612.

14 ـ شرح على نونية أبى الحسن الششترى

لاحمد زروق

مكتبة دير الاسكوريال 4186

15 ـ شرح القصيدة العقيقية لسعيد التلمساني وتسمى : «الآداب الرقيقة فيشرح العقيقة ، وان شئت قلت الدرة الانيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت التحف المهدية فى شرح السعدية»

لمحمد بن ناصر المعروف بابى رأس

خزانة الرباط العامة 1656 د

16 ـ العاطل الحالى والمرخص الغالى

لصفى الدين الحلى

مكتبـة بايزيد (اسطنبول) 5342 (علما بأنـه مطبـوع ، نشره هوينر باخ)

17 ـ العقيدة الادبية فى السبعة فنون المعنوية

لاحمد الرباط

مكتبة اسعاد أفندى (السليمانية ـ اسطنبول) 2867

18 ـ فتح الانوار فى بيان ما يعين على مدح المختار

لابراهيم التادلى

خزانة الرباط العامة 3285 د

19 ـ فهرســـة

لمحمد التاودى بن سودة

الخزانة العباسية رقم 3388 (خزانة السيد الوالد) .

20 ـ كتاب الحايك فى الموسيقى الاندلسية

الخزانة العباسية (غير مرقم) .

نشره فرناندو مارتينيز ولكنه اقتصر على ايراد كلام الحايك فى التعريف بالنوبات وترجمته دون ايراد النصوص (انظره فى المطبوعات الاجنبية) .

21 ـ كتاب مجموع موشحات .

مكتبة أيا صوفيا (السليمانية ـ اسطنبول) 2243

22 ـ لحن العامه

لابن هشام اللخمى

مكتبة دير الاسكوريال ـ نسختان : 46 ـ 99

23 ـ مجموع قصائد وموشحات فى المديح النبوى مرتبة على نوبات الانشـــاد .

لاحمد بن محمد العربى أحضرى المراكشى (مخطوطة خاصـة بالكاتب)

24 ـ مسالك الابصار وممالك الامصار

للعمرى

جامعة اسطنبول 4355 AY

25 ـ منظومة فى الموسيقى

للحوات

المكتبة الملكية بالرباط 4229

26 ـ موسوعة المغرب العربى (يشرف عليها المكتب الدائم للتعريب بالرباط

مادة : الآلة (الموسيقى)

لعبد الله بن العباس الجرارى

27 ـ النور اللامع البراق فى ترجمة محمد الحراق

لمحمد بن العربى الدلائى الرباطى

مكتبة تطوان العامة (وتوجد نسخة بخزانة الرباط العامة

رقمها 960)

ثانيا : المطبوعة :

أ ـ الكتب العربية :

28 ـ الابتهاج بنور السراج (شرح على منظومة سيدى العربى المسناوى)

لاحمد بن المامون البلغيثى

مطبعة محمد أفندى مصطفى ـ مصر 1319 .

29 ـ ابن سناء الملك أو مشكلة العقم والابتكار فى الشعر

للدكتور عبد العزيز الاهوانى

مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة 1962 .

30 ـ البيان والتبيين

لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون

طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1948 .

31 ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب

لابن عذارى المراكشى

طبعة لبنان

32 ـ اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس

لعبد الرحمن بن زيدان

الطبعة الاولى ـ الرباط .

33 ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم

للمقــدســـى

طبعة ليدن 1909

34 ـ الاحكام فى أصول الاحكام .

لعلى بن حزم الظاهرى

الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة ـ مصر

35 ـ الزاوية

للتهامى الوزانى

مطبعة الريف ـ تطوان ـ 1942

36 ـ أزهار الرياض فى أخبار عياض

لاحمد المقرى ـ تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى نشر المعهد الخليفى للابحـاث المغربيـة ـ بيت المغرب ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة1940

37 ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

لاحمد بن خالد الناصرى

طبعة القاهرة 1894 ـ طبعة دار الكتاب 1956 (الدار البيضاء) .

38 ـ الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام

لعباس بن ابراهيم

الطبعة الاولى (المطبعة الجديدة) فاس 1936 .

39 ـ الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب

لمحمد بن الطيب العلمى

طبعة حجرية

40 ـ الانيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فـــاس

لمحمد بن عبد الحليم المعروف بابن أبى زرع

طبعة حجرية

41 _ تاج العروس من جواهر القاموس

لمحمد مرتضى الزبيدى

42 _ تاريخ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر

لمحمد المحبى

المطبعة الوهبية _ مصر _ 1284

43 _ تاريخ عبد الرحمن بن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الاكبر)

مطبعة بولاق

44 _ الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا

لابى القاسم الزيانى

نشر عبد الكريم الفيلالى _ وزارة الانباء _ المغرب 1967 .

45 _ التشوف الى رجال التصوف

ليوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات _ تحقيق أدولف فور

نشر معهد الابحاث العليا المغربية _ 1958

46 _ تفسير القرآن العظيم

لاسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى

الطبعة الثالثة _ مطبعة الاستقامة _ القاهرة 1375 (1956)

47 _ جذوة الاقتباس

لابن القاضى

طبعة حجرية

48 _ جواهر الكمال فى تراجم الرجال (القسم الثانى من كتابى : أسفى وما اليه)

لمحمد الكانونى

المطبعة العربية ـ الدار البيضاء

49 ـ دائرة المعارف الاسلامية

الترجمة العربية ـ القاهرة

50 ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر

لمحمد بن على بن مصباح المعروف بابن عسكر

طبعة حجرية

51 ـ ديوان أبى الحسن الششترى

تحقيق الدكتور على سامى النشار

الطبعة الاولى ـ الاسكندرية 1960

52 ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب (العدد السابع)

لعبد الله كنون

53 ـ الرحلـــــــة

لابن بطوطـــة

طبعة بـــاريس

54 ـ رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا

لاخوان الصفا

طبعة صادر ـ بيروت

55 ـ رسائل موحدية

نشر ليفى بروفنسال

56 ـ ركب الحاج المغربى

لمحمد المنونى

طبعة معهد مولاى الحسن ـ تطوان 1953

57 ـ رياض النفوس

لابى عبد الله المالكى ـ تحقيق د . حسين مؤنس ـ القاهرة1951

58 ـ الزجل فى الاندلس

للدكتور عبد العزيز الاهوانى

نشر معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1957

59 ـ السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

لمحمد بن عبد الله الموقت

المطبعة الحلبية ـ مصر ـ 1341

60 ـ سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر

لابن معصوم

طبعـــة مصر

61 ـ الشذرات (التقاط الفوائد وغرر العوائد)

لمحمد المرضي السناني

مطبعة بوشنتوف ـ الدار البيضاء

62 ـ صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر

لمحمد الصغير الافراني

طبعة حجرية

63 ـ الطقاطيق الشعبية

لبهيجة صدقي رشيد

نشر اللجنة الموسيقية العليا ـ سلسلة تراثنا الموسقيـــــــي

القاهرة .

64 ـ العربية دراسات في اللغة واللهجات والاساليب

ليوهان فوك **Johann Fück** ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

مطبعة دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1951

65 ـ في اللهجات العربية

للدكتور ابراهيم أنيس

الطبعة الثانية ـ لجنة البيان العربي ـ القاهرة 1952

66 ـ القاموس المحيط

للفيروزبادي

67 ـ قصة المـــوال

لميـــلاد واصف

القاهـــرة

68 ـ القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب
تصنيف نور الدين عبد القادر
المطبعة الثعالبية ـ الجزائر

69 ـ كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء
لادريس الادريسي
الطبعة الاولى ـ الرباط 1935

70 ـ كشف القناع عن آلات السماع
لابي علي الغوثي بن محمد الجزائري
مطبعة جوردان ـ الجزائر

71 ـ الكنز المكنون في الشعر الملحون
لقاضي محمد الجزائري
المطبعة الثعالبية ـ الجزائر 1928

72 ـ لحن العـــوام
لابي بكر محمد الزبيدي ـ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب
الطبعة الاولى ـ القاهرة 1964

73 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
لضياء الدين بن الاثير
طبعة الحلبي ـ مصر 1939

74 ـ المحاضرات
للحسن بن مسعود اليوسي
طبعة حجرية

75 ـ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن
لمحمد العربي بن أبي المحاسن الفاسي
طبعة حجرية

76 ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب
لعبد الواحد المراكشي ـ تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي
طبعة القاهرة

77 ـ المغرب في حلى المغرب

لابن سعيد تحقيق الدكتور شوقي ضيف

طبعة دار المعارف ـ القاهرة

78 ـ المقدمـــة

لابن خلدون

مطبعـة بـــولاق

79 ـ ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع

لمحمد المهدي بن أحمد بن علي بن أبي المحاسن الفاسي

طبعة حجرية

80 ـ المنـــاقـــب

لمحمد بن أحمد الحضيكي

الطبعة الاولى

81 ـ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهـــم

الوارثين وظهور المهدي وتاريخ الموحدين

لابن عبد الملك البرجي المعروف بابن صاحب الصلاة ـ تحقيق

عبد الهادي التازي

82 ـ نشر المثاني

لمحمد بن الطيب بن عبد السلام القادري

طبعة حجرية

83 ـ نقد النثر

لقدامة بن أبي جعفر ـ تحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد

العبـــادي

نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1938

84 ـ النهاية في غريب الحديث والاثر

للمبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الاثير

85 ـ نوبة الاصبهان

تنظيم Aracadio de larrea بمساعدة الفريد البستاني

نشر معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية ـ
تطوان 1956

86 ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج
لاحمد بابا التمبكتي
طبعة فاس 1317 هـ .

87 ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
لاحمد بن خلكان
طبعة القاهرة 1355

ب ـ الكتب الاجنبية :

88 A. BEL
La religion musulmane en Berbérie (étabissement et développement de l Islam en barberie).

89 E.F. Gautier
Les siècles obscurs du Maghreb

90 Fernando Valderrama Martinez
EL concionero de EL-HAIK
Instituto General Franco de estudios E investigation hispano-arabe Tétuan 1954.

91 H. de castries
Les gnomes du Medjdoub - Paris 1896.

92 Jean Léon Africain
Description de l'Afriqu :
Ed. CH. SCEFER - Paris

93 J. Scelles - Millie et B· Khalif.
Les quatrains de Medjdoub le sarcastique, poéte maghrébin du XVI S
G. P. Maisonneuve et Larose - Paris 1966.

94 Louis Brunot :
a- Sur le théme verbal F'al en dialectal marocain.
Mélanges W. Marcais - Paris 1950.

b. Introduction à l'arabe marocain. 95
G.P. Maisonneuve et Cie Paris 1950.

M. EL FASSI 96
Chants anciens des femmes de Fés
Editions Seghers - Paris 1967.

ج - المجـــلات :

97 — مجلة الاذاعة والتلفزة المغربية — العدد 12 السنة الثانية
يوليوز غشت 1966
(الملحون بين ماضيه وحاضره لاحمد سهوم)

98 — مجلة البحث العلمي — العدد الاول — السنة الاولى ، يناير —
أبريل 1964 (المغرب)
(الادب الشعبي المغربي الملحون لمحمد الفاسي)

99 — مجلة البحث العلمي — العدد الرابع والخامس — السنة الثانية،
يناير غشت 1965 .
(لغة الملحون لمحمد الفاسي).

100 — مجلـة البينة — السنـة الاولى — العـدد الرابع — غشت 1962
(المغـــرب)
(نظرة عن الادب الشعبي بالمغرب لمحمد الفاسي)

101 — مجلة تطوان — العدد الخامس 1960 (المغرب)
(من أدبنا الشعبي لعبد الله كنون)

102 — مجلة هسبرس (المغرب)

Héspéris TX 1950 Fas 1 (G.P.S. Colin : notes de dialectologie arabe)

103 — مجلة هسبرس

Hespéris 1938 1er trimestre (M. T. Buret : «Sidi quaddur EL-alami notes biographiques» dans : communications)

104 — مجلة الفنون الشعبيـة — العـدد الاول — السنـة الاولى —
القاهرة 1965

أ ـ (المأثورات الشعبية للدكتور عبد الحميد يونس)

ب ـ (الشعر الشعبي في تونس لمحمد المرزوقي)

105 ـ مجلة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد ـ العدد الخامس 1957

(الدكتور محمود مكي

Egipto y la historiographia arabico - espagnola

106 ـ مجلة معهد المخطوطات (جامعة الدول العربية ـ القاهرة)

المجلد الثالث 1957

(الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة

للدكتور عبد العزيز الاهواني) .

107 Annales de l'institut d'études orientales Faculté des lettres de l'université d'Alger T. 4 1938 - P 8

(مقال حول تعريب الشمال الافريقي لوليام مرسي)
W. Marçais)

مصادر النصوص الزجلية

أولا : المخطوطة (مجاميع وكنانيش)

أ ـ مجموعة الخزائن العامة :

1 ـ خزانة الرباط العامة :

108 ـ مجموع رقم 774 حرف د

109 ـ مجموع رقم 960 حرف د

110 ـ كناش رقم 1518 حرف د

111 ـ كناش رقم 1656 حرف د

112 ـ كناش رقم 2067 حرف د

113 ـ قصيدة رقم 1115 حرف د (الجمهور للعلمي)

114 ـ قصيدة رقم 1458 حرف د (دالية ابن رموية)

115 ـ قصيدة رقم 1480 حرف د (ذكر لعبد الورات)

116 ـ ديوان في الثناء على حمدون بن الحاج (روضة النيلوفر ثناء الناس عليه وبعض مناقبه التي هي أعطر من الادفر) : رقم

383 حرف د

117 ــ كنـاش رقم 108 حرف ج

118 ــ كنـاش رقم 595 حرف ج

119 ــكنـاش رقم 1644 حرف ك

120 ــ كنـاش رقم 3027 حرف ك

121 ــ كنـاش رقم 165 حرف ق

122 ــ قصيدة رقم 1017 حرف ق (الفياشية)

2 ــ مكتبة تطوان العامة :

123 ــ مجموع رقم 589

124 ــ مجموع رقم 866

3 ــ خزانة مراكش :

125 ــ قصيدة الكفيف الزرهوني في هزيمة أبي الحسن المريني بالقيروان في آخر مجموع رقم 184

4 ــ المكتبة الوطنية بمدريد :

126 ــ مجموع اشعار غير مرتب رقم 5307

5 ــ مكتبة دير الاسكوريال :

127 ــ مجموع رقم 523

ب ــ مجموعة الخزائن الخاصة :

1 ــ المكتبة الملكية بالرباط :

128 ــ مجموعة قصائد للمغراوي رقم 860

129 ــ كناشة عبد الله الشرقي رقم 5958

130 ــ كناش رقـــم 1502

131 ــ كناش رقـــم 2097

132 ــ كناش غير مرقم يضم قصائد لعبد الله الهبطي

2 ــ خزانة الاستاذ ادريس بن الماحي :

133 ــ كناش أغلب قصائده لعبد القادر العلمي (رمزنا له بـ : م 1)

134 ــ كناش يضم قصائد للتهامي المدغري (رمزنا له بـ : م 2)

3 ـ خزانة الاستاذ عبد السلام بن سودة :

135 ـ كناش (رمزنا له بـ : س)

4 ـ خزانة الفقيه محمد الهسكوري :

136 ـ كناش رمزنا له بـ : ه

5 ـ خزانة الشيخ الزجال مولاي احمد بن عبد السلام العلوي :

137 ـ ديوانه (رمزنا له بـ : ع)

ج ـ مجموعة الكاتب الخاصة :

138 ـ كناش رقم 1

139 ـ كناش رقم 2

140 ـ كناش رقم 3

141 ـ كناش رقم 4

142 ـ كناش رقم 5

143 ـ كناش رقم 6

144 ـ كناش رقم 7

145 ـ كناش رقم 8

146 ـ كناش رقم 9

147 ـ كناش رقم 10

148 ـ كناش رقم 11

149 ـ كناش رقم 12

150 ـ كناش رقم 13

151 ـ كناش رقم 14

152 ـ كناش رقم 15

153 ـ كناش رقم 16

154 ـ كناش رقم 17

155 ـ كناش رقم 18

156 كناش رقم 19

157 ـ كناش رقم 20

158 ـ كناش رقم 21

159 ـ كناش رقم 22

160 ـ كناش رقم 23

161 ـ كناش رقم 24

162 ـ كناش رقم 25

ثانيا : المطبوعة :

163 ـ ديوان الاخضر بن خلوف (الجزائرى)

164 ـ ديوان فائق ومجموع رائق للسلطان مولاى عبد الحفيظ العلوى طبعة حجرية

165 ـ ديوان محمد الحراق

أ ـ طبعة حجرية

ب ـ طبعة مكتبة المعارف بمكناس .

166 ـ كتاب نفح الازهار ووصف الانوار وأصوات الاطيار ونغم الاوتار .

Anthologie d'auteurs arabes

احتيار القال عبد الرحمان وبخوشه محمد

المطبعة المهدية ـ تطوان 1934

Sonneck - 167

chants arabes du Maghreb - 1885

A. Fischer - 168

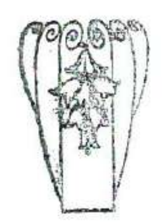
Das liederbuch eines marokkanischen Sangers (Leipzig 1918)

ثالثا : المشمدة : (انظر كذلك فهرس الاذاعة الملحق بالدليل)

169 ـ شريط تسجيل بأربعة وجوه رقم 19 (تسجيلات الكاتب الخاصة)

170 ـ شريط تسجيل بأربعة وجوه رقم 21 (تسجيلات الكاتب الخاصة)

الفهـــــرس



تنبيه واعتذار

نلفت نظر القارىء الكريم الى :

1 ـ أننا عمدنا الى كل الكلمات التي يستهل نطقها بسكون ، فبدأناها بحرف ألف حتى يسهل الاهتداء الى هذا النطق .

2 ـ أننا لم نتمكن في كل الرسالة من كتابة القاف التي تنطق جيما مغلقة كافا بثلاث نقط ، كما جرت العادة بذلك ، والسبب ان التصفيف تم في ثلاث آلات (اللينو) لم تكن تتوفر منها على الكاف المنقوط الا واحدة . كذلك حاولت الثانية تمييزه بكتابته بالاسود . اما الثالثة فلم تميزه وكتبته كافا مجرداً

ونعتذر له عن الاخطاء المطبعية التي قد يصادفها والتي حاولنا جهد الامكان تلافيها بالتصحيح اكثر من مرة . كما نعتذر عن بعض الهفوات التي حدثت عند الطبع النهائي ، والتي لاحظنا منها خلال المراجعة السريعة اثنتين :

1 ـ في صفحة 593 سطر 9 وقع خلط في عجز البيت ، وصوابه :
قبطات لكتاب اطواتو

2 ـ في صحفة 630 نسيت كتابة سطر ، محله بعد السطر الثاني وهو :
الله فنمت الى الصباح فوجدت الفار اكل سواد الصحيفة دون بياضها